روايـــة

نحو كهف الشجعان

بەرەو ئەشکەوتی دلێران

ثلاثية الكاتبة الروائية

گەلاوێـــژ صالح

ترجمة وتقديم

كمال حسين غمبار

طبعة ثانية منقحة

٢٠١٢

اسم الكتاب: ثلاثية (نحو كهف الشجعان)
التصنيف: رواية
المؤلفة: گەلاوێژ صالح
ترجمة وتقديم: كمال حسين غمبار
التنضيد والتصميم: سيد ئـارام
الغلاف: الفنان محمد زاده
عدد النسخ:
الطبعة: الثانية المنقحة
مطبعة:
رقم الايداع: ( ) لسنة (٢٠١٢)

الجزء الاول

إهـــداء

اقـدم روايـتي هـذه الى أُمهـات الپێشـمەرگه الـدامعات العيـون والخافقـات القلـوب دومـاً وهـن ينتظـرن بخـوف وقلق وامل أخبار انتصارات وسلامة ابنائهن المناضلين.

گەلاوێــژ

مقدمة المترجم

رواية (نحو كهف الشجعان) التي تقع في ثلاثة اجزاء تتصدى لمراحل تاريخية من كفاح شعب كوردستان، اختارت الكاتبة الروائية **گەلاویژ** صالح عقيلة الكاتب الروائي المعروف المبدع الاستاذ الخالد ابراهيم احمد عينتين من شرائح المجتمع الكردي متمثلتين في عائلتي كاكه حاجي والحاج مجيد حيث انهما اخوان قد تزوجا اختين، وقد خرج من صلب وارومة العائلتين ابناء وبنات مناضلون اباة دخلوا معترك الحياة السياسية العلنية والسرية والكفاح المسلح، وقد عانت العائلتان بجميع افرادهما جراء ذلك حياة القسوة والتشرد والغربة والاستلاب، واختيار المنفى اضطرارا دون ان تثبط الآلام وحياة البؤس والشقاء من ارادتهم وعزائمهم وتلين من عضدهم.

ولكون الكاتبة قد عايشت اجواء الرواية معايشة حقيقة سواء عن كثب او من خلال اطلاعها على مجريات الاحداث او سماعها فهي تعبر عن ماهية الرواية التي تتكون من عناصر ثلاثة هي: **(المضمون والشكل والصدقية)** كما كتب الكاتب الروسي الكبير تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠) في مذكراته وقال: **لو سألوني عن اهمها لقلت (الصدقية).**

من هذا المنطلق فان گەلاوێژ الروائية عبرت بصدق واصالة وامانة عما تدور في سياق الرواية، وهي بذلك تولي عناية كبيرة بالبيئة المحلية والخارجية، حيث ان البيئة تلعب دورا هاما وبارزا في الرواية، ويدخل ضمن البيئة المكان بمظاهره الطبيعية وصوره المادية المتباينة اضافة الى القيم المعنوية السائدة في المجتمع، اذ نرى ان البيئة التي صورتها الكاتبة بدقة وامانة تلعب دورها في تطور

الاحداث والمشاهد والحبكة وفي حياة شخوص الرواية وصراعهم التي تمليها عليهم. وكذلك لاننسى ان رسم الطبيعة الخلابة لقرى واریاف كردستان تمثل عنصرا قائمابذاته تلعب فيها الدور الاول في اسباغ الجو النفسي عند افراد المجموعة، وفي كنف البيئة تدور الاحداث التي تقوم على سلسلة متعاقبة تشد القارئ اليها لمتابعتها والوقوف على سريانها في الزمن الذي يعد ضابطا للفعل الدرامي، وبه يتم الحدث وعلى نبضاته وايقاعه يسجل الحدث وقائعه. من هنا فان الزمن يمثل عاملا فعالا في الرواية وخاصة بالنسبة للذين عاشوا الاحداث من خلاله حيث يمتلكون الاحساس بالزمن الذي يترك في نفوسهم شعورا يسري كالدم في عروق الرواية والاحساس بالمكان.

ان شخصيات الرواية الذين تدور حولهم الاحداث او بالاحرى الذين يحركون الاحداث شخصيات ثابتة الا ما ندر وشخصية كل انسان مشتقة من عناصر اساسية كونتها الظروف، فالكاتبة اما انها تصورهم من خلال الاوصاف التي تطلق عليهم او انها تتعمق في اغوارهم وتعرض جوانبهم الظاهرة والباطنة.

وحين ترسم معظم شخصيات الرواية كشخصيات مبدئية ثابتة تجد في ذلك فائدة كبيرة في نظرها والقارئ معا حيث انها قامت ببناء شخصية(علي) التي تخدم فكرتها طوال الرواية، وهي لاتحتاج الى تقديم وتفسير وتحليل وبيان.

والشخصية النامية كشخصية (بيستون) تتكيف شيئا فشيئا وتتطور مع تطور الرواية وأحداثها ويكون تطورها نتيجة تفاعلها المستمر مع هذه الحوادث او مع مايقتضي التزامها الحزبي من جهة ومع حبها الطاغي ل (روناك) من جهة اخرى.

ان الكاتبة تستخدم اساليب متنوعة لابراز شخصيات الرواية احيانا من خلال الوصف المقتضب لها، وحينا آخر تعمد الى الحوار بينها لكشفها من خلال الافكار والمفاهيم التي تطرح كالمعلمة السياسية الواقعية (صبرية) نموذجا.

ان كل شخصية من شخصيات الرواية تمتلك كيانها المستقل وهي حية في حركاتها وسكناتها، ويحس القارئ من ممارساتها حرارة وتدفق الحيوية، ويتعرف من خلال تصرفاتها على ما تتحلى

بها من خصائص خلقية وحقائق، فلا تتكلم الا باسلوب طبيعي يلائم نفسيتها، ولا تعمل الا حسب سير الاحداث وتطورها، والمنهج المرسوم والمخطط لها.

لجأت الروائية (گەلاوێژ) في معالجتها الفنية لصياغة روايتها الى طريقة السرد المباشر او الطريقة الملحمية التي يتغلب فيها التاريخ الظاهر لمجموعة شخصيات الرواية، فهي تتحدث احيانا على لسان البطلة او البطل، في حبكة متماسكة تقوم على حوادث مترابطة، تسير نحو خط مستقيم حتى تبلغ مستقرها. ان هذا الترابط الجدلي بين حلقات الحوادث والشخصيات يجعلنا ان نحس واقعية الحياة بنبضاتها، لا بشكلها الفوتوغرافي المسطح المباشر، انما يشعر القارئ الحياة التي تصورها لنا الكاتبة وما في الحياة نفسها من فوضى واضطراب وقلاقل ومستجدات غريبة طارئة في تتابع الاحداث وانعطافاتها.

ان حبكة رواية (نحو كهف الشجعان) في تقديم وتأخير الحوادث تنهض اساسا على الاهتمام بالتوقيت في سير الاحداث في بطء وحركة، والايقاع في التنويع والتفاوت في درجة الانفعال والتوتر شيئا فشيئا الى العقدة او الذروة ثم الخاتمة او الانحلال العقدة، كل ذلك يمنح التشويق ورغبة المتابعة للقارئ وذلك من خلال التركيز على الحوار الدائر بين شخوص الرواية، حيث يعد الحوار صورة من صور الاسلوب الروائي، سيما الحوار السلس المنساب المتضمن مصدرا من اهم مصادر المتعة في الرواية وبواسطته تتصل شخصيات الرواية بعضها ببعض اتصالا صريحا مباشرا، ويثار جدل متشدد احيانا من خلال الارهاص او التهيئة الذهنية كما عند **(حەپسەخان)** وهو ضروري في التشويق وربط القارئ بالرواية في ترابط احداثها ونتائجها وتتابعها، ويكون هذا الارهاص بالايحاء لها قبل حدوثه، كتجربة سابقة تبني عليها الشخصية ما تتوقع كهاجس داخلي، من هنا يأتي عنصر التشويق بشكل طبيعى غير اقحامي او متكلف.

ان الكاتبة في لجوئها الى اسلوب السرد والتفصيل، والحوار تبعث الحياة في المواقف وتكشف عن نفسيات شخوصها وما يدور في

خلدهم، وحوارهم بين معلن وخفي يدور داخل النفس على طريقة الحوارين الداخلي والخارجي، وقد تتسلل الصور وتتداعى الافكار في تيار دافق، وتستخدم الصور الاستطرادية، فتنتقل من الواقع الى الخيال، وترتفع من دقائق التفصيل في الصورة الى ظلالها الجانبية التي تلقي على الموقف كله كثيرا من المشاعر والاحاسيس والافكار التي تسمو بدورها الى حيز الجدل الذهني من خلال اثارة التساؤلات المشروعة ازاء الواقع المعاش ومستجداته.

فحين تحفل هذه الثلاثية بالشخوص، تغدو بطبيعة الحال رواية شخوص تاريخية ظهرت ونمت وتطورت على ارض الواقع، وقد وقعت تحت تاثيرات الاحداث وطبيعة التطورات لكنها بعيدة عن لغة الارقام والتواريخ بيد انها تعنى بالحوادث والمواقع التاريخية الشاخصة التي عاشوا فيها والتي دارت فيها المعارك بين فصائل الپێشمەرگە والقوات الحكومية، ولكن هذا الاهتمام بالشخوص يدل على ما فعلوا وبذلوا من غال ونفيس بالمال والنفوس من اجل الاهداف التي خاضوا معترك الحياة السياسية ايام العمل السري وفي اثناء الكفاح المسلح.

وتاريخية الرواية تتأتي ايضا من اعتماد الكاتبة على المعلومات التاريخية المعاشة والموثوقة، وذلك من نقل العادات والتقاليد والاعراف الاجتماعية في تلك المراحل والاحداث السياسية والاجتماعية التي تصدت لها الروائية بشكل موفق ودقيق، وهي ماتزال تحتفظ بواقعها وايقاعها الحي في اذهان الذين عاشوا احداثها وعرفوا الشخصيات التي تحركوا خلالها وتركوا بصماتهم الواضحة على سير الاحداث، والذين قلبوا ظهر المجن لأفكارهم ومبادئهم السابقة وخانوا رفاقهم ، وقد اخذوا يبحثون عن مصالحهم الشخصية .

في حين ان الشخوص الحقيقيين الثابتين لم يقعوا تحت طائلة احباطات غير مبررة رغم معاناتهم الشديدة . ولم يخيم عليهم القلق والاضطراب حدّ الخيبة والانهيار، بل واصلوا المسيرة . من هنا يمكن ان نعد هذه الرواية ضرباً من ضروب السيرة الذاتية المحبوكة حبكة فنية ، لكنها ليست رواية تعليمية تخص نشأة الكاتبة وافراد العائلتين وتفاعلهم مع التجارب المارة بهم ولو انها لا تخلو من هذا

الطابع لكنها تعد تصدياً لسلسلة من الصراع الثانوي بين جناحين ما كان من المفترض ان يصل الى الصراع التناحري ، وقد عمدت (گەلاوێژ) الروائية وركزت اساساً على الصراع الدرامي في تركيبة متسلسلة البنى والمراحل كحلقات مترابطة لا انفصام بينها تستمر في سياقها الزمكاني المشوب بالمشوقات التي تأخذ بيد القارئ الى متابعة الاجزاء الثلاثة بشغف ولهفة كونها تتسم بملامح قومية ووطنية وانسانية تتجسد بشكل ضمني من خلال انطباعات الكاتبة مباشرة عن الحياة بأن احداثاً وقعت بشكل أو بآخر على ارض الواقع او تخيلتها. ومن خلال الاحداث والاشخاص تلجأ بطريقة اشبه بتيار الوعي والفلاش باك الى استرجاع الحوادث التي مرت بها مدينتها والمناطق الاخرى التي عاشت فيها. واللجوء الى البناء الدرامي اخذ يتطور وينمو من خلال الأحداث والشخوص التي لها علاقة بالشكل الفني الذي يبرز الى الوجود عبر الامتزاج الناجح للعناصر التي استخدمتها الروائية في صياغة الموضوعات والأفكار التي طرحتها بحكم كون الرواية اكثر الانماط الادبية التي تتمتع بحرية وحركة اكثر من الانماط الاخرى . من هنا يقول أندريه جيد **(الشكل الافضل هو ذلك الذي يستغل موضوعه افضل استغلال ، فليس هناك تعريف آخر لمعنى الشكل في الرواية)** .

ان الأفكار تنكشف اثناء سير الاحداث والحوار والعلاقات المترابطة التي تمتلك خصائص درامية وهي بدورها تخلق الشخصيات وتحركهم . من هذا المنطلق فان اختيار الروائية لشخصيات روايتها ليس احصائيا وبشكل عشوائي او عفوي بقدر ما يعد اختياراً لنماذج وجدت على ارض الواقع بشكل فاعل وملموس وان كانت باسماء مستعارة أو متخيلة ، أو انها سوف تتواجد في صلب الواقع ، حيث يعبر كل نموذج من خلال ممارساته وسلوكه واقواله وطروحاته عن شخصيته كما اشرنا الى ذلك فيما سبق ، اضافة ان الكاتبة بقدر ما كشفت عن السطح الطبيعي لنماذجها وعيناتها الاّ انها انشغلت ايضاً بكشف طواياهم واطوارهم ونوازعهم.

صحيح ان (علي) بطل الرواية هو اكبر افراد المجموعة بما يمتلك من خبرة ودراية وبحكم مسؤوليته سياسيا وعسكريا يختار ان يكون بمستوى المسؤولية قائداً عسكريا وسياسيا صلباً ، لكنه يخضع للرأي الاجماعي ، وبهذا يحظى باهتمام واحترام وحب وطاعة الجميع ، من هذا المنظور ان الكاتبة هي ايضا تكون احد افراد العائلتين وليست كراوية فقط ، بل حضورها الفاعل في سياقها، وتضفي عليها شيئاً من افكارها وتطلعاتها، لذلك تتسم الرواية بملامح قومية ووطنية وانسانية تتجسد بشكل ضمني او علني تلك الملامح من خلال انطباعات الكاتبة مباشرة عن الحياة بحكم ان احداثها وقعت بشكل أو آخر على ارض الواقع سواء عايشتها عملياً أو سمعتها أو رأتها أو تخيلتها . **والخيال قوة رئيسة من قوى الطبيعة الانسانية كما يذهب اليه (باشلار).** والرواية الواقعية الممزوجة با لخيال لا تنقل الواقع كما هو بل تضفي عليه لمسات فنية من ابداع الكاتبة وقدرتها على الخلق والابتكار، وليست بالضرورة من الشخصيات المتحركة في فضاء الرواية . والتي خلقتها تكون مطابقة لمثيلاتها في الواقع الملموس ولكن قد تكون متقاربة مثل (شوكت آغا) كنموذج حي افرزه الواقع المشوب بالدجل والرياء والادعاء الفارغ والذي مهد لمثل ذلك الظهور هو الصراع العراقي الايراني اثناء حكم الشاه في اعقاب ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .

كما اشرت في البداية ان الكاتبة تتحلى بالصدق والصراحة والجرأة والمكاشفة في طروحاتها والمفاهيم التي وردت في سياق الرواية وباسلوب شفاف تأخذ الرواية طابعاً محلياً في تصوير البيئة والاوضاع الاجتماعية والسياسية والاحداث الدراماتيكية والشخوص التي تتحرك في فضاءاتها التي تأخذ مديات واسعة تخرج ولو بلمحات سريعة عن اطار كردستان الى آفاق عالمية ، لكنها تحتفظ بنكهتها المحلية ، وكلما اقتربت الرواية من المحلية والخصوصية القومية والوطنية اكتسبت العالمية ، ولهذا ليس غريباً ان عرضت على الكاتبة احدى شركات اخراج الافلام في بريطانيا تحويل الرواية الى فيلم سينمائي كونها تجربة قومية ووطنية وانسانية تمتلك الملامح الخاصة والعامة والهواجس الشخصية والهموم الذاتية والسياسية والاجتماعية

النابعــة مــن ضــمير الكاتبــة والمعبــرة بصــدق واصــالة والممتلكــة للمقومــات الفنيــة والــذخيرة اللغويــة والخــزين الثقــافي والمعايشــة المستمرة للتطورات ، كل ذلك يؤهلها ان تنهض بجدارة بمهمة كتابة هذه الرواية اضافة الى الثقة بالنفس والتصدي لمجريات الحياة في تقلباتها وسيرورتها.

واخيراً حين اكتب هذه السطور عن هذا المنجز، لابد لي ان اشيد باسلوب الكاتبة المشوقة بلغة شفافة منسابة وحس انساني مرهف وبتكنيك معبر عن تجربتها الاولى التي صبتها في ايقاع البناء الدرامي او الشكل الذي فرضته على عالم الاحداث والشخوص، وهذا إن دل على شيء فانما يدل على انها وفية لفنها الروائي، ومن لايكون وفياً لصناعة الرواية لن يكون وفياً لعصره من خلال المواد الاولية التي يقدم له ذلك العصر. ولهذا انجزت (گەلاوێژ) في ثلاثيتها عملاً روائياً صادقاً مع نفسها وروح العصر في اطاره الزماني يحملها خيالها ان تبتدع شخصيات ومشاهد غير حقيقية بحرفيتها وبلحمها ودمها، الاّ في صلب الرواية الواقعية التاريخية. كما ان ابداع الكاتبة يعود اساساً الى استعدادها لتطوير نفسها واهتماماتها الذاتية والظروف التي اتاحت لها ان تنمي قابليتها وتحديها للمعوقات التي تحكمت فيها الظروف السياسية دون استكمال تحصيلها الدراسي وقد عوضت عنه بجهدها الشخصي في أن تمتلك ناصية اللغة وتشحنها بطاقة كتابية فاعلة قادتها الى كتابة الرواية والقصة والترجمة وكتابة مذكراتها، كما ان علاقة الموروث الشعبي بالادب الروائي كما تبدو قوية حيث ان الكاتبة في بداية حياتها المبكرة فتحت عينيها على الاستماع الى الحكايات الشعبية التي شنفت أُذنيها، فأخذت تشغف بها، الامر الذي شكل في ذاكرتها خزيناً كبيراً من تلك الحكايات المروية مما دفعها الى كتابة الرواية وتحقيق النجاح فيها.

من هنا نلتمس في سياق الرواية ان انفعال الكاتبة في طروحاتها يرتبط بالوعي العميق لتناقضات الواقع من أجل تغييره وبنائه مجدداً بما يمليه عليها ضميرها الانساني المتفاعل مع الاحساس المرهف بآلام وأوجاع المجتمع، وقد ورثت هذه الحالة النفسية من صلب الجذور الاولى لعائلتها التي جبلت على الخير

والعطاء والتمرد على الواقع المر والتفاني من اجل خلاص شعبها من البؤس والفاقة والاضطهاد ومسح الهوية القومية. ولهذا نلاحظ بكل وضوح أثر وفاعلية المرأة الكردية في سياق الرواية، مادامت تصور الحياة تصويراً صادقاً تمليها العاطفة، ولاسبيل الى هذا التصوير الصادق اذا لم تشترك المرأة فيه بوحيها وبألمها وعملها الدؤوب المندمج مع العمل الحزبي وربط مصيرها بمصير الرجل. ولم يتصل هذا الوحي والالهام لتجد نفس الكاتبة ليدفعها الى حياة فنية جديدة كلما آلت قوة الرجل الى الفتور أو الضعف، ولانقصد بالعاطفة الغريزة الجنسية وحدها كعامل محرك لدور المرأة والتي لا تخلو منها الرواية، بل العواطف الصميمية من صلة الرحم والعواطف الوطنية والانسانية ايضاً.

ومن منطلق حرص الكاتبة على مصداقيتها وأمانتها فهي لا تتحزب ولا تتشيع الى اي جهة من الجناحين المتصارعين، بل تنحي باللائمة عليهما لتمسكهما الشديد بموقفهما وتصلبهما في الاستبداد بالرأي دون التحلي بالمرونة والعقلانية في حل الخلافات القائمة بينهما، على الرغم من ان جناح المكتب السياسي يعود ثانية الى الانضمام تحت قيادة البارزاني ولكن حدوث بعض الاشكالات يقف حائلاً دون تحقيق ما كانوا يبتغونه ثم فيما بعد يعود الوفاق والوئام بين الطرفين بعد صدور بيان الحادي عشر من آذار ١٩٧٠.

واخيراً تعد ثلاثية (نحو كهف الشجعان) في مقدمة اعمال الروائية **گەلاوێژ**، وهي تعد من انجح رواياتها ولو انها باكورة اعمالها، وهي رواية تاريخية اجتماعية سياسية بأدق معاني الكلمة، كونها تصور بيئة كردية، وغير كردية برجالها ونسائها واطفالها، بعاداتها وتقاليدها، بمواقف المناضلين والمناضلات في صراعهم ونزعاتهم وتناقضاتهم، وبسيادة التآلف والوفاق والمحبة والانسجام والحب الطاهر العفيف بين افراد العائلتين.

ان دراسة هذه الوشائج البيولوجية والسايكولوجية والسوسيولوجية بين افراد الاسرتين التي تربطهم روابط الدم والقرابة والمواقف المبدئية الثابتة، روابط .... كفيلة بالأشارة الى غياب المناخ النقدي في وسطنا الادبي الكردي، حيث ان الكاتبة قد نشرت احدى

عشرة رواية وقصتين للأحداث، ولكن لم يكن نصيب النقد جديراً بها، الاّ ما ندر، في حين انها تقف في مركز الصدارة من بين الكاتبات الكرديات اللاتي برزن اكثر منها وكتبت دراسات نقدية عن نتاجاتهن.

وهذه الحالة كما اتصور تعود بالدرجة الاولى الى ان باكورة اعمالها نشرت في السويد وبريطانيا عام ١٩٨٨، وحتى بعد الانتفاضة المجيدة عام ١٩٩١ لم تكن الظروف متاحة لنشر رواياتها والوصول الى ايدي القراء، اضافة الى اسباب اخرى لا أجد ضرورة لذكرها.

فها اني قرأت نصها الكردي مرتين، وبعد ترجمتها الى العربية ومراجعتها وتنضيدها قرأت النص العربي اثناء تصحيح التنضيد عدة مرات، الامر الذي يدعوني ان تكون قراءاتي قراءة نقدية تستدعي التحليل كونها قراءة استيعابية اصبحت على بينة من بلوغ فحواها. واكثر من ذلك اطلعت بشكل جيد على سيرة وحياة الكاتبة والظروف التي مرت بها منذ الطفولة الى الآن. ولهذا تمكنت من اكتشاف قابليتها في صياغة الرواية كعمل جيد يستحق الكتابة عنه، والاعتراف بجودته بحكم قراءتي الاستيعابية المتعددة وحسي النقدي، وتذوقي الشخصي، وانحيازي التام الى الموقف الحيادي للكاتبة انطلاقاً من مصداقيتها، وحرصها الشديد على نقل الاحداث والوقائع بشكل موضوعي كأمانة ادبية واخلاقية. وبهذا تقدم سجلاً أميناً للمراحل التي تصدت لها وتعاملت معها بوعي وادراك دون ان تحيدها عن المسار الذي اختارته لومة لائم أو صولة صائل، والقارئ المطلع والمعايش لتلك الاحداث والوقائع التي تناولتها الروائية مخير في تقييمه لهذا المنجز الادبي المترجم الى لغة الضاد.

كمال حسين غمبار

هه ولير: ٢٠٠٩/٥/٢٥

ايضاح عن (بەرەو ئەشكەوتى دلێران)
((نحو كهف الشجعان))

أيها القاريء الكريم

منذ مدة كنت اود ان اعيد طبع رواية ((نحو كهف الشجعان)) باجزائها الثلاثة، لكي يطلع عليها قراء كردستان الحبيبة.

لقد نشرت الطبعة الاولى في نهاية عام (١٩٨٨) في كل من السويد ولندن وكثير من البلدان الاوربية، ولكن كانت كوردستان الجميلة تعيش حينذاك ظروفاً استثنائية تحت سيطرة محتليها، ولذلك لم يكن بالأمكان ان تصل الى ايدي القراء، ولهذا يسعدني جداً الآن ان اضع بين ايديكم الطبعة الثانية، يحدوني الأمل ان تتوجه خيالاتكم وانظاركم الى الزمن الذي انبثقت منه هذه الرواية وتقوموا برحلة سياحية الى الجبال والكهوف الشامخة واماكن ومواقع الپێشمەرگه الأبطال التي غدت ملاذاً لهم.

أيها القراء الكرام

ان الطبعة الاولى من رواية نحو ((كهف الشجعان)) نضدها الاستاذ الخالد (والد هيرو) لي عام (١٩٨٦) على آلة طابعة بسيطة في تلك السنوات. على الرغم من ان قلبي لم يطاوعني ان اغير تلك الكتابة وتنضيدها. بأن تنضد على جهاز الكومبيوتر والمواد المتقدمة مجدداً، ولكن حين لحظت انها لاتخلو من النواقص وتتطلب في بعض المواقع ورؤوس الاسطر الدقة والاتقان، ولهذا عالجتها ورايت

من المستحسن ان تعاد كتابتها مجدداً وان يغدو تنضيدها ذكرى أنامله القيمة الماهرة مادمت حية وان اضع تلك الكتابة على عينيّ واحلم بها.

اعزائي، عزيزاتي:

حين بدات بكتابة نحو (كهف الشجعان)، استغرقت كتابتها اكثر من سنة ونصف، لذلك حين انهيتها ونشرت، انشغلت فترة من الزمن بهواتف تهنئة القراء، فاتصلت بي مؤسسة انكليزية وزاروني في البيت وقالوا اننا سمعنا خبر كتابك من (الدكتور كمال ميراوده‌لى) يقولون انه يشبه جبال ومرتفعات طبيعية غير مصطنعة، جئنا لكي نتباحث حول تحويله الى فيلم سينمائي، وبعد استراحة لحظت انني اتذكرهم كثيراً، كأهلي وأقاربي الاحبة جداً الذين ابتعدوا عني الى مكان غير معروف كدت اتضايق وينتابني القلق لهم، لذلك حين وصلتني رسالة التهنئة للشهيد السيد فاضل ملا محمود، الذي يقول فيها ((ان روايتك في نظري لم تستكمل بعد، فان القارئء ينتظر جزءاً آخر واجزاء اخرى)).

ولأنني أيدت فوراً هذا المطلب من الشهيد السيد فاضل وسررت به كثيراً ان اعود الى الاحباء الذين كنت اتذكرهم، حينئذ شرعت بكتابة الجزء الثاني، ولو انني تعبت كثيراً ولم تكن صحتي على مايرام، وخاصة عيني، اضافة الى شؤون ومهام البيت والاطفال والعائلة، ومع ذلك شرعت بكتابة الجزء الثاني ونشر في لندن واوربا، حيث يتناول حدوث النزاع في صفوف البارتي وبدء اقتتال الاخوة بين الجناحين، جناح المكتب السياسي، الذين كانوا مثقفين وتقدميين، والقسم الآخر الذي كان من الجناح العشائري، وبعد ذلك كتبت الجزء الثالث الذي يتناول انهاء ثورة كردستان في (١٩٧٥) وهو معد في لندن للطبع، وينشر بعون الله تعالى في كردستان كلا الجزئين، وان الشخوص في الاجزاء الثلاثة نفس الاشخاص والعوائل.

أيها القارئ العزيز:

يتضمن كل سطر من سطور هذه الرواية ذكرى عذبة لاتنسى لحبيب قلبي (والد هيرو)، وحين كنت اكتب صفحات من الرواية، ثم كنت اقرأها له لكي

اعرف رأيه عنها، كان يبدي احياناً رضاه عنها، ويعبر عن استحسانه لي، وكنت استحلفه واقول له والله تقول ذلك لأجل خاطري، بالله قل لي الحقيقة و(لاتخف)، وكان يضحك من قرارة نفسه ويقول: ان كتابة رواية على هذه الشاكلة ليست فيها مراعاة، لأنها تكون بين ايدي القراء والناس الواعين والمثقفين، كيف اقول عبثاً واعتباطاً بأنها جيدة! وحين كان يقول ذلك كنت اطمئن.

هنا أود ان اقدم شكري الحار كثيراً الى الأخ العزيز والمحترم السيد رسول هاوار، لأنه تجشم معي المتاعب وقرأ الرواية وراجعها، وصحح كتابتها الكردية، لأن كتابتي الكردية لم تكن على مايرام، ولكن أتصور الآن وبعد كتابة عشر روايات فان كتابتي الكردية لابأس بها.

وأخيراً اشكركم جزيل الشكر لآنني ورطتكم في هذا الايضاح الطويل المفصل.

گەلاوێژ

السليمانية

٢٠٠٠/٩/٨

المقدمـــة

ايها القارئ الكريم:

ان التشرد والغربة والبعد عن الوطن والشوق والحنين لرؤية اهلي واقاربي ومعارفي جعلني ان اكتب هذه الرواية لكي اعود على الاقل الى تلك الجبال الجميلة الخلابة والناس الأحباء.

كتبت الرواية بلسان الاشخاص الذين ذكرت اسماءهم وتحدثت عنهم، وان لم اكن مضطرة لم استخدم الألفاظ والكلمات الجديدة، لانني اريد ان يكون في نظري هكذا بل لأنني في الحقيقة احبذ مثل تلك الكتابة والاقوال، تلك الكتابات والاقوال التي تفهمها خەجى وفاته وعەول وقاله وآسكوّل بشكل جيد.

اضافة الى هذا فان هذه الرواية لاعلاقة لها بأي شكل من الاشكال بأي شخص يشبه اسمه اسم شخص ماجرى تناوله، وان الاسماء المتشابهة هي فقط صدفة لاشيء آخر.

لأن اشخاص واحداث هذه الرواية خيالية، وقد نبعت من خيال تلك المنطقة التي عشت فيها مدة من الزمن، وحتى أنها لاتمت بي البتة، وقد استمدت من ظروف وأوضاع حياة ذلك العهد لشعبنا، ولهذا ارجو الاّ يتصور أحد ان اشخاص الملحمة اناس حقيقيون، ليست هذه وحدها إنما لم ابال ايضاً ان اتناول المعارك والحقائق من ناحية الزمن أو المكان أو طبيعة حدوثها تماماً كأن تكون كما حدثت. لأنني اردت أن اكتب الرواية لا تاريخ الثورة، أو مذكراتي، لذلك اطلب المعذرة.

واخيراً يحدوني الأمل أن تنال الرواية رضاكم وتعودوا على جناح الخيال الى مدن وجبال وكهوف كردستان الحبيبة وتزوروا الپێشمەرگە الشجعان.

گەلاوێژ

لندن: ١٩٨٦/٢/٢

EQUAL MEDIA Ltd.

Riverside Studios
Crisp Road
London W6 9RL
Tel: 01-748 9380
Telex: 8951182 GECOMS G

17 January 1989

Galawez Ahmad
30 Machmont road
Wallington
Surrey

Ref: PTN/R&D/Kurd

Dear Galawez Ahmad

Dr. Kamal Rasul, of the Kurdish Cultural Centre, spoke to me about you and your writing. I would be very interested to meet you, and to learn more about your book. We have very good connections with Virago, who have already expressed interest in such a book.

We are also interested in the possibility of a film for television, either documentary or drama. We are a programming and production company that specialises in working with people and stories from Asia, Africa, Latin America and the Middle East. Please find enclosed information about our activities.

I understand that your book has not yet been translated, but I am writing to ask whether you have a synopsis or sample chapter in English yet? In any case, if you are interested, please get in touch so that we might meet.

With best wishes

Sarah Hodson

اختي الكبيرة والمحترمة گەلاوێژخان

بعد تقديم التحية

قرأت نحو (الكهف الشجعان)، بدقة وامعان، قرأتها سطراً فسطرا الى نهاية القصة (انها رواية– المترجم) وعشت معها، تذكرت مرة اخرى ذكريات جزء من طفولتي وعهد شبابي، ذكريات عهد هام من تاريخ شعبنا، حيث (نحو كهف الشجعان) التي صورتها بشكل جميل ومن منظور حديث، اظُن ان كل الناس أنفسهم او عوائلهم مارسوا في ذلك العهد العمل السياسي يشهدون على دقة وامعان ونجاح كاتبة القصة، فان الذي جلب ((انتباهي اكثر، كان دور النساء، النساء البسيطات كوالدتي وخالة وبنات خالة.. انعكاس الاحداث السياسية في الحياة العائلية والعلاقات الانسانية، ونمو الوعي السياسي للشيوخ والشباب والاطفال في ذلك العهد، ياربي سلمت يداك ودام قلمك، يحدوني الأمل ان تكون هذه بداية نتاجاتك المنشورة! في نظري ان القصة لم تستكمل بعد فالقارىء ينتظر جزءاً آخر او اجزاءها الاخرى.

لقد عنّت لي بعض الملاحظات والاسئلة عن القصة سوف اعرضها عليكن بشكل عام في فرصة اخرى، وقد كانت لي مبعث كثير من السرور، ولم اقرأ شيئاً من هذا القبيل منذ مدة ان اعيش معه قلباً وروحاً، وحين أخفى عنا استاذنا الكبير (يقصد به الاستاذ ابراهيم احمد– المترجم) بجنبه جوهرة اخرى، فانك المحترمة تسجلين بمثل هذه الدقة والاسلوب الادبي الرصين والمحلي الاحداث السياسية وانعكاسات المجتمع، اهنئك مرة اخرى ارجو لك مواصلة المشوار والتوفيق.

مع الاحترام والتقدير الاخوي

مخلصكن

فاضل ملا محمود

نحو كهف الشجعان
كتاب باللغة الكردية، بقلم گەلاوێژ

طبع في مطبعة جمال طاهر بالحروف العربية، يقع في (٤٠٤) صفحة.

نحو كهف الشجعان يتناول الاحداث التي وقعت في بدايات عام (١٩٦٠) في كردستان العراق.

سقط الحكم الهاشمي عام (١٩٥٨)، واصبح العراق جمهورياً لقد ساهم الكرد بنشاط في ذلك التحول.. وقد علقوا آمالاً كثيرة على تطوير الديمقراطية في العراق وتحقيق حقوقهم والحكم الجديد.

بعد (٢-٣) سنوات تراجعت الجمهورية الجديدة للعراق عن جميع الوعود التي تعهدت بها للشعب الكردي، لذلك بدأ الكرد بتنظيم حركة قوية للمقاومة. ان الكتاب يتناول ولادة تلك الحركة، ان الكاتبة تسبر اغوار الاحداث والوقائع بشكل عبقري وكذلك افكار ومشاعر جماهير الناس، ويكون من خلال تناول حياة عائلة كردية التي عاشت في وسط السنة الاولى من تلك الحركة المقاومة.

وكذلك توضح بأن الشعور القومي وهوية الانسان الكردي يلعب أي دور في المجتمع مع ان الرجل مايزال يلعب الدور الرئيس في المجتمع وفي الوقت نفسه تساهم الشابات المثقفات بنشاط في الحركة القومية..

ان نحو كهف الشجعان رواية تجلب النظر وهي عظيمة تماماً، مفعمة بالاحداث والوقائع والسيرة الذاتية بحيث انها تجلب نظر القارئ الاّ يتخلى عن قراءتها حتى يصل الى الخاتمة، ومن حيث صياغة لغتها غنية وفصيحة جداً،

وحول الرواية من ناحية المضمون والطريقة وثقلها الادبي، يعد الكتاب احد الكتب القيمة والفن الرفيع، أغنى المكتبة الكردية واللغة الكردية اكثر.

محمد مهتدي

ترجمة الكتابة السويدية حول نحو كهف الشجعان

ستوكهولم ١٩٨٦

(١)

تلمست العباءة فوضعتها على رأسها، وهجمت غاضبة على جعبتها ولبست خفها، وخرجت دون أن تنبس ببت شفة وتودع احداً وسحبت الباب بقوة، مشت خطوات ووقفت هنيهة، فوضعت عباءتها على رأسها بشكل جيد والتقطت الجعبة سالكة الدرب، ولكن لفرط غضبها كان جسمها كله يغلي ويفور.

عبرت الزقاق ووصلت الى الشارع فنظرت الى يمنة ويسرة طرفها، ثم عبرت الى اقصى الشارع وقالت: من الأفضل ان ابدأ بالتوزيع من محلتنا..

آه ماذا افعل؟ حقاً لم تبق في قلوب هؤلاء الناس رحمة، لايشفقون على أحد، ياترى أهذه اخت! أتكون الأخت هكذا، بهذا الصيف القائظ وبهذا الظهر ملأت لي هذا الكيس بالنشرات وتقول لي هيا يا روناك إذهبي وزعيها. ماذا فان الهانم جعلت من نفسها شيئاً وكبرّت نفسها، انها انضمت الى الحزب بالله عليكم قد يحتمل الآن ان يراني شرطي او رجل من الأمن ألاّ يقول تعالي ايتها الصبية ماهذا الكيس الضخم الذي تحملينه؟! فلتكن هذه المرة ايضاً.. ولكن مرة اخرى مهما حاولت أن احمل لها لايهمني ماتريد.

كانت روناك تدندن مع نفسها وتقول في نفسها هذه الأقوال، وصلت بيت احد الاشخاص الذين لقنتها اختها صبرية مقدماً عنوانه لكي تسلمه النشرة.

طرقت الباب ووقفت هنيهة، لم يأت احد فأعادت الطرق هذه المرة بقوة اكثر، لم تسمع الصوت ولم يأت أحد ليفتح لها الباب، فقالت اذن فهم نائمون، يركن الجميع الى الراحة فهم ليسوا مثلي! تصورنا صبريه خان اشجاراً واحجاراً. صدقوا ماقالوا ((**ان يكون الانسان كلباً لايكون الأخ والأخت الصغيرة**).

اثناء هذه الاقوال طرق سمعها صوت نزول احد من الطابق العلوي للبناية الذي لم يكن بعيدا كثيرا عن باب باحة الدار، فتح الباب، جاءت العمة فهيمة بأنة

وأف ووايلاه ركبتي وابتاه لن اقدر الوقوف على قدمي فقالت: حبيبتي روناك خيراً جئت بهذا اليوم القائظ؟!

دخلت روناك البيت وقد سدت الباب بمرفقها وفتحت الجعبة واخرجت رزمتين سميكتين كل منهما كانت بقدر كتاب وقد جرى لفهما بورق اسمر وقالت: عمتي فهيمة بالله كنت من بيت اخي كاكه علي، وكان في عجل من امره أتى بي الى رأس الزقاق وذهب هو وأنا جلبت هذين الكتابين لـ (دله خان) وكانا عند اختي صبريه خان، ولكن بالله عليك لاتعطيهما لأحد، احفظيهما لها في مكان أمين، لأنه كما اتصور احدهما كتاب ديني كتب فيه اسماء الله والرسول، فداها روحي لهما .

تسلمت العمة فهيمة منها كمن تمس شيئاً مقدساً مباركاً وقبلته، ثم الصقته هنيهة بقلبها وقالت: روحي فدى لاسميهما، سأذهب حالاً فأضعه في مكان جد جيد ومكين الى ان تعود دله

الروح، فلتمت امها لااعرف أين ذهبت هي ايضاً بهذا الحر، وقالت ((ان لي شغلاً في بيت احدى صديقاتي، ومن هناك تذهبان معاً الى السوق)) يقال ان قماشاً جميلاً جداً قد ورد تشتريان منه مايكفي ثوبين! قالت روناك: حسناً فاستودعك انا، لئلا اتاخر، تنتظرني والدتي الآن، اعادت الخالة فهيمة اغلاق الباب، وروناك شدت الجعبة باحكام فأخذت تغذ السير وبعد أن خرجت من زقاق بيت فهيمة خان الذي لم يكن بعيداً عن الشارع هيأت مرة أخرى نفسها جيداً وسارت، ندت على شفتيها ابتسامة وقالت: الا تكفينا هذه الحمالية، تعال جد كل هذه الاكاذيب والحجج والاعذار لكل واحد.. ان دماغنا دفتر فليكن هذا اليوم ايضاً كما كان، عهداً عليّ لو ضغطت عليّ مرة اخرى لقلت لوالدي و كاكه علي، ولكن أبي مسكين ماذا يقول، بالله انه لايقوى عليها، أ أكثر من هذه حتى لو تميز غضباً وانتابه الخفقان لايجدي نفعاً، انه مصاب بمرض القلب، ان مرضه هذا يقيدني ان أقف مكتوفة اليدين، والاّ لم اكن أقبل منها هذا! كما ان والدتي ايضاً تقف الى جانبها وتقول: ((**لاتفعل صبرية عملاً سيئاً، تعدها من كبرى عاقلات الدنيا**)).

مرة اخرى عاد فكرها الى مهمتها وقالت.. من الافضل ان أذهب من هذا الزقاق فانه اقرب ايضاً نحو (**اصحابه سپى**)، اشعر بعطش كثير، وفي طريقي اذهب الى بيت خالة آمه خان اشرب ماءا بارداً، لم تقل هذه الكافرة هاك هذا المبلغ ربما تعطشين في هذا الحر تشربين به صودا، سيفون، حقيقة ان هذه البنت لاوجدان لها، وانا ايضاً كنت لشدة عطشي نسيت المحفظة.

انحدرت نحو داخل الزقاق لم يلبث طويلاً وصلت الى حيث عتبة بيت خالتها آمه خان، وكان الباب مفتوحاً سدل عليه الستار، فدخلت بمرفقيها، وقد تصبب كل جسمها عرقاً واحمر وجهها وتخدرت يداها، وغدت رجلاها وخفاها كلها تراباً، دخلت البيت فنظرت ورأت أنهم جالسون في الطابق الأرضي،.. ان خالة منشغلة بالشاي وان ابنتها نەسرين في يدها مجلة واباها الحاج أسند مرفقه الى مخدة ذات ارياش كبيرة جداً من الاسطوانات القديمة، وحين رأوا روناك انتفضوا جميعاً.

توجهت خالتها نحوها بسرعة وقالت بلهجة: آواه حياتي روناك ماذا دهاك جئت بهذا الحر؟ انشاءالله خيراً، ما بيدك؟ ضعيه، اذهبي الى الحنفية وصبي حفنة من الماء على وجهك، هلمي اسرعي، فلا يمت امك. لماذا اصبحت هكذا؟

تقدمت روناك نحو الحنفية وقد غسلت تماماً وجهها ورجليها وساعديها، وشربت بكفيها قليلاً من الماء وبللت رأسها أيضاً، فسح كاكه حاجي المجال لها بلهفة وقال: تعالي بنتي العزيزة، تعالي الى طرفي، فالقت **نەسرين** المجلة في الحال وجاءت اليها وطوقت جيدها بذراعيها، وذهبت أمها جلبت لها قدحاً من الشنينة الباردة، وهي بدورها شربتها بجرعتين، ثم قربت عباءتها وجعبتها من نفسها، وركنت الى استراحة جيدة

التفت كاكه الحاج الى آمه خان قائلاً: يبدو ان هذه الوضعية من شيمة **صبرية خان** اذ ارسلت هذه الطفلة الى الأزقة، قالت آمه خان: ماذا اقول.. والله منذ عشرة ايام لم أزر بيتهم،

حقيقة ان هذه الفتاة كدرت الجو، لايتمكن أحد ان يفتح فمه وينصحها. قال كاكه حاجى: ويحاً لك اي نصيحة انها تصور امثالنا فاقدي العقل ومتخلفين! قالت **آمه خان**، لايقتلني احد غير اختي التي اصبحت مثلها وتقف بجانبها، لقد

هزّ حاجي رأسه قائلاً، وان اخي حاجي مجيد ايضاً غدا خرقة بالية لايتجسر أن يقول شيئاً، فان صبرية خان وامها تبتلعانه بالمرة.

قالت روناك: لاتضجر نفسك ياعمي العزيز انا اعرف ماذا أفعل هذه المرة، قالت الخالة: قولي لها فلتاخذها هي وتقوم باشغالها وما يخصها بنفسها.

نظر كاكه حاجي الى ساعته وقال: علي ان اهيء نفسي ايضاً، لانه لابد أن اذهب الى الجامع لكي الحق بصلاة العصر، نهض واقفاً ومد يده الى طاقيته وجامانته سالكاً الطريق

كان **كاكه حاجي** يبلغ (٦٥) عاماً وكان رجلاً طويل القامة حنطي اللون قليل النحافة، كان رجلاً محترماً كاسباً يكسب رزق عياله، يمتلك دكاناً صغيراً في قيصرية النقيب يبيع الاقمشة، لأنه كان اميناً جداً بعيداً عن الغش والاحتيال، وكان جميع اهالي الريف وغير العارفين يتوجهون اليه، لذلك كان معظم زبائنه من اهالي الريف.

* * *

كان لكاكه حاجي ولدان: **نەورۆز وبەختيار** يدرسان في المتوسطة والثانوية، وغدت ابنته نەسرين معلمة حديثاً، كانت فتاة وقورة هادئة خفيفة الروح، جميلة الشعر والوجه، كانت رشيقة مديدة القامة كوالدها، وكانت لدة بنت عمها، لكنها كانت تحسدها في قلبها حين تذكر كثيراً، يقولون انها مضيافة دائماً وتجتمع بها الكثيرات وتذهب الى الاجتماعات والجلسات الحزبية بكثرة، تكاد يذاع صيتها، وكانت تقول في كثير من الاحيان ((والله اني لا استطيع ان

أكون مثلها واجاريها، ان فمها كماكنة، تتدخل في كل شيء ولاتتخلى عن شيء ولوكان باطلاً مالم تفرض رأيها على الآخرين. اذن كيف أقدر أنا ان اقطف من خلفها الورود فقط)).

ولذلك حين كان يعرض كل مرة ذكر صبرية، كانت تعاتب حالها وتقول في سرها ((**ان المساكين والهادئين يكونون في هذا الزمان مسلوبي الحقوق**)) كانت

تحسدها تماماً، ولكن لم تكن تذكر صبرية عند أحد، وكانت تقول لنفسها انت مسؤولة عنها جميعاً، نشطي نفسك قليلاً وتهيئي ستعرفين كيف تشتهرين احسن منها.

***

ركنت روناك قليلاً الى الاستراحة وشربت شاياً ثم قالت: علي ان اعود، قالت خالتها: ابنتي العزيزة اجلسي قدراً آخر، ليخف تعبك، قالت روناك: لا ياخالتي الحبيبة يكفي ماتمتعت به، هو الجو أوشك ان يبرد، قامت وهيأت نفسها والتقطت الجعبة، ذهبت نەسرين وامها معها الى حيث عتبة الباب فودعتاها وسارت.. قالت آمه خان: والله لوكانت صبرية هذه على شيء من الجمال لكانت تأكلنا جميعاً، ولكن الله رحم بنا فلم يمنحها الجمال علقت نەسرين قائلة: لكن لاتنسي يا امي ما أحلاها لها قامة مديدة وشعر جميل. قالت أمها: ماشأن الناس بالشعر انتن تمتلكن شعراً جميلاً طائفياً على سيرة ام والدكن غفرالله لها، كان شعرها ذا شهرة، لم ترتح نەسرين في قلبها كثيراً حين كانت تصف والدتها صبرية بهذا الشكل، ولكن كانت رزنة ماكانت تعبر عن شيء مثل هذا القبيل.

***

(٢)

توجهت روناك نحو اصحابه سپى، للبيت الذي شخصته لها. وقفت على عتبة الباب ضربتها بقبضتها، تناهى الى أذنها في الحال صوت فتى قائلاً: حسناً حسنا فها جئت، جاء راكضاً وفتح الباب قائلاً: أوه أنت روناك خان، مرحباً بك كثيراً، تفضلي ادخلي، كشيء كأن الفتى لم يعرف بأن الآن سيأتيه شيء من هذا القبيل، وما ان اغلق الفتى الباب حتى وان اخرجت روناك ثلاث لفات وقالت: كاكه بيستون دونك هذه الكتب جلبتها لك، اعادت شد الجعبة وارادت أن تخرج، فقال لها بيستون، تعالي استريحي هنيهة واشربي بارداً. قالت روناك: لا يا كاكه اني على عجل من امري لابد من الذهاب، شكراً جزيلاً، لي شغل، فخرجت، نظرت الى ما حولها بارتباك وقالت: بالله عليكم الاّ يحق لي ان اقتل نفسي، ان شاءالله يهجم علي احد من هؤلاء الفتيان وينتهكون شرفي! ربما رآني الآن احد المعارف، ألا يقول ماذا تفعلين في بيت هؤلاء الفتيان الثلاثة العزاب؟!

***

كان الجو يميل الى الاعتدال، والناس في ذهاب وإياب، تكاد المقاهي وعتبات دور السينما تزدحم، وكان بعض الناس يرشون بالماء عتبات وباحات بيوتهم، وقد خف حمل روناك قليلاً، ولكن مازالت في جعبتها حصة بيتين آخرين، فكرت فيها مرة اخرى وقالت: يا الهي.. اذا ماعدت يحدث ثانية الخصام والفوضى والمشاجرة فتصل فردات الخف والقبقاب الى بيوت الجيران، هذا كله غير ذي بال، ولكن كيف اصل الآن الى (مەلکەندی)؟ كاليوم الذي هجم علي الكلب كدت أن ارمي الجعبة وما فيها خوفاً، وحين ذكرت ما حلّ بي، قالت باجي صبرية لا اهمية لذلك لآنك طفلة لايشك فيك احد، لقد جعلتني بلسانها ان اصل الى بغداد وكادت تجعلني طبيبة وتلبسني زي الطبيب، وحين قلت لها أما تتركيني أن

افتح الكتب وحدها، فمنذ سنتين وأنا ارسب في الصف السادس، لافائدة منه بعد، وكان كل الناس يعرفون ولهم خبرة بلسان باجي صبرية، فلأ ذهب ومن الافضل توزيعها لآنجو بجلدي، ولكن اذا ما جئت مرة اخرى لهذا العمل فليقتلنى الله.

جاءت الى الشارع وعبرت وتوجهت الى (پيرمەسور)، سمعت فجأة صوت امرأة تناديها، اين تذهبين عزيزتي روناك؟ كدت أن أرسل حمه الى عند والدتك ليقول لها سأتي اليكن يوم الجمعة مساء لأخبز لكن في الصباح الباكر، فقالت روناك بشيء من الاندهاش: أو انت يا باجي پيرۆز، كيف حالك.. صحتك جيدة؟ قالت باجي پيرۆز فداك روحي بنيتي، حظاً سعيداً: الى اين تذهبين. قالت روناك: اذهب الى ذلك البيت من معارفنا، وهي قالت: يبدو ان بيتهم من هذه المحلة. قالت روناك: اجل ها هوذا من ذلك العلو. باجي پيرۆز: حسناً في أمان الله، ولكن لاتنسي قولي لأمك. روناك على العين لانسى. حثت باجي پيرۆز خطوات وعادت قائلة: عزيزتي روناك فداك روحي احذري فاذا ما رأيت ازدحاماً او شيئاً من هذا القبيل لاتخافي اذا شئت ارافقك، قالت روناك بلهفة اي ازدحام؟ ماذا حدث لاسمح الله يا باجي پيرۆز: لاتخافي انت يا حبيبتي، مساكين بيت جيرانكم الحاج كريم، فمنذ الظهر تقاطرت عليهم الشرطة والمعاونون والسيارات المسلحة. شحب لون روناك وسرت في جسمها رعشة باردة، ويبست شفتاها قالت باضطراب: يالهم من مساكين الا تعرفين لماذا؟

-باجي پيرۆز فداك روحي لاتخافي انت لاشيء مايذكر، انهم بعيدون عنا وما شأننا بهم. كاد يتوقف قلب روناك عن الخفقان. فقالت حسناً قولي لماذا فعلوا بهم هكذا؟

-باجي پيرۆز: حبيبتي نقلوا عنه خبراً بورود الاموال المهربة اليه، تنفست روناك الصعداء وقالت بالله عليك؟ والله انه لشيء عجيب، واخيراً تلجلج لسانها، فما كانت تعرف تماماً ماذا تقول، ثم قالت حسناً باجي پيرۆز فأنا اعود الى البيت فلن اذهب الى بيت معارفنا لاطاقة لي من الشرطة واشباههم.

-باجى پيرۆز: أجل والله فداك روحي بنيتي العزيزة فمن الاحسن ان تذهبي الى بيتك. عادت روناك الى البيت، ولكن مهما حاولت لم تعد الى حالتها الطبيعية

لفرط ما أوجست خوفاً من أقوال باجي پيروّز. وما ان وصلت بداية زقاقهن حتى وان اطلقت سيقانها للريح وطرقت الباب بعجل، فتحت لها صبرية الباب. تقدمت منها بوجه بشوش وقالت: أو أنت يا روناك، طوبى لك ايتها الفتاة الطيبة، كان شيئاً جيداً اذعدت مبكراً تعالي هلمي الى الغرفة.

دخلت روناك الغرفة بصمت وهم وملالة فنظرت ورأت المكنسة والسطل والصوندة منتشرة هناك وقد رش جانب من الباحة وتحت شجرة الرمان والتوت، كأن باجي صبرية كانت منكبة على تنظيف البيت والكنس! قالت صبرية ضاحكة: هيا ايتها البنت الطيبة إحكي لي لأعرف بأي خداع خدعتهم هذه المرة، وكيف نجوت بنفسك؟ قالت روناك: لندخل الغرفة آنئذك سأقص لك، قالت هذا ووضعت عباءتها، مازال لونها شاحباً. وقعت عينا صبرية بغتة على الجعبة التي مازالت فيها الاشياء، تحسستها بارتباك وغضب وقالت: مرحى! ماهذه؟ مكسورة الرقبة وقد مضت اربع ساعات فاين كنت؟ روناك: تمهلي لأحكي لك. صبرية: تفضلي احكي. ياربى فليتهرأ جسمك.

فالله وحده اسبغ علي رحمته ولم يعتقلوني، كانت الشرطة تفتش البيوت في پيرمەسور والناس كانوا يبتعدون خوفاً منهم لأنهم اعتقلوا عددا من عابري السبيل، وقد طاردني شرطي واعتقلني ولكن من حسن حظي رآني كاكه عەبه آنذاك فأعانني وغضب من الشرطي حيث كان معهم، وقال له: ماذا دهاك من طفلة هكذا. جحظت عينا صبرية وقالت: في الحقيقة اسعفنا الحظ وكان الله في عوننا فاغدق علينا رحمته الواسعة وقد تخلصنا من مصيبة كبيرة. تراخت قليلاً، تغير لونها فكفت عن الحركة الكثيرة دون جدوى. بعد قليل سألت: حسناً ألم تعرفي بيت اي شخص كانوا يفتشونه وعما يبحثون؟ روناك: والله باجي صبرية كنت في هم فقط من الكيس، كنت اخاف ان ينتزعوه مني، ولذلك لم يكن بالي عند اي شيء آخر، من پيرمەسور الى ان وصلت هنا لكثرة توقفي وجر النفس والجلوس استغرقت المدة حوالي ساعتين، لقد ارتبكت صبرية تماماً فتحسست الكيس لتذهب به لاخفائه، ولكن سرعان ما تراجعت وعادت فأنزلت ثوبها وكميها الطويلين ووضعت العباءة على رأسها وقالت: روناك انا اذهب الى

بيت جيراننا كاك عثمان، حملت الجعبة أيضاً، واخرجت بعض الأوراق والظروف فادخلتها في الجعبة واخذتها وراحت.

حين وجدت روناك ان ليس ثمة احد في الغرف ذهبت الى الباحة ونادت: امي، امي العزيزة، لم تحس بأي صوت! قالت مع نفسها: ولوا عني، فأنتن وحدكن تتمتعن بالملذات وقضاء الوقت في المسرات وانا المسكينة كالكلب الشارد أصبحت لعبة بأيديكم وانت **صبرية خان** ولّي عني هذا جزاؤك! ندت على شفتيها بسمة وقالت: آه من هذه الشجاعة الفوضوية لبوة الميدان كيف اوشكت ان يغمى عليها من فرط رعبها وخوفها! جلست قليلاً ثم تذكرت فجأة بأن باجى پيرۆز تأتي لاختباز الخبز قالت في نفسها: عسى الاّ تقص لهن، فهي ايضاً ثرثارة تخلق الحكايات من لاشيء ماذا يكون موقفي بأنها رأ تني ونصحتني ان اعود الى البيت، والله لاتكف عن تكرارها طيلة شهر تستمر في حكايتها. ومهما يكن قبل ان تفتح فمها وتقولها لصبرية، سأصل اليها فأقول لها الاّ تتحدث عنها.

كانت روناك في غمرة هذه الاخبار والخيالات، سمعت صرير الباب، ذهبت وفتحته، كان **كاك اسماعيل** السائق حاملاً سلة من الفواكه فقال لها: روناك خان كاك حسين أرسل لكم هذه السلة ويقول اعود يوم السبت بنفسي، يكاد شغلي يخف، قالت روناك بفرح: كاكه اسماعيل: الله بالخير، منذ مدة غبت عنا، تفضل ادخل، وقال هو: اشكرك ولكن لابد ان أذهب لانني اوقفت سيارة الباص امام الزقاق وفيها الركاب علي ايصالهم الى الكراج ولكن فلأدخل لك السلة لانك لاتتمكنين، رفع السلة فوضعها امام الايوان، اخرج منديله مسح به وجهه قليلاً فادار عينيه في الباحة وقال: ماهذا كأن أحدا ماعداك ليس في البيت؟ اجل بالله عليك كيف حال الخال حاجي، فان كاك حسين يفكر فيه دائماً، يقول باستمرار كيف يكون حال والدي؟ روناك: فداه روحي يا ربي اشتاق اليه للغاية، لقد خلا البيت منه، ان والدي والشكر لله في صحة جيدة، سأل اسماعيل مرة ثانية: اين الاخت **صبرية واالعمة حەپسەخان**؟ اجل انهما ذهبا الى بيت جارتنا.

–**اسماعيل** :اذن استودعك الله، اسأل كثيراً عن احوال الخال حاجي وأقبل يديه واذا سمح لي المجال سأزوركم قبل السفر.

لم يمض وقت طويل طرق الباب ثانية. قالت روناك: ((ماهذا، فأنا مازلت لم اعد جالسة))، وعادت لتفتح الباب.

(٣)

كان بيتهم داراً قديمة، لها باحة حجرية ترابية كبيرة جداً فيها دكة مريحة في وسطها. كما كان فيها حوض صغير يرد اليه الماء مباشرة من الكهريز، وكان يشبه الينبوع، وكانت حول الحوض اشجار من التوت والرمان والكروم الجميلة، وقد كانوا في الأماسي يرشون تحت الاشجار ويفرشون زوليات وطنافس، ويضعون السماور، وحين كان الضيوف والاقارب يزورونهم ليلاً، كانوا يبقون الى وقت متأخر من الليل ويتعشون هناك.

كان باب البيت عبارة عن بوابتين كبيرتين قديمتين، وحين كان يطرق الباب، كانوا يملون منه، لأنه لابد من قطع الباحة الطويلة لفتحه، حيث كان فيما مضى مفتوحاً في النهار، لأن محلتهم كانت آمنة لدرجة اصبح الجيران كأقارب، وكانوا يتعايشون معاً منذ سنوات طويلة، ففي هذه الدار ولدوا وكبروا، ولكن منذ ان بدأ الابناء يمارسون العمل الحزبي، يغلق الباب دوماً، ويقولون ان جاء أي شخص يجب ان يعرفوا من هو، وبعدئذ يفتحون له الباب، يجب ان تركض روناك المسكينة دائماً لتفتح الباب، ولذلك كلما طرق الباب كانت روناك تدندن وتقول: ان كان وضعكم هكذا استأجروا بواباً لقد انكسرت ساقاي!.

حين فتحت روناك الباب. دخلت امها مع بنت جارهن عثمان وقد حملت بكلتا يديها فرفورية كبيرة مغطاة بمنشفة نظيفة، وقد عرفت روناك من بعيد بأنها فطيرة- كليچه- كونها تضوع منها رائحة الهيل. قالت امها بفرح غامر، وافر حتي (**حبيبتي نونه**) فالشكر لله لقد عدت؟ روناك: أجل امي العزيزة عدت منذ مدة، وانتن ماذا فعلتن؟ تضوع رائحة طيبة! قالت امها: فداك روحي ان اختك صبرية تستضيف اليوم الضيوف، فذهبت الى بيت كاك عثمان عملنا لهن مع حەلاو والبنات شيئاً من الفطائر.

جئن الى حيث طرف الايوان، اخذت روناك الماعون من البنت ادارت امها عينيها وقالت: ألا اين صبرية؟ أويلي.. أرى أنها لم تفعل شيئاً قالت روناك منذهلة: كيف فهي التي قالت لي اذهب الى بيت كاك عثمان، ألم تكن عندكن؟! امها: لا والله يا بنتي لماذا فأي شيء حدث؟ روناك: لا ادري.. يقولون يفتشون البيوت، وهي حملت هماً اتصور انها ذهبت لكي تستفسر وتسأل عما حدث. صمتت امها قليلاً.. بنيتي من قال ذلك؟ انه لكذبة.. ياتُرى من الذي اختلق هذه الكذبة الكبيرة؟! روناك: والله يا امي ليس كذباً أنا نفسي كنت مطلعةً عليه رأيته بعيني، ولهذا عدت من وقت، ولم اكمل اشغالي. ارتبكت امها قليلاً وقالت: روناك هيا افرغي الماعون (گولەخان) فلتعد تنتظرها امها (كأنها ارادت ان تذهب البنت بسرعة ولاتسمع تلك الأقوال)، فذهبت روناك وافرغت الماعون لها، وطوت لها المنشفة ووضعتها في داخله وقالت: هاك حبيبتي، ان أمك تنتظرك الآن. في أمان الله. وحين بقيت كلتاهما قالت امها: اجل حدثيني لأعرف ماذا حدث؟ وهي حكت لها نفس الشيء الذي حكته لصبرية، كما حكت لوالدتها واضافت اليه (ألم يكف مانجوت بالله ساتورط في يوم ما..قالت والدتها : وقاك الله شراً وبلاء بنور محمد الشريف، ستعمى عيونهم انشاء الله ولن يراك احد)).

روناك: فليكن ماقلت. ضجرت امها قليلاً، ولكن كانت احسن من صبرية كثيراً، لم تخف مثلها، وبعد قليل من الصمت قالت: هيا حبيبتي لنكمل تنظيم الباحة لئلا يأتي الضيوف. روناك: أي ضيوف؟ بالله يحتمل ان اي واحد منهم قد اخفى نفسه في جحر امها: لماذا اي شيء حدث؟ الويل لهم افترضنا انهم اعتقلوا عشرة خمسة عشر شخصاً هل من المعقول ان يعتقلوا كل المدينة، تعالي يا بنتي لاتهتمي!

ذهبت حەپسەخان الى باحة البيت وحملت السطل والماعون، فتوجهت الى انبوب الماء، وجاءت روناك لمساعدتها، قالت امها: ما هذه السلة الموضوعة في الأيوان؟ والله يا بنيتي لفرط ما ارتبكت من هذه الأقوال فلم اجدها. قالت روناك بفرح: فداه روحي، لقد أرسلها حسين الحبيب، جلبها (سمه) قبل دخول قدميك. قالت حەپسەخان على مهلها: أوه فداه روحي يا ربي. ألم يقل متى يعود؟ روناك: إي والله قال يوم السبت اي بعد غد يعود وقال ايضاً انه يشتاق الينا

كثيراً، قالت حەپسەخان مع نفسها: فلتمت أمه ياترى كيف يكون حاله، الآن في حر (شارەزور) ازاء الغنم؟ روناك: فلتعم عيناي ياربي فان باجي صبرية تضايقه وتتشاجر معه. امها: لاتقولي هذا يا بنتي، متى قالت صبرية المسكينة. انه دائماً يغضب من صبرية علقت روناك قائلة: طبعاً انه يغضب منها بسبب تصرفاتها فهي دائماً خارج البيت منشغلة باجتماعاتها، والناس ايضاً يحكون!! قالت والدتها بهيجان: ان الناس بسبب الاجتماعات يتقولون فيها، فلينطحوا الصخرة، ثم واذا لم تفعل صبرية هكذا، وانت لم تفعلي مابذمتك، يجب ان نقعد أنا وهذه وتلك هكذا، ذليلات خانعات، واذا فرضوا علينا اي عمل نقول لبيك ونكون صاغرات مهانات. لا، يجب ان نعلم الناس ليستيقظ الجميع، ننظر الى البلدان الاخرى. لاشكران فيه لماذا في أي شأن نحن أقل شأناً منهم؟ قالت روناك في سرها: والله ان صبرية غيّرت والدتي أيضاً جعلتها مدنيّة؟ يا وليتنا كيف نقدر إذن على كلتاهما!))

اوشكن من انهاء تنظيف الباحة عندما عادت صبرية يبدو أنها كانت تعبة جداً، لكنها كانت مبتهجة، دخلت الغرفة ضاحكة وقالت: شكراً لله لم يكن شيئاً، فتشوا عن الاموال المهربة، التفتت الى روناك قائلة: وحين اعتقلوك ظنوا انك كنت في بيتهم، لآنهم نشروا بعض الأشياء على أهلهم وأقاربهم، فتخلصوا منها، ولذلك اعتقلوا اثنين ثلاثة أشخاص كانوا يحملون اكياساً من الساعات والراديو ((قالت روناك في سرها: فلاكن في ويل وثبور كيف تمكنت بهذه العجالة استظهار كل هذه؟ قالت صبرية امي العزيزة: اذهبي انت اتركي لنا الامر، فأنا وروناك نوظب الفراش والبسط. ذهبتا لجلب البسط والطنافس والاشياء الاخرى. انشغلتا بتحضير السماور والشاي، وجلبتا الكراسي فوضعتا حول الحوض، وذهبت امهما الى الدكة لتوظيب الفرش، وقد وضعوا عليها سريراً خشبياً مع سريرين جديديين ذي نفر واحد، كان مكاناً معتدلاً مريحاً، فكانوا الى خريف متأخر ينامون هناك.

ذهبت صبرية فغسلت وجهها وبدلت ملابسها وقلدت جيدها بقلادة، وارتدت حلي اليلك، كما ان والدتها وروناك بدلتا ملابسهما.

حوالي الساعة السادسة مساء عاد والدهما أيضاً من السوق والجامع، رحبت به روناك وعانقته، كما ان زوجته يضاً راحت لاستقباله، ادار الحاج عينيه. وقال: ماهذا لكأن لنا ضيوفاً. ((صمت قليلاً فالتفت الى زوجته وقال على مهله: يبدو انه مضيف صبرية خان أيضاً، قالت زوجته بشبه عصبية: او يطرد الناس الضيوف))، قال الحاج لا والله لايطردهم ولكن يجب ان يحسب الضيف حساباً لصاحب البيت، واننا عجائز ومتعبون نريد ان نركن الى الراحة والهدوء قليلاً. قالت حەپسەخان: بالله عليك قطعوا عليك اي طريق تتبادل الشابات بينهن الزيارات ولهن اشغال خاصة))

هز الحاج رأسه وقال: أجل يصنعن الطائرة، ليس لهن اي شيء سوى الكلام التافه والضحكات الطويلة، ويجلسن الى منتصف الليل، ولايدعن احداً ان يغمض عينيه وينام)) غضبت حەپسەخان وقالت: اوه يا رجل، يبدو انك مرة اخرى تثير الضجة وتدمدم دائما" عادت روناك الى عند والدها وقالت: مابك يا والدي العزيز؟ قالت أمها بدأ مرة أخرى بالدمدمة" لم تجب روناك امها، والتفتت الى والدها وقالت: لاتزعج نفسك لاجدوى منها، هزت رأسها وقالت: علينا ان نتعود!

لم يلبث كثيراً جاءت ضيفات صبرية، شرع الضجيج والعجيج من بعيد، وبصوت مشوب بالضحك والترحيب والله فزعنا، ياويل ماخبر الظهر الذي اثاروا له الضجة. ذهبت حەپسەخان اليهن ورحبت بهن.

ونادت صبرية الى طرف أخر وقالت: بنتي اذا تتحدثن عنه بشكل ما فادخلن الغرفة لأن الجيران جميعم في الباحة وفي البيت" قالت صبرية: حسناً يا أمي فالآن ليس لهن اي شيء عنه، واخيراً جلسن، وقضين الليلة مثل كثير من الليالي الأخرى بالكلام والفكاهة.

نهض حاجي من النوم في الصباح الباكر وصلى، وأكل الفطور وهيأ نفسه ليذهب الى الدكان. قالت له حەپسەخان: يجنبك الله البلاء أو رأيت صرت عصبياً عبثاً، بالله عليك أضايقوك اي مضايقة" وقال هو ايضاً: لاوالله لماذا اكون متضايقاً، إن اراد الله ان يكون المضيف مزدحماً هكذا، لم يبق لي امد طويل فعندي مرض القلب، وبين لحظة واخرى تقضى عليّ الجلطة القلبية،

ولكن آه وحبذا كنت اراك كيف تسيء اليك صبرية وتهينك. لاضير ساندیها دوماً واخفي لها ورطاتها" امتلأت حنجرة حەپسەخان بالبكاء وقالت: لاسمح الله، ليتقدم ياربي موتي قبل موتك ويبقيك لنا جمعياً، ان لم تكن أنت نحن نصلح لاي شيء؟" اجابها حاجي قائلاً: لاتزعجي نفسك وفيما بعد تتذكرين أقوالي.

فخرج من البيت، وحەپسەخان بعد القليل من البكاء مسحت عينيها فجلست امام السماور، قالت في نفسها: والله صدقوا ما قالوا: ((كلام الحق قاس)).

نهضت روناك ثم نهضت صبرية من بعدها، فأكلتا فطورهما وجمعتا حاجيات البيت. قالت صبرية: أمي ساذهب الى رفيقتي، استعادت حەپسەخان قليلاً من قوتها وعزمها وقالت: ابنتي هذه أي منهن، او لم تكونا ليلاً معاً؟ قالت صبرية باستغراب عجباً ما هذه يا أمي اراك تسألين وتتساءلين، متى اصبحت هكذا" قالت امها: والله يابنتي ماذا أقول، على وشك ان تكدري الامور، أو لاتعرفين نخبز غداً ويجب ان نهيء أنفسنا قليلاً، ويعود حسين؟! استغربت صبرية من هذا التحول لأمها في جوابها. ذهبت الى غرفتها وحملت عباءتها وقالت: في امان الله لا امكث كثيراً ساعود بسرعة، نظرت الى ساعتها وقالت: هيهات هيهات.. مازالت الساعة التاسعة صباحاً، تبادلت روناك وامها النظرات. وهي صفقت الباب من ورائهاوخرجت، جلست أمها صامتة واضعة أحدى يديها على الآخرى، جاءت إليها روناك وقالت: أُماه لم أنت غير مرتاحة هكذا؟ والله يابنتي استغرب كثيراً من خروج وضيفات هذه الفتاة، قالت روناك بنوع من الشيطنة: لاضير في ذلك يا أمي، فان باجي صبرية لاتقوم بأعمال طالحة، قد تكون لهن أشغال حزبية، وقد اتفقن ليلاً بأنهن يجتمعن اليوم في مكان ما" قالت امها بصمت: لايعقل ابداً، هذه ليست حزبايتية، اي حزبايتية كل هذا التبدل للملابس والحركات غير الطبيعية؟ ((شرعت بالبكاء وقالت عمت عيناي حين كان اخي عزيز يمارس الاعمال الحزبية، ممارساته كانت صحيحة، كانوا جميعاً يعملون على قدر من الانتظام والانضباط، ماكان يعلم أحد ماذا يفعلون، في احيان كثيرة ماكان يأتيه ضيف مدة اسبوع، كنا نأخذ بعضهم الى الطبيب ونشتري لهم حاجياتهم وكنا نودعهم، وبعد شهر كنا نعرف بأنهم كانوا رجالاً

ممنوعين من الحكومة، كانوا من اخواننا الكرد الايرانيين جاؤوا الى هنا لانقاذهم وارسالهم الى خارج البلاد)).

طوقت روناك جيد والدتها بذراعيها وقالت: بالله عليك امي الحبيبة لاتبكي ولاتضايقي نفسك، لنعرف ماذا يفعل الله، اذن فلنقم، فاليوم نخبز، ألا ان **باجي پيرۆز** تأتينا مساء وتبات هنا، لتقوم في الصباح الباكر، هي قالت ذلك" قالت والدتها: لاضير بنيتي، ولو أني لاارتاح أن تنام هنا حيث أنها لاتكتم السر ولا اريد ان تعرف حركات وسكنات صبرية، ولكن ما في اليد حيلة، ان هذه الامرأة الساذجة التعيسة قد جعلت النوم في البيوت موضة، فتفعل النساء هكذا بسبب الثلج والبرد حيث لايستطعن الوصول في الصباح الباكر الى البيوت، في حين انها تفعل ذلك صيفاً، لذلك اخاف ان ماوراء الاكمة ماوراء ها" قالت روناك: لا يا امي العزيزة فان باجي پيرۆز مسكينة يعاب عليها فقط ثرثرتها، لكنني لااتوجس منها السوء، لاسمح الله لوكانت كذلك، لقضى عليها إبنها كاكه حەمه.

انك لاتعرفين يا أمي ما اطيب هذا الفتى وما أخلص، كلهم يكيلون له المدح والثناء، الا ترين انه دائماً مع **كاكه علي وكاكه حسين**؟"

شرعت حەپسەخان وروناك ببعض أمور البيت، وقالت روناك: امي الحبيبة، لنطبخ اليوم طعاماً شهياً من اجل خاطر أبي رفقا به، منذ أيام لم نطبخ طعاماً يشتهيه". قالت امها: حسناً فأني بنفسي أتخذت قراراً ان اطبخ الدولمة فاذهبي لعلك تقطفين كمية جميلة من ورق الكرمة" ولكن لم تتحرك بعد، لا والله عزيزتي روناك اذهبي الآن الى **اسطه احمد** اجلبي لي الصاية والصدرية (زخمة) ذات الكمين، يقول إنه اكملهما منذ يوم السبت" ربتت على كتفيها وذراعيها وقالت: لقد برد الليل، وقد شعرت هذا الصباح بالبرد تماماً، فحين قمت لأداء الصلاة قالت روناك: حسناً امي العزيزة اذهب حالاً فاعيدهما لك، ولكن الى ان أهيء نفسي فكرّي لتعرفي أنحتاج شيئاً آخر في السوق لكي لا أذهب ثانية؟ قالت امه حالاً: لا يا حبيبتي ليس عندنا اي شيء آخر.. ولكن ان تقدرى زوري خالتك آمة، فانك تعرفين، منذ مدة لم يأتوا، ولم نسمع منهم صوتاً مخافة أن لا سمح الله تمرضوا أو وقع لهم شيء قالت روناك: على العين، وأنا بنفسي أحن إليهم كثيراً

حملت عباءتها وذهبت، وكانت تقول مع نفسها (إن اللسان السليط لصبرية جعلنا في عزلة عن الناس).

(٤)

زارت روناك اولاً بيت خالتها وقالت لها ان امها تشتاق لها، وهي قالت: ولكني ايضاً قررت ان نأتيكم اليوم، وقالت روناك ايضاً: بالله عليك يا خالتي العزيزة تعالن جميعاً" صاحت نەسرين من ايوان البناية وكيف لانأتي، بالله لايبقى واحد منا هنا" قالت روناك: على الرحب والسعة، خرجت وذهبت الى بيت اسطه احمد، فمن حسن حظها ان زوجته كانت في البيت، اخذت صاية وصدرية امها منها وسلمتها النقود وودعتها. خرجت وقالت في نفسها: عجباً لم يقولا مثل المرات السابقة والله لم تكملا.

بيته عامر، كان يتذرع كل مرة بذريعة جديدة تارة كان يقول تمرضت، وتارة اخرى كان يقول عطبت ماكنتي وحيناً آخر كان يقول ذهبت الى الريف للتعزية، واخيراً فالخياطون كلهم هكذا! ولكن الشكر لله كنت هذه المرة محظوظة. قطعت روناك الأزقة وكادت تصل بداية الشارع قبالة الجامع الكبير، حين نظرت بدا في نظرها اكثر ازدحاماً من السابق، خاصة من الذين كانوا واقفين ثلاثة ثلاثة واربعة اربعة من هذا الطرف وذلك، وقد اجتمعت مجموعة مكونة من عشرين، ثلاثين شخصاً حول اشخاص، في جلبة من أمرهم، قالت روناك: يا حافظ ماذا حدث ثانية، ياترى دهست السيارة اى شخص؟ حقيقة كدروا الوضع، لايمر يوم الاّ تسحق هذه السيارات البغيضة شخصاً، فأي شخص امتلك عانتين اشترى سيارة، وكمجنون طائش بدأ في هذه الأزفة وعلى هذه الشوارع المزدحمة بحركة غير مجدية، دون ان يعرف الكثير منهم السياقة بشكل مضبوط، اسرعت روناك الى المجموعة، حين نظرت وجدت ان اثنين ثلاثة من الجنود يحمل كل واحد منهم عصا يسوقون امامهم قرويين، كل واحد منهما له حمل من الحطب وعلى الحمل دجاجة وديك، هكذا فالجنود ينهالون على

رأس ووجه القرويين، وهما لايعرفان ماذا يفعلان اكثر من ان يسيرا اسرع، والناس من ورائهم لايتجرأ احد منهم ان يفتح فمه ويقول ماهذا ولماذا تضربونهما والبعض ينكسون رؤوسهم ويذهبون، والبعض يدمدمون والبعض الآخر اوشكوا ان يبكوا هما وحقداً.

اقتربت منهم روناك اكثر، كانت احياناً تأتي الى عند الحميرين واحياناً اخرى كانت تمشي خلف الجنود. امتلأت عيناها بالدموع وقلبها بالهم والحسرة. وكانت ترغب في قرارة نفسها ان كانت بامكانها ترمي بحجر مناكب الجنود وقمم رؤسهم، لما يفعلون بالقرويين الفقيرين، ولكن ماذا تفعلين سيقتلونك بعصا واحدة، حسناً فهي لاشيء الا يجوز ان يكون لهؤلاء الناس قليل من الغيرة والشهآمة ؟!

كيف ينظرون هكذا ويقبلون هذا الظلم، ولايتفوهون بكلمة آه ياربي، يوجد أناس ما اجبنهم، كل شخص من أجل مصلحته وشؤونه الخاصة يقبل بكل هذا الغدر ويخنع" اف حبذا على الاقل لو كنت قد بصقت عليهما الآن بصاقاً قوياً، لائذة بالفرار. ماذا يفعلون بهذين المسكينين؟" كانت في حومة هذه الخيالات ومافيها من هم وقهر وغضب، غفلت عن اي شيء، حين ادركت ذلك، والناس ابتعدوا عنهم، فاندفعت وسارت بسرعة فائقة حتى لحقت بهم، وحين نظرت رأت ان احد القرويين والدم ينزل من على رأسه ووجهه، آنئذ اظلمت الدنيا في عيني روناك وقالت: الا، والله لو لم افعل شيئاً بهؤلاء ابناء الكلاب لأقتل نفسي، اذن لماذا اقتل نفسي حقداً دون جدوى! فلآ فعل فيهم شيئاً، ثم حينئذ من الافضل ان يقتلوني هؤلاء!.

بهذه الفكرة أخرت نفسها برغبتها، واخذت تمشى رويداً رويداً، الى ان تقدموها، وصلت الى مكان مزدحم من اعلى بيت الشيخ لطيف، يبدو انهم كانوا يسوقون القرويين نحو المعسكر، وكانت هناك دكاكين، وضع بعض الاطفال السلال وكانوا يبيعون الفواكه وما شابهها، واخيراً حملت روناك حجراً جيداً من كومة حجارة امام بيت، حيث كانوا منشغلين بالتعميرات، جلست هنيهة بدريعة حذائها زعماً منها تضيق رجلها. وضعت الحجر تحت عباءتها، وشدت صرة صاية وصدرية والدتها شداً محكماً ووضعتها تحت ابطئها اليسرى، ولفت

نفسها بعباءتها فتابعتهم بسرعة، لكنها ارتبكت قليلاً وقالت: اخاف ان يعتقلوني فيموت والدي خوفاً وهما.

واذا لم يقبضوا علي، سيقتلون هذين المسكينين، لايهمهم ذلك، فالكرد جميعاً في نظرهم أعداءا ولكن كيف يكون ذلك بحيث يتصورون أن هذا من حقهم في أن يعتدوا ويقتلوا الناس يمنة ويسرة، ولاينبس احد ببنت شفة، لئلايتورط الناس الآخرون. ان شاء الله تطلع عيونهم، حين يتجرد الانسان الى هذا الحد من الكرامة والمروءة ويعيش ذليلاً خانعاً فأولى له الموت.

هيأت نفسها من جديد خطت خطوات الى ان وصلت موقعاً يتفرع منه زقاقان ثلاثة أزقة، وقفت في بداية زقاق متصدية، فرمت الحجر نحو الجنود بكل ما منحها الله من قوة وهمة، فأرتطم بقحف احد الجنود، فالقت نفسها حالاً في الزقاق، فركضت قليلاً، ولكن حين وجدت لايطاردها أحد أرخت الركض، بالأخص حين رأت امرأة عجوز كانت جالسة امام باب مفتوح، فحين وجدتها العجوز على هذه الحالة نادتها: مابك يا بنتي، لماذا ركضت هكذا، فقالت روناك بارتباك، فداك روحي عمتي العزيزة اخفيني، يطاردنى غلام سيء الاخلاق، اخاف كثيراً. فالعجوز دفعتها حالاً نحو الداخل، وقالت: ياويلي! ادخلي يا بنتي أدخلي ولاتخافي فليأت ذلك ابن الكلب، تعرفين كيف افقئ كلتا عينيه! ادخلت روناك في الداخل واغلقت الباب.

كانت العجوز تمتلك غرفة وايواناً صغيراً مع باحة صغيرة جداً، ذهبت الامراة فجاءت لها بقدح من الماء وقالت: اوه فلأمت ياربي، لماذا حدث لك هكذا؟ اخرجت روناك صاية وصدرية والدتها وقالت لاهثة: والله يا عمتي كنت ذاهبة الى الخياط لجلب صاية وتلك الاشياء لوالدتي. حين شعرت بنفسى ان غلاماً هائجاً لا رأيته ولاعرفته يلاحقني، وكان يقول متواصلاً: آه حياتي او لماذا لاتلتفتين. قفي لألحق بك، وكان يخلط كثيراً من الاقوال النابية، ولأنها كانت مجرد كلام، جعلت من نفسي كأن بي صمم، ولكن حين وصل الى هذه المنطقة الخالية كاد ان يهجم علي، فأنا ركضت.

قالت العجوز: فلتكن عاقبتهم عند الله، فان هؤلاء المتسكعين المفلسين المعدمين، لايتخلون عن بنات الناس، كما ليس هناك احد يقول لهم ايها

المتشردون لماذا تفعلون هكذا؟ والله كان قبل أيام كاد أن يهجم متسكع على فتاة في هذا الزقاق ولكن كان الله في عونها حيث ان والد ابني أبوبكر صادفها وانقذ الفتاة، وبصق في وجه المتسكع ولعنه.

جلست روناك حزينة صامته، ولكن كلما يتناهى الى سمعها صوت كانت ترتعش وتقول: آه يا عمتي فداك روحي الى اين أذهب؟! وكانت العمة تقول بعطف وحنان: لاتخافي يابنتي، فداك روحي.. من يتجرأ ان يمد يديه اليك؟" وهكذا سلختا نصف ساعة، ثم عادت روناك الى حالتها الطبيعية قليلاً وقالت: الا يا عمتي كيف اعود؟ والله ان والدتي تقتل الآن نفسها فتظن وقعت لي واقعة" قالت العجوز حالاً هدئي روعك يا بنتي قولي اين بيتكن، فأنا اعيدك الى البيت الى ان اسلمك لوالدتك لن اتخلى عنك، فاذا تريدين قومي لنذهب، والله ساقطع يد من يمدها لك. فالويل لهم. هيَّ لماذا أهي ولاية البطيخ! قامت روناك وقالت متوجهة: فداك روحي ياربي عمتي العزيزة" ذهبت العجوز فحملت عباءتها وارتدت حذاءها وعدلت طاقيتها وعصابتها وربطة الرأس والرقبة. ارتدت العباءة وقالت: هيا لنذهب، أتحدى رجلاً يمر فقط بجانبك!" قالت روناك بارتباك، فداك روحي عمتي لاتأخذيني الى الشارع فلنمر بالزقاق وحده: قالت العمة حسناً حبيبتي، تقدمت روناك، وقد سلكتا الطريق من الزقاق الخلفي، زقاقاً فزقاقاً الى ان وصلتا الى الشارع المقابل للجامع الكبير، وهناك قالت روناك: اذا تتركيني فلن اخاف، الله يجازيك عمتي العزيزة" قالت العجوز؟ أحقاً ماتقولين؟ اخاف ان تقولي لخاطري، فلأكن معك حتى البيت" قالت روناك: لا والله، فضلاً عن ذلك فان هذه المنطقة كلها من أقاربنا ومعارفنا، وان كان كاكه علي هاهنا عند ذلك الكراج، عليه وانت عودي لئلاً تتعبي اكثر من هذا. قالت العجوز! لا يابنتي اي تعب ومشقة هذه، فأنا معتادة على هذا الذهاب والأياب، حسناً فاذهبي اذن يحفظك الله" اثناء هذا الكلام عانقتها، وروناك ايضاً قبلت يديها فتفرقتا، سلكت كل واحدة منهما طريقها الى بيتها.

***

لم تقطع روناك بعد ثلاث اربع خطوات في زقاقهن، ركضت اليها والدتها بصياح ولهفة عارمة واحتضنتها، وشرعت بتقبيلها وفداء الروح لها، وحين

عادت الى طبيعتها قليلاً قالت: لماذا تأخرت هكذا؟ كدت ان أجن، تذكرت أقوالك فقلت: لابد وان حدث لها حادث، وقد خرجت من البيت لكي أرسل حلاو وابنتها گوله الى بيت عمتك ودكان كاكه علي ليبحثوا عنك، كان مفيداً أن رحم بنا الله ولم اقلق راحتهم، تقدمي الى الداخل.." حيث كانت روناك مازالت مرتبكة، دخلت البيت بسرعة وبعد أن تنفست الصعداء قالت:

– امي الحبيبة ماذا أفعل فهو حظي وقدري، لايمر يوم إن خرجت من البيت ان لايحدث لي شيء: ضربت امها على صدرها وقالت: وي فلتعم عينا والدتك، قولي لأعرف ماذا حدث لك؟: قالت روناك: في الارض السهلة عند بيت اسطه أحمد كاد ان يهجم علي كلب، وأنا خفت كثيراً، اخذتني امرأة الى بيتها الى أن عدت الى رشدي، عندئذ جاءت هي معي الى حد السوق، قالت حەپسەخان:

– اه فلتز هق روح والدتك، لقد امتقع لونك، فلأخلف صايتي وصدريتي ميراثاً، الايكفي لم يعضك، رحم الله بنا" قالت روناك: لاسمح الله امي الحبيبة مباركة عليك إن تلبسيهما بجسم سليم، لاشأن لك بهما" قالت الامُ برغبة منها، هيا اذهبي صبي حفنة من الماء على وجهك واستلقي قليلاً على ظهرك! وبعد ان غسلت روناك وجهها دخلت الغرفة لكي تأخذ قسطاً من الراحة.

(٥)

لم تغمض روناك الجفن حين طرق الباب، كادت ان تتظاهر بأنها نائمة، ولكن حين وجدت ان أمها منشغلة بلف الدولمة اشفقت عليها، قامت وقالت مع نفسها: فلتكن فوق الحمل علاوة، وحين فتحت الباب كانت جارتهن باجي حەلاو، رحبت بها، وقالت امها من بعيد: على الرحب والسعة كدت أن آتي في أثرك لتلفي معي شيئاً من الدولمة"؟

قبل ان تعود روناك الى الغرفة تذكرت ان تقول لوالدتها بأن بيت خالتها سيأتون الينا مساء بقضهم وقضيضهم. فقالت امها: على الرحب والسعة، احسنت ان قلت ذلك. اذن اقطفي لي يا حەلاو الآن كمية اخرى من ورق هذه الكرمة، اخاف ان تكون دولمتنا قليلة ولاتكفينا".

مهما حاولت روناك أن تنام ولكن الخوف غلب عليها فلم تأخذ عيناها سبيلاً الى النوم، انصب بالها على الحادثة فقط، وكانت تقول: ياترى ماذا حدث؟ ماذا فعلوا بهؤلاء الاطفال واصحاب الدكاكين، فلتكسر رقبتي ياربي لماذا فعلت هكذا، لماذا لم اتمالك نفسي، وأنا ايضاً كنت أخضع واخنع مثل هؤلاء الناس، سالكة سمتي، وما شأني بمثل هذه الاعمال، وأنا من جانبي اعاتب دائماً صبرية التي تمارس السياسة قولاً بينما أنا تورطت في قتل العسكر! تذكرت فجأة: تأتي الآن باجي پيرۆز أيضاً وماذا يكون موقفي حين تروي ماحدث لي بمبالغتها المعهودة، فتفضح جميع اكاذيبي، والله طيب! فيما اهيم على وجهي، ثم قالت بصوت عال قليلاً: الا يا أمي الم تعد باجي صبرية بعد" اجابت امها: لا والله يابنتي لم تعد بعد" عندئذ بسبب وجود حەلاو لم تجرؤ ان تقول قولاً أخر، لكنها كانت منزعجة منها كثيراً.

وضع على النار قدر من الدولمة، ونظفت الباحة وفرش الفرش، واعد السماور وادوات الشاي، حينئذ استرخصت حەلاو ان تعود الى بيتها، وحين سمعت روناك ان أمها ودعتها، قامت على مهلها، فاغتسلت وبدلت ملابسها، وجلست مع والدتها بانتظار الضيوف، لم يلبث طويلاً فجاءت آمه خان ونەسرين خان وبعد تبادل القبلات والترحيب الحار جلستا، سألت حەپسەخان: فأين الاخرون؟" قالت أختها، يأتي حاجي والأولاد فيما بعد، لم يلبث كثيراً وقد عادت صبرية أيضاً، فجاءت مرحبة بهما، وعانقتهما، ثم دخلت الغرفة. سألت آمه خان: الا اين كانت صبرية؟ قالت حەپسەخان: والله كانت ذاهبة الى بيت صديقة كان لهما شغل" قالت آمه خان متوجسة: ألم يستكمل هذا الشغل بعد"؟ طرق الباب، ذهبت روناك لتفتحه لانها كانت تعرف انه وقت مجيء باجى پيرۆز، فتحت الباب حالاً، قطعت عنها الطريق فقالت لها بهدوء كالتوسل: حبيبتي باجى پيرۆز فداك روحي احذري ان تتحدثي عن يوم الآمس لوالدتي، فهي تخاف الشرطة كثيراً، قد يحتمل إن تذكري اسمها يتوقف قلبها لاسمح الله. قالت باجى پيرۆز ايضاً: لا يا عزيزتي كيف اقول لها، ولا اتحدث عنه قط، خاصة ماحدثت اليوم من الاشياء في طرف الشيخ لطيف حيث ما حدث بالأمس مقارنة بها كان نزهة" واخيراً ذهبت الى الباحة نحو حەپسەخان واختها وسلمت عليهما. وما ان جلست ولم تجلس فقالت: اعوذ بالله ماذا حدث اليوم لايحتمل ان لم تسمعوها! قالت حەپسەخان في نفسها: جاءت ايضاً الراديو والتلغراف تدوّخ رؤوسنا: دون ان تسألها ماذا حدث قالت: والله كانت قيامة وحشراً دون حدود، قتلوا اليوم رجلاً بائساً تحت ضربات العصا. مرت رعشة باردة في جسمها وقالت: أجل قولي لنعرف الى جانبها. قالت آمه خان: ياويلي لاسمح الله ماذا حدث؟ نظفت باجى پيرۆز حنجرتها قليلاً ثم قالت.. يعتقل اليوم جنود قرويين، ويريدون سوقهما الى المعسكر" وفي الطريق لا ادري طفلاً، رجلاً لايعرف بالضبط من كان، ولكن يقولون انه كان رجلاً، لأن الطفل لايقدر ان يفعل شيئاً من هذا القبيل" قالت الجميع بلهفة: اجل... ماذا حدث؟ خاطر الله؟ قالت: والله رمى حجراً على رأس احد الجنود فشق رأسه الى شقين، ولهذا تقاطر الجنود على هذه المنظقة البائسة كلياً القوا القبض على اي شخص وقع في أيديهم وساقوه الى المعسكر،

والى ان اوصلوه الى هناك دمروه بالأعصاء والركلات وأعقاب البنادق" انهارت روناك وخارت قواها، جلست في المكان الذي كانت واقفة فيه، وبعد هنيهة نهضت وذهبت الى الغرفة فلم يقر لها قرار، نفد صبرها وانزعجت كثيراً، ولم تكن تجرأ ان تظهر نفسها غير مرتاحة. نادتها امها فجأة وقالت: حبيبتي نونة اين انت! تعالي فان باجى پيرۆز منشغلة بالعمل تعالي ساعديها" قالت روناك خائرة النفس: حسناً يا امي فها جئت: فحين راحت بدا عليها القلق كثيراً، وبهت لونها، ولو أنها ارادت ان تظهر نفسها بابتسامة مصطنعة على انها طبيعية، ولكن دون فائدة. قالت امها: اختي آمنة أوترين روناك ما حل بلون وجهها؟ قالت خالة: اجل والله، الا نونەخان لماذا امتقع لونك هكذا؟! لاسمح الله أو لست مريضة؟ قالت امها: رحم بها الله فكاد ان يمسكها كلب في السهل الكائن عند بيت اسطه احمد، لاشكران فيه ارسلتها لتجلب لي صايتي وصدريتي. انزعت خالتها كثيراً فضربت نفسها وقالت: والله ستورطون هذه الطفلة في يوم ما في شيء.

خرجت صبرية من الغرفة وحيت پيرۆز وسألت عن احوالها فقالت: ماذا حدث، ماذا وقع، سمعت موضوعاً كانت باجى پيرۆز ترويه. قالت: باجي پيرۆز، اوه فداك روحي كيف حالك يا عزيزتي؟ اجابت عنها صبرية قائلة: تسلمين، الله يبقي لك ابناء ك، بالله عليك احكي لي لأعرف ماذا حدث؟ حكت لها باجى پيرۆز الحادثة واضافت اليها قدراً آخر على ماحدث. قالت صبرية بانزعاج.. آه فليخرب بيتهم، والله إنهم كفرة عديمو الشرف، ربي لايقع احد في ايديهم، ولكن ذلك المتسكع فليكن شأنه عند الله حيث رمى عليهم الحجر، فهم يبحثون عن الذرائع، ثم كل من يمتللك العقل لايهجم عليهم هكذا، يجب ان يعرف الانسان ماذا يفعل؟"

قالت أمها: ابنتي فالناس يمتلكون الغيرة والشهامة ، فحين يرى أحد شيئاً مثل هذا القبيل تظلم عيناه، لايبقى عنده الخوف والتفكير، ولاسيما الشباب. وكانت روناك جالسة عند ابنة خالتها نەسرين، فكانت تشغل نفسها بشرب الشاي ولم تستمع الى هذه الاقوال، وكانت تشبه فاقدة الوعي.

طرق الباب، انتفضت نەسرين وقالت: أنا أروح حبيبتي روناك، انت واهنة القوى، لاتذهبي، ذهبت راكضة ففتحت الباب. دخل والدها واخواها وعمها معاً البيت.

بعد السؤال عن الصحة والاحوال والترحيب الحار، ذهب الرجال نحو صدر المجلس وجلسوا، بعد قليل قال حاجى مجيد: ام علي قومي بسملي، صبي لنا ماعندنا، اتصور نحن جائعون جميعاً" قامت زوجته وقالت: طبخت دولمة طيبة تعجبكم جميعاً. علق كاكه حاجي قائلاً: اذن كلما اسرعت يبدو متأخراً" بدأ الجميع بالضحك، قالت حەپسەخان: على العين هيا يا بنات قمن تهيئن.

هكذا ذهبت البنات انشغلن بوضع المواعين والصواني ورش الخبز، وذهبت صبرية لاعداد الشنينة لهم، وجلبت باجى پيرۆز قدر الدولمة فوضعته امام حەپسەخان، وكذلك جلبت لها صينية نحاسية، فقلبن قدر الدولمة عليها، لقد انتشرت رائحة ونكهة الشبنت وورق الكرمة والبصل الأخضر المتصاعد عنه البخار في ماحولهم.

قالت حەپسەخان: اوي فلتمت والدتك يا حسين، مااشد حبه للدولمة الكائنة في قعر القدر" ولكن تذكرت حالاً بأن لها ضيوفاً، حيث كانوا اختها وزوجها وبنات وأولاد اختها هناك، ولم يكن من اللياقة ما قالته، ولهذا عوضت عنه فنادت بصوت عال قليلاً: حبيبي بەخه، تعالي لي شغل معك" جاءها بەختيار بسرعة وقال: تفضلي خالتي العزيزة ماذا أو تريدين أن أوزع الدولمة أنا عليهم؟ قالت الخالة ضاحكة وقالت: لاحبيبي خذ حصة والدتك وعمك لهما" وحين ارسلت حصتهما نادت على الآخرين ان يأتوا وان يأخذ كل منهم حصته حسب رغبته، وعندما قامت حەپسەخان وبيدها ماعون من الوله، قالت روناك بإندهاش: ماهذا يا أمي الى اين تذهبين؟"

فقالت هي: آخذ هاتين الدولمتين لجارتنا حەلاو، لقد تجشمت التعب معي كثيراً، لفت معي كل هذه الدولمة، ونظفت لي البيت: قامت روناك وقالت: اجلسي يا أمي أنا آخذها لهم "علقت صبرية وقالت: كلوا طعامكم الان ثم تأخذها أحدنا لها". قالت امها: ابنتي الى ذلك الوقت هم ايضاً يأكلون، فماذا تفيدهم بعد ذلك. فالوقت مناسب الآن اذ لم يأكلوا بعد. وضعت خبز رقاق على

الماعون، فأخذت منه روناك واخذته لهم، وحين عادت روناك بأسىً": والله يا امي شبعت، لااستطيع أن آكل شيئاً آخر" قالت خالتها ضاحكة: اخاف أنت ايضاً تريدين ان تجعلي نفسك نحيلة؟ ان هذه العادة التي استحدثت دفعت البنات ان تحمل كل واحدة منها ورقة يجب ان تأكل كل واحدة بمثاقيل موزونة الطعام" قالت روناك لاوالله خالتي العزيزة انا لا افعل شيئاً من هذا القبيل ولكن ليست لي رغبة الآن!".

اخذت نەسرين تتكلم: والله شيء غريب بقي ان تعمد الى (البهريز) فهي اصبحت كخيط الابرة. ماشاء الله هي دائماً في ذهاب واياب يحركونها الى هذه الجهة وتلك" كشيء ارادت نەسرين ان تعبر عنها بهذا الشكل بأن صبرية ترسلها كثيراً الى هذا الطرف وذلك الطرف" لكن صبرية لم تنبس ببنت شفة فأهملتها.

اكل الطعام ورفعت مستلزماته، اخذت نەسرين الابريق والجفنة لأبيها وعمها وصبت الماء على ايديهما، جمعت باجي پيرۆز الحاجات وقالت من تلقاء نفسها: اشرب اولاً شاياً ثم اغسلها" وقالت صبرية ايضاً: بالله لايجوز.

نغسلها أنا ونەسرين" نهضت باجي پيرۆز وقالت: قسماً بمرقد الحاج كاكه احمد، بالغوث الكيلاني الذي بيته في بغداد لاتمدين الاصابع لها" قعدت مرة ثانية لشرب الشاي، وقد كان السماور الابيض المطلي بالصبغ يلمع امام المصباح ويئز ازيزاً. وقد وضعت الصينية وأقداح الشاي الجميلة المنسقة واناء السكر، وقد كانت حەپسەخان تحب كثيراً قدح الشاي وماعون الشاي وابريق الشاي الجيد والقديم والجميل، وكان شايها وسماورها مشهورين!

سمع طرق الباب، نهضت صبرية هذه المرة وفتحت الباب، يبدو انها تجيب شخصاً حين قالت: أجل ان والدي في البيت وعمي وهم ايضاً موجودون. بعد هذه الاقوال تقدم على صبرية، افندي في (٤٥–٥٠) سنة من عمره نحيل الجسم طويل الوجه رفيع الانف ذو البشرة البيضاء المائلة الى الحمرة" اصلع الرأس نصفياً اعمش العينين، توجه نحو الرجال فسلّم عليهم وهم قاموا له ورحبوا به واجلسوه عندهم.

وكانت روناك في الحالة الرديئة التي فيها حين رأت هذا الرجل قرصت نەسرين قرصة خفيفة وقالت: ماهذا! كأن سعيد افندي المتغزل ينصب خياله

على بيتنا فهاعاد مجدداً" وحين عادت صبرية الى عند امها والجماعة قالت: لا مرحباً بك يا مكسور الرقبة، هذا المتغزل السافل من اتى به؟" قالت امها على هونها: اسكتي، عيب، انه ضيفنا. قالت روناك بصوت مرتجف: ذلك اليوم كنت ذاهبة لأشتري الجورب لاختي صبرية، كانت امرأة في دكانها، صادفتها إنها كانت تتفل في وجهه وتقول لها: يا عديم الشرف كيف تقر صني، بذريعة ان ترجع لي بقية النقود، والله سأملأ كل وجهك دماً بهذه الفردة من الكعب العالي، لقد اخرجوا الامرأة من الدكان عنوة، وهو لم يبال بذلك كأن شيئاً لم يكن" وقالت نەسرين ايضاً: وأنا ذهبت ذلك اليوم الى السوق مع بنتي جارنا كاكه مەلا –ئەختە ر و دلّخواز– ثم قلنا فلنذهب الى مخزن سعيد افندي لنعرف اي شيء جديد ورد اليه، طلبنا شيئين ثلاثة، اخرجها لنا، حين كنا منشغلات بانتقاء مانريد، تناهت الى اسماعنا اصوات سيارات كثيرة، من الشارع، بدت لنا انها زفة عروس، فوجئنا بأن سعيد افندي خرج راكضاً تاركاً من ورائه الدكان لنا، ونحن كنا نتبادل النظرات وكنا نقول يا ويلنا، فها أن هذا الرجل قد جمح كالثور، وبعد أن مرت كافة السيارات، عاد الى الدكان وكان كل جسمه يضحك فقال مرتبكاً: كلهم كن نساء، نساء..!!

قالت آمه خان على رسلها: اصمتن يا بنات، يسمع منكن الرجل" وقالت مع نفسها ايضاً: انه رجل سيء الاخلاق جداً، والاّ فان زوجته كأنها عروسة وهي على قدر ابنته" سألت صبرية: زوجته من اى تسلسل؟" لقد ارادت حەپسەخان ان تنهي حديثهن، صبت صفاً من الشاي ونادت: عزيزي بەخە تعال خذ هذه الشايات للرجال، وانتن يا بنات هاكن شاياتكن، فلتأخذ كل واحدة شايها، قالت آمه خان: الا يا اختي حەپسه.. لماذا نحن كسائر الناس لانذهب الى مكان نتنزه ونتفسح فيه، حشرنا انفسنا في عقر دارنا" اجابت أختها: يبدو انه كتب على جباهنا كلما نسمع خبراً تخفق قلوبنا" قالت آمه خان اثناء ماكانت تصب الشاي: تريدين الحقيقة كما يقال ذنبك على جنبك فنحن نتحمل هذه الوضعية كثيراً، فلنسافر الى قەرەداغ مدة اسبوع، فالناس يذهبون الى قەرەداغ والغيضة في حين ليس لهم معارف هناك.

بينما نحن أطال الله اعمارنا، لنا هناك اثنان من ابناء العم، وضعهما المالي جيد، يعتبان علينا دائماً عدم زيارتنا لهما، لانذهب اليهما ولو مرة واحدة، فلنأخذ الاطفال معنا ونذهب" قالت حەپسەخان: جيدجداً، فليعد حسين غداً، سنأخذ هو ايضاً معنا ان شاء الله ونسافر" فحين ذكرت اسم حسين، احمر وجه نەسرين وقالت: متى يعود..؟ غداً؟!" قالت حەپسەخان فرحة: اجل حبيبتي سيعود غداً، فداكما روحي" قالت نەسرين باستحياء: لاسمح الله خالة العزيزة لاتقولي ذلك"

سمعن فجأة ان والد نەسرين وسعيد افندي والاولاد في حالة صياح وعياط، يتجادلون على شيء ما. قالت حەپسەخان بلهفة: اصمتن قليلاً يا بنات، لنعرف لماذا هذا الصياح والصخب؟ وحين أصخن السمع كان سعيد افندي يقول: لا أفهم لماذا تتوتر اعصابكم الى هذا الحد، فأنا لم اكفر. فأقول لقد جن هؤلاء المتسكعون، لماذا لايكفون؟ يفتقرون لأى شيء، لماذا يسببون قتل الناس، فاليوم وحده كسروا رؤوس ثلاثة جنود، طبيعي هم ايضاً لايسكتون. رد عليه كاكه حاجى وابناه بەختيار و نەورۆز معاً، حدّ ان كاكه حاجى قال: اسكتا انتما يا إبني، فلأ تكلم أنا في البداية" ثم قال: كيف يا سعيد افندي، هل ان الناس فعلوا بهؤلاء الجنود إعتباطاً؟ فهل جنّوا ؟ يبدو ان هؤلاء السافلين فعلوا عملاً ما لم يتمالك الناس أنفسهم بعد"

علق نەورۆز قائلا: اولاً ان الذين تتحدث عنهم ليسوا متسكعين، فهم افضل واشرف من رؤوس الذين ينعتونهم هكذا" قال عمه بحدة اكثر: صه يا ابني، على مهلك، فهو اكبر منك، اسكت فليكمل والدك كلامه" قال بەختيار مع نفسه: اجل لايفعلوا ذلك، ويقعدوا مثلك في الدكان ويطلوا وجوههم بالكريم كالنساء، ويتغازلوا مع نساء وبنات الناس، ويقرضوا العجائز البائسات ويأخذوا الربا بثلاثة أضعاف، كان والده وسعيد افندى مستمرين في الصياح والصخب، وكانا يجادلان على قدر من الحدة، اذ لم يكن يسمع احدهما الآخر.

قالت صبرية: يا امي الحقيهم.. والله اخاف ان يتشاجر عمي، قالت امه: اصمتن انتن أولاً لنعرف اولاً ماذا يقولون عندئذ اذا إقتضت، الضرورة اذهب" وحين اصخن السمع كان كاكه حاجى يقول: المسألة ليست كذلك كما تقول

انت، ان هذين القرويين المسكينين لم يرتكبا ذنباً، كانت دجاجتان وديكان فوق الحمل، يقال ان الجنود ارادوا ان يشتروا منهما الدجاجتين، ولكنهما لم يفهما ماقالوا، فجعلوا فتى مترجماً لهم، إن القرويين قد قالا لانبيع الدجاجتين لقد جلبناهما كهدية، عندئذ ينهال عليهما الجنود ضرباً بالعصا والركلات والصفعات. اهذا ضمير، اهذا دين؟" قال سعيد افندي: اذا كان ابن الكلب هذا لايبيع الدجاج فلماذا يأتي بها؟ ان حاجي مجيد الذي لم يتكلم الى ذلك الحين لأن البيت بيته، ولكن بدا عليه انه لم يتمالك نفسه ايضاً، صرخ بعصبية وقال: لماذا هل انه شيء اجباري، انه ملكهما ولايبيعانه، ومع ذلك قالا لهم إنهما جاءا بهما كهدية!"

عندما وجدت حەپسەخان ان لامناص في ذلك، قامت وتقدمت نحوهم وقالت: الا ابي اخي ماذا دهاكم، عم تتصايحون؟ صلوا على النبى، لماذا أثرتم غضبكم؟ ان ذينك البائسين قد اعتقلاً، فالله يعلم ماذا فعلوا بهما، ان صياحكم ومشاجرتكم لاتغير من حالهما شيئاً، صلوا على النبى وكفى" عندئذ لزم هم ايضاً جانب الصمت. ولكن قالت باجى پيرۆز: الله لايرحم شبابهم، وينتقم منهم بجاه فخر العالمين" قالت صبرية: بالله عليك باجى پيرۆز كفى لاتعيدي الموضوع" قام سعيد افندي وقال" الليل متأخر وانا في أمان الله" قال حاجى مجيد: فلا يزال الوقت مبكراً، إجلس قدراً آخر لنتحدث عن الكسابة والسوق، ما لنا وشأننا بهذه الموضوعات؟" قال سعيد افندي: لا والله يا حاجى من الافضل ان اعود الى البيت فالليل متاخر، استودعكم الله: وهم جميعاً ودعوه ماعدا كاكه حاجى صمت الى ان خرج فألقى عليه من ورائه تفلة بحقد وقال: عسى ان تزهق روحك يا رجل، بالله عليكم أهذا رجل يملك ديناً! ولو أنني غير منتم، ولكن لأكن غير منتم، أو لست انساناً؟ رجلاً؟ حسناً حيث انك ليس لك اي نفع، يا نذل، ولايكون لك ضرر؟ مدّ يده الى جامانته فتحها فشدها مرة ثانية وقال: انه جالس يسب اخاه الكردي ويلتزم جانب اولئك الجنود الانذال!" علقت حەپسەخان قائلة: ياالله، كاكه حاجى لاتهتم، سلمت يداك ولافض فوك، وانت لم تقصر معه" التفتت اليه صبرية وقالت" فما شأنه حتى تجادلوه، فهو جرثومة جرثومة!!" قالت آمه خان" قوموا يا اولاد، فلنعد نحن ايضاً، عليهن ان ينمن مبكراً

سيخبزن غداً". قالت حەپسەخان: لم الاستعجال؟ فما يزال الوقت مبكراً. قالت آمه خان: لاوالله، فلنعد. قالت اختها: حسناً ماذا تقولين: لو تنام نەسرين الحبيبة عندنا هذه الليلة، فلنا اشغال كثيرة غداً، ثم التفتت الى نەسرين مبتسمة وقالت: وغداً يعود حسين الحبيب.. ضحكت آمه خان وقالت: جيدجداً فلتنم هنا، فأتصور انها نفسها تريدها من الله" حيث أن نەسرين بدون رضىً وعصبية مفتعلة، ادارت وجهها عن امها وقالت: اواه امي انك لاتكفين عن مثل هذه الهزليات" بينما كان قلبها يدمدم فرحاً. ظلت نەسرين والباقون استودعوهم وراحوا. ومن بعدهم شرعن بجمع الاشياء وتنظيف البيت، وحالما انتهين من الشغل قالت روناك: انا منهمكة قليلاً اذهب لانام، وهكذا بعد ذلك راحت الجميع لكي ينمن.

(٦)

كانت روناك تتقلب في فراشها، ومهما كانت تحاول فلم تنم، كانت تفكر في الذين وقعوا في قبضة هولاء الجنود المتوحشين، كانت تتخيل مشاهدهم المؤلمة كفلم سينمائي، قالت مع نفسه: لا اعتقد ان بقي القرويان على قيد الحياة...من المعلوم ان قضوا عليهما حالاً، يا ربي الكريم لماذا انا مررت بهذا المكان فلتكسر رقبتي، ما اوقعني، ماكان يحق لي ان اقتفي آثار اقدامهم، ربما كانوا يقضون علي، والله كانوا يدنسون عرضي، فالله يعلم ماذا يفعل بي آباؤهم اخواتهم واهلهم، ولكن كيف ذلك؟ لماذا ينهال هؤلاء ضرباً على هذين القرويين المسكينين؟ في الحقيقة كأنهما شحاذان، ممزقا الملابس، فأحدهما بدت ركبته من سرواله الممزق آه كم اشفقت عليهما! فما أسعدهما حين وصلا المدينة بعد كل هذا الاذى والمتاعب ووعثاء الطريق، الله يعلم من أين جلبا هذين الحملين من الحطب، وما اشد ضربة اشعة الشمس عليهما وما اكثر مما تحملا الحر على امتداد المسافة البعيدة.

ولذلك كان يحملان المزود، ولكن أي زاد سفر عمت عيناي، حين نزع الجنود المتوحشون منهما وفتحوهما ونشروهما كانا يتضمنان خبزين ثلاثة يابسات فقط وبعض حبات من العنب كان الفتى الأكثر نحافة الذي تمزق سرواله فوق ركبته، لم يكن يتجاوز الخامسة عشرة، السادسة عشرة من عمره، فلتمت امه، شرعت روناك تبكي، وقد غطت رأسها باللحاف فتنفست بشهقة وقالت: آه يالهي لم يقل السلف (**ينقضي النهار ولاينقضي قضاء الله**) و الاّ فأنا اين وهذه الضجة والجلبة أين، ليتني حين كلفتني والدتي ان عيد لها ملابسها ان اقطف لها و رق العنب، وعندئذ كنت ذاهبة من اجل ملابسها، لا كنت اصادف هولاء ولاكنت افعل هذا العمل ... أجل قلت الآن من يدري، فالذي فات مات (وهي

اثناء هذه الافكار التي كانت تمر بخاطرها، كات تتقلب، واحياناً حين كانت تغفو، كانت تحلم أحلاما مزعجة وتنتفض وتصحو.

من المعلوم ان هولاء الفتيان والفتيات على صواب حين يفعلون ذلك، أمن المعقول ان يمسهم السحر والجنون بأن يفعلوا ذلك عبثاً ويعرضوا انفسهم للموت والاعدام. وكما يتحدثون ان هذا الكرد المعدم كان دوماً يعيش هذه الحالة، ولا نبتعد بتاتاً، فلتعم عيناي يا ربي، كما تذكرها والدتي حين كنت حينذاك صغيرة جداً. كان خالي منكباً على النضال دائماً، كيف انهم شنوا هجوماً على بيته، وقد وجدوا عنده جهاز الطابعة والمنشورات وأشياء اخرى كثيرة ممنوعة، فاعتقلوه على اثرها ثم اعدموه مع اشخاص آخرين بطلقات طائشة، وقد ماتت جدتي أثر ذلك هما وكمداً، لدرجة ان احداً لايتجرأ ان يذكر اسماءهم عند امي و خالتي على الرغم من مرور كل تلك السنين..مهما يكن فلن اعد مرة اخرى الى روناك الماضية، ولااريد ان اصبح، ثم من الآن فصاعداً ان تكلفني باجي صبرية القيام باي عمل سأنفذ لها على العين، وان اعطيتني أي شئ سأوزعه بكل جوارحي، ولا ادمدم قطعياً. حتى وان اعتقلوني، بالنار والسقر... او انا اكثر من الناس الذين يعتقلون؟ ثم لماذا؟ زعماً انني أيضاً قادرة كما فعلت الفتاة التي قرأت لي اختي صبرية ذلك اليوم حكايتها؟ لماذا هل الفتاة الكردية أقل شأناً منهن؟ فالفتيات الكرديات أيضاً بامكانهن ان ينفذن الأوامر مثلهن وأحسن منهن! غريب جداً كيف تغير رأيي هكذا؟ حيث كان يوم أمس بالضبط كدت ان أفزع حين سلمتني اختي صبرية البيانات لأخذها الى البيوت المشخصة!! عيب وخجل، و من الآن فصاعداً سترونني ما أفعل...

هكذا كانت روناك غارقة في خيالاتها، ولم تعرف كيف ومتى استسلمت للنوم، ولكن استيقظت في وقت مبكر صباحاً من صلوات ست پيرۆز وخرير الماء وذكر العجين والحطب اليابس واشعال النار في التنور، ونهضت و جلست على فراشها الى ان هيأت نفسها ورفعت فراشها، خرجت فغسلت وجهها، ثم ذهبت الى عند والدتها، التي كانت جالسة امام السماور. وكان والدها في طرف آخر يأكل الفطور، فحين أبصر روناك قال: لماذا نهضت مبكراً عزيزتي؟ قالت روناك: أولا نخبز يا والدي العزيز، قال والدها: "يالك من شيطانة، فانت

لاتعرفين ان تخبزي. قالت والدتها:حسناً ما فعلت وقمت في وقت مبكر، فداها روحي تقدم لنا الخدمة استودعهن حاجي وقال: الآن ارسل اليك اللحم والاشياء بـ (توّفه). الا تريدين شيئاً آخر؟ قالت حەپسەخان لا والله، فالشكر لله عندنا كل شئ، شكراً جزيلاً!

وحين نهضت **نەسرين وصبرية** وأكلتا الفطور، كانت باجي پيرۆز قد إنتهت من تعجين الطحين منذ مدة، واشعال النار في التنور، وهيأت اللوحة الخشبية للمعجنات والشوابك و المفرش والمرفقات.

لقد فرحت نەسرين جداً لأن حسين كان يعود ذلك اليوم، ولأنهما منذ ذلك الوقت الذي لبست دبلة الخطوبة و قطع مهرها، كان هو مسافراً الى شهرزور و لم تلتق به، ولهذا كانت تنتظره بفارغ الصبر، ولكنها تستحي التعبير عنه.

كانت صبرية التي منذ يوم أمس كئيبة خامدة، فحتى حين نهضت من النوم بدت محزونة الفؤاد، همست امها في اذن روناك و قالت: حبيبتي نونه هل انت ايضاً لاتبدو في نظرك ان صبرية منذ ان عادت الى البيت يوم امس فهي خامدة حزينة جداً؟ يا ترى ماذا حدث لها؟ روناك التي كانت تعيش في دوامة تخيل القرويين وكذلك الناس الذين تعرضوا لما حدث لهم بسببها، رجعتها همسة والدتها الى صوابها وبحالتها الطبيعية قالت مضطرة من أجل خاطرها: ماذا أقول والدتي العزيزة اذا تريدن الحقيقة فأنا أيضاً اراها مهمومة! قالت حەپسەخان: حاولي ان تعرفي سبب ذلك، وقد تبوح لك: أو ترين كانت تقول هذا الصباح: اذهب فلي شغل! قالت روناك: ولكنها تعرف بأننا نخبز!" قالت أمها ضاحكة: ياحبيبتي نونة، لماذا أو تعرف صبرية حين أرادت أن تخرج من البيت، بأننا ننشغل بالتخبيز وما شاكل ذلك، ماذا كانك لست منتبهة؟ " قالت روناك بضحكة مصطنعة وعلى رسلها: لا يا أمي الحبيبة لاتقلقي علي، وأنا في حالة جيدة، وفيما يتعلق بصبرية سأبحث عن أصل وأساس ماعليها لأعرف ماسر ذلك، ولكن ألا يحتمل ان تردت علاقتها مع خطيبها؟ ! قالت والدتها بهدوء: أيمكن ذلك؟ لا أعتقد ان يكون هذا سبباً" وهكذا لاذ تا بالصمت. ولكن سرعان ما وقفت روناك في دوامة مما وقعت فيها يوم أمس، وكانت تقول لنفسها" ألآن افعل أي شئ فلا تعود الاعمال التي حدثت والناس الذين اعتقلوا وقتلوا فلن

تعود كما كانت، و لكن عهداً عليَّ الآ أنسى هذه الواقعة، ومادمت على قيد الحياة وعلى قدر المستطاع ان آخذ الحق من هولاء الظالمين. وي كيف يمكن نسيان ما آل اليه من مصير ذينك القرويين من المذلة والضرب المبرح. فأنا رأيت فقط شخصين، فالله وحده يعلم، ما فعلوا بالمئات والألوف الابرياء بمثل مافعلوا بهما وأسوأ من ذلك!"

ان هذا التخيل والتحليل بالنسبة لروناك، لفتاة في ١٥-١٦ سنة من عمرها كان شيئاً غريباً، ولو ان محيط تلك المدينة والبيت الذي ترعرعت فيه لابد من جذبها الى ذلك الجانب.

***

قامت حەپسەخان متوجهة نحو باجي پيرۆز، وقد جاءت جارتها حەلاو مع أُختها نەسرين الى حيت التنور، كل واحدة منها جلست قبالة لوحة معجناتها، فبدأن بعمل الخبز، وبعد نصف ساعة قالت حەپسەخان: عليك يا نەسرين أن تقومي من وقت مبكر لانه لابد من تنظيم البيت قليلاً ونطبخ شيئاً شهياً لحسين الحبيب، إن شاءالله سيعود وقت العصر" اجابتها نەسرين قائلة: لا ياخالة فاذهبي انت نحو امور البيت فلا تتعبي نفسك بعمل الخبز" قالت خالة: أواه حبيبتي نەسرين أي تعب ما تقولين أو أنقل حملاً على ظهري، فأنا بنفسي أرغب في عمل الخبز، وأريد ان احرك قليلا كتفي و ساعدي كما يقولون " يا عزيزتي انه رياضة بدنية، ضحكت وقالت: لئلا أسمن" قالت نەسرين مبتسمة: ثم اين انت من السمنة؟!

والله ماشاء الله انك أجمل منا جميعاً. قالت مع نفسها "ما ذلك على أرنبة انفي" لكي لاتصاب خالة بالعين.

قالت الخالة: ألا تتحدثين عن من؟! عزيزتي أي جمال، ماذا بقي فيَّ علقت باجي پيرۆز: كيف تطاوعين قلبك! أهناك أجمل وأروع وأفتن منك؟ قالت حەپسەخان: حسنا حبيباتي أفرحن قلبي"

كن على هذه الحالة فيما بينهن من المزاح و الضحك حين دخل توفة البيت بحمولته، وضع حمولته فرحبن به"

قال توّفه: اعملن لي كاهي، قالت باجي بيروز: انت والخبز المتدهن على العين والرأس. قال توّفه: سلمت عيناك، ولكن أنا لم اقل الخبز المتدهن أقول كاهي"

حەپسەخان كل ماتقوله على العين! أدار توّفه عينيه وقال: أين نونەخان؟ ليست هنا، انها نخفي نفسهاعني"قال بصوت عال: والله لو تذهبين الى السماء لابد ان تشتري لي علبة سجاير، لاتخفي نفسك عني! خرجت روناك ضاحكة وقالت: سلمتك لله متى رأيتك لكي أخفي نفسي عنك!؟ انتظر قليلاً فأذهب لأتي لك بها، قالت له حبسةخان: اصبر قليلاً حتى يشوي رغيفك، وها ذهبت روناك لتجلب لك علبة السجاير. قال توّفه حالاً: أين صبرية؟ لتأتي لتعمل لنا الشاي، ضحكت النسوة وقلن: ياله من رجل يخفي كثيراً، لكنه يظهر قليلاً" ثم ان توّفه كأنه رأى تواً نەسرين قال: ها يا نەسه الكسلانة، فانت أيضاً تعملين الخبز" لقد انتابت نەسرين ضحكة قوية كاد ان يقع الشوبك والخبز من يديها، وحين خمدت شدة ضحكتها قالت: يا توّفه أيها المزعج أو أنا كسلانة؟! قال توّفه: ياترى أو انت نسجت كل تلك الفرش والسجادات؟ : شرعت النسوة جميعاً بالقهقهات، وقد خرجت صبرية أيضاً من الغرفة وقالت: ماهذا يا توّفه فندي ماذا تتفضل؟" قال توّفه: لاتثرثري كثيراً، ياالله اذهبي حضري لي شاياً لأشربه مع هذا الكاهي.

ضحكت صبرية وقالت: تؤمر بك "جلس توّفه بيده علبة سجاير اشترت له روناك، فتحها وأخرج منها سيجارة. قالت حەپسەخان: عزيزي توّفه، لماذا أخرجت السيجارة منذ الآن، على ألأقل انتظر بعد خبزك وشايك" هز رأسه، وسكت قليلاً ثم قال: اُف من تدخين هذه السجاير، لماذا يدخلون هذا الدخان الوسخ في صدورهم النظيفة؟ كأنهم لايعرفون مدى تأثيرها السئ على تنفس الناس، اضافة الى ذلك فهم اطفال الامس يدخلونها، وكأنهم شيوخ حين ينهضون صباحاُ حدّ مايسعلون. ماعندها طائل ولا ناكل، فتباً لها، احتار جداً على رغم من انها تسبب الامراض الفتاكة، ولكن هولاء الناس لايتهيبون منها سيظلون على تدخينها، بربكن هل ان السيجارة خبز، ماء، يا ترى ماهي؟ وانت تدفع كل هذه النقود الجميلة لتشتري بها هذه العلة والمصيبة! نظر توفة الى

حەپسەخان وقال : لم يعد بالامكان الآن ونحن في زمن الشيخوخة ان نتركها، فإذن لاتثرثر اكثر! ضحكت حەپسەخان وقالت: حسناً، لنعرف ماذا يحل بك فيمابعد". قال توّفه: والله يحل بي أسوأ من هذا، لا أدع احداً ان ينام ليلاً، لكثرة ما أضرب لهم طبل السعال" بعد وقفة تنهد وتحسر قال: لكثرة الهموم التي تداهمنا، ان لم نركن الى التدخين سنجن. طبعاً سمعتن مافعلوا يوم امس بذينك القرويين البائسين؟ وحتى الآن لايعرف احد ماذا حل بهما بعد ان اُقتيدا يوم امس الى المعسكر؟ رأيت صباحاً الجندي عمر في الجامع، فكان يقول انهالوا عليهما ضرباً حتى الساعة الواحدة، الثانية ليلاً، وهما كان يصرخان، ثم انقطع صياحهما، وقد حاول كثيرا ان يعرف ماحل بهما ولكن دون جدوى.

لقد اوجس الخوف كثيراً بأنه متضايق من أجلهما، بأن يبتلوه بمصيبة وقال: أتصور ان أحدهما سرعان ما قد مات تحت التعذيب، ولكن حسب قوله، فأن ذلك الجندي الذي رمي بحجر، نقل حالاً الى مستشفى كركوك ويقول انه في حالة خطيرة.

مصّ توّفه من سيجارته مصتين ثلاث وقال: ولكن أقول من جهة اُخرى انه برئ، فإن هذا الجندي لم يأت برغبته، والله ان البعض منهم على قدر من الصغر فيبكون على امهاتهم وآبائهم، كلهم من أهالي المنطقة الجنوبية، حيث ان هؤلاءالتعساء قد أجبروا على الخدمة العسكرية" علقت نەسرين وقالت: اُف لهم يالهم من مكروهين، لاتلزم جانبهم ولاتدافع عنهم الى هذا الحد يا أدرد الفم، ان لم يكونوا فعلاً حاقدين وعديمي الشرف فلماذا ينهالون مباشرة على الناس ضرباً بالعصا والركلات، فان عبدالكريم قاسم لم يقف مسلطاً عليهم حتى يشهروا المسدس ليقول لهم هيا افعلوا ذلك ، والاّ سأطلق عليكم الآن رصاصة! انهم انفسهم حاقدون وليسوا من بني البشر فيكرهون الكورد." رفع توفة يده وقال: اسكتوا ان المفتشة قد نطقت يابنت، أيتها الكسولة من أين تعرفين هذه الأشياء؟!

والله عندما ذهبنا ذلك اليوم مع علي بسيارته الخاصة الى طرف سرجنار وكان معنا إثنان ثلاثة من الأصدقاء ودعناهم من هناك، وقد شاهدنا عدداً من الجنود لم يمنعونا فقالوا: "روح كاكه لاتدر بال" حين سمعت النسوة اللهجة

العربية لتوّفه ضحكن جميعاً. وقالت باجي پيروّز، شكراً لله فإن كاكه توّفه يعرف العربية أيضاً" وقال هو أيضاً: وكيف ذلك، ألم أكن جندياً في حينه؟!

اتت صبرية له بالشاي والكاهي، وبدأ توّفه يأكل، سألت حەپسەخان: ألا يا توّفه، لم تسمع عن علي خبراً، ياترى متى يعود؟! أُفكر فيه كثيراً!

هز توّفه منكبيه قليلاً وقال: كل ماأعرفه، عندما وصلت اشياؤه يوم امس أنزلناها جميعا، والصناع الخدم مشغولون لحد الآن" قالت حەپسەخان: فداك روحي لاتغفل عنهم! قال توّفه مبتسماً: والله احسب المسامير كم عددها لاتفكري فيّ.

استطردت حەپسەخان قائلة: فعلاً اذا ما وصلت نەوبەهار خان الى بغداد من يعيدها الى السليمانية ؟ قال توّفه: ياالله ابدئي مجدداً بأقوالك الحلوة، ماذا تقول نەوبەهار المسكينة؟ لم ينجز عمل ابنك بعد. قالت حەپسەخان: والله حتى وان استكمل شغل ابني، فهي لاتعود مالم تتجول في جميع اسواق ودكاكين بغداد. قال توفة: إنها شابة وهي مع زوجها فليتجولا قليلاً ويتنفسا، فإذا ذهبت انت الا ترتاحين. أقليلاً كنت تتجولين مع كاكه حاجي. بعد هذا الكلام نهض واقفاً وقال: تأخرت من الأفضل ان أعود الى دكان كاكه علي. ودعهن و ذهب، ولكن النسوة مازلن كن يضحكن من أقواله، حەپسەخان اكثر منهن.

***

(٧)

كان وقت العصر حين قالت للنسوة: انهضن فلنتمتع بقسط من الراحة، حبيبتي (نەسه) وانت ايضاً قومي فكفي، اذهبـي الى حيث عملك، وقالت لها بهدوء: حياتي اذهبي : حياتي اذهبي أولاً الى الحمام و كبي الماء على نفسك، وقد أضحى كل جسمك طحيناً، وهي دون ان تنطق توجهت الى الحمام.

وحين اكملت روناك و صبرية أشغال بيتهما، ذهبتا الى غرفة صبرية فجلستا صامتتين، وبعد قليل قالت روناك: باجي صبرية ماذا دهاك فمنذ يوم أمس خيّم عليك الحزن والكآبة، وتبدين متضايقة؟ ! قالت صبرية: لا لست متضايقة، ولم تخيِّم علي الكآبة! ماذا ولماذا يجب ان يقهقه الانسان ضاحكاً دائماً؟! صمتت روناك قليلاً، ثم قالت محزونة الفؤاد: حبيبتي باجي، لاهذا ولاذلك، انك مهمومة جداً، وأنا يكاد قلبي ان ينفطر، أخاف ان حدثت فجوة بينك وبين كاك شيروان، خفضت صبرية قليلاً رأسها خجلاً و قالت: لا، ليس شيئاً من هذا القبيل، ولكن من أين انت تعرفين تلك الاقوال؟! قالت روناك: ولكنك صامتة مهمومة جداً، بالله عليك، بجاه رأس ابي، ورأسي حسين وعلي اذا لم تقولي لماذا؟! قالت صبرية بعصبية: الله لايبارك فيك، أو انت تحاكميني؟ أن غضبها ازعجت روناك الى حد، ان صبرية احست بخطئها حالاً وندمت، قامت وجاءت الى طرفها فمدت رأسها وقالت، الا والله تشاجرنا،كيف عرفت ذلك ايتها الشيطانة المكارة؟ قالت روناك: وكيف لا اعرف، فكلما تختلفين مع كاك شيروان تبدو عليك الكآبة والملالة الى حد ما، مدت صبرية رأسها مرة اخرى باكتئاب وقالت: هيا لاتهتمي فلنذهب الى حيث طبخنا، اخذت بيدها وخرجتا من الغرفة.

***

قريباً من المساء زينن الباحة، وقد طبخت صبرية تمناً (قبولي) وبامية طيبة، وقد بدلت ملابسها، و كانت نەسرين تركز نظرها على الباب، وحالما كان

يطرق الباب يخطف قلبها ظناً منها انه حسين، ولملمت باجي پيرۆز شحنتها من المتاع و التي وضعت لها حَبسةخان، حيث تضمنت كلاً من الصاية والصدرية فصاعداً الى كمية من الخبز و الرغيف المتدهن واشياء أُخرى كثيرة ولم تدعها ان تعود للبيت حتى تتعشى عند الجماعة، وكانت روناك تسلي نفسها أحياناً فتتعهد مع نفسها، واحياناً كانت تتذكر الحادثة فتوجس خوفاً وتنتابها الكآبة، والسآمة .

طرقوا الباب ، فذهبت باجي پيرۆز وفتحته، وصرخت بغتة: وافرحتاه لقد عاد حسين الحبيب! هاتي حەپسەخان بشارتي! ركضت الجميع نحوه استقبالاً وعانقهنه، ماعدا نەسرين التي اصطنعت الرزانة خجلاً وتحملت وكانت آخر من جأءت فرحبت به. وقد رد عليها حسين بسرور بالغ، فأحمر وجه نەسرين، ولم تعرف ماذا تقول له، وكان حسين متلهفاً ان يقترب منها ليدقق النظر فيها كثيراً، لكنه استحى ان يحملق فيها، خجلاً من والدته واخوانه، وباجي پيرۆز حين كانت تدعوها تعالي يا بنت الى جانب حسين الحبيب، فانه يحن اليك كثيراً، أو حين كانت حەپسەخان تقول ياترى متى تتم الدخلة هيا رتب لنا حفلة الزفاف بسرعة، كان الاثنان يحمر وجهاهما استحياء وتخفضان رأسيهما خجلاً، وليس ذلك وحده، حتى ان نەسرين غضبت منها، ولكن في الحقيقة كأنها تتحدث من صميم قلبها، كما ان حسين كان يقول لها في قلبه سلمت يداك ولافض فوك، لكن حەپسەخان كانت مشغولة بتقبيل حسين وتروي له موضوع أخيه علي وأقاربه. قطعت كلامها فجأة وقالت: قم فداك روحي كب الماء على جسمك في الحمام.

قال حسين: امي العزيزة والله اغتسلت قبل مجيئي ولبست الملابس النظيفة، أو هذا وجه الحمام؟! ضحكت حەپسەخان وقالت: حسين و الله لقد اسود واغبر وجهك على قدر آخر فكنت أتصور لم تغتسل منذ شهر. قالت أخته صبرية: أُتركيه وشأنه، انه أيا يكون فهو وسيم خفيف الدم، انه رجل لايريد الجمال. فالجمال حسن للنساء. قالت حەپسەخان: فداه روحي، ان ابني رجل شهم، له طباع رجولي. علق حسين قائلاً: هيا هيا مزيداً من المدح والاطراء، وانت يا نەسه ماذا تقولين. نهض واقفاً فدس يديه في حزامه وأدار عينيه فيما حوله، هيا هيا قولي انت أيضاً شيئاً لأعرف هل أنا وسيم كما تقول صبرية أو

أسود أغبر كما تقول أُمي؟ قالت نەسرين بضحكة خجولة، كلاهما، ضحكن جميعاً ماعدا روناك التي كانت صامتة وكانت قاعدة على كرسي، ذهب حسين فوقف من ورائها، مسك كلتا جديلتيها الجميلتين المسترسلتين بشئ من الهدوء وقال: ها... يانونة الشيطانة فأنت لِم لاتتكلمين؟ قبلها وقال: بالله كنت أشتاق اليك كثيراً. فأنتفضت روناك وقامت فطوقت جيده بكلتا يديها، فأشبعت منه تقبيلاً، وما أن جلست ثانية حتى وان تراءت لها هيئة الشخصين في يوم امس حيث انهما أيضاً لهما الام والاخت، وهما هكذا محبوبان عند أهلهما، يحتمل ان ينتظرونهما، وليس من المستبعد أن يكون الكبير متزوجاً وله أطفال ينتظرونه.

***

انتهوا من أكل الطعام والفواكه وكل شئ. قالت نەسرين: وأخيراً لابد أن أعود الى البيت، نهضت حەپسەخان وقالت: لا فداك روحي، ابقي هنا هذه الليلة أيضاً، كما قال عمها: أي ذهاب: علقت صبرية قائلة: لاتذهبي، غداً نخرج معاً، فأنا أيضاً لي شغل. وكان حسين يخجل أن يتكلم جراء والده، وكانت نەسرين في حالة (بالله وكيف) ثم بعد ذلك كأنها تريدها من الله ذهبت الى حيث البنات، قعدت ثانية ساكتة.

سأل حسين: الا ياوالدي. ما وضع أعمالك؟ أجابه والده: والله يا بني لابأس بها، ولكن لايمر يوم بحيث لايحدث شئ في السوق، ولايثير رجال ألامن والعسكر ضجة، حالما يوزع بيان يتقاطرون على السوق والدكاكين ويعتقلون الناس. رسمت ابتسامة على شفتي حاجي وقال: مرحبا بهذا فالحزب مجاز يعمل علناً، واذا كان مثل عهد نوري سعيد كان سرياً ماذا كانوا يفعلون بهذا الناس؟ ! مّسد لحيته وتنهد وقال: بالله ماكان منح إجازة الحزب برغبتهم، فكانوا مضطرين في ذلك، كونهم تسلموا زمام الحكم مجدداً، وكانوا كثيري الاعداء، والآن إستقرت لهم الامور، عليه – يتحججون بالكورد، فها انهم شرعوا بالضرب كواقعة القرويين المسكينين يوم أمس، روى له الواقعة بشكل مقتضب، ثم قال بإكتئاب: ابني حين يموت شخص لايتجاسر الاصدقاء والمعارف والأقارب ان يشيعوه ويرافقوه الى المقبرة، لأنهم يعرفون سيلقون القبض على أشخاص منهم غداً، والله تكلموا يوم أمس ضد الحكومة. تأفف حسين وقال: لاأدري الى متى

يبقى شعبنا هكذا، وتجري محاولة قتلهم وإبادتهم من كل الجهات؟ رد والده: أسوأ من كلها، لا أحد ان يقول لماذا تفعلون بهم هكذا؟!

في حين اذا ما قتل شخص أو شخصان يغرقان أثناء السباحة أو أن أحدا يذهب لتسلق الجبال فيهوي نحو الاسفل، تتحدث عنهم جميع صحف وإذاعات العالم ليل نهار.

ولكن يقضون على الكورد يميناً ويساراً ويقتلونهم، في حين لايذكرهم أحد، سيما الذين لا يهز وجدانهم هذا الظلم والاستبداد، على الأقل أن يدافعوا عنا بالقول: صمت حاجي قليلاً، ثم هزّ رأسه وقال: إبني نحن أيضاً مسيئون، وان لم تقتلنا الحكومة فنحن نتقاتل فيما بيننا، أليس هولاء الجحوش المرتزقة أكراداً؟ هناك أشخاص حينما تقول لأحدهم روْژباش (صباح الخير) يستهزئ منك ويقول خف وكلاش (گيْوه). وينسون آباءهم وأجدادهم. قال حسين: والله ياوالدي العزيز يجب ان يلتزم أحدنا جانب الآخر ويدافع عنه يجب ان يكون لنا شأن ونكون كتلة واحدة، وحتى ان نكون على هذا الحال متفرقين مشتتين اخوة اعداء، لن نحقق أية امنية، وبالعكس تتحقق امنية أعدائنا، ونكون هكذا ضعفاء واهنين. فقال والده حاجي: يابني لم يقل السلف كذباً (ان كان الأخ ظهيراً لأخيه، الآ اذا المصيبة تكون عند الله). والله اذا ماتوحدنا، وانتهى بيننا هذا الخصام والشغب، والاقتتال فيما بيننا، نتحدى الجميع ونبلغ المنى. قال حسين: ماتقوله صحيح جداً، وحينئذ يحترمنا الناس ويذكروننا ويحسبون لنا الحساب، ولكن أعتقد لن نحقق شيئاً بتوزيع البيانات والتظاهرات وحدها، يجب علينا نحن أيضاً إلاّ نقف مكتوفي الأيدي دون مواجهة، والاّ لانبلغ المنى بل يقضون علينا.

يقول المرحوم فائق بيْكەس:

ان شجرة الحرية لاتثمر مالم تسق بالدماء
لايتحقق الاستقلال أبداً دون التضحية
على المرء الاّ يجفل من الموت لإنتزاع حقه
فليسقط وحده لايكفي ان لم ينتزع لايعطى

وصلت حەپسەخان الى السطح، قطعت الحديث بينهما فالتفتت الى زوجها و قالت: دع عن ابنك يا عجوز ولاتخلق له تلك الهموم، مسكت ذراع حسين وقالت: هيا تعال الى عندنا، نهض حسين واقفاً ولمس خد والدته وقال: حەپسەخان ما شأنك بذلك؟ قبلته حەپسەخان ثانية وقالت: تعال اجلس قليلاً عند البنات، وقام حاجي وقال: إذن طابت ليلتك يا بني فأنا تعب اذهب الي فراشي واستلقي على ظهري، قال حسين: إذن يا أُمي تعالي الى هنا مع البنات، جاءت حەپسەخان والبنات الى عنده وبعد قليل من الوقت قالت حەپسەخان: والله يا حبيبي انا تعبانة اذهب الى فراشي فنحن اليوم عملنا الخبز، قالت لهم تصبحن على خير وراحت، و قامت صبرية و روناك وكل واحدة بحجة وذهبتا، كأنهن أردن أن يبقى حسين ونەسرين وحدهما معاً. قال حسين: فها ان الجميع ذهبن، فقالت نەسرين بعد ذلك عليه اذهب فأنا أيضاً مرهقة.

مسك حسين يدها وقال: اجلسي يا بنت الى أين تولين، ان كل واحدة منهن تملصت وذهبت لكي نكون نحن وحدنا معاً. حسين!! قالت نەسرين : بالله عليك خوفا من عمي لئلا يرانا. مسك حسين يدها وسحبها وقال: ذهب عمك الى فراشه لايرى أحداً، وحتى اذا مارآنا، لماذا فأننا نفعل أي شئ ليكون عيباً؟ أولسنا حلال بعضنا البعض، أثناء الكلام ودون ان يطلق يدها نهض وراح فجلس على الكرسي الذي كان في جانبها، قامت نەسرين فجأة وقالت: لا.... خاطر الله كلهم يقظون، فليسوا في غفلة عنا. قالت ذلك فنزعت يدها من يد حسين فذهبت الى حيث صبرية التي فرشت لها بجانبها فراش النوم، وقام حسين أيضاً فتوجه الى فراشه و دمدم مع نفسه قائلاً: بالله عليكم أو ثمة فتاة مثلها كأنها قطة غير أليفة! في الحقيقة ان الدنيا غابة فيها جميع الانواع، ثمة فتيات مثل نەسرين، وهناك فتاة أيضاً تنزل الفارس من السرج، وأخيراً لم يكن له مناص استلقى على فراشه فاستسلم للنوم.

***

(٨)

في الصباح ذهب حاجي بعد أكل الفطور، وقد هيأ حسين ونەسرين انفسهما للذهاب الى بيتهما. لذلك قال حسين لأمه: انهما يتغديان في بيت عمه فلا داعي ان ينتظروه ظهراً، كما ان صبرية ذهبت بصمت وملل وضجر فبدلت ملابسها، ثم قالت لوالدتها بأن لها شيئاً من الشغل تريد ان تذهب الى الخارج. قالت لها امها بابتسامة: حسناً في حفظ الله و أمانه، ولكن استحلفك بالله وحياة حبيبك قولي لي لماذا انت كئيبة ملولة هكذا؟! فمنذ يوم أمس انتابني هم ولم يكن لي متسع من الوقت لأسألك. صمتت صبرية قليلاً، ثم أغرورقت عيناها بالدموع، قالت بحنجرة مملوءة بالبكاء، والله يا امي أي شئ اخفيه عنك، لقد حدث بيني وبين شيروان سوء تفاهم، فتحول الى حالة سيئة جداً، أوشك ان يخرب عملي، انه معقد و عنيد جداً مع رفاقه، يظن انه هو الوحيد في هذه الدنيا، حيث انه لوي يدي أمام دله خان بنت فهيمة، كاد ان يقلع ذراعي من أساسها، وقد تابعني حتى عتبة الباب وكان يقول اذهب حالاً اقول لوالدك و حين يعود كاكه علي اقول له كذلك. وعندما سألته ماذا حدث قل لي ماذا فعلت؟ ألآ يجوز أن اعرف أنا أيضاً؟ قال: أو هذا ليس شيئاً تطوفين دائماً في الازقة، فتذهبين الى عند هذا وذلك، لست في البيت دائماً أو لك ضيوف ولايعلم أحد بماذا تنشغلين! قالت أُمه: أجل اذن لهذا السبب لم يزرنا ليلاً، وقد استغربت و قلت عجباً لماذا لايبدو، ومع ذلك فلا تهتمي يا بنيتي فإن شيروان ولد لائق جداً ورجل، كل ما هنا أنه شديد قليلاً، وصريح الطبع والعبارة، فلا يبقى أي شئ في قلبه.لقد فرحت حەپسەخان بما فعل وما قال شيروان. قالت في نفسها: أوي فداه روحي، إذهبي وولي كمايقال: (**شبيه الشئ منجذب اليه**).

ثم سألت صبرية: الى أين تذهبين ألآن؟ فلتأت روناك معك، لئلا تتشاجري مع شيروان، وإذا ترغبين لاتخرجي اليوم من البيت، لتعرفي ماذا يقول هو. قالت

صبرية بإكتئاب: والله أنا أيضاً مترددة خوفاً من أن يأتي هذا المعتوه الى مكان إجتماعنا، ويرتكب جنحة أُخرى! آه حبذا كنت على إطلاع ماذا فعل بنا هذا الرجل؟ كان يصرخ مثل المجنون علينا وكان يقول أأنتن جئتن للاحتفال والتمتع بقضاء الوقت أو للكفاح، تلبسن ثوب الشيفون والصدرية المرصعة بالفلس وتزينّ. انه ينظر الى النساء بعقلية العصر الحجري، انه يكره كثيراً دله خان بنت عمتي فهيمة، يقول: انها كثيرة الضحك مع الناس، لا أدري ماسبب كل تلك القهقهات الضاحكة، فقال لها مئات الاقوال البذيئة أمامي. وأنا لم أتمالك نفسي فقلت: ألآ تريدون وأدنا ونحن على قيد الحياة، أو تريد ان نرتدي ثوب الخيش ونندب حظنا! فرد هو قائلاً: لاخيش ولاشئ كهذا الثوب الشفاف الذي تشف عما تحته صدوركن و نهودكن، أنتهكتن حرمة الزي الكردي، بالله عليك يا أُمي أهذا كلام يقوله شخص فيَّ؟ فأي عدم حشمة تكمن في ملابسي، ولو إني لا أُعير لأقواله تلك، ولكن لايليق به، لا أُحب مثل تلك الأقوال تبدر منه، الحمد لله هو شاب ومتعلم.

قالت حەپسەخان: بنيتي إن هؤلاء الشباب هم على الأكثر على هذه الشاكلة، فلكثرة ماسمعوه وما شاهدوه من الأشياء السيئة يجفلون من كل شئ. يا بنيتي فأنت الحمد لله عاقلة، عليك أن تفرحي بأقوال شيروان، لأنه كما يبدو حريصاً عليك ويحبك، لايريد أن يقول أحد فيك عيباً. فإن لم يكن مهتماً بك ما كان يعنيه ذلك، وهو اسوة بالآخرين كان ينظر اليك والأُخريات.

إذن ادركي يا له من فتى شريف ومحترم، وبعد ذلك كوني يا بنيتي على ثقة بأن المرأة لاتصون حرمتها وشرفها لوالدها ولا أخيها ولا زوجها ولاخطيبها، فإذا لم تضبط نفسها وكرامتها بنفسها، ستكون خسيسة سيئة السمعة عند جميع الناس، لذلك لاتحزني ولاتضجري من أقوال شيروان ، بالطبع سيزورنا اليوم، لايحتمل ان لم يرك يومين متتاليين. لذلك أقول من الأحسن ألاّ تخرجي من البيت. قالت صبرية: طيب يا أُمي لا أخرج، فاليوم ليس لدينا شئ ما، ولكن كان لابد من أن نجمع شيئاً من النقود لعوائل المعتقلين الذين ارسلوا الى الموصل، لاضير في ذلك، حتى وان لم اذهب أنا، ستقوم به البنات الأُخريات، حسناً مافعلن في الاسبوع السابق، حيث جمعن لهن ا قمشةً كثيرةً، وقد كن

ذاهبات للقيصرية، فأخذن من عمي مايكفي أربعة ثياب كردية جميلة، وقد كن ذاهبات أيضاً الى دكان والدي لكنهن اخذن النقود منه، وكان قائلاً أو تردن الشكر والشاي والنقود، هن كن قد قلن النقود، فأنا لم أكن ذاهبة، فقد كانت دلهخان وبنتان أُخريان ذاهبات.

لم تكن روناك الى ذلك الحين قد نطقت بأي شئ، فكانت تغرق بين حين وآخر في لجة الخيالات من جديد، وأحياناً كانت تستمع اليهما، فعلقت وقالت: بالله أُختي صبرية من الآن فصاعداً انيطي بي الشغل أيضاً ، وأنا مستعدة أن أُنفذ ما تقولين لي. ضحكت صبرية وقالت: يالك من نونة أو متى غدوت هكذا شجاعة. فكان يوم أمس الأول فقط حين كلفتك بتوزيع منشورين ثلاثة فأثرت ضجة ثم أديت المهمة. قالت روناك: آنذاك كان مختلفاً، والآن أنا أيضاً أود أن أخدم. قالت صبرية: طوبى لك، ولكن أولاً يجب الآ تتحدثي عند أحد إذا ما أخذت شيئاً لأحد، فإبتسمت وقالت: فيا حياتي كإنني أتكلم مع إنسانة غير جديرة، فإنك في الحيل والخداع و الترقيع والكذب المنتظم المرتب كسبت الرهان من الجميع: قطعت روناك كلامها وقالت: إذن، بالله العظيم أنا لا أرغب أبداً في الكذب والافتراء و شئ من هذا القبيل، وأكره كرهاً شديداً الناس المحتالين والكذابين، ولكن لإنجاز هذا العمل ألجأ الى كل خداع وكذب، لكي أنفذ مهمتي وأنجو بنفسي أيضاً، لم ترغب أمها في قرارة نفسها ذلك كثيراً حين قالت روناك هكذا، واستحسنتها صبرية لأن روناك لم تكن فقط طفلة، فكانت على قدر كبير من الجمال، وكان تتدرج يوماً بعد آخر أن تبدو أكثر حسناً و جمالاً، فلم تعترض بسبب صبرية، فقالت في نفسها: ثم انصح روناك فيما بعد، أخاف أن تتعرض الى شئ في تلك الطرقات، خاصة كانت تتذكر موضوع ذلك اليوم والاعتقال والشرطة، وكذلك مايتعلق بذلك اليوم التي أرسلتها الى بيت أُسطة أحمد الخياط. حيث هجم عليها كلب في طريقها الى البيت كما روت روناك نفسها لها، فحين تذكرت حەپسەخان تلك الحوادث عادت روناك في نظرها الى طفلة الأيام الماضية. وحين كانت تخرج من البيت، لم يكن تؤفه يبتعد عنها بشبر. ولكن أنىّ لتؤفه أن يتمكن ذلك، سيما ان إبنها علي منشغل بأُمور الدكان وكسب الرزق، بحاجة ماسة الى تؤفه، كأمين مؤتمن في الدكان، والاّ فإن توفة المسكين

يحب الجميع حب الروح بالروح، لقد ترعرع و كبر هؤلاء الاطفال على ظهره، إن هذا التفكير أعاد خيال حەپسەخان الى عهد الطفولة حيث خلال تلك المدة الطويلة عاشت هي واختها مع توفة، حين كان والداه متوفيين، وقد أخذه والد حەپسەخان الى بيتهم، وهو وأُمه كان ينظران اليه كأبن لهما، وهما كانتا تتعاملان معه كالأخ.

أخذت نەسرين وحسين سمتهما نحو البيت، لقد استهوى قلب نەسرين أقوال حسين حد أنها قدر المستطاع كانت تؤخر نفسها لكي يصلا الى البيت في وقت أكثر تأخراً، كان حسين يقص عليها الاوقات التي قضاها في شارەزور، وما كان يفكر فيها وكيف كان يعدد الأيام والليالي الى ان عاد، وكيف قرأ الرسائل الى حد إنه حفظها عن ظهر قلب، لولا استحياؤه يوم غد من والديه لكان يعانقها ويشبع منها شماً وتقبيلاً هناك.

وحين عاتبها أثناء ما ذهب الجميع ليناموا، وتركوهما وحيدين، وحتى في ذلك الوقت لم تدعه ان يقبلها. كانت نەسرين تقول في سرها: أو لم تكن منتبهاً انت أيضاً ما في قلبي، والله حين مسكت يدي كدت أنا أن أُعانقك، ولكن قلت لا فإن الخجل والاستحياء والاخلاق الفاضلة أثمن وأغلى من جميع مسرات وافراح الدنيا، من الأفضل أن نتوقف الى أن ندخل بيتنا ونتمتع بوضعنا الجديد حينئذ نعوض عن كل ما فاتنا.

***

فما زالت صبرية وامها تتحدثان حين دق الباب، فإنتفضت روناك لتذهب وتفتحه، ولكن قالت صبرية: لا ياحبيبتي فلاتذهبي أنت، فأنا أذهب وقد يكون شخصاً له علاقة بي! فتحت صبرية الباب وأصبحت وجهاً لوجه شيروان، لقد احتارت قليلاً فأحست بأن فرائصها ترتعد ولكن لا، قد يكون من فرحة انها رأت شيروان، وكيفما يكن ماكانت تعرف ماذا ولماذا خفق قلبها هكذا. تقدمها شيروان دون أن ينبس ببنت شفة متوجهاً نحو الايوان الى حەپسەخان و روناك، وحين أبصرته حەپسەخان قامت وقالت من بعيد: صبحكم الله بالخير، في الحقيقة كنت أتذكرك، فأين اخفيت عنا كل تلك الايام؟ وقال شيروان أنا أخفي نفسي؟ لا والله بل كان لي قليل من الشغل. قال ذلك وجلس. اخرت صبرية

نفسها قليلاً في المجئ اليهما، ثم بحجة شغلها دخلت غرفتها. وكانت تنظر الى شيروان من شق ستارة غرفتها لتعرف ماذا يفعل وماذا يقول. قال شيروان، أين كاكه حسين؟ يقولون إنه عاد، قالت حەپسەخان فرحة: أجل، الشكر لله عاد ليلاً؟ ذهب في زيارة بيت عمته، أتأسف لم يكن يعرف أن تأتي أنت والاّ ما كان يذهب، وكان شيروان يفرك يديه بشكل مستمر كأنه يريد أن يقول شيئاً. ولكن لم يكن يعرف كيف يستهل كلامه، بعد وقفة قالت حەپسەخان: ماذا تشرب عزيزي شيروان؟ الا يا صبرية أين أنت؟ تعالي يا بنيتي هاتي شاياً، شيئاً لشيروان. بعد قليل جاءت صبرية حاملة صينية عليها قدح من عصير البرتقال، وقفت أمامه ونظرت اليه نظرة مفخالة بالسرور والعتاب، وحين رأته أنه لم يتحرك قالت له بدلال: هيا هيا خذها ...يا عجوز!!

فأنت دائماً كانك أكلت جميع توابل وبهارات هندستان لفرط غضبك!

فأجابها هو بابتسامة: هاتي أيتها العاقلة الهادئة كاللبن المتخثر: مدّ يده فأخذ القدح. لقد فرحت حەپسەخان كثيراً بمثل هذا العتاب والشكوى، وقالت في نفسها: يبدو أن جلبتهما لم تكن شديدة الى حد ما كما روتها صبرية. شرب شيروان جرعة من العصير وقال: أنا لم آت اليك، ولم يطاوعني قلبي أن أكتئب قلب العم حاجي، جئت الى عند حەپسەخان مشتكياً منك. قالت صبرية مرة أُخرى: أتشتكي مني؟ ألا لاتقول لي ماذا فعلت؟ دس شيروان يده في جبيبه وقال: تعرفين جيداً ماذا فعلت، لأنه هذا ليست أول مرة أن أقول لك، ولكن تدخل جميع أقوالي من أذنك هذه وتخرج من تلك الاذن.

أخرج ظرفاً وقال على رسله: هذا أيضاً جيد!

ارتبكت حەپسەخان قليلاً وخفق قلبها، وكانت تنظر الى يد شيروان فانتظر ماذا يقول، وما هذا الظرف؟

حين شعرت صبرية ان امها قد اضطربت وجهت اليها كلامها قائلة: أُمي الحبيبة، كانت شكاية ذلك الاقطاعي والأقوال التي رويتها لك، ثم التفتت الى شيروان وقالت: هيا لأعرف ماعندك من تبديل الملابس والخروج من البيت واكثر. هيا قل، فشيروان الذي كان في يده قلم، كتب شيئاً على الظرف بصمت، ورفع رأسه ناظراً الى صبرية وقالت: أتنسين روناك المسكينة التي ترسلينها

يومياً الى هذا الزقاق وتلك المحلة لتوزع لك المنشورات، لكي تتباهي وتتبجحي في الاجتماعات دون أن تبالي أن تصيب هذه الطفلة بمصيبة؟

أو تحدثت عن هذا الموضوع لحەپسەخان؟ عادت حەپسەخان الى سجيتها، فضربت يداً بيد وقالت: أوي أن هذه الموضوعات الخفيفة لاشئ، ستعالج جميعاً.

شرب شيروان جرعة من العصير وقال بإستحياء: حەپسەخان: لقد استغرق عدم الاقتران بصبرية وقتاً طويلاً عليه من الصواب أن تزف، لذلك أقول إنه من المستحسن أن ننجز ذلك في غضون اسبوعين. ضحكت حەپسەخان وقالت: لست معك في هذا، ان مدة اسبوعين قليلة جداً لايمكننا أن نهيئ أنفسنا. خفض شيروان رأسه وقال: طيب مراعاة لك لتكن ثلاثة أسابيع. تأهبت صبرية وقالت: عجباً عجباً ارى إنكما تفعلان ما تشتهيان وتحددان اليوم وتلفيانه دون أن يكون لي رأي في المسألة. ماذا هل إنه حكم قرەقوش أو العصر الحجري؟!!

قال شيروان: أن يكون العصر الحجري أو إنهمار الكبة، هو كذلك وكفى. كانت صبرية فرحة من أن شيروان على عجلة وانه كثير الإهتمام، ولكن كانت من جهة أُخرى توجس خوفاً بأن شيروان شديد السيطرة يحتمل أن يكون حتى الذهاب الى بيت ابيها بالحساب والكتاب والسؤال والجواب، وإنها لم تتعود على ذلك. فاذا لم تخرج من البيت يومياً إثنتين ثلاث مرات لزيارة بيوت الجيران والاقارب والمعارف ولاتذهب الي السوق و دكاكين الاقمشة فان قلبها ينغلق، كانت تبحث عن ذريعة، بأن تستبعد المدة المحددة أكثر، لذلك قالت: لم تستكمل حالياً ملابسي وأشيائي، وقد بقي صبغ بيتكم وترميمه. قال شيروان: تستكمل كلها في غضون ثلاثة أسابيع، اتعهد بذلك، قالت حەپسەخان بملالة: أظن ان ثلاثة أسابيع قليلة، حتى نلم أنفسنا قليلاً، لاذت بالصمت بعض الوقت، حيث صورت حقيقة فان صبرية ستذهب فعلاً وتغادر البيت وتتركهم، فيكون مكانها خالياً جداً حيث ان البيت دون صياحها و صخبها غير مريح، اذن ماذا تفعل، أكمل شيروان شرب العصير، فنهض واقفاً بقلب فرح وقال: أستودعكما الله فأنا ذاهب، ولكن سأعود مساء الى عند حسين كما وألتقي بالعم حاجي، ومن

بعده تركت صبرية الغرفة مهمومة. كانت حەپسەخان وحدها في الغرفة حزينة الفؤاد دامعة العينين. فحين دخلت روناك الغرفة قالت بلهفة: لماذا تبكين يا أُمي؟

قالت أُمها: والله يا بنيتي أبكي على أُختك صبرية، إن هذا الولد على عجلة من أمره، ينبغي أن تزف في غضون ثلاثة أسابيع، أغرقت حنجرة روناك بالدموع، أخفت عينها بمنديلها وقالت: شئ محزن، نحن اليها كثيراً، وهنا عادت صبرية الى عند أُمها وهي أيضاً صمتت قليلاً وقالت: لماذا وافقت يا أُمي على ثلاثة أسابيع، أنا لا أرغب في هذه العجلة والتسرع. وكادت أن تبكي هي أيضاً.

فقالت: أنا أشتاق اليكن ولن أقدر أن أُفارقكن. مسحت حەپسەخان عينيها وقالت: لا ضير فداك روحي، أذ لاتذهبين الى الشام وشيراز، تكونين في المدينة وسنكون دائماً معاً. ومن الأفضل أن تستقري في بيتك وعلى حالك. إن شاء الله ستكونان سعيدين وتعيشان بمنتهى السعادة. كل شخص سيكون هكذا. ولكن ستتعودين تدريجياً، فالشكر لله ألا يكفي إننا في مدينة واحدة، ثمة مسكينات حين يتزوجن يذهبن الى مدينة أو بلاد أُخرى فيفارقن حالاً آباءهن وأُمهاتهن وإخواتهن وأهلهن، ولكن نحن نتمكن أن نكون كل يوم معاً، قالت روناك: والله سأُرافق أُختي صبرية، لا أقدر أن أعيش هنا دونها، فمن ألآن أشتاق اليها.

***

(٩)

انقضت ثلاثة اسابيع، وأعدت الغرفة والبيت للعروس، انشغل والدا شيروان وقد جاءت اخواته جميعا، ان التي كانت تعيش في بغداد مع زوجها والأُخرى في كركوك هي وزوجها وأفراد العائلة وعمتاها من حلبجة أيضاً، جئن، هكذا كان البيت مزدحماً جداً، وكان أقرباؤهم أيضاً في طريقهم اليهم.

كانت دار والد شيروان واسعة جداً، فيها غرف كثيرة، وباحة كبيرة، وحديقة جميلة مملوءة بالورود والأشجار والكروم. يبدو انهم كانوا فيما مضى من عائلة مشهورة، ولو لم تبق لهم الآن ماكانوا يمتلكون من تلك الأموال والأحوال ولكن بالنسبة لما حولهم قد بدوا أيضاً متملكين موسرين. كان شيروان إبنهم الصغير، فكانوا يحبونه كثيراً، وكان إبنهم الكبير متزوجاً وله أطفال لم يكن يعيش معهم. كانت أُم شيروان تود أن تخطب لشيروان فتاة أجمل من صبرية ويزوجها، لكن شيروان لم يحب أكثر من صبرية، حيث كان يحبها من الصميم، ولذلك حاول كثيراً حتى أقنع أُمه.

حل يوم الزفاف، أمتلأت باحة بيت العريس بخلق كثير، كانت النساء والبنات بالملابس الزاهية والألوان الوردية والمخشلات التي توضع على الرأس والقلادة وعقد القرنفل و أطواق الليرة الذهبية والأساور والخرزات الذهبية ، أنهن وقفن جماعة جماعة يتحدثن فيما بينهن وكان الفتيان يدورون حولهن، لم يمكث طويلاً فهاج و ماج صوت الطبل والمزمار، مسك عدد من الفتيان أيدي اخواتهم وبنات الأقارب وخطيباتهم، فشرعوا بالدبكة. عندئذ أخذ الفتيان والفتيات يركضون بشكل لا أُبالي يتماسكون الأيدي ويرقصون، لقد أختلط وقع الاقدام وخشخشة القلادة وأطواق الليرة الذهبية وصرير صاية السورمة ورنة السوار والخرزة ورائحة الورد و العرق و الحناء والسبداج والحمرة للراقصين

والراقصات، وقد أختلطت هلاهل أقارب وأهل العريس جميعاً بين حين وآخر، وقد حمّوا الدبكة وحفلة العريس حدّ حتى ان الذين لم يتامسكوا الأيدي كانوا يهزون اجسادهم من أماكنهم.

–امتلأت السطوح المجاورة لهم بالمتفرجين، حيث كانوا يتفرجون على الرقص والدبكة، خاصة المراهقين، فكانوا على شكل جماعة وأفراد اثنين وثلاثة واقفين معاً، يضحكون ويذكرون الراقصات.

– والله هذه جميلة جداً والتي هي ذات الثوب الأزرق والثوب الأبيض.

– الفتى، بالله كلها حمرة وسبداج، ليست كذلك من القريب، والآخر يجيبه ويحاً لك ان الرقص رياضة فلتكن نحيفة قليلاً. وكان أحدهم يقول فجأة بالله عليك أُنظر الى هذه ذات الثوب الأخضر. يا آنسة ان كنت لاتعرفين الدبكة، لماذا تماسكت اليد؟ ومن ذلك الطرف كان يقول شخص آخر انظر كيف ترقص هذه الفتاة العربية؟! ان مهجومة البيت تتصور انها رقصة عربية، كانوا يشرعون بالضحك تماماً، وكان آخر يعلق ويقول حبذا كانوا يتركونها لكي ترقص وحدها، والآخر كان يسأل يا ترى بنت من هي جاءت الى حفلة العرس؟

إنها بنت محاسب الأشغال الكائن بيتهم في بداية الزقاق.

– ولك انت من أين تعرفها؟

–ثم من لايعرف والدها، لم تمر ستة أشهر حين جاء الى السليمانية يقولون انه لص لا مثيل له، يمتلك خبرة هائلة في السرقة، يخطف الكحل من العين.

***

وضعت الصواني المملوءة بالتمن ومرق السلق والفاصوليا اليابسة و الهبرة ودرازن من خبز الرقاق، والناس تحلقوا أربعة خمسة حولها، وشرعوا يأكلون، هكذا كان الاطفال يصرخون والنساء كن يهدأنهم، أو كن يصرخن عليهم، وكانت جلبة لا مثيل لها.

– لاتفعل ذلك يا بني فلتصبك الطلقة الطائشة.

– إياك أن تلطخ ملابسي فان يديك متدهنتان.

–اوه أعوذ بالله ياترى لماذا جئتن بكل هؤلاء الاطفال؟

– كفى خاطر الله سكتوا هؤلاء الاطفال لقد صار بنا صمم.

–أوه قاتلك الله لقد صببت عليَ الذراح.

–ابني اصبر قليلاً لنأكل طعامنا ثم نذهب.

– طيب طيب، ولكن ألآيجب ان تأتي العروسة حينئذ نذهب.

–وافرحتاه انه صوت منبه السيارة، جاءت العروسة.

– ياترى أي عروسة فإذا لم يطوفوها بجميع شوارع وأزقة المدينة كيف يأتونها الى البيت، فالله أعلم هذا منبه سيارة من؟!

بعد أكل الطعام وصلت العروسة أيضاً الى البيت وقد كانت السيارات تسير بشكل متتابع، وقد أربك منبه السيارات والتصفيق وغبار المحلة والزقاق عابري سبيل حيث كان البعض واقفين يتفرجون، وكان البعض الآخر يدمدمون سراً ويشتمون و يهزون رؤوسهم، وكانوا يقولون إنهم اربكوا المدينة، لماذا حفلة العرس والضجة هذه؟ والآخرون كانوا يقولون: يا جماعة فالناس يتزوجون ويتزوجن فما لكم ياترى من هذا الصياح والشتم والدمدمة؟ ما شأنكم بهم؟! افعلوا شيئاً لاشرعياً؟ الله يبارك فيهم.

لقد بقيت حەپسەخان وحدها في هذا البيت الخاوي من أهله، لقد ذهبت روناك وأُختها آمه خان ونەسرين وجميع الأقارب والجيران مع العروسة. لقد ذهبن في وقت مبكر لحفلة العرس. وهي كانت تطوف في البيت حزينة مهمومة فلم تكن يقر لها قرار كريشة في مهب الريح، تدخل الغرفة فإذا بثوب صبرية كان معلقاً، وكانت تخرج ترى خفيها، وكانت تبصر أي شئ يؤرقها تذكرها، لكأنها إبتعدت عنها سنة واحدة لفرط إشتياقها وحنانها لها. قالت في نفسها. يبدو ان والد حسين ايضاً متضايق، ولهذا لم يعد. من المعلوم انه يؤخر نفسه الى أن يحل الظلام حينئذ يعود..

كانت تقوم وتذهب وتفتح باب الحوش، تدير عينيه في الزقاق، وترجع وتسد الباب بقوة، وكانت تقول في سرها: ياويلي ان الجميع ذهبوا لحفلة العرس، ليس ثمة من أحد يأتيني ويقول ان هذه الأمرأة بقيت وحدها، ملولة كئيبة حزينة، فلنذهب لندخل شيئاً من السلوى في قلبها...من يكون في عناية غيره؟ قد يتصورون بأن هذا اليوم هو من أسعد أيامي! كانت تعود مجدداً الى حيث تحت الأشجار، وتجلس كأنها تهذي وتقول: ان النساء حين تلدن البنات يكرهن ذلك،

فها انك تربين وتكبرين البنت بدم الكبد و بآلاف من البؤس والشقاء وسهر الليالي، الى سن البلوغ والاعتماد على النفس، حينئذ يأتي شخص فجاة يندفع نحوها ويأخذها لنفسه..اذن كيف لاتكره المرأة ذلك، حين تنجب بنتاً؟ هاهي هذه، فهي تعمر الآن بيتهم، وانا جالسة حزينة مكتئبة بائسة جزعة وحيدة هنا. لقد كانت حەپسەخان ناسية كل سيئات صبرية، بقيت في نظرها حسناتها فقط. قالت ثانية: والاّ ماالفرق بين الابن والبنت؟ كلاهما فلذة الكبد، افٍ، تباً لبيت الكبد. وهنا طرقوا الباب، فقالت: وافرحتاه، الحمد لله كيف حدث هذا، وحين ذهبت و فتحت الباب دخل حسين البيت، ففرحت به حەپسەخان، لقد عرف حسين بأن والدته قد بكت، واحمرت عيناها وهي غير مرتاحة، وهو أيضاً كذلك في قرارة نفسه. ولكن لم يظهر ذلك، قال بابتسامة: ها حياتي حەپسەخان ماذا دهاك؟

قالت امه بملالة: والله يا ابني ان مكان صبرية خال تماماً.

– أُمي أبهذه السرعة؟! فهي لم تصل مكانها بعد، تصوري انها خرجت من البيت ولم تعد ككل المرات الاخرى.

– صحيح ما تقول، ولكن كيفما يكن، كنت أعرف حينذاك بأنها ستعود بعد قليل، ولكن أعرف هذه المرة بأنها ذهبت تماما، الاّ اذا تعود الينا في زيارة، لذلك يبقيكم الله لقد خلا البيت كلياً في نظري...

هيا يا حياتي لاتهتمي بمثل تلك الخيالات، قولي لي ماذا عندنا لنأكله؟

اثناء هذه الاقوال طوق جيد والدته بكلتا يديده وقبلها، وأُمه انتزعت نفسها من يديه وقالت بصوت عال قليلاً: يا ويلي حسين فها تفوح منك رائحة الخمر؟

– أُمي لقد تصبب جسمي عرقاً حيث ركضت قليلاً:

–كمت أُمه فمها وأنفها ضحكت وقالت:

– يابني انا أقول انك شربت الخمر أي ركض تقول؟

والآن يعود والدك الله يستر علينا ويحفظنا، دخيلك يا بني لاتقترب منه، والله يعرف ذلك سيثير زوبعة لاحد لها.

– لاتهتمي يا أُمي أعرف ذلك.

–طيب لماذا شربت، هل نسيت المشكلة السابقة؟

– والله يا أُمي كنت في دعوة، وهناك إلتقيت اصدقاء وزملاء لم ارهم منذ مدة فألحوا علي كثيراً، ولم أكسر قلوبهم شربت جرعتين بشكل إعتيادي، والاّ فانت تعرفين بأنني لا أُحب أشرب كثيراً خاصة في النهار.

– أوه قبح الله وجهه، ماهذا الشئ الوسخ الذي يؤنسه الناس، ابني ان الله فداه روحي لم يحرمه عبثاً؟

فكان في غمرة هذه الأقوال حين عاد حاجي مهموماً كاسف البال و دخل، ولكن حين رأى زوجته غير مرتاحة تصنّع البشاشة وقال مبتسماً: ها يا أُم علي كيف حالك؟ قالت زوجته بإكتئاب: والله ماذا أقول أرى حولنا خالياً جداً.

– لاتهتمي، أدعي لها دعاء الخير، كان شيئاً طيباً حيث راحت الى بيتها وتمتعت بحظها، وغداً ابنك أيضاً يتزوج سيزدحم بيتنا مجدداً، ثم تلومين من أي شي، وأنت أيضاً سلبت بنت شخص ما لإحد أبنائك، كما انك مشغولة أيضاً ببنت شخص آخر لإبنك الآخر، اذن انت تلومين الناس؟ فالدنيا هي هكذا، كما شاء الله.

ان كلامك صحيح، ولكن كما تعرف انت ان أفراد عائلة حماتيها كثيرون، والفتى نفسه عصبي المزاج ووقح، أخاف ألآ تكون حالها جيدة.

– لاتقلقي على صبرية، إنهاقادرة خلال اسبوع واحد ان تضع جميعهم كخاتم في أصبعها، أو إذا لم ينصاعوا وأبدوا الخصام، ستدخلهم كالفأرة في الجحر، وهما زوجان متحابان وإذا ما عرفا انهما لايتعايشان مع والديه ينتقلان من البيت وينجوان بجلديهما.

كان الاثنان يتبادلان الحديث، حين عادت روناك وخالة ونەسرين من حفلة العرس، وكانت نەسرين وروناك في ملابس وحلي التزيين قد بدتا على قدر آخر جميلتين جذابتيين...

سرعان ما بدأت نەسرين في مدح وإطراء بيت العريس، وما صرفوها في دعوة الناس الى حفلة العريس، والخراف التي ذبحوها، وكانت حەپسەخان تمطرها بالأسئلة، بالله عليك كيف كان حال صبرية؟ وماذا كانت تفعل؟ وكيف كانت غرفتها وبيتها وماذا كانت تقول حماتها؟ وكانت نەسرين تذكر لها، ذهبت

روناك لتبدل ملابسها. وحين جاءت الى الباحة التي عندهم، رأت ان أُمها لازالت تخيِّم عليها الكآبة، جلست عند جانبها وعانقها وقالت:

–أُمي العزيزة والله لن أتركك أبداً، ولا أتزوج قطعياً حتى إذا قتلوني، قبلتها أُمها، وكن مشغولات بالكلام الى أن قالت حەپسەخان: إنهضوا لنذهب وننام جميعاً.

وبعد أُسبوع ولمناسبة زيارة صبرية الى أهلها، أقام بيت العروس وليمة كبرى لبيت حماتها و أقاربها، لأن حەپسەخان كانت تريد أن تظهر بنتها أمام أنظار حمويها وقد هيأت كل شئ وفي وقت مبكر، وقد دعت أُختها وبنات أُختها لمساعدتها، وكذلك جمعت حولها باجي حەلاو وجاراتها الأُخرى، فطبخت لهم ما لذ وطاب من الأكلات الكردية الشهية المشهورة!

إضافة الى بيت حماتي صبرية وأقاربهما، وجه حسين الدعوة أيضاً الى اصدقائه، وكانت صبرية فرحة جداً، وكانت تدور بإستمرار حول أمها و تعانقها و تقبلها، وهي كانت تنتحي معها زاوية كمخبأ وتسألها عن حالها وأحوالها وزوجها و بنت حماتيها.

وبعد آذان العصر لملم الضيوف أنفسهم ليذهبوا فأستودعوهم وأخذوا سمتهم، وعلى إمتداد الطريق كان الحديث يدور بإستمرار حول الأكلات الشهية لحەپسەخان وحسن ضيافتها.

إنتهى بيت العروس من غسل المواعين والجدور وتنظيف البيت وترتيبه مجدداً، جلسن لكي يركنّ الى الراحة، التفتت حەپسەخان الى روناك و قالت: حبيبتي روناك على الرغم أعرف انك تعبة وكذلك أصغر من الجميع، قومي حضري لنا شاياً عنابياً فواحاً. في الحقيقة إنني لم أشرب اليوم شاياً ينال رضاي. لم تكمل كلامها حين أخفقت لعلعة رشقة الرصاص قلوب الجميع. لقد تجمدت حەپسەخان من مكانها، ضربت أُختها نفسها وصرخت: يا رسول الله رحماك ، لقد حدثت حادثة والله، امتقع وجه روناك وصفعت خدها وقالت: آه ان كاكه حسين والاولاد جميعهم في الخارج، فصرخ عليهن حاجي مجيد في الغرفة وقال:

– الا يا نساء مادهاكن لماذا جننتن هكذا، عسى ان يكونوا أطفالاً يفجرون الكبسولات والألعاب النارية (الطلقات) لكن النساء لم يهتمن بأقواله، ركضن جميعاً نحو عتبة الباب ليعرفن ماذا حدث، فرأين ان الناس قد أطلقوا سيقانهم للريح، وأخيراً لم تتمالك نەسرين نفسها، ركضت فحملت عباءتها وقالت: والله وان قتلتوني سأذهب لأعرف ماهذه الضجة، غضب منها عمها وقال: إجلسي يا بنت الى أين تذهبين؟

قالت حەپسەخان: وكيف لابد ان يذهب أحد ليعرف ماذا حدث، إذن حبيبتي نەسه اعطينيعباءتي فأنا أذهب، صار زوجها أيضاً عصبياً قال: طيب، ادخلن أنتن الغرفة، أنا أذهب بنفسي، منعته رونـاك وتوسلت منه، أن تذهب هي، خوفا أن يحدث شئ، شق حاجي مجيد طريقه بين الناس بهدوء، وشد جامانته، فوصل رأس الزقاق بخطوتين، رأى الناس فرداً ومثنى يقحمون الازقة، ويتناهى أحياناً الى ألآذان صوت اطلاق رصاص البندقية. لم يمر وقت طويل ركض إبنه حسين و فتيان آخران بلهثة نحوه، وقال حسين بسرعة: يا أبي ماذا تفعل هنا؟ إسرع فلنعد الى البيت، قال الولد بلهفة. جئت لأعرف ماذا حدث؟

– فلنذهب أولاً الى البيت ثم أحكي لكم، وأنتما أيضاً لاتقفا، اسرعوا لنذهب الى البيت ليس هنا مكان للوقوف؟!

قال هذا، فأقحم الجميع البيت وأغلق حسين الباب بأحكام، وأهل البيت طوقوهم في حالة من القلق، كل واحد منهم يسأل سؤالاً الى أن أسكتهم حسين، ماعدا والده الذي نفد صبره يصرخ بشكل مستمر، قل يا ابني لنعرف ماذا حدث، لقد انفطرت قلوبنا، تنفس حسين ثم قال: هجمت الشرطة على مقر الحزب الديمقراطي الكردستاني وأغلقوه. وفي تلك المنطقة اعتقلوا أي شخص صادفوه وساقوه..وان هذه الطلقات كانت لمجرد تخويف الناس، لكي لا يقوموا بالمظاهرات والصخب والشغب، ولا أعتقد ان أحداً انجرح.

– أجل ولماذا حدثت هذه الضجة بهذا الشكل المفاجئ؟

– لم تكن مفاجأة، لقد بلغوا البارتي يوم أمس الاول بإغلاق المقر، وانهم لم ينفذوه، وقالوا لهم لانغلق المقر مالم يأتنا الايعاز من المقر العام، وان أبناء الكلاب هؤلاء يبحثون عن حجة وذريعة، ولهذا افتعلوا هذه الضجة.

ضرب والده يداً بيده وقال: لاحول ولا قوة إلاّ بالله، صدقت يا بني، يبدو ان أبناء الكلاب هؤلاء أرادوه من الله. وإلاّ علاما هذه الضجة والطلقات، ولذلك تقاطرت الشرطة منذ الصباح نحو السوق، وكانوا يتحرشون بالناس علناً، والله طيب، ان هؤلاء هم الذين كانوا يمنحون حقوق الكرد، اشهد بالله يعطى الحق هكذا، خل يولون فاللعنة على أطيبهم، على الرغم انني لا أعتقد ان تكون اللعنة من نصيب أي واحد منهم...(هز راسه) وقال، ومن جهة أُخرى اقول، نستحق ان يفعلوا بنا هذا، وحتى ألآن بيننا كثير، يصفقون لكريم المجنون ويرقصون له. وتلهج السنتهم بالثناء والإطراء عليه... سكت حاجي، سألت آمه خان، حسين بلهفة كما تعلم هل اعتقلوا كثيراً من الناس؟

– لا خالتي العزيزة، لاتقلقي، اعتقلوا فقط الأشخاص (٦,٥) الذين كانوا في المقر، مع سبعة، ثمانية من عابري سبيل، أعرف من أية زاوية تتحدثين، لاتفكري في نەورۆز و بختيار، فإلى ان أدخلتهما في البيت كنا معاً، وكان عمي عائداً من الجامع، حيث كان جالساً في البيت.

– التفتت أُمه الى حسين وقالت:

–طيب فداك روحي، هيا قم أُدخل الغرفة مع رفيقيك. فليناما هنا هذه الليلة، فلا عودة الى البيت حالياً.

– فأنا قلت لهما ذلك يا أُمي، لكن أم فريدون ليست من هذا النمط، يحتمل الى الآن، انها قد بحثت عنه في بيوت الاصدقاء والأقارب والمعارف، فاذا لم يعد الى البيت الليلة ستجن وتهيم في الجبال، لأنها تفسر ذلك بأنه إما قتل أم أُعتقل. علق فريدون قائلاً: بالله خالة العزيزة يصدق حسين، فأصبحت عباءتها الآن جناحين تدور في الأزقة ولذلك من الأفضل أن أعود.

– فداك روحي كيف تعود في هذا الوضع المضطرب، يمكن لاسمح الله، ان تصيبك مصيبة....

– كما ان حسب قول أُمي ان العودة خطرة...مهما يكن لاتذهب الآن، لعل الدنيا تكون هادئة قليلاً، طيب ان بيتكم ليس بعيداً، ستصل اليه بمجرد حركتيين سريعتيين. قالت حەپسەخان:

–لماذا فأين بيتهم؟

– هو ذلك في كهريز أُم باشا...قالت عمته آمه خان :

–ياويلي، حبيبي حسين، ان تلك المنطفة موحشة جداً في الليل، يمر بها الناس في الليالي الإعتيادية متهيبين، فكيف بهذه الليلة خاصة!

–لا ياخالة ان تلك الاماكن أفضل للتحرك، لأنها خالية، لايتجرأ العسكر والشرطة ابداً التقرب من تلك المنطقة.

قالت روناك: على انفراد: أوه الله يعمي عيونهم...

قليلاً من الصمت: قالت حەپسەخان فجأة:

– ياترى ماذا حل بصبرية ومن لفت لفهن؟

قال حسين: لاتقلقي ذهب الجميع الى البيت.

– ما أكثر قلقهم علينا الآن.

– أي قلق يا أُمي، قبل عودتنا التقينا، فهم عادوا الى بيوتهم، ونحن ها هنا. اذن ماهذه الخيالات؟

غريب ونحن نفكر فقط في أنفسنا! ولا نفكر أبداً في الذين اعتقلوا، الله يعلم ماذا يفعلون بهم...!!

– وأخيراً جلسوا مهمومين مرتبكين صامتين أخذت حەپسەخان تتكلم فسألت زوجها: أجل يا رجل لماذا لم يبد هذا الولد، ياترى ألم يحدث له شئ؟

– ابن من يا أُم علي؟ قالت حەپسەخان بإبتسامة مرة: علي أقول علي، لا أدري لماذا تأخرا الي هذ الحد، أحلم به ليلتين... في حفظ الله وأمانه...

– لاتخلقي الهم عشاً لنفسك، فالأبن بفضل الله ورعايته في صحة وعافية، وصلت أشياؤه جميعاً وهو كما يبدو أكمل اشغاله، لاشك انه يعود بعد يوم، يومين آخرين، فهو ليس طفلاً يضيع، ران عليهم الصمت والهدوء مرة أخرى، فجأة كان يقول أحدهم شيئاً، كان يرد عليه الآخر بعصبية، يكبر عندهم شئ صغير لا أهمية له مثل الذي قالته روناك المسكينة ببراءتها، ترك وشاح

الضيفات! هجم عليها الجميع من كل الجهات. هذه كانت تقول اسكتي ليس هذا وقته، قالت الخالة، ارميه خلي يولي، قالت أُمه: طيب يا بنيتي ضعيه في مكان ما حتى تعود اليه صاحبته، لاتزعجي هؤلاء الناس حين أراد حاجي مجيد أن ينهي هذه الضجة قال....

أولاً الاتعطونا شاياً، شيئاً؟

قامت نەسرين وقالت: حسنا عمي العزيزة، فالآن حالاً احضر لك شاياً طيباً.

***

(١٠)

بعد اسبوعين، ثلاثة من هذه الكارثة، كانت مدينة مضطربة جداً، لقد بدأ القلق والمضايقة على أُناس كثيرين، فكل من كان يسمع شيئاً يضيف اليه أربعة أضعاف ويرويه للآخر. ركز البعض على تكديس المؤونة، وكل شخص كان منكباً على خزن النفط وأكياس من الطحين فكنت ترى الناس يحملون صفائح النفط وأكياس الطحين على ظهورهم الى بيوتهم، فكما يبدو أن جميع أهالي كردستان خاصة السليمانية وكويه كأنهم يتوقعون حدوث انفجار، وقد إنتشر عساكر كثيرون في المدن، وكانوا ينظرون الى تحركات الناس بعين الريبة والخوف، وأخذ كل شئ بالحسبان، متذرعين بذرائع، لذلك إنزعج الناس منهم كثيراً.

في ظهر أحد الأيام أقحم حاجي مجيد البيت فجأ فأستقبلته زوجته بإرتباك وسألته:

ماهذا يا أبا علي لم يحل الظهر بعد، لماذا عدت؟

أو يؤلمك ذراعك ثانية؟ أخاف أنه حدث شئ، أو لاسامح الله سمعت خبراً سيئاً؟

– لاتجني نفسك ثانية، لا شئ حدث، ولا سمعت أي خبر سئ ولا يؤلمني ذراعي. قبل كل شئ لم تفسحي لي المجال لأبشرك بعودة علي...

– وأفرحتاه، مرحبك الله بعودتك وسهلك ...ولكن لماذا أنت ممتقع الوجه ؟ ولماذا عدت بهذا الضحى؟؟

– لم أكن مرتاحاً امتلأ السوق مجدداً بالعسكر، وكانوا يتحرشون بالناس علناً، انهالوا على بائع الفواكه دون وجه حق بالركلات، زعماً منهم انه صفر لهم، والله بقدر ما أنت صفرت لهم، هو أيضاً بنفس القدر، هذا المسكين لم يكن له شأن فيهم، كان يتغنى لفواكهه.

ونحن القسم الأعظم أغلقنا الدكاكين، فذهب كل منا الى بيته، تريدين الحقيقة، انهم كانوا يفتعلون الشجار، ونحن على هذا الحال والمنوال لسنا من رجال العراك، ثم بعد ذلك هز حاجي مجيد راسه وقال: حقيقة انهم كدروا أوضاعنا كثيراً، يكاد أن يتجاوز الحدود، لاأحد يحتمل هذا الغدر كما يقال اذا امتلأت القدح ينسكب منها، لقد بلغ السيل الزبى، قالت زوجته بكآبة: من جهة أقول ليت علي لايعود، أخاف أن يصيبه مكروه، وحسين أين هو لماذا لم يعد؟

انه ذهب الى حيث علي، يمكن ان يأتينا بعد قليل الى هنا.

***

عند العصر أقحم علي وحسين البيت حاملين العطايا والهدايا الكثيرة التي جاء بها علي لوالديه واخواته عانقته أُمه واخذت تقبله وتعطره وقالت:

– فداك روحي لماذا كان سفرك الى هذا الحد؟

– والله يا أُمي الحبيبة، لم يكن انجاز العمل بمحض إرادتي، ولم يكن الوضع في بغداد جيداً، وهناك أيضاً كانوا يعتقلون الأكراد، والى أن أتممت عملي بدلت ثلاثة فنادق، ثم اضطررت أن اذهب الى بيت عم نەوبەهار لأنهم أقتحموا اثنين، ثلاثة فنادق.

وقد اعتقلوا كثيرا من الناس والطلبة الكرد.

سأل والده: أهناك ايضاً اغلقوا مقر الپارتي؟

– أبقوه هناك مدة من الزمن، ولكن كان بمثابة فخ نصبوه ليعرفوا الذين يرتادونه لإعتقالهم، كنت ذات يوم هناك عندما قالوا فها جاؤوا يقولون يبحثون عن بعض الأشخاص. من حسن حظنا كان للمقر بابان، فألى أن دخلوا، فنحن خرجنا من الباب الخلفي، عليه لم استطع أنا الذهاب اليه ثانية، ولكن كما سمعت أغلقوه فيما بعد، وأستولوا على جميع ممتلكاته، وفيما يتعلق بمنع اصدار جريدة (خبات) كما تعلمون، كانوا منذ مدة يبحثون عن الحجج والذرائع، لأنها أصبحت عند الجماهير، الصحيفة الوحيدة التي كانت تعبر بحرية عن احتجاجها واحتجاج الشعب على الاعمال اللامشروعة للحكومة، ففي الآونة الأخيرة، لم تكن تبقى في السوق بعد ساعة من صدورها، وفي بعض الأيام لم يكن

الحصول على نسخة واحدة بدينار واحد، وكان خصوم قاسم يقبلون عليها ويستغلونها.

كانت هذه الأقوال تحلو لوالدي، كشئ يعيده الى أيام الشباب، أنعشت في قلبه مجموعة من المشاعر والخيالات، فقال بحماس: فلينهضوا ويفعلوا شيئاً، ليس من الحق والعدالة ان يهتموا بكلام الجبناء المتقاعسين الذين يقولون ماذا يستطيع ان يفعل الكردي المسكين؟ من يساعده ويدعمه؟

وكيف يلجأون الى الجبال دون نصير وظهير؟ اعتقد ليس هناك سلاح أمضى من شعور طلب الحرية وتحرير الوطن والشعب المضطهد المستعبد، ينبغي على الكورد أن يعرف نفسه بالعالم بإيمانه وقوة سواعد أبنائه الصامدين، ويتحدى الذين لايعترفون بحقوقه المشروعة، وان الكورد شعب له أرضه ووطنه، يختلف في جميع النواحي عن الشعوب التي يعيش معهم. حقاً انه شئ غريب كأنهم عميان والاّ فاذا أخذت طفلاً الى تلك الجبال نحو كردستان ايران ونحو الشمال الى جهة بهدينان وجبال تركيا يعرف بأن كلها بلاد واحدة وشعب واحد، ان قضيتنا أوضح وأجلى من وضوح الشمس المشرقة في رابعة النهار، حيث تعتلي كبد السماء.

لقد جاء الظالمون والطغاة فأحتلوا بلادنا وجزؤوها فألحقوا كل جزء بدولة محتلة... فلا مناص من الآن فصاعداً لابد أن ننهض نهضة واحدة ونعمل شيئاً، يداً بيد ومن الله نستمد القوة والتوفيق. لم ينه حاجي أقواله حين مرت بخاطره نتيجة مثل هذا النهوض، كالإحتمال الذي يمكن أن يدمر مدينتهم، فليس من البعيد، أن يصيب ابناؤه وأبناء أخيه بشئ، وكذلك الناس الآخرون عوائلهم وأطفالهم. وكذلك الدكاكين والأسواق وكسب الرزق؟

كما ان حەپسەخان مجرد ان أبتعد عنها أبناؤها، تنهار كلياً، وكذلك بناتها. يتذكر فجأة الظلم والطغيان ثم كما يبتهل ويتضرع ياالله عليك توكلنا، لن يحدث الاّ اذا ماشئت.

***

كان الجو يحث خطاه نحو الخريف، فأوشك ان يبرد، فأخذت العاصفة تشتد، تكتسح كل ما هناك من تراب وحصى وأغبرة أطناف السطوح، كأنها هي

أيضا تريد ان تبرز مهارتها، لئلا ينسى الناس أنفسهم بسبب مشغوليتهم. أحياناً كانت تتراخى وتندفع مرة أُخرى. وتقلع ستائر القصب والحصران، وترميها وتقلب صواني معجون الطماطة، أو تملؤها بالغبار وهكذا فالبنات والنساء كن على السطوح مشغولات بلم وتغطية أشيائهن، ولكن لم يبتعدن خطوة واحدة بعد، فالعاصفة لم تكن تأخذ جهودهن وحدها، بل كانت تشن هجوماً على رؤوسهن ووجوههن وصاياتهن وأثوابهن، وفجأت كات العاصفة تضيع نفسها. وبعد قليل كانت تهب من جديد، كأنها في الحقيقة تلعب معهن لعبة الختيلة أو بمعنى آخر لعبة غميضة غميضة.

اعتادت كثيرات من النساء في مثل هذا الوقت أن يصنعن الخل والطرشي، ولكن، كثيرات منهن لم يفعلن تلك هذه السنة وقد كن يقلن، لنعرف ماذا يحدث لهذه الدنيا؟ وبعض الأُخريات كأنهن في غفلة كن يتصرفن كالعادة، ولهذا كن يصففن سلات من العنب الأسود الجميل في باحات دورهن، وكن يجلبن الجرار فيملأن الطشوت والسلات من العنب الأسود ويفرغنها في الجرار، ثم ينقلنها الى السرداب.

***

ذات ضحى أقحم علي البيت، فسأل مرتبكاً، أُمي اين حسين؟

– ليس في البيت، لماذا فداك روحي أحدث شئ؟

لأجل امه قال: لاشئ، لي شغلي الخاص معه.

ثم بعد قليل قال: وأين روناك لماذا لاتبين؟

– قبل قليل ذهبت الى عند صبرية، ذهب علي الى عتبة الباب، ماكان يعرف ماذا يفعل بسبب قلقه ، وبعد قليل عاد الى امه وقال: تريدين الحقيقة يا أُمي جئت ان ابلغهم من المحتمل ان تحدث غداً ضجة وجلبة، لذلك أرى من الأفضل أن تكونوا جميعاً معاً، أو تكونون في بيتنا أو بيت عمي. مرت رعشة باردة في جسم أُمه وقالت: أستحلفك بالله ياحياتي قل لي ماذا حدث، تحدث ضجة وصخب؟ قال علي بهدوء:

– طيب أولاً لا تقلقي ولاتضطربي، فلسنا وحدنا، انما كل المدينة، وحين رأى علي بأن والدته تغيرت كثيراً، لكي يعيد اليها جسارتها، قال لها يا أُمي هذا

لايليق بك، فالأقارب مازالوا يذكرون شجاعتك، كيف ساعدت خالي حين كان يخوض كفاح الكورد‌ايتي وأخفيت له الأشياء السرية وأصبحت مراسلة له، بينما الآن مجرد أن تسمعي كلمة تكاد معنوياتك تنهار تماماً.

– في الحقيقة حبيبي علي كل مخاوفي من أجلك وحسين...فأنا حريصة عليكما جداً.

– لكن المسألة لايستحق ذلك، لأنه لم يحدث الآن شئ، ما أقوله هو قطع الدابر وحده، حيث أن الپارتى دعا الى تنظيم اضراب عام في جميع أنحاء كوردستان يوم السادس من أيلول بمناسبة ذكرى يوم ايلول الاسود عام ١٩٣٠، وذلك لإبراز وحدة واحتجاج شعبنا ضدالاعمال اللامشروعة والعداونية للحكومة ضد الكورد وحقوقه المشروعة، عندئذ لايستبعد أن تستغل الحكومة هذا بمبادرة الضرب، لذلك ارى ان تكونوا جميعاً في مكان، بهذة الأقوال عادت حەپسەخان الى رشدها وقالت: ان المسألة كانت هكذا، فأنا أرتأي ان بيتنا أفضل، لانه أكبر من بيتهم، وموقعه منزو، وانت تعال مع نەوبەهار فليأت بيت اختي أُمه ونەسرين والآخرين، وكيف لا؟

يا ليت صبرية ايضاً تأتي مع شيروان.

اذن لماذا لن يأتوا، سأذهب حالاً أقول لهم جميعا، أن يأتوا مساء غد الى هنا.

(١١)

حلّ اليوم السادس من الشهر، اضربت المدينة كلها، اغلقت الدكاكين والآسواق. لقد جنت الحكومة تماماً، لم تكن تعرف ماذا تفعل هما وكمداً، كادت ان ترغم الناس عنوة بفتح الدكاكين، ولكن هذه الخطة فشلت ايضاً، حقق الاضراب نجاحاً فائقاً، كان الناس قلباً واحداً ويداً واحدة، أضحوا كعائلة واحدة، فالفقراء والاغنياء تضامنوا معاً كالاخوة، وقد كانوا يتعهدون سراً ان يبقوا على العهد، والعدد القليل الذين لم يرق لهم الوضع فزعوا خوفاً وهماً، ما كانوا يتجاسرون أن ينبسوا ببنت شفة، بعد الاضراب بثلاثة أيام، أقحم حسين ذات يوم بيت عمه، جاءت خالته بلهفة للترحيب به، وقالت: ماذا دهاك يا حبيبي، امتقع وجهك هكذا؟ تمتم حسين قليلاً ولكن قاطعته خالته وقالت فداك روحي، صدقة لك، خاطرالله، لقد انخلع قلبي قل لي ماذا حدث!

قال حسين بابتسامة با هتة: أوه يا خالتي، مرة أُخرى اغميت نفسك.. والله انك ووالدتي اصبحتما سبب ارباكنا تماماً. لاندري كيف نتكلم وكيف نتصرف. وحين رأى حسين أن عمته على وشك أن تبكي، تقرب منها بسرعة وعانقها وقالت:

لا لا، خالتي العزيزة لم نتفق على البكاء...

مسحت آمه خان بظاهر يدها عينيها، تشجعت قليلاً، قالت لحسين بهدوء: طيب فقل ماذا حدث،قال حسين متردداً:

ثمة خبر شائع بحدوث معركة في مضيق بازيان بين القوات الحكومية والعشائر الكردية، يقولون أن الحكومة ارادت ان ترسل جيشاً كبيراً الى السليمانية وقد تصدت لها العشائر الكوردية.

فحين سمعت آمه خان هذا خارت قواها وجف ريقها في فمها، وبعد قليل كأنها تتكلم مع نفسها قالت:

تباً لهم، الله يجنبك الشر.. اذن ماذا يجب ان نفعل؟ سيدمرون بيوتنا هؤلاء ابناء الكلاب، فالمال بالجهنم، ولكن انتم كيف تنجون من ايديهم.. فاين هم الاولاد؟ قال حسين: فالاولاد هاهم مع كاكه علي، لا تهتمن بنا، سنختفي عدة ايام عن انظارهم، وما ان يحل الظلام سنغادر المدينة، فالى ان يصل الجيش الى السليمانية قد لا تبادر الحكومة الى الضرب ولذلك كلما اسرعنا في الذهاب فأنه افضل..

مرة اخرى خارت قوى آمه خان.. بعد قليل هز حسين رأسه وقال: لا ادري كيف افاتح والدتي، وافهمها بأن الذهاب افضل من البقاء بين ايديهم، هيا خالة العزيزة فلنأخذ بعض الملابس للأولاد ونذهب الى بيتنا، وهم ايضاً يذهبون الى هناك حين يحل الظلام، ولكي يعيد حسين عمته الى صوابها، تكلم معها كلاماً معسولاً، من ضمنه النوع الذي تضحك كثيراً، ثم ربت على كتفها وقال: قومي وبسملي فلنلملم ملابس الاولاد ونأخذها و نذهب..

قامت الخالة ولكن لا يبدو عليها بأنها منتبهة، دخلت الغرفة مرة مرتين وخرجت، تارة كانت تحمل منشفة وتارة اخرى زوجين من الجوارب، لقد اظلمت عيناها، فترتعش يداها ولم تكن تدري وتتمكن ان تضع الملابس للأولاد في حقيبته لذلك قال لها حسين: بان تتركها هي، فهو يحضرها لهم.

امتلأت حنجرة الخالة بالبكاء وقالت: طيب، اذن لماذا لم يأتوا بانفسهم ويأخذوا ادواتهم و حاجياتهم؟ بربك قل لي حسين ياحبيبي ماذا حدث لهم؟.

– والله ورأس أبي انهم جميعاً في صحة وعافية، ولم يحدث أي شيء، ولكن الشرطة ورجال الأمن كانوا ذاهبين الى دكان علي، وقد سألوا عنهم، من حسن الحظ لم يكن احدهم هناك، وحتى الصناع الخدم، وكان توفيق وحده بمفرده هناك، وهو بدوره أيضاً كان ساداً الدكان في وقت مبكر، ذاهباً اليهم لاخبارهم، وهم كانوا ذاهبين الى رفيق مجهول لنا يبقون هناك الى أن يحل الظلام حينئذ يعودون الى بيتنا من هناك سينطلقون، كما أن روناك و (نەسرين) في بيت

صبرية، وارسلت خبراً لـ(شيروان) وهم ايضاً يذهبون الى بيتنا، لأن شيروان ايضاً ورد اسمه!

القت آمه خان عباء تها على رأسها وقالت: لاحول لنا ولا قوة، فأنا راضية برضاء الله، لايصيبنا الا ما كتب الله لنا، وأخيراً بدمدمة لبست حذاءها وسارت في أثر حسين، واخذت سمتها نحو بيت اختها.

وصل حسين وخالته الى بيت حەپسەخان، ولو انها توجهت لاستقبالهما بوجه بشوش، ولكن خفق قلبها قليلاً من هذا المجيء المفاجيء، و خاصة حسين حين كان قائلاً اعود اليوم في وقت متأخر قليلاً، وقد كانت الكآبة شوهت وجه اختها، ولو اراد حسين أن يضحكها بالقول الطيب المعسول، لكن كآبة خالته لم تكن تنفصل عن سيمائها وملامحها، ولهذا بقدر ما كان هو يستمر أكثر على اقواله المعسولة، فان والدته كانت ينتابها الهم وتنقهر اكثر وتشعر بأن شيئاً قد وقع، ولذلك كانت تقاطعه بين حين وأخر وتسأله عن الوضع، وبعد ذلك اضطر حسين ان يدخل بحجة بعض الاشغال ويضع ملابسه وادوات الحلاقة والمنشفة والاشياء الضرورية في حقيبته اليدوية الصغيرة، ويضعها في زاوية من الغرفة وكاد أن يتوجه نحو والدته والأخرين، سمع والدته تقول لأختها: آمه لاتخفي عني الاشياء، وقبر والدنا، ماذا حدث قولي لي لقد انفطر قلبي، وحين سمع حسين ذلك، تراجع الى الوراء بتوأدة وقال مع نفسه، وافرحتاه ان عمته تنقذه الان من مغبة ما تبوح بها لحپسەخان.

اجهشت خالته آمه خان بالبكاء وقالت متنهدة:

لقد بدأ القتال، يجب ان يتوجه الاولاد الليلة الى تلك الجبال، لقد وردت اسماؤهم باعتقالهم، وقد ذهبت الشرطة الى دكان علي، ولكن شكراً لله لم يكن احد موجوداً هناك، لقد حل بـ حەپسەخان اسوأ بما حل بأختها.

بدأت بوا أبتاه، وا أخواه! فأخذت تضرب رأسها وتلطم وجهها، خرج حسين من الغرفة بسرعة مسك يديها واخذ يهدئها ويدخل السلوى في نفسها، وهي في حالة البكاء كانت تعاتبها لماذا لم يقولا له الحقيقة حالاً، لماذا يخفيان عنها تلك الأخبار..؟.

وحين رأى حسين أن أمه هدأت قليلاً قال لها:

– تريدين الصدق كنت أخاف من حالتك هذه، ولذلك لم اخبرك انا، والان أسألك سؤالاً، برأيك أنبقى هنا مكتوفي الآيدي الى أن يأتوا لاعتقالنا او نتوجه الى مكان آمن وجيد في هذه الجبال الجميلة الطيبة مدة أيام ونقضي الوقت هناك كالمتنزهين، لنعرف مايحدث في هذه الدنيا؟؟

مسحت أمه خان عينيه وتحسرت وقالت: والله ان تذهبوا أفضل.. تكلمت فاجهشت ثانية بالبكاء وهزت رأسها قائلة:

يا الهي لماذا سددت علينا كل المنافذ تماماً؟ تنوون أن تذهبوا الى اي مكان؟ علقت آمه خان وقالت:

فاينما يكونون، والى أن تصلنا اخبار وصولهم الى المكان المعين ستنخلع قلوبنا، قالت هذا وقد احتضنته بكلتا يديه وكانت دموعها تنهر مدراراً من عينيها، وعندئذ توجه حسين الى أمه، فأخذ يدخل السلوى في قلبها، وكان يحلف لها الى أن يعودوا، وأينما كانوا لا يقطعون عنهم الرسائل في أي يوم.

في ذلك الوقت تناهى الى آذانهم صوت باب الباحة، ولو أنه لم يظهر ارتباكه خوفاً من أمه وعمته, لكنه جفل قليلاً، عندئذ ذهب في أثر الصوت، وحتى لم ينظر من شق الباب لم يفتحه، اقحم شيروان وصبرية وروناك البيت، وكانوا هم ايضاً ممتقعي الوجوه متضايقين، رحبت حەپسەخان واختها بها بصوت خافت ضعيف اخرجت صبرية حقيبة ملابس شيروان من تحت عباء تها فوضعها في جانبها، كانت روناك منذهلة، وخيمت كآبة كثيرة على نەسرين، ولكن كانت معنوياتها اعلى من جميعهم.

لم يطل كثيراً، فعاد كلا الحاجيين، لان توّفه قال لهما كل شيء، لم يعلقوا كثيراً كان يريدان أن يتظاهرا لا أباليين وغير مكترثين، وخاصةً حاجي مجيد، اذ نظر الى زوجته وقال مبتسماً: أم علي ماذا بك؟ لم تجبه أم علي، علقت أختها فقالت بصوت مرتعش: اي لماذا لاتعرفون بأن القتال قد بدأ، وعلى الاولاد الاّ يبقوا في المدينة خوفاً من الاعتقال..؟

– اذاً يقول اي شيء: يذهبون في عون الله وأمانه، كلها ايام، تصوروا إنهم يذهبون للسياحة والتجول.. نظرت بشكل مخفي بطرف عينيها وبعصبية

وقالت: أجل يا حاجي، متى كنت شجاعاً هكذا؟ يذهبون للتجول؟! إن الله حق يكون التجول هكذا؟

وكانوا في هذا الحال من القيل والقال حين جاء علي وزوجته (نەوبەهار) وتوّفه وابنا آمه خان. قال حاجي مجيد:

– سواء تكون نزهة او تجوالاً الاّ يبقوا بين ايدي هؤلاء الظالمين.

فالله على حق، قوموا اعطونا شيئاً لنأكله!

اكلوا الطعام، واعطوهم بالحاح بعضاً من زاد السفر، نهض الأولاد حوالي الساعة العاشرة ليلاً، وقالوا كفى فلنرحل!

اراد توّفه أن يرافقهم، لم يدعه الاولاد، حاول حاجي أن يتبعهم من قريب وبعيد الى أن يغادروا المدينة لم يقبلوا ذلك ايضاً تبادلا الوداع، فسلكوا طريق الجبل.

اما الذين بقوا فكانوا الى فترة ما على قدر من الارتباك، فإنهم انفسهم لم يكونوا يعرفون ماذا يقولون وماذا يفعلون، ولذلك بعد شيء من الصياح والتشابك قعدوا كئيبيين مهمومين، وقد بقوا مدة من الزمن في حالة من الخوف والقلق وتحسس الخبر، ثم بعد ذلك اضطر كل واحد منهم أن يؤي الى فراشه بأمل النوم، ولكن اي نوم؟! ففي بال كل واحد منهم خيال، حيث كان حسين يطلب من الله ان يعود سريعاً في أقرب يوم من شهره زور، ويكون تكسبه برغبته، وأن يقيما في هذا الخريف حفلة عرسها، الاّ ان حسين قد رحل فالله يعلم متى يعود، كل ذلك كان خيالاً يحركها يمنة ويسرة ويلقيها في الدوامة، أجل كيف تغفو صبرية، حيث لم يمر شهران حين تزوجت، وهي مع زوجها روح بالروح، وحين كان شيروان يذهب الى السوق، او الخارج فكانت هي تحسب الوقت بالساعة والدقيقة الى أن كان يعود، بينما الآن انتزعوه من بين احضانها بهذا الشكل من السهولة والفجاءة؟ في الحقيقة أن الدنيا غريبة وعجيبة، تحدث فيها أشياء لا تخطر ببال أحد.

ولذلك كانت صبرية تنقلب على جنبها، وكانت تبكي بهدوء.

و (نەوبەهار) التي تزوجت منذ سنة وهي حاملة وعمر جنينها اثنان ثلاثة أشهر، كانت تفكر في الحالة التي اثيرت حول الاقتران ضجة وكيف انها وحتى بعد قطع المهر بالنسبة الى مشاكل أخيها وبعض أقاربها كاد أن يلغى العقد المبرم بينهما، لأن أخاها قد وعد أحد اصدقائه بالزواج المتبادل (گصة بگصة) مع أخت ذلك الصديق، وحتى مدة معينة كان التهاجم واستلال السكين المتبادل مستمراً، والأن ذهب علي تاركاً اياها من ورائه، وكانت (نەوبەهار) تقول في سرها:

– فهو يقول يستغرق سفرنا يومين ثلاثة، ولكن أي يومين ثلاثة.؟ فالآمر ليس بيده، والله لايعود باثنين ثلاثة اسابيع و بأثنين ثلاثة أشهر، كان من حسن حظي في ذلك بأنه لم يُعتقل، يقولون اعتقلوا اليوم كثيراً من الناس.. من كان يصدق، أن اكون هذه الليلة منفردة، وكنا ليلة البارحة نتبادل حول عودته متأخراً، بالله لو كنت اعرف أنه يتركني هكذا منفردة ويذهب لم اكن ازعجه، ولكن ذنبه على جنبه، لقد تشاجرنا مراراً وتكراراً على تأخره وكان يعتقد لي كل مرة بأنه يعود في وقت مبكر الليلة أخرى، وأنا كنت اعد له الطعام وأشياء أخرى برغبته، وكنت اجلس بأنتظار عودته، الاّ أن الاكل كان يبرد ويمر عليه الوقت ويلقى هناك، وأنا كنت أتوارى جائعة هماً وغماً، وهو لم يكن يظهر أبداً، وحين كان يعود، يتذرع بذرائع لتبرير تأخره... لا اتذكر، اننا جلسنا يوماً ما دون صياح وجلبة اما انه كان في خارج البيت او أن اصدقاءه كانوا في الطريق نحو بيتنا، وكان لفرط انشغاله، حين كان الضيوف يخرجون، هو ايضاً كان يخرج معهم دون ان يقول لي فها أنا ذهبت، آه يالغضبي، وتجرعي الهم والكمد بأعماله هذه.!! ولكن كل هذا الهم والحسرة التي كانت تجرعني مرارتها، ولم تكن حتى ملح الطعام قياساً الى عذاب وهموم ذهابه في تلك الليلة.

وقد انهارت قوى أمه خان تماماً، تجادلت مع زوجها مراراً، لأنه كان يقول لها استلقي على ظهرك لعلك تنامين قليلاً، سلمهم بيد الله، فإن تستمري على هذه الحال فلن تبقي على قيد الحياة؟ فخلال نصف اليوم تلون وجهك بلون الميت، لاعمر الله بيتك، وكان حاجي هكذا يقول لزوجته، بينما هو أيضاً لم يكن قلبه يستكين، ويستقر على حال من القلق، فلم يغف غفوة، وكان يوجس خوفاً، قبل أن ينجوا بجلودهم أن يتعرضوا في الطريق الى مصيبة.

كانت آمه خان تهز نفسها بأستمرار، والدموع تنهمر من عينيها كالمسيل دون صوت، فكان همها الاكبر ابنها الاصغر، لأنه كان طفلاً غير مقتدر، يصاب دائماً باللوزتين، واكثر الاوقات يتمرض، فكان عليها أن تذهب اليه مراراً وتغطيه، لكثرة ما يظهر جسمه مكشوفاً ويرمي الدثار جانباً، وفي كثير من المرات أن لم تقل له والدته (ألا يا ابني بەختيار ألست جائعاً)؟

لم يكن يتذكر بأن يأكل الطعام لفرط ما كان مشغولاً بالكردايتي في هذا العمر الصغير حيث مايزال في الصف الرابع الثانوي، وكان مسوؤلاً عن جميع زملائه، وكان على قدر كبير من النشاط والشجاعة لشؤون الپارتى، الاّ أنه لعمله الشخصي كان غير مقتدر وساذج، ولو أن آمه خان كانت تسلي نفسها بأن حسين قد تعهد لها بأنه يكون في رعايته كثيراً، وكانت تعرف مقدار حب حسين له، وكانت تعرف بأنه صبي مرتب ومنظم، يصلح لمثل تلك الاعمال، ومع ذلك حيث انه حشا حقيبته بالحبوب الكثيرة وفيكس وقطع القماش الناعم واشياء من هذا القبيل، ولكن لم يكن قلبها يطمئن ويتوقف نشيج بكائها، وخاصة حين كانت تتذكره، عندما تمرض آخر مرة وكيف انتابته حمى شديدة، وكيف كان يصيح ويزعق اثناء الحمى، فكانت آمه خان تشعر كأن أحداً يعصر قلبها بكلتا يديه وبقوة، كانت تغدو هكذا.

وفيما يتعلق بـ (حەپسەخان)، فقد نفد صبرها تماماً، تارة كانت تستلقي صامتة، واخرى كانت تنتفض وتقوم وتقول..

يا رسول الله مدد، والله اظن انه طقطقة البندقية..

وكان زوجها حاجي يقول لها: (يا امرأة اي طقطقة، انها صفيحة النفط الفارغة اوقعتها العاصفة، حين وضعها تۆفه مساء عند الدرج، لكي يأخذها ويملأها، اوقعتها العاصفة، كأن حەپسەخان لم تسمع كلام زوجها، لم تهدىء نفسها، كانت تسترق السمع بلهفة اكثر، الى أن حملتها نار كبدها وقامت و لتأثرها وحماسها كانت تتوجه الى كنتها (نەوبەهار) وتدور حولها بفدوة صدقة لها، وكانت قبل أيام تشتمها وتعاتبها على كثرة تجوالها في الأزقة و ترددها الى السوق والدكاكين.

ولكن الان من فطر تأثرها لأبنها اصبحت (نەوبەهار) عندها ملاكاً ونياط فؤادها..

وحاجي مجيد نفسه وان كان يعرف معرفة مطلقة بأن هذا الصوت للصفيحة الفارغة، وهو أيضاً كان يتردد، وكان يقول في نفسه إلهي بجاه حبيبك كن في رعاية هؤلاء الابرياء واحفظهم، وانقذهم سالمين من قبضة هؤلاء الكفرة، وهو ايضاً كان يسترق السمع وكان يقول في نفسه:

– اظن كانت حەپسەخان تصدق، بالله كان يشبه لعلعة الرصاص واطلاقات نارية، قام بحجة الذهاب الى المرحاض متوجها الى الباحة ليعرف طبيعة الصوت..

***

(١٢)

حين نهضوا صباحاً، بدت على افراد البيت آثار النعاس، وكلا الحاجيين شرعاً بمناقشة كيفية ذهابهما الى اعمالهما، لكي لايشك اصحاب الدكاكين المجاورة لهما فيهما ويصبحوا في هرج ومرج ويقولوا لماذا لم يأتيا، حينئذ يتوسع الكلام، كان أحدهما يقول للآخر اذهب انت وحدك فأذا سأل احد عن احوالي، قل اصيب بوعكة، وكان ا الثاني يقول له: ارتأي ان نذهب كلانا..

وكانت كل واحدة من النساء تتكلم ولم تكن تستقر في مكانها، واخيراً ذهب كلا الحاجيين الى اعمالهما، وارسلا توّفه ليكون في رعاية ممتلكات ودكان علي.

خلال ليل ونهار لم يصلهم خبر الاولاد، ولكنهم كانوا في حالة أحسن، وكان سكوتهم في نظرهم أحلى من بقائهم وعدم مغادرتهم المدينة، خاصة بعد أن عرفوا خلال تلك الفترة اعتقال عدد كبير من الناس ولا يعرف أحد اين سفّروهم، ولذلك فإن حەپسەخان وأختها اكتفتا أن تمدا رأسيهما وعينيهما وتقولا: شكرا ياربي حيث ذهبوا، اوه، فليكونوا في عونك ياربنا.

عاد حاجي مجيد الى البيت في وقت مبكر، وكان مسروراً بنجاة الاولاد وعدم اعتقالهم، ولهذا أخذ يطرح نفسه اكبر من حجمه الحقيقي، وكان يلتفت الى الآخرين ويقول:

– اتركوهم وشأنهم، لقد فعلوا شيئاً مجيداً، الموت مع الباحثين عيد، اذهبوا الى السوق واستمعوا عندئذ تعرفون ماذا فعل هؤلاء الكلاب والذئاب يوم امس واليوم بالناس! كان يهز رأسه ويقول: كلا لايجوز هذا، واذا استمر الوضع هكذا، فان اي شخص اكل حبة شعير بيت الملك يجب ان يعتقل و يقضى عليه، حقاً لقد كدروا الوضع تماماً، عليه الى لابد ان يضرب الكورد ايضاً المقابل، يجب ان يوجه ضربته.

لم تتمالك زوجته حەپسەخان اكثر من ذلك، فسئمت وضجرت قائلة:

– ها يارجل ماذا دهاك؟ اتظل فتقول لابد ان يضرب المقابل، ينبغي على الكورد ان يوجه ضربته، علينا ان نبتهل ونتضرع الى الله، الاّ يسمح ان يحدث ماتقول، اذن كيف يوجه الكورد البائس ضربته ويضرب المقابل وبأي شيء؟؟

اتريد ان يتصدوا للطائرات والمدافع والدبابات بالحجارة والعصا الغليظة!!! لا ادري لماذا تدعوهم الى القتال والجدال؟

– انا لا ادعوهم الى القتال والجدال، ولا ارغب في الحرب ابداً، اي ابن كلب لايحب أن يركن الى الراحة والتمتع بالسعادة دون صياح و صخب بين افراد عائلته، وان يعيش وفق رغبته؟؟ ولكن اذا طفحت حياتك بالظلم والطغيان، ولاتكوني حتى في بيتك حرة، والله، والله فالموت أحلى من حياة الاستعباد والمذلة، ثقي يا أمرأة، ان الذي يذهب الى ميدان المعركة بإيمان وعقيدة، لكي يدافع عن شرفه وكرامته وشرف شعبه، فان حجارته وعصاه الغليظة تكونان اقوى واكثر فاعلية من الدبابات والمدافع والطائرات التي تشن الهجوم عليهم، وهي في ايدي عناصر يخوضون خدمة للحكومة الحرب خوفاً او بهدف كسب المال والمكاسب الشخصية!

– طيب طيب، استحلفك بالله، كفى ان تتحدث لنا عن الحرب، فيكاد تنفرط قلوبنا، فلا تزد علتنا ألماً، بعد هنيهة من الصمت، التفتت الى اختها وقالت: ياليتني كنت اعرف لماذا هذا الرجل جعل من نفسه بطلاً، فحتى الأمس كان الاولاد يمارسون الكورديتي سراً خوفاً منه، قال زوجها: بأستخفاف:

– اَوَ لم يقل السلف: بلغ السيل الزبى؟!

في اليوم الثالث مساء وصلت رسالة علي بأنهم بلغوا مكانهم سالمين، فلا يقلقوا عليهم، فرح افراد العائلة بهذا الخبر كثيراً، لأنه طمأن قلوبهم تماماً، قامت صبرية حالاً وحملت البشرى بسرعة الى حمويها، وقد أبلغتهم كذلك بأنها تكون في بيت حماها من الان فصاعداً لأنهم متضايقون جداً.

***

كان البارتي اتخذ قراراً بأن يتوجه جميع اعضائه و مؤيديه والذين يتوجسون الخوف من الاعتقال الى الجبل، هكذا تشكلت مراكز والقوة المسلحة للبارتي من هؤلاء الناس، واطلقت عليها (**پێشمەرگە كوردستان**)، لقد شنوا الهجوم على

القوات الحكومية في اقضية ونواحي كوردستان، ببنادق قديمة و قليلة التي كانت ملك الافراد أنفسهم.

ان الحكومة التي أوشكت ان تجن جنونها، زجت بسرعة قوة كبيرة في مدن كوردستان، ولكن في اي موقع حين كانوا يشنون الهجوم، فكان البيشمركة الشجعان البواسل بما يمتلكون ذلك العدد القليل والقديم من السلاح يلحقون الهزيمة بكل تلك القوات المسلحة المالكة للمدافع والدبابات والطائرات الحكومية، وعلى أثرها يرغمونها ان تتراجع على اعقابها ذليلة خانعة بعد ان كانت تخلف من ورائها عدداً من القتلى والسيارات المحطمة والمحترقة والاسلحة والمؤونة.

ومن جهة اخرى كانت الحكومة تريد ان تحرق سكان المدن والقرى لكي لا يدعموا الپێشمەرگه ولا يختلطوا بالحركة، ولذلك بدأت بضرب وايذاء واعتقال الناس، و كالكلاب المسعورة انهالت على الكبار والصغار ومنعت المواد الغذائية والاشياء والاقمشة في مدن كوردستان بحجة أنها تصل الى ايدي الپێشمەرگه ، ولكن الحكومة كانت تركض وراء سراب خادع، لأنها كلما تزيد من اعمالها السيئة فالناس كانوا يحقدون عليها اكثر، ويشتد حماسهم اكثر، ويبدون شجاعة اكثر، ويحبون الپێشمەرگه اكثر، بشكل اصبحوا في نظرهم مبعث الرفعة والشموخ والسرور، وكانوا يجمعون لهم تلقائياً التبرعات والارزاق والملابس، وكانوا يمرون ليلاً عبر ربايا الجيش خلسة، وكانوا يذهبون اليهم اسراباً اسرابا ويأخذون لهم الاشياء، وكان العسكر يتربصون داخل ربایاهم ويخرجون منها بأي شكل من الاشكال، ولكن ما أن كان يسمع وقع قدم او تفوه بكلمة، فكانوا يطلقون رشاشات وصليات من الرصاص في جميع الانحاء واطلاق الرصاص بشكل عشوائي، حيث كانت الناس يصابون احياناً بالطلقات الطائشة، الامر الذي جعلهم ان يحاولوا ايجاد طريق أفضل وأسلم للتنقل الليلي.

***

(١٣)

كانت الحرب الدائرة بين الپێشمەرگه والقوات الحكومية تشتد اكثرفأكثر يوماً بعد يوم، فحسب تصور عبدالكريم قاسم و الذين حوله بأن التمرد سيقضى عليه خلال أيام، كان محض خيال، حيث ان قوة الپێشمەرگه لا لم تتم تصفيتها فحسب بل سيطرت مواقع هامة لهم، فأصبحت الأيام شهراً والشهر سنة، ومرت السنة ايضاً بعكس تصورات الحكومة ورأى معظم الخبراء الأجانب، بأن الحركة أخذ يشتد ساعدها، وتتوسع وتحقق انتصاراتها اكثر، يوماً بعد آخر.

لقد استغل اعداء النظام في الداخل والخارج انشغال الحكومة بالثورة الكوردية التي اشعلتها جراء سياستها اللاعقلانية والسيئة، وعجزها الذي اظهرته في معالجتها، والاضرار والخسائر المادية والمعنوية التي ألحقتها بالبلاد، وفي الدمدمة والاحتجاج الذي ظهر بين الناس، تمكنوا من الانقلاب عليها وقتل عبدالكريم قاسم واتباعه، و إحلال هيئة قومية مختلطة محل النظام السابق.

على الرغم من أن حكام النظام الجديد ابدوا في البداية المرونة تجاه الحركة، وابدوا استعدادهم لاجراء الحوار والاتفاق مع قيادة الثورة الكوردية، ومن بغداد توجه البعض الى الجبل ومن الجبل ذهبوا الى بغداد، وقد استغرق الحوار واللقاءات مدة من الزمن، بهدف أنهما كما قيل اتفقا، ولكن بعد مضي ثلاثة اربعة اشهر من جولات المفاوضات تبين بأن هؤلاء اسوأ من عبدالكريم قاسم واشد ضراوة وحقداً تجاه الشعب الكردي وثورته، وكان تملقهم ورياؤهم مجرد اغتنام الفرصة وكسب الوقت لسحق اعداء نظامهم في الداخل وتعزيز مواقعهم ثم العودة الى ضرب الكورد!

***

أجل في زمن وقف القتال والتفاوض بين الحكومة والثورة، استفاق حاجي مجيد من نومه على وشك انبلاج الفجر من لمة الليل اثر صوت، فظن أنه الآذان،

فتقلب على فراشه وقال في نفسه: يا الله فلينته من الآذان ومايزال الوقت مبكراً للصلاة، ولكن الصوت الذي كان يظنه آذاناً لم ينقطع، شيء عجيب، لا يأتي صوت من أي جامع من الجوامع الاخرى المجاورة، حيث أن مكبرات صوت لا تدع عند الصباحات الاخرى ان ينام أحد، فنهض حاجي مرتبكاً وجلس في فراشه، فتح كل احساساته وشعوره، نظر الى ساعته، ولم تزف الساعة بعد الثالثة، ياترى ان هذا الآذان يشير الى أي وقت، وكان الصوت يقترب منه تدريجياً، وكان حاجي مجيد يزداد اضطراباً، ماذا يكون هذا ياربي؟ لأوقظ (حەپسه)؟! لا، لاتفعل ذلك خاطر الله، فهي تربكك تماماً، نهض واقفاً بحجة الذهاب الى المرافق الصحية ذهب الى الباحة، نظر الى السماء فاشهد بالله و توقف قليلاً، كانت الباحة هادئة ساكتة، كان خرير الكهريز والحوض يتناهى الى السمع بهدوء وتوأدة، لقد بردت الدنيا، وكانت السماء صحواً صافياً جذاباً، وكان الصوت يقترب اكثر فأكثر تدريجياً، وكان صوت شاحنة ثقيلة يأتي من بعيد، طيب وما هذه الزقزقة التي تنبو عنها السمع؟ لاحول ولا قوة الاّ بالله، فكان حاجي بهذا الخيال والكلام في نفسه، توجه الى الأيوان بلهفة ونفاد الصبر الكثير، وهناك وقف قليلاً ولم يتمالك نفسه عاد الى الباحة، وقد اقترب منه الصوت بحيث تبين له جيداً انه ليس آذاناً ولاشيء من هذا القبيل، اذ ان شخصاً يعلن بكردية مكسرة، واويلاه ماهذا؟ عجيب ان يكون الاعلان في هذه الليلة، في البداية لم يفهم اقواله، ولكن حين اعادها مرة اخرى كان امراً من معسكر السليمانية بمنع التجول من الأن الى اشعار آخر، أقحم حاجي غرفته بعجلة وقشعريرة والرعشة، فبدأ ينادي زوجته حەپسەخان، وهي قلبت نفسها على الجنب الأخر ولفت اللحاف من نفسها مجدداً وقالت بصوت شبه نائمة؟ لماذا فكم الساعة؟ اي صلاة حالياً؟؟ لقد رفع حاجي اللحاف بيد مرتجفة على وجهها وقال بابتسامة باهتة:

– يا أمرأة من ذكر الصلاة، فانهضي واسمعي، لتعرفي ان ذلك الرجل يعلن اي اعلان في هذه الليلة!؟

انتفضت حەپسەخان بسرعة ومسدت بيديها رأسها ووجهها وقالت: قل لي اولاً ماذا حدث؟ ويذكر اي شيء، واويلاه... نهضت من مكانها.

رفع زوجها يده لها وقال: اسكتي واسمعي جيداً، وقد اقترب صوت الرجل الى حد حتى انه كان يسمع في الغرفة بشكل واضح، فالزوجة المسكينة حينما سمعت الاعلان اضحت اتعس من زوجها، وما ان لفت عنقها بوشاحها حتى وان ركضت بسرعة بأن توقظ اختها آمه من النوم حيث كانت نائمة عندهم الليلة مصادفة، بصياحها ونداءها، لم توقظ اختها آمه بل جميع البنات، وتوّفه الذي كان نائماً في السرداب، خرج منه بدمدمة، لقد كانت روناك ممتقعة الوجة يسمع اصطكاك اسنانها، واسرع كاكه حاجي الى اخيه ليعرف ماذا حدث، ولكن آمه خان خارت قواها بمجرد نداء اختها، فجلست في فراشها لاصقة ركبتها بحضنها، كانت نەسرين اقوى ارادة وعزيمة من الجميع، قامت حالاً وقالت: هيا انهضوا ليس الوقت وقت الكلام والبكاء والنحيب، فتشوا البيت بسرعة عن الاوراق والاشياء الاخرى.

صرخت حەپسەخان، فداكم روحي فتشوا اولاً غرفة حسين، لطمت نفسها بارتباك وقالت: كيف ادري وقد تكون لصبرية اوراق وأشياء هنا، واويلاه نبحث عنها في اي مكان، ولا نبحث عنها في مكان آخر؟.

علقت روناك قائلة: يا أمي لا تضايقي نفسك عبثاً والله كما اعلم، لم يبق أي شيء لباجي صبرية في هذا البيت ان يكون مبعث خوف، لأنه حين عدت ذلك اليوم من (پيرمەسور) قلت لها ان الشرطة تفتش البيوت، عندئذ هي جمعت أمامي جميع الاوراق والاشياء وأخذتها لا ادري الى بيت اي رفيقة لها؟ تنهدت أمها وقالت:

– فليكن هكذا كما تقولين ياربي، لقد انتهينا بالله، و بالرسول سيدمرون المدينة تماماً ولن يبقوا أحداً.

في غمرة هذه الاقوال كانت في غدو ورواح، تارة كانت تنتقل الى نەسرين لتستعجل، وتارة اخرة كانت ترسل لها روناك لتساعداه، ثم كانت تعود الى كنتها نەوبەهار، وكانت تدور حولها وتقول لها فداك، صدقة: لاتخافي لايجوز أن تربك نفسك لأنه مضر لحملك، لا تحزني على شيء، فالشكر لله أن الابناء ليسوا هنا ويقولون لا علاقة لهم بالنساء.

لا شأن لنا في ذلك؟ ولو ان نەوبەهار قد استمعت الى اقوالها علناً ولكن لم تكن منتبهة منها، لكنها تريد من الله ان تذهب الى الحمام في اقرب وقت، وذلك بسبب وحامها، تضطرب معدتها، فتخاف أن تتقيأ، كانت سابقاً هكذا، والأن حلت عليها هذه الحالة.

كانوا هم في هذه الوضعية حين علا الصياح والصراخ في بيوت زقاق ما وراءهم، وحين استرقوا السمع تناهى الى أذانهم صوت واويلاه، أبتاه، خاطر الله لا تأخذوه، ان ابني في سن الخامسة عشرة من عمره، انه صغير جداً، ليست له علاقة بأي شيء، كما سمعوا غضب وعصبية العسكر والشتائم باللغة العربية والضرب بالركلات والرفسات وكسر الجرار والزجاج والشباك، كلا فها أنهم يطرقون باباً آخر، لقد كسروا الباب بالركلات ودخلوا البيت، فعلاً الصياح والصرخة، انه صوت منيرة اسطه صالح، انها تتكلم بالعربية وتقول: لا أحد لنا سوى والدي الذي هو ذلك العجوز المريض الراقد في هذا الفراش، مرة اخرى جاء صوت الضرب بالركلات وكسر الاشياء، ويحاً لمنيرة يالها من فتاة شجاعة، لماذا تصرخ عليهم فتشتمهم، وتقول ابي العزيز، ابي الحبيب!! فها جاء هدير السيارة، وابتعدت الجلبة واللغط، ولكن تدريجياً يزداد صوت الصياح والبكاء والدعاء والابتهال والشتائم شدة.

التفتت حەپسەخان بقلب مضطرب ووجه مثل الميت الى زوجها واخ زوجها وقالت: بالله يأتون الأن ويأخذونكما، مادام أنهم اخذوا هذا العجوز المريض، عليه لايبقون أحد في البيت.

لقد تضايق زوجها كثيراً كما بدا جراء صياح وصرخات البيوت المجاورة لهم، فقال اثر ذلك: اذن هذا شيء واضح بأن هؤلاء ابناء الكلاب الكفرة لايراعون العجائز المرضى والاطفال، ونحن لسنا اكثر من هؤلاء الناس، اكاد اقول من العار ان يعتقلوا هؤلاء ولا يعتقلونا! قم يا أخي نلم انفسنا، قام فوضع ادويته الاخرى في منديله ودسها في جيبه، وقد جلس مع اخيه المستعد كأنهما في انتظار مجيئهم ليأخذونهما.

شرعت البنات بصمت بالبكاء، وكن يتوجسن خوفاً ان ينهالوا عليهما ضرباً، لانه كن يعرفن بأنهما لا يتحملان، خاصة حاجي مجيد حيث انه لايتحمل ضرب

مجرد صفعة واحدة، وكانت البعض منهن يقلن في قلوبهن: لا يعتقد بأن يكونوا سفلة وعديمي الضمائر حدّ ان يضربوا هذين الطاعنين في السن، يحتمل ان يكونوا هكذا متوحشين قساة فقط تجاه الشباب، لأنهم يظنون بأنهم رأس البلية، تذكر فجأة والد منيرة اسطه صالح، فكانت الدموع تسيل من عينيه وكان يقول: لو كان عندهم الشرف والضمير والدين ماكان يقع تحت طائلة ضربهم.. ماشاء الله في تقديرهم للشيوخ والمرضى..!

كان توّفه منكباً على تدخين السجائر، لقد دخن نصف العلبة خلال هذه الفترة الوجيزة، وكان في حركة وتجوال وتنقل دائب، يتوجه الى هذا الجانب يسب من ذلك الجانب الحكومة، ولكن حەپسەخان ونەسرين هجمتا عليه كلتاهما واسكتاه، وقالت له نەسرين بهدوء: لاتكن مجنوناً فليس الأن وقت الشتم، تعال اولاً قبل ان يأتوا نعالج هذه المجموعة من البيانات والاوراق والكتب الممنوعة التي اخرجتها في مخبأ و زاوية غرفة حسين.

قالت حەپسەخان مع تخديش خديها بالأظافر بهدوء:آه يا حسين آه ما اكثر ما كنت اقول له يا إبني لا تراكم على نفسك الأشياء بهذا القدر، لاشيء، تدخل هذه الاذن وتخرج من تلك الأذن، ياترى ماذا نفعل بها الان، فوالله يعتقلون كلنا، قال زوجها غاضباً: اقطعي الكلام فالآن ليس وقت هذه الدمدمة واللوم والعتاب، قال ذلك والتفت الى طرف كنته نوبهار، وحين رآها ليست في مكانها سر كثيراً، ثم قال لزوجته بهدوء، ماهذا يا أم علي كأنك شاردة الفكر، فانت منذ متى امطرت هذه المسكينة بالنصائح لكي لا تخاف، لاشأن لهم بالنساء، بينما حتى الأن تتكلمين مثل هذا الكلام، لقد انشغلت حەپسەخان مع أختها و توّفه والبنات بالأوراق لدرجة لم تكن منتبهة قطعاً الى كلام زوجها، كانت أخته تقول: افضل من كل شيء هو ان نحرقها، يقولون انهم يشعلون الحمام، قالت حەپسەخان مرتبكة: يا ويلي، أو لا يقولون ما اشعال الحمام في هذه الفوضى، وهذا الدخان الكثيف ينبعث من أي شيء؟ كما ان رائحة حرق الأوراق ظاهرة كثيراً.

اشعل توّفه سيجارة وأدخلها بين شفتيه وقال:

– ماذا تقول نحرقها؟ والله تقومين بتدبير جيد؟ فإن حسين عندئذ يقيم علينا الدنيا و يقعدها.

قالت آمه خان مكتئبة: طيب يا كبير الحي، لا تحرقها، فليكن جميعنا ضحية الكتب المتهرئة لحسين.

قام توّفه وقال: انت قولي هذه الاقوال دون حراك، بدلاً من زرع الحماس والشجاعة في نفوس هذه البنات الشابات المسكينات، افزعيهن..؟ انتفضت لها حه‌پسه‌خان وقالت: يا ابن ابي اجعله خاطر الله لاوقت لذلك، احمل كلامك الاكبر من حجمك الى أجل آخر، عالج الآن هذه المصيبة، تأهب توّفه مجدداً واطفأ سيجارته بسرعة والتفت الى حه‌پسه‌خان وقال: انك مثل اختك تصلحين بأن تضربي صدرك وتقولي توقف قلبي، ذهب الى طرف نه‌سرين بسرعة حيث كانت منشغلة بادخال الاوراق والأشياء في أكياس وقال لها: ابتعدي ابتعدي هاتيها فأنا اعرف كيف اعالجها، وبدون أن تهتم به نه‌سرين استمرت على عملها وسألت:

– حسناً لأعرف ماذا تفعل؟

– فناوليني اياها، تعرفين الأن ماذا أفعل بها.

اثناء الكلام حمل كيساً واحداً وقال: الأن أشد هذا على هذه الشجرة الكبيرة، اوشك ان يأخذه الى الباحة ويصعد شجرة التوت، ولكن نه‌سرين اوقفته وقالت له: واذا ما صعدوا السطع ورفعوارؤوسهم سيرونه الاّ اذا كانوا عمياناً، قال توّفه: والله صدقت، فإستناداً الى ذلك ان احسن مكان هو فوق التنور ومستودع الفحم، قالت نه‌سرين: ألا صه صه، والله عاد ذلك الصياح ثانية، فالآن لانفعل شيئاً ولا نقدر نفعل شيئاً، فها وصلوا الينا.

– لا مناص منه، فان سطح التنور افضل من هنا، تلقف جعبة الكتب وحملت نه‌سرين اكياس الأوراق وتابعته.. كانت تقول في نفسها: يصدق يخفيها في الجدور والمواعين احسن، راحت بسرعة وجاءت بسماور قديم ضخم كان متروكاً في البيت، ولم يكونوا يستخدمونه الاّ في الاعياد والحفلات، رفعت غطاءه حشت فيه الأوراق حدّ امكانيتها، ووضعت عليه الغطاء كما كان، ووضعت الأشياء الاخرى في قدر غليان البرغل ووضعت عليه غطاءه، واخذته الى غرفة المؤونة وهناك كان عندهم حمص ملئ جعبة، وضعت كلها في مرجلة، أخفت به الأوراق بشكل جيد وغطت المرجلة بغطائها، فقامت وذهبت الى عند خالة وأمها.

وبعد هنيهة عاد اليهم توّفه بوجه ملطخ بغبار الفحم لكن حەپسەخان لم تدعه ان يجلس فأرسلته الى الحمام وقالت له: فيما اذا جاؤوا الآن ورأوك في هذه الحالة يعرفون بأنك أحفيت الأشياء في مخزن الفحم واماكن على هذه الشاكلة، اقترب الصياح اكثر، كلهم كانوا في حالة من القلق والاكتئاب وانهيار المعنويات، استرقوا السمع لطرق الباب، ولكن لم يكن لاصوت دق الباب ولا تبين اي شخص، ورويداً رويدا كانت اصوات الناس وهدير السيارات تخف الى أن انقطعت نهائياً، كن تنظر بعضهن الى البعض بحيرة، دون أن تتجرأ احداهن ان تقول للأخرى لماذا لم يهجم عليهم أحد؟ ولكن حين طال الصمت رانت عليهم الدمدمة والكلام الخافت، وكانت يسأل احداهن من الأخرى، ياترى الا يهجمون عليهم بعد !؟

كادت الدنيا ان تنار، والشمس كانت تظهر في الافق تدريجياً، ولكن لم يطرق أحد الباب، ولا احد هجم عليهم.

انتعشوا قليلاً، ولو ان صلاة الفجر قد فات أوانها ولكن اهل الصلاة في البيت قاموا وتوجهوا نحو صلاتهم، فإن آمه خان ظلت على سجادتها ولم تأت حتى لأكل الفطور، وكانت منكبة فقط ان ترفع يديها نحو السماء وان تنزل ياقتها وتفتحها وتدعو للحكومة واتباعها سوء العاقبة، وأن تبته الى ن الله ان يعميهم تجاه هؤلاء الناس، وان يقضي عليهم وينصر الكورد الذي لاناصر له.

ولذلك كانت الأزقة والشوارع والطرق عند الضحى صامتة هادئة، وحتى الجيران لم يصدر عنهم اي صوت، كلهم حشروا انفسهم في غرفهم وسراديبهم، وكان بين الحين والآخر يأتي صوت الشاحنات او سيارة الجيب العسكرية التي كانت تمر في الشوارع.

وكانت نەسرين المسكينة مهتمة باعداد الأكل، قالت حەپسەخان: أف كله من جهة وهم البطن من جهة أخرى، فلتخرب الدنيا يجب على الناس ان يهتموا بالأكل! التفتت الى نەسرين وقالت: لاتمت امك بنتي كلنا اصبحنا اخطبوطاً، طوقاً في عنقك، بالله فأنا قد انخلعت احشائي تماماً لا أقدر ان امد يدي الى أي شيء، ماذا نفعل، فلا يعيش الانسان بدون خبز.. قالت نەسرين:

– لا تشغلي البال خالتي العزيزة، ولا تضايقي نفسكن فها ان روناك العزيزة تساعدني ماذا فعلت؟ فلم أحمل لكم عبئاً ثقيلاً ؟

لقد علا صوت المؤذن في بعض المساجد عند الظهر، ولكن قياساً الى الايام السابقة كان قليلاً وبنسبة ضئيلة ومتفرقة، كانت اصواتاً خافتة وحزينة جداً.

ودوت مكبرات الصوت، وآخر آذان بنصف ساعة، مرة اخرى سمعوا صوت الطقطقة، كان يأتي على مقربة منهم، مع صوت السيارات والجلبة، ارتبكوا ثانية، ولكن لم يخافوا هذه المرة كالسابق، كشيء تعودوا قليلاً.

ركضت حەپسەخان نحو الباب وقالت: والله اذهب فأنظر من شق الباب لأعرف ماهو، لقد انفرطت قلوبنا، كان الباب بوابتين خشبيتين قديمتين، كانت فيه شقوق كبيرة بحيث كان بمقدور المرء أن يرى الزقاق بشكل واضح، وحين دققت النظر في شق الباب، بدأت بالأشارة بيدها حالاً للجماعة بأن يأتوا وينظروا، وهم ذهبوا بسرعة اليها، وحين نظروا في شق الباب تحيروا وانذهلوا، فوجدوا مجموعات من العسكر ينزلون من سياراتهم ويهجمون على ثلاثة اربعة من تلك الدكاكين الكائنة في جهة مقابل الشارع الذي امامهم حيث كانوا يبيعون الفواكه والخضراوات والسكر والشاي والمواد الغذائية واشياء من هذا القبيل، ويكسرون بالرفسات والركلات الدراب ويأخذون مايرغبون ويحملونها في سياراتهم، والتي لا يريدونها يشتتونها في المنطقة ويدوسون عليها ببساطيلهم ويجعلونها تافهة لا فائدة منها ويولون الادبار، ولو لم يبد لهم مكان آخر من شق الباب لكي يعرفوا الى اين يذهبون، ولكن ظهر انهم يذهبون ليكسروا دكاكين اخرى وينهبوها، وهم عادوا مهمومين مرتبكين الى الباحة وغرفة بيتهم.

قال زوجها حاجي حالاً: انه صوت رجل الليلة انتفض وذهب الى الباحة، وقد وصل الصوت تدريجياً الى القريب منهم، لقد سمعوا ان رجلاً كان راكباً سيارة متجولاً في المدينة علناً ويقول: أمر صادر من معسكر السليمانية بالغاء (منع التجول) من الساعة الثالثة حتى الساعة الرابعة، وبعد الساعة الرابعة اذا ما وجد اي شخص في الطريق والشارع وعتبة الباب سيطلق عليه الرصاص حالاً، وحين سمع الناس هذا الاعلان تهيجوا، وندت اصوات الجيران، وان البعض بعدم خروجهم من البيت كانوا ضجرين غير مرتاحين، كانوا يريدون ان يتنفسوا الصعداء، وكان البعض الأخر يريدون ان يعرفوا الأخبار، وكان البعض من شدة تأثرهم باعتقال أبنائهم واخوانهم وازواجهم واهلهم وأقاربهم الذين اعتقلوا ليلاً

كانوا في عجلة من أمرهم في اغتنام فرصة لمعرفة اخبارهم، ولذلك كان الناس غير مبالين بالغاء (منع التجول مجرد ساعة واحدة).

جاء صوت جارتهم حەلاو التي كانت تقول: اوه ياربي زاد فضلك، لا ادري كيف عمت عيونهم لم يأتوا الى زقاقنا، وامها كما كانت تبدو تتكلم في الايوان كانت تقول تباً لهم بالله لكثرة ما قرأت الادعية وناديت يا شاه النقشبندي الگيلاني، شكراً لله اصيبت عيونهم بالعمى ولم يروا زقاقنا، كما ان صهرها عثمان رفع صوته وقال: والله انهم توهموا فظنوا أنه زقاق الجامع فقط، ابتهلوا بالدعاء للبوابتين الكبيرتين لبيت حاجي مجيد.

وهم أيضاً على عجلة من امرهم، فكانوا ينتظرون الساعة الثالثة ليذهبوا ويتفقدوا احوال صبرية، ويذهبوا الى داري علي و آمه خان، ويعرفوا اخبار اقاربهم و أصدقائهم ومعارفهم، فصاحت آمه خان حالاً وكانت تقول انهم خربوا البيت فالله يعلم ان هؤلاء الأولاد بعد الشر عنهم ياربي ماذا تركوا فيه، اضافة الى معاناتنا فالبيت خال لا احد فيه ومغلق والله وحده يعلم ماذا فعلوا به!

وكانت نەوبەهار تقول: اما بيتنا فلا تتحدث عنه مطلقاً، والله ان لم يشعلوا فيه النار جيد، شد توّفه جامانة رأسه ومد كتفيه وصدره وامال عنقه عدة مرات للساعة الكبيرة المعلقة على حائط الايوان، انتابته نوبة من السعال مرتين ثلاث، لقد فك جامانة رأسه وشدهامرة اخرى، نەسرين التي كانت اعلى ارادة منهم، أرادت بكلامها الحلو ان تخفف عنهم ارتباكهم والتفتت الى توّفه وقالت: يا لكاكه توّفه انه دائماً منكب على ترتيب نفسه كأنه يذهب للتمثيل! إنه فك واعاد شد جامانته اربع مرات، كأنه يذهب الان الى امام الباب فيلتقطوا له صورة! لم يرتح توّفه من قولها والتفت الى السامعين وقال: الا ماذا تقول ناطقة البيت؟ كأن حاجي مجيد تذكر يحتمل بأنه ليس من الصواب أن يخرج توّفه من البيت مخافة ان يعتقل، قال في نفسه: كان محظوظاً اذ لم يأتوا ليلاً، والاّ كانوا يعتقلونه قبل الجميع، خاصة انه لا يستطيع ان يضبط نفسه، لذلك قال: ياجماعة انا لا استحسن أن يخرج توّفه من البيت، ماذا تقولون انتم؟ قال اخوه: والله كاكه أنا اقول ايضاً الاّ يذهب الان، لا يستبعد ابداً ان لا يعتقل!! توّفه الذي لم يكن مرتاحاً

حّد انه اوشك ان ينفطر قلبه للخروج ليعرف ماذا حدث للمدينة، كأنه مثل شخص مسجون في مدخل الغرفة صاح مرتبكاً:

– لا والله مهما يكن لابد ان اذهب، ماهذه الاقوال؟؟! من يقول لاتصبح طقطقة ثانية؟ قالت آمه خان اثناء ماكانت تعيد ترتيب رأسها ووشاحها قالت: والله كلامهم صحيح، لا تأت أنت لانتحمل هرجك ومرجك! فخلال ما تكلمت آمه خان وصل توّفه الى عتبة الباب وكان يتكلم هناك مع جارتهم حه‌لاو وزوجها، وهم ايضاً اسوة بالأخرين كانوا واقفين امام ابواب بيوتهم نافدي الصبر والساعة تشير الى الثالثة الاّ ثلاث اربع دقائق، في انتظار موعد خروجهم.

***

حين اصبحت الساعة الثالثة بالضبط، اخذت حه‌پسه‌خان واختها، وانطلقتا من الباحة سمعتا صياح توّفه قالت حه‌پسه‌خان: أو ترين هذا المحال الى الله كيف رفع عقيرته، كأنه يخطب، لقد نسي فعلاً اي مصيبة حدثت في المدينة؟! ولكن اختها لم تجبها لأنها كانت منشغلة بقراءة آية الكرسي والنفخ، وصلت الى حيث الشارع فاذا بلابسات العباءات ينطلقن من هذا الزقاق وذلك الزقاق اتجهت كلها نحو الشارع المفضي الى امام السراي والفولكة، وتلك المنطقة اضحت كطوفان اسود من النساء الملفعات بالعباءات وكن يرتفعن طبقة طبقة كموجات يدلفن باتجاه الجامع الكبير، ذاهبات صوب الجهة العليا نحو المعسكر، بشكل سريع ومستعجل وكن اثناء المرور اذا صادفن احدى القريبات او المعارف كن يسألن بعضهن البعض الآخرى عن احوالها بعيون دامعة وقفت حه‌پسه‌خان واختها في لجة هذا الطوفان، ولكن بعد مدة قصيرة، خرجتا منه فتوجهتا نحو بيت صبرية، طرق توّفه حالاً الباب، وجاءت صبرية بسرعة و فتحته، وعانقت امها وخالة باكية: وقالت بالله عليكم كيف حال ابي وعمي، وعانقت توّفه وقالت: عزيزي توّفه فزعت كنت اقول لامحال إنك قد قتلت.. كنت جداً حزينة من اجلك كدت أن أجنّ، وما كنت اعرف ماذا أفعل وكيف اعرف اخباركم؟!!

– سألت امها بلهفة عارمة وعينين دامعتين.

– الا كيف كنتم أنتم؟ أهجموا عليكم؟ ونحن أيضاً كنا نفكر كثيراً، وهنا وصلوا الى نحو الجهة العليا، فجاءت حماة صبرية لاستقبالهم فأخذن يتعانقن

وأجهشن بالبكاء، مسحت صبرية عينيها وقالت متنهدة: ان الكفرة ساقوا عمي حالاً وأخذوه، فلتشعل فيهم النار ياربي، ضربت نفسها وقالت: اواه، فليخرب بيتهم، وقالت حماة صبرية بحنجرة مفخالة بالبكاء، وكذلك دمروا جارنا أوسطه حسن مجرد ان قال بفلتة لسان: والله لادخل لنا في اي شيء، أظن ألقوه كشبه ميت في سيارة الشحن، قالت صبرية: اف لم يجنني شيء سوى إبنهم الصغير الذي كان يبكي ويقول: آه يسيل الدم من فم والدي، وكانت حماة صبرية التي كانت مشغولة بوضع بعض الأشياء في سلة، وقد كانت لافة فرشاً صغيراً بقدر سجادة، واضعة اياها في جانبها التفتت الى حەپسەخان وقالت: ما ان سمعنا صوت بيت اسطة حسن وصياح الجيران، فزعنا وهلعنا، وقلت ايضاً يأتون حالاً الى بيتنا يعتقلون هذا العجوز لامحال، بينما حين جاءوا قالوا: اين ابناؤكم؟ قلنا ليس لدينا ابناء، وهم قالوا لوالد حەمه ان يقوم ويهيء نفسه، وهكذا دون ان يفتشوا اي مكان القوا النظر في الغرف فساقوا والد حمه وذهبوا، وحين علمت صبرية ان العسكر لم يذهبوا الى بيت والدها عادت الى رشدها قليلاً، ولكن اشفقت كثيراً على حماها، ولذلك قالت بأسف: وي تخلع روحي لك عمي العزيز!

علق توّفه وقال: لاداعي لأطالة الكلام انهضن فإلى اين تقصدن فلنذهب، ولا تنسن بأن المدة ساعة واحدة فقط لا تستمرن على الشكوى، هيا قمن لنذهب، نظرت صبرية الى ساعتها وقالت: ياويلي ما اسرع ان انقضت نصف ساعة! يصدق توّفه لنذهب بسرعة، ذهبت فجلبت عباءتها وقالت: هيا زوجة عمي استعجلي.

حمل توّفه لهن السلة، وساروا جميعاً، زعماً ان يذهبن ليأخذوا تلك الاشياء لحمي صبرية، هز توّفه رأسه وقال مع نفسه، حياتي يأخذون له الفرش والزبدة والمربى، الله يعلم اين يكون هذا البائس وماذا حدث له، ثم في هذا الوقت القليل القصير والمعقد وبين كل هذا الزحام الكثير كيف يمكن العثور عليه؟ ماذا اقول، فبسبب الخوف من حەپسەخان لا يتجرأ المرء ان يفتح فمه والاّ كنت أقول لهن حالاً بأنكن تركضن وراء السراب، ثم قال: يـاالله ماذا تفعل المسكينات لقد اضطربن، الله يربك الانذال حيث يفعلون بنا هكذا.

ذهبن بسرعة، واصبحن في لجة أمواج الملفعات بالعباءات، حيث كان يبدو معهن الرجال بشكل منفرد وكلهن دون توقف واستراحة والله يعلم جئن من أي أحياء بعيدة، كن يركضن نحو المعسكر، والعساكر إنتشروا في المدينة، فكانت في رأس كل زقاق دبابة او شاحنة مملوءة بالعسكر واقفة وكذلك على الشوارع الكبيرة اضافة الى تحركات سيارات الجيب و لاندروڤر ١٥٩ وكانوا منشغلين بالأتصال فيما بينهم، و بواسطة اجهزة اللاسلكي كانوا يتكلمون، نظر اليهم توّفه، وتبع كل من حه‌پسه‌خان والأخرين وكان يقول في نفسه مستهزئاً: والله جيد لقد زرت بيت (كاكه علي) ؟ على اقل تقدير ألقينا نظرة سريعة على بيت آمه خان، كما يبدو لم يمر به أحد، من يعلم؟ حتى اذا كانوا ذاهبين حين كسروا اعناقهم، لابد انهم يغلقون الباب من ورائهم، عندما تنظر الى هؤلاء أبناء الكلاب تتصور كأنهم واقفون امام الجيش الروسي، فبين لحظة واخرى سيشن الهجوم عليهم، فلتنخلع قلوبكم هلعاً وفزعاً، ان تفعلوا هكذا تجاه هؤلاء الناس العزل المسالمين وهذاالعدد من الاطفال والشيوخ، اللعنة على آبائكم الصالحين؟ كما قال حاجي مجيد لا تصيب احداً منهم، نخسته حه‌پسه‌خان وقالت: ويلاه اغلق فمك خاطر الله، يا مهجوم البيت اهذا أوان مثل تلك الاقوال؟ ضربت آمه خان نفسها تحت عباءتها وقالت: ألم اقل الاّ يأتي معنا هذا الثرثار، بالله العظيم يعرضنا للقتل، وهجمت عليه صبرية من جانب آخر، فاضطر توّفه ان يلوذ بالصمت.

وصلوا الى مجموعة من الناس الكبار حيث كانوا مطوقين سيارة جيب عسكرية، وكان عسكري يتكلم مع اثنتين ثلاث نساء، وهم ايضاً أرادوا ان يعرفوا ماذا يدور في هذا التجمع فأختلطوا بالمجموعة وفي مقدمتهم توّفه، وحين رأوا ان امرأة شبه مغمى عليها قد اسندت منكبيها الى مناكب امرأتين آخرين، وامرأة تتحدث بالعربية مع احد العساكر وتقول له: الله يخليك، قل لنا فقط اين اخذوا المعتقلين ولانريد شيئاً آخر، وهي ايضاً مريضة، الله يعطيك العافية فأنت ايضاً عندك الام والأخت وهما الان ايضاً تفكران فيك و متلهفتان من اجلك، صمت العسكري قليلاً، ولكن يبدو انه لم يكن يتجرأ خوفاً من الآخرين الذي كانوا في سيارة الجيب، ان يجيب تلك المرأة حتى بصوت خافت، ولو انه كما يبدو ارفع

منهم درجة، لذلك كلما تمكن ان يقول قال بقوة: أخذوا كلهم الى المعسكر، عليه نحن لا نعرف اي شيء روحوا وولوا الى هناك.

– خفف صوته قليلاً– يحتمل الاّ يصلوا اليهم، فهم عادوا الى حيث الناس الذين اخذوا سمتهم نحو المعسكر، ولم يمكث كثيراً ان عادت موجة الناس الى الوراء، حدثت جلبة وتوافق لاحد لهما، هؤلاء كانوا يسألون اولئك فلماذا يعودون، هؤلاء كانوا يسألون اولئك الى اين تذهبون، واخيراً صعدت امرأة رزنة على نشز قليل من الارض ورفعت يدها للناس ان يسكتوا وقالت: اخواتي ان تثقن بقولي تعدن كلكن الى بيوتكن، لانه بقيت لنا فترة قليلة جداً، ولاتكفي لأي شيء، وهم يقولون لنا في الذهاب انهم في المعسكر، وفي الأياب يقولون لنا فهاهم في السجن، واذا استمر الوضع على هذا الحال يمر الوقت، وفي العودة يطلقون علينا رشقات من الرصاص، ليس من المستبعد أن تكون هذه الفوضى حيلة لكي يبقونا في الخارج، ولذلك أفضل شيء هو ان تعود كل واحدة الى بيتها، فسلمن امر احبائكن الى الله، ثم واذا قضوا على نصفكن كلا لا سامح الله قتلوكن جميعاً، كما قال (پيرەمێرد الشاعر):(لم ينته الكرد فخيالهم هراء...) هيا اسرعن، لم يبق من الوقت شيء، من تتمكن ان تمر في الزقاق، فالأزقة خالية قالت الأمرأة هذا ونزلت، فدخلت بين لابسات العباءات واختفت، وكل النساء انحدرن وتفرقن، وقد اختفين بسرعة.

في هذين الليل والنهار كان اهل المدينة ملولين محسورين خائري النفوس، أنجبت العديد من النساء دون قابلات، والعديد من المرضى الخطرين ظلوا دون الأطباء والأدوية نفد الخبز عن مئات العوائل، وكثير من البيوت التي كانت تشتري الأشياء يومياً لولا الجيران لظلوا جياعاً.

بقي الوضع هكذا عدة أيام معقداً، وكان منع التجول يبدأ من الساعة الرابعة حتى الساعة الثالثة، ثم قلص تدريجياً فأصبح من الساعة السادسة صباحاً، وبعد مدة اطلقوا سراح المعتقلين، ولكن في الليلة الأولى فقط قتلوا ووأدوا الكثير من الكورد الطيبين والطاهرين والمخلصين والابرياء.

ولم تكن السليمانية وحدها مستثناة بل ارتكبوا في كافة مدن كوردستان اعمالاً بربرية وحشية، وخاصة في (كۆيه) حيث احرقوا عدداً من البيوت وعلقوا بعض الناس الابرياء على اعمدة الكهرباء.

ان هذه السياسة الوحشية التي مارستها الحكومة، والتي كانت تستهدف اساساً تحطيم معنويات الناس، اعطت نتائج عكسية، فترتب عليها النهوض ولم الشمل و توحيد الصف وتعميق التآخي ودعم ومساندة الپێشمەرگه بلا هوادة، الأمر الذي ادخل الپێشمەرگه الفزع والهلع في نفوس الحكومة وجيشها، وما كانت تمر ليلة إن لم يوجهوا ضربة قاضية لهم، حينئذ لم تجرؤ الحكومة نقل قطعاتها العسكرية بحرية، وكان لابد من وجود قافلة معززة بعشرات الدبابات والمدافع والشاحنات المملوءة بالمسلحين للتنقل بين بغداد و(دربندیخان) والسليمانية ومضيق دربندي خان و كركوك بهدف نقل الجنود، أو الأرزاق والمعدات العسكرية الضرورية.

اخذ الپێشمەرگه الابطال يشنون الهجوم على بعض الأقضية والنواحي ومخافر الشرطة و ربايا الجيش حيث احتلوا معظمها واسروا الشرطة والعسكر، لكن الكورد تعامل معهم تعاملاً رجولياً انسانياً مع الاسرى بعكسهم، وكانوا يتحدثون اليهم ويفهمونهم بأن الكورد ليسوا من القتلة، وانهم محبون للسلام كثيراً وانسانيون، ويحبون كثيراً الاخوة العربية الكردية، لكن حكوماتها لا تعترف بذلك بان الكورد شعب يريد حقوقه كالشعوب الاخرى، لكن الحكومات تسيء الى شعبنا ولا تكتفي بحجب حقوقه بل تريد صهره والقضاء عليه، فهو يرفض ذلك، ويناضل من اجل انتزاع الحرية والاستقلال وحماية ارضه وحقوقه بهذه الأقوال العقلانية والصائبة و بألاعمال الجليلة، جعلوا من اكثرية العسكر والشرطة الاسرى بأن يكرهوا الحكومة من صميم القلب ويشتموا القادة، وكانوا يعبرون عن الندم كثيراً، وكان البعض من الكورد يلتحقون بالپێشمەرگه وينضون تحت شعار (**كوردستان او الفناء**) ويناضلون ببسالة كما ان الاخرين الذين ظلوا باسم الاسرى على الرغم من ان البيشمركة كانوا يتعاملون معهم كأصدقاء، وكان اكلهم كأكل الپێشمەرگه، ولكن لأنهم لم يتعودوا قسوة الجبال كانوا يفكرون في اهلهم

وعيالهم، فكانوا غير مرتاحين، ولكن عدم راحة البال ذلك تحول الى الحقد الشديد على الحكومة اكثر، والتي تحارب الكورد دون وجه حق، وهي التي اوقعتهم في تلك الورطة، وحين كانوا يفكرون كيف أن ضباطهم يطلقون النار على الاسرى الپێشمەرگە ، كانت تتبين لهم شهامة ومروءة الپێشمەرگە اكثر، وكانوا يشكرون الله ان انقذهم من خوف الحرب، وجعلهم في أمان بين ايدي الناس الصالحين.

(١٤)

ان توسع الحرب ووحشية القوات الحكومية و الحكام وممارسة اعتقال وايذاء الناس وتوجيه العقوبات وحتى قتل اهل الذين كانوا من البيشمركة دفعت بالناس الذين يتوجسون الخوف ،ان يجمعوا بسرعة اموالهم ويسلموها الى اقاربهم ومعارفهم للحفاظ عليها والتوجه بعوائلهم جميعاً الى الجبال عند ابنائهم او أزواجهم و أقاربهم الذين كانوا متواجدين هناك.

وعائلة حەپسەخان واختها الذين كانوا من هؤلاء الناس، خاصة لم تكن الاخلاق والطبائع الهمجية للحكومة محل الثقة والأطمئنان والتي كانت تقال لأدخل لهم بالنساء، وهن قد توجسن خوفاً كثيراً، ولكن فيما يتعلق بحەپسەخان ما كانت قادرة كما تريد ان تستعجل في ذهابهن، لأن كنتها نوبهار كانت حاملة، ولكون بيت والدها في بغداد، رأوا من الأفضل ان يرسلوها مقدماً الى بيت والدها، لكي تنجب وليدها هناك دون مشكلة، وحين انتهوا من ذلك اخذوا يهتمون بأنفسهم.

هيأت حەپسەخان كنتها وجهزت لها جميع الضرورات والمستلزمات، فودعتها مع بنت صديق وسيارة احد المعارف بعيون دامعة الى بغداد.

لم تكفكف نوبهار دموعها الى أن خرجت من المدينة، ثم رويداً رويدا اخذت تفكر في المخاوف التي ليست من المستبعد أن تقف في طريقها، الامر الذي أنساها البكاء، فتوجست خوفاً كثيراً، ولكن كلما كانت تنظر الى عائلة معارفها الجالسة قربها وكيف اخذت اطراف الحديث دون مبالاة، وكأنهن يذهبن الى النزهة، كانت تخجل، اضافة الى هذا فإن كان سمكو السائق الذي كان احد أقرب رفاق زوجها علي، كانت هي راكبة الى جانبه، وقد ادخل السلوى في قلبها وطمأنها، وحكى لها الكلام الطيب والحلولها وعن زوجها علي إلى حد أنها نسيت كل شيء، وهي ايضاً

انفتحت معه وخلطت نفسها في احاديث رفيقاتها لدرجة انهم حال وصولهم نقطة السيطرة، كانت تقاطعهم، وفي تلك النقاط جعلت نوبهار اسئلة العساكر نكتة، لأنها كانت كل مرة تطلق على نفسها وعلى عائلتها و زوجها اسماً جديداً، مثل انها كانت تقول تاره اسمها زكية من بيت المهندس الفلاني، وكانت تقول في نقطة اخرى بأن اسمها عائشة من بيت مدرس الثانوية الفلاني، وبحكم ان نوبهار ترعرعت في بغداد، كانت لغتها العربية على قدر من الجودة بحيث انهم في نقاط السيطرة كانوا يظنون بأنها عربية، ولذلك كان الجنود يسألونها بعض المرات اختي أي شيء اتى بك الى هنا، الاّ اذا جننها الله ان تدخل في هذه النار.

وقد تجاهلت نەوبەهار كل ذلك وكانت تقول بأسى والله يا أخي ماذا اقول الله يجعله خيراً وجهت لي عائلة من المعارف دعوة، من كان يدري هكذا تنقلب الأمور، وكانت تسأل بعض الآخرين: الا اخي بالله عليك الاّ تقول لي لماذا يفعل هؤلاء الناس هكذا، ماهذه الحرب والخصام؟ كان بعض الجنود يقولون في ردهم: كيف لاتعرفين هؤلاء اكراد يقاتلون الحكومة، فهم الذين اربكوا الدنيا، وكانت نەوبەهار على قدر آخر تتجاهل بالجهل، وتقول: ثم كيف يقدرون على الحكومة؟ وكان الجندي يهز رأسه ويقول: تقصدين هؤلاء الاكراد، وكان يكيل لهم:

– بعض الشتائم– اختي انت كيف تعرفين، والله كأنهم جن، لأنهم دائماً يطلقون النار ويصيحون ولا يراهم أحد، ذلك ليلاً ونهاراً حشر معظمنا انفسنا في هذه الخنادق، لقد جننا جراء اعمالهم: اذهبي يا اختي، ولا تعودي مرة ثانية الى هذه المنطقة!

وحينما كانوا يتخطون نقاط السيطرة، كانت نوبهار تترجم أقوالها واقوال الجنود لصديقاتها الى الكوردية، وكانوا يضحكون الى حد، يصدف احياناً لم تكن تنتهي وتتوقف حتى نقطة اخرى، واحياناً كانت نوبهار تقول للسائق سمكو، بأن لا ينسى ان يحكي هذه الاقوال لبيت حماته ليفرحوا بها.

***

بعد توديع نەوبەهار هيأ بيت حەپسەخان وبيت اختها انفسهما كأنما على النار كن ينتظرن رسائل علي والاولاد لرسم الطريق وارسال الناس كأدلاء، وبعد أيام، وصلهم خبر عما يجب فعله وكيف سيكون الطريق وكيف يذهبون! فكان

الجميع على اهبة الاستعداد، وكانوا مرتدين الملابس السميكة ذات الألوان الصارخة القاتمة، وقبل الجميع كان كاكه توّفه يتباهى بنفسه ويقعس صدره وفي عجلة من أمر سفره، خاصة انه قبل يومين ثلاثة كان شاتماً احد رجال الامن الأبن الحرام وهو بدوره كان منهالاً عليه بالضرب المبرح، وكان هو لم يكن يعرف اضافة الى الضرب لم يخبر عنه لاعتقاله! وعلاوة على ذلك كان من المفروض ان يذهب توّفه معهن على اساس انه محرم و رجلهن، بناء على نصيحة وارشاد الفتى الذي ارسلوه في اثرهم، لقد تأبطت كل واحدة منهن عند الضحى جعبة او صرة بحجة الذهاب الى الحمام و او بيوت اصحاب التعازي، وقد انقسموا على مجموعتين، فكل مجموعة وصلت الشارع على حدة ومن هناك ركبت كل واحدة منهن العربة الى الدور العقارية وهناك نزلن من العربة وسرن على الأقدام الى أن دخلوا آبلاخ البيت الذي عندهن عنوانه، وهناك التقت المجموعتان، وان افراد العائلة الذين كانوا يعرفونهم فقط بالاسم استقبلوهن بشوق ومحبة ورحبوا بهن ترحيباً حاراً لكي يعرفوا جيرانهم بأنهن من الأضياف المؤقتات، سرعان ما بدأوا بذبح الدجاج وطبخ الطعام واستعارة المواعين والصواني من هذه الجهة وتلك، ولو انهم كانوا عناصر جيدة ومخلصة، وهم ايضاً قد ودعوا مثل هذه الاضياف كثيراً من المرات، ولكنهم كانوا يتجاهلون دائماً الاستضافة والضيوف، لكي لا يخرج كلامهم من فم طفل أو مراهق.

أكلن الطعام و تمتعن بأستراحة جيدة، الى أن اصبحت الساعة العاشرة ليلاً، وقد خيم الهدوء والسكوت في القرية، وخلت الأزقة من المارة، وقد كان احد ا افراد الپێشمەرگه الذي جاء لأخذهن، كان اسمه السري حسن آغا، جاء وناداهن ان يستعدن للذهاب.

بعد أن استودعن بهدوء أهل البيت، تبعن حسن آغا بهدوء ودون دمدمة، فقطعن اثنين ثلاثة أزقة وقفزن على جدول جدولين من الماء الآسن.

لقد كانت حەپسەخان ماسكة يد روناك بقوة، وكانت تسير لاهثة، وكانت تبتهل وتتضرع في نفسها، لقد لاذت روناك بالصمت تماماً، و آمه خان كانت شادة حزاماً سميكاً تسير خلف اختها، وكان توّفه يسير بجنبها، وكانت تمسك بذراع توّفه في الاماكن الحجرية، وكانت تدندن في الخفاء، لم يكن معلوماً أنها تبتهل، أم

أنها تدندن خوفاً، ولكن توّفه كاد ان ينفلق لا خوفاً بل لأنه قيل له لايجوز له أن يشعل السيجارة الى ان يقول له حسن آغا، كما ان صبرية و نەسرين كانتا تسيران جنباً الى جنب في الخلف بهدوء.

ابتعدن عن القرية مسافة، وصلوا الى واد واسع وعريض، كانت ليلة مقمرة رائعة، وكان نقيق الضفادع يأتي من الكهاريز والمستنقعات، لمحن من بعيد شبح فرس ورجل حيث كانا واقفين لهن، وكادت آمه خان لشدة خوفها ان تفزع و تهلع، فظنت انهم من العساكر، وحين اقتربن منهم لو كانت تمتلك الصلاحية لكمت افواه وانوف الدواب، لأنها كانت تستشم و تفرفر كثيراً، وكانت تقول لتوّفه بهدوء: ماذا نفعل عزيزي توّفه؟ والله يسمع الآن العسكر، فهم أناس يريدون النجاة بجلودهم، يقولون انهم يمتلكون شيئاً كالطلقة الطائشة تسمى طلقة تنوير، في البداية يطلقون تلك الخرطوشة التي تنير لهم الدنيا، وبعد ذلك يرشقون الناس، مثل العائلة البائسة قبل ليلتين، آه يا الهي الكريم ماذا افعل قل لماذا اتينا؟ ياترى ماذا يفعلون بالنساء، لقد انتهينا الآن.

توّفه الذي كان يتميز غيظاً من هذه الأقوال، قال لها بهدوء، ياترى كيف نسيت؟! قد حرمت علينا النوم، لفرط ماكنت تهجمين علينا وتوقظنا، لدرجة أضحى عندك صرير الباب وصوت النافذة، هدير المدافع ودوي القنابل، وكنت تقولين هيا اسرعوا، خاطر الله لنرحل! اراد ان يقول شيئاً آخر، لكن الفتى من الپێشمەرگه اسكته، وبعد ان حملوا الدواب بالأشياء والأمتعة قال لهن بصوت خافت: بسملن الآن واركبن الدواب لكي نبدأ المسير، ولي رجاء واحد فقط لايجوز لأحد ان يتكلم ويسأل ويدمدم، لأنه ليل والدنيا هادئة فالصوت يصل الى مدى بعيد جداً.

قالت حەپسەخان بصوت خافت: الله يطيل عمرك عزيزي، ولكن الا تقول لي كيف يمكن ان ننجو من ايدي هؤلاء العسائر الغاضبين المتواجدين في هذه الأطراف؟ قال الپێشمەرگه مبتسماً: لا تهتمي، فنحن لنا طريق خاص، لاتخافي ابداً، الله في عوننا سنصل سالمين الى اماكننا، هيا اسرعن بسملن واركبن.

كانت هناك صخرة كبيرة فكانوا ياتون بالخيل الى امامها فتصعد عليها النساء وكان توّفه ومالكو الخيل يساعدونها في الركوب.

وهكذا انطلقوا في السير وبعد هنيهة قالت حەپسەخان بصوت مرتعش خافت: آه فداكم روحي فها أنا أقع في الأرض، فالأشياء التي تحتنا ملساء زلقة لانستطيع ان نضبط انفسنا فوقها! لأنهن كن خمساً والدواب اربعة وقد كانت روناك راكبة خلفها.

عدل حمل حەپسەخان وروناك، وانطلقوا في السير مرة اخرى، الى أن خرجوا من منخفض وانتقلوا الى سهل، وكان اصحاب الدواب يجرون ازمة الدواب، ساروا هكذا فترة من الزمن الى ان اشار الپێشمەرگه المرافق بالتوقف، جاء الى مقربة منهن قال بهدوء هامساً: يجب ان نكون حذرين جداً، عليه لقد وصلنا الى الطريق المبلط بين السليمانية وكركوك، يجب ان نمر به ونتحول الى ذلك الطرف، فهذه الجهة وتلك كلتاهما ربايا عسكرية، فأي دمدمة أو حسيس وهسيس او عطس او سعال يسمعونه سنقتل حالاً، ولذلك كونوا حذرين يقظين ما استطعم اليه سبيلا، لقد تحجر الجميع خوفاً دون أن يتجرؤوا ان يسألوا لماذا وكيف او شيء آخر لذلك هزوا له الرؤوس صامتين قالوا مع انفسهم بقلوب حزينة طيب.

غمضت آمه خان عينيها، كمن تزهق روحها، ولفرط خوفها، لم تتذكر لابنتها ولا بنت اختها، كما ان حەپسەخان ايضاً تدعو في نفسها الله ان يحفظهن من هذه المصيبة التي لم تكن لافي البال ولا في الحساب.

وصلوا الى الطريق، وقد كانت الدنيا على قدر من الهدوء والسكوت ولم يكن يسمع اي شيء سوى قعقعة حدوات حوافز الخيول، كان المشهد مخيفاً جداً، خاصة عند حەپسەخان واختها والبنات حيث لأول مرة كن يشهدن شيئاً من هذا القبيل، لقد جر اصحاب الخيول ازمة خيولهم بسرعة وقوة، واستخدموا كل ما يمتلكون من قوة وخبرة الى ان قطعوا الطريق بأسرع وقت وعبروا صوب الجهة الثانية، فأصبحوا في سهل آخر، وبتلك السرعة والنشاط ساروا الى أن لاح لهم تل، فأوصلوا بعجلة أنفسهم اليه ودلفوا حوله الى ان وصلوا ما وراءه فتنفس الپێشمەرگه المرافق، وقال بصوت عال قليلاً: هيا يا جماعة صلوا على النبي فالشكر لله لقد نجونا بسلامة ، فيمكنكم الأن ان تتحدثوا فيما بينكم، وان تدخنوا وتغنوا اذا رغبتم! انتعش الجميع وأشهدوا بالله ورسوله، ومسح البعض وجوههم فكان يتصبب العرق من رؤوسهم وعيونهم واعناقهم في هذه الليلة الباردة خوفاً

وهلعاً، لقد تباهى توّفه قبل الجميع، وبدأ يتبجح وينفخ صدره ويتحدث عن السياسة وحماية الناس والوطنية، اخذت حەپسەخان تبتهل وتتضرع الى الله، ولكن لفرط خوفها كانت مرتبكة تعيد اقوالها عدة مرات وتقدمها وتؤخرها.

وروناك من فرحة نجاتهم من ذلك الطريق كانت عاجزة عن التكلم! اسندت رأسها الى ظهر امها وقد ثبتت كلتا يديها بقوة على خاصرة أمها، كما ان آمه خان ايضاً كأنها تهذي فشرعت تتكلم، ولم تكن مهتمة بمن يستمع أو لايستمع اليها، كانت تقول بسرعة وبدون توقف، اوه روحي فدى للپێشمەرگه ، الله يجنبهم المكروه، انظر ما أشجعهم، يحفظهم الله، يطيح حظ العسكر ياربي، انهم لا يتجرؤون ان يخرجوا من تلك الاوجار خوفاً، عمرت دارك يا ربي، أوشكت أن اقع وسط ذلك الطريق حين سمعت صوتاً، صورت انه سيارة عسكرية تتوجه الينا، اوه تباً لهم، فجأة وقعت من على صهوة جوادها (**فصرخت وابتاه، بالله اظن ان ظهري انكسر، آه خاطر الله الحقوني مت..**)

ركض توّفه وانتفض الپێشمەرگه المرافق وتوجه نحوها احد اصحاب الخيول بلهفة، فدب الصياح والصراخ في البنات، فاقمن آمه خان، لا انكسر ظهرها ولا حدث لها شيء، وكان من حسن حظها ان المكان كان رخواً، ومع ذلك بذلوا المستحيل فلم يتمكنوا من إقناع آمه خان ان تركب ثانية جوادها، وكانوا يتوسلون منها بالحاح بأن المسافة بعيدة والطريق وعر وشاق وشائك، لا يمكنك مطلقاً أن تمشي على الأقدام، ستتمرضين وتكونين عالة علينا، ولكن دون جدوى، لم تجرؤ ولم تتشجع ان تركب ثانية، فتخلوا عنها في نهاية المطاف وأخذوا يضحكون، بدأ كل واحد من اصحاب الدواب بسرد حادثة مثل وقوع آمه خان، ولم يتمالك توّفه نفسه حكى لهم موضوع نزهة، حيث كان ذاهباً في حينه وان اثنتين ثلاث من النساء وقعن من على ظهور الدواب على الارض، وكيف انه لو لم يكن يسعفهن كن يسقطن في الوادي و يتهشمن! همست روناك في اذن والدتها وسألتها، كما هي تعلم أفعل توّفه عملاً مثل ذلك، فأمالت حەپسەخان رقبتها، قالت لها بهمسة: ليكن حراماً يا ابنتي، هذا اول مرة اسمع منه شيئاً هكذا، فأنا معه منذ احدى واربعين سنة فلم يتحدث لنا عن حادثة من هذا القبيل، في حين انه روى لنا

عشرات المرات وبأشكال عديدة وقائعه الملفقة، اسندت روناك فمها الى ظهر امها وضحكت ضحكاً طويلاً.

كانت آمه خان تسير مع توّفه والرجال على الأقدام، لأنها لم تكن قادرة على السير مثلهم، وقد تأخرت عنهم رويداً رويداً، استصرخت فجأة: آه وا أبتاه لقد انقطع نفسي.. خاطر الله، لا تتركوني، رفقاً بحالي، فيهجم على شيء ذئب.

آغاثها توّفه بسرعة، وقد حاول معها محاولة اخرى، فنصحها والح عليها ان تركب ثانية، ولكن دون جدوى، اذ لم تكن تمتلك الشجاعة.

كانت روناك مسندة رأسها الى ظهر أمها، اوشكت ان تغفو، وكادت أحياناً ان تسقط، وكانت أمها توقظها وتقول: آه عزيزتي روناك او غفوت؟ والله نقع الان كلتانا، خاطر الله لاتنامي، انتبهي.

لم تطق حه‌پسه‌خان صبراً فقالت بتذمر وخجل:

– الله يا حسن آغا عزيزي، لايجوز ان ننزل في مكان أو نركن الى الاستراحة قليلاً، بالله لقد تخدرت رجلاي كأنهما خرقة قماش، وان هذه الصبية نامت اخاف من وقوعها وينكسر احد اعضائها.

قال حسن آغا: اجل والله لم تبق امامنا مسافة طويلة سنصل الآن الى عند تلك الطاحونة وهناك نلقي الرحل وانتن تمتعن بالراحة، وغفوة. فقالت نه‌سرين وصبرية في قلبيهما الله يجازيك خيراً، حيث افرحتنا، والله نحن ايضاً نشعر بتعب كبير جداً ان أرجلنا تؤلمنا، ولكن كنا نخجل ان نتكلم.

بعد هنيهة وصلوا الى الطاحونة، ولكن اية طاحونة، اذ ان القصف دمرها تدميراً كاملاً لم يبق حجراً على حجر، ولكنهم لم يكترثوا فنزلوا، وفرغوا الحمولة وهكذا لشدة تعبئهم واعيائهم من وعثاء السفر لفت كل واحدة من النساء بسرعة العباءة من نفسها واستسلمت لسنة النعاس، كالميت، وما كن يعرفن أإن ما تحتهن حجر وشجر وافعى وعقرب أم مندر من ريش الأوز!

(١٥)

ماتزال الدنيا فجراً، سماء صافية صحواً، وكانت النجوم تلمع، وقد ظهرت نجمة الشعرى منذ مدة، وكانت مشرقة بهية، وكان يمر فوقهم بين حين وآخر نسيم بارد مندى كأنه يريد ايقاظهم ان ينظروا الى المنظر الجميل لوطنهم.

نهض الرجال فتوجهوا نحو دوابهم، أعدوهم، نادى حسن آغا النساء ان ينهضن بسرعة و يهيئن أنفسهن وقال: يجب أن نغادر هنا قبل شروق الشمس، لئلا تتحلق فوقنا الطائرات.

انتفضت النساء فنسين النوم بمجرد ذكر الطائرة نظرت آمه خان الى ماحولها والتفتت الى اختها وقالت: ايتها المرأة ما اسرع ان طلع النهار، ولم نتمتع بالراحة بعد، قامت من مكانها ونظفت ملابسها، وقالت على مهلها: الله لايخليني كيف نمنا على هذه الحجارة وقانا الله شر البليه، أدارت ظهرها من الرجال ورتبت عصابة شد رأسها ووشاحها، تعالي إركبي لا نتحمل الصرخات والصياح ثانية، ولأن الدنيا قد اضيئت قليلاً كانت ترى الطرقات كأن خوفها زال لذلك قالت: سأركب اذن ماذا أفعل؟

لقد ركبت جميعهن ثانية بملامح مرتبكة ومضطربة، فتلك كانت تمد يدها الى ظهرها، والأخرى كانت تمد يديها الى دبرها وخصرها، فكل واحدة كان احد اعضائها يؤلمها ،ولشدة البرد لففن أنفسهن على قدر آخر وجعلن من أنفسهن كئيبات مهمومات، كما ان روناك حتى فترة ماكانت مسندة رأسها الى ظهر أمها لم يزل نومها بعد.

كانت حەپەسە خان تقول في نفسها، ياترى ماهذا لقد تكسر كل اعضاء جسمي، ولولا هؤلاء الرجال لما تمكنت أن انتصب على قامتي البتة، بينما في البيت كلي نشاط وحركة، انهض مبكراً وأصلي، آه فلتمت والدتكم أثاري أن حال

ونـوم پێشـمەرگه هكـذا، يحتمـل أنهـم ينـامون بحيطـة وحـذر بسـبب الاعـداء والطائرات.

قطع حسن آغا خيال حەپسەخان وقال: نصل الأن الى تلك الأجمة ونتوجه نحو قيوان، وبعد فترة قليلة نصل مكاناً جيداً وفيه الماء وهناك انزلن واسترحن وكلن الطعام، فان غابته كثيفة ملتفتة الاشجار الى حد أن الطائرات لاترى اي شيء.

لم يطل كثيراً، اشرقت الشمس، واصبحوا تدريجياً على طريق حجري، وقد انتشرت في ذلك المكان صخرات كبيرة واشجار البلوط والعفص والعرموط والكمثرى والكرز الاحمر والزعرور، وقد تجردت بعض الاشجار من اوراقها پێشمەرگه شدة البرد والعاصفة وبعضها الأخرى احمرت واصفرت أوراقها، احياناً كان صاحب الدواب الذي كان في المقدمة يصرخ: خفضن الرؤوس لكي لا تصطدمن باغصان الاشجار.

قطعن المرتفع رويداً رويدا، فأصبحن في السفوع والوديان، بعد هنيهة قال حسن آغا: إنه ذلك لقد وصلنا، يمكنكن النزول هنا.

وبعد ان اكلن الطعام وركن الى الاستراحة قليلاً بدأوا السير ثانية، مدت حەپسەخان احدى يديها الى رأسها وقالت: ليتنا حضرنا شاياً، آه من صداع رأسي.. ولأن الآخريات كن يسرن على شكل صف فكان توّفه وحده على مقربة منها سمع اقوال حه بسه خان علق عليها قائلاً: أو الآن وقت للشاي؟ أإنه كفر ان لم تكن هذه الوجبة من الشاي، سكتت حەپسەخان خوفاً من توفه ان يتكلم اللغو الفارغ، لأنها كانت تعلم اذا حضره الكلام لم يكن من الممكن كم فمه، لذلك قالت له: طيب طيب ما أردناه فكفى واقطع كلامك.

وصلوا الى قيوان حوالي الظهر، وكانت البنات يغلقن افواههن سريعاً ويضحكن من الدواب حين صعدن المرتفع وكيف كانت اصواتهن تعلو، وكانت روناك تشفق عليها وتقول مع نفسها، عجيب اننا نركن الى الراحة على ظهور هذه الحيوانات المسكينة بينما خارت قوانا ونظل ندندن من التعب والاعياء وكيف يكون حال هذه الحيوانات غير القادرة على النطق وما اشد تعبها الان؟ وكيف تتمكن السير في هذه الطرق الوعرة والممرات الضيقة؟ حقاً انها مثار المخاوف،

أوشكت ان تطفر الدموع من عينيها من اصوات ضروطها، وقد كان خيالها يشتت دون ان ترغب، كانت تنظر وتكم فمها وقد ألصقت رأسها بظهر امها وتضحك. صرخت احداهن فجأة، آه يا أبتاه ما ذلك المكان الذي يتصاعد منه الدخان.

لقد خفقت قلوب الجماعة حد انهم وقفوا واحداً واحدا، والتفتوا الى سفح ذلك الجبل الشاهق، فوجدوا ان الدخان يتصاعد من بعض الجهات، وقد لاح من البعيد الذي كان يلف ويدور كالدوامة ويتصاعد نحو السماء، ضرب حسن آغا يداً بيد وقال: وي بالله تلك قرية آبلاخ تحترق يبدو ان الحكومة قد كشفتها ولذلك شنت الهجوم عليها، فهي تحترق بيوت الذين يساعدون الناس للنجاة، وهذا الدخان مئة بالمئة ينبعث من تلك البيوت، لقد تضايقت الناس من ذلك كثيراً، فكل واحدة منهن اخذت تدندن وتصرخ بالدعاء وتنظر بعيون دامعة، وبقلوب مفخالة بالحب والشفقة والحسرة والحزن والألم الى الدخان وتضرب نفسها، لقد توقفوا قليلاً بهذا الشكل، ولكن لامناص في ذلك، بدأوا السير مجدداً، وحين رأت آمه خان بأن الدخان اخذ يتصاعد اكثر قالت: الا فداكم روحي فأين نحن نذهب، وبقي القليل ان نذهب الى عندالله، لقد اغتنم توّفه من هذا الفرصة من ان يقول نكته، ويجعل من نفسه وردة المجلس، التفت اليها وقال: طيب اذا اقتربت الى هذا الحد من الله فاقرأي دعاء من هؤلاء الطغاة الانذال الذين يفعلون هكذا بهؤلاء الناس الابرياء، لعل دعاءك يكون مستجاباً والله ينقذنا من بين ايديهم.

علقت حەپسەخان غاضبة وقالت: لا تكفر توّفه، قل استغفرالله ان هذا الكلام كفر، روحي فدى الله فسبحانه لا مكان له، وهو موجود في كل مكان وقريب، قال توفه: والله أنا لم اكفر، ان اختك تقول اوشك أن نصل الى عندالله، استغفرت آمه خان واختها وقد ضحكتا خفية قليلاً، لكن روناك كانت متضايقة، لقد هيج الدخان آلام جروحها تماماً، وان الپێشمەرگه التي حدثت والتي تحدث منذ مدة كانت تمر امام عينيها كشريط سينمائي عقدت ذهنها، و صبرية كانت ترمق تلك الجبال والطرقات، وكان قلبها يخفق كلما كانت ترى قطعة دخان او قرية من بعيد وتقول: يا ترى الا ينتظرنا شيروان في تلك المواقع؟ وكانت تخجل ان تسأل أيأتي أحد لاستقبالهم؟.

كما ان نهسرين اذا ما رأت من بعيد قروياً او راعياً، او مسلحين متوجهين نحوهم، كانت تتصور أنه حسين جاء لاستقبالهم.

كان توفه يلهث، وكان لنشيج صدره وصوت سعاله صدى ودوي في تلك المنطقة، وحالما كان يصل طريقاً منبسطا ورخواً قليلاً كان يستنشق الهواء ويلمع وجهه، كان يشرع بذكر زمن العسكرية كيف جاء الى هذه الجبال، وكيف تسلق جبالاً اشق منها كالغزال، ومدى خوف المهربين منه، وكيف تمكن في احدى المرات ان يلقي القبض وحده على خمسة منهم، ومن هناك انتقل الى ذكر كيف ان مغنية عربية مشهورة أحبته، ان حسن آغا واصحاب الدواب قد ادركوا منذ الوهلة الاولى انه رجل متفاخر في كلامه وكذاب، كانوا يودون أن يستهزئوا منه اكثر قضاء للوقت، حيث أن حسن آغا كان متعلماً يجيد اللغة العربية، وكان اكثر خبرة منهم، لقد ذكر لتوفه اسماء مغنيات عربيات مشهورات مثل صباح، شادية، وفائزة احمد بأن يقول لهم اية من تلك أحبته، وهو كان يهز رأسه ويقول: لا لا لم تكن تلك المغنيات، وهم كانوا يلحون عليه اكثر ويتوسلون منه ويستحلفونه ليقول لهم من كانت؟ وكانوا يقولون له كاكه لقد انقضت الأن سنوات عديدة اذن لماذا لاتقول لنا؟ وبعد رجاء وتوسل كثيرين قال توفه مبتسماً وهو يسير: والله كانت سميرة توفيق، وقد غنت لي اغنية.

بدأ حسن آغا وهم جميعاً دفعة واحدة بالصياح: سميرة توفيق، يخرب بيتك لماذا تركتها: قال توفه بشيء من الاكتئاب: ماذا اقول انه نصيب وقسمة، لقد تمالك الرجال انفسهم بقوة بالاّ ينفجروا قهقهة وضحكاً، لكي يستمر كاكه توْفه على كلامه، وهم يمازحونه، وكلما كان يلوذ بالصمت كان احدهم يسأله ويشجعه ان يقول لهم كلاماً أخر، كرهت حه بسه خان والأخريات كثيراً ذلك، وكن مع انفسهن يدندن ويضجرن بأن توفه كشف نفسه أمام هؤلاء، فقبل ان يحكي هذه الأقوال كان على قدر كبير من الأحترام وكانوا يظنون بأنه رجل كامل، وحين اطلعوا الآن على طويته، فها أنهم يستهزئون به!

وصلوا الجبل، وكانوا في تعب واعياء شديدين، وقد خارت قوى توفه تماماً، لفرط ما تباهى وتبجح وأقعس صدره أمام الرجال كان يستحي ان يذكر تعبه، وبعد استراحة قليلة ساروا ثانية، لقد ساروا مدة نحو المنحدر الى ان وصلوا

منطقة واسعة مريحة مكتظة بالأحراش، التفت حسن آغا الى النساء، واشار الى اشجار باسقة هرمة وركام من الحجارة وقال: ها انه عين ماء زلال جداً، اذهبن وتمتعن بالراحة واننا نذهب الى ذلك المنحدر لسقي الخيول ونقدم لهم شيئاً من العلف، لذلك لاتسرعن.

وحين نزلت النساء اخذن معهن شيئاً من زاد السفر، وتوجهن الى مجموعة من الاشجار وركام الحجارة، وحين تقدمن وجدن تحت الأشجار ينبوعاً جميلاً بارداً يتدفق، وقد رصفت حوله احجار منبسطة للصلاة، وقد قعدت عليها بعض القرويات كن يتوضأن، وبعض الاخريات من ذلك الطرف انشغلن بغسل الايدي وتمشيط الجدائل، او كن يملأن الجراب ويغسلن القربة.

خجلت روناك بسببهن ان تذهب الى النبع، وقد دست يديها في ماء الجدول، وكانت تختلس النظر اليهن، ولاسيما الايدي المرصعة بالأساور والخواتم المتنوعة وخرزات اعناقهم والتي كانت فيها الانواع الفضية الى المصنوعة من الحديد والنحاس والبلاستيك، ومع ذلك كانت تهب ريح باردة، لكن القرويات لم تكن يعرن لها كأنهن جالسات قرب جرن الماء الحار في الحمام، وحين أتت النساء المدنيات الى النبع، تبادلت القرويات معهن التحية والسلام ورحبن بهن ترحيباً حاراً كمعرفة قديمة وسألهن بلهفة عارمة عن احوالهن لأنهن سمعن الوضع السيء لأهل المدينة، ولكي لا يخجلن ويركن الى الراحة بحرية تركن لهن النبع وتوجهن نحو البيوت، بعد أن رجون منهن ان يقبلن إستضافتهن.

لقد ظلت حەپسەخان والاخريات جالسات، وقد لفت آمه خان نفسها بعبائتها بقوة فتمددت، والأخريات بعد قليل من الراحة بدأن ببسط مزودهن، ثم صحن الرجال ليأتوا ويأكلوا شيئاً.

بعد انتهاء الأكل والتمتع باستراحة جيدة قال حسن آغا: اذن انهضن لنسير، وفي الليل ننام في تلك القرية من بيت واحد او اثنين پێشمەرگە من المعارف، وصباح غد نسير مبكراً، ثم لا نركن الى الاستراحة حتى نصل (ماوەت) عند كاكه علي.

كان الليل متأخراً حين وصلوا القرية، اوقفوا الخيول امام احد البيوت، نزلت النساء، وقد احدودبت ظهورهن جميعاً، لقد قعدت آمه خان في مكانها بذلك الظلام على ذلك السماد والتراب وقالت مع نفسها: ماذا بالله لقد أصبحت خرفة.

وقد كان افراد البيت نائمين، فأيقظهم حسن لآغا، فجاؤوا بالمصباح لاستقبالهم، فرحبوا بهم ترحيباً حاراً، وبدا كأنه لأول مرة يوقظهم الضيوف على غير ميعاد وقد اعتادوا على ذهاب وايابٍ مثل تلك العوائل القادمة الهاربة من المدينة، حيث كانوا يتوجهن الى تلك القرى اضطراراً، تقدمتهم ربة البيت، فكانت حاملة باحدى يديها مصباحاً وبالأخرى كانت منشغلة برأسها ووجهها ووشاحها حيث كانت تلمسها بسرعة، لكي يزول نعاسها بشكل تام، لقد صعدت المرأة على درج ضيق رفيع الذي كان بجانب باب الباحة، تبعتها حه‌پسه‌خان واختها والبنات الى ان وصلن غرفة طويلة، وقد فرشت في طريقها المقابلين الطنافس والبسط، فوقها اثنان ثلاثة منادر، وفي زاوية وضعت مجموعة من الفراش، وضعت الامرأة المصباح في احدى الطاقات، وحملت الكومة من الفراش فوضعها على إحدى المنادر وقالت: تفضلن فهذا فراش وهذا مكانكن فانتن تعبتن من وعثاء الطريق، نمن تصبحن على خير، وقالت هذا وراحت، وهن اخذن بتنظيم الفراش، وقد حملت كل واحدة منها لحافاً، أو شفاً أو بطانية و مخدة واستلمن لسنة النعاس دون حراك، كالميت دون حس وحسيس، ولقد بقين هكذا مدة من الوقت ثم بعد ذلك دبت الحركة فيهن تدريجياً، وقبل غيرهن آمه خان التي صحت من النوم وكانت تحك جسمها بعينين ناعستين وتدندن وتقول بخفوت: لقد حرمتنا البق من النوم، فتقلبت على جنبها، وقد كانت تعبة للغاية فنامت بسرعة، وبعدها دمدمت صبرية ونه‌سرين ايضاً قليلاً، وكأنما لم يمض وقت طويل إستلمتا للنوم ثانية وبدأتا بالشخير والغطيط، وبعدها بدأت حه‌پسه‌خان تحك جسمها وتتقلب على جنب، وكانت تقول بلسان ثقيل ناعس آه أبتاه ماهذا لقد اكلنا؟ ولكن مع كل هذه الاستفاقة من النوم وحك الجسم ودمدمتهن، كان البق والنعاس وحدهما طاغيين، ولذلك كن ينامن مرة اخرى بسرعة فائقة.

ماتزال الدنيا فجراً وقد شنت البق عليهن هجوماً خفيفاً فدب فيهن الضجر والملل لكثرة مطاردتهن لها، وقد فكت حه‌پسه‌خان الوشاح من عنقها بتذمر، وقد

غطت به وجه روناك بسرعة، ولفت وجهها بعصابة شد رأسها، والأخريات ايضاً كل واحدة منهن اخفت رأسها ووجهها بشيء، وعلى هذه الحالة حاولن النوم وغفون، ولكن لم يلبث ان جاءت اليهن ربة البيت، وعندئذ اضطررن ان ينهضن من النوم، فقالت لهن ان يردن فليأتن للذهاب بهن الى نبع النساء، وهن قلن طيب فتهيأن، وقد تحول جسم حەپسەخان كله الى حصف وطفح جلدي، وكانت تحك نفسها وكانت تدمدم وتدندن مع روناك، نظرت الى الطرف المقابل للغرفة فرأت انها اصطبل الدواب والمعلف والمواشي، وحتى الغرفة نفسها يكون الصعود اليها بكل تلك الدرج، بينما طرفها الأخر في مستوى الباحة والاصطبل.

نفضت آمه خان عباءتها وتلفعت بها، وقالت بتوأدة: اي غرفة هذه، فلتعمر دارهم، فهي كأنها مقطورة القطار لفرط طولها. قالت اختها: لابأس في ذلك ولكن ماوراءها على هذا الاصطبل فهي التي كدرت الحالة، فليكن الكافر بحالي هذه الليلة جراء البق حيث كنت اتقلب واتلوى حتى الصباح وكنت احك جسمي، فقالت صبرية بهدوء: أمي أمي اسكتي خاطر الله، لقد وقفت الامرأة على الدرج تنتظرنا، قد تسمع كلامنا، اضافة الى احسانهم ان نعاتبهم؟ ماذا يفعل هؤلاء المساكين، فكل ما يمتلكون هو امامنا، ولكنكن لا تقتنعن بأي شيء وتدندن دائماً، واخيراً لذن بالصمت فتتبعن الامرأة وابتعدن خطوات من البيت وعبرن جدولاً جدولين، وبعد قليل وصلن الى سهل حجري الذي فيه اشجار كبيرة متشابكة الأغصان متداخلات الرؤوس، وحصار كبير مسقف، له باب كبير لكن كان مفتوحاً على مصراعيه دخلته الامرأة واشارت اليهن وقالت: هو ذا نبع النساء وحين نظرن اليه اي نبع كان؟ اشبه مايكون بحوض كبير ما حوله مبني بالحجر والاسمنت وقد تفرعت منه جداول صغيرة، والنساء في حركة وتموج فبعضهن عاريات منشغلات بالاغتسال، وبعضهن في حالة ارخاء الشعر، وبعضهن يجددن الملابس، وبعضهن يتوضأن وبعضهن يغسلن الملابس، وهن تسمرن في مكانهن، لاحراك لهن، لقد همست روناك في أذن امها: أمي والله لو قتلوني لا اتوضأ امام اعين كل هذه النساء ولا اجعل من نفسي فلماً سينمائياً، قالت أمها: ألا حبيبتي لماذا اصبحت هكذا، أليست هن ايضاً نساء مثلكن، او عندنا كيف يذهبن الى الحمام الخارجي، فلماذا

الاستحياء؟ اغمضن العيون ولا تهتمن، قالت نەسرين: كلها لا ضير فيها، ولكن موقعه وماؤه وسخان جداً.

يبدو أن النساء القرويات قد شعرن بأن جدل هذه النساء المدنيات يمكن أنهن يخجلن أن يفعلن مثلهن ولهذا كن يتبادلن النظرات ويضحكن، كانت البعض يقلن لهن باستهزاء تعالن كن نساء طيبات لماذا اصبحتن في حيرة، واحداهن من ذلك الطرق كانت تقول بابتسامة ماكرة:

– طبعاً انهن من اهل المدينة اعتدن على المكان الطاهر النظيف، وكانت الاخريات يضحكن بهمسات و يستهزئن بهن.

ولكن بذلن كل مافي وسعهن، لم يقدرن ان يحملنهن ان يقربهن من أنفسهن خطوة واحدة، فبالعكس، تراجعن وخرجن، فما اشد اضطرار ربة البيت بالذهاب بهن الى الأصطبل لتأتي بالماء لهن لغسل وجوههن.

وضعوا لهن الشاي والخبز، ولكن لم يتمكن ان يأكلن لكثرة الذباب، لأن الجو قد استبرد، فكل الذبان كانت هاربة الى الغرفة، عندئذ اضطررن الخضوع لأمر الواقع فكانت احداهن تقوم بهفهفة الأكل بخرقة قماش ويأكلن بالتناوب، ولم يرق الشاي في عيني حه بسه خان، لأنها كما يقولون كانت خبيرة في السماور والشاي، وكان لشايها شهرة، والأن حين جلبوا لها الشاي الفاتر، وبهذه الحالة، الى ان اوصلوه لها انسكب نصفه في الماعون، وكن خجلات ماذا يقلن، اضافة الى أنهن تقاطرن على البيت واصبحن سبباً لمتاعبهن، لاينقصهن شيء ان يطلبن منهن الشاي ذي سبعة ألوان، ياترى هؤلاء الفقراء كيف تمكنوا الحصول على هذا الشاي، لأن الحكومة قطعت عنهم طريق كل شيء، كانوا يقولون يأخذونه للپێشمرگه، لذلك اكلن شيئاً خفيفاً وشكرن البيت وكن ينتظرن الجواب ليذهبن.

***

(١٦)

عند المساء حين جاء حسن آغا وتوفه في أثرالنساء، لقد فرحن الى حد كأنهما حملا لهن البشرى، قمن جميعاً بسرعة فاستودعن ربة البيت بتقديم الشكر والعرفان، وهي ودعتهن بحرارة جداً.

حين جئن الى عتبة الدار ادارت آمه خان عينيها فيما حولها والتفتت الى توفه وسألت: عزيزي توفه ماهذا؟ اظن لايبدو لاحصان ولا اي شيء؟ ماذا أنسير مشياً على الأقدام؟

– لا.. نسير بالطائرة، أو لماذا بدأت ثانية تدندنين؟ قالت آمه خان:

ياويلي الله لايخليك، ماذا قلت أنا، كان سؤالا وجهته اليك؟

قال توّفه: عزيزتي، اختي، تعالي اولاً نبتعد من البيت، عندئذ تعرفين أنمشي على الاقدام أم لا؟.. فليس هنا شارع الرشيد تأتيك السيارة امام البيت! تلك سيارة جيب واقفة هناك من ذلك الاسفل، فأذهبي اذن فكفى الآه والآف و وي لقد مت.

كانت حەپسەخان تسير مع حسن آغا والبنات في المقدمة، وكانت تذكر له مدى الخدمات التي قدمها لهن ذلك البيت، وكيف ان زوجها وإبنيها قد ذهبوا في وقت مبكر الى حيث العمل، وتركوا شؤون البيت على تلك الزوجة المسكينة، وكانت منشغلة بأحدى يديها بتعجين والاخرى بترتيب پاچه العنزة التي ذبحوها لهن، وكان طفلها في المهد باكياً باستمرار، وهي ما كانت تمتلك وقتاً لتعطيه جرعة من الحليب، اضافة الى همومها ومعاناتها، كانت آتية اليهن رويداً رويدا وذاهبة الى النبع فجاءت بالماء منه بالصفيحة، اضافت روناك قائلة: أو نسيت حلب البقرة والعنوز؟ ضحكت امها وقالت: والله تصدقين، فتلك عندي من اصعب اشغالها، لقد نسيته، وقد وصلت آمه خان و توّفه الى عندهن وقد سمعتا اقوال حەپسەخان، لقد رفعت آمه خان حاشية صايتها التي كانت تزحف من ورائها،

فقال لها توّفه: او لا ترين صايتك ما أجملها في كنس الطريق، وهي اثناء نفضها ورفعها كانت تقول في نفسها: والله جراء اقوال اختي حه بسه خان لم انتبه الى الصاية والثوب بتاتاً، فلتعمر دارها، يالها من تضخيمها للأشياء الى هذا الحد، لو يسمع احد قدر مدحها واطرائها لتلك الامرأة وذكر تنظيف الثاضة، يتصور انها قدمت لنا الكيباية... عزيزتي اي نشاط وحركة؟ والله لا أعتقد ان تتفرغ الى يومين آخرين من تنظيف ذلك الرأس الصغير للعنزة، لفرط بطء حركتها، ويا للأنسان حين يكون في تلك الطرقات شديد النهم، عجيب جداً، فكانت في بيتنا كل هذه الاطخالة الشهية الطيبة فأحياناً لم اكن اشتهيها على الرغم مني، بينما هنا كنت اطمع في ثاضة ذلك البيت، اوه فلتمت والدتكم عجباً ماذا يأكل الآن الأبناء وهؤلاء الثيَشمةرطة المدللون، وما اكثر رغبتهم في الأكل الطيب اللذيذ، فلتنخلع روحي لهم.

وصلوا موقعاً، كانت سيارة جيب امريكية واقفة، وكان الأطفال الصغار في تلك المنطقة ملتفين حولها، منهم من كان ينظر اليها، ومنهم من كان يصيح وينادي صديقه ويقول: اركض يا ولد لقد جاءت سيارة الجيب، ستعود الأن، وكان ثيَشمةرطةيان آخران يتجادلان، هذا كان يقول لها اربعة مصابيح پێشمەرگەتان كبيران في المقدمة وپێشمەرگەتان صغيران في الخلف، وذلك الآخر كان يقول: كلا ليس كذلك إنما في الخلف اربعة مصابيح.

ما ان نظرت حەپسەخان الى السيارة الجيب حتى وان خفق قلبها وقالت بهدوء: يا لليس تعسي، أيكون من المعقول ان نحشر انفسنا جميعاً في هذه السيارة الصغيرة، لكنها تمالكت نفسها ولم تنطق ابداً لتعرف ماذا يقولون عسى الاّ يكون هكذا، ان تكون هذه لقسم منهم، والآخرين يذهبون بسيارة جيب اخرى، شتت حسن آغا مرة اخرى خيالها وقال: هيا اخواتي اركبن، احتلن مقاعدكن من الخلف، وأنا وكاكه توفه نكون في المقدمة.

نظرت آمه خان الى اختها وقالت: كيف نحتل مقاعدنا؟ لقد لفت صبرية و نەسرين العباءة من أنفسهما وصعدتا الى السيارة فتلاصقتا بقوة ونادتا الأم والخالة وقالتا: هيا تعاليا لقد اكتفينا فقط بمقعد واحد.

قالت آمه خان بأسى: لكن أنا تضطرب معدتي كثيراً يجب ان اكون عند النافذة، وقالت حەپسەخان مدندنة بهدوء: والله ان اكن أنا في الوسط سأموت حالاً، قالت صبرية و نه سرين: طيب ليكن الطرفان لكما وكلانا نكون في الوسط ونحتضنان روناك معاً، كمت روناك فمها وقالت ضاحكة: تحتضاني؟ فوالله ستهرسان كلتاكما لكأنني دبة.

ضحك الجميع، لقد قرأت امها وخالتها في قلبيهما پێشمەرگه نين پێشمەرگه من أدعية الوقاية من العيون الشريرة، وكيفما يكن ركبت حەپسەخان واختها السيارة بتذمر صامت، ثم الرجال، عندئذ انطلقت سيارة الجيب الخبراء، لكن تلك المنكوبة كانت قادرة على السير بشق الأنفس، وقد اضحى الركاب القاعدون فيها مثل الدولمة، وقد ارتكزت مرافقهن وأذرعهن في خواصر و بطون بعضهن البعض، سرعان ما القت آمه خان شيئاً في فمها وبدأت بالمضغ، فسألتها روناك بهدوء وقالت: خالتي العزيزة ماذا تأكلين، قدمت لها الصرة وقالت: صدقة لك انه حامض وملح يفيد اضطراب المعدة هاء ضعي قليلاً منه في فمك، قالت روناك بهدوء وضحكة: من اين حصلت عليه؟

– حبيبتي كنا مانزال في المدينة حيث وضعته في جيبي، وكنت اظن ان نأتي بالتورن او ما شابه الى هنا.

كانت سيارة الجيب تتمايل يمنة ويسرة بسبب وعورة الطريق، ولم يمض وقت طويل الى ان حل الظلام، فما كان بمقدورهن ان يرين شيئاً، وكن في هذا محظوظات والاّ فان آمه خان قبل جميعهن كانت تزعق وتصرخ فيما لو شاهدت الحفر والاخاديد الكثيرة والمرتفعات والوهاد الهائلة والطريق الضيق الرفيع، ولأن الجبال وشعبها والطرقات كلها كانت مظلمة، ما عدا ضوء السيارة وحده الذي كان ينير ما أمامها، لذلك لم يشاهدن ما في طرفيهن.

وكان توفه بدوره مهيجاً المجلس، وكان في هذه المرة يتحدث اليهم عن تركيا، كيف كان ايام الشباب في احدى السنوات تائهاً الطريق، وقد وصل عبر الجبال الى مدينة وقد عرف بأنها تركيا، حيث اضطر ان ينزل ضيفاً على بيت ما، وكانت في البيت امرأة عجوز مع ابنتيها، وهو قد طلب من العجوز ان تؤجره غرفة، وهي

تعطيه الغرفة، وسرعان ما تقع البنتان في غرامه وحبه، وتتشاجران في كثير من المرات بسببه أو لم تكونا تأكلان الطعام، حين كان توفه يعود من التنزه والتجول.

لأن سائق سيارة الجيب كان احد افراد فصائل الپێشمەرگه، مخلصاً جداً، وكان فيما مضى يعمل في دائرة حكومية، ثم كان ملتحقاً مع جيبه بالپێشمەرگه ويعمل، فهو كان يشغل سيارة جيبه لهم وينقذ الناس، ويعمل للثورة، وكان يسمى حسن الصغير، ثم اضافة الى هذا كان فتى متعلماً، وذكياً، ولأنه بالنسبة اليه لأول مرة يرى توفه ولم يكن مطلعاً على تفاخره وتباهيه، ولذلك كان يستمع اليه بشك وريبة، ويسأله فجأة:

– طيب يا كاكه انت تقول لقد تهت وضللت الطريق فذهبت جبلاً فجبلاً الى أن وصلت الى تركيا، فكيف في كل تلك الطرقات لم تلتق أحداً ليسألك الى اين تتوجه؟ ومن انت؟ ومن اين جئت؟ واين جواز سفرك؟ وانت نفسك حين عرفت شخصا لعله يرشدك الطريق؟ تمتم توفه واخرج سيجارة واشغل نفسه بأشعالها، فأراد القفز على سؤاله وان ينساه، نحس حسن آغا في السائق وافهمه بطرفة عين الاّ يتدخل، بل يستمع فقط.

لقد تضايقت النساء كثيراً، ولكن من حسن حظهن، كن يتخيلن انهن الآن يصلن الى احبائهن، ويعانقهن ويفرحن بلقائهم والشكر لله، وقد انساهن الخيال كل شيء، ويذهب خيالهن، الى ان دمدمت احداهن فجأة بشكل متضايق أوه ابتاه، كانت تحاول لعلها تستطيع أن تبدل وضع أحد اعضائها او موقع يدها او موقع ساقها، ان الذي ازعجهن اكثر هو توفه الذي كان مفتوحاً مثل راديو المقهى، وكان يروي كل تلك الحكايات، والوقائع الكاذبة التي لا اساس لها من الصحة، ويضحك منه ثيَشمةرطيان ويستهزئان منه، وهما ماكان يتمكنان اسكاته، كانا يعرفانه مما يمتلك من لسان سليط، وليس من المستبعد أن يخجلهما، لأنه يدلل عليهما كثيراً، وهو كان يتميز منهما غضباً، دون ان يستشيط احدهما غضباً من كلامه وحتى من شتائمه، أو يكونان متأثرين ولذلك لو لم يكن الاشخاص الذين كانوا مطلعين على علاقة تلك العائلة وتوّفه لما أثاروه.

في وقت متأخر من الليل وصلوا الى (ماوەت)، فلاحت اضواء مصابيح عدد من البيوت بشكل قليل جداً، وكان احياناً يلمع ضوء فجأة بين الوديان والتلال والجبال وينعكس شعاعه في المكان المعمور ولكن لم يكن قوياً، لقد تعوذت آمه خان وتعوذت وبسملت عدة مرات وقالت: بانه يشبه البرق والرعد، عونك ياربي ان نصل المكان قبل ان يتحول الى عاصفة ومطر عزير! أفرحها حسن آغا وقال: باجي انه مصابيح يدوية للپێشمەرگه، فها قد وصلنا المكان، ومن كانت ناعسة بدأت تفرك عينيها، وكانت منشغلة برأسها ووجهها، وكان توفه الذي كان يتثاءب مرات قبل ذلك، وقد فك جامانته بتثاؤب وشدها، فنفخ صدره، لقد تفاجئن ببطء حركة السيارة ووقوفها امام إحدى البنايات، وسرعات ما إنطلق منها رجال مسلحون، ونزل حسن آغا واخذ يتحدث معهم، ثم قال للنساء ان ينزلن، ولأنهن في مكانهن الضيق اخذن هيئة معينة ثابتة خرجن من سيارة الجيب المسنة عضباوات مشلولات، وما أن نزلت حه بسه خان فإذا بمسلح عانقها، فجفلت في البداية كثيراً، ولكن قالت حالاً: فداك روحي ياربي أو انت حبيبي علي، ويلي كيف لم اميزك؟!

وأخيراً فأن حسين وابناء آمه خان جاؤوا كلهم بزي الپێشمەرگه مدججين بالسلاح، وبدأ التعانق وتبادل القبلات، ولو ان صبرية قبلت أخاها و خالتها، ولكنها كانت تدير عينيها بحثاً عن شيروان، وقد مرت في خاطرها بلمحة البصر خيالات، يحتمل ان لايكون هو في هذه القرية ياترى اين هو؟ لا سامح الله ان يكون مريضاً، وقد يكون نائماً، لا، على ما يظهر ألا يعرف بأنني سأتي، ونأتي جميعاً؟ أنساني بهذه السرعة؟ لقد فأجأت بظهور ضوء مصباح يدوي من طرفين، وجاء صوت وكان شيروان يركض بسرعة، الى أن وصل اليهن، فقبل بلهفة يدي حماته واختها، وهما أيضاً قبلتها جهة من رقبته ورأسه، وشدت على يديه كل من روناك و نەسرين وصبرية، ثم تقدمن الابناء لأخذهن الى دار تبعد قليلاً من مكان النزول، تقدمهن بالمصباح واللوكس، وقالوا لهن ينامن هناك تلك الليلة، الى صباح غد سيحصلون لهن مكاناً، ومن جهة اخرى، كان الپێشمەرگه الآخرون محاصرين حسن آغا، لأنه كان يجلب لهم احياناً الرسائل من اهلهم، كانوا يريدون اخذها بسرعة ان كان يحمل لهم الرسائل.

في طريقهم الى الدار، عانق علي مرة ثانية توفه وقال: آه حبيبي كاكه توفه لقد كنت افكر فيك حقيقة، رحبك الله بالخير، ولو ان ابي وعمي قد بقيا وحدهما لكن لاتهتم احسنت كثيراً اذ جئت، مسد توفه رأسه وجامانته، وسعل، وكاد ان يشرع بالكلام، لكن لم تمهله حةثسةخان يسبقها وقالت: والله فداك روحي، لاتقلق على والدك وعمك، قبل مجيئنا بيوم، جاءت عمتك آفتاو وكلتا ابنتيها بحقائبهن الينا، وقالت لاتقلقي عليهما ذرة واحدة سأظل هنا، وانت تعرف جيداً عمتك آفتاو ما اكثر ترتيباً وتنظيماً ونشاطاً وحركة، وقال علي، والله فعلت عملاً طيباً، طوبى لك عمتي آفتاو لم يتمالك توفه نفسه بعد، قاطع حەپسەخان وقال: أو كلام تقوله ياحبيبي علي كيف لم اكن آتيا؟ لقد أردت أن آتي معكم في اول يوم، ولكن طال عمرك انت منعتني، والاّ كيف كان قلبك يطاوعك ان تكونوا انتم تحت هذا الوابل من الرصاص وأنا اكون في المدينة؟!

قالت حەپسەخان: وي فلتنخلع روحي لأهل المدينة؟! لشد الخوف عندهم او يتمكنون ان يناموا ملء جفونهم؟! ففي كل يوم يشيرون لهم فوضى وشغباً، لماذا أو تظن ان اهل المدينة مرتاحون، كان توفه يلح ان يكمل محاضرته عن الشعب والارض والدفاع والوطنية، ولكن لم يكن له مجال حيث وصلوا الى الدار المعنية، ثم دب الصياح والجلبة، فكل واحد كان يقول كلاماً.

***

(١٧)

دخلن دارا مبنية من الاسمنت ذات غرف كبيرة واسعة ومريحة، ولكن بأستثناء وجود بعض الطنافس والبطانيات واللحاف الخفيفة، لم يكن فيها أي أثاث منزلي، سرعان ما نزعت آمه خان العباءة من نفسها وقالت: وافرحتاه أهنا توجد دار من هذا الطراز، كانها دار في المدينة، لقد اطلق حسين قهقهة ضحك وقال:

– أو تكون عندكن فقط الدور الكونكريتية المريحة؟ تلك هي التي عندنا، كانت ملكاً للحكومة، فعندما استولى ثيَشمةرطة على (ماوەت) ظلت لهم تلك الدور.

قالت آمه: اوه الله يبارك فيهم، مع تمنياتي لآلاف الدور والقرى والمدن ان يستولوا عليها.

كانت حەپسەخان واختها من فرحة رؤية ابنائهما وهم بملابسهم الخاكية والمدججين بالسلاح، منشغلات بالصلوات على الرسول، ثم جلسوا معاً، كان علي يتحدث مع امه ورونـاك موضوع المدينة وذهاب نەوبەهار الى بغداد، وآمه خان كانت في حالة تفريغ الجعاب والأصرة، وكانت تريهم الاشياء التي جلبت لهم، وكانت تروي لهم موضوع ركوب الخيول وسقوطها ومشيتها على الأقدام، وكانت تقدم لهم الفطائر والرغيف المتدهن، وكل واحد من الابناء وضع حصته من الاكل في منديل ليأخذوها ويأكلوه مع وفاقهم.

ولو ان صبرية وشيروان كانا جالسين معاً ويتحادثان ويتبادلان رواية الموضوعات، ولكن لفرحة لقائهما لم يكونا منتبهين من اقوالها.

وكان حسين و نەسرين يتناظران خفية، كأن جميع مسرات الدنيا لمت في عينيهما وقلبيهما.

بعد هنيهة من الجلوس، قام الابناء وقالوا لهن انكن متعبات فاركن للنوم ونحن نعود الى المقر، وبعدئذ نزوركن صباح غد ونحصل لكن الدار.

ولكن لم تدع آمه خان ابنه الصغير ان يعود معهم فقالت: بالله عليكم فليكن معي هذه الليلة، لاشبع منه عناقاً.

وهم بدورهم اخذوا يضحكون ويمرحون وقالوا: طيب فليكن عندك حتى تشبعي من أكله، وبعد ذلك ذهبوا.

اسندت آمه خان رأس (بەختيار) الى صدرها وكانت تسأله: بالله قل لي ياعزيزي كيف كنت مع المرض؟ كم مرة اصبت باللوزتين؟ وي فلتمت امك، والله كان هذيان حمّاك يرن في أذني، فكانت تقبله ثانية.

قال به ختيار بابتسامة مشرقة: اي مرض واي حمّى وأي لوزتين امي العزيزة؟ وحياة والدي منذ أن اتيت الى هنا لم أتمرض حتى يوم واحد، والاّ كنت اكتب لك في رسائلي!!

نظرت اليه أمه بنظرة طافحة بالحب واللهفة والامومة وقالت: ماذا أقول لم يكن قلبي يطمئن بتلك الأقوال، كنت اظن انك تكتب مثل تلك الاقوال لكي لاتخلق لي الهموم.

حين عاد الابناء ليلاً الى المقر، وكان مايزال رفيقهم بيستون هناك ينتظرهم، ومع السؤال الحار عن احوال اهلهم وجه اليهم عتاباً كثيراً، لأنهم لم يخبروه بذلك ليذهب معهم للترحيب بهم، وهم ادخلوا السلوى في قلبه وقالوا له: لم يفت الأوان سنأخذك غداً اليهم.

لم يتمتع بيستون تلك الليلة بقسط وافر من النوم، أو الأصوب كان نومه وعدم نومه سيان، وكان يفكر في السليمانية بالحياة المفعمة بالثورية، حيث كان مؤجراً داراً صغيرة في السليمانية، وكان منكباً على الدراسة وكان هو وصبرية كلاهما عضو في البارتي بين حين وآخر، وكانت صبرية ترسل له عن طريق روناك البيانات والمنشورات، وهي كانت تسلمها من الباب مباشرة بكل حياء وعفة، وتتوجه الى بيت عضو آخر بسرعة، يالها من بنت جميلة شجاعة محترمة، وحين كانت تغفو ترى نفسها في تلك الاجتماعات التي كانت تعقد احياناً في بيتهن للشؤن البارتية، وكانت روناك في منامها جالسة معهم كعضو، وكانت

تتحدث لهم عن السياسة، وهو بدلاً من ان يستمع الى كلامها كان يركز عينيه على خفة ظل روناك ووسامتها، وروناك كمن تحس به، لا يرق لها ذلك، فتنهض لتذهب، ولكن هو يمد يده لمنعها عندئذ تستيقظ، ثم يتذكر كيف تمكن الى الآن ان يخفي هذا الحب ولايبوح به عند اي شخص، ماعدا تلك المرة التي افصح عنه عند رفيقه ومشاركه في الدار حەمه وقال: اكاد أجن لها، وهي على قدر كبير من الاخلاق الفاضلة والوسامة، ولاأدري ياترى اذا ما طلبت يوماً يدها أيوافقون؟ وهو أيضاً أفرحه وقال: على ما يظهر لماذا لا يوافقون؟ فأنت فتى صالح ووسيم ووطني ومتعلم، ووالدك رجل متمكن فلماذا اذن تخاف؟ وهو قال له: من يقول انهم يوافقون على اقتران بنتهم برجل ريفي؟

فقال حةمة: مادمت متعلقاً بها وتحبها الى هذا الحد، وتتوقف قضيتك على المدينة والقرية فلا تتردد ابداً وانتقل الى السليمانية، وحين كان بيستون يتذكر، والآن بدلا من ان ينتقل هو الى السليمانية فالله جاء بهم لا الى القرية بل الى (ماوەت)، ولو أنه لم يكن مرتاحاً من سبب وطبيعة مجيئهم، لكن مجرد المجيء وتقاربهم كاد ان ينبت له جناحين، وكان هو في غمرة تلك الأحلام والخيالات حين سمع صوت علي كان يناديه ان يلم نفسه ليسرعوا الذهاب الى امه والأخريات.

***

أثناء الطريق سمع بيستون من الابناء أنهم كانوا يتحدثون عن الدار، وحين فهم ماهية المسألة، سأل عما تتحدثون؟ أو تريدون الدار لحەپسەخان والاخريات؟ لا تهتموا فأذهب الآن آتي لكم بالمفتاح، عندنا دار فارغة التي كانت فيها عائلة الموظف التي ارسلها الپيشمەرگه الى المدينة، ليس فيها أحد والآن حالما ارحب بحه بسه خان والاخريات اذهب بسرعة فائقة وآتي لكم بالمفتاح، ان الابناء في تغافلهم عما حدث نظر احدهم الى الآخر باستغراب، فقال علي: شكراً لك عزيزي بيستون في الحقيقة انقذتنا من مشكلة كبيرة، موقعها جيد، شكراً جزيلاً.

قال بيستون باستحياء: الا يا كاكه علي أهذا يستحق الشكر، لمن يعود بيتنا؟ خلال هذه الأقوال وصلوا الى مكان النساء، لقد رحب بهن بيستون ترحيباً حاراً وسأل عن احوالهن وخاصة حەپسەخان، لكنه كان يبدو عليه

شيء من الارتباك، وكان احياناً يتلجلج في كلامه، وبالأخص حين كان يرى روناك بملابسها الكوردية وقد اتشحت شعرها الاشقر الجميل بوشاح، وتغطي به بسرعة وعلى الفور فمها وشفتيها الجنبذتين، حيث كانت تضحك عندما يتكلم أحد، وحين مد اخوها حسين يده وجر جدائلها الجميلة الفاتنة وقال: ايتها الشاطرة الماكرة فها أصبحت ثانية في قبضتي، طوق جيدها بيده، فاحمر وجهها وتصبب كل جسمها عرقاً، وحين رأى بيستون هذا المشهد زاده حباً وجنوناً، وحين عاد الى صوابه قليلاً، قال لهن جميعاً ان غداءهن يكون في بيتهم، ثم انطلق بسرعة الى بيت وقال لأمه ان بيت كاكه علي والآخرين قد جاؤوا سيكون غداؤهم في بيتنا، وبعد أن أنهى هذه المهمة، ذهب الى والده مسرعاً لمفتاح الدار، على الرغم من ان والده لم يحبذ ذلك، ولم يكن راضياً من الاعمال الكثيرة لبيستون، خاصة اسرافه وبسط يديه، لأنه هو كان رجلاً بخيلاً، ولكن لكونه ابنه الكبير، وكان احد الشباب المنفردين في (ماوەت) الذين أكملوا الدراسة، وكان يفتخر به بين الناس، ويمدح ويطري عقله وذكاءه في الدراسة وتقدمه، وكيف أنه تخرج بدرجة اولى ويجيد اللغة العربية كالبلبل، الى حد حتى ان بيستون حين يقرأ له اخبار موضوع ما، وهو عندما كان يلتقي اي شخص يروي له، وفي كثير من المرات دون ان يعرف بشكل صحيح الخبر او اسم المدينة او البلد او الناس، ولهذا كان يضيف اليه على قدره، ويحكيه للناس، ولهذا كان يرغم نفسه على ذلك ينفذ له ما يطلبه ولم يكن يكسر خاطره.

كانوا عند الظهر في بيت بيستون، ولو أنه كان منتعشاً من فرحته، ولكن كان على قدر من العقل والاحترام والهدوء، ولم يبدر منه اي شيء بأن يحس اي شخص بتغييره، وفيما يتعلق بروناك كانت غافلة عن كل شيء، وكانت تكره بيستون في نفسها، وكلما كانت صبرية ترسل له شيئاً بوساطة روناك، كانت تكره ذلك كثيرا، وحين كان يأتي بيتهم بعض المرات، كانت هي تدندن في قلبها الى ان كان يغادر البيت وتقول: عاد ثانية للنظر الى الناس! يقول الرجل البريء انه يأتي لألتقاط صورنا!

يالها من بنت ساذجة ماكانت تعرف ان هذا المسكين كان يرغب فقط في النظر اليها، وكانت الصورة الوحيدة التي يرغب التقاطها من كل قلبه كانت

صورتها! نتيجة لالحاح واصرار بيستون بنفسه وامه مع الضيوف بأنه لايمكن ولايجوز، اقنعوهم بالبقاء في البيت والمبيت ليلاً، ليرتبوا وينظموا الدار لهم.

***

(١٨)

دخلوا بيتهم، فكانت داراً رحبة، فيها پێشمەرگه غرف وأيوان مع الحمام والتنور وباحة الدار، ولو ان البناية كانت مبنية من اللبن، لكنها كانت منتظمة، وسرعان ما سواء عن طريق الشراء او بمعونة بيت بيستون ومعارف آخرين للابناء رتبوا بيتاً جيداً نسبة الى القرية، ووزعوا الغرف فيما بينهم، فمن الذين لم يرق لهم هذا التوزيع كان حسين ونەسرين، ولو انهما وفق الشريعة تربط بينهما علاقة الحلال، على أساس عقد النكاح، ولكن حسب العادات والتقاليد الكردية لم يتم الاقتران بينهما، فاصبحت نەسرين مع أمها والاخريات، وكان حسين ينام في المقر، وكان كل واحد منهما كثير اللوم والعتاب والتذمر، خاصة حين يسمعان احياناً كلام ومعاذير وذرائع والدتيهما، فيكاد ينفطر قلبهما، وكانت حەپسەخان تقول: يا ويلي لايقل احد كلاماً من هذا القبيل، فأشق ياختي، كيف يتزوج ابنتي المدللة هنا، في دار من الطين وعلى هذا الطنفس و المندر المتهرئ المستعارين في هذا الجو من التشرد وتحت رحمة رمي الاطلاقات والقنابل؟! والله إن لم أرتب له حفلة زفافه برغبتي سأبقيهما هكذا، لماذا هذه العجلة حالياً، فان شاء الله لا تسد علينا كل المنافذ والمسارب حتى النهاية!!؟

وهما ايضاً كانا يقولان في قلبيهما: أجل لماذا نستعجل؟

وكانت حەپسەخان تعلل نفسها بأمل ان اقصى مايمكن ان الدنيا تعود الى مجراها الطبيعي، ويحصل الكورد حقوقهم وهي تعود الى بيتها ومضيفها، وهناك تقيم لنا حفلة زفافنا في باحة الدار تستغرق اسبوعاً كاملاً ليلا ونهاراً.

والله انه لحلم جميل ليته كان يتحقق، ولكن اي شيء لا يظهر ذلك بأن هذا الوضع ينحو منحى التحسن، انما كما يبدو يتجه نحو الاسوأ، فاذن الى متى ننتظر هكذا ونتبادل النظرات؟!

وبالنسبة الى آمه خان كانت تقول مراراً وتكراراً: هي هي فان لي هذه البنت وحدها، الا تتصورون أنا لا أفعل شيئاً و اوافق وألزم جانب الصمت والسكوت في أن تمسكوا يدها كأرملة وتقولون هاءٍ نهسرين تلك غرفتك و زوجك حسين؟!! ولكن كانا يخجلان ان يعبرا عن مشكلتهما، وليست هذه وحدها، بل كان حسين في كثير من المرات يتراجع عن معاتباته وكان يحكي على نفسه في قلبه بأن هذا الوقت ليس أوانه ان يقول أريد أن اقترن بخطيبتي، جميل لم يبلغ هو بعد الى القرية فاذا بالدخان قد بلغ، ولم يركن الى الاستراحة بعد فها نفد صبري ولم اعد اتحمل، عجيب فيما أنا فيه، أو أنا الذي اعتبر نفسي مناضلاً عنيداً لابد أن تكون كل احساساته ومشاعره وقلبه وذهنه منصبة على الثورة والشعب؟! كيف لا أخجل ان انظر الى هؤلاء الاصدقاء والرفاق الذين تركوا زوجاتهم واهلهم واطفالهم المدللين المحبوبين؟! لاتخجل ان تقف امام شخص مثل كاك قباد وترفع رأسك مرة أخرى، تجاهه حيث انه لم يشاهد ابنه بعد الاّ في صورة حيث أنجبته زوجته قبل سنتين بينما كان هو في سجن كركوك، وحين بدأت الثورة هرب مع رفيقين له فوصلوا الجبال، وي كيف أنه يخرج صورته من جيبه ويريها لنا، لا.. لا.. فلوجه الله، يجب الآن ان لا ادع أبداً ان يمر خيال الزواج بخاطري، انه حالياً مبكر جداً، فلم يحن أوانه.

***

بعد يومين ثلاثة ايام دب الجدل والدمدمة والدندنة بين شيروان وصبرية، كان شيروان يقول لصبرية: "هنا تختلف عن المدينة، حتى انها لم تبق كقرية، كلهم من الثيَشمةرطة، فهم اصدقاؤنا وزملاؤنا يترددون على بيتنا، خاصة ان معظمهم لا أهل ولا أقارب لهم هنا، احياناً حين تطبخ بيوت المتزوجين طعاماً من نوع ما يدعونهم، لأنهم اذا ما اكلوا عدساً هنا يعدونه حفلة، ولذلك حين يأتون يجب عليك ان تلمي نفسك جيداً تتوشحي رأسك بالوشاح، ولا تتحدثي عن السياسة كثيراً ولا تتدخلي في كل شيء"!.

وكانت صبرية تستشيط غضباً وتقول: والله طيب ان شاء الله تكم افواهنا! فأنا حرة، ومنذ ان فتحت عيني مارست العمل الحزبي، والقيت نفسي وسط رجال الأمن والشرطة في المدينة في مئات من المخاطر، والآن تريد ان اكون ربة

البيت، انكب دائماً على عمل الخبز والطبخ؟ طيب يا حبيبي والله تؤمن بحقوق المرأة جيداً؟؟ فيرد عليها شيروان باستهزاء، لقد ناضلت في مخاطر كبيرة بهذا الاسلوب حيث كنت تملئين جعبتك بالبيانات والمنشورات الخطيرة، وكنت تسلمينها لروناك المسكينة البائسة لتوزيعها على اعضاء ومؤيدي البارتي، دون يخطر ببالك اذا ما ألقت الشرطة القبض عليها سيذهب جلدها الى المدبغة " لقد كان شيروان يصفق الباب من ورائه ويعود الى المقر دون أن يستمع الى جواب ودندنة ودمدمة واستياء صبرية التي كانت بعد فترة من ذهاب شيروان اضافة الى اخماد نار الخلاف بينهما من قبل امها والاخريات، كانت تواصل كلامها، ولكن كان شيروان يعود مساء، كان يتبادلان النظر بلهفة عارمة كأن شيئاً لم يكن ولم يحدث.

***

اعتدن تدريجياً على الحياة هناك، كأنهن يعشن هناك منذ مئة سنة، لا هذا فقط، بل رغبن فيها، خاصة لأن انباءهن كانوا هناك، حيث زال الخوف عندهن، ولو أن حه بسه خان واختها كانتا تقلقان بسرعة على مصير زوجهما خاصة والد علي حيث كان مصاباً بمرض القلب، واخيراً شبت حەپسەخان عن الطوق ذات يوم وقالت: يا أطفال والله انا اعود لأرى هذا العجوز واعرف حاله واحواله، ان قلقي عليه يكاد يضايقني تماماً، وآخذ روناك معي.

فحين علم ان بعد والده يضيق بأمه ذرعاً وهي مصرة على الذهاب، لم يكن ان يقول لها الحقيقة حول روناك لذلك قال: امي الحبيبة انت تذهبين في حفظ الله وأمانه، ولكن لايجوز أن تأخذي روناك معك، لأن عليها أمر القاء القبض، فأن احد المعتقلين لم يتحمل التعذيب فإعترف على اشخاص نشطين تابعين للثارتي، وروناك هي احدى الاشخاص على ما يظهر أوصلته البيان، بدأت حەپسەخان تصيح وتبكي وتولول وكانت تقول: وي.. في سبيل الله ومرضاته لماذا ورطتم هذه البنت المسكينة البائسة منذ الآن، فلا تزال رائحة الحليب الخام تفوح من فمها!!؟

كان علي يقول في نفسه: الا وان كنت تعرفين قد فتشوا بيتنا واعتقلوا ابي يومين، وقد صدر أمر القاء القبض على صبرية حينئذ ماذا كنت تقولين وماذا

تفعلين؟ يالله ومهما يكن لايجوز ان تعرف هذه الاشياء هنا والاّ تجهش بالبكاء والنحيب، وتجعل الجو مناحة وتتقاطر علينا الناس، فلتعد الى المدينة لتفعل ماتشاء.

ظلت حەپسەخان مدة اسبوعين لأجل روناك، حيث كانت دائماً في شجار وجدال مع اولادهم، وهم كلهم كانوا يشنون الهجوم على صبرية لماذا كلفت هذه الطفلة بتلك الاعمال الخطيرة فكان من المفترض ان تفعلها هي بنفسها، وكانت روناك تخفض رأسها بملالة وكانت تقول في نفسها: ياويلي لو عرفوا اي ضجة وزوبعة أثرتها، وكيف جرحت الجندي وورطت العديد من الأبرياء وكيف دخلت تلك الأزقة واخذت البيانات والرسائل للشباب المراهقين فوالله لا يكتفون بحلاقة رأس صبرية فقط، إنما رأسي ايضاً، على الرغم من انني لست مذنبة لأنني ماكنت أتجرأ واقول لا أذهب.

***

حين عرفت حەپسەخان بأن البقاء غير مجد، قررت ان تعود وحدها الى المدينة، وقد اجر ابناؤها لها الحصان على ان تذهب مع اثنين من الذين جاءا لزيارة ابنائهما.

أضحت حەپسەخان كالخابية التي لاغطاء ولا قاعدة لها، ولفرط خوفها من برد الطريق ونصائح توفه واختها قد تلفعت و لفت نفسها الى حد كبير.

اثناء توديعها كانت آمه خان في حالة من الارتباك والقلق كأن أختها تسافر الى قندهار! قالت لها بلهفة: اذهبي بعون الله ورعايته، لا تقلقي على أحد، فكانت تخطو نحو الداخل خطوتين وكانت ترجع فجأة وتنادي (بلغي عنا السلام.. لا تنسي فان الصايات في الحقيبة الحمراء الموضوعة أمام باب المخزن) كانت تريد ان تواصل كلامها، علق توفه وقال: أشهد ان لا اله الاّ الله.. ياربي توبة، انه منذ اسبوع فان هذا البيت في حالة من التدبير والتخطيط وتسويد الأوراق ماذا تجلب معها، بينما الآن فان هانم تذكر الصاية في الحقيبة الحمراء؟؟ والله منذ الليلة ذكرنا هذه الصاية والحقيبة عشرين مرة.. كفى يا اختي انهي الموضوع!! انشغلت آمه خان بقراءة الأدعية، لذلك الى أن انتهت منها ونفخت في ما وراء اختها لم ترد على توفه، عندئذ التفتت اليه وقالت: وأنت ألم تزعجنا

ليلاً ونهاراً، وكنت تذكرها ان تجلب معها قمصلتك الجلدية، وهناك علقت صبرية قائلة: وفق هذا الحساب يجب ان تجلب لكم شاحنة من الأشياء؟ وبعد وقفة أكملت كلامها بأبتسامة ساخرة: كانكم غافلون عن الدنيا، أنسيتم كيف يمكن ان تخرج لها كل هذه الأشياء، فالناس يريدون من الله ان ينجوا بجلودهم من بين كل تلك الربايا العسكرية.

وبيستون الذي كان آتياً بحجة توديع عمته حەپسەخان " بأن ينشرح قلبه برؤية روناك" كان مع الأبناء واقفاً على عتبة الباب بصمت وملالة، حيث كانت الدنيا قد ضاقت في عينيه، وقد اسند ظهره الى الحائط، لأنه كان غافلاً عن مشكلة ورود اسم روناك وصدور أمر القاء القبض عليها، وكان الخيال يحركه ذهاباً وايابا، وحين رأى ان حەپسەخان سارت وحدها اضطرب كثيراً وخفق قلبه وهز رأسه وقال في نفسه " لماذا هذا؟ كنت أتصور هي في الداخل ويمنعونها من ركوب السيارة، وكنت اعطيت الحق لهم، لأن اي أبله أحمق يدعها ان تذهب هذه البنت الوسيمة الجميلة حتى لايشبع منها شماً وتقبيلا فليكن أختها واهلها..؟" لقد أنقذه حسين من مشكلة قلبه وذهنه، حين قال له: أخي الا تتفضل ان تشرب شاياً، والآن ليس لدنيا عمل مستعجل؟ لقد ارتعش بيستون شبه ارتعاشة وقال حالاً: طيب اخي العزيز شكراً لك، في الحقيقة اني قلق جداً على عمتي حەپسەخان، فالجو بارد جداً ومن المحتمل ان تمطر! قال حسين اثناء التوجه الى الداخل:

ماذا اقول لاتسمع كلام أحد؟ كلنا قلنا لها بان لاتذهب اليوم، فقالت كل الايام باردة.

حين جلسا زالت كآبة بيستون، فأخذ يتحدث بحماس وشوق، ومايزال قدح الشاي امامه حين جاء نەورۆز وشيروان، التفت نەورۆز الى بيستون وقال ضاحكاً: ما هذا كأن الدنيا قد تغيرت؟

منذ أيام وقد أحاطوا بك كل جن الدنيا، فكيف الآن تضحك!؟ لاريب انهم ماكانوا يعرفون لماذا اكتأب والآن لماذا منشرح القلب! قال شيروان وهو يهم نزع حذائه الطويل: اتصور أنه تعلم من العم والده الحاج يحسب في نفسه دنانيره، يخرج منها الربح والخسارة لذلك يستطرق، بدأ الجميع بالضحك وقد

جاء توفه وانحاز ودافع بشوق وحرارة عن بيستون ومد عنقه وقال: شيء مأسوف ماتقولونه عن كاكه بيستون، فهو متى يفكر في النقود؟ ماشاءالله انه رجل رجل! مد يده فأخرج علبة سيجاير من جيبه حين كان كاكه بيستون اشترى له درزناً، اضافة الى ذلك، حيث كان يلحق فقط أن يقدم له المصباح اليدوي والسبحة وهدية اخرى، اذن كيف لايدافع عنه؟!

عاد بيستون الى البيت، فراح وعانق والدته وقبلها، وراح ايضاً الى اخوته بفرح، لقد احتارت أمه وقالت في نفسها: ماهذا وماذا حدث، ولم نجمع حتى الأن شظايا الزجاج حين ركل غاضباً سلة أقداح الشاي، وقد خطر ببالها أنه نادم على اعماله اللامعقولة لذلك ذهب وقبل ايضاً أخاه الصغير، حيث كان متهافتاً عليه بالصفعات دون اي ذنب.

***

وصلت حەپسەخان الى السليمانية، احاط بها زوجها حاجي مجيد وابن أخ زوجها وأخت زوجها، واخذوا يسألونها حول الاوضاع المعيشية وقضاء الوقت وكيفية احوال ابنائهم والناس الذين تجمعوا في ماوەت وهي منذ ان غادروا السليمانية الى عودتها، حكت لهم كل شيء على حقيقته وصحته، اضافة الى بعض الرتوش، وفيما يتعلق باحوال الناس وابنائهم قالت: ان جميعهم انضموا الى صفوف پێشمەرگه، فهم يعدون أنفسهم بشجاعة وشموخ وفرح للقضاء على هذا الظلم والطغيان، والاخوات والبنات والناس حين يشاهدون هؤلاء المسلحين ستعلو قاماتهم ذراعاً فذراعا من الفرح والسرور.

بدأت حەپسەخان ثانية بتفتيش المخابيء والزوايا في بيتها وبيت اختها، لقد وصلت الى صرة مجوهراتها، والتي تعود الى اختها وابنتها، فحدث أخذ ورد مع زوجها حاجي مجيد، هل تأخذها معها الى الجبل أفضل او تكون عندهم، وكان حاجي مجيد يقول ان هنا اكثر أماناً، ومكانها محكم وحصين لايعرفه أحد غيرهما، كما ان اخذها الى الجبل مملوء بالمخاطر اضافة الى اذا ما اعتقلوها، لايفقدون ولا يضيعون مجوهراتهم إنما هي ايضاً تتورط اذا ما اعتقلوها وتصبح فلماً سينمائياً لأهل المدينة، وكانت هي تقول:

في نظري بأستثناء الطريق هناك اكثر أماناً، ليس فيه خوف التفتيش من قبل الشرطة والعسكر، أقول لئلا يفعلوا بنا كالبيت الذي كانوا ذاهبين اليه لتفتيش البيانات والكتب واشياء من هذا القبيل، الاّ انهم سرقوا قلادة الليرة الذهبية لتلك الفتاة البائسة التي اشترتها بنقود خياطة الطاقيات وحياكة الليف، فقال زوجها بشيء من الحدة: لأن هؤلاء الأغبياء وضعوها في حقيبتها في غرفة الجلوس، من يقطع عقله ويتوقع ان يخرب هذا الطاق الذي وضعت عليه السماور والفسيفساء ان يرفع الآجر لكي يسرق مجوهراتنا؟!

نظرت حةشسةخان الى طرفيها وقالت بهدوء: لماذا ترفع صوتك أو لاتدري بأن للحيطان أذان؟

قال حاجي مجيد بعصبية: فأين لي من رفع صوتي، ثم اين الأجنبي من هنا؟ سكتت حه بسه خان، لأنها كانت تعرف ان زوجها منذ ايام وكشيء ما يتشاجر معها، لأنه لم يكن في قرارة نفسه ان تعود الى الجبل، وكثيراً من المرات أفهمها ضمناً بأنه ضجر واهن القوى، يحتاج الى الخدمة والمراعاة ويريد ان تكون قريبة منه، وهي كانت تلطم صدرها وتقول: آه كيف أسيب الاولاد، وانت هنا مع اختك واخيك وابن اختك، الله يطيل اعمارهم، فان اختك تهتم بك اكثر مني و حريصة على البيت، اذن ايها العجوز ما هذه الذرائع ولأجل اي شيء، وكان حاجي يضطر ان يرضى، خاصة حين كان قلقاً على روناك، وتمر في خاطره مئات الخيالات، ولو كانت عند حخالتها واخيها وأهلها، ولكن كان دائماً يفكر فيها، ومع ذلك كان ينظر الى زوجته بأكتئاب كثير، فلم يكن راغباً في أن تعود وتتركه وشأنه، لأنه كان يحبها حباً جماً، وكان هذا أول مرة ان تبعد عنه هذه المدة، كيفما يكن عادت حه بسه خان الى اطفالها، ولأنها قد اعتادت على الطرقات، لم تشعر بأي مضايقة، ولكن ما أن عادت، حتى ان اختها آمه ايضاً فقدت القدرة على التروي والانتظار، بأن هي أيضاً تريد ان تعود، حاولت معها كثيراً ان تؤجل سفرها قليلاً، ولكن دون جدوى، لذلك ودعوها هي أيضاً، لكن كانت مطمئنة ومسرورة هذه المرة اذ ترى اطفالها اصبحوا مثالاً للانسان الطيب، ولم تذهب جهودها هباء منثورا، فهي تفتخر بهم حيث اصبحوا من پێشمەرگە يدافعون عن ارض الوطن وشعبهم، فالآن تعود تتحدث عنهم امام

الاقارب والأصدقاء فتشمخ هامتها على قدر آخر بهم، واخيراً لا يخطر ببالها المرض والعوق ابداً، لأنها رات بأم عينيها أنهم مقارنة برفاقهم نشطون وكفوئون جداً وبالنسبة للحسن والجمال، فات تلك المنطقة مفخالة بأبناء الناس، حيث أن اي واحد منهم عند والديهم تعادل خصلة من شعرهم كل الدنيا، ذلك فهم أيضاً كابنائها مدججون بالسلاح، ومستعدون للمقاومة.

***

(١٩)

بعد سفر آمه خان باسبوع جاء شيروان في منتصف النهار الى البيت، ومن هنا صاح بصوت عال: صبرية! أين انت؟

خرجت حەپسەخان استجابة له، وقالت بشيء من الارتباك: خير يا حبيبي شيروان ماذا؟ ماذا تريد من صبرية بهذه السرعة والعجلة؟ آ تعالي صبرية اين انت ؟ التفت شيروان الى حماته وقال: نقلت الى مركز آخر ، ليس بعيداً كثيراً من هنا، فالمسافة ساعتان.

فقالت حماته: لماذا هل يوجد هنا النقل وما أشبه. وكيف لا حماتي الحبيبة؟ أتتصورين ان جميع الپێشمەرگه هم المتواجدون هنا؟ فالشكر لله إننا كثيرون جداً، وعندنا مواقع ومراكز كثيرة؟

– وكيف أكون هناك وحيداً ماذا أفعل؟ احتاج خبزاً، ماء؟

قالت حەپسەخان بشبه عصبية: فماذا في ذلك، حالك حال كل هؤلاء الپێشمەرگه، فمن ضمن مئة منهم لا تجد واحداً معه عائلته واطفاله، بالله لاتأتي صبرية، ماذا تفعل صبرية هناك وحدها، اذهب بنفسك، فمادام هو قريب، زرنا بسرعة، فخلال هذه الأقوال وصلت صبرية وسمعت اقوال أمها، وقد انقهرت كثيراً في قلبها حين قالت امها لشيروان هكذا، لكنها خجلت ان تعبر ذلك، وكل ما تمكنت ان تفعل قالت: ياويلي شيروان اي نقل؟ صحيح ماتقول امي؟! اذهب انت اولاً احصل على دار، مكان، واطلع على الحيثيات ثم عد الينا لأخذنا، وبعد ذلك التفت الى امه وقال: بالله يا أمي انه تبديل الجو بالنسبة لنا، زووينا انت ونحن نزوركن، انه شيء غير مريح ان نكون فقط في مكان واحد، تكاد توهن قوانا.

قالت امها ببرودة: طيب يا بنتي إفعلا حسب رغبتكما!

***

كان اول شهر من شهور الشتاء، حيث كان الرعد والريح القوية والعاصفة الثلجية في دوي وهدير، وكانت اصواتها تأتي كالصفير والعواء والهلاهل من خلال شقوق الابواب والنوافذ والألواح والصفائح والدراب المتكسرة!!

لقد انتكست الاشجار الجرداء العارية الكئيبة العاجزة رؤوسها لتمايل الريح الهائجة، وقد نفضت اوراقها الذابلة من تحتها وكانت الريح حسبما تشتهي تحركها نحو هذا الطرف وذلك.

في ذلك الوقت كانت حمولة الحطب والديك الرومي والدجاج والجوز والزبيب والدبس المجفف تأتي من بيت بيستون الى بيت حەپسەخان، بحجة أنه أكل من طعامهم وزادهم في السليمانية كثيراً، ان عمل بيستون هذا قد اربك والده تماماً، لم يكن يعرف ماذا يفعل، فأمام بذخه واسرافه اخذ يدندن عند زوجته، وهي بدورها سرعان ما تسكته حينما تقول له: في سبيل الله ومرضاته لا يخرج من فمك كلاما مثل هذا ولا يسمعه ابنك، والله لو يلتقط مجرد اي خبر انك قلت ذلك، يهيم على وجهه ولا تلتقيه ابداً، أو أنه يرتكب عملاً مكروهاً، سنعض بنان الندم مادمنا على قيد الحياة، ونأكل خبزاً ودموعاً! فبيت حەپسەخان خدموه ولهم فضل عليه، والآن قد تركوا بيتهم واحوالهم، والتجأوا الى هذه الجبال وعند والده، اذن كيف يمكن أن يقلب لهم ظهره، ولا تهتم بهم؟ فاضطر زوجها أن يسكت خوفاً من إبنه! كان بيستون قد حبب نفسه تدريجياً عند حه بسه خان واهل البيت، كما ان روناك ايضاً انفتحت فبدأت بالضحك ونكاتها وأقوالها الحلوة، أما توفه فحدث ولا حرج فأصبح محامياً له تماماً وكان طوع بنانه لأنه يقدم له الهدايا وأشياء اخرى، لدرجة أنه وعده ان يحصل له قريباً مسدساً، ولهذا كان دائماً يمدحه ويثني عليه ويلهج لسانه بمروئته وشهامته.

اضافة الى كل ذلك، كان بيستون نفسه شاباً طويل القامة عريض المنكبين وسيماً محترماً ومحبوباً منكتاً حلو الكلام وبارزاً مشهوراً جداً من بين رفاقه.

***

قريباً من احدى الظهريات أقحم حسين البيت، وكانت امه منشغلة بالطبخ ونه سرين تغسل الملابس، وكانت روناك منشغلة بالكنس، فهو توجه الى امه فسلم عليها وقال: ماذا طبخت لنا حەپسەخان؟ دون ان يدع والدته ان ترد عليه

قال: أو تعرفين ينبغي أن نأخذ معنا صباح غد في وقت مبكر جداً الشاي وبعض البسط وبعض الأشياء الى الوادي الذي بجانبنا كأشبه بالنزهة، وضعت أمه المغرفة التي كانت في يدها في ماعون ونظرت اليه باستغراب وقالت: يا ابني اي نزهة وشبه نزهة؟ ماذا بك أو تهذي؟ هيأ حسين نفسه قليلاً وقال: لا والله اصدق ولا أمزح.

صرخت نەسرين من طرفها: ماذا ماذا؟ والله لا ينقصنا سوى النزهة، بهذا البرد والزمهرير والعاصفة الممطرة، لا يتحمله الانسان في الغرفة!!

نهض حسين وذهب فأقعى بجانبها وقال بضحكة هادئة: بالله لابد من الذهاب الى هذه النزهة سواء تكون عاصفة او أي شيء فلا داعي لهذا وذلك!!.

نفضت نه سرين بعصبية يديها المبتلتين برغوة الصابون، فتصدت له مع والدته، ووجهت له الكلام كلتاهما. ماذا ؟؟

أو نحن اطفال اتهزأ بنا؟ أي نزهة؟ لايمكن ان تكون النزهة عنوة؟ ثم هذا الوقت هو وقت التنزه؟ قال حسين بلسان متلجلج: أو تريدان الحقيقة من المحتمل ان تقصف الحكومة في وقت مبكر جداً ماوەت تلك المنطقة، وقد صدر أمر من المكتب السياسي بأخلاء جميع البيوت من ساكنيها وتوجه النساء والاطفال وكل اهل القرية الى تلك الوديان والجبل والمخابيء خلف الصخور والبقاء هناك الى ان يحل الظلام ومن بعده يعودون، وپێشمەرگه كلهم في حالة الأنذار، ويعود فقط بەختيار الى البيت وسيكون توفه معكن غداً، يقولون تدور حالياً معركة شديدة في جبل أزمر.

على أثر هذه الاقوال خفقت قلوب الجميع وران عليهن الخمول، فالقت روناك المكنسة على الأرض وجحظت عيناها، وقد اضطرب حسين وندم كثيراً في قلبه حيث أنه قال لهما كل شيء دون لف ودوران، لذلك فرك يديه عندما رأى امه على هذا القدر الكبير من الارتباك وقال: آه يا أمي وما ذلك؟ فلسنا نحن وحدنا، فلتأت الطائرة ماذا تستطيع أن تفعل، كم مرة جاءت الى الأن، ماذا تستطيع ان تفعل بين هذه الجبال والوهاد؟ قالت أمه بانقباض: وأنت كن قادراً أن تقول: لسنا وحدنا، لسنا وحدنا " وفي المدينة كنتم تقولون هكذا، والله هو شيء حلو

جدا، تركنا السليمانية فقلنا لاضير، وأصبحنا في هذه الجبال والوهاد والبرد والثلج والمطر، رضينا برضاء الله، وهذه المرة نقع تحت طائلة الطائرات!

وكيف لا امي العزيزة نريد ان نصطاد السمك ولا تتبلل ارساغنا، واذا لم يتجرع المرء مرارة الحياة ونكباتها ولا يتشرد ولا يضحي، فكيف يحقق الشعب امانيه؟ نحن نطالب بحقوقنا المسلوبة، يجب ان ننتزعها من اعدائنا بقوة السلاح وروح الفداء والصمود، فها مرت سنوات طويلة والكورد كان واقفا مكتوف اليدين، فلم نحقق شيئا، والآن هو زمن الحرب، وينتزع الحق بهذا الأسلوب، او تتصورين انهم بكل سهولة وبساطة يضعون حقنا على طبق من ذهب ويقولون لنا تفضلوا ايها الأكراد؟ خاصة تلك الحكومات الظالمة السفاكة العنصرية التي لا تعترف بحقوقنا حتى تحايلا فكيف باقرارها صراحة؟ لذلك نضطر ان نرغمهم على الإعتراف بقوة السلاح".

لم تطق حەپسەخان هذه الأقوال لذلك قالت متذمرة: في سبيل الله ومرضاته، دخيلك يا ابني كفى ان تردد لنا هذه المواعظ والنصائح والإرشادات، لقد امتلأت اذناي، ومنذ ان شعرت اسمع دائما هذه الأقوال قل لي اولا يا لمصيبتي ماذا عساي ان افعل واين ايمم وجهي"؟

عندنا علم حسين ان الكلام مع والدته لا جدوى فيه، التفت الى نەسرين بابتسامة وقال: لقد نسيت ان اقول لكم لا يجوز ان تعلقوا الملابس والأشياء البيضاء والصفائح وما شابهها ان تكون في هذا المكان، وكانت حەپسەخان تضرب يدا بيد بشكل مستمر وتقول..يا ويلي اي واد واي نكبة؟" وهنا دق الباب، ذهب حسين بركضة واحدة وفتحه وقال بصوت عال اوه كاكه بيستون مرحباً بك الله بالخير تفضل ادخل!"

عادا الى الداخل وبعد السلام والترحيب، ضحك حسين وقال: ان امي تتميز غضبا حين تحلق علينا الطائرة غدا.

قال بيستون بلهفة: ان اردتم الصدق انا ايضا جئت لهذا الغرض لأقول لخالتي حەپسەخان والبنات بأننا نمتلك فجوات وثغرات كثيرة وجيدة وآمنة ومحصنة واقية من الطائرات، فهي كهف واسع كان سابقا فيه علف للحيوانات، ولكن منذ ان بدأت الحرب اجرى فيه والدي تغيرات كثيرة كأنه دار مؤثثة

بالبسط والسجادات والفراش الكثير، وليس بعيدا، فهو كائن في سفح الجبل الواقع بجانب باب بيتنا. (سرعان ما استغل حسين كلامه وقال: اي والله، حقيقة ان هذا شيء جيد جدا، شكرا جزيلا أخي العزيز. عمر الله بيتكم، لقد نجونا من الوادي والإختفاء خلف الصخور).

قال بيستون باستحياء: أهذا يستحق الشكر يا كاكه حسين؟ لافرق بيننا وبينكم؟ لا تهتموا بأي شيء، لقد قمنا بتدبير وتجهيز مكان كلكم، ان والدي دقيق جدا لمثل تلك الأشياء" ثم نظر الى حەپسەخان وقال: ان كنتم راغبين، تفضلوا من اليوم الى هناك، لماذا ليلة غد تلقون انفسكم في التحضير والتهيؤ بشكل مستعجل وسريع وفي خضم هذا البرد بالذات، وتحرمون انفسكم من الراحة".

قال حسين: لا كاكه من الأفضل ان يذهبن غدا.

قالت امه دون ان تبالي بقول حسين: والله سنذهب حالا..هيا يا بنات، هيأن انفسكن؟! هجمت نەسرين على الملابس في الطست وصبت عليها الماء ومدت الحبل لها في الغرفة، وبدأت تلم نفسها، وبيستون من فرحته وانشراحه بأن روناك ستنام ليلا مع امها ونەسرين عندهم، كاد ان يطير، وقد يقرأ الدعاء للقصف. ومع هذا لأنه كان شابا هادئا وديعا جدا لم يكن يشعر به احد، ولم تفح منه اي رائحة.

***

(٢١)

صباح تلك الليلة انتفضت ام بيستون، فأيقظت حەپسەخان والآخريات واطفالها الذين لا عد لهم ولا حصر، دخلوا الكهف، كان فيها فراش وبطانيات خفيفة حارة، نام جميع الأطفال ثانية دون حراك، ولكن الكبار خوفا من الطائرة كانوا في خوف وهلع، جلسوا منتصبين متيقظين...كانت ام بيستون منشغلة بتحضير الشاي، حيث كانت منذ الليل قد اعدت السماور وابريق الشاي وجميع المستلزمات، ومع ذلك كان بيتهم يبعد خطوات، وتخدر الشاي بسرعة وبدأوا بأكل الفطور، وكانت حەپسەخان والآخريات كن يمتدحن رحابة ولباقة وروعة البيت، صبت ام بيستون صفا آخر من الشاي لهن وقالت: من يقول ان هذه المرة لا تكون مثل المرات السابقة، لأنهم قالوا في كثير من المرات هكذا، وجئنا أخفينا انفسنا مثل الآن، بينما لم تأت الطائرة ولا اي شيء!" ضحكت جراء ذلك حەپسەخان واخذت منها الشاي وقالت: استغثت بلسانك اوه لافض فوك، نتمنى ان تكون هذه المرة كذلك، لم تكمل بعد شرب نصف قدح من الشاي، حين صرخ شخص في الحديقة التي امامهم وقال: يا ناس لقد جاءت الطائرة فاختبئوا؟ كرر ذلك عدة مرات، اضطربت حەپسەخان كثيرا، هبت عليها روناك والصقت نفسها بها، انعقد لسان نەسرين، لكن لم ترتبك ام بيستون كثيرا، فأخذت تطمئنهم وقالت: لا تخافوا لا تضطربوا، والله لشد تحليقها العالي تلقي بالقنابل، فبفضل الله وعونه لم يصب هذا المكان لحد الآن بأية قنبلة ترميها اليه" ولم يخرج الكلام من فمها بعد حين وصلت الطائرة، فأحدثت هديرا ودويا في المنطقة، وهزت تماما الأشجار والأحجار، وكان يتردد صداها بين تلك الجبال والوهاد كان الجبال ترد عليها معبرة عن استيائها واحتجاجها جراء تلك الأعمال الهمجية البربرية الوحشية اللاانسانية. وكلما كان الهدير يأتي كانت حه بسه

خان تضرب نفسها وتقول: يا الله عونك، وي لتمت امهاتكم، والله كانت هذه قريبة جدا، فلتصم أذن الشيطان، لم تصب هذا المقر؟ واويلاه ماذا افعل الآن؟ ولو ان ام بيستون لم تكن تريد ان تظهر نفسها خائفة، ولكن مع كل هدير ينطلق من فمها، "وي لتمت امك" لقد استفاق الأطفال من النوم بالبكاء والزعيق والصراخ، وكان من بينهم من لم يكن يبكي، ولكن كان سادا كلتا اذنيه زاجا نفسه من خلف الفراش، ومهما يكن كان عند صغارهم وكبارهم صباحا مخيفا مروعا كدرا.

حلقت الطائرات عدة مرات في سماء المنطقة، ثم انقطع دويها، لقد توجه الجميع الى مداخل الكهف بوجوه شاحبة وبلهفة عارمة، كما أن حەپسەخان تلصصت مرة مرتين ونظرت الى السماء ومقدمة الكهف وعادت الى الداخل، بعد هنيهة وصل اليهم تؤفه بسرعة وقال: الشكر لله ان جميعهم سالمون، كنا قلقين عليكم، كنا نقول يا ترى فهم في اي حال ألآن؟ كان توفه مستمرا على كلامه حين جاء بيستون وحسين، وقد تحدث كل واحد منهما عن شيء ما حول اخبار ذلك الصباح، ولكن بيستون الذي انصب كل خياله على روناك، لكي يدخل الخوف في قلب حةثسةخان ولن يعدن الى البيت قال: والآن لا استبعد ان تعود مرة أخرى الينا، لأنها احيانا تبتعد مسافة ومدة للخداع لكي يطمئن الناس ويهدؤون ويعودون الى اماكنهم، وحينئذ تعود فجأة" وحين انهى كلامه قالت حەپسەخان: والله، اذن نبات هنا هذه الليلة ايضا، ولو مع الأسف نكون عالة على ام بيستون الحبيب"، وهناك تكلمت ام بيستون وقالت: بالله عليك حبيبتي حەپسەخان لا تقولي ذلك، نحن سترفع رؤوسنا بذلك، ثم اننا لم نفعل شيئا خاصا لكم، سواء كنتن هنا ام لن تكنن، فنحن لابد ان نأكل شيئا ما شاء الله بهذه المجموعة من الأطفال، وانتن اصحاب البيت" لقد فرح بيستون من اقوال امه، وأخيرا ظلت حةثسةخان والآخريات هناك في تلك الليلة، وفي الصباح حين كن يفكرن في العودة عادت الطائرات محلقة فوق رؤوسهم، وقصفت تلك المنطقة دفعة اخرى ثم اختفت عن الأنظار.

بغض النظر ان قصف هذه المرة كان فجائيا جدا ولم يكن متوقعا، لكن اضراره وخسائره كانت قليلة جدا، ماعدا عجوز معوق كان يريد ان يركض نحو

الوادي ولم يتمكن الوصول اليه اصيب رأسه بشظية فاستشهد دون ذنب، اضافة الى اثنين ثلاثةحيوانات اصيبت بطلقات مدفع رشاش ادت الى قتلها. اضافة الى هذه ورغم ضراوة هجوم الطائرات لم ينزل الدم من انف شخص آخر.

روناك التي كانت جالسة بصمت عند امها، سمعت ذكر الأضرار القليلة للقصف الحكومي رغبت عنه كثيرا، نهضت فنظرت من النافذة الى ما حول ماوةت والقرى الكائنة في المنطقة التي بدت لها بشكل واضح، ارتفعت معنوياتها وقالت في نفسها: فداء روحي لله تعالى الذي وهب هذه البلاد للكورد، كأنه خلق هذه الجبال الشامخة الوعرة القاسية لحمايتنا، والله لو كانت كردستان سهولا خالية من المناطق الجبلية، ومنطقة جرداء لكان اعداؤنا قد قضوا علينا منذ زمن.

بعد ان اطمأنت حەپسەخان واستكان قلبها بان ابناءها ورفاقهم سالمون، سألت: الا فداكم روحي، كيف حال القرية التي فيها صبرية؟ لا ادري ماذا افعل؟ كيف اعرف اخبارهم؟! كانت تضرب يدا بيد وتقول: يالك من منكوبة ربما لا يكون شيروان هناك، فماذا يكون حال تلك البائسة، والله انها فزعت وهلعت تماما!".

لطم بيستون على صدره وقال: او انت في هم كاكه شيروان وصبرية؟ سأرسل حالا شخصا ان يأتي برسالة بخطهما لكي لا تقلقي! قرأت له ... حەپسەخان كثيرا من دعاء الخير والبركة، وقالت بفرح: في الحقيقة منذ يوم امس لا اطيق صبرا، لكثرة قلقي عليهما. اوه يا بني الله يطول عمرك، ولا يريك المكروه، لأنك على قدر كبير من الإهتمام بالناس؟ هكذا حبب نفسه اليهم ودخل قلوبهم لدرجة ان لم يكن باديا مجرد يوم واحد فان كلهم كانوا يشتاقون اليه وكانوا يذكرونه ويفكرون فيه كثيرا.

لقد اعتادت ام بيستون كثيرا خلال الأيام التي كن معها، وقد احبتهن كثيرا، لذلك مجرد ان كان ينتهي هدير الطائرة كن يجلسن ويضحكن على انفسهن ماذا قلن وماذا فعلن كالذي كيف ركضت ام بيستون نحو الكهف وقد صرخ پێشمەرگە بوجهها اختي انزلي وشاحك، امي انزلي وشاحك، امي انزلي وشاحك، وهي أثناء ما كانت تركض ردت عليها بالمقابل قائلة: اخي ما شأنك

بوشاحي، در بالك على نفسك وهو صارخ ايضا: اختي ان وشاحك ابيض، يرانا ربان الطائرة، وهي قائلة: انت اذن لا تصرخ الى هذا الحد لأنها تسمع صوتك!" واخيرا كن يقعن على ظهورهن من شدة الضحك، مع ذلك كن يبكين احيانا على العجوز الشهيد.

بعد القصف بمدة، نادت ام بيستون ابنها ذات يوم وقالت: ابني ماذا تقول، لماذا لا نطلب لك يد روناك؟ والله انها مقبولة عندي جدا، فيستهويها قلبي كثيرا، كما ان امها ايضا هي امرأة على قدر من الطيبة لا حد لها، والله انهم جميعهم عائلة فاضلة. مع ان بيستون كاد ان ينتعش من الفرحة والسرور، لكن تجاهلها وقال: لا يا امي ليس الآن وقته، حذاري ان تنطقي ذلك لأنه اذا ما عرفوا به، سيقاطعوننا وقد يقولون، لذلك يتقربون منا بهذه الحرارة والإشتياق بأمل وغرض ذلك، والفتاة تنزعج كثيرا بهذا الكلام، لأنها لازالت طفلة وهم من اهل المدينة فلا يزوجون البنات في عمر مبكر كالعادة السائدة عندنا، حيث يزوجون البنت في سن الثانية عشرة الثالثة عشرة!! والله هذا ليس مجرد خطيئة انما كفر ايضا!

– حسنا يا ابني لا نفتح الموضوع حاليا، ولكن والله ركزت عيني عليها، ما شاء الله يالها من بنت وسيمة محترمة محتشمة!".

كان بيستون شابا هادئا عاقلا، كان يعرف كيف يتصرف، لم يكن يرغب في ان يقدم على خطوة لا يحقق النجاح فيها، فقبل كل شيء تمكن ان يقترب منهم تدريجيا ويحبب نفسه عندهم، ان روناك التي لم تكن تكترث به ابدا، وكلما كان يذهب الى بيتهن في السليمانية وفي غمرة الكلام كانت تقوم وتترك الغرفة وكانت تذهب الى غرفة اخرى ومكان آخر، ان روناك هذه نفسها تحولت الى انسانة اخرى، فهي تجلس عنده، وترحب به وتضحك، واحيانا تسأل عنه الكلام وأشياء، وان ذلك حاليا يكفي.

صباح احد الأيام ولم يزل حسين يأكل فطوره، ادار عينيه فيما حوله، لم يبد احد ما عدا امه التي كانت جالسة امام السماور، فبحجة يريد ان يشرب شايا آخر اقترب منها وقال باكتئاب: امي الحبيبة منذ مدة اخفيت في قلبي كلاما اريد ان اقوله لك، وكل ما احاول اما انه لا تتحين لي الفرصة او اخجل ان اقول

لك، لست ادري أأقوله لك الآن ام لا؟ قالت امه: باشتياق وفرحة كثيرة: صدقة لك لماذا تستحي؟ قل لأعرف ما كلامك؟ فاذا كانت المسألة في مقدوري سأنفذها على العين والرأس. خفض حسين رأسه وقال: الا الى متى ان نكون انا ونەسرين على هذه الحال؟ يبدو ان الوضع ليس في طريقه نحو التحسن، بل يتجه نحو الأسوأ، فإن مثل هذه الحكومات السفاكة المصاصة للدماء لا يمكن الإعتماد عليها وتوقع الخير منها، لذلك اقول من الأفضل الزواج منها وانقاذ انفسنا."

توقفت امها قليلا وفكرت ثم قالت: والله يا ابني انا ايضا نويت ان نقيم في اول شهر من فصل الخريف حفلة الزفاف، وها الآن نحن في عز الشتاء".

– طيب اذن ماذا نفعل؟

– انتظر فلتعد اختي آمه، افتح الموضوع معها، لأعرف رأيها لا ادري لماذا تأخرت الى هذا الحد؟ كان من المفترض ان تعود اسرع، وابحث الموضوع مع علي ايضا.

– مهما يكن من الأفضل حسم الموضوع، خاصة ان نەسرين لا تعود مرة اخرى الى المدينة، لأنها توجس الخوف من الإعتقال يمكن ان الأمر بشأنها قد صدر الآن.

– لا ياحبيبي لا اعتقد ذلك، لأن نه سرين المسكينة ما كانت لها اي علاقة تنظيمية.

– امي او يعرف هؤلاء ابناء الكلاب المنتمي وغير المنتمي، انت لا تعرفهن اي كفرة هم.

عرفت أمه ان حسين يلقي محاضرة مرة اخرى، لذلك سرعان ما قالت:

– طيب طيب، فداك روحي احاول ان تحسم قضيتكم في القريب العاجل، الله يجعلها خيرا، وحين كنت في المدينة فتح والدك ايضا مرة مرتين هذا الموضوع معي، ينوي كثيرا انهاء المسألة.

– في الحقيقة افكر في والدي كثيرا..نهض واقفا وطبع قبلة في وجه امه وقال: حبيبتي حەپسه لا تنسي! هذا ليس وضعا نعيشه نحن.

ضحكت والدته وعانقته وقبلته وقالت:

– اطمئن سأعالجها بعون الله.

في احد الأيام حضر شيروان الى عتبة بيت حەپسەخان جالبا معه ثلاثة خيول، لأن هي والبنات هيأن انفسهن حيث انه قبل يومين ارسل لهن الخبر بأنه يأتي في أثرهن لزيارة صبرية والبقاء عندها اياماً، وهن قد اعدن بعض الأشياء الخفيفة والجعبة والصرة ليأخذن معهن كهدية، لأن ماوهت قياسا الى ما حولها من القرى كانت مدينة، وكانت فيها دكاكين تباع فيها الأشياء الواردة من ماوراء الحدود.

_ ركبت حەپسەخان والبنات، وسار معهن شيروان وبه ختيار وتوفه واثنان من عابري سبيل مشيا على الأقدام، لم يمض وقت طويل لقد ظهر رأس وجامانة ومنكبا وكلاشينكوف بيستون، وقد جاء هو ايضا ليذهب الى بيت خاله الذي كان رجلا مشهورا في المنطقة، وحسب كلام بيستون انه كان من ضمن المدعوين في بيت خاله، ولكن لم يعرف لماذا ان خاله طيلة تلك المدة لم يتذكره الا اليوم؟ ومهما يكن فان بيستون شاب طيب يرفض الطيش، ولكن لا مرد لابد ان يثق بدعوته.

وحين ظهر بيستون خفق قلب روناك، ومع ذلك فرحت به جدا، ولكن لم تكن تعرف سبب ذلك، من المحتمل ان يكون تعودا، حيث انه تغير في نظرها كأنه اصبح احد اقربائها.

كلامه منطقي ومعقول، كما ان نكاته واسلوبه في الحديث تجعل الإنسان ان يغمى عليه من الضحك، حقا انه فتى عطوف حنون جدا، انها تراه كيف يتصرف مع والدته باخلاص لئلا تتضايق، انه شاب جريء جدا، وكان الشباب أثناء السير يتكلمون ويضحكون، وكانوا يتقدمون تارة، وهن يتقدمن تارة اخرى.

***

(٢١)

كانت الدار التي فيها صبرية عبارة عن ايوان وغرفتين، وكانت في جانب من مقدمة الإيوان كومة من الحطب المتراكمة للإحتراق والإستخدام من جهة، ومن جهة أخرى تحجب الى حد ما الأمطار وعاصفة الأعصار.

كانت الغرف حارة، فرشوا فيها البساط والسجاد والمندر الإسفنجي، وقد نصبت وسطها مدفأتان تشتعلان بالحطب، وقد اشتعلت المدفأة الكائنة في الغرفة الكبيرة، وعليها كتري وسطل صغير ممتليء بالماء لغسل الأيدي، كما ان أزيز سماور صبرية كأنه يغني لجالسي الغرفة، وكانت رائحة وبخار الشاي تجلب النظر.

كانت هي امرأة ماهرة ومرتبة، وكان شيروان رجلا كريما، لأن الحالة المادية لوالديه كانت جيدة، حيث يرسلان له النقود سريعا سريعا.

كان ايوانهما يطل على منظر جذاب مريح، تلوح له الجبال، وكان جدول جميل يمر امامه، ولو كان بسبب مطر الشتاء يصبح ماؤه عكرا طينيا، لكنه كان يشرح الصدر ويبهج القلب وكان في اقصى دارهما، سيل ينحدر من فوق الجبل للشرب والطبخ.

وقد شمرت في البيت امرأة عن اردانها وأخذت تشتغل، وسمعت ان صبرية كانت تناديها ((عروسة حبيب)) وحين ابتعدت الإمرأة، همست باسمة في أذن صبرية وقالت: آه اي عروس هذه؟ فلم تبق في فمها سن واحدة، فهي تكون في عمر جدتك" ضحكت بهدوء وكمت فمها، ضحكت صبرية وقالت: امي ان نساء هذه المنطقة يغضبن ان لم يقولوا لهن ((عروس))، لقد استغربت حه بسه خان والبنات وضحكن، نظرت صبرية الى هذه الجهة وتلك وقالت: حين جئت اول مرة الى هنا، اوصاها شيروان، اذا ما جاءنا ضيوف بأن تأتي لمساعدتي وتعمل لي

الخبز، وانا لم اعرف قلت لها: "عمتي حبيب" الا انها غضبت، وكانت قائلة للشخص الذي جاء بها الينا، سوف لن تأتي الينا بعد، لأنني قلت لها عمة حين سمع تؤفه حكاية ((عروسة)) قال في نفسه، شاتما اياها: لتكن رجلا العروسة بقبري! انظروا كيف أناديها الآن، صمت ولم يتكلم الى ان حل وقت الطعام ووضع الخوان، عندئذ ذهب توفه الى الأيوان وقال: عمة حبيب اعطيني هذه الصينية حسنة لأيمانك!

أضحت عروسة حبيب خرطوشة طائشة. لعبة نارية. وتميزت غضبا وقالت:

– يا ولد امك عمة! اختك عمة، الا تخجل؟ او لا ترى سيماء وجهك الجميل جدا. وجامانة رأسك المخسوف، وشاربيك كأنهما مكنسة الأصطبل..! ارادت ان تواصل كلامها النابي عن السمع. تظاهر توفه بالتجاهل وقال باستغراب: لماذا؟ لماذا؟ لماذا اي شيء قلت؟!" حين سمعت صبرية صوتها خرجت بسرعة من الغرفة، وحالما رأى توفه رأس صبرية التفت اليها وقال: تعالي خاطر الله لتعرفي لماذا غضبت مني عمة حبيب لا ادري ماذا حدث؟ الى ان اكمل توفه هذا الكلام القت حبيب ما في يديها وبسرعة وعجلة وهي واصلت الشتائم خفية وانزلت اكمامها الطويلة وقالت: لن اعود الى هذا البيت ما دمت حية!!

غضبت صبرية من توفه وقالت له: توفه اي جنحة ارتكبت ثانية؟" ثم لحقت عروسة حبيب ومسكت ذراعها وتوسلت لها لا تزعلي لوجه الله ومرضاته، ماذا حدث؟ فلا تذهبي الآن، قولي لي لأعرف"

انتزعت عروسة حبيب نفسها من يدها، فأخذت تسير وصبرية تريد اللحاق بها، ثم قالت: يقول لي:" عمة" وبعد ذلك عرفت صبرية بيت القصيد وقالت: لنفترض جدلا انه قال ذلك، انه لم يكفر؟ فعندنا يقال لكل امرأة "عمة"، بالله العظيم ان اقرباءنا ايضا ينادوني ((عمة صبرية))، ارجوك سامحيه الآن ما كان يعرف ذلك، على اقل تقدير خاطر امي والأخريات عودي، ومهما يكن اعادت عروسة حبيب بشق النفس التي كانت لها بنات اكبر من صبرية.

***

ارتاحت ضيفات صبرية في بيتها والقرية، وراق لهن كثيرا، قالت امها في اول يوم من وصولهن، ياله من هذا المكان ما اطيب وما اروع، ليتنا كنا هنا، علقت نەسرين قائلة:

– ياترى ماذا يفعل الأبناء بدوننا" وقالت روناك دون ان تعرف لماذا طابت لها ماوەت واحلولت:

– هنا يا امي تشبه القرية تماما، لكن ماوەت كأنها مدينة، حلوة جدا.

بقين هناك ليلتين، يبدو ان بيستون اراد كما يقولون ان يظهر نفسه رزنا متزنا لذلك لم يأت، وفي اليوم الثالث اقحم البيت وحياهم بشوق ولهفة، وهن سألن عن احواله بحرارة، وحين سألهن عن طبيعة القرية عندهن، بدأن بالثناء عليها كثيرا بأنها قرية رحبة جذابة مريحة، وبعد هنيهة من الكلام نظر بيستون الى حەپسەخان وقال: انا جئت اليكم لأرحب بكم باسم خالي وزوجته، وقد ارسلوني بأن تتفضلن هذا المساء الى بيتهم، وقد رغبت زوجة خالي والعائلة كثيرا بالمجيء، لكنني لم ادعهم فقلت انا مادمت اذهب اليهن سأرحب بهن ايضا باسمكم وادعوهم الى الوليمة ثم قال ضاحكا: في الحقيقة كان عددهم كثيرا فقلت لا تستوجب مضايقتكم، فلا داعي للمجيء، وانتن لم تتكيفن مع الريفيين قالت حەپسەخان بلهفة: آه لماذا، مابهم الريفيون؟! بالله انهم اناس طيبون على قدر لا يوصف، بالعكس انا احبهم كثيرا واود ان اكون دائما معهم" علقت صبرية: اما انا؟ فأحبهم جدا جدا، انهم بسطاء وطيبون وشهمون. ان اغباهم يعادل الف مديني حيال ونصاب وغشاش" لقد فرح بيستون جدا بأقوال الأم والبنت، بهذا الإحساس والشعور تجاه اهل الريف، اذ كانت العقدة الوحيدة في قلبه ازاء حب روناك، لذلك قال بقلب مفعم بالأمل والبهجة: والله ان زوجة خالي ولو انها لا تقاس بكن لكنها امرأة مرتبة، وان شاءالله حين الإلتقاء تجدنها كأنها امرأة مدينية، لكن الوصول الى بيتها يتطلب الصعود نحو الأعلى، لذلك يجب ان نسير بتوأدة. قالت حەپسەخان:

– عليه اذن ان يؤجل مجيئنا الى يوم غد، فالوقت متأخر الآن، فالى ان نذهب ونعود سيحل الليل، ومن الصعوبة بمكان ليلا، خاصة سنموت في هذا البرد! قال بيستون بلهفة:

– لا سامح الله، ان شاءالله تكونونن في راحة وسلامة، ولكن اعرفن جيدا بأنهن لا يسمحن لكن العودة ليلا، لأن عادات وتقاليد الريف هكذا، حين يتوجه الضيوف اليهم لن يدعوهم ان يرجعوا في وقت مبكر!

كادت ان تتضايق روناك قبل مجيء بيستون، وكانت على وشك ان تقول لأمها ان اسبوعا واحدا كثير فلنعد، فهنا كئيب جدا وغير مريح، انتعشت بمجيء بيستون، وقد ضحكت ملء قلبها بكلامه، وكانت تغطي فمها بوشاحها سريعا سريعا، وبهذه المناسبة لم تكن فقط مبتهجة، بل طاب لها المكان ايضا.

***

لقد نهضن وهيأن انفسهن، فأخذن سمتهن مع بيستون وكان طريقا جيدا الى مسافة ما، ولكن وصلن تدريجيا الى المرتقى والطريق الوعر، فذهبن قليلا، وقفت حةثسةخان فالتفتت الى الأخريات وقالت:

– آه واويلاه انه طريق وعر وقاس، لقد انقطعت انفاسي، قال بيستون بلهفة: للأسف فأن طريقه صعب شاق، لاشك تتعبن، لذلك من الأفضل عدم التسرع والسير بتوأدة.

قالت حةثسةخان: توكلت على الله، ما في اليد حيلة، لن نقدر ان نسير بسرعة (ثم نادت صبرية): الا صبرية هل انت جئت الى هنا سابقا؟

قالت صبرية: انا لا والله ولكن شيروان جاء عدة مرات حتى الآن، اتصور لم تكن زوجة خال كاك بيستون هنا حينذاك".

قال بيستون: اجل ما تقولين صحيح، كانت ذاهبة الى بيت ابيها، حيث كان مريضا، عليه سارت الجميع دون كلام، لقد وقعت نه سرين عدة مرات، وكادت ان تقع صبرية ايضا، ولكن سيطرت على نفسها، ا ستنجدت حەپسەخان بتؤفه: امسك بي يا ولد لقد وقعت! بدأت تضحك. جاء تؤفه ومسك يدها وجرها وهي بدورها ضحكت على نفسها: اوشك ان اقع مع تؤفه معا، وننزلق نحو الأسفل.

حضر تؤفه مرة اخرى القول المأثور، اراد ان ينصب نفسه ناطقا باسم الجماعة، لذلك قال متلهثا:

– الا يا كاكه بيستون الحبيب، اولم يجد بيت خالك مكانا اكثر ارتفاعا من قمة هذا الجبل. قال بيستون: والله كاكه تؤفه ان الناس هنا في البرد، في الشتاء

في الثلج لا يتحركون، والآن سنذهب ونرى موقعهم ما اوسع وما ارحب واطيب! كله بساتين وحدائق وعيون، فيه الزراعة والخيرات الوفيرة، وقد عاش هنا والد وجد خالي.

– طيب مادام انه مكان طيب ومريح الى هذا الحد، فلماذا لا تعبدون طريقه قليلا، ثم ما هذا الشعب الضيق الحدر الزلق؟".

قال توفه هذا وقد وقفت روناك فزلقت حجرة من تحت قدمها وكانت من المحتمل ان تسقط سقوطا مؤذيا لكنها كانت محظوظة بجانبها شجرة بلوط جرداء تمسكت بها. صرخت امها:

– في سبيل الله اغيثوا روناك، فانطلق بيستون بسرعة البرق، وقد وصل اليها كالغزال بقفزتين، لأن نەسرين وصبرية تقدمتاهم كثيرا، وكان توّفه وام روناك كانا يسيران من الخلف، وان اقرب شخص تمكن ان يصل اليها في الوقت المناسب ويكون في عونها هو بيستون حيث انهضها ومسك يدها وانقذها من هذا المكان الوعر الشاق، واوصلها الى مكان افضل من الطريق، كادت ان يتصبب جسمها عرقا في هذا البرد الشديد حين لمست يدها يد بيستون، شكرته باستحياء، وبدأت بالسير، وكان بيستون يريد من الله ان يكون كل الطريق وعرا هكذا، لكي ولعل وعسى ان لا يفلت يد روناك (اوه يا ربي يا لها من يد واصابع مكلثمة وجميلة، ولكن لماذا ترشحت يده في هذا البرد عرقا؟ يا الهي اثمة رائحة طيبة على هذا القدر؟ لا اعتقد ان يرقى اليها اي عطر فواح!!

اضحى بيستون كمنتش، وكانت الرائحة تملأ انفه حتى الليل، ولم يغسل يده حتى الصباح، يقول لمست يد روناك الحبيبة، وروناك لحقت بوالدتها بسرعة وطمأنتها بأنها لم تتلق اي اذ ى وسارت معها، لكنها احيانا تمسك بذراع توّفه لئلا تقع، وكان توفه يقول: يا الله، يا الله، لقد عثرتما على حماركما فأنت من هذا الجانب اسحبيني وامك من جانب آخر، ولم يكن يعرف ان بيستون كان يحسده ويتمنى ذلك وكان يمن على ذلك بأن يحمل روناك على ظهره لا مجرد ان يمسك يدها.

اقتربوا من المكان المعين حين ظهر رأسا شيروان وبه ختيار وقد وصلا اليهما، وقد جاء خال بيستون وخالته وعدد من البنات والنساء لإستقبالهم،

ورحبوا بهم بحرارة، وقدموهم للتوجه نحو البيت، لقد اخذ الرجال الى المضيف والنساء الى غرفة اخرى، كانت زوجة خال بيستون كما تحدث عنها لهم سابقا، بدت اكثر، امرأة الى حد كبير جميلة حسناء، ان لم يكن لها ابنان متزوجان وثلاث بنات متزوجات، لم يكن يقال ان معظم الواقفات كن كناتها وبناتها، لم يكن يعتقد احد ان عمرها اكثر من اربعين سنة، بيضاء السحنة ساحرة العينين والحاجبين، وكانت الحناء والوسمة اضفتا على شعرها جمالا اكثر، وقد قصت ذؤابتها قليلا والتي تدلت على ناصية جبين ابيض صاف شكلت نقشا رائعا، وكان انفها وشفتاها وأسنانها تتنافسن في الروعة والبهاء، اضافة الى كل هذه كانت امرأة نظيفة نقية صافية، تفوح رائحة ورد الماء والقرنفل من جيدها وصدرها!

وكان الضيوف من خلال تبادل نظراتهم، كما يبدو احيانا انهم انذهلوا من مشيأة الله وقدرته، دخلوا الغرفة، اي غرفة يا ترى؟ كانت تليق بصاحبتها، جذابة، رحبة، واسعة، مريحة فيها نافذتان كانتا تطلان على القرية، واربعة خمسة طيقان في الحيطان اسدلت على كل واحد منها قطعة قماش من البلور الأبيض النظيف، ورصفت فيه عدد من الفسيفساء وفرفوري جميل وقديم، وفي احدها سماور كبير مطلي بصبغ رائع ومرصع بأزرار موردة. وقد طوقت جيده ثلاث حلقات من القرنفل والسنبلة كقلادة. و وضعت باقة من وردة الجوري اليابسة في الطاسة الكائنة من امامه ووضعت نسخة من القرآن الكريم المغلف بقماش اخضر اللون في طاق آخر، والطاقان المقابلان وضعت فيهما سجادة مطوية، وفرشت ارضية الغرفة بالطنافس والسجادات، ما عدا جهة الباب فان الجهات االثلاث للغرفة زينت بالمنادر والمخدات والوسادات النظيفة وقد ركزت في حيطانها اوتاد صفراء، علقت عليها البنادق والكلاشينكوف وأحزمة الخراطيش.

بعد الترحيب واقوال من المجاملة، اتجه اهل البيت نحو وضع الخبز والطعام والخوان، وحين رأى الضيوف ان خلت الغرفة لهم، بدأ التهامس وذكر البيت وربة البيت، لقد نظرت حەپسەخان الى طرفيها والباب، وقد وضعت وشاحها على احد جانبي فمها وقالت بهدوء: يا بنات الآن عرفت لماذا ترك هذا الرجل

الناس وجاء الى هذا الجبل مع عائلته، كلها خوفا من ضربة العيون الشريرة، لئلا تصيب زوجته واطفاله بالعيون الشريرة، الا كيف كانت هذه الأمرأة ايام شبابها؟؟".

قالت صبرية بشيء من الفضولية وبصوت خافت: ما شاء الله في انفسنا، على اننا نعد انفسنا من اهل المدينة وتطلق على هذه الإمرأة ريفية.

ابتسمت نه سرين وقالت هامسة: ما اكثرنا خيلاء وتكبرا حين اتينا، وكنا نقول يا ترى ماذا يكون بيتهم، الا اننا خجلنا".

استلقت روناك على ظهرها، واحتمت بوالدتها وقالت: اولم تشاهدن كاكه تؤفه كيف جحظت عيناه حينما كان ينظر الى البنات، نخستها امها برفق وقالت: اسكتي يا بنتي لئلا يسمعن!" قربت صبرية رأسها منهن وبضحكة هادئة على قدر ما امكنت قالت:

– فالله وحده يرحمنا بأن لا يقول قد عشقنني!

همست نەسرين وقالت: انهن قريبات كاك بيستون كيف تقولين لها ذلك؟"

***

فرش الخوان، فوضع الطعام والخبز، وجاءت ربة البيت وقالت لهن: تفضلن كلن شيئا ولو انني اعرف ان اكلنا لا يليق بكن لكن ما في اليد حيلة، ولا مناص منه؟! ولهجت السنتهن بالمدح والإطرا والشكر، فجاءت صبية وسيمة في عمر عشر اثنتي عشرة سنة حاملة معها الإبريق والصحن، فغسلن الأيدي وحلقن جالسات حول الخوان، ان الذي بدا في نظرهن عجيبا على الخوان كان شيئين، اولا لم تبد اي قطعة لحم اذ لابد ان يكون لحم الوليمة عند الضيوف اكثر من كل شيء، ثانيا لم يطبخ مرق خاص، كان فيه فقط الحمص المجروش، والقطع الصغيرة من الطماطة والباذنجان والبصل اضافة الى البامية وقد خلطت جميعا واصبحت مرقا، لتوجيه اللوم والعتاب لخلو الطعام من اللحم مجرد ان مددن الملعقة نحو التمن اعتراهن الخجل لأن جميع اطباق التمن التي وضعت امامهن كانت مملؤة باللحم، حيث ان عاداتهن هي عدم وضع اللحم في وسط الطبق، انما يغطونه بالتمن، حين رأت حەپسەخان والأخريات هذه الحالة تبادلن النظرات، عندئذ شمرن عن ارادنهن فبدأن بالأكل بشهية.

الى ان انهين من اكل طعام العشاء حل الليل وقد اشعل مصباح اللوكس واثنان ثلاثة من المصابيح اليدوية والفانوس الإنكليزي، وكان السماور يئز ازيزاً..وحين كن يشربن الشاي بدأن بالحديث عن القصف ومعارك الپێشمەرگە والحكومة. وكل واحدة منهن كانت تتحدث عن اقاربهن الذين انظموا الى صفوف الثێشمەرطة. ومدى تسامحهم وتحليهم بالشجاعة والصمود اضافة الى الإبتهال والدعاء بالنصر المبين لهم. حين رأت ربة البيت ان واحدة اثنتين من ضيوفها وقعتا تحت سنة النعاس قالت لبناتها وكناتها ان يأتين بالفراش لحەپسەخان والأخريات حيث انهن تعبات ويشعرن بالنعاس، عندئذ جلبن لهن الفراش وتركن الغرفة لهن.

في اليوم الثاني اكلن الغداء هناك، بالرغم ان اهل البيت الحوا عليهن البقاء ليلا ولا يذهبن لكنهن لم يوافقن واستودعوهن بالشكر الجزيل، وبدأوا السير بعد ان ترجت حەپسەخان كثيرا من خال وزوجة خال بيستون واستحلفتهم بزيارتهم بكامل افراد العائلة.

ما ان ابتعدن عن البيت حتى وان بدأت حەپسەخان والأخريات بالمدح والإطراء لزوجة خال بيستون وجميع افراد العائلة، وفي الحقيقة كانوا بيتا طيبين وخدومين وكان مضيفهم على قمة الجبل مكتظا بالضيوف، ولكن لاشك فيه بأن تقديم تلك الخدمة والإهتمام بحەپسەخان والأخريات لم تكن خالية من دور بيستون، لم تمر عشر دقائق من سيرهم حين صرخ توّفه وقال: نسيت شيئا، توقفوا قليلا سأعود حالا" عندئذ اسرع نحو البيت، وفي الطريق صادف احد ابناء البيت حيث كان يركض في اثرهم، وحين ابصره الولد اعطاه كيسا وقال له هاك كاكه هذه اشياؤك نسيتها" تسلم منه توفه شاكرا وفتحه ونظر اليه وقال: عجيب جدا كأنها اغلفة الخراطيش" ضحك الولد: اوليست اغلفة الخراطيش اذن اي شيء؟ هذه اغلفة طلقات الرشاش التي تطلقها الطائرات على الناس وهم يعثرون عليها ويحولونها الى اوتاد.انظر اليها ما اجملها، كأنها ذهب "صرخت حه بسه خان من بعيد وقالت: اسرع لقد تجمد نا من شدة البرد."

تؤفه: هاها انا جئت. شكر الولد بحرارة مجددا وركض نحوهن.

سألته صبرية: لماذا ذهبت بسرعة وعدت مرتبكا، وما في يدك؟

كانت الأم قد دست يديها تحت ابطيها من شدة البرد وقالت: وكيف لا، الا يجوز ان يطلعوا هم ايضا على عقله ومعرفته؟ لم يهتم توّفه بأقوالهن وقد فتح الكيس بفرحة وقال: تبا للحكومة ان تقضي على الكورد، وهي لا تدري بانهم حولوا خراطيش طائراتها الى اوتاد يعلقون عليها بندقية البرنو والكلاشينكوف، هاكن انظرن الى هذه الأوتاد"

اخذت البنات منه بحيرة ونظرن اليها رفعت حەپسەخان كلتا يديها ووجهت نظرها الى السماء وقالت: اوه ياربي ان تصيب هذه الخراطيش شغاف قلوبهم، يا ترى اي ذنب ارتكبناه لكي يمطروا علينا وابل الرصاص هكذا. فلتنتقم منهم يا ربي فأنت ارحم الراحمين.

كانت الخراطيش كطلقات البندقية الا انها كانت اكبر، وكانت كل واحدة بقدر قثاء.

كان توفه يقلبها ويقول: ما اشد صفرة وجمالا: وحين ارادت تجميعها اخذت صبرية واحدة منها لنفسها، وبدأن بالسير، ولكن من حسن الحظ كانت العودة نحو المنحدر، سهلة المسير جدا لهم، لقد كانت روناك خائفة من وقوعها الأول لذلك اخذت عصا بيدها تتوكأ عليها كالمحجن وتسير بتوأدة.

حين وصلن الى داخل القرية نظروا فرأوا ان بيستون يهم الصعود تدريجيا، وحين ابصرهن تراخى وسأل: ها لماذا عدتن، لماذا تلك العجلة؟ كدت انا اعود اليكن الآن، او شعرتم بالتعب في الطريق؟

قالت حەپسەخان: "لا والله جئنا بشكل اعتيادي جدا كان طريقنا صوب المنحدر، لم نتعب ابدا، لكن ان بيت خالكم خدمونا الى حد تحملهم المشقة جراء اهتمامهم لنا، فأخجلونا كثيرا.

– بالله عليك حەپسەخان لا تنطقي مثل هذا الكلام اي خدمة واي مشقة؟

انهم فرحوا بزيارتكن لهم الى درجة اوشكن ان يطيرن ، فانهن كن يتوقعن بقاءكن هناك على الأقل ثلاث اربع ليال، لا ادري لماذا استعجالكن في العودة؟ حين كان بيستون يتكلم هذه الأقوال كاد ان ينفطر قلبه هما وكمدا فلماذا لم

يصل في الوقت المناسب لكي يرافقهم في الطريق، لعل وعسى ان تحتاج روناك الى مساعدة منه، وعلى اقل تقدير كان يشبع من النظر اليها من بعيد.

اغتنم توڤه الفرصة لكي يظهر دعمه لبيستون وقال: كوني يا حەپسەخان على معرفة بان خال كاكه بيستون يحب كاكه علي وحسين ونحن كثيرا، ويأتي الى ماوەت سريعا سريعا، ويزور المقر ويسأل عن احوال الجميع."

ذهب بيستون معهم الى عتبة بيت صبرية، وهناك استودعهن الله وذهب. فبقيت هناك حەپسەخان والأخريات اسبوعا عشرة ايام، ثم عادوا الى ماوەت بعد ان تحدثت حەپسەخان وصبرية دون اطلاع نەسرين عن قضيتها وحسين، ورتبوا الأمور لتنفيذها.

(٢٢)

في احد الأيام وقف فرسان امام بيت حەپسەخان، وكان آمر مخفر بمعطف شرطي والنياشين راكبا احدهما، حين كان توفه في ذلكالوقت يكسر الحطب لمدافئهن رأى ذلك من زاوية الباب، فألقى فأسه بسرعة وركض حائرا نحو الباب ليعرف ما هذا ومن هو هذا الشرطي الذي ينزله من ظهر الفرس، وقد بدا في نظره غريبا جدا حيث انه من هيئة رأسه وعصابته ولثامه يشبه الإمرأة، تقدم اكثر فصرخ فجأة أي او انت يا آمه خان؟!

جاءت البنات من هناك بسرعة ليعرفن ما سبب هذا الزحام والصراخ والصخب، وهن ايضا انذهلن حين ابصرن زي الشرطة ونياشين الفارس، وما ان عرفنه الى ان اقتربن منه بأنها آمه خان، بعدئذ هجمن عليها وجئن بها الى الداخل بـ(هلاو والضحك) وكانت هذه تقول ما هذه وتلك كانت تقول من اين لك هذا؟ وهي ايضا كانت تضحك اكثر منهن، ومع ذلك لشدة البرد والتعب لم تكن قادرة على الكلام، أخذ توفه الأشياء الى الإيوان ومد رأسه الى الغرفة ونظر الى آمه خان حيث التفتت حولها البنات، وكادت اختها لفرط ضحكتها ان يغمى عليها وقال توفه: الا يا آمه خان متى اصبحت آمر المخفر، الله يعمر بيتك لقد افزعتنا، والله ظننت ان الحكومة شنت علينا الهجوم!"

قالت آمه خان بهدوء: دعني الآن لكي اركن الى الراحة قليلا، اسرعن هيجن النار لقد مت من البرد، ان ملابسي كلها مبللة، لأحميّ الآن نفسي ((ضحكت وقالت))، عندئذ اروي لكم موضوع آمر المخفر)).

فالأولاد الذين كانوا قد دخلوا الغرفة، كانوا يضحكون من آمر المخفر، فحين سمعوا ما قالته آمه خان، تركوا الغرفة، وبعد ان ارتاحت آمه خان قليلا بدأت بنزع لثامها ووشاحها ونزع ملابسها وتجفيفها واحماء نفسها، حيث بدلت

ملابسها وهيأت نفسها، وارتشفت جرعتين شايا غليظا ساخنا ثم قالت: تعالن لأتحدث اليكن موضوع آمر المخفر، فليدخل الأبناء ايضا الغرفة، حيث كان الأولاد واقفين امام باب الغرفة دخلوها، وهي واصلت كلامها وقالت: قبل كل شيء ابشركم والشكر لله بأن نەوبەهار انجبت ولدا، وقد ارسلوا يوم اول امس، برقية بهذا الشأن، بدأ الجميع بالتصفيق وصياح وبكاء باستمرار وبصوت عال، (ذهب تؤفه راكضا ليبشر كاكه علي) وقد بكت حةبسةخان من الفرح والإبتهاج وبدأت بالفداء والصدقة، وبعد هنيهة قال الجميع: طيب ما مسألة هذا المعطف؟ انتصفت آمه خان قدح الشاي الثالث، ومدت يدها الى رأسها وقالت: واي ابتاه ما اوجع راسي، طيب، في الطريق انهمرت امطار كثيرة علينا فتبللت جميع ملابسنا فبدت كأنها منقوعة في الماء، وكان جسمي يرتجف من البرد، وتصك اسناني، وقد تردت صحتي تماما، وحين وصلنا الى (كونه ماسى) وتلك المنطقة، ذهبوا بي الى مقهى مع عائلتين اخرين حيث خرجنا من السليمانية معا، وكان معهم اطفال، وكان قلب الكافر يهيج شفقة عليهم، اف يا ربي فأخذ حقهم (ومع هذا الدعاء كانت تكيل للحكومة بعض الشتائم) ثم اكملت كلامها وقالت: حين دخلنا المقهى، اي مقهى، فكان مكانا تافها خاليا من اي شيء باستثناء حصير حصيرين متهرئين، وقد رآنا اثنان ثلاثة من الپێشمەرگە بتلك الحالة تنادوا فيما بينهم، وبعد هنيهة، الله يطول اعمارهم معكم، اتوا ببعض البطانيات الخفيفة والملابس البسيطة للأطفال، واعطوني هذا المعطف لأن صحتي تردت كثيرا، ليكن حاجزا بيننا كنت اتزوع باستمرار، كنت اشعر بألم شديد في قفاي ورقبتي ومنكبي، وبقدر ما كنت منتبهة من كلامهم فهمت بأنهم استولوا هذه الأيام على مخفر للشرطة وغنموا بطانيات كثيرة، بعدئذ اشعلوا لنا النار وجلبوا لنا الخبز والشاي، الله ينصرهم ويكون في عونهم على اعدائهم، والله لو لم يكونوا الى هذا الحد رجالا شهمين ومخلصين معنا، ففي تلك الليلة لست انا وحدي انما واحد اثنان من الأطفال كنا نموت في البرد، يقولون انهم يتعاملون مع كل الناس وعابري السبيل باخلاص ومروءة، وعلى امتداد الطريق حين كنا نصادف الناس، تلهج السنتهم بمدحهم والثناء عليهم، الله يبقيهم لنا)).

علق حسين وقال بحرارة: خالتي ان لم يكونوا على هذا القدر من الطيبة والفداء والإخلاص لشعبهم، فما شأنهم في هذه الجبال؟ والعيش فيها بقوت لا يموت، بالله العظيم يصدف احيانا لا يحصلون حتى على اوراق الأشجار ليأكلوها، دارت ذلك اليوم معركة بين الحكومة والپێشمەرگه في جبل ازمر، حيث نفد خبز الپێشمەرگه وكانوا يتضورون جوعا، وبعد ان هزّموا الجحوش، اخذوا يبحثون عن الخبز، فعثروا في مكانهم بعض كسرات الخبز اليابس وحواشي الرغيف التي مضت عليها الأيام، وقد اخذوا يجمعونها في الحال ويصبون عليها الماء المغلي ويأكلونها، اذن ان امثال هؤلاء لا يكتفون بهذه الحالة فحسب، انما هم على اهبة الإستعداد للموت من اجل شعبهم ووطنهم، في حين لم يرغمهم احد على اختيار هذا الموقف وكلهم لهم احوال وعيال، وكان معظمهم على قدر كبير من الوضع الإقتصادي الجيد، فتخلوا عنه، لذلك ان ما فعلوا معكم والناس وما يفعلون، هو غير ذات اهمية واعتيادية لاتستحق الذكر!)).

قالت آمه خان: انا لا تهمني هذه الأقوال، ابتهل الى الله ما دمت حية بأن ينصرهم ويشد من ازرهم، ولم اعلم ابدا بأن الپێشمەرگه على هذا القدر من الطيبة والإخلاص تجاه الناس، وكنت اظن انهم يقاتلون الحكومة فقط!)).

– الا يا خالتي انهم يقاتلون من اجل من؟ ان لم يكن لأجل هذا الشعب؟فاذا لم يحسنوا اليهم الآن. كيف يمكن الثقة بهم بعد النصر ان يكونوا طيبين؟ لا بد ان تكون الوطنية الحقة هكذا...!

عاد توفه من عند كاكه علي، حيث كان ذاهبا ليحمل له البشرى، التفت الى آمه خان وقال: اتركي هذا اولا نود ان نعرف لماذا تأخرت الى هذا الحد يا آمر المخفر؟ لقد مضى شهران منذ مغادرتك هنا؟

– كن على ثقة، كنت افكر كثيرا فيكم وهذه الجبال، لكن حاجي وكاكه حاجي ماكان يفسحان لي المجال، وكذلك كان الأقارب والأهل يزورونني، وكنت منشغلة الى حد تمكنت بشق النفس ان اشتري لكم هذا الشيء القليل، وأهيء نفسي، واخيرا لحقت الى هذا القدر، تؤفه افندي)).

بعد يومين جاءت صبرية الى عند خالتها للترحيب بها وقرة عين واطمئنان والدتها والأخريات، وحل مسألة حسين ونەسرين، تدخل بيستون فيها مرة

اخرى، وحصل بسرعة غرفة وايوانا للعروسة والعريس قرب بيتهم، وقد اخذ معه سريعا البناء لترميم جميع الثغرات ومعالجة النواقص لهم، واشترى شيروان وعلي مستلزمات البيت، ورتبت حەپسەخان وصبرية لهما البيت، وقد زفت نه سرين ذات مساء الى بيتها، وهما ايضا تخلصا من خفقان القلب.

كان بيستون وامه دائما في ذهاب واياب، خاصة اصبحت نه سرين وحسين جارهما، وقد فرح بيستون على قدر آخر، اذ حصل على فرصة زيارة اكثر والتقرب منهم وتحبب نفسه اكثر، لكي يتقرب اكثر من روناك الحبيبة.

***

(٢٣)

ذات مساء كان الأبناء مع عدد من الأصدقاء جالسين في بيت حةبسة خان حول المدفأة، وكان تؤفه كعادته حول المجلس الى يوم عزه، كان يتحدث لهم عن لبنان والأردن، ويعدد لهم المغنيات اللاتي احببنه، وقد اضاف هذه المرة ثيَشمةرطةنتين اخرين الى القائمة السابقة.

لقد تمالك حسين قدر المستطاع الا يفجر بالضحك وقال: عزيزي كاكه تؤفه كنت كل مرة تتحدث عن پێشمەرگەنتين منهن، ارى هذه المرة اصبحن اربعا؟ قال توفه بعصبية: ((كم مرة اقول، حين اتكلم لا اود ان يقاطعني احد، لقد نسيت تلك المرات، والآن تذكرت، افي هذا حرج؟ اهناك احد ان لاينسى، او لا يخطأ؟؟؟))

وكاد الجالسون ان يغمى عليهم من شدة الضحك، ولكن لم يكن احد يمتلك الجرأة للتعبير خوفا من توفه، لأنه عدا انه يفعل بهم ما هو جدير وغير جدير الآن، ولم يكن يتحدث اليهم البتة. وكانت احاديث تؤفه كلها بالنسبة لهم مصدر سرورهم وقضاء وقتهم، فأحيانا لم يكن يرقى اليه اي فلم كوميدي، لذلك كانوا يتملقون له، ويتظاهرون بان جميع اقواله مأثورة وصحيحة وحلوة، وكانوا يستمعون اليه في قرارة قلوبهم، وتلهج السنتهم بالمزيد من مدحه واطرائه لكي يتحدث اليهم اكثر، ويروي لهم حكايات مختصة بالحياة الحلوة، وقد كانوا في غمرة هذه الفرحة والضحك حين دق الباب، انتفض نةورؤز وذهب ليعرف من الطارق فعاد حاملا رسالة، سلمها لعلي وقال: انها لك جاء بها احد پێشمەرگە، لقد حاولت معه ان يدخل لكنه لم يأت وقال لي شغل آخر.

فض علي الرسالة بسرعة، والجالسون نظروا اليه صامتين ليعرفوا ما فيها، القى علي نظرة سريعة في الرسالة، لقد تغيرت ملامح وجهه قليلا وطوى الرسالة ودسها في جيبه، وتلمس طاقيته وجامانته وقال:

((هيا يا شباب لنذهب))

قال بيستون ها كاكه علي خيرا"

لنذهب اولا الى المقر ان شاء الله يكون خيرا، اضافة الى ان الشباب راقت لهم حرارة الغرفة وجلستهم الى حد انهم يريدون من الله البقاء هكذا، لكنهم انتفضوا جميعا بسرعة وحملوا اسلحتهم وارتدوا احذيتهم بهدوء التي كانوا نازعيها امام باب الغرفة.

كانت حەپسەخان مع الأخريات في الغرفة المقابلة لهم، قد ادركت من دمدمتهم ووقع اقدامهم بانهم ينوون الذهاب لذلك مدت رأسها الى الخارج وقالت: ((او انتم تغادرون البيت؟ لماذا هذا الإستعجال؟)) تقدم منها علي وقال: امي جاءنا ضيوف لابد ان نذهب.

قالت امه بانقباض:

انك تذهب اوليست وجبتك ان تنام هذه الليلة في البيت؟ لماذا تذهب بهذا البرد وتعود؟ فها ان حسين يذهب وجميع اصدقائك هناك فما حاجة مجيء الضيوف وذهابك اذن؟))

لقد كان علي في عجلة من امره ولكن لخاطر امه لم يظهر ذلك وقال: هيأت نفسي الآن، لاضير ان اذهب، فمجرد ان ارحب بهم اعود حالا))

لقد سار الجميع وتبعهم توفه، لقد عرف ان شيئا قد حدث، لقد انزعج نفسيا.

وصلوا الى المقر، لقد ارتبك اصدقاؤهم، ان الذي كان على اللاسلكي يتلقى الكلام ويردده، وكان الى جانبه شخص آخر يكتبه، وقد تبين فيما بعد، ان الحكومة شنت هجوما كبيرا على (چەمی ڕێزان) وهي في طريقها نحو السليمانية لذلك ينبغي ارسال الپێشمەرگه من جميع المقرات لكي ينجدوا فصائل الپێشمەرگه في اسرع وقت، والوصول الى تلك المنطقة حيث قاتل پێشمەرگه قتالا بطوليا بتلك القوة الصغيرة والأسلحة القليلة الرديئة ضد قوة كبيرة

ومدججة بأحدث الأسلحة للعدو الضاري فقتلوا منهم عدداً كبيرا اضافة الى اصابة عدد آخر بالجروح، وقد استشهد في المعركة فقط اربعة من الپێشمەرگە.

بدأ المقر بشكل سريع بجمع وتحشيد پێشمەرگە المنطقة واستدعاء الذين ذهبوا الى بيوتهم وهم متمتعون بالإجازة وبثوا بسرعة اسماء الذين لابد ان يتوجهوا نحو چەمى ريزان. وكانت اسماء علي وحسين ونەورۆز وبيستون من ضمن الأسماء التي لابد من التوجه الى جبهة القتال.

عاد توفه الى البيت حالا، لقد ارتبكت واختها كثيرا من ان الپێشمەرگە يتوجهون الى المقر بشكل عاجل، فلم تستقرن على حال من القلق والإضطراب، وكانتا تأتيان الى عتبة الباب بالتناوب، وكانتا تقولان: والله قد حدث شيء، لقد ذهب الأولاد بكثير من السرعة والإرتباك، وكانت حەپسەخان تتخيل: ياترى اوليس خبر الطائرات التي تحلق فوق رؤوسنا غدا. لكن لا، لا يرتبكون هكذا بسبب الطائرات، كان علي مرتبكا جدا اخاف ان يكون مثل ذلك اليوم الذي تجادل فيه اثنان من الپێشمەرگە وكاد ان يتحول الى نزاع ومشاجرة، لقد جاؤوا ونادوا (علي)، لا وهذا ايضا لا يمكن توقعه، في المقر كل هذا العدد الكبير من المسؤولين لماذا يستدعون علي والآخرين؟ ان تلك الخيالات اربكت تماما حة ثسة خان، مرت خفقة فجأة بقلبها وقالت: ((لم يصب حاجي واخوه مكروه؟؟)) وكانت اختها مثلها في غمرة تلك الخيالات، وحين جاء توفه نحو البيت ورأى آمه خان واقفة وسط الباب قال لها: لماذا تسمرت هنا في هذا البرد، لا طاقة لنا ان نتحمل انينك ومرضك، ادخلي البيت.

ردت عليه قائلة:

((والله يا توفه قلقت جدا، ماذا حدث، ولماذا نهض الأولاد وذهبوا بسرعة؟))

قال توفه باكتئاب:

((لا شيء، لاشيء، ادخلي اولا))

اسرعت حەپسەخان و روناك مع نه سرين التي كانت قادمة مع حسين تلك الليلة اليهم نحو توفه، والتفن حوله بلهفة، وكن يردن ان يعرفن ماذا حدث، وكاد ان ينفطر قلب توفه من جراء الهجوم وتوجه الأبناء نحو المعركة، وكان هم

وحسرة الشهداء الأربعة اكبر تأثير على قلبه، علاوة على ذلك كان يتوجس الخوف من ان يذكر لهن المسألة بشكلها الواقعي الصحيح، يا ترى ماذا يفعلن تجاه ذلك، لذلك تحير، قالت حەپسەخان غاضبة:

– ماذا بك لماذا لا تتكلم، لقد انشقت قلوبنا، لقد متنا قل اي شيء حدث!!

لقد تلجلج لسان توفه، عندئذ هجمت عليه نه سرين، واخيرا لم يكن له لا حول ولا قوة فقال لهن: ((تدور الآن معركة في چەمى ريّزان، لقد شنت الحكومة هجوما واسعا عليهم، وهجوم كبير في طريقه نحو السليمانية، وعلى پێشمەرگه هنا ان يذهبوا لنجدتهم))

تجمدت حەپسەخان من مكانها ويبس الريق من فمها، وقد سمعت دقات قلبها علانية، ولكي لا تقع وتجلس في مكانها سألت بصوت بكائي: ((علي وحسين ايضا)) (هز توّفه لها رأسه) ثم سألت: و نەوروّز؟)) قال توفه بصوت خافت: ((هو ايضا)).

مازالت آمه خان في ذلك الوقت رافعة يديها نحو السماء، تقرأ الأدعية وتنفخ فيما حولها وتذكر اسماء الأبناء واحدا واحدا، ولم تكن منتبهة الى اقوال توّفه، وحين سمعت نحيب ومناحة البنات، عادت اليهن وجرت ذراع توّفه وفتلت قمصلته وقالت: خاطر الله، لقد توقف قلبي، قل ماذا حدث؟!

استشاط توّفه غضبا وقال: ماذا عساي ان افعل، ايمم وجهي الى اي جهة؟ اين وجه القبلة؟ يا الهي كيف ورطتني مع هذه المجنونات، فان لم تتكلم يستحلفونك ويرفعون بوجهك القرآن، وان تكلمت، هذه يغمى عليهن وتلك ينعقد لسانها؟؟!

قالت آمه خان: تكلم بسرعة، لقد خارت قواي! حكى لها توّفه ما حكى لهن، وهي بكل ما تمتلك من قوة ضربت وجهها بكلتا يديها وقالت: لابد ان يذهب جميع ابنائنا؟! قال توّفه: اذن ماذا والله يجب ان يذهب الجميع الى جبهة القتال، وما الفرق بينهم؟ اليس الجميع من الپيشمەرگه؟، فأنتن هنا وتعرفن، واذا عرفت امهات وآباء الآخرين بأن ابناءهم يتوجهون الى الجبهة يفعلون اسوأ منكن، لأن ابناءهم مثل ابنائكن محبوبون ومدللون عند اهلهم، ولهذا جاء هؤلاء الأبناء بمحض رغبتهم وارادتهم، فهم يودون ان يسلكوا هذا الدرب المشرف

للكوردايتي، ويجب ان يذهبوا الى جبهات القتال وجميع المواقع التي تصدر الأوامر لهم؟))

قالت نەسرين: بدأ مجددا القول المأثور والوعظ والإرشاد علاما تلك الأقوال؟ يبدو اننا جئنا برغبتنا ولسنا نادمين!))

وضع توّفه سيجارة بين شفتيه، قال اثناء البحث عن شخاط في جيبه: ((طيب واذا انت على هذا القدر كأرسطو فقولي لأمك وخالتك، الا تفعلا من انفسهما هكذا، وان تسلماه الى الله، والأجل بيده تعالى، بالله من يأتي أجله حتى وان وضعوه في زجاجة (فرعان) لابد ان يموت، اما الذي لم يأت اجله حتى وان يكن تحت وابل من الرصاص والقصف لا يمسه اي شيء! فلا داعي للقلق، ابتهلن الى الله ان يكونوا في حفظه وامانه وان ينصرهم على اعدائهم، لأنهم يخوضون حرب الحق والعدالة ((كوردستان او الفناء))

وقفت روناك امام النافذة مهمومة مكتئبة (يا ترى لماذا لم يذكر بيستون؟ او انه يذهب ايضا؟ والله ان لم يكن عيبا كنت اسأل الآن توّفه؟ لم يذكرنه ابدا في حين انه كان اطيب من الأبناء واكثر خدمة لهن، لا ضير، لا اعاتبهن، لقد ارتبكن كثيرا..يا الهي ايا كانت هذه الليلة وايا كان الخبر؟؟!

كانت روناك في خضم هذا الجدال مع نفسها والآخر، اضحت فاقدة الروح، حين جاء صوت الباب.

دخل الأبناء الغرفة، وكانت آمه خان تكورت من جهة، وقد شدت ثانية حزامها ذا الجدائل السبع حيث كانت تتحزم به لأزالة سولتها، وقد شدت رأسها، وكانت جالسة باكتئاب، محتضنة كلتا ركبتيها، وكانت نەسرين من جهة اخرى تبكي في السر والخفاء، وقد جحظت عينا روناك بقدر آخر من الخوف، كانت الجميع صامتات شاحبات اللون مرتبكات، وكان توّفه يمص مصة قوية من سيجارته ولم يكن يبقي قليلا من دخانها في صدره، ثم كان يخرجه بهدوء وبمهارة وبتظاهر من كلا منخري انفه، كمدخنة المدفأة!

من خلال هذا المشهد ادرك الأبناء بأن توفه اباح بالمسألة عند النساء، وكشيء افرحهم ذلك، لأنه خلصهم من مهمة شاقة حيث كانوا مهمومين بسببها، وما كانوا يعرفون ايا منهم يفصح لهن بذلك وكيف واي شيء يقول لهن؟!

أخذ علي يضحك كأنه يريد ان يظهر بعدم حدوث اي شيء وهم في وضع طبيعي ومعتاد جدا، توجه الى امه لمس خدها وقال:

((ما هذا يا امي العزيزة، لماذا انت منقبضة هكذا؟ ثم التفت الى آمه خان وقال: هي هي: هكذا يكون آمر المخفر، ما هذا؟ لماذا فعلتن بانفسكن هكذا، فأنتن بالنسبة لكن مسلمات مصليات تؤمنن بالله وبالقضاء والقدر؟ بينما عوضا من قراءة الأدعية الخيرة بالنصر المبين، فبالعكس انهارت معنويات الجميع تماما؟

توجه مرة اخرى نحو والدته وقال:

((الا اين اقوالك وما مآلها؟ اتتذكرين حين كنت تقولين اذا انا لم افعل وانت لم تفعل وهو لا يفعل، اذن لا داعي الى التباهي بالكلام، فلنكن هكذا اذلاء خانعين تجاه كل هذا الظلم والطغيان، وان يصهروا تدريجيا شعبنا وان يدفعوننا الى نسيان لغتنا!! كلام من كان هذا؟!))

وكانت امه مستمرة على مسح عينيها وتبكي بصمت ولم ترد عليه!

تنفس علي وقال: لا داعي لهذا البكاء المتواصل الخافت، ان كنت نادمة على اقوالك، تفضلن اجمعن انفسكن لنعود الى السليمانية، فلم يرغمنا احد على المجيء، جئنا برغبتنا كسائر الناس، ونحن كنا امام الوجدان والمروءة فاتخذنا الموقف بدلا من ان نقف مكتوفي الأيدي مهمومي الأفئدة مكتئبين منتكسي الرؤوس.

هيا ماذا تقلن؟؟ والله نعود انا وحسين مباشرة الى دكانينا وعملنا، ويعود نةورؤز وبه ختيار الى مدرستهما، ولا تريد الحكومة منا اكثر من ذلك بأن نذهب ونقول توبة لا علاقة لنا في حق الكرد والكوردايتي، فنحن معكم؟! يا الله ماذا تقلن؟؟))

اخذت امه تتململ وتتحرك، وقد مدت خالته يدها الى رأسها كأنها تريد ان تعرف شدته بشكل جيد، وسعل توّفه..

قال علي ثانية:

هيا اجبن اتذهبن غدا؟ لنعرف اخيرا انهم يجعلوننا بالخير والسلامة جحوشا ام جواسيس!؟

قال حسين ضاحكا: اظن انني اصلح للجحوشية، لكني لاطاقة لي بأن اطوف في هذه الأزقة وتلك بحثا عن هذا وذلك، ضحك مرة اخرى وقال: قد يصلح هذا الشغل لـ بەختيار ونەورۆز لأنهما خفيفا الحركة!!" هيأت آمه خان نفسها وقالت بعصبية:

(لا بارك الله فيه (كالت شريطا من الشتائم والسباب القبيحة للحكومة والجحوش والجيش والجواسيس) ثم قالت: لكن لا سامح الله اقتل بنفسي كلاهما))

لقد سر علي بهذه الأقوال، والتفت الى امه ضاحكا وقال: حينئذ تصبح حةثسةخان ام الجحش والجحيش)) لقد مسحت امه بهدب وشاحها عينيها وقالت: الله لا يرينا هذا اليوم! الهي فلنمت جميعا بيوم واحد، ولا يصيبنا هكذا!!

قال علي منتصرا بصوت شجاع:

اي ماذا؟ اذا شئنا ان نكون پێشمەرگه ونناضل وندافع عن حقنا وشرفنا وكرامتنا والناس ووطننا، يجب ان نذهب الى المعركة ونقتل ونستشهد، ربما لا يمسنا شيء! يقولون ان الحكومة تمتلك المدافع والطائرات، فاذا كانت تلك الأسلحة واي سلاح آخر كل شيء، فكان من المفترض الا ينتصر كفاح شعب واحد فقط في هذه الدنيا، لأن كافة الحكومات الظالمة المتجبرة التي قاتلها المضطهدون ويقاتلونها، كانت تمتلك اسلحة اكثر واحسن والجيوش المعدة المنتظمة والقوية اكثر من حكومتنا الحالية الظالمة، ومع ذلك الحقت بها الهزائم المتكررة، وقد اسفرت النتائج على امتداد التأريخ عن انتصار الشعوب المطالبة بحقوقها المشروعة. اضافة الى هذا اننا نمتلك الخبرة والدراية بجميع طرقات ومنافذ وثغور بلادنا الجبلية، وانهم كالعميان، ولپێشمەرگه بات وبرهان صحة اقوالي، فاذهبي الى **جبل ازمر** وانظري انه ممتلئة باللوريات العسكرية المحترقة والدبابات المدمرة، والى ان يتخلصوا من منعطف يتصدى لهم پێشمەرگه في منعطف آخر، ثم نرتقي هامة الجبل متحدين ومواجهين اياهم، وندمرهم تدميرا.

نحن نمتلك كل هذه الجبال والوهاد والكهوف والمخابيء والمغاور التي لا يدركونها فحسب، بل يضطربون فيها، اذن لماذا توجسن الخوف الى هذا الحد

من هذا العدو الخسيس، هيا انهضن وبسملن، لكي نلم نحن ايضا انفسنا ونذهب، لاشك انهم ينتظروننا الآن في المقر.))

استرقت روناك السمع طوال الوقت، لعل وعسى يذكرون اسم بيستون، وكان بيستون ايضا اسوة بالآخرين كان ذاهبا الى عند والديه لتهدأتهما، وهما ايضا ضاقت الدنيا في عينيهما، كانت امه تبكي، ولم يكن والده يتكلم من وطأة واثر ابنهما، وقد عرفا ذلك قبل حەپسەخان والأخريات حيث كان احد اقربائهما من الپێشمەرگه ذاهبا الى عندهما بنقل الخبر اليهما، في حين كان بيستون والأبناء في بيت حەپسەخان يضحكون من اقوال تۆفه.

***

(٢٤)

على الرغم من ان الأبناء حين رأوا والديهم على هذه الحالة كانوا يشفقون عليهما، وكانوا مضطرين ان يذهبوا، للإلتحاق برفاقهم في وقت مبكر ودون تأخير، ذهب علي الى حيث والدته فعانقها وقال: ان شاء الله نعود اليكن بعد ايام منتصرين سالمين، وقد اسند رأسه الى صدر امه وقال مبتسما: ((لم يبق وقت طويل، فبمجرد ان يزول هذا البرد والزمهرير سأرسل في طلب كوردو وامها ان يأتيا الى الوطن، حينئذ من فرحة هذا الولد الحلو لا نتذكر احدا! طوقت والدته جيده كالطفل بيدين متخدرتين مرتعشتين وقد اجهشت ببكاء عال وهائج من اعماق قلبها. ثم مع حسين ونەورۆز فعلت نفس التوديع. كما ان اختها ودعتهم اكثر منها هما وحسرة، واخيرا انتزع الأولاد انفسهم من بين ايديهن كشيء ما، ولو ان قلوبهم امتلأت هما وحزنا لأجلهن. ولكن لا مفر لهم كان لابد من الذهاب والإلتحاق برفاقهم المقاتلين بسرعة، لأن الطريق الذي اختاروه هم بأنفسهم وسلكوه لم يكن بمقدور اي قوة او عاطفة تحيدهم عنه او حملهم على تغييره، او تؤثر فيهم، لذلك خرجوا من البيت باسرع ما يمكن، وعانقوا روناك في الباحة والأيوان، وكان حسين من جانبه يريد ان يوجه لها بعض النصائح ان تهتم بوالدته وامه ولكن حين ابصر دموع نەسرين كيف تنهمر على خديها بصمت كالمئزاب، لم يذهب اليها، ولم يكن يدري ماذا تقول!

تبعهم توفه الى الباب دون ان يبالي بعلي حيث كان يقول له ان يعود الى امه والأخريات، ولكن لأن علي كان يعرف بأن توّفه نفسه ليس في وضعية احسن منهن، بأنه يخجل ان يبكي، لذلك لم يطل معه الحديث.

لم يلبث كثيرا وقد ظهر بيستون، وحين ابصر علي والآخرين تقابل ظهورهم اياه، وهم متوجهون نحو المقر، اخر نفسه قليلا لكي يروه، وبحجة السؤال عن احوالهم يزور حەپسەخان والأخريات، فيستودعهن، ويمتع عينيه برؤية روناك

العزيزة! اقحم بيستون البيت، وسأل بحرارة عن احوال علي والآخرين، وحين ابصرهن انهن في حالة من الهم والحزن والألم، بدأ بأدخال السلوى والطمأنينة في نفوسهن. وتحدث عن شجاعة امه كيف انها ربتت على ظهره وودعته بفرح وقال: كما ان اهل الپێشمەرگه في هذه المنطقة مثل امه يودعون ابناءهم واقاربهم حين يتوجهون الى الجبهة، لذلك لا يليق لـ(كاكة علي) والأبناء ان يظهرن انتن الهم والحزن، بالنسبة للبنات لا ضير فيه، لكن حەپسەخان لا يليق بك هذا، لأن كاكه علي تحدث لي كثيرا عن شجاعتكن وجرأتكن، وكلما تذكر شجاعة نساء المدينة يستشهد الپێشمەرگه بكن كنموذج، لا يصح ان تكن هكذا، ابتهلن الى الله وحده ان شاء الله لا يمر وقت طويل سنعود اليكن شامخي الرؤوس وسنرسل لكن الأخبار سريعا سريعا. لا تقلقن علينا))

ادخلت اقوال بيستون بعض الأمل والصبر والسكينة في قلوبهن، حين رأين انه ايضا يتوجه الى الجبهة، وهو عند والديه مدلل ومحبوب، فروحهما معلقتان بشعرة في رأسه. ورونـاك التي كانت جالسة القرفصاء من جهة كانت تنظر الى بيستون في خفاء، يعصر قلبها له ايضا.

استودعهن بيستون، وهن ودعهنه بحرارة، لقد ظلت آمه خان في الباحة، فكانت تقرأ آية الكرسي وتبتهل من الله، وكانت احيانا تصل الى نصف الآية وتنساها وتعود اليها مجددا، عاد توّفه الى البيت، وحين رأى آمه خان ما تزال في الباحة وهي في ذهاب واياب وفي هذا البرد قال لها بعصبية: او لا زلت هنا عند لا حول ولا..!

يا امرأة، يا امي على الأقل تعالي الى الأيوان فالله حاضر في كل مكان، انه يعلم بك ودعاءك في داخل الغرفة!!))

غضبت آمه خان وقال: تخاف من ان ابرد بهذه الوقفة القصيرة؟ ماتت امهاتهن فكيف بهؤلاء الأحبة يغذون السير الآن وفي هذا البرد الشديد نحو المعركة وتحت رحمة وابل الرصاص!! فيشاء الله ان يشتد البرد واتجمد واتحول الى حجر))

ضرب توفه يدا بيد وقال: لا جدوى منه معها، فليجعل الله النتيجة خيرا، فتركها ودخل الغرفة وقال بلهفة وحسرة: استنجدن هذه الإمرأة، فهي تتجمد

الآن وتموت، وهي واقفة في الباحة تدور بشكل مستمر حول نفسها، الحقن بها فهي لاتسمع كلامي!"

اسرعت نه سرين ورونـاك ومسكتا ذراع آمه خان وادخلتاها الغرفة."

لقد تأخر الليل، وكانت الساعة تقارب الثانية عشرة، وهن في غمرة التكلم، وكل واحدة منهن تذكر موضوع الأبناء لقد هاج توفه وماج وقال لهن: او انتن لا ترغبن النوم هذه الليلة، وقد هجمت كل واحدة منهن من جهة وقالت: اي نوم، من يستسلم له، فاذا كنت ناعسا فلماذا لا تذهب وتنام؟"

هز توفه احدى منكبيه وقال: والله انا اقصدكن والا فانا قادر على النوم. طيب فلنحضر شايا" قالت حەپسەخان خان بملال: اما الشاي فلا بأس، اخرج توفه جمرات من المدفأة، وذهبت نه سرين حالا للجلوس امام السماور، فانشغلت بأبريق الشاي والأقداح، مسكت آمه خان رأسها، ما كان من الضروري ((ان يذهبوا في هذه الليلة)) فهم غدا يغذون السير، لماذا ذهبوا من الآن؟ قال نەورۆز: انهم ينامون الليلة في المقر" عض توفه شفتيه، وقد علم ان نەورۆز قال ذلك من اجل والدته، والا فانهم يتحركون نحو الجبهة الليلة، وكانوا في اثناء تلك الأقوال حين دق الباب، ذهب توفه وفتحه، دخل به ختيار الغرفة وقال: انهم غادروا"

لقد وضع توفه يده على فمه وقال له: خاطر الله لا تقل هذا عندهن، فقل سيذهبون صباح غد في وقت مبكر، وينامون الليلة في المقر، والا حتى الصبح يرددن لنا (حيّ الله) ويقتلن انفسهن!!

القى بەختيار عليهن التحية وجلس وحمّى نفسه وشرب شايا، ثم تثاءب وقال: انهضوا لكي ننام فالليل متأخر جدا، وهم في المقر ناموا ساكنين دون حراك، لذلك انا عدت وقلت فليركنوا الى النوم."

وهن قلن ايضا لننهض نحن وننام، ذهبن الى حيث الفراش بملال وسآمة وحزن، لقد ارادت نه سرين ان تتظاهر بأنها اعلى ارادة ومعنوية، لذلك قبل ان تذهب الى فراشها، لملمت بسرعة الأشياء، وغسلت الإبريق والأقداح، لكي تتمكن من خلال مشغوليتها ان تخمد نار همومها، ولكن بدا انها لم تنجح، لأنها

حتى وان جاءت لتنام، فكانت تواصل البكاء في الخفاء وبهدوء، وكان خيالها منصبا على حسين والآخرين.

لم تكن حالة روناك افضل منها، وقد تخيلت انها قد تقدمت اخوانها ودخلت المعركة.وحين تقلبت على جنبيها قالت في نفسها: ياترى لاسمح الله ولتصم آذان الشيطان، ان يصيب كاكه علي والآخرون في هذه المعركة، لن نراهم بعد، لقد جفلت وفزعت فجأة كأنها كفرت وقالت: فليقتلني الله لما فكرت فيه، وا أسفاه، لا سامح الله، فداي روحي لهم يا ربي، فلتصبني بأي مصيبة تصيبهم، لاجدوى فيه، لا اغفو، فلأفكر في شيء آخر. كيف تكون حالة والدي الآن، يبدو انه يفكر فينا كثيرا. فكيف ابتعدت عنه طيلة هذه المدة؟ حقا ان هذه الدنيا غريبة عجيبة، من كان يخطر بباله ان ابتعد عنه لا سبعة ثمانية اشهر بل ثمانية ايام ايضا؟ فحين كان يعود الى البيت مساء، وكنت افتح له الباب، كنت اعانقه، كأني لم اره منذ سبع سنوات! آه يا ابي لو يعرف الآن بأن كاكه علي وكاكه حسين وكاكه نەورۆز سيذهبون غدا الى قلب المعركة ياترى ماذا كان يفعل؟! لكن الشكر لله لا يعرف؟ وكان خيال روناك سرعان ما يعود الى عند الذين يذهبون الى القتال حيث كان بيستون ايضا معهم، وكان المشهد يمر بباله كشريط سينمائي: ها هو بيستون لقد اصيبت ذراعه بطلقة، لقد تمالك نفسه قليلا وسقط، ها هو حسين ايضا يتقدم الپێشمەرگه لقد انهالوا على العسكر برشقات بنادقهم، وجعلوهم كريشة في مهب الريح، وها ان طائرة حلقت فوق رؤوسهم، وها بدأت بتوجيه طلقات الرشاش نحوهم، فالله يحميهم ويكون في عونهم، آه لقد مس شيء كاكه علي. لقد انتفضت روناك كمجنونة ونهضت وجلست، فمست وجهها، كأنها ارادت ان تعرف اهي نائمة ام يقظة وقالت في نفسها: آه يا ربي الكريم ماذا كان هذا؟"

ولم تكن امها بعد نائمة تماما، وما ان تغفو حتى وان كانت تنتفض، وفي تيقظها ابصرت روناك، وهي جالسة وتتكلم مع نفسها، لقد عانقتها حالا وبسملت قائلة:

آه ماتت امك ماذا بك؟؟" فبسبب ضوء المصباح الذي خفت، بدت روناك في نظرها شاحبة وذابلة الوجه كثيرا، ولكن تعرف هل ان لونها تغير هكذا ام بسبب

الضوء الخافت يبدو هكذا، مدت روناك رأسها ورقبتها ووجهها مرة اخرى وقالت: لاشيء اظن انني حلمت لذلك فزعت هكذا.

لقد عصرتها امها وضمتها الى صدرها وقالت: لا يا حبيبتي لا تحزني ولا تخافي لأجل كاكه علي والآخرين، فالله في عونهم ان شاء الله سيعود الجميع بعد يومين ثلاثةايام سالمين، فانك قد نمت بهذا الهم لذلك حلمت، نامي يا عزيزتي لئلا يطير النوم من عينيك، ويؤرقك تذكرهم."

لم ترد روناك لخاطر امها ان تقول اي نوم يا امي، ان كله كان تذكرا جعلني على هذه الحالة، لم تغمض عيناي لحد الآن لذلك قالت: طيب يا امي العزيزة فها انام ثانية، وانت يا امي لقد خفتا المصباح وهدأتا.

وفي الصباح حيث لم تصبح الساعة السادسة بعد، ارسلت حەپسەخان والأخريات توفه لتعقب خبر القوة اهي تحركت وذهبت ام لا؟ ولو ان توفه كان يعلم علم اليقين بأنهم ذهبوا في الليل دون شك، لكنه لم يكسر خواطرهم فسار في الدرب بصمت، فكان يصادف اي شخص في الطريق كان حديثهم يدور حول ذلك الموضوع، كان البعض يذهبون الى المقر، وكان البعض الآخرون يسأل احدهم الآخر، فكلهم كانوا في هم وقلق لأجل ابنائهم وأقاربهم وأصدقائهم ومعارفهم.

بعد قليل من التجول عاد توفه الى البيت، وقد اختلق لهم بوجه بشوش اثنين ثلاثية من الكلام الباطل وقال: من الآن فصاعدا تستمر برقياتهم واخبارهم وسنكون على علم بكل شيء. لقد دخل شيء من السرور في قلوبهن بما قال لهن توفه، وقد اضطررن التعود على تلك الحالة.

وقف في منتصف النهار صاحب دواب ببغلين امام بيت حەپسەخان، فنزلت منهما صبرية وصبية ذات اربع خمس عشرة سنة، ودخلتا البيت، لقد فرحت كلهن بمجيء صبرية، وما ان رأين الوجه البشوش لصبرية، خطر ببالهن حالا بأنها على علم بالمعركة، ولم يرسل شيروان للجبهة، وهي قادمة لمجرد الزيارة، لذلك سألتها آمه خان بحزن: يا ترى اين شيروان؟ قالت صبرية بهدوء: ارسلوه للجبهة وهو ارسلنا الى هنا الى ان يعود، اولم يذهب كاكه علي والآخرون؟

لقد ردت عليها امها وخالتها بالدموع.

نەسرين التي كانت تحسد صمود صبرية في قلبها، كلما تمكنت ان تفعل اخفت همومها واحزانها وقالت: لقد استدعوهم ليلا وفي الليل ذاته ارسلوا، مسحت ام صبرية دموعها وقالت: حسنا فعلت، فكان قلبي عندكن، كدت ان ارسل بعد قليل اليكن توفه او به ختيار، فقلت: ياترى هل ان شيروان ايضا كان ذاهبا؟"

قالت صبرية بوجه بشوش: طيب مالكن من هذا البكاء والمناحة؟ فلم يرسلهم احد عنوة، لقد جاؤوا الى هذه الجبال برغباتهم، ولم يأتوا للنزهة والإنتجاع؟ ثم اذا ذهب رفاقهم والإعزاء، فلماذا لا يذهبون هم؟

كما قال الأسلاف: (**ان رأسا يكون بين الرؤوس يصلح للذبح**) بسملن وصلين على النبي وادعن لهم بالنصر، وانتن بدلا من مواساتهم وتسكين قلوبهم، تثبطن من هممهم وعزائمهم!

حين انهت صبرية من تلك الأقوال احتارت من ان واحدة منهن لم ترد لا بالسلب ولا بالإيجاب، لاشك ان هذا الصمت كان له اسباب مختلفة، فيما يتعلق بأمها لم تكن في وضعية ان تفتح لسان ثرثرة صبرية، كما ان آمه خان كأنها لم تكن هناك، كانت منشغلة بالإبتهال وقراءة (**آية الكرسي**) والأخريات، كانت اقوالها حظيت برغبة البعض اما اللاتي لم يرغبن فيما قالت، لا تجرأن على التعبير عن احتجاجهن ولكن يجدن الوقت مناسبا لذلك، فإزاء ذلك الصمت الغريب اللامتوقع من قبل امها والأخريات افترضت صبرية الا تستطرد في كلامها لكي لا تثيرهن ولاتستفزهن بأن تظهر نفسها كمعلمة ومرشدة لهن. وكان الأفضل في نظرها ان تترك لهن المسألة، لذلك ولكي تغير الموضوع بدأت بالسؤال عن احوال والدتها وعمها ومثل تلك الموضوعات.

***

(٢٥)

حل اليوم الثاني فكن في انتظار شديد، لعل وعسى يأتي شخص حاملا لهن خبر احوال ابنائهن وجريان المعركة، لكن لم يظهر احد.

وان اللاخبر هذا قد اقلق واربك حالة توفه تماما، لأن جميع اهل البيت ما عدا صبرية، كل واحدة كانت تهجم عليه من جهة، هذه كانت تسأل اين البرقية يا توفه بك، اولست القائل بأنهم سيرسلون بالبرقيات اخبار القتال تدريجيا، واخرى كانت تقول: الا يا سيد لم يبد مراسلوك فأين هم الآن؟ وهو لكثرة تلفيقاته واكاذيبه عزاء وتسكينا لقلوبهن لم يبق في جعبته ما عدا الصمت، ولكن حين رأى ان صمته يهيجهن اكثر التفت الى به ختيار حيث انه ايضا شاركه الى حد ما في اكاذيبه، فكانت طعناتهن تشمله احيانا قال له: الا تأتي معي لنذهب الى المقر عسى ان نأتي لهن بخبر مفرح)).حين وصلا الى امام الباب قال توفه: عجيب امر هذا البيت، يتصورون بأننا قادة الجيش، او ان كل ئيَشمةرطة يحمل تلفونا او عنده لاسلكي اسوة بمعظم العسكريين الأنذال، وهن لا يعرفن حتى ان بعض المراكز كما يقولون لا تمتلك اللاسلكي، كما ان المراسلين المساكين يلحقون هكذا، والله فان المرء يحتار من شجاعة وجرأة هؤلاء، فيقتحمون نيران جبهات القتال ليلا ونهارا بلا هوادة. وانهم دائما يحملون رسائل عشر مرات من القتل، في حين انهم في ذهاب واياب كطير سريع الحركة ودون خوف ووجل، فبالرغم من ذلك لا تصل الأخبار بسرعة الى جميع المراكز، وهانماتنا يردن ان ينشغل الپێشمەرگه واجهزة اللاسلكي والمراسلون فقط بارسال اخبار ابنائهن لهن!!"

في اليوم الرابع، وبعد شرب الشاي، جاءت ام بيستون لأول مرة لزيارتهن، بالرغم من ان ابنها بيستون قد اوصاها بزيارتهن سريعا سريعا لإدخال السلوى

في قلوبهن وان تبالي كثيرا برونـاك، ولكن بما انها كانت خائرة القوى مثلهن، ومهما كانت تحاول لم يكن لها حول ولا طاقة ان تذهب اليهن، وكيف تتمكن، ان تستل من قلبها الحزين الكلام المعسول لكي تدخل السلوى والطمأنينة في قلوبهن.

لقد تذكرت ذلك الصباح اقوال بيستون، فانتفضت كمجنونة من جراء توجه ابنها، وحملتها نار الكبد ان تذهب وتراهن، وخاصة روناك حيث انها تدرك درجة حب بيستون لها، ولذكراه ولتقبيل روناك، ولكي لا تلوكها الألسنة، قبلت الجميع عدة مرات بشكل متسلسل، وجلست عندهن نصف ساعة، وكان الموضوع، موضوع تلك الليلة التي جرى فيها استدعاء الأبناء، وكانوا في اية حالة؟

وكان توفه حينذاك جالسا في المقر الى جانب بهختيار بأمل ان يعرف خبرا عن الأبناء يسر به قلب حه بسه خان والأخريات فضرب يدا بيد خائبا وقال لبه ختيار بهدوء:

اشهد ان لا اله الا الله، لا ادري اذا اذهب الآن بأي كذبة اخبرهن، والله لقد نفد كذبي، فاذهب وقل لهن شيئا؟

قال بهختيار:

والله كاكه توفه من الأفضل ان تذهب انت، فيستهزئون باقوالي لكثرة ما قلت لهن انتظرن سيأتي الخبر مساء، انتظرن ستأتي البرقية غدا، الله يعمر بيتهن لقد خارت قواهن تماما ورأس ابي، لقد سقط البيت في عيني لدرجة لا ارغب العودة الى البيت قطعا، كن على ثقة كنت احبذ ان اذهب معهم عوضا من ان افرحهن بكل تلك الأكاذيب..وقال ضاحكا: اذهب انت يا حبيبي انهن على الأقل يوجسن الخوف من لسانك، هيا اذهب يا حياتي انهن الآن في انتظارك!"

تأفف توفه وأخذ سمته، فسار خطوات، ولم يكن واصلا بعد الى اثنين ثلاثة من الدكاكين الواقعة بين بيتهم والمقر، فرأى رجلا يركض نحو المقر افتحوا الراديو لقد سقطت الحكومة!)) عليه كان كل شخص يركض نحو المقر، او المقهى الذي كان فيه الراديو، نادى توفه على الرجل لكي يعرف ماذا حدث، لكن الرجل لم يكن منتبها لأحد وكان مستمرا على صراخه ((يا ناس افتحوا

اذاعة بغداد! انه حشر حشر، انقلاب انقلاب!!!)) دخل المقر بهذه الصرخات والصياح.

وقف توفه قليلا، لكن لم يسمع اكثر من صخب الضحك سلمت يداك عاش الكورد وكوردستان. لذلك عاد الى البيت بسرعة لقد زعق من على عتبة الباب: بشراكن بشراكن حضرن الهدية، لقد حدث الإنقلاب في بغداد، انه حشر حشر، لقد دب الصراخ والجلبة بين النساء، فاوشكت آمه خان ان يغمى عليها، التفت جميعهن حول توفه، فكل واحدة منهن تسأله سؤالا، واخرى تسحبه سحبا، وقد التمن عليه لدرجة قد اوقعن طاقية رأسه وجامانته وديستا تحت اقدامهن، وحين انهين من توفه اخذت البنات يتعانقهن ويتبادلن القبلات، لقد قبلت ام بيستون كم قمصلة توفه، وصبرية التي سرعان ما كانت فاتحة الراديو جحظت عيناها ولم تكن تثق بأذنيها، تارة كانت تضعها على الموجة العربية واخرى على الموجة الكردية، وكانت البيانات تقرأ تباعا وقد تجمع الكل حول الراديو تدريجيا، قالت آمه خان ضاحكة: ليتني كنت اعرف ان اهلهل!

ان اخته مسحت بهدب وشاحها العرق وقالت: ((والأولاد يا الهي كيف نعرف خبرا عنهم))

تباهى توفه وقال: الله يعمر بيتك اثمة خبر اكثر فرحا من هذا، سنلتقي معا في اقرب فرصة بالسعادة والسلامة والشكر لله. ثم ضرب صدره بكلتا يديه وقال: او تتذكرين ماذا قلت لك؟الم اقل ان هذا الوضع لا يستمر هكذا حتى النهاية؟ الم اقل ما لم تعط هذه الحكومات حقوق الكورد وتشن عليهم الحرب، فانها تنهار ويبقى الكورد دائما؟؟ فليكن هذا جزاؤهم، تبا لهم يتصورون ان بأمكانهم القضاء على الكورد، ولا يعرفون انه من الأفضل لهم ان يمنحوا حقوق الكورد ويبقوا على دست الحكم، فكنت اقول دائما هكذا!))

كادت صبرية ونه سرين ان تقهقا بالضحك، فتبادلتا النظرات وكمتا فميهما بقوة، وقالت حەپسەخان في نفسها: بدأ مرة أخرى بطرح نفسه اكثر من حجمه الحقيقي، حرام يا ابنتي ان كنت قد سمعت منه مثل هذا الكلام ولو في المنام، انظري، ياتُرى من قال كلاما من هذا القبيل فهو نسبه الى نفسه، ولكن من فرط

فرحة الخبر قالت لتوفه: يا رجل لا تتحدث فقط عن نفسك واقوالك، فمن الحق ادخال كلها في الصحيفة! ان اقوالك كلها نقش على الحجر!))

وكانت صبرية كمتعلمة واعية تستمع الى الراديو، وكانت تواصل محاولاتها لأسكاتهن، لكنهن على عجلة من معرفة ما حدث، وكانت هي تقول انه انقلاب...انقلاب...لكن ما شأننا بالإنقلاب؟ انه تقاتل الكلاب فيما بينهم على الحكم، فكيف يتبين ان الذين يتولون زمام الحكم سيكونون احسن من الحكام الحاليين بالنسبة للشعب الكوردي؟

ان جميعهم تجاه الكورد جحش مطية واحدة، حاشاكن، فانهم يتملقون لنا الى ان يعززوا موقعهم، وبعده ينقضون علينا كالكلب المسعور، ولذلك حتى اذا اعترفوا الآن بحقوقنا انا لا أعتمد عليهم، لأنني اعرف، يقولون لنا "كاكه" حتى نحسن اليهم ونخدمهم))

وفي هذا الوقت كان به ختيار ايضا واصلا اليهم، وعندما سمع اقوال صبرية قال بضحك وشوق:

((بالله عليك لا تصرخي لنا الآن، فليتضاربوا ويتشابكوا، فيما بينهم، هيهات هيهات، فهم حاليا ليس لهم متسع من الوقت ان يهجموا على الكورد، والى ذلك الوقت ، الله كريم!))

استهوى قلب حه بسه خان هذه الأقوال كثيرا لذلك قالت:

(فليعمر بيت الله يا ربي! ماذا تقولين يا بنتي، فعلى اقل تقدير ستوقف الحرب موقتا)) والپێشمەرگە وهؤلاء الناس يركنون الى الراحة ويرتاحون، وفيما يتعلق بنا يكفينا هذا، فلم يكن بأيدينا حتى نضع له التخطيط والتآمر، ان شاء الله سيحدث كل شهر انقلاب في بغداد!!

ثم عصرت يديها والتفتت الى ام بيستون وقالت: كان هذا من قدومك الخير ، والشكر لله ان سمعنا هذا الخبر المفرح، بالله عليك، ورأس بيستون ان لم تزورينا سريعا سريعا))

اخرج توفه سيجارة من علبته وجلس بشكل مرتب وامال احدى كتفيه قليلا مع رقبته، وتلمس سيجارته، واخذ ينظر اليها برغبة وسرور كأنها (صميم قلبه) ينظر اليها، يبدو ان قلبه لم يطاوعه ان يضعها بين شفتيه ويشعلها، ومهما يكن

لم يكن يعرف لماذا حولها الى احدى شدقيه واعادها الى علبتها، فسعل سعالا خفيفا ونظف حنجرته (ان الجميع عرفوا ان توفه ينوي ان يعظ) فهنا علقت نه سرين وقالت: ماذا حدث اظن ان قلبك لم يطاوعك ان تشعل سيجارة! مازالت العلبة في يد توفه حين قال: بقيت لي سجاير قليلة، فقلت لا داعي للعجلة منها!))

ضحكت آمه خان وقالت: الشكر لله لم يبق في قلبك هم، اذن يكفي ادخال هذا الدخان القذر في صدرك، قال توفه بابتسامة حلوة: آمر المخفر انت لاتدخنيها!

اسكتن الآن لنعرف ماذا يقول الراديو ((وكان الراديو منشغلا فقط ببث برقيات الفرق وقادة الجيش التي وردتهم لدعم واسناد الحركة والحكومة الجديدة ضد الحكم السابق، قال توفه: هذه المرة وحدها لم يهنئوا ولم يهللوا؟ ياترى في كم مكان مناحة، وكم انسان قتل؟!

حەپسەخان: ربنا ابعده عنا! لقد اضحى قتل الناس كشرب الماء ولعبة الأطفال، كل هؤلاء الناس الطيبين، كل هؤلاء الشباب، تمت امهاتهم، فالله وحده يعلم، بأي جهد وكدح وشقاء قد تربوا، واي فقر وفاقة ومأساة قد رأوها، وقد اصبحوا ارباب بيوتهم واحوالهم، بينما يقولون اندلعت فجأة الحرب او الإنقلاب وقتل فيها عدد كذا من الناس، فلتشتعل النار في المسببين الذين يذبحون الناس الطيبين الأبرياء كالنعاج، بالله عليكم هل الطمع والمكسب والأنانية يستحق كل تلك الممارسات من القتل والإبادة؟ قال توفه: ماذا اتحزنين لهم؟ فلتأكل حنطتهم شعيرهم!!"

(٢٦)

مرت اربعة ايام على حدوث الإنقلاب، بدأت حەپسەخان واختها بتوجيه السؤال الى توفه لماذا لم يبد الپێشمەرگه متى يعودون؟ لماذا لا تذهب لتعرف خبرا عنهم؟ وهو بملال وسآمة ودمدمة اخذ سمته نحو المنحدر المفضي الى المقر، ولم يلبث كثيرا ان عاد بسرعة الى البيت وقد رفع كلتا يديه من بعيد الى السماء وقال: اوه يا ربي عمر بيتك، كما انقذتني من هاتين الأختين، سألت آمه خان: من الإيوان بلهفة:

– "ماذا حياتي توفه؟ اي اخت؟ من جاءت" وحين اقترب منها توفه قال: اقصد انت واختك؟ ينجيكما الله فله الشكر والحمد لقد توقفت الحرب والقوة من الپێشمەرگه في طريقهم الينا، انهم يعودون، عليه كفى مسك تلابيبنا! واه ماذا فعلت بي وبه ختيار المسكين خلال تلك الأيام.."

لقد اثارت آمه خان من فرحتها ضجة وبشرت اختها والأخريات، وقد انتعشن جميعا وعدن الى الحالة الطبيعية وكل واحدة منهن شنت هجوما لأداء شغل ما واعادة ترتيب البيت، وحضرن الأكل وجلسن وحملقن في الباب واسترقن السمع لصوت ما..

وصلت قوة پێشمەرگه الموقع عند المساء، وقد جاء حسين ونەورۆز الى البيت قبل جميعهم، وهن ذهبن لإستقبالهما بالصلوات والإحتضان.

كما ان حەپسەخان امالت عنقها عدة مرات الى باب الباحة وسألت مرارا، يا ترى اين علي لماذا لم يبد هو، وكان الأبناء يأتون بأقوال اخرى، ولم يكونوا يردون عليها جوابا صحيحا لكي يطمئن قلبها، ولم تكن ترغب لخاطر حسين ونەورۆز، ان تربك نفسها، وتلح عليهما كثيرا، خاصة حين رأت انهما على قدر كبير من التعب ووعثاء السفر، وان ملابسهم كانت كلها مبللة وملطخة بالطين،

ولم يجففوا انفسهم جيدا بعد، لذلك توقفت الى ان عادا الى وضعهما الطبيعي، ثم سألت بلهفة واشتياق:

– يا ترى لماذا لم يأت علي؟ واين شيروان؟ بدأ حسين بالصراخ والمزاح وقال: ان كاكه علي وشيروان من فصيل آخر. لماذا او تتصورين يا امي نحن فقط هذا العدد من الأشخاص الله يخليك. ما شاء الله ان الپيشمەرگه لا يعدون ولا يحصون؟؟ ربما يصلون بعد هنيهة الى المقر، يحتمل انهم وصلوا الآن. نهض واقفا على قدميه وقال: الله يعلم الآن من فرحة هذا الإنقلاب وايقاف الحرب اي حفلة اقاموها، في تلك المناطق بدأ الثيَشمةرطة بالرقص والدبكة والإحتفال واطلقوا بعض الإطلاقات نحو السماء، ولكن من حسن الحظ اوقفهم آمر الفصيل وقال لهم يا اخوان لماذا تطلقون هذه الطلقات الجميلة في الهواء؟ او لا تعرفون انها ملك الثورة، يجب ان تستخدم فقط لقتل اعداء الكورد وكردستان، وانتصار الثورة وتحقيق حقوقها المشروعة."

بعد هنيهة من الصمت وعدم وجود اي خبر عن علي قالت حەپسەخان: طيب ماذا حل بتوفه؟ لماذا لم يرجع معكم؟؟

قال: نەورۆز: خالتي العزيزة او انت لا تعرفين كاكه توفه؟ انه لا يطمئن قلبه اذا لم يصل كاكه علي الى الموقع، حسين الذي كان واقفا عند الشباك كان ينظر الى باب الباحة، التفت الى امه و قال:

ثم يا امي العزيزة: فهو متى يهتم بعودتنا؟ فعنده كاكه علي وحده هو الحساب؟ ثم وهو كان يعيد شد جامانته قال لنەورۆز انهض لنعود الى المقر لنعرف اخبارهم"

لقد مرت ساعتان على مغادرتهما البيت، وكلما كان الوقت يمضي كانت همومهن تزداد ويفقدن الصبر عند الجزع، وقد ارتبكن الى حد كبير ومع ان الدنيا قد اظلمت، لم تتذكر واحدة منهن ان تشعل المصباح، وكن في هذه الحالة حين دق الباب وقد لاح ضوء المصباح اليدوي، وحدث الصراخ والصياح واكثر من الكل كان صوت توفه القائل: على مهلك فداك روحي لاشيء، لا شيء،يا الله، يا الله، ها يا حسين در بالك على كتفه! لقد انتفضت النساء والبنات بقلوب

خافقة، وقد ركضت كل واحدة منها الى جهة بسرعة نحو باب الباحة. صرخت حەپسەخان وقالت:

وا ويلاه يا لنكبتي ومصيبتي، ما هذا وماذا حدث؟؟ من هذا؟؟"

حين رأت انه علي ومجروح، انهالت على رأسها ووجهها لطما واجهشت بالبكاء والنحيب، وقال علي بابتسامة مؤلمة وبصوت ضعيف متقطع:

((امي العزيزة والله ليس فيّ شيء ما، انه مجرد رجلي واصيبت ذراعي بطلقة، قطعت اللحم فقط، ليس فيها اي خوف، الا يكفي انني عدت اليك سالما، ولو كنت مقتولا فماذا كنت تقولين؟ يحق لك الآن ان تفرحي.

لقد اوصلوا علي الى الغرفة بهدوء ومددوه على فراش، كما ان امه لأجل خاطره وانذهالها انقطع نطقها، وراحت نحوه بصمت فتقرفصت بجانب فراشه.

حين رأى حسين امه في هذه الحالة لام نفسه بأنه اثناء عودته لماذا لم يعد امه اعدادا نفسيا لإنتظار وتوقع الشيء الذي وقع لكاكه علي، حينئذ لا ريب فيه، ان اعادة كاكه علي مجروحا لم تكن تشكل سهما مفاجئا يصيب كبدها! ولكن لا مناص منه حيث كان يخاف ان تقتل امه نفسها، ومع هذا ان لم يكن يفصح عنه كان من المفترض ان يبحث عن نةورؤز، ليتحدث لها موضوع پێشمەرگه الشهداء والجرحى، لعل هذا تخفف عنها وطأة المصيبة عليها، خاصة هو كان على علم بأن كاكه علي وثلاث اربعة من الپێشمەرگه المجروحين قد ارسلوا الى مستشفاهم الفقير لإخراج الطلقات من اجسامهم وتداوي وتضميد جروحهم، مهما يكن كان لابد ان يخبر احدهم احدى النساء بشيء عن انجراح كاك علي، لكي يساعدهن في تقليلا لتأثير المفاجيء من اعادته مجروحا، اجل كان ذلك مناسبا لصبرية، كونها جريئة جدا ومثقفة، وكانت حقا تفيدهن، يالله مهما يكن فأنه الآن فات وانفلت من الأيدي. كان حسين يحلل تلك الأشياء، وكانت امه تتمعن في علي، وكلما كانت تحاول السيطرة على نفسها، لكنها لم تكن تثق بعينيها بأن الشخص الذي تراه هو ابنها علي، هذا الإبن الذي كان قبل اسبوع يهدر ويدوي، وكانت لأقواله ونكاته وضحكاته صدى في البيت والخارج والمقر. وكان يتحرك بينهن وبين رفاقه بحماس واندفاع ووجه بشوش منطلق،

حيث كان متحمسا ومهيجا الجميع، والآن ضعيف، عاجز، شاحب الوجه، يابس الفم والشفتين، بملابس دامية، شبه ميت، راقد امامها!!

حين كانت امه ترى هذا، كانت تشعر كعدو فاقد الضمير ومتوحش قد وضع قلبها بين حجرين يعصره بكل ما يمتلك من قوة لكي يوقفه عن النبضات، كانت تحس بأن جمجمة رأسها قد اصبحت فارغة خالية من المخ، كانت تود ان تلوذ بالفرار الى مكان مجهول، كانت ترغب ان يتركوها تصرخ وتبكي كالطفل!

وحين كانت تدير عينيها في الغرفة، كانت تحسد اشجارها واحجارها بذلك الستار من القماش القطني المتهريء للنافذة، كانت تحبذ ان تكون احد الأشياء الجامدة، لكي لم تكن تشعر بحالها وحال ابنها!

حين فتح علي عينيه ورأى امه على هذه الحالة، اشفق عليها، فلكي يخفف عنها الخوف والهموم تمكن بكل ما يمتلك من قوة وارادة ان يلقي على شفتيه ابتسامة باهتة ومسك بيده السليمة يد والدته وقبلها والصقها بصدره وقال: اذا كان حالكن هكذا تجاه جرحي الذي لا خوف عليه، كيف يكون يا ترى حال آباء وامهات واهل الذين استشهد ابناؤهم؟ هل انه خرقة يخرقونها من بيوتهم. تطلّع علي بهدوء الى المجموعة التي حوله، فرأى توفه انه مسح عينيه وركض الى الإيوان، وكلما استطاع علي رفع صوته قائلا: حبيبي كاكه توفه لا يجوز ان تكون ضجرا، لأن الملال لا يليق بك! فهل قلنا (كوردستان او الفناء) كذبا؟؟ فها انا باق وعدت اليكم، عليه في سبيل الله لا تحزنوا.

كاد ان يستطرد في كلامه، لكن توسل اليه رفاقه واخوه حسين بأن لا يتكلم، فمن الأفضل له ان يرتاح، قالوا هذا وأخيرا تفرق الجميع ماعدا امه وخالته، وكان قوله يرن في اذنها بشكل متواصل (لو كنت مقتولا فماذا كنت تفعلين؟)) مرت بجسمها رعشة، مدت يدا مرتجفة بسرعة الى رأسها وكانت تمد وتمرر اصابعها المتخدرة في رأسها بكثير من الهدوء وخفة، وكانت تقول في سر وخفاء كهذيان مريضة تردت صحتها وبخوف: لا خاطر الله! رب عمر بيتك يا الله، الم يكف... آه واويلاه، ما هذا الكلام الذي قاله؟!

كانت هي على هذه الحالة حين عرفت ان حسين مع طبيب الپێشمەرگه دخلا الغرفة، وهي حاولت ان تنهض لكنها لم تقدر، وضع الطبيب يده على كتفها

وقال لها: لا يا عمتي لا تتعبي نفسك فلا تتحركي. فأنا مستعجل فالقي مجرد نظرة، على جرح كاكه علي واذهب. تقدم من علي ونظر الى جروحه، والتفت بابتسامة منتصرة الى حەپسەخان وقال: الشكر لله لم تبق الخطورة، كنت خائفا من دمه، وهو متوقف، والآن جئت فقط ليطمئن قلبي، والآن بامكانكن تبديل ملابسه بهدوء، ولكن ان تقدروا البسوه الملابس الناعمة الملساء والواسعة، ثم اخذ الطبيب يمزح لكي يزيل عنهم الهموم والإنقباض، لذلك القى نظرة على علي وقال: طيب استلق على ظهرك بحجة اكل الطعام الشهي، الله يعلم ماذا تؤكلك حەپسەخان ونحن فقط الخبز والشاي والفالودج!! ثم قال علي بابتسامة باهتة ولكن جذلة:

– فكيف يا كاكه دكتور دونك امد فمي الى الأكل الطيب! ثم التفت الدكتور الى حەپسەخان ضاحكا وقال:

–اوسمعت عمتي العزيزة ماذا قال علي، فمن الآن وصاعدا طبخت له اي شيء طيب ارسلي أحد بأن علي منهوك القوى، تعال لتعرف ماذا به!! بدأ مع حسين بالضحك، وقد مسحت حەپسەخان عينيها وبابتسامة كانت تشبه الميت وضعت كلتا يديها على عينيها وقالت بصوت مختنق:

– وي بكلتا بؤبؤة عيني، وانت والطعام الشهي على الرحب والسعة؟!

***

بمجيء الدكتور واقواله زال الخوف السابق في البيت تجاه علي والى حد ما عادوا الى رشدهم، وكانت صبرية التي تظهر نفسها احسن منهن، وفي الحقيقة كانت احسن فتدخل السلوى في نفوسهن، وتخفف عنهن البلاء، وبعد ذهاب الدكتور اصبحت قلقة على شيروان، وكانت تقول مع نفسها، طيب عاد حسين ونةورؤز سالمين بفضل الله وكاكه علي مجروحا، ياترى لماذا لم يبد هو؟؟ مرت بخاطرها فكرة، كاد ان يتوقف قلبها وقالت: لا، وي فلتصم اذن الشيطان، لاسامح الله لو كان حادثا شيء ما، لسرعان ما ينتشر الخبر، ما هذا لكأنني ايضا اصبحت كأمي والأخريات، فهو ليس وحده الذي لم يعد، فها ان بيستون ايضا لم يظهر، لقد خطر ببالها يحتمل انه نسي بأنها هنا، وقد عاد الى بيته، لا

ليس من هذا القبيل، على اقل تقدير كان يأتي الى هنا للسؤال وزيارة كاكه علي.

طيب لماذا لا تذهب وتسأل عن حسين والآخرين، لا لا، لا يطاوعها قلبها وتخجل ان تسأل احدا. قامت لتذهب وتشجع روناك ونه سرين ان تسألا عن احواله، ذهبت اليهما، وقبل ان تنطق رأت ان خالتها آمه خان ركضت الى غرفتها وبسطت سجادتها لتصلي عليها، بينما ركضت فجأة الى الباحة كأنها تبحث عن شيء، لكنها عادت الى الغرفة مسرعة، ورتبت رأسها ووشاحها وبدأت بالصلاة، حين ابصرت البنات اضطراب آمه خان، استغربن، قالت روناك بهدوء: فها انا عرفت سبب ذهاب واياب خالتي، ذهبت لتصلي، ثم ظنت انها لم تتوضأ، ذهبت الى الباحة لكي تتوضأ، لقد تذكرت ان لها وضوء، فعادت لتصلي، في الحقيقة ان هذه المسكينة فقدت وعيها))

قالت نەسرين باكتئاب: لها الحق في ذلك؟ كيف يبقى الشعور؟ لماذا اهذا قليل؟ يا الله لن يصيبنا بأسوأ!!

لقد كانت حه بسه خان خان من خوفها باكية ولاطمة رأسها ووجهها لدرجة انها كانت كفاقدة الوعي طريحة في غرفة اختها، وقد انتفضت فجأة وركضت الى غرفتها ونظرت الى ما حولها وتذكرت بأنها منذ ان تمددت كانت نائمة، قامت بعجلة وقالت لنفسها بسيماء مرتبكة وصوت اجش مختنق: فلتعم عيناك، وليكن نوم موتك! فكيف تركت علي وغفوت ونمت؟ وحين نظرت بأن علي خائر القوى وجلست صبرية ونه سرين والأبناء في حضوره، وصبرية تبلل الخرقة وتضعها فوق جبينه، فحين رأت ذلك المشهد المثير خفق قلبها وجف فمها وحنجرتها، وانهارت وتكورت في مكانها، وكانت اسنانها تصطك اصطكاكا!!

حين شعر حسين ان امه مرتبكة هكذا، نهض بسرعة وذهب اليها ومسكت يدها وقال: لماذا قمت يا امي العزيزة، فالشكر لله ان كاكه علي في صحة جيدة، قال الأطباء انفسهم انه تنتابه احدى اثنتين من مثل هذه الحمّى والسخونة، لكن لا خوف منها ابدا.

***

(٢٧)

في وقت مبكر من الصباح نادت صبرية حسين الى الغرفة الأخرى وقالت بملال وسآمة: الا تقول لي لماذا لم يظهر شيروان ولا يذكره احد، الم يكن معكم؟

– اجل، وكيف لا، نحن كنا جميعا في موقع، ولكن لأجل كاكه علي والجرحى الآخرين دفعونا للذهاب لأنه كان من الضروري الوصول الى المستشفى بسرعة، وكان شيروان المسكين ايضا يرغب كثيرا ان يعود معنا لكي لا يبتعد عن كاكه علي، ولكن العودة وعدم العودة ليست من صلاحياتنا، لله الشكر انه في صحة وسلامة، لكن بيستون رحم به الله، قالت صبرية بلهفة: وي لا سامح الله قل لأعرف ماذا حدث؟

ان المسكين في رشقة رصاص الطائرة اصابت اذنه وعيناه بشظية حجر، لو لم ينبطح حالا على الأرض لكانت الرشقة الثانية تقتله، حين سمعت روناك اسم بيستون مرت بجسمها رعشة وخفق قلبها، وقد استرقت السمع لأقوال حسين الأخرى، لكن من هنا نادتها امها ان تأخذ لها الماء، فاضطرت ان تذهب الى امها، لكن كان كل شعورها منصبا عند حسين.

بعد اقوال حسين هذه، انزعجت صبرية اكثر، خطر ببالها، يا ترى الم يحدث لشيروان شيء مكروه يخفيه حسين عني، كما اخفوا عنا اصابة كاكه علي بجروح، الى ان اتوه الى البيت، وكانوا يقولون باستمرار، له شغل لذلك تأخر؟ ان هذه الخيالات جعلت صبرية اكثر ملالا وحزنا، كانت تحزن لكاكه علي الذي جرح، وقد تذكرت حالا الثيَشمةرطة الذين استشهدوا او ان جروحهم اشد من جرح كاكه علي، ثم كانت تعود الى شيروان وبيستون، وكانت خجلة من انها لا تستطيع ان تحزن له مثلهم، ولو انها كانت تحزن لجميعهم، فبدأ من فرط همها واسفها بالإبتهال والدعاء من نفسها والحكومة، وقالت متذمرة: اوه ياويلنا؟

تكون قلوبنا عند من، ولا تكون عند من؟ آه يا ربي اي مخاض هذا الذي اصبحنا فيه، فلماذا لا تسترجعه لنفسك؟

***

صباح غد وصل بيستون وشيروان المكان، وحالما عرف والد بيستون خبر انجراحه ارسل له بسرعة مع اقاربه الخيل، وقبل يوم وصولهم كانوا ذاهبين به الى المستشفى، لكن شيروان كان سالما، وما ان وصل الى البيت اسرع بلهفة وشوق نحو علي وبدأ بادخال السلوى في قلب حماته والأخريات.

وكان بيستون بسبب شدة آلام عينه واذنه فقد الصبر، لذلك كان والداه مرتبكين، لقد ظل تحت معالجة الأطباء مدة مناسبة الى ان زال الخطر عنه، عندئذ اجازوه ان يعود الى البيت، ولكن على الرغم من الحالة التي كان فيها، تعلق قلبه برونـاك، وكان قلبه عند كاكه علي في ملاله وسآمته، ياترى ماذا فعلت حه بسه خان وما اكثر من بكاء روناك.

حين خرج من المستشفى قال لوالده بكل ما عنده من آلام واوجاع. والدي العزيز لنزر في طريقنا كاكه علي لنعرف احواله، اني قلق عليه كثيرا؟

لم يطاوع قلب ابيه ان يقول له: يا بني اين تذهب للسؤال عن احوال من وانت في هذه الحالة؟ و لحد الآن يتقطر الدم من لفاف عينك، وانت خائر القوى جدا، ولكن هو في واد وابنه من واد آخر، صحيح ان بيستون يحب علي كثيرا، ومهتم به، لكن والده لم يكن يعرف انه مجرد ان يسمع صوت روناك سينسى كل آلامه، لا يعرف انه كيف يشعر بأي سكينة وفرحة عندما يكون بقرب روناك، وكيف ان اقوالها وضحكاتها تنير قلبه، ينتشي ويسكر بها، اضطر والده نزولا عن رغبته، لكنه رفع رأسه نحو السماء كأنه يريد ان يشكو حاله عند الله، عندئذ قال بهدوء:

– طيب يا بني طيب، سمعا وطاعة لما تقول، سار بيستون مع والده ومجموعة من اقربائه بتوأدة،متكئا احدى يديه على محجن، وماسكا بيده الأخرى جهة رأسه الملفوف باللفاف، بينما كان في هذه الحالة فاذا به قد خفق قلبه فجأة وتذكر: من يقول وليس اقرب من الغد ان لا تعود حەپسەخان وروناك والجميع الى السليمانية؟؟؟

مادام الخطر زال فمن اي شيء يخافون؟ والآن من له شأن بالآخر، طيب يا حياتي، والله ترى روناك جيدا؟ ما العمل اذن؟سار خطوات اخرى تذكر علي وقال مع نفسه لا عيني لا كيف تترك ابنها بهذه الحالة وتعود؟ لا اصدق ابدا، لكن سرعان ما هجمت عليه خيبة الأمل من جديد، واخيرا اذا قلن (نأخذ معنا كاكه علي وهناك الدكاترة الجيدون والمستشفيات الجيدة، ولمدة اطول وانه يتماثل للشفاء بشكل اسرع، هذا جائز جدا؟!)

انعصر قلب بيستون بذلك، وشعر بأن آلام عينه قد زادت كثيرا، وصل الى بيت حه بسه خان في حالة مضطربة، ذهبت جميع افراد العائلة بلهفة كثيرة لإستقباله، ورحبوا به باخلاص وعبروا عن تعاطفهم معه.

وحين رأت حەپسەخان ، بيستون في هذه الحالة عادت لها شجاعتها وكانت معظم اقوالها ثناء وشكرا لله، وكان بيستون مركزا عينه السليمة في سر وخفاء على روناك، ولم يكن يغمضها، دون ان يشعر به احد، لأن ما حوله كانوا مشوشين ومضطربين لأجل علي وبيستون، لم تكن نظراتهم تتجه الى اي شيء آخر، اراد بيستون ان يجرب نمط كلامهم حول بقائهم وعدم بقائهم هناك فقال: والله ان هذا الإنقلاب واسقاط الحكومة كان شيئا مفرحا وفي وقته المناسب، يحق لنا ان نحتفل!

تنهدت حه بسه خان وقالت: اوه فلتنخلع روحي لكم، لماذا هل انتم ابقيتم في ذاكرتنا الإنقلاب وغير الإنقلاب.

اغرورقت عيناها بالدموع وقالت: لا تسأل حين جاءنا توفه وبشرنا، وكانت امك هنا، ماذا فعلنا من الفرح واجهشت بالبكاء ونشجت قائلة: اوه لتعم عيناي حين كنا بذلك، انتم كنتم تتمرغون في دمائكم.

لقد كان بيستون ناسيا آلام جروحه فقال بحرارة:

–لا...لا... بالله عليك لا تنزعجي، فها ولله الشكر اصبحنا سبب فنائهم، ان شاء الله سنتماثل للشفاء بسرعة، وتكون الدنيا حسب رغبتنا.

وهكذا جلسوا، وبدأ الجميع يتحدثون، الى ان التفت والد بيستون الى ابنه وقال: عليه ان ننهض ونذهب فالشكر لله اطمأنت قلوبنا، الحمد لله ان الحالة الصحية لكاكه علي جيدة، قال هذا ونهض واقفا فالتفت الى حه بسه خان وقال:

يا ربي الف مرة شكر، لم نصب بفاجعة، يجب ان نقول هكذا الى ان نموت واخيرا نهض الآخرون ليذهبوا، ولو ان بيستون لم يتمكن بمجيئه ان يعرف نواياهم ماذا يفعلون ولا يفعلون، ولكن بدا من مشهدهم وحالهم، انهم على الأقل لا يفكرون ابدا حتى عشرة خمسة عشرة يوما آخر في العودة، خاصة ان موقف الحكومة من الكرد لم يتوضح بعد، لقد توقف القتال فقط.

***

لقد توضح لروناك تماما انها تحب بيستون من صميم قلبها، وكانت تفكر فيه كثيرا بأن الشعور الذي تمتلكه تجاه بيستون اكثر من التعود والقرب وحتى القرابة، لكن حياءها والأخلاق الفاضلة التي كانت تتحلى بها بتلك الطفولة قد تمكنت ان تجعل اقرب شخص منها وهي والدتها، لا تحس بأي شيء، لذلك، كان كل ذلك الخوف والتعقيد كائنين في قلبها فقط، كانا مشوشين دماغها.

***

(٢٨)

مر اسبوعان على تلك الأحداث كانت صحة علي تتجه نحو التحسن، حيث كان بمقدوره تدريجيا ان يسند الى عكازة وينتقل من هذه الغرفة الى تلك، وكان حوله دائما مكتظا بالناس الذين كانوا يزورونه للسؤال عن صحته، وكانوا بهذه المناسبة يجذبون اطراف الحديث حول الوضع عامة وموقف البارتي تجاه الإنقلاب في ضوء البيان الذي ورد فيه: يجب على القوات المسلحة البقاء في اماكنها.

***

بدأ الناس بالتنقل الى السليمانية ومدن كوردستان الأخرى، وكذلك كانوا يذهبون اسرابا الى ابنائهم واهلهم من پێشمەرگه بهدايا، وكانوا هم ايضا يعودون لزيارة عوائلهم واطفالهم واقاربهم ومعارفهم، وحين رأت حەپسەخان ان ابنه يتم ابنه يتماثل للشفاء اخذت ترغب وتفكر في العودة، فسألت علي ذات مساء: ماذا يفعلون هم؟ ايرجعون ام يبقون؟

قال علي: انت وخالتي والبنات متى تعودن عدن، ولكن بالنسبة لنا لا نتحرك من مكاننا حتى لا نعرف ماذا يفعل لنا الذين جاؤوا الى الحكم، واذا قدر لنا نغتنم الفرصة للإستيلاء على مواقع اخرى.

علق حسين من هناك قائلا: بامكانكن العودة ولكن صبرية ونه سرين فلتبقيا الآن، ومع هذا الكلام اشار الى امه بغمضة عين.

مدت نه سرين يدها الى رأسها ووشاحها وقالت:

– ما هذا الكلام والله انا اعود قبل الجميع؟

قالت صبرية لا ضير انا لا اعود حاليا لأعرف ماذا يفعل الأبناء، فهزت نه سرين رأسها وقالت... طيب انا ايضا افكر فيه.

هيأت حەپسەخان واختها ورونـاك انفسهن لكـي يعدن مع توفه، لم يكن بيستون منزعجا الى حد ما لأنه اتخذ قراره مقدما، بأنه بعد فترة قصيرة يرسل والديه الى السليمانية لطلب يد روناك، ومن الأفضل ان تكون روناك نفسها هناك، كما انه كان مطمئنا ان روناك ايضا تحبه. خاصة بعد انجراحه تبين له هذا الحب اكثر.

لقد كان شاعرا بمغازلاتها التي كانت مفعمة بالتجاوب والإهتمام والإخلاص حين كان يزورهن مع والدته، و فيما يتعلق بعينه كانت في طريقها نحو التحسن، وزالت عنه كل المخاطر، لذلك كان يتكلم بقلب طافح بالأمل والشوق والفرح، ويهتم بهن، فودعهن بكل اطمئنان.

سارت الجماعة، ولكن في منتصف الطريق، بدأت السماء تزمجر وترعد وتبرق وتمطر وتسقط البرد (الحالوب) لذلك اضطررن البقاء في ((**كونه ماسي**))، وكانت آمه خان تذكر تلك المرة التي مرت بها وقدم لها الپێشمەرگه المساعدة أثناء عودتها من السليمانية، وقد استغربت من هذا المقهى التافه، فالله يعلم كيف باتت فيه حتى الصباح، في هذه المدة القصيرة حيث زالت مخاطر القتال كيف رتب المقهى ونظم واشعلت فيه المدفأة بحيث لا يميزونه الناس.

انظروا الى الطنافس والسجادات والمخدات، رائحة البخار والعكاب الطيب للشاي والسماور، انه في الحقيقة مريح جدا، وكانت تبتهل بالدعاء من الحكومات التي تدمر تلك القرى والأماكن الطيبة. كانت تضرب صدرها .. وتقول: ربي يخرب بيتهم!

كان توفه خارج المقهى بشغل، فعاد اليهن، التفت ببسمة حلوة الى آمه خان وقال: اكان هنا حين جعلوك آمر المخفر ، تقهقت الجميع بالضحك، وقالت آمه خان ضاحكة: اجل يا ناطق المحلة كان هنا . لقد قضين الوقت الى وقت متأخر بهذه الأقوال، ثم استسلمن للنوم بلا حراك، الى ان طلع النهار، استيقظ توفه وخرج من المقهى، لم يطل كثيرا عاد مرتبكا قائلا:

والله كما يبدو لا يمكننا مغادرة هنا بعد يومين ثلاثة ايام اخرى.

قالت الجميع بحيرة ولهفة: لماذا؟ خفق قلب حەپسەخان وقالت: آه ماذا حدث في سبيل الله، قال: توفه أثناء ما كان يجرد حذائيه من الطين..

– اذهبي وانظري، انه طوفان لا حد له، وقد فاض النهر الى حد يجرف الإنسان، فلا يمكننا ابدا ان نعبر ذلك الماء، يجب ان نركب من اقصى النهر!

علق صاحب المقهى وقال: لا ضير من هذا قد يغيض ماء النهر بعد قليل، وقد اصبح هكذا بسبب فيضان الليل، لعل وعسى ان ينقطع المطر، اضطررن الجميع لم انفسهن والجلوس بصمت، وبسبب فيضان الليل لم يكن عابر سبيل واحد في المقهى، ماعدا حەپسەخان والأخريات وامرأة امرأتين ورجل واحد وطفلين في عمر السادسة السابعة، حيث كانوا يعودون الى السليمانية.

جلست الجماعة الى منتصف النهار المتأخر، وبين حين وآخر كانت احداهن تميل رأسها الى الخارج وكانت تنظر الى السماء، وحين كانت تبصر قطع السحب السوداء تعود الى الداخل خائبة. من فرط ملالهن وتذمرهن تلاسنّ مرة مرتين مع توفه، ولكن بسبب وجود الناس وخوفا من لسان توفه سرعان ما كن يسكتن.

نهض توفه واقفا على قدميه متذمرا وقال: يا الله، يا ربي عليك (التفت الى حەپسەخان والأخريات) وقال: يا الله لأذهب لكي اعرف، لعلي اجد حلا، لا يحصل من وراء الجلوس شيء، فهو خرج وذهب، قربت روناك فمها من اذن امها وقالت: امي العزيزة يكاد تنهار قواي يا ليتنا كنا راجعات الى كاكه علي والآخرين!

قالت أمها بابتسامة: يا ترى ما الفرق يا بنتي؟ اليس هناك ايضا مطر وفيضان؟

رمقت روناك باب المقهى وقالت: على الأقل لا نصادف في الطريق الماء والنهر، علقت خالتها قائلة: ياليتنا ما كنا مغادرات ولكن ما كان عندنا علم الغيب، كيف نعرف ان الدنيا تصبح هكذا، حيث كان الجو خلال يومين ثلاثة ايام طيبا، وحتى ذلك الصباح الذي غادرنا فيه البيت، لم تكن في السماء قطعة سحاب واحدة، في فترة قصيرة حدث هذا الطوفان، لفت صايتها بشكل جميل حول ساقيها وقدميها، هزت رأسها وقالت:

فداه روحي لا احد يعرف عن عمله...حين نظرت الى روناك قالت بابتسامة من اجل خاطرها: يا الله لاتبالي يا حبيبتي، فان سفرا هكذا مريح بالضوضاء، فبعد مرة اخرى سنرويه بلذة ومتعة كأطيب ذكرى!

لقد ظلوا هناك لليلة الثانية، ذهب توفه الى خارج المقهى في الصباح الباكر، فعاد اليهن بوجه بشوش قائلا:

– شكرا لله يبدو انه نهار طيب جدا، هيا اسرعن لنأكل الخبز والشاي وننطلق، انه مجرد الماء وهنا نعبركم بركوب الخيل، وهن ايضا فرحن جدا، لقد اكلن الخبز والشاي بسرعة، لففن انفسهن وحملن الصرر والجعب وتابعن توفه نحو الماء، كانت السماء صحوا صافيا، وكانت ثمة قطع سحب صغيرة بيضاء في السماء، وكانت تركض بسرعة فائقة كأنها تخلفت عن العشيرة تريد اللحاق برفيقاتها، وقد تنظفت الجبال والوهاد والأحجار والأشجار، لم تبق عليها الغبار، فان المطر الغزير الشديد قد غسلها بشكل جميل، وقد انتشر الناس، وكانوا يعلقون الطنافس والحصران والبطانيات الخفيفة المبللة بالوكف لعرضها للهواء، وكان البعض واضعين ايديهم تحت الإبط واقفين امام اشعة الشمس بحجة ان الشمس مشرقة، وقد شمرت بعض النساء عن اردانهن وسيقانهن وكن يتوجهن نحو النهر والماء. كما ان آمه خان والأخريات ايضا شمرن مثلهن عن سيقانهن ولكن ما ان ظهر لهن النهر تسمرت آمه خان من مكانها وقالت: آه ابتاه، كيف يمكننا الآن العبور في هذا النهر، والله يا جماعة لا اتجرأ على اتخاذ اي خطوة اخاف ان اقع، اي خيل ورأس هذا النبي فداه رأسي له، انه يجرف الرجل والحصان، وي اعوذ بالله فأنا منذ الآن اصبت بالدوار!!

لم تنطق اختها لكنها جفلت، مسكت روناك ذراع خالتها وقالت: لا يا خالتي بالله عليك تعالي الآن لنعرف كيف يكون؟

وصل توفه قبلهن الى الماء مع اثنين ثلاثة رجال حيث بدا انهم من اصحاب الخيل، بدأ يتحدث وجاء اليهم عدد من الپێشمەرگه، كان ماء النهر يخر خريرا، وقد جرف الفيضان كل ما وجد من التراب الأحمر وطين هذه الجبال، وكان في بعض الأماكن يلوي و يلتف بشكل مستمر وكان يغطي نهايات كل تلك الشجيرات والأشجار التي حوله، وكانت تظهر فيه احيانا الأغصان والأشجار بجذورها وتغوص ثانية، وكانت بعض الصخور الكبيرة والأحجار الضخمة القريبة من الساحل تظهر، ولكن لم يكن يصل اليها جميع الماء، كان يشن عليها

احيانا بسرعة وبالأمواج والأصوات الهادرة، ويمر عليها كأنه يريد تخويفها استهزاء.

التفت اليهن توفه وقال: هيا اسرعن تعالين، قالت حه بسه خان لأختها بهدوء: خاطر الله لا تقولي اخاف، والله ان توفه هذا الملعون يهيننا امام اعين هؤلاء الناس، ثقي انا ايضا اتعس منك ولكن ماذا افعل، لنعرف ماذا يفعل هؤلاء الرجال لنا، كلهم من سكان هذه المنطقة يمتلكون الخبرة، فهذا حالهم في كل سنة، هل من المعقول لا يعرفون ماذا يفعلون؟ لم يمض وقت طويل جاء الرجال بحصان وحبال لقد شدوا الحبال حول خصورهم، وشدوا انفسهم بعضهم ببعض وبالخيول، ثم ناداهن ليأتين، لكي تعبر واحدة تلو الأخرى.

جحظت عينا آمه خان، وقد تخدرت أختها من مكانها، اما روناك فكانت احسن منهما، كان المشهد يتراءى لها كفلم سينمائي، لذلك تقدمت دون مبالاة وقالت: اولاً انا آتي معكم، سحبت امها ذراعها وقالت: اوه انتظري الآن فليذهب توفه اولا.

اقعس توفه صدره كالبطل وقال:

جيد جدا فأنا اذهب فلينظرن هنا لكي يزول خوفهن، ركب توفه الحصان وقد دخل في البداية اثنا ن من الرجال الماء ومسكا بقوة زمام الحصان وسحبوه، والپێشمەرگه الآخران مسكا جانبيه، كان مشهدا غريبا مضحكا، كادت روناك ان تقع على ظهرها، وكذلك طفرت الدموع من عيون امها وخالتها وكمتا فمهما بقوة. وكان ترنح الحصان والرجال وفيضان النهر كأنه اعداء يتقاتلون، ومهما يكن فانهم عبروا ماء النهر، نزل توفه، وبدا بعصر ساقي سرواله بفرح وضحك حيث بللتا كثيرا، وقد وزع على الرجال بعض التشكرات كاطلاق كلمة الأب والأخ العزيز، قبل ان يعودوا الى الجهة الثانية عند النساء، ثم وضع كلتا يديه حول فمه وصاح، هيا اسرعن، تعالي انت يا آمه خان اولا. لم يسمعن بشكل جيد كلامه، لذلك كن يضحكن عليه بشكل متواصل.

حين وصل الرجال الى عند النساء لفت آمه خان عباءتها بقوة حول نفسها ونظرت الى النهر وقالت: آه يا ربي، فالمرء يصبح نصف روح، لماذا لا يشيدون جسرا لهذا النهر ليخلصوا الناس من هذه المصيبة؟ الغريب في المرة الأولى حين

مررت هنا، لم اجد اي ماء؟ وقال احد الرجال مبتسما: عزيزتي باجي ليس دائما هكذا بل احيانا حين يحدث الفيضان يفيض النهر بهذا الشكل والا فان الناس في معظم الأحيان يعبرونه فوق الأحجار المكرسة للعبور، لذلك لا يحتاج الى جسر، وليس بعيدا حتى وان بني عليه الجسر، فان الفيضان يجرفه سنويا مرة مرتين، يا الله اركبن لنذهب، تقدمت روناك ولفت نفسها وقالت: فها انا جئت وقالت امها من هناك وانا آتية ايضا، لنكن كلتانا معا. لم يطاوع قلب حه بسه خان ان ترسل بنتها وحدها، وكان على الأكثر لأن روناك صبية وجميلة وقالت في نفسها: كيف ادع ان يأخذ هؤلاء الرجال ابنتي وحدها، الله اعلم قد تلمس ايديهم اثناء تموجات الماء ساقيها وذراعيها وجانبيها، وحين خطرت هذه الخيالات ببال حه بسه خان تحركت بسرعة ونسيت الخوف والفزع تماما وقالت: هيا روناك اسرعي .

ركبت الأم والبنت معا، لقد شدت روناك يدها بقوة حول خاصرة امها، حيث كانت منشغلة بالدعاء في قلبها الى ان تخلصوا من الماء.

ثم جاءت نوبة آمه خان، وهي اضطرت ان تركب ايضا مدمدمة ومدندنة. وما ان وصلت الى منتصف الماء حتى وان اخذت تصرخ: خاطر الله امسكوني لقد وقعت. آه يا ربي ما هذا البلاء، لم يبق لي شيء لقد بللت ملابسي، وجرف الماء فردة من حذائي، واخيرا عبروها بشق الأنفس.

بعد عصر الملابس المبللة وتبييس الأنفس، وتمتع النساء بقسط من الإستراحة، جاء اليهن توفه وقال لهن ان يقمن ويلفن انفسهن ويركبن سيارة الجيب، وقد تابعنه وذهبن لركوب السيارة والإنطلاق.

بعد عدة مرات من الإنغراس في الطين والنزول ودفع السيارة، حيث كانوا هم ايضا يطمسون في الطين او تنزلق ارجلهم ويسقطون، كانوا يبدؤون بالضحك والصراخ والضجيج، وقد وصلوا الى السليمانية بعد آذان العشاء، وبعد فترة دخلوا البيت، لقد انتعش افراد العائلة بهن حيث كانوا في انتظارهن بلهفة وشوق.

وفي الصباح بدأ الجيران والأقارب والمعارف بزيارتهن سربا فسربا للترحيب بهن وقرة العين والناس حيث انتعشوا جميعا بحدوث الإنقلاب كانت تلوك

السنتهم بالحديث عنه، اذ كان كل فرد يتناوله بشكل معين، خاصة الذين كان العدد القليل منهم متوجهين الى الجبال والإلتحاق بپێشمەرگە، كان حديث هؤلاء منصبا من اوله الى آخره على هذا الموضوع. على الرغم من انهم كانوا يطحنون في الف طاحونة لكنها كانت جعجعة بلا طحين، كان احدهم يقول بقلب جذل: يقولون ان والدة الشخص الذي قام بالإنقلاب كردية، وقد قال سأمنح الكورد ما يطلبونه! وكان الآخر يقول: حتى وان كان هذا صحيحا فكيف يتجاسر ان يقول هذا الكلام بكل صراحة امام ما حوله ورفاقه. وكان شخص آخر يعلق قائلا: كل هذه الأقوال كذب، لماذا تجعلون كل من يتولى دست الحكم او قام بالإنقلاب وشيء من هذا القبيل، كرديا بسرعة، فان (كاكه كريمنا) الذي لم يكن والداه يعرفان التكلم بالعربية جيدا، في حين بعد ذلك ان ما فعل بالكورد فعل. الى متى نشغل ونفرح انفسنا بتلك الأقوال الفارغة وننخدع، في نظري ان الكورد المخلصين الطيبين النظيفين هم الذين يخوضون معترك نضال الكورداياتي، والا فان الآخرين الذين يقفون في صف محتلي كوردستان هم من (الكورد النغولة)!

شخص آخر حين سمع اسم عبدالكريم قاسم قال:

– في نظري اذا كان هؤلاء يمتلكون العقل يأخذون العبرة من قاسم، كيف كان حين كان الكورد معه، وحين تمرد على الكرد ماذا كان مصيره؟ وهذا ليس كلامي وحده، فبعد يوم يومين من الإنقلاب سمعت بأذني من (اذاعة باريس) حيث كانت تتحدث عن حكم عبدالكريم قاسم وانقلابه، فلا انسى هذا ابدا حيث ان المذيع في ختام كلمته قال (لو عالج اي قاسم قضية الأكراد بتعقل لما كان اليوم في عداد الأموات)، بالله عليكم الم يقل الحقيقة؟ قال جميع الجالسين:

اجل والله لقد اصاب كبد الحقيقة افضل من كل شخص، بيض الله وجه والده.

قال شخص آخر: كلما افكر في تحدي عبدالكريم للكورد، يتخيل لي كلدغة النحل، في حين تلدغ نحلة شخصا، صحيح انها تلحق به الأذى لكن ستكون نهايتها، وقد لدغ هو الكورد فكان مصيره فناءه.

وكانت هذه الأحاديث تدور ايضا في بيت حەپسەخان، ولكن وجود توفه حمل الأقارب والأصدقاء والجيران الا يكتفوا بهذه الأقوال، وان يطلبوا منهم ان

يرووا لهم سيرتهم وحياتهم والناس الذين التقوا بهم وعرفوهم، وكان توفه ينتظر فرصة من هذا الشكل لكي يفرغ جعبته، ويتحدث عن سراء وضراء الناس، حيث انه ينثر فوقها التوابل لإضحاك الناس، وقد روى قضية معطف آمر المخفر عدة مرات، وكانوا هم بدورهم يقهقهون بالضحك، ولم يكن يكتفي البعض بتوفه، انما كان يلحون على آمه خان ان تقص لهم الحوادث.

في احدى المرات تحدث عن دعايات واكاذيب الحكومة، قال احدهم: فأنا حين كنت اسمع اذاعة صوت الجماهير كانت تنقل وقائع المعارك، كدت في فترة معينة ان اجن ولكن حين طالت المدة، والقتال كان جاريا على قدم وساق حينئذ دبّ فيّ النفس والروح، ولسوء الحظ كنت في مكان لم يكن فيه احد يقول لي الأخبار الصحيحة.

هنا قال به ختيار: اذن انا اتحدث عن اكاذيب وافتراءات واباطيل الحكومة. كانت بداية الخريف، كنا ذات يوم في المقر، رأينا ان عددا من پێشمەرگە المسلحين يسوقون ستة سبعة من العسكريين فدخلوا المقر، وحين وجد مسؤول المقر بأننا قد انذهلنا قال: انكم تعلمون ان من بين ايدينا عدد كبير من الأسرى العسكريين، لا عمل لهم ولا اي شيء، انهم يأكلون وينامون دائما، لقد جلبت هؤلاء ليدقوا البرغل، حيث انهم يأكلون منه على قدرنا. قال احد الحاضرين: طيب هل انهم يعرفون ان يدقوا ويجرشوا البرغل؟ اجابه: وما دق البرغل؟ او يصنعون الطائرة فها ان كاك خدر ايضا يشغلهم، انه من جهة ينتبه منهم ومن جهة اخرى اذا اقتضت الضرورة يعلمهم، واخيرا عدنا الى شؤوننا، وكنا نستمع احيانا الى راديو كاك خدر الذي وضعه على موجة اذاعة بغداد بالعربية للعسكريين، وكانت للحكومة برامج لتشجيع جنودها والجحوش الكورد الذين كانت تطلق عليهم (فرسان صلاح الدين).

كانت الإذاعة تبث الأغاني وكان بين الاغاني شخص يتكلم ويقول: يا قواتنا المسلحة، يا فرسان الوليد الأبطال يا فرسان صلاح الدين الشجعان وراهم بويه وراهم ثم كانت الإذاعة تبدأ بتقديم اغنية اخرى، على ما يظهر تشجع القوات المسلحة. لشن الهجوم على الكورد وكان المذيع يقول:

الحقوهم..الحقوهم. وحين وصل المذيع الى هذه الفقرة الأخيرة، بدأ الجنود بالصراخ والصياح والجلبة، ونحن ذهبنا لنعرف ماذا حدث؟ لقد روى لنا كاك خدر القضية وقال: حين سمع العسكر من مذيع الإذاعة يقول:

يا قواتنا المسلحة، يا فرسان الوليد الشجعان، يا فرسان صلاح الدين الأشاوس (ان العصاة لا يستقر لهم مقام) الحقوهم بويه الحقوهم. استشاط الجنود غضبا وقالوا: هِي كلب ابن كلب قواتك المسلحة جاعدة تهبش، لقد ضج الناس جميعا بالضحك حين سمعوا هذه الأقوال من به ختيار.

قال احد المستمعين: طيب وانتم ماذا قلتم لهم؟ قال به ختيار: كان مسؤول مقرنا شخصا ذكيا جدا وكرديا مخلصا جدا، لم يدع ان تفلت هذه الفرصة من اليد، وعندما حان وقت طعام الغداء، قال لكاك خدر: ان يأتي بالأسرى لنأكل معا الخبز والشاي، ليعرفوا ان ليس هناك فرق بين اكلنا واكلهم، ويتحدث معهم قليلا، ولكن في الحقيقة انهم فاقونا وفازوا علينا في صب لعناتهم وشتائمهم على الحكومة، كان احدهم يقول: ابناء الكلاب فهم يتمتعون بالراحة والهناء في بغداد ويرسلوننا الى جبهات القتال ويقولون: ان الكورد كفرة وكذا وكذا، فنقضي عليهم بمجرد حملة واحدة. في حين خاب فألهم، فالكورد ليسوا كفارا وانهم شهمون كثيرا، وقال له الأخ المسؤول: لا داعي لكلامنا، فهم الذين ارسلوكم للهجوم على الكورد يريدون ابادتنا. والكورد يدافعون عن ارضهم واموالهم، فنحن لسنا قتلة ولا نرغب في القتال، بالعكس نحب التآخي مع جميع الناس وخاصة معكم، فهم يقتلون الأكراد المسالمين الأبرياء، ويقتلونهم تحت التعذيب، ولا سيما مسلحينا. وانتم الآن ترون بعيونكم كيف ننظر اليكم، وكيف نتعامل معكم!!

***

(٢٩)

بعد ايام أخرى شاع خبر بأن الحكومة تريد التفاوض مع قيادة الثورة الكوردية، فها ان الوفد الكردي يستعد للذهاب الى بغداد، لقد تهيج الناس بهذا الخبر تماما، وقد كانت الشوارع وازقة المدينة وامام السراي تزدحم بالناس دائما، لقد فرح كثير من الناس، واخذ البعض يدبكون ويرقصون، ولكن المعمرين واصحاب التجارب، كانوا يهزون رؤوسهم، ولم يكن يعتقدون ان هذه الحكومة ايضا صادقة وذات نية حسنة مع الكورد حتى النهاية، لذلك حينما كانوا يرون الناس يدبكون ويرقصون كانوا يسخرون وكثيرا ما يصادفون الجدال مع ابنائهم واقاربهم والشباب المتحمسين والناس البسطاء، وكان المجربون المحنكون يقولون:

– تحملوا قليلا فلا تظهروا انفسكم ولا تكشفوا ما في جعبكم كليا، من يعلم بأن هذا الوضع لا يتردى، عندئذ لا نقع جميعنا منقلبين على رؤوسنا في الهاوية، من يقول انهم ايضا لا يتداولونكم تحايلا وخداعا حتى يعززوا مواقعهم، حينئذ لا يكونون اسوأ ممن سبقهم، لقد اثبتت التجارب الماضية جيدا اذا ما دار الحديث عن حقوق الكورد فأنهم جميعا من طينة واحدة، كأن الكورد يطلب جزءا من ورثة آبائهم المقبورين، ولا تستبعدوا الا يكون قصدهم من مجيء هذا الوفد وذهاب ذلك الوفد من جهة فتور حماس وفقدان أمل ورغبة المناضلين الكورد، لأنه كما ترون ذلك، فثمة بيننا عناصر مجرد ان يسمعوا اسم التفاوض فلا يمدون ايديهم للسلاح ويركنون الى الراحة دون مبالاة، ويظنون ان كل شيء قد تم وان الدنيا تكون حسب رغباتهم؟!

ومن جهة اخرى، فان الحكومة تتظاهر بأنها صديقة للكورد لكي تتمكن من خلال هذا الحوار وتبادل الزيارات، ان تتماطل مع البعض وتشتري ذممهم،

وتقضي على البعض الآخرين، ووفق امكانياتها ان تخلق البرودة بين مسؤولي الثورة والبارتي وتزرع بذور الشك بينهم وتخلق الخلافات، بين الكرد أنفسهم، وبإختصار ان الذي يريد أن يتجاهل ويتغابى لا يستطيع بأي شكل من الأشكال ان ينسى بأن الحكومات المحتلة لكردستان تفعل ما في وسعها لكي تشق صفوف الشعب الكردي.

حين كان هؤلاء يقولون تلك الأقوال، فكان الآخرون يستشيطون غضبا ويصبحون لعبة نارية وكانوا يقولون:

– انكم تتصورون ان المسألة مطروحة كمهزلة، ولا تعرفون بأن كل شيء جرى التخطيط له وفق التفكير، وان كله ينتهي بشكل جيد وتمنح حقوق الكورد. لماذا اهي برغبتهم؟ فان لم يعطوها سنستأنف القتال. كان شخص آخر يقول: يا جماعة فأنتم غافلون عما يوجد، بالله ان شخصا الذي له علاقة بالحكام هنا، رأى ذلك اليوم بأم عينيه رسالة رسمية كتب فيها بأن قادة الإنقلاب يرتأون بأنه لابد من ارضاء الكورد.

وكان آخر يقول: انا اثق بصحة ذلك الكلام، لأن الليلة التي جرت فيها المظاهرة بمناسبة قولهم ان الحكومة تريد ان تجري الحوار مع الكورد، واوشك ان يذهب الوفد الى بغداد وصل بعض المتظاهرين الى امام باب السراي، ارادوا ان يصعدوا الدبابات ليتحدثوا، كان العساكر انفسهم يمسكون ايديهم ويصعدونهم ويصافحونهم ويتبادلون التهاني، وكانت بعض النساء صعدن الدبابات من فرحتهن وكن يهتفن: (ئي خؤمانة!! ئي خؤمانة) اي هي ملكنا!! هي ملكنا!! وكان هؤلاء الجنود المساكين دون ان يفهموا ماذا يقلن، كانوا يرددون معهن بوجوه فرحة، كونوا على ثقة كانوا فرحين به على قدرنا...لا ادري لماذا يذهب خيالكم دائما نحو الشيء السيء وتخترقون الدنيا وتسدونها بالطين!؟

* * *

توجه وفد الى بغداد. وبعد ثلاثة اربعة ايام عاد الى الجبال ثم توجه الوفد الحكومي اليهم، وبعد ايام عاد الوفد الكوردي بمطالبه لكي يسلمها للحكومة. وقد فقد الناس الصبر، وكانوا يسترقون السمع بلهفة لأخبار الإذاعة واقوال

الناس، وكان ثمة اناس قد اعدوا الخرفان منذ الآن لجعلها مولودا وآخرون قد اشتروا ملابس الإحتفال، وقد قرروا تقديم بعض الخيرات والصدقات، اذا كانت المسألة برغبة الكورد، وكان بعض الأشخاص الآخرين في خيالهم متجاوزين الإحتفال والدبكة وقراءة المنقبة النبوية وتقديم الذبيحة. وقد حضروا انفسهم لوظائف رفيعة ومكاسب جيدة، وكانوا يقولون في انفسهم: فنحن ايضا لسنا من ابناء الجارية، لابد ان يشملنا من اخذ هذا الحق رذاذا، وكان البعض ماسكين بأيديهم الدفاتر والأقلام، كانوا ينظمون قائمة بأضرارهم وخسائرهم، يضعون على الأقل اربعة مقابل واحد والمبلغ لكل مادة ضعفين ويجعل الكمية ثلاثة اضعاف ، وكانوا يطمعون في مبلغ جيد بأن الحكومة تحسب الحساب لتلك الأضرار.

* * *

حين استغرق التفاوض مدة غير قصيرة، بدأ الناس بالتذمر والإستياء، كان هذا يقول: والله ما كان الحق ان يرسل الكورد بتلك السرعة وفده الى بغداد، كان من المفروض ان يحافظوا على شيء من الإتزان والهيبة، فلماذا اسرعوا؟ كانت المصلحة تقتضي عدم التحرك.

وكان البعض الآخرون يردون عليهم بشدة، حيث يبدر من هذا كلام ومن ذلك كلام بحيث يوشك ان يتشاجروا، وكانوا يقولون: والله صحيح ما تقول، لقد استعجل الكورد كثيرا حين ردوا على طلب الحكومة. اجل انكم تتحدثون كأنكم قاعدون على الراجمة، تأكلون في بيوتكم واحوالكم دون مبالاة، ولا علم لكم عن احوالهم، ان الذين يناضلون في الجبال تحت رحمة وابل الرصاص والقصف بلا نصير ولا ظهير، كونوا على ثقة بأنهم لا يحصلون احيانا حتى على مجرد الخبز، وفي زمهرير الشتاء وقيظ الصيف يقاتلون بسلاح قديم وقليل القوات الحكومية المدججة بالأسلحة الهائلة من المدافع والدبابات والطائرات دون دعم ومساعدة من احد، وفي كثير من الأحيان تقطع عنهم الطريق، لا ينجدهم احد سوى الله، وانتم اركنوا الى الراحة، وتطفلوا، وتكلموا كلاما اكبر من حجمكم الحقيقي!!

وكان الآخر يقول: عزيزي انهم يعرفون شغلهم احسن مني ومنك. او تعتقد ان الذين حرموا انفسهم من نعمة الدنيا وملذاتها، ووضعوا ارواحهم على اكفهم

من اجل انتصار وتحقيق حقوق شعبهم، يكونون اقل منا حرصاً من ان تذهب جهودهم هباء منثورا؟ ولم يفكروا في جميع اوضاع القضية، ولم يتخذوا جميع الإحتياطات اللازمة لأي احتمال، بحيث يبررون ثقتهم باقوال الحكومة، ويورطون انفسهم في مكائدها بغباء؟؟ صحيح ان هذه الأمور ليست فقط لنا الحق فيها انما كل كوردي له الحق، لأن انتصارهم هو انتصارنا، كما ان اخفاقهم لا سامح الله هو خنوع لنا، لأن الجميع هم من الكورد والحق هو ملك الكل، لكن في تصوري ليس لنا حق من هنا ان نوجه لهم النقد ونتكلم عليهم، ونقول لماذا فعلوا ذلك ولم يفعلوا ذلك، خاصة لسنا على علم بشؤونهم، فإن كنا صادقين ونريد ان يكون لنا حق قول تلك الأقوال، لنتوجه الى هناك ونعيش معهم ونشاركهم في السراء والضراء، حينئذ اذا شئت ضع اصبعك في عيون الذين يرتكبون الأخطاء!!!

فجأة كان احد الجالسين كأن تذكر يقول: اخي لا تعاتبهم، اريد رجلا بذلك الثلج والبرد ان يرتقي تلك الجبال، والله ان فيها المرتفعات والمرتقيات التي يمر بها ثيَشمةرطة ذهابا وايابا، ليلا ونهارا يمكن ان يصعدها فقط المعز الجبلي، ان مجرد زلة احدى اقدامهم لا يمكنك العثور على قطعة من اجسامهم، ومع هذا، فانهم لم يتذمروا من هذه الحالة، او يندموا من كفاحهم، لكن فها ان الحكومة اقدمت على هذه الخطوة وبادرت الى مد يد الصداقة لهم، وتقول تعالوا لنتفق، تقول هذا سواء تصدق في ذلك ام تكذب، اذن في هذه الحالة يجب ان يقولوا لا..ابن الكلب لا نأتي نحن، سنواصل قتالنا. اذا كنتم تتذكرون في بيان اجتماع (عةودالان) لكونفراس البارتي اعتبر القتال خطوة اضطرارية لحماية شعبنا من هجوم القوة الضارية للعدو، وقد اطلق على پێشمەرگه كقوة مقاومة وطنية، لذلك يجب عليهم ان يثبتوا للكورد ولشعوب العالم، بأننا من دعاة السلام، وقد فرضت علينا الحرب عنوة، ولا يتحقق ذلك بالقول وحده، حين قالت الحكومة ها انني اوقفت القتال وابدي استعدادي للتفاوض معكم، يجب ان يقول هم ايضا طيب ويتفاوضوا بكل اخلاص لتحقيق الحقوق المشروعة بطريق السلم والصداقة، اذا ما صدقت الحكومة ومنحتنا حقوقنا وبلغنا امنيتنا الكبرى بثمن قليل نسبيا، وفيما اذا كذبت عندئذ ستهان وتحتقر في الدنيا اكثر، والكورد لم

يلق السلاح ولم يتوقف عن النضال. تصبح القضية استراحة، والإستراحة لا تذهب هباء، ويكون الإنشغال في جمع الأوجه لجمع ولخزن الأرزاق لمواجهة اسوأ الإحتمالات ، لذلك في وجهة نظري لا يحق لنا ان نطعن فيهم بشكل عشوائي، مهما يكن لا يجوز (ان يكون الحجر اشد حرارة من النار)!

* * *

(٣٠)

بينما كانت حەپسەخان واختها تودعان الضيوف ذات مساء، فاذا بسيارة لاندروفر وقفت امام دارهما، فنزل منها عدد من ثيَشمةرطة، وما ان ابصرتا ثيَشمةرطة حتى وان صرختا.وي روحي فداكم انه علي والآخرون، ومن البعيد تقدم علي ضاحكا حاملا محجنا بيده نحو الداخل، وقد بدأ التعانق فيما بينهم وقرت الأعين، فدب الصياح والصراخ في الباحة، وحاجي مجيد الذي كان عائدا الى البيت توا، كان جالسا في الغرفة، نظر من النافذة الى الباحة بحيرة، وحين رأى انهم الأبناء، فهو ايضا اسرع اليهم وبدأ بمعانقتهم وتقبيلهم. ولكن مع تلك الفرحة التي اراد اظهارها، فان رؤية ابنه علي بمحجن وبخطوات الأعرج، ضعيف شاحب الوجه، لقد خفق قلبه الى حد لم يتمكن من ان يخفي اكتئابه وانقباضه.

حين دخلوا الغرفة، لكي يبدد حسين هموم والده، بدأ بالكلام المعسول ثم وجه كلامه الى والده قائلا:

– آ ، حياتي حاجي، لا يحق لك الإكتئاب، فها كاكه علي امامك فلله الحمد والشكر كله حركة ونشاط فإنه فرح ومبتهج.وفيما يخص رجله ليس فيها شيء ان يكون مبعث القلق والحزن. وقد انجرح قليلا في معركة چەمى ريّزان، والآن ولو كان ثمة شيء من الشك في شفائه لما فسح له الطبيب ان يعود اذا لم يعالجه معالجة كاملة، فأنت لا تعرف اي شخص خبير مختص ومخلص داوى جرحه، فبناء على طلبه يحمل المحجن، قال له امش اسبوعا عشرة ايام به لكي لا تبقى آلام رجلك، واخيرا كما قال الرجل انه هكذا، اجل.

تلقف علي الكلام من فم حسين، وقال بابتسامة جذلة:

انه كوردستان او الفناء، ابي العزيز فها انا باق ماثل امامكم، جالس ضخم وطويل!!

مس حاجي لحيته بكآبة وقال:

– ياربي مئة مرة شكرا، وقد قال بعض الأقوال في سر وخفاء، يبدو انه كان يقرأ الأدعية ويتوسل الى الله متضرعا، وضغط على نفسه كثيرا لئلا تدمع عيناه، وهنا دخلت حه بسه خان الغرفة والتفتت الى زوجها وقالت:

– ما بالك يا رجل؟ بدلا ان تقوم بالحسنة والعمل الخير وتشكر الله الا انك مكتئب وتحزن، ، وضعت يدها على كتفه وقالت بدلال: اذن ورأس علي لا تعكر صفو فرحتنا، فالولد سالم وسليم لله الشكر، لا تجعله مهموما!

ثم ان علي اخذ يتكلم لإسعاد والده. تحدث عن الأوضاع عامة والمفاوضات وقال: اذا ما ذهبوا هذه المرة، فأنا ايضا اذهب معهم، ان اقوالهم الى الآن لا بأس بها، يحدونا الأمل بأن يكونوا افضل، مهما يكن فان الذهاب احسن لنعرف نتوصل الى اي شيء؟ واذا ما ذهبنا ساعيد كوردو وامه معي لك، اعرف انك تفكر فيهما كثيرا.

قال والده فرحا: الا والله ارغب كثيرا ان اراهما، قبل ايام جاءت رسالة نةوبةهار كتبت، يبدو ان قدوم كوردو الحبيب كان خيرا، فالشكر لله حدث انقلاب واطيحت بالحكومة السابقة، فإن شاء الله تترتب عليه اشياء اخرى كثيرة، نهض حاجي واقفا ورددد:

رحبك الله بالخير يا ابني، ليعمر بيت الله، الف شكر، اراد ان يدعو دعاء آخر قاطعه علي وقال مبتسما: ابي العزيز الا ان الذين استشهدوا ماذا يقول الآن آباؤهم وامهاتهم، وماذا يفعلون، اعلم ماذا حدث لكم بهذا الجرح البسيط لساقي؟!

هز والده رأسه وقال: ماذا اقول يا ابني، والله اي شيء اقول لهم فلا يزال قليلا، اقول الله يمنحهم الصبر والسلوان، اقول الله يجازيهم، لا ادري ماذا اقول، لا يحضرني قول يكون على قدر فاجعتهم!!

قال علي: بالله يا ابي العزيز لو اقص عليك موضوع والد شهيد، ستتذهل، ربما لا يصدقني احد.

كاد والده ان يجلس ثانية، ولكن علي لكي يفهمه بأنه في حالة نقاهة، هو نهض واقفا بجانب والده وقال: قبل المعركة الأخيرة حدثت معركة أخرى في

منطقتنا. وقد استشهد احد افراد البيْشمەرگه من اهالي القرى القريبة منا، اتخذ قرار باقامة العزاء في المقر. وما ان انتشر الخبر ولم ينتشر قالوا ان والد الشهيد جاء ليقابل احد مسؤولي المقر. تريد الحقيقة انذهلنا جميعا، يقول هذا اذهب انت ويقول ذلك ان تذهب انت افضل، لأن احداً ما كان يطاوعه قلبه ان يلتقي ابا مفجوعا ثاكلا، وكذلك كانوا يوجسون الخوف ان يهيج ويقول قولا بشكل ما يؤدي الى ازعاجهم، لأنه كان ابنه في الحقيقة كان رجلا لا مزاحا، واخيرا ذهب شخص مضطرا، ولو كان خائفا قلقا، يبدو ان ساق علي كانت توجعه لذلك قال لأبيه: لنجلس ابي العزيز فالموضوع طويل قليلا، ثم انه انهال على الكرسي القريب منه، وعاد الى سرد الحادثة وقال: اذا تريد الحقيقة لا هو فقط بل جميعنا نحن كلنا كناخائفين وقلقين لماذا لم يعد...) لم يتمالك حاجي نفسه وقال: طيب لماذا كان قادما؟"

قال علي بهدوء: قال والد الشهيد لرفيقنا، سمعت بأنكم تريدون اقامة التعزية لأبني (عزيز) الذي استشهد بالأمس، انا اقول لا تشغلوا انفسكم بتلك الأشياء، خذوا حق الكرد ثم اقيموا تعزية كبرى لجميع الشهداء، حينئذ حسب عقلي يكون لنا وقت الإحتفال وليس المناحة، والا كيف يكون ذلك، كل من يقتل ان يقام له مجلس التعزية. وحياتي ان على عاتقكم مهمة مفروضة، كونوا اناسا طيبين، لا تقتلوا وقتكم الثمين بمثل هذه الأعمال، وضع علي يده على كتف والده. حيث كان جالسا بجانبه لكي يسمع كلامه جيدا وقال:

- اذن ابي العزيز ماذا تقول لوالد هذا الشهيد؟

((اقول ماذا؟ اقول مئة رحمة على قبر ذينك الوالدين فيما انجبا رجلا هكذا، فليكن نجاته عند الله لذاته ولنفسه، لقد انتعش قلبي حقا، لم يساورني شك بأن الكورد لابد ان ينتصر ، عزيزي لا يجوز بأي شكل من الأشكال ان تنسوا اسماء امثال هؤلاء الأبطال...)

جاء حسين اثناء هذه الأقوال وقال: ((ابي العزيز كيف ننسى هؤلاء الأشخاص؟ نعد هؤلاء الأشخاص معلمين لنا، ونجعل من اعمالهم نماذج لنا ولكل كوردي مخلص)).

ران الصمت على الجميع الى ان كسر حاجي الصمت فسأل علي: يا تُرى هل انهم يمنحون الكورد شيئا؟ اخاف انهم ايضا يراوغون معنا ويخيبون آمالنا!)

علي الذي كان خياله منصبا على الشهيد عزيز واقوال ابيه الشيخ ا اسماعيل، صحا على صوت والده وقال: الحقيقة يا والدي، كما عرضت لم تظهر لحد الآن نتائج المفاوضات، فحين يلتقون بوفدنا ويتكلمون معهم يظهرون بانهم ينفذون حالا مطالبنا، بينما ما ان ينهوا الإجتماع الاّ وان يعودوا من جديد الى تقديم الذرائع، ويقولوا فلنتحدث عنها بعد او نستأنس برأي الحزب، وفي نهاية المطاف يضعون في طريقنا ثغرة...عقبة، ويجدون حجة، ومع هذا ان بعضهم كما يقول الرفاق، يرغبون بكل قلوبهم ان يتحقق هذا الإتفاق، ولكن اكثرهم لا يحبذون، يخلقون له دائما العراقيل، ولكن مهما يكن، كما اظن يتجه نحو التراجع، وحتى في النهاية لم يعطوا اي شيء، فانه شيء جيد، لأن توقف القتال هذا استراحة للپێشمەرگه وللناس، فاذا ما اساؤوا سنسيء اليهم، واذا احسنوا سنكون احسن معهم، نحن لسنا من دعاة الحرب، لكننا لن نتخلى عن حقوق شعبنا، سواء حققناها بالقتال ام بالسلام، لا شك نفضل ونحبذ طريق السلام، وهم حسب اختيارهم.

قال حاجي: ماذا اقول يا ابني يصلحه الله، فالله يكون في عون هذا الكورد الفقير، ونحن لا نمتلك غير دعاء الخير. وقال علي: على الله، لنعرف ما يقولون لفظا هل تنتهي هذه المرة وتحسم كافة الأشياء ويصدر بيان..؟"

هنا دخلت حه بسه خان وروناك الغرفة بوجه بشوش وقالتا: هيا انهضوا ننتظركم في الغرفة للأكل.

مسكت ام علي يد ابنها وقالت: يا الله قم فداك روحي كل شيئا، والتفتت الى زوجها وقالت: وانت كف عنه، هو الآن منهوك القوى، لا توجه له الأسئلة الى هذا الحد يا عجوز.

* * *

بعد يومين ثلاثة ايام جلب صديق رسالة لعلي، كتب فيها لأن قيادة البارتي ارسلت تقريرا كاملا حول مطالب الكورد الى (مجلس قيادة الثورة) فان ارسال وفد الى بغداد يؤجل اسبوعا واحدا لكي يمنحهم فرصة دراسة التقرير.

ان خبر تأجيل ارسال الوفد الى بغداد وارسال تقرير حول مطالب الكورد خفف من جهة موجة الصراخ والصياح وغير الوضع من جهة اخرى وقد فهم الناس الموقف الصحيح والمنظم والمخلص لقيادة البارتي، واخذوا ينتظرون بكل اطمئنان.

وكان تأجيل ارسال الوفد الى بغداد عند بيت علي خبرا مفرحا جيدا، وحتى عند علي نفسه، ولو لم يعبر عنه، وكان السبب الكبير لفرحتهم، هو انه يعطي مدة اكثر لعلي حيث يتماثل فيها للشفاء تماما، ولكن ما يتعلق به اضافة الى هذا، واهم من هذا هو انه يعطي فرصة اكثر لقيادة الثورة الكردية ان تنظم من خلالها شؤونها بشكل افضل.

وقد مر اسبوع حين جاؤوا وقالوا لعلي، ان يحضر نفسه بأن الوفد سيتجه الى بغداد غدا بناء على طلب الحكومة.

ذهب الوفد الى بغداد والناس اخذوا يتنبأون، وكانت حەپسەخان التي كان ابنها ضمن الوفد اكثر انشغالا من كثير منهن، وكان ذهنها متشابكا وما حولها اكثر ازدحاما.

* * *

(٣١)

بعد ايام من ذهاب الوفد، عاد حسين ذات ضحى الى البيت بوجه بشوش، استقبلته امه بلهفة وقالت: ها ما الأخبار؟ الم يحدث شيء؟

حمل حسين على والدته بشوق وقال: طيب اذا ما بشرتك ببشرى ماذا تعطينني؟ نزعت امه منه يدها بسرعة وقالت: هيا يا ولد قل لي بسرعة ما بشراك، اعطيك ما تريد!

قال حسين:

((انتهى! شكرا لله سيصدر في الساعة السادسة من مساء اليوم البيان. اذن اي شيء احلى من هذا الخبر؟ لقد تلفنوا صباحا من بغداد)) حين سمعت الأم هذا الكلام حملت على ابنها بشكل شوهت رأسه ووجهه واخذت تقبله، ونادت البنات بصوت عال:" نه سرين روناك يا بنات اركضن لنبشركن ببشرى مفرحة. جاءت البنات وجارتها حلاو التي كانت هناك بسرعة تلبية لندائها، وحين سمعن الخبر دب فيهن الصراخ والصياح والجلبة، اسرعت حلاو في الحال الى بيتها، واخبرت كل من صادفته في الطريق، فأخذ الجيران بالتهيؤ، وما ان سمع البعض الخبر حتى وان فتحوا الراديو حالا ورفعوا صوته ولو ان معظمهم ما كانوا يفهمون العربية. ولم يكن من المتوقع ان يذاع البيان في تلك الساعة بالكوردية.

لقد كان اصحاب الدكاكين سامعين الخبر قبل الآخرين لذلك كانوا سادين دكاكينهم حالا، ومن كان عنده الراديو وعاد الى البيت والذي لم يكن يمتلكه كان ذاهبا الى المقهى ليستمع الى البيان.

ولو ان روناك فرحت، وهي ايضا قفزت، لكنها جزعت حالا، وقالت في نفسها، يا ترى او لا يبقى بعد الذهاب الى الجبال وماوەت)) فماذا يفعل بيستون اذن" ولكن عادت الى رشدها فجأة إثر سماع صوت اخيها حسين، ولحق بها

وجر جدائلها الجميلة بمزاح مرة اخرى وقال: تعالي لأعرف أأنت فرحة جدا حيث يصدر البيان" صفع وجهها الوسيم اثنتين ثلاث صفعات خفيفة، فلتت روناك نفسها من بين يدي حسين وقالت:

((بالله عليك كاكه حسين لا تفعل ذلك، فليس لي واهس))

قال اخوها: "ماذا تقولين؟؟ كيف لا يكون لك واهس في هذا اليوم السعيد؟؟بدأ معها باللعب والصياح ولوي يديها، ضجت روناك بالصياح والضحك انهك منها القوة، فاصبحت كالحبل من بين يدي اخيها. اسرعت روناك بخفة حركة وهجمت على يد حسين وعضته بقوة وفلتت منه وهو يلاحقها، ضجت امه بالصياح وقالت: كفى يا ابني، ما اشد رغبتك في المشاجرة))

اسرعت نەسرين اليهما، ففي هذه المرة اطلق حسين روناك، والتف على نه سرين، حينئذ ضجت هي بالصراخ.

اصبحت الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين، خيم السكون والهدوء على الشوارع والأزقة، كان الجميع عائدين الى بيوتهم، وقد ذهب البعض الى بيوت الآخرين ليكونوا معا في ذلك الوقت.

وصلت آمه خان وزوجها وابناؤها الى بيت اختها بارتباك وخفقان القلب لئلا يضيع منهم الإستماع الى البيان.

التفت كاكه حاجي الى زوجته آمه خان بشبه عصبية وقال:

هل اطمأن قلبك؟ لا زالت الساعة السادسة الا الربع، فكنت تقولين باستمرار لا نلحق اسرعوا ، لقد ضاقت الدنيا في عينيك!"

ضحك حسين وقال: خالتي العزيزة حتى اذا لم تلحقي في الوقت المناسب، كان يكرر حتى الصباح مئة مرة، لا تحزني فلم يضع منك، مسحت الخالة بضيق النفس عرق وجهها، واعادت وشاحها الى رأسها، ولملمت نفسها جيدا وجلست وقالت: وافرحتاه، زاد فضلك يا ربي ما احلى اليوم!َ

جلس الجميع، كلا الحاجبين جنبا الى جنب، والأبناء كل واحد منهم في مكان، كان هذا يقول تعال اجلس هنا، وكان ذلك يقول تعال اجلس الى هنا، والآخر كان يقول هنا افضل، والآخر كان يقول)):

يا اطفال اذا ما بدأ اسكتوا لا احد ينبس ببنت شفة، مسك نەورۆز بيده القلم والدفتر وقال: من الأفضل ان اكتب المواد. ولو ان الكثيرين يسجلونها))

قال حسين: غدا تنشرها كل الصحف، وهو ايضا مسك قلما قالت حه بسه خان: ومتى تتعشون؟ صرخ زوجها قائلا، هل هذا الوقت وقت الأكل؟ من يشتهي الأكل الآن))

قال توفه: والله انا جوعان، وان تصبوا لي حصتي آكلها اثناء استماعي للبيان، ضحك الجميع، كمت نەسرين فمها وقالت: دون ان تمضخ!!"

كاد توفه ان يرد عليها، قال حاجي:

– كن رجلا طيبا لا تثر ضجة، فلت لسانها، سامحها دعونا لنسمع الراديو..."

كانت الساعة السادسة الا خمس دقائق، وضعت موجة الراديو على أعلى صوت، وحركت هوائيته عدة مرات نحو هذا الطرف وذلك الطرف، هذه الجهة وتلك، لكي يعرف من اي جهة يصدر الصوت بشكل افضل، لقد دققوا النظر فيه واسترقوا السمع له.

كانت ساعة الإذاعة تدوي، وكان البعض من الجالسين يهزون رؤو سهم واحدا تلو الآخر مع دوي الدقات الست للساعة، في بداية تقديم الأخبار، ذكر الراديو مقابلات رئيس الجمهورية لذلك اليوم، دبت في المستمعين الهمهمة والحركة، قال حاجي مجيد بهدوء وتوأدة، كأنه يريد ان يوقظ طفلا وغدا وهائجا: كلا، لا يبدو ان هناك بيانا، لو كان ذلك فلا بد ان يكون اول خبر))

كما ان حسين كوالده قال هامسا: لا يا والدي ليس هكذا، فالبيان يذاع مع الأخبار" ضربت آمه كلتا يديها واحدة بالأخرى. مدت آمه خان يدها بهدوء وغمضت عينيها والقت نظرة على سقف الغرفة، كأنها تتضرع الى الله، وتوفه كان يضغط على نفسه الا يتمضغ، غص الأكل في حنجرته اثنتين ثلاث مرات اضطر خوفا من السعال ان يركض الى الباحة وكال مع نفسه شتما للحكومة وقال:

– بيان، بيان!! صدر بيان جيد"

بعد ان انتهى توفه من الأكل، عاد الى عند الجماعة، نظر اليهم فرأى انهم جالسون بملالة وسآمة واكتئاب، وقد استرقوا السمع والإذاعة تتطرق الى مواضع جانبية، سأل توفه باشارة هل حدث شيء؟ وضع حسين اصبعه على فمه ان يسكت، وهو ادار نظره في الغرفة، فرأى ان حاجي مجيد في حالة لا اله الا الله وأخاه يتطلع الى سقف الغرفة كأنه يشاهده لأول مرة، وكان نەوروّز ينظر فقط الى يده واظافره، وكان احيانا ينزع الخاتم من اصبعه ويعيده ثانية الى اصبعه، وقد بدت نه سرين انها فقدت صبرها، فخرجت من الغرفة وتابعتها روناك، وحين رأى توفه ذلك، خرج هو ايضا صامتا.

لقد انتهت نشرة الأخبار تدريجيا، وفتر حماس الجميع، وكان التذمر والغضب والقلق يتطاير من وجوههم، نهض حاجي مجيد واقفا وقال: "يا جماعة ان هؤلاء لو تكسر عظامهم تجد فيها بدلا من المخ الأوساخ)) انهم لا يفعلون شيئا ايعطون حق الكورد؟ تخيلاتهم عميقة؟ قال هذا وتوجه بعصبية نحو الباب، لم يكن خارجا بعد فاذا بالراديو قال: سيذاع الليلة بيان هام في الساعة العاشرة، انتظروا رجاء.

عندما سمعوا هذا بدأ الجميع بالتصفيق والصياح والضجيج، انتعش وجه حه بسه خان، والتفتت الى زوجها ولوحت بيدها وقالت: اولماذا بهذه السرعة بدأت تشتم؟ فكان من المفترض ان تصبر قليلا، لأن المسألة ليست مزاحا!! ليس هم وحدهم، انما جميع الناس الآخرين كان هكذا حالهم، وقد سارعت جارتهم حەلاو مع اثنتين ثلاث من جاراتهم بالمجيء للسؤال عن حسين لماذا لم يصدر البيان، وهو اجابهن بأنه سيصدر ان شاء الله في الساعة العاشرة، فالراديو نفسه قال ستسمعون الساعة العاشرة بيانا هاما!

قالت باجي حەلاو: والله ماذا اقول، فأنا لا افهم العربية، فان مترجمنا هو برزو پرشنگ خان، الله يطول عمره معكم، حين ذهبت الجارات لأخذ الجواب الى بيوتهن، قال حسين ضاحكا: او لاتنظرون الى هؤلاء الناس المساكين، كيف ارتبكوا، جاؤوا يسألون حسين، كأن حسين عنده تلفون القصر الجمهوري!!

علق عمه قائلا: ربي ارحم هؤلاء الناس، والله حرم الجميع من النوم والأكل من اجل هذا البيان).

اقتربت الساعة من العاشرة ليلا، فكان جميع جالسي الغرفة في خوف وقلق، وقد حملقوا في الراديو، وقد جاءت اثنتان ثلاث من الجارات للأستماع الى البيان .

مرة اخرى تحول عندهم ربع ساعة، لا حتى دقيقة واحدة بل الى يوم دون ان ينقطع وينتهي، والأخريات ايضا كن مستعجلات، لم يتمالك توفه نفسه ونهض قائلا: اني تعبت ومللت، اذهب الى الغرفة الكائنة هناك، استلقي على ظهري، وعندما اسمع تصفيقكم وصياحكم اعود اليكم. كما ان روناك ايضا ضجرت. وكانت في تثاؤب متواصل قالت لأمها: انا اذهب لأنام، ولكن اذا ما قريء البيان، ايقظوني...قالت ذلك وقامت ذاهبة الى فراشها واستلقت على ظهرها، فغمضت عينيها، وطارت بالخيال نحو بيستون (ماذا يقول الآن يا ترى؟ او يعرف الآن خبر هذا البيان، ليتني كنت على علم ماذا يفعل؟ ربي حتى اذا ما صدر البيان وجرى الإتفاق بينهما الا يقوموا بتخلية ماوەت، فقال ذلك اليوم كاكه علي نفس الشيء. اطمأنت روناك كثيرا بتذكر كلام كاكه علي فذهبت على جناح الخيال، فوصلت الى القرية التي كانت فيها اختها صبرية، رأت نفسها انها تصعد نحو المرتفع الى بيت خال بيستون، انزلقت رجلها ثانية وكادت ان تقع، اسرع اليها بيستون حالا وحال دون ذلك، ولكن مسك يدها هذه المرة وعصرها بقوة، ولم يتركها، فها انهما يصعدان يدا في يد، انهما عروسة وعريس، انها زفت منذ ايام، لقد استسلمت روناك للنوم، اثناء تلك الخيالات، الى ان صحت من صوت دق الباب والصياح والصخب والتصفيق، القت اللحاف جانبا وركضت لتذهب الى عند امها والآخرين، ولم تصل بعد اليهم حين بدأت الإطلاقات، وهي اقحمت الغرفة في ارتباك وعانقت امها وقالت بخوف: ماذا حدث يا امي العزيزة!!

ان والدتها بوجه مشرق مفرح قالت: حبيبتي انهم يفعلون ذلك من فرحة البيان، من البهجة يطلقون النيران...لله الشكر صدر البيان وقرئ .

نظرت روناك فرأت ان حسين وابناء خالته خفضوا رؤوسهم على الأوراق من امامهم، ويقرأون شيئا ويريه بعضهم لبعض).

فبدوا مشغولين جدا، وقد انتعش كل من ابيها وعمها، ويتكلم احدهما مع الآخر بهدوء لكي لا يربكا حسين والآخرين. وهنا وقد تبين ان توفه ايضا قد

استفاق من النوم اثر الصياح، جاء اليهم، وحين رأى ان نەسرين واقفة في الأيوان فتستمع الى الجلبة والإطلاقات وصوت منبه السيارات، تصفيق الناس، سالها: ها (نەسه) ماذا حدث، انتهى والشكر لله، ولد ابننا!؟"

قالت نه سرين بفرح: اي والله، له الشكر والحمد ولد منا ابن ذو اسنان من اللآليء. كانا اثناء تلك الأقوال حين طرق الباب، ففتحوه ، دخل البيت بعض المعارف والجيران، قالت احداهن والله كنت فاقد الأمل لدرجة حين ذهبت فأنمت الطفل كدت انا ايضا ان اغفو، وعندما سمعت صياح وتصفيق والد الأطفال انتفضت واعطاني البشرى المفرحة، وقالت الجارة الأخرى: والله انا ما كنت اتوقع ابدا ، قلت واخيرا اي بيان واي حال؟ كنت اوجس خوفا مثل ذلك اليوم ان يكون مرة اخرى خبر البيان الهام للراديو، موضوع مجيء ضيف كبير لرئيس الجمهورية.)

التفتت حەپسەخان وحين رأت ان ابنها وابناء اختها مايزال مشغولين في النظر الى الأوراق الماثلة امامهم، هذا ينظر الى ورقة ذلك ويكتب شيئا في ورقته، والآخر ينظر الى الإثنين الآخرين ويضيف شيئا الى ورقته، وهي تقدمت منهم ومدت لهم يدها وقالت: ابنائي لقد انفطرت قلوبنا، ماذا جرى؟ كأنكم ايضا منهمكون لإصدار بيان آخر. اما يكفي، عليه قولوا لنا ماذا يقولون؟ افهمونا!"

لقد انشرح صدر زوجها واخ زوجها اللذين فقدا الصبر من هذا الكلام. ومع ذلك لكي يظهر زوجها حاجي نفسه بأنه غير مهتم ومطمئن قال: يا الله، يا الله، اصبروا هنيهة اخرى، الآن يقولون لكم شيئا.

حين سمع حسين كلام امه، جمع حالا الأوراق وقام بابتسامة سارة وحيّا امه بتحية عسكرية وقال: تفضلي حه بسه خان، تأمرين مولاتي، والتفت الى الآخرين وقال: وانتم اجلسوا في اماكنكم لأقرأ لكم"

بدأ حسين بقراءة مواد البيان، وكان الجماعة كلهم آذان للإستماع الى البيان، وحين كان حسين ينتهي من قراءة اي مادة، كان نەورۆز يوضحها لهم ماهيتها وجوهرها. وكانت مواد البيان بشكل عام لا بأس بها، ولكن فيما يتعلق بأهم مطلب للشعب الكردي وهو ادارة كل شؤون كوردستان من قبلهم، لم يعترف بكل شيء، وقد ابقى الوضع على الأغلب كالسابق وعلى علاته، وقد تعهد بإعادة

الـذين اعتقلـوا بسـبب القتـال. او فصـلوا مـن الوظيفـة، مـع تعـويض الأضـرار والخسائر التي الحقت من هذه الناحية بالناس، وكذلك تعمير الأماكن والقرى والطرقات التي دمرت، وفتح المدارس ودعم وتنمية وتطوير الثقافة واللغة والأدب الكردي، وكان فيه ايضا ان يبقى پێشمەرگه كقوة مسلحة لحماية الحدود واعالتهم من قبل الحكومة كعساكرها، ولكن دون نقلهم من مواقعهم.

ولو كانت روناك الى الآن جالسة بينهم، لكن لم يكن بالها عند اقوالهم، ماعدا انها تريد ان تعرف مدى علاقتها بذهاب واياب ورؤية بيستون، لذلك مجرد ان ورد اسم پێشمەرگه، مرت رعشة لذيذة بجسمها، كادت ان تصرخ وتصفق، لكن تمالكت نفسها حالا، بدأت في قلبها بانحاء اللائمة على نفسها، آه لا خير فيك كاد ان تفضحي نفسك، او لم يقل الناس لماذا لحد الآن كانت الآنسة تتثاءب باستمرار، والآن عندما جاء ذكر اسم پێشمەرگه فجأة، طار النوم من عينيها واخذت تصفق وتصرخ وتضج، ويتخيلون فيّ الف خيال سيء، وكانوا يقولون: ان هذه خيرا فيها، كانت الفتاة المحترمة العاقلة، يبدو ان پێشمەرگه سلبوا قلبها، والا فلأي شيء كان تصفيقها وصراخها؟ او لماذا لم تنطق بكلمة للمواد الأخرى؟؟ "لا ان الله وحده انقذني، ان دق باب الباحة انتشلها من هذه الخيالات، قامت فذهبت على اثره فتحت الباب دخلت صبرية وشيروان البيت مع مجموعة من الأقارب والمعارف والأصدقاء الذين كانوا امام باب السراي وتلك المناطق.

حملت صبريه على امها وخالتها والأخريات فتعانقن، ومع الآخرين تبادلن قرة العيون، ودب فيهم الصراخ والضجيج والعجيج لا حد له.

ضربت آمه خان يدا بيد وقهقهت ضاحكة وقالت: اواه ان الساعة تشير الى الواحدة ليلا، فكل ليلة كنا نائمات في هذا الوقت ثلاث وجبات، بينما الآن لا احد يتذكر بأنه ليل او نهار!"

ضحك شيروان وقال: اوه يا آمه خان فماذا رأيت انت؟ لو ذهبت الى تلك الشوارع ستحتارين كثيرا، لا تعرفين من اين جاء كل هؤلاء الناس، كأن الأرض قد انشقت وخرج منها كل هؤلاء الناس!! نظر شيروان الى حماته وقال: ماذا

تقلن ان نذهب واركبكن سيارتي لأطوف بكن بتلك الشوارع لتعرفن اي زحام تقاطروا عليه!!.

سرعان ما قالت آمه خان: طيب جدا ومن هناك نعود الى بيتنا" عانقتها روناك وقالت: بالله عليك خالتي العزيزة لا تذهبن، بتن هنا!"

وهناك قالت امها لشيروان:"لا يا عزيزي ليس لنا واهس التجول. فنحن جالسون هنا، ثم ذهبت الى اختها وقالت لها: ما بك؟ اي بيتكن؟ والله لا تخطن خطواتكن، فها نحن جالسات يجب ان نكون معا في هذه الفرحة"

استلقت اختها على ظهرها من الضحك وقالت:

((والله هذا لطيف! اذن فلننتقل تماما الى هنا، اي بيتنا كما تقولين انت، فمنذ ان عدت من الجبال لم نكن فيه اسبوعا واحدا ، والبيت خال وخاو، باستثناء الفئران تمرح وتسرح فيه))

وفي الصباح وبالرغم من ان الناس انصرفوا الى اعمالهم ولكن كان الحديث كله منصبا على البيان (الكبير)، وكان ذلك يقول: اخي اي بيان؟ لا شيء فيه، فهو نفس الأقوال السابقة، لقد شحذوها قليلا، سوف ترى بعد فترة اخرى لا ينفذ منه اي شيء، ويستأنف القتال مجددا.

وكان البعض الآخر يقولون: والله ان امر هؤلاء الناس عجيب غريب، لا يرضون بأي شيء، طيب اذا كنتم غير راضين من هذا تفضلوا خذوا اشياء افضل؟ او لا تخجلون وقد ركنتم الى الإستراحة في البيت وتتبجحون بكلام اكثر من احجامكم الحقيقية، تفضلوا هذه ارض وهذا ذراع للقياس، فمن منعكم؟"

وكان آخر يقول: طيب لو كانت نية الحكومة حسنة، لماذا لم تجرد الجحوش من السلاح؟ بالله العظيم يقولون ان الحكومة واستهم كثيرا واعطتهم السلاح والنقود ضعفي السابق."

وكان شخص آخر يقول: يا ناس فداكم روحي، اذا نفذت الحكومة مطالب الكورد وابقت قوات الپێشمەرگه وخصصت لهم رواتب جيدة، وما شأننا بجحوشه، ان شاءالله تحملهم على ظهرها...!؟

علق رجل آخر:

"كيف لا شأن لنا بهم؟ انه واضح كالشمس في واضحة النهار، انها تعتصم بهم وتواسيهم لمقاتلة الكورد، وخوفا من الپێشمەرگە، وكلما احاول لا استطيع ان اثق واعتقد بأن هؤلاء المحتلين تصفو قلوبهم تجاهنا في يوم من الأيام!!"

وشخص من ذلك الطرف كان يقول: اخوتي ماذا تقولون انتم، اننا قدمنا كل تلك الخدمات لعبدالكريم قاسم فلم يصف قلبه تجاهنا، وفي حساباتنا لم يكن عروبيا، فكيف اذن تصفو قلوب هؤلاء، حيث يعدون كوردستان وسكانها جزءا من البلاد والأمة العربية؟! اضافة الى هذا انهم على قدر كبير من الإعوجاج واللف والدوران والمكر والخداع، يظنون ان الكورد ايضا من طينتهم، ولا يدرون ما اشد نقاءهم واخلاصهم ووفاءهم تجاه الشخص الذي يمتلك شيئا من الاخلاص معهم، او يحسن اليهم قليلا، فيقابلونه بالإحسان اكثر من المعقول، ولكن ماذا تقول للأنذال وسيئي الظنون...؟ مهما يكن، بالله بالنسبة لي، لست فرحا بأقوالهم، بعد صدور البيان بثلاثة اربعة ايام، عاد الوفد الكوردي الى الجبال والى الثيَشمةرطة، وترك علي زوجته وابنه كوردو عند امه، وترك والده، وتوجه هو ايضا الى الجبال,.لقد اصبحت حه بسه خان وزوجها وافراد العائلة من فرحة مجيء الكنة وحفيدهما على قدر آخر آخر من البهجة.

لقد انتعش الناس، ونمت وازدهرت الدكاكين والأسواق.

* * *

(٣٢)

بعد الأحداث التي مر ذكرها، وقفت ذات مساء سيارة لاندروفر امام بيت حه بسه خان، نزل منها شخص وطرق الباب، وكانت نه سرين آنذاك في الباحة، ذهبت لتفتح له الباب، وحين رأت من هم فتحته لهم على مصراعيه بشوق وحرارة، وصاحت بلهفة:"خالتي انها ام كاكه بيستون والأخريات"

ذهبت خالتها بوجه في منتهى البشاشة وبسرعة لإستقبالهن وقد فتحت ذراعيها لأم بيستون، وبدأتا بتبادل القبلات، وفيما بعد بدأ ركاب سيارة الجيب وافراد البيت في الباحة بالسؤال المتبادل عن الأحوال والأخبار بشوق ولهفة وحرارة، فحه بسه خان كأنها تلتقي بعد فراق طويل اقارب قريبة جدا منها، ثم دخلت الجميع الغرفة، وجلسن، وكانت كل واحدة منهن تروي الأخبار الحلوة والعجيبة لفترة الإنقطاع للتي كانت بجانبها. اما بيستون سرعان ما نفد صبره، تطلع بلهفة لا حد لها الى الناس وما في الغرفة وخارجها، وبسبب الوضعية التي كان فيها شعر بشكل متأخر ان والدته على الرغم من انها ترد على اسئلة حه بسه خان والأخريات، ولكن كما بدا لم تكن اقل ارتباكا وقلقا منه (اي اين روناك؟ لماذا لا تبين؟ يا ترى اين تكون؟ فالوقت ليس اوان الذهاب الى السوق، يكاد يحل الظلام، هوذا والدها قد عاد الى البيت، يبدو انها لم تذهب الى بغداد من عندهما في بغداد، ما عدا بيت اخيها، وهذا زوج اختها جالس في ذلك الطرف. ماذا؟ كلام فارغ. كيف يكون ذلك، هل من المعقول خلال هذه المدة عقد قرانها وزفت؟لا هذا محض خيال، كيف يمكن انجاز مثل هذا العمل بتلك السرعة، وبصمت مطبق؟ وهي ليست في بيت خالتها، فها ان آمه خان بكل افراد العائلة هنا!! اذن اين هي؟؟؟ لقد قاربت ساعتين منذ مجيئهم الى هنا، ان كانت في اي مكان لا بد ان ترجع الآن، وتوفه ايضا ليس هنا ليطلعني على الخبر اليقين بمكر وحيلة.

وكان قلب ام بيستون يزداد تدريجيا هما وحزنا، خاصة ان حه بسه خان لم تذكر اسم روناك بأي شكل من الأشكال، ومع هذا منذ ان اتوا تتحدث لهم عن حالهن وتمتعهن بقضاء الوقت وذكر اقاربهن واهلهن.

لقد تشتت خيال بيستون الى حد، عند ما يسأله والده، او حسين، او شخص آخر احيانا عن شيء، او كانوا يوجهون الكلام له، لأنه لم يكن يعود الى رشده بسرعة، يتلجلج لسانه، فكان يجيب بشكل متقطع، الى درجة جعل من حسين ونەورۆز ان يقولا له: اخي ان كنت تعبا وتنعس، اذهب وتمدد قليلا ونم. قال بيستون:

لا ورؤوسكم لست تعبا اذ لم آت مشيا على الأقدام"فكانوا في غمرة هذه الأقوال حيث كانت روناك وتوفه توصلا الى رأس الزقاق، وحين ابصرا سيارة اللاندروفر واقفة امام البيت. قالت روناك:

اي: هوذا كاكه علي الحبيب قد عاد"

فاسرعا ركضا الى البيت، وحين وصلا الأيوان وسمعا اصوات الجالسين في الغرفة، وقفا هنيهة ليستريحا، استرقت روناك السمع، وقد تناهى الى اذنها فجأة صوت مألوف وقد اضطربت وقالت في قلبها: يا ترى اجاء بيستون مع كاكه علي؟" دخلت غرفتها بسرعة وأنزلت عباءتها ووقفت امام المرآة الكبيرة وتأملت في نفسها، ورتبت مجددا بعضا من سيمائها، ومسدت مرة مرتين صدرها وتلابيبها وثوبها وصدريتها، بعدئذ خرجت، فرأت نەسرين زوجة اخيها وابن خالتها، حاملة صينية بأقداح من الشاي تأخذها للرجال وتسلمها امام الباب لأحد الأبناء، وحين رأتها نەسرين قالت:"ها حبيبتي نونه او عدت؟ بالله احسنت، تعالي يا بنت انظري لنا ضيوف لا حد لهم، ضحكت بهدوء وقالت: كما يقولون (لا يميز الكلب صاحبه" ثم ذهبت بسرعة وقالت ضاحكة: اسرعي واذهبي للترحيب بهم، لقد جاءت ام كاكه بيستون وكل افراد العائلة"

كاد ان يغمى على روناك من فرحتها، ولكن الحت على نفسها كثيرا بأن تصمد وتعود الى رشدها.

وما ان ابصرت ام بيستون، روناك، هجمت عليها بفرحة ولهفة فائقة واحتضنتها، وشبعت من تقبيلها، وهي قبلت يدها مرات، وتبادلت مع ابنتيها

بحرارة السؤال عن الحال والأحوال وتعانقتا، ثم جلست بجانب امها، وقد احمر وجهها لدرجة ان العرق اخذ يتفصد من رأسها وعنقها، كأن كل ما في جسمها من دماء قد ضخت في وجهها.

عصرتها امها بصدرها وقالت: فداك روحي لماذا تأخرتن؟ كنت قلقة عليكن، اذ استغرق وقتكن طويلا؟!

"والله يا امي العزيزة. لقد تأخرت بسبب اختي باجي صبرية، وذهبنا معها الى عيادة الطبيب، فمنذ الأمس تعاني من الحمّى، لم يفصحوا عنها مراعاة لك."

تلفظت ام بيستون قبل حه بسه خان وضربت صدرها وقالت: وي لا سمح الله ان تتمرض صبرية خان، لا شيء ان شاءالله!!" تنهدت امها وقالت: كنت اعرف انها تتمرض، اختي متى تسمع شابات هذا الزمن قول الكبريات، ذلك اليوم حين خرجت من الحمام، فمهما توسلت منها وقلت البسي صايتك يا بنتي، لفي رقبتك بالوشاح، لازال شعرك مبللا، لم تسمعني ابدا وقالت لي: لقد احرَ جسمي فيتصبب كله عرقا، الى ان صارت هكذا. اعوذ بالله من هذا العصر والزمن، والله كان لنا ثلاثة اطفال، حين كانت امي تقول لي افعلي هذا ولا تفعلي ذلك، كنت اطيعها دون ان انطق بكلمة، كان يصادف احيانا اريد ان اذهب الى الحفلة، لو كانت قائلة البسي هذا، وارتدي ذلك، كنت افعل ما تريد، فأين بقي ذلك!! ثم هزت ام بيستون وقالت: اوه يا ليتنا بذلك الزمن، حبيبتي راح وولى هذا الزمن ولن يعود!"

الى ان قالت امها وضيفتها تلك الأقوال، فإن روناك راحت اثنتين ثلاث مرات كل مرة بحجة الى الأيوان والباحة، وفي المرة الأخيرة حين عادت الى الغرفة التفتت الى اخت بيستون التي كانت في عمر ما يقارب عشر اثنتي عشرة سنة قالت لها: اترغبين يا سەرگول ان نذهب الى غرفتي، ان كنت ضجرة هنا.

قالت ام البنت لإبنتها: تصدق ما تقول هيا انهضن واذهبن مع روناك الحبيبة الى غرفتها."

وكانت بنتها الاخرى ذات السابعة من العمر التي كان اسمها (**خازي**) علقت قائلة: ((والله يا امي انا ايضا اذهب) فنهضت من مكانها، تحركت (**سەرگول**) قليلا، ولكن بدلا من ان تقوم مدت احدى ساقيها بهدوء، وغطتها بصايتها لكي

لا تظهر، وقد لفت رأسها وعنقها بوشاحها كالعجائز وقالت: لا والله لست ضجرة، الله يعمر هنا ايضا طيب جدا، ولكن ان تجلبي لي حبة للصداع يجزيك الله خيرا. ان رأسي يوجعني بعد الشر عنكن قليلا، اظن انه بسبب ترنح وتمايل سيارة الجيب.

ضغطت روناك على نفسها الا تضحك، لأن كلام الطفلة نسبة الى عمرها كان ضخما كثيرا وقالت على العين فاذهب حالا آتي لك بحبة، خرجت من الغرفة راكضة وكمت فمها وضجت بالضحك كي لا يسمعنها، ذهبت الى المطبخ بسرعة عند نەسرين ونه وبه هار اللتين كانتا مشغولتين بالطبخ. قالت نەسرين:

ما هذا يا (نونه) ماذا حدث تفورين هكذا؟؟

طفرت الدموع من عيني روناك بسبب ضحكتها وقالت: ((والله اضحك من سەرگول، اعوذ بالله كأنها حماة امها! او نظرت الى صايتها ووشاحها وحرملتها؟ حكت لهما اقوالها وقالت: فها جئت لآخذ لها حبة الصداع للجدة (سەرگول)

وهما ايضا ضحكتا وقالت نەسرين:

حين كنا في ماوەت، كنت اصادفها بعض المرات، فكنت اظن انها عجوز استصغرت، وكانت تنقصها سبحة ذات واحد ومئة فص، وتقلدها وقد قهقهت نەوبەهار وجارتها حەلاو التي جاءت لمعاونتهن بالضحك. وحين رأت حەلاو بأن فوران ضحكات روناك لم يخمد، مدت يدها الى قدح وصبت فيها قليلا من الماء وقالت:

((اعطيني يا (نونه) الحبيبة الحبة لآخذها لها، يبدو انك لن تعودي الى رشدك بسرعة، واود ان ارى (الجدة سەرگول) قالت روناك بفورة من الضحك: والله سأكون ممنونة، لا اعتقد ان اتمالك نفسي هناك.

مرت مدة غير قصيرة، عندئذ خمدت ضحكات روناك، وتمكنت ان تعود اليهن.

كانت روناك في تلك الليلة تعيش في دوامة لا حد لها، وقد اطار القلق والخوف لذة النوم من عينيها، خاصة لأن امها اعطت غرفتها للضيوف لينام فيها، فكانت قادمة الى غرفتها ونائمة بجانبها. لذلك لم يأخذ النوم سبيلا الى عينيها معظم الليل، لكنها لاذت بالصمت المطبق، وكانت تتقلب على جنبيها

بكثير من الخوف، لئلا توقظ امها، تسألها عما جرى لها، خاصة قبل ان تذهب الى الفراش، سمعت بعض اقوال امها وام بيستون، لم تسامرها الريبة انهما تتكلمان حولها، ولكن آه، كانت تخجل ان تستمع لهما بشكل جيد، فكانت تخاف ان يدا همها احد، ويراها في هذه الحالة، فتنفضح تماما، للأسف سمعت فقط ان امها في ردها لأم بيستون قالت: انها الآن صغيرة لا اعتقد ان يرضى والدها، ولو انه يريد خاطركم كثيرا، واخيرا لم تعرف كيف انتهى كلامهما، ولكن القول الأخير لهما فإن امها عانقت ضيفتها بحرارة وبصوت ان تسمعه هي في غرفتها قالت لها: بالله انظر اليك كاختي آمه بل اكثر، ان الكلام الأخير لأمها قد اثلج صدرها، ولكن مرة اخرى طال عدم نومها الى حد انهضتها امها وقالت لها: ما هذا يا حبيبتي نونه، اما زلت لم تنامي؟؟" مهما حاولت لم تتذكر متى نامت وكم نامت؟ ولكن تبين انها لم تأخذ قسطها الكافي من النوم، بأن النوم قد طرق بابها في وقت متأخر من الليل!

ازاحت والدتها اللحاف عنها بهدوء، وانحنت عليها وقبلتها، ودغدغتها بشيء من الرفق وقالت: قومي يا بنتي لا تنامي عيب عليك، لقد جاءت طالبات يدك!" لقد سحبت روناك لحافها على وجهها وقالت: اوه امي، ما هذا؟ لماذا تقولين هكذا؟ ولكن من فرحة قول امها، نسيت النوم، ازاحت امها اللحاف عنها من جديد وقالت:

((قومي يا بنت اقول لك قومي يا روناك!)) وهي نهضت بدلال وجلست في فراشها وفركت وجهها، ومسدت شعرها الجميل وقالت بابتسامة:

– "امي ما ذلك الكلام الذي قلته؟ كنت تذكرين من؟ انا؟ والله ما ينقصنا الا هذا!؟ قالت بعصبية مصطنعة:

اي زواج يا امي؟ والله ان الذي يقول كذلك انا اعرف ماذا افعل به !!"

قالت امها بصوت خافت: اوه لا تقولي ذلك يا بنتي، فكل بنت عندما تبلغ عمرا معينا يأتي الناس لطلب يدها، وهذا ليس عيبا ولا غير شرعي، لقد خلق الله البنت للتزويج والإبن للزواج والتأهل، ثم ان كل العمل لا يحسم بطلب اليد، من يقول ان والدك يوافق." قالت امها هذا وصفعتها صفعة خفيفة وسحبت ذراعها لتنهضها وقالت: انت الآن لا زلت طفلة صغيرة والا ارغب كثيرا، فان

بيستون ولد طيب جدا يليق به كل شيء، وفي الحقيقة احب هذه العائلة حبا جما، كانت حەپسەخان مستمرة على هذه الأقوال، بينما كانت روناك منهمكة بالدندنة والدمدمة والتعبير عن الإحتجاج، وكانت في قلبها اوشكت ان تطير من الفرح والإبتهاج.

مرت ثلاثة ايام وكان اهل بيستون مازالوا هناك، تبين ان حەپسەخان بعد جدال طويل تمكنت ان ترضي زوجها حاجي مجيد، ولكن بشرط الإنتظار حاليا ليعرفوا ما يؤول الوضع الى نتيجة، وعلى الأقل الا يذكروا الإقتران واي شيء من هذا القبيل حتى سنة اخرى.

سرعان ما اخرجت ام بيستون صرتها وقلدت روناك قطع قديمة ثقيلة من الحلي باسم النيشان.

لقد تبين ان بيت بيستون قبل مجيئهم لطلب اليد اخبروا اخوان روناك بأنهم يذهبون لهذا العمل الخير، لذلك كانتظار كانوا ينتظرون نتيجة مجيئهم، وحينما سمعوا ان والديها وافقا فرحوا جدا، لأنهم كانوا يحبون بيستون كثيرا، وكانوا مطلعين على كل جوانبه ويعدونه مخلصا لهم. بينما لم يرق العمل في نظر آمه خان وصبرية، وكانتا تعاتبان حه بسه خان فكيف بدأت بهذه العجالة بالهمسات مع والدة الإبن ولفتا المسألة، وقد وافقت بمثل هذه السهولة على الإقتران برونـاك. وقد دمدم عم روناك قليلا وقال: كان من المفروض ان يفكروا اكثر في المسألة، لماذا تسرعوا الى هذا الحد، فبقيت لهم هذه البنت فقط، كيف يجوز الاّ يبالوا بأن الولد يأخذها ويذهب؟ من يقول ان هذه الطفلة المسكينة تتحمل معهم في تلك الجبال. فهذه ليست رحلة شهر واحد شهرين، تقضي كل عمرها هناك، فحين دمدم هذا عند زوجته فنهرته وقالت له: لا تتدخل فيما لا يعنيك، بالله كانت اختي حەپسه توافق دون تردد. بدلالة اننا حين كنا في ماوه ت كان لسانها دائما يلهج بالمدح والثناء لهم، وبما يمتلكون الزراعة والمواشي والأراضي والبساتين بالمقادير التي كانت تعددها، والآن لا تقتنع بكلامنا، ولن تتراجع عن وعدها، عليه ان تقتنع بكلامي، اصمت (ولا تخسر جوهرك)

وبدأت صبرية ايضا بالصراخ مع والدتها ولكن دون جدوى. بعد سفر بيت بيستون، وبشكل تدريجي جعل مثل هذا النوع من الدمدمة والمعاتبة من قبل

الأخ والأخت وبعض الأقارب من والد روناك في موافقته على زواج روناك متشككا، حيث كان يرى ان زوجته هي مسببة في ذلك، ما كان يمر يوم الا يدخل معها في صراخ وصياح ودندنة، خاصة حين كان يتذكر ان بنتها المدللة الجميلة تبتعد عنه بشكل يحتمل الا يراها مرة واحدة في سنة واحدة، انه يحقد عليها يكاد يفقد صوابه بحيث يخلط الحابل بالنابل، كانت حه بسه خان على رسلها وبهدوئها وضبط النفس، جنبت نفسها من هجمات زوجها، ولكن احيانا لم تكن تتمالك نفسها، فكانت ترد عليه، مثل تلك المرة التي اخذ حاجي يدندن ويعاتب، واثر ذلك قالت: "علاما هذه الدندنة يا رجل؟ لابد ان تزوج البنت، وان بيستون انسان طيب للغاية، وهو من عائلة مشهورة ومحترمة، وهو منذ سنوات رفيق للأبناء لم يلحظوا منه اكثر من المروءة؟ اذن ماذا دهاك يا عجوز ولماذا تحقد عليه؟ ولم تقل انذاك لا اوافق فكفى!؟"

لماذا او فسحت لي المجال ان افكر في المسألة، فالحت عليّ بشكل متواصل لأنك كنت تريدين تحقيق العمل، ولم تتركيني ان افكر فيه، ان استشير احدا، بقيت لنا هذه البنت وحدها، فلماذا وعلاما هذه العجلة والسرعة؟ حتى وان كنا نزوجها، كنا نعطي لرجل ان يكون في المدينة، ولن تبتعد عنا، عليه علام هذا الذهاب الى الريف؟ بالله حتى انني لا اعتقد ان تتحمل في تلك القرية، لقد دمرنا هذه البنت تماما، وكل هذا كان من ذنبك!!"

– "لماذا وما عيب الريف الذي اضحى عندك جحيما؟؟ كله كان بالأمس حين كنا في الريف، لا نستبعد ابدا ان يتردى الوضع مجددا، عندئذ تضطرون جميعا ان تلتجئوا ثانية الى الريف"

– ((اي وضع يتردى؟؟ فالشكر لله حسم كل شيء، لم نر حتى في المنام شيئا هكذا، فانك نائمة في اذن البقر؟ غافلة عن كل شيء، اذهبي فانظري الى الأسواق والدكاكين، لقد تحولت (**الدنيا الى الشام الشريفة تماما**)، انظري الى طريق بغداد، حيث لا يمكن الحصول على السيارة والقطار بسبب تنقل الپێشمەرگه والأكراد، استمعي فقط الى اذاعة بغداد، القسم الكردي، ستفهمين ما اشد سهوك، فكل يوم تبث مرتين ثلاث مرات اغنية (**حبيبي انه الربيع**)!!

سخرت منه حەپسەخان وقالت: فليكن يا ربي هكذا، ثم من لا يرغب؟ ولكن هذه الأقوال في نظري كلها مراوغة وتفريح النفس، ثم حدث يوم امس حيث قالوا ان احد افراد الپێشمەرگه ذهب الى كركوك لزيارة بيته واهله واطفاله، وفي غفلة منه اطلقوا عليه الرصاص في السوق وقتلوه! اهذا خير فيه؟؟!

قال زوجها: هذه كلها تحدث، ثم لا يستبعد ان يكون قتله عدواة شخصية؟!)

– ماذا تقول يا رجل، والله كلها من دسائس الحكومة، فأنها تحرض في الخفاء جحوشها وكلابها وذئابها ان يفعلوا مثل هذه الأفعال وكما يقولون ان الثيَشمةرطة المقتول كان للغاية انسانا جريئا شجاعا شهما. كان رجال الأمن حاقدين عليه كثيرا لأنه في يوم ما قد اختطف منهم واحدا واثنين منهم بمساعدة ثيَشمةرطة الداخل ولو ان هذا الخبر قد ادخل الخوف في قلب حاجي وكان يعده علاقة مسيئة. ولكن لم يكن يتراجع عن رأيه بأن يعترف مثل حه بسه خان ويعتبره دسيسة الحكومة، وكان يريد فقط ان يظهر بأن الوضع جيد ويتجه نحو الأحسن، وان مثل هذه الفوضى يدبرها اعداء الاتفاقية للتخريب واشعال الحرب ثانية التي يعدونها منفعة لهم!

(٣٣)

مرت شهور على صدور البيان، وقد نفذت بعض مواده، ولكن لم تكن من بين التي كانت يعتبر تنفيذها عند الكورد علامة لانتصار كفاحه وثورته. وبالفعل كانت الحكومة لمتكز تبدي الخمول والتراخي في تنفيذ تلك المواد فحسب بل كانت تضع المعوقات والعراقيل ايضا في طريقها.

والبارتي على الرغم من انه منذ البداية كان يلح كثيرا على المسؤولين الحكوميين لتنفيذ جميع مواد الإتفاقية، ولكن حينما رأى انه لا يبدو انهم ملتزمون بقراراتهم ويتماطلون ويتسوفون اي يعدونهم باليوم والغدو...وقد اخذوا يتراخون ويكرسون ويوجهون معظم نشاطاتهم لإعادة تنظيم انفسهم وجمع الأرزاق وسد ثغرات قواتهم. اضافة الى هذه فان الپێشمەرگه قد ركنوا الى استراحة جيدة، بعكس ما كانت تتمنى مؤسسات الحكومة او تحدوه الأمل، لا لم يقل عددهم بل توسعوا وعلت معنوياتهم اكثر علاوة الى المهام الصعبة التي وقعت على كاهل البارتي، وكان من المفترض ان ينفذ القسم الأعظم بشكل خفي الذي كان من الأعمال المشروعة واللامشروعة التي كان الناس يطلبون تنفيذها. وقد كانت مقراتهم اكثر ازدحاما بالذين يترددون عليها: يأتي شخص فيقول: ان داري هدمت اعيدوا بناءها؟ وكان الآخر يأتي ويقول: ان ابني رسب في الصف السادس عينوه، وكان يدخل شخص فجأة يمسح العرق ويقول الحمد لله يا ربي الف شكر، ويجلس ويضع رجلا على رجل ويقول: وافرحتاه، لله الشكر انه يومنا، فداكم روحي، قد اكمل ابني منذ العام الماضي المدرسة الثانوية، ويرغب كثيرا القبول في كلية الطب، حاولوا ان يقبل، وكان آخر يقول: منذ مدة اطلب يد بنت فلان ولكن لا يوافقون يجب ان تقولوا لهم ان يوافقوا، اوكانت امرأة تأتي وتقول: كان اخي من الپێشمەرگه واستشهد وان زوجي يسيء معاملتي كثيرا. فكلما احاول معه لا اتحمل اضغطوا عليه وهددوه لكي

يطلقني، كل هذه المطالب كانت تقدم يوميا في مقر البارتي. هذا اضافة الى الآلاف من طلبات تعويض الخسائر والأضرار. ليس فقط من قبل الذين كانوا فعلا في الثورة الحقت بهم الخسائر، بل كانت من قبل الذين لم يكونوا في الثورة وكانوا ضدها بشكل عام في هذه المشغولية المزعجة والمطالب التي كان تنفيذها عامة لم يكن بالمستطاع، لم يخل يوم من الأيام ان لا يتسلم كل شخص في مقر البارتي عشرات الأخبار والتقارير المختلفة المتضمنة الحوادث التي وقعت هنا وهناك، وماذا فعل فلان، وبماذا ينشغل فلان، وكيف ان بعض المهاجمين بسرعة على الطعام وحتى بعض الأعضاء او العائدين للحزب بدأوا بالسلب والنهب، واخذوا يضربون اخماسا بأسداس، و هم منهمكون بجمع الأموال وشراء الذهب، وبناء الدور، وتكديس الفرش، وكان الحزب كمنظمة وطنية نابعة من نفوس الناس يناضل بمزيد من الإخلاص وبمنتهى الإمكانية لتحقيق وتنفيذ المطالب المشروعة للناس، وكان يتحدى بكل قوة الذين كانوا يستغلون فرصة الإتفاقية لمكاسبهم الشخصية حيث انهاعند طرفي هذه السياسة كانت تسبب في كثير من المرات اثارة غضب المسؤولين الحكوميين ويعدونها تدخلا في اوامرهم شفويا، وفي القلب كانوا يعتبرونها جهود دفاع تحقيق اهدافهم القذرة، ومع كل هذه الجهود المخلصة للبارتي، لأن الكثير من المطالب الشخصية للناس كانت على قدر من اللامشروعة واللامعقولة، لم يتمكن من ارضاء الجميع، لذلك بدأ كثير من الناس بالدمدمة والطعن والتشهير والكلام البذيء، وكانت التقارير تتوارد تدريجيا من فروع البارتي الى اللجنة المركزية حيث ان كثيرا من هذه الملاعيب والأقوال كانت بتدبير من الحكومة وينشرها الجواسيس هناك، وان مثل هذه الأعمال كتمهيد لإستئناف القتال في ظروف كانت تراها في صالحها، لقد كان البارتي يمتلك كثيرا من الأدلة اكبر من هذه، ولكنه تجاهلها، وقد كان منهمكا للتهيؤ وجمع المؤونة والأرزاق وتكريسها، والحصول على السلاح الجيد والكثير، وقد جعل اعضاء واصدقاء البارتي المخلصون في جميع اجهزة ومؤسسات الحكومة كل عين اربع عيون وكل اذن عشر آذان، لكي ينبهوا البارتي بالمؤامرات السرية للحكومة، وليس هذا فقط، وكان في بعض المرات حين كان يحدث حادث صغير ولو ان فيه يد الحكومة

وظهر بأنه دامٍ، لم يكن ينشره البارتي قبل الحكومة، حيث ان الخصوم يقومون بمثل هذا النوع من الأعمال السيئة، وكان هدفه من هذا ان تظن الحكومة بأنهم اغبياء وسذج غافلون، لكي يتمكنوا ان يستفيدوا من هذه الفرصة الى اقصى حد، وابعاد تهمة اشعال القتال ثانية عن انفسهم لقطع حجة الأحزاب العربية الديمقراطية، وهكذا مرت على الإتفاقية سنة وشهور، وكان الوضع يتردد نحو الأسوأ يوما بعد يوم، وقد قطع الناس الأمل تماما من الإتفاقية، لأن معظم المواد المهمة ظلت حبرا على ورق، ولكن كان يبدو ان الحكومة كانت متمسكة فقط بالأكاذيب والدسائس، لذلك طلبت ان يعود الوفد الكوردي الى بغداد على ما يظهر لحل هذه المعضلة التي ادت الى استياء وتذمر كلا الطرفين، وقد ابدت الحكومة استعدادها لتنفيذ جميع بنود الإتفاقية، والبارتي على الرغم من انه كان يعرف بأنها تكذب، ولكن معظمهم اتخذوا القرار على ذهاب الوفد هذه المرة ايضا الى بغداد، وذلك لفضحها وتعريتها اكثر، وكان الآخرون يقولون: والله غير صحيح ان نظهر انفسنا بسطاء سذج ومطيعين الى هذا الحد، كفى لا بد ان تنتهي هذه الزيارات المتبادلة، ما شأنهم بالوفد، لقد تكررت مطالب الكورد الى حد ان لم يتجاهلوها كان المفروض حفظها عن ظهر قلب، وان لم يكن صحيحا فان خلاصة مطالبنا بين ايديهم، او بنود الإتفاقية التي اعلنوها في اذاعتهم، ان يتعهدوا الآن بتنفيذها، فليفعلوا ذلك، والا علام هذا التماطل والمراوغة؟! ولكثرة ذهابنا وايابنا افتضحنا عند الناس.

لم يمر اسبوع على ذهاب الوفد، وردت الى البارتي بعض الأخبار المخيفة المزعجة المكروهة، قيل من جهة اعتقل اعضاء الوفد وان مصير بعضهم مجهول، يقول شخص انهم اختفوا، والآخر يقول ان الحكومة ضيعتهم، ومن جهة أخرى يرد خبر بأن الحكومة اوقفت اجازات الضباط والجنود في السليمانية وهه ولير، وقد طلبت من المجازين الإلتحاق بمواقعهم في اقرب وقت، يبدو من خلال هذا انها تنوي القيام بهجوم مفاجيء، ان هذه الأخبار بصحتها وكذبها، ايقظت البارتي اكثر، خاصة بعد ان تمكن ثلاثة من اعضاء الوفد النجاة بجلودهم والوصول الى كوردستان وابلغوا البارتي بالنوايا السيئة للحكومة ومؤامراتها العدوانية، ضد الكورد وكل المعلومات التي حصلوا عليها، والخبر الوحيد

المفرح الذي كان في حوزتهم هو ان احد اعضاء الوفد لم يعتقل، وعاد الجميع سالمين متخلصين من مكائد الحكومة.

لقد بدات الحكومة مؤامرتها في البداية بمكر وخداع، فأقدمت على ارسال المرتزقة الكورد الى مقربة من المناطق التي كانت تحت سيطرة الپيشمەرگە، وقد سبب هذا اشعال نار القتال بين الثيَشمةرطة والجحوش، والتي نالت رضى الحكومة كثيرا، وقد ارسلت جحوشها لنفس الأغراض الى تلك المناطق، لأنها لم تكن تخسر اي شيء في تلك المعارك، فإن الكورد هم الخاسرون، سواء قتل من هذا الطرف او ذلك.

حين رأت قيادة الحزب هذا العمل العدواني من جانب الحكومة، لم تكتف فقط بالحاق الهزيمة واكتساح وملاحقة الجحوش، بل اخذت بشن الهجوم على الرايا الحكومية، وقد طهرت ما حولها تماما، ووقفت على اهبة الإستعداد مدججة بالسلاح وبشجاعة لحماية اراضي وجبال كوردستاننا الحبيبة.

لقد دبت الحركة من جديد في بيت حه بسه خان، واختها، سرعان ما ذهب الأبناء، كما ان صبرية ونەسرين ونەوبەهار ايضا توجهن الى الأبناء بعد اسبوع.

وقد اضطربت آمه خان وخفق قلبها، لأنه اضافة الى تردي وارتباك شؤون البيت بسبب ابتعاد اعزائهم، فكان يحدث يوميا شيء جديد في المدينة، وبدأت الحكومة بشكل استثنائي بتفتيش البيوت واعتقال الناس بحجج واهية وباطلة ليس فقط الموظفين الكورد فحسب بل شرطة المدينة ايضا شتتوا ووزعوا على مدن جنوب العراق، او اصبحوا في عداد المجهولين، وكما كانوا يسمعون فان الحكومة لم تمارس هذه السياسة العدوانية في السليمانية وحدها انما في جميع المدن الأخرى في كوردستان، وقد انقض رجالها كالذئب المسعور على الناس الأبرياء في كوردستان.

* * *

(٣٤)

في تلك الأيام عاد حاجي مجيد ذات مساء مرتبكا وبوجه شاحب الى البيت، فعندما ابصرته زوجته في هذه الحالة، ضربت نفسها: آه يا ابا علي لماذا اصبحت هكذا؟ يا ويلي، بعد الشر عن الأولاد، والله يحتمل ان سمعت خبرا سيئا، بربك قل لي ماذا حدث؟

حين رأى حاجي ان زوجته على قدر ما قد ارتبكت وتغيرت حالتها، اراد ان يلوذ بالصبر الجميل قليلا، الى ان تعود الى رشدها، لذلك قال بابتسامة اشبه بالميت: انتظري الآن، ولا تجنيني، لم يحدث شيء، افسحي لي المجال ان اتنفس، بالله العظيم ان جميع الأولاد سالمون من فرحتهم، ثم القى نفسه على اول كرسي الذي صادفه، واخرج منديله على مهله مسح به وجهه، وقد جحظت عينا حه بسه خان، اقتربت منه بلهفة وقالت:

– اذن قل لي ماذا حدث، تنفس زوجها تنفسا عميقا، ومسد وجهه وقال: الآن حين خرجت من الجامع كنا نتحدث مع علي افندي ، اثناء المشي، ذكر لي ان ابنه ارسل له رسالة، فالشكر لله انه في صحة جيدة، وكتب بأنه ذاهب يوم الجمعة الى عند حسين والأولاد، وقد رأى الجميع، فالشكر لله انهم في صحة جيدة ، كنا في غمرة هذه الأقوال، لقد ابصرنا فجأة امام زقاق بيت اخي حاجي (سيارة جيب عسكرية) وجنودا كثيرين، وقد رأيت شخصا داخل السيارة بجامانته، كان يشبهه كثيرا، كان هو نفسه، لم يدعني توفه ان اذهب لمعرفة ما رايت، سحبني علي افندي من ذراعي، كان هو خائفا ايضا، لأنه انتشر خبر في السوق بأنهم يعتقلون اهل واقرباء الپيشمەرگه، خاصة آباءهم، لقد مسح حاجي وجهه مرة اخرى وقال: ان توفه ذهب لينظر من بعيد لمعرفة ما حدث).

لقد تكورت حەپسەخان نفسها من وراء كرسي زوجها، لقد ابيض وجهها، ويبس فمها وشفتاها، وضربت نفسها وقالت:

– اواه والله يقتلون كاكه حاجي الآن فاجهشت بالبكاء، وقالت اثناء التنهد، وقد انتهت اختي المسكينة تماما، فمجرد ان ترى العسكر ليلا في الخارج يسيرون في طريقهم تنخلع روحها وتقول:

يا ترى يذهب هؤلاء لإعتقال من، ويدمرون بيت من؟ فكيف بها اذا انهم ذاهبون الى بيتها، واعتقلوا زوجها امام عينيها!!

بعد هنيهة، دخلت روناك البيت بملابس جميلة، لقد تورد وتفتح وجهها، وقد تحزمت بحزام نيشانها، فكان يليق بها وحدها، وكان المرء يرغب كثيرا ان ينظر اليها بوسامتها وشعرها الجميل وقامتها الهيفاء.

حين رأت روناك والديها بوجهين شاحبين جالسين بصمت واكتئاب، خفق قلبها وذهبت نحوهما وقالت:

– بالله عليك يا ابي العزيز لماذا انتما مكتئبان، وقد روت لها امها بعينين دامعتين وملالة الموضوع، وهي انذهلت وخملت، ثم قالت بكآبة:

– والله يا امي كانت النساء في بيت حفلة الزفاف يذكرن انهم هجموا ليلة امس على بيت على ما يظهر ان ابنه من الپيشمەرگه، فاعتقلوا والده، ولا يعرف الى الآن عن مصيره شيء: قام حاجي وتنفس قائلا..ذلك..، لا يقال شيء كذبا!"هز رأسه وقال: انهم بلا دين، بلا حياء، يفعلون كل شيء، كل من لايخاف الله، لا يخاف احدا"

ذهبت روناك بسرعة فنزعت ملابسها، وقد قالت دعاء من نفسها لماذا ذهبت الى تلك الحفلة، في حين ان اباها وامها وعمها وخالتها على هذه الحالة، وقد رمت ملابسها بشكل لا ابالي في الغرفة أسفًا وحسرة، وارتدت شيئا اخر وجاءت فجلست بجانب والدتها، ولكن نهضت حالا وذهبت الى عند والدها، واخذت تتقرب منه وتسأله ماذا يأكلان وماذا تهيء لهما، وماذا تطبخ لهما، وقال والدها لأجل خاطرها. طيب حبيبتي احضري لنا شايا.

كانت روناك منشغلة بتحضير الشاي حين سمع صرير الباب وهدير توفه، فأيقظ الجميع، ذهبت روناك وامها بسرعة نحوه، لقد رأوا ان توفه يسوق كاكه

حاجي وآمه خان، ويكيل اخماسا بأسداس، حملت روناك على عمها وعانقت آمه خان اختها وقالت:

– واي لتزهق روحي، عجبا ما اشد ما كان خوفك!!

دخلوا الغرفة، وكان حاجي مجيد ينظر الى اخيه بقلب فرح وقال: والله ما كنت في انتظارك، قلت لن اراك ابدًا مرة اخرى؟ الا في الحقيقة ماذا كان ذلك؟ـ اعرفت كاكه من كان الشخص الذي ظننته انا؟

انه كان جارنا كاكه مهلا، هجموا على هذا المسكين وكبلوه واخذوه، لأنه على ما يظن ان ابنه معلم، منذ اربعة ايام لم يذهب الى المدرسة والآن يريدون ان يعرفوا اين ذهب" ضرب حاجي مجيد يدا بيد وقال:

– لا حول ولا قوة الا بالله! يا ربي اهذا وجدان ودين" رفع رأسه وقال: ربي لا تقبل هذا الظلم، فقلب هؤلاء ايضا رأسا على عقب، فتأخذ منهم حق الأبرياء!!

وضع توفه سيجارة بين شفتيه، مد يده الى جيبه باحثا عن شخاط، يبدو لم يجده، وقال مع نفسه: يحتمل ان وقع مني لإرتباكي، اخرج السيجارة من فمه ومسكها والتفت الى حاجي مجيد والآخرين وقال: انتم لم تصدقوني دائما، فاكثر من اسبوع اقول لكم هيئوا انفسكم، ان تصل دناءة الحكومة الى حد ان تعتقل عجوز مسكينة مثل پيرۆز الخبازة، افي انتظار اي شيء انتم جالسون، يجوز تريدون ان تجربوا حياة زنزاناتهم؟؟!! نظر الى الجميع بتباه، مد يده مرة اخرى الى جيبه، ثم نهض واقفا بدأ بتفتيش جيوبه العميقة لسرواله، وقد وضع سيجارته بين شفتيه، وقد انهى بفم شبه مغلق موضوع باجي پيرۆز، بهذا الشكل على ما يظن ان باجي پيرۆز في تعزية احدى اقاربها قد تهيجت وتحمست كثيرا، وقرأت ادعية كثيرة ضد الظالمين والطغاة وسبت وشتمت الحكومة.

قالت آمه خان: اوه يحرقهم الله بناره، اما كانوا هناك حتى يسمعوا ادعية وشتائم باجي ثيرۆز ؟!

علقت توفه قائلة: ماذا تقولين يا آمه خان، بالله ثمة (هانمات ما) يتجسسن لهم، يتظاهرن على قدر كبير من المظهر اللائق والإحترام والمهابة بحيث ان الناس يخجلون منهن، وعن طريق تلك النماذج تصلهم الأخبار، وهن بأسلوبهن

الخاص يخدعن جميعكم في الثقة بهن (هز رأسه وخفت صوته قليلا وقال: والله يا جماعة فهن ليست مجرد جاسوسات لهم بل كل شيء، ثم اذا تصدقونني او لا تصدقون، كما تشاؤون.

بعد هذا الحادث كان اعتقال الناس مستمرا على قدم وساق، وتحدث وقائع سيئة مكروهة، كان بيت حەپسەخان واختها منهمكون لتهيئة انفسهم، وكان الأكثر عجلة من الجميع هذه المرة هو حاجي مجيد، كان يدمدم باستمرار على حه بسه خان ويقول:

– الله يرضيك، ماذا تفعلين انت، يا الله اسرعي واستعجلي فخلصينا، ان شاء الله تجعلينا ضحية للفرش والسجاد والفراش والقدر والمواعين، ماذا، متى ينتهي لم وتجميع اثاث البيت؟ لم يبق احد في المدينة!"

لقد اصبحت حەپسەخان اشد تعب جراء لمم اثاث وادوات البيت واخفاء الأشياء وتوزيعها على الأقارب، لضمها، وارسال تلك الأشياء في سر وخفاء، وكانت توجس الخوف ايضا ان يهجموا فجأة عليهم، وحين كانت تسمع دمدمة زوجها كانت تستشيط غضبا وكراهية اكثر، من المحتمل ان تأخذ بخناقه، ان الذي ازعج حاجي مجيد اكثر كان اخوه، حيث ان آمه خان سرعان ما قد لملمت بيتها وكانا جالسين حتى تجمع حەپسەخان اشياء البيت وهي كانت تلوم احيانا اختها عند زوجها، اذ انها الله يخليها حريصة جدا على اشيائها، بلف فرفوري طيلة نصف ساعة، ثم تفك الملفوف كرة اخرى وتقول اخاف ان ينكسر، فتلفه مرة اخرى بشكل آخر، وحتى انها لا تدع احدا ان يساعدها، لأنه يجب ان تكون مواصفات لم ولف اشيائها خاصة، وليس ثمة احد له واهس في ذلك!"

وكان الإنزعاج يبلغ بأخيه حدا الا يتحمل فيكاشف حاجي مجيد بالمعاتبات الحقة الزوجية، كان هو يهيج ويفور ويواجه زوجته بسبب الخمول والضجر اللذين تبديهما.

حين ادرك كاكه حاجي ان العتاب عند اخيه يسبب المشاجرة والصخب والجلبة، وبهذا يتأخر لملمة انفسهم وذهابهم اكثر، بدأ يرد على اقوال زوجته ويسكتها بأن يلومها، مثل انه كان يقول لها: ان اختك امرأة كفوءة ومرتبة

وتعرف قيمة الأشياء، وليست مثلك ان راكمت كل اشياء بيتك وقلت لقد انجزت كل شيء تماما، وانت تمتلكين بقدر ما تمتلك هي من اشياء ولوازم البيت، بعدئذ انظري الى بيتك والى بيتها، عليه ان موقف كاكه حاجي على الرغم من انه يبعد التشاجر من بيت اخيه حاجي مجيد، كان يجلب المشكلة الى بيته، ولكن لأن زوجته كانت جدا بسيطة وبريئة، سرعان ما تنسى المجادلة والمشاجرة وكانت تتذكر فقط بأن ينقذن انفسهن من هذه النار.

لقد تعلم بيت حەپسەخان وبيت اختها في المرة الأولى اي شيء يصلح للجبال، واي شيء يفيدهم، لذلك هيأوا انفسهم هذه المرة بشكل كله الخبرة والتجربة، بأنهما لا تحتاجان هناك الى اي شيء، وقد اخذتا الأرزاق والمؤونة قدر ما تمكنتا، وكانتا تعرفان لا يمكن الحصول عليها بسهولة في الجبال.

لقد هيأ بيستون لهم البيت في وقت مبكر، ولم يكن يقر له قرار من فرط فرحته وسعادته، حيث ان روناك تعود، وهي في هذه المرة خطيبته، لا داعي للخجل والخوف، ومن حقه ان يفعل لهم اي شيء.

ذهب مع والده واقاربهما لإستقبالهم، الى ان اوصلوهم الى بيتهم، لقد فرح الأبناء والبنات غاية الفرح التفوا حول والديهم وتجمعوا حولهما، بعد التمتع بقسط من الإستراحة، نهض حاجي مجيد فنزع جامانته وشمر عن اردانه بأن يذهب للتوضؤ، خرج من الغرفة، ووقف في الأيوان والقى نظرة فيما حوله، وحملق في المنظر الجميل الذي لاح له.وقد نظر بكل رغبته الى ذلك الجبل الشامخ الجذاب المقابل للأيوان، وقد جثم شعاع ضئيل للشمس على قمته، لقد شعر بالشموخ والإطمئنان وحرية كاملة، فرفع رأسه بعينين مغروقتين بالدموع الى السماء وقال: زاد فضلك يا ربي. يا الهي بجاه عظمتك ان لا تأخذ منا هذه الأرض والجبال، وامنحنا القوة والإمكانية بأن نحمي ارواحنا وممتلكاتنا من المحتل والظالم، انحنى وقبل الأرض وقال:

– ربي فلتعمري يا كوردستان بنفسك وجبالك ووهادك وكهوفك وانهارك وينابيعك!"

وحين ابصرت حەپسەخان زوجها من بعيد ندت على شفتيها ابتسامة وقالت مع نفسها:. "هوذا الريف الذي حيث تشاجرت معي سبعة ايام وسبع ليال لماذا

اعطيت بنتنا لبيستون الريفي، فكيف تتحمل هذه الطفلة في هذه الجبال. اعرف كيف تحققت نبوءتي، وكيف حين وقعتم في محنة التجأتم الى الريف نحو هذه الجبال الشامخة!"

جاءت حەپسەخان الى زوجها اثناء هذه الأفكار والأقوال فرحة منتصرة وقالت:

– ها او ترى ما احلى وما اشرق هنا، فالإنسان لا يخاف احدا غير الله، فلتكن روحي فداء لأشجارها واحجارها!"

گەلاوێژ
لندن ١٩٨٦/٢/٢

الجزء الثاني

مقدمة الكاتبة

اعزائي القراء، اود هنا أن أروي لكم نبذة عن مضمون الجزء الاول من رواية (نحو كهف الشجعان) لكي تتمكنوا من ربط الجزئين معا.

ان القسم الاول من رواية (نحو كهف الشجعان) يتناول الزمن الذي قام فيه الجيش العراقي في ١٤ تموز ١٩٥٨ بثورة ناجحة بقيادة الزعيم عبدالكريم قاسم، فأسقط النظام الملكي، حيث عبر الشعب العراقي عربا وكوردا عن فرحته بتلك الثورة، وساندها الجميع بالمال والروح، ومنذ اليوم الاول من انبثاق الثورة ارسل الحزب الديموقراطي الكوردستاني الذي كان الحزب الكوردي الوحيد برقية بأسم جميع الكورد تعبيرا عن اخلاصه ودعمه لتلك الثورة المباركة، وقد شرع قادة البارتي مباشرة بتشكيل الوفود من جميع مدن وقصبات وقرى كردستان للتوجه الى بغداد لابراز الاخلاص والدعم لتلك الثورة وقادتها خاصة للزعيم عبدالكريم قاسم.

لقد شمخت رؤوس ابناء الشعب العراقي بعربه وكورده واقلياته القومية بالثورة وانتعشت آمالهم، فالتفوا حولها وترصدوا تحركات المناوئين والمتضررين بكل حيطة وحذر، لا سيما السائرين في ركاب النظام الملكي البائد، والعملاء المأجورين من صنائع الدول الاجنبية.

بدأت ثورة ١٤ تموز فورا باطلاق سراح جميع السجناء السياسيين وتعهدت بمنح الحريات للشعب وتطبيق الديمقراطية. وجراء ذلك منحت اجازة ممارسة العمل العلني للاحزاب السياسية، ومن ضمن تلك الاحزاب كان الحزب الديموقراطي الكوردستاني الذي منح الاجازة الرسمية لممارسة النضال والنشاط السياسي علناً.

وكذلك ثبت لاول مرة من تأريخ الدولة العراقية الاعتراف بالحقوق القومية للشعب الكوردي في الدستور المؤقت، ونصت المادة الثالثة على (يعتبر العرب

والكرد شركاء في هذا الوطن ويقرر هذا الدستور حقوقهم القومية ضمن الوحدة العراقية).

لقد دب الفرح والانشراح والنشوة في صفوف الكورد، وعبروا عن سعادتهم بانتصار الثورة وتقدمها الى حد كبير، وقد فتح البارتي مقره في بغداد، وأصدر جريدته المركزية بأسم (خەبات) حيث منح الزعيم عبدالكريم قاسم إمتيازها للاستاذ (ابراهيم أحمد) الذي كان حينذاك سكرتيرا عاما للحزب الديمقراطي الكوردستاني.

شرعت جريدة (خەبات) بالصدور باللغة العربية، وغدت إحدى الصحف الذائعة الصيت في العراق، اذا كانت تنفد في السوق معظم الأحيان قبل الصحف الأخرى لإقبال القراء عليها، وكان العرب ينهالون على شرائها قبل الكورد بحكم كونها تنشر الافتتاحيات القيمة والموضوعات الهامة التي تعبر بشكل مباشر عن مشاعر وأحاسيس ورغبات وتطلعات وأماني الشعب والوطن وجماهير كوردستان والعراق بأسلوب وطابع تقدمي مفعم بالرفعة والسؤدد والتوجه الإنساني المبني على الصداقة وحب السلام والوئام.

لكن لم يمر وقت طويل فاذا بالعرب الشوفينيين، والذين لم يرق لهم الوضع الجديد، قد هيأوا انفسهم لتصدي الثورة، الا أن الجيش والشعب العراقي عربا وكردا تمكنوا من خلال فترة قصيرة القضاء على الحركات المضادة والمحاولات الانقلابية، وكان أكبر انقلاب هو انقلاب (عبدالوهاب الشواف) في الموصل الذي دبرها بعد مضي سنة ونصف على ثورة ١٤ تموز، فسحق من بكرة ابيه بقوة سواعد الكورد.

ومن جانب آخر دب الخلاف والنزاع بين قادة الثورة أنفسهم، وجراء ذلك تمت تنحية وابعاد البعض، وأخذ كل شخص يحاول تعزيز مركزه وكسب المؤيدين والمحسوبين اعتمادا على الاقارب وأبناء العشائر.

كما ان عبدالكريم قاسم نفسه والملتفتين حوله أخذوا تدريجيا يخامرهم الشك والريبة من قوة وحدة الكرد والتوسع الوحيد له (الحزب الديمقراطي الكوردستاني) خاصة حينما انبرى لهم في الساحة كثير من الفوضويين والمتهالكين على الطعام والمتملقين المتزلفين، فهم أوغروا في صدر عبدالكريم

شكا أكثر من الكورد، او بالاحرى هو أيضا تعجرف وتباهى بنفسه أكثر، بعد أن ثبت مركزه، وقضى على مناوئيه، ظهر عنده التعصب العرقي، وتصور أنه لا يبالي بأحد ولا يحتاج الى دعم الكورد له، لذلك بدأ بتوجيه الضربة، حيث شرع في البداية بقادته وأصدر الاوامر لاعتقال البعض منهم، موجها لهم تهما وخطايا باطلة وكاذبة وملفقة.

وأصدر قبل الجميع امر اعتقال الاستاذ ابراهيم احمد الذي كان السكرتير العام للبارتي- على ما أظن كان يحبه كثيرا وكان من المتقدمين والمقربين عنده- بتهمه انه قتل في طريق شقلاوة أحد رؤساء العشائر الموالية للحكومة ولم يكتف بذلك، بل دبر لكل واحد من القادة الآخرين شيئا ملفقا مثل شتمه الحكومة في المجالس وبين جماهير الشعب، والغضب من الضباط والمسؤولين والحكومين وضربهم، وأكثر من تلك الانواع من الأكاذيب والافتراءات التي لا أساس لها من الصحة،اثر ذلك لجأ الى اغلاق مقر البارتي والاستيلاء على جميع الاثاث والمطبعة ومواد اصدار جريدة (خەبات)، كما اغلق ايضاً صحيفة خەبات في بغداد، ثم شملت الحملة مدن وأقضية ونواحي وقرى كوردستان فيما لو تمكنوا من الوصول اليها، وبعد ذلك بدأوا بمشاجرة ومشاكسة أهالي كوردستان من أصحاب الدكاكين والطلبة والموظفين الكورد، لذلك أخذ الكورد بأعداد أنفسهم واختفى العناصر البارزة في الحزب عن الانظار.

عاد البارتي ثانية الى العمل السري وعقد الاجتماعات واصدار البيانات والتوجيهات وتوزيعها على الاعضاء والمؤيدين وجميع أبناء الشعب.

لقد انكشفت نوايا النظام أكثر فأكثر، حيث أنه بدأ بزج قوات كبيرة في مدن كوردستان، وجراء ذلك تصدت لها العشائر الكوردية، وبدأ القتال، على الرغم من أن القادة التقدميين في البارتي ماكانوا راغبين الشروع بالكفاح المسلح في وقت مبكر، لان الوقت لم يكن موائما، حيث كان الكورد دون سند ودعم حينذلك، الى حد أنه لم يكن يمتلك حتى السلاح، بأستثناء عدد من بنادق البرنو التي كانت ملكا خاصا لاشخاص اخفوها هنا وهناك، لكن القادة الذين ما كانوا يحبون خوض القتال في مثل تلك السرعة الا انه خوفا وتفاديا من ان يدب الخلاف والشقاق في صفوف البارتي، دون ان يعرفوا الكفاح المسلح وبلا موارد،

التجأوا الى الجبال نحو الكهوف الجذابة الخلابة في كوردستان الحبيبة الجميلة، وهناك شكلوا الجيش الثوري الكوردستاني من القادة والاعضاء ومؤيدي البارتي، حيث كان من بينهم أشخاص لا يعرفون أكثر من حمل القلم شيئاً آخر، فكيف بالندقية أو شئ من هذا القبيل يا ترى؟ أطلق على القوة المسلحة التي شكلت (پێشمرگه كوردستان).

يتضمن الجزء الاول من رواية (نحو كهف الشجعان) الحوادث والوقائع التي تدور حول عوائل كانت لها نشاطات حزبية، وهن يلتحقن بالجبال اسوة بالناس الآخرين خوفا من القاء القبض عليهم والتنكيل بهم من قبل السلطات الحكومية، إن عائلتي شخوص الرواية عبارة عن بيت (حەپسه خان) وزوجها جاجي مجيد وابنيهما المناضلين (حسين وعلي) وبنتهما (صبرية المعلمة المناضلة وصبية ذات خمس عشر سنة اسمها روناك).

أما العائلة الثانية فيه بأسم (آمه خان) التي هي أخت (حەپسەخان)، وزوجها كاكه حاجي الذي هو أيضا اخو حاجي مجيد أي ان اختين تزوجتا اخوين.

كان لآمه خان و كاكه حاجي ابنان مناضلان بأسمي (نەورۆز و بەختيار) وبنت وحيدة تسمى (نەسرين) وهي ترب بنت عمها وخالتها صبرية، وهي أيضا معلمة ثم تتزوج ابن خالتها حسين الذي هو ابن (حەپسه خان)، كما ان صبرية تتزوج شيروان الذي هو مناضل عنيد نشط وصديق اخوانها ورفيق درب كفاحهم، وروناك الصبية الوسيمة، بعد فترة من الحب الطاهر البريء الهادئ مع بيستون الذي هو من أهالي ماوەت، وصديق ورفيق درب نضال اختها واخويها– تصبح شريكة حياته، حيث كان منهمكا بالدراسة والكفاح في السليمانية.

كمان ان توفه الذي هو بمثابة أخ لـ(حەپسه خان)، وقد ترعرع وكبر منذ الطفولة مع هاتين الاختين، كونه يتيم الوالدين منذ الطفولة، فيتلقى العناية والرعاية من قبل والدي (حەپسه خان) وامه خان.

يضخ توفه دفئا وفرحا في هذه الرواية، لانه سليط اللسان جدا وصريحا وحين يحتد يشتم جميع افراد العائلتين، وإن كلتاهما تحسب الحساب للسان توفه، ويقبلون منه كل شيء ويدللونه، لانهم يحبونه كثيرا، وهو بدوره أيضا

يحبهم كثيرا، ويكرس توفه حياته لخدمة وحماية العائلتين واطفالهم، لذلك فانه قوي ومدعم في جميع تصرفاته وتحركاته وكذلك فانه جدا نفاخ ومتبجح وكذاب، عليه قارئي الكريم فان الجزء الاول من رواية (نحو كهف الشجعان) يتضمن من تلك الاحداث التي قدمت لك نبذة منها، يحدوني الامل ان يحظى بقبولك ويسترعي نظرك نحو ذلك الزمن، ومع هذا أود أن أكرر بأن هاتين العائلتين بأبطالهما وشخوصهما الذين يتحركون ضمن سياق الرواية، فان الجزء الثالث لها معد للطبع وسيرى النور قريباً. (طبع الجزء الثالث ايضا– المترجم).

أقول ان هاتين العائلتين من نسج خيالي وليستا من الناس الحقيقيين، ولايتصور احد اذا ما شبه اسم احد بعض الاشخاص، فأنه هو ذلك الشخص، وحتى اذا ما شابه اسم شخصا فانه مجرد صدفة فحسب، حيث ان الاحداث نبعت من ظروف ذلك الزمن بشكل عام وقد شاركت في قسم كبير منها بنفسي وعشت فيه، ولكن ان هذه الرواية لاتمت بي ولا بأي شخص من عائلتي بصلة بأي شكل من الاشكال فان جميع الشخصيات الواردة فيها خيالية.

قارئي الكريم، أستميحك عذرا لهذه المقدمة المطولة الا انني ارى من الضروري أن أوضح لك بأنني في القسم الثاني من ملحمتي، تناولت حرب الاخوة الاعداء التي ترتبت عليها المآسي والفجائع، لم أكن أنوي نبش الماضي ولا ايلام الجروح القديمة بالعكس كنت أنوى أن أبين للقراء الكرام مأساة قتل المئات من الپێشمەرگە الكورد الابطال من الطرفين عبثا، وتصدع أساس الثورة، وكيف كانت الحكومة تؤلب هذا الطرف على ذلك وينشرح صدرها حين كانت ترى ان الكورد المناضلين على ما أظن اشعلوا نيران الثورة من أجل تحرير امتهم من ظلم وطغيان الاجنبي وانتزاع حقوقها المشروعة، تحولوا الى الاخوة الاعداء، وأخذوا يحققون ليست أماني الحكومة العراقية، انما الحكومات المحتلة لكوردستان.

اردت ان أعبر بهذا الشكل، بأنها ليست ثمة أي كارثة من تأريخ كفاح امتنا أن تكون على قدر من اقتتال الاخوة أشد فاجعة وتحطيما وتدميرا وتثبيطا لارادة ومعنويات الجماهير واسعادا للعدو ويجوز ان ننساها، بينما للاسف الشديد لم

يكن كتابي تحت الطبع بعد، حين اعدنا التأريخ وكررناه، واستؤنفت حرب الاخوة الاعداء في كوردستان، وقد قام الكورد بتصفية احدهم للآخر.

ثم متى وفي أي وقت وظرف تستأنف؟ حيث ان القسم المحرر الذي كان مالك الحكم الفيدرالي تحت سلطة برلمان كوردستان وحكومة كوردستان، هذا الجزء الذي تعهدت الدول الامريكية والبريطانية والفرنسية بحمايته من اعتداء نظام بغداد!!

في الوقت الذي حلت فيه تلك المأساة المؤلمة بشعبنا الصامد، لكارثة حلبجة الشهيدة والانفال وانتفاضة ما بعد حرب العراق والكويت، خدم الاعلان العالمي القضية الكوردية وحولها الى احدى القضايا الدولية الهامة، حيث بدأت الجمعيات والمنظمات الخيرية من جميع انحاء العالم بمد يد المساعدة لنا بالمواد الغذائية والملابس وتعمير البلاد والدفاع عنا على قدر كبير، اذ أن الكثير من شعوب العالم كانت تحسد علينا، أذن بالله عليكم يا ناس، اسمعتم في أي وقت ومكان وبين أي مجتمع مناضل احداثا اكثر ضررا وخسارة وتدميرا من الاحداث الحالية في كوردستان، بل أكثر خجلاً وشنارا!! والى الآن فان مشاهد الاطفال النواعم والبنات اليافعات والاحداث الارقاء، والعروسات الحسناوات، والشيوخ والشباب والمختنقين بالغازات السامة في حلبجة الشهيدة لم تمسح من ذاكرة العالم، بينما سرعان ما نسيناها، ونكاد نضيع المكاسب التأريخية التي لم تكن تخطر ببالنا حتى في المنام، ونفضح انفسنا عند الذين يأخذون بأيدينا ويحموننا.

لذلك فان المهمة الاولى الواقعة على كاهل كل كوردي مخلص هي السعي والكفاح، وليس صب الماء على نار هذه الاخوة الاعداء وحدها بل استئصال دواعيها من جذورها، ويجب الا يدعوا في أي ظرف ومناسبة وتحت طائلة أي ذريعة وبأي ثمن أن تعاد مثل تلك المآسي والكوارث، فلنأخذ جميعا الدروس والعبر من التأريخ، لا ان نكون عامل مساعد لتكرارها.

گەلاوێژ

لندن- ١٩٩٤

مضت سنة وشهور على مجيء بيت حەپسەخان واختها آمه خان وعائلتيهما للمرة الثانية الى (ماوه ت) بعد أن فضت المفاوضات بين الكورد والحكومة، وقد تردى الوضع ثانية، وتبين ان جميع وعود الحكومة كاذبة، فها انها منكبة مرة اخرى على التأمر والاحتيال ونكث العهد، وعوضا عن تنفيذ مواد البيان فانها منهمكة في تحريض جحوشها وعملائها لكي يوجهوا الضربة ما استطاعوا اليها سبيلا الى الپێشمەرگه الذين ذاع صيتهم بالجرأة والشجاعة، حيث أنهم على ما أظن كانوا في ذهاب وأياب الى المدن بمناسبة (تحسن الوضع).

وكذلك كانت حكومة بغداد تسعى حثيثا لخلق الفوضى وتخريب صفوف المناضلين، ولذلك وردا على تلك المحاولات سرعان ما بدأ قادة الثورة بتهيئة انفسهم، فابطلوا مؤامرات الحكومة، وعمدوا الى تحصين مواقعهم واعداد قواتهم لجميع انواع الاحتمالات، فلجأ الذين كانوا يوجسون الخوف من الاعتقال الى الجبال والمغاور والكهوف الجذابة في كوردستان، وكان من حسن حظهم أن حدث خلال السنة والشهور الماضية انقلابان سياسيان وعسكريان في بغداد، وقد تنازع وتضارب الحكام الحكوميون فيما بينهم على كرسي الحكم ومكاسبهم الشخصية.

ظهرت هذه المرة من بين عائلة بيت حەپسەخان واختها رؤوس صغيرة وسيمة، كأبن جميل لصبرية الذي كان عمره ثمانية تسعة أشهر، وبنت نەسرين كأنها صورة طبق الاصل لها وقد أشغلتها كثيرا بعمر ستة أشهر مع زوجها حسين حيث انهما كانا جارين لبيت امها في ماوه ت.

لقد كان روناك متزوجة خطيبها بيستون، وكانا يعيشان في بيت والد بيستون، وقد تحولت أيام وليالي بيستون عسلاً شهيا وسكرا حلو المذاق من فرحة حبيبته روناك.

وكانت حةثسةخان وزوجها حاجي مجيد وكنتهما نەوبەهار زوجة ابنهما علي الذي كان يبات في البيت بين ليلة واخرى، فكان الجميع يسكنون دارا واحدة، وكان حفيدهما كوردو قد تعلم المشي، وبدأ ينطق الكلام الحلو حيث انه أنساهم جميع هموم واتراح حياة الريف لكثرة ما مزحوا به.

وبقيت صبرية وشيروان في قريتهما السابقة، وقد حلت هذه المرة خالتها آمه خان، وعمها كاكه حاجي في تلك القرية وكانا جارين لهما، وكان ابناهما نةورؤز وبةختيار من فصائل الپێشمەرگه في قاعدة (المكتب السياسي) التي كانت قريبة من تلك القرية، ولذلك كانا ينامان بالتناوب عند والديهما، وقد تمنطق كاكه توفه مسدسا من نوع ١٤ اطلاقه حيث اشترى له بيستون وذلك من فرحته وبمناسبة زواجه، لذلك فان توفه قد نفخ صدره به الى درجة ان أي دجاج رومي ما كان يبلغه، وقد اضحت أعماله وشؤونه مهمة المراسلة والتنقل ما بين ماوه ت والقرية التي تسكن فيها صبرية وآمه خان. وقد غدا مؤنسا وأليفا للپێشمەرگه الى حد انهم كانوا يفرحون بنفخاته ومباهاته، ويتمتعون بها، ويقضون اوقاتهم، وما أن كان يمر بأي قاعدة الا وان الپێشمەرگه يسرعون لاستقباله ويدخلونه القاعدة أو مكان آخر، ويعدون له الشاي ويمطرونه بالاسئلة، ويحثونه ويثنونعليه أن يحكي لهم ويفرغ جعبته من نفخاته.

كان الفرسخ والمكان الخاص للاستراحة بالنسبة لتوفه ما بين ماوه ت قرية صبرية وآمه خان التي كانت قرية صغيرة فيها مكان لخياطة ملابس الپێشمەرگه على شكل غرفة طويلة مع أيوان مبنيين من الطين واللبن، وكانوا يخيطون هناك ملابس خاكية للپێشمەرگه، وكان الخياطون قبل ذلك خياطين في المدينة، وحين جاؤوا والتحقوا بالپێشمەرگه، فأصبحوا ضمن صفوف

الپێشمەرگە، ويقومون بهذا العمل للثورة والپێشمەرگە بكل فخر واعتزاز، وكان الجميع اناسا طيبين ومخلصين، ولان الناس كانوا يعرفون بأن هناك مكانا لاستراحة توفه، كان يتنظرونه بشوق ولهفة متى يمر هناك، خاصة حين كان الثيَشمةرطة الخياطون بامكانهم أن يؤدوا عملهم ويستمعوا الى الاذاعة غير المتوقفة لتوفه.

لقد سقطت في ذلك الشتاء ثلوج كثيرة، وقد كان الجو باردا الى حد حتى ان زجاجات النوافذ في الغرف قد تجمدت وكانت قطع المياه المجمدة كالعصا البلورية مدلاة من سطوح الكهوف واطناف سطوح البيوت وهذا الطرف وذلك، وكان شتاؤه على قدر من الشدة والقسوة بحيث ان العديد من عابري السبيل قد تجمدوا في الطرقات وماتوا من البرد.

ان هذه الحالة حملت الذئاب والحيوانات، الجبلية الوحشية ان تدخل القرى من شدة الجوع ليلا ودون خوف، وان ينقضوا على أي كائن ليلتهموه!

واذا تمكن أي شخص بشق النفس أن يغسل بعض الملابس فكانت هذه الملابس تتوسخ مرة اخرى قبل أن تيبس، وذلك لكثرة تنقلها من هذا الطرف الى ذلك الطرف، وكان من المفترض ان تغسل مجددا.

وحتى إذا ما بدا شعاع الشمس، فكانت صاحبات الملابس تركض سرعة على ما اظن لشرها في الشمس لتجف، بينما كانت تلك الملابس تتجمد بلمحة البصر وتتصلب، خاصة الملابس الكردية النسائية التي كان لها منظر مضحك جدا، لانها كانت تتحول الى اشبه بالطائرة على الاطناب وكل كم والكم الكوردي الطويل كان يتوجه الى جهة بشكل متفرق.

وحين كان الناس يتنقلون يغوصون في الثلج الى خصورهم، وپێشمەرگە كوردستان الابطال الشجعان في هذا الشتاء القارس القاسي كانوا يفتقرون الى الاشياء واللوازم الضرورية كالاحذية والملابس المفيدة الواقية من البرد والمطر، وبالرغم من كل هذا، كانوا منهمكين بلا هوادة وصامدين للهجوم

وتحدي مدافع ودبابات الحكومة الشوفينية والعسكر والجحوش والمرتزقة السفلة، وآلت الاوضاح الى درجة ان الحكومة كانت تحرك القطار بين كركوك وبغداد بخوف وتجفل، لان الپێشمەرگه كانوا قد هجموا عليه ذات مرة في أطراف (طوزخورماتو) و(جبل حمرين) حيث كان مكتظا بالعسكر، وحتى بالسيارات لم تكن الحكومة قادرة على التنقل الا عن طريق القافلة المحمولة بالجنود والضباط المحية بالدبابات والمدرعات، حين كانت ترسل الرواتب الى المدن لموظفيها، كانت ترسل معها قوة على قدر هجوم كبير.

كانت إذاعة الثورة تعمل وتهدد، وكان جميع سكان كوردستان شامخة الرؤوس ومفعمين بالآمال والامنيات، وكانوا ينسون المضايقة التي يتعرضون لها من قبل الحكومة في المدن، وكانوا يحصلون على الملاجيء الآمنة البعيدة عن الخوف والفزع بسهولة ويسر، اذا ما توجهوا الى جبال كوردستان الشامخة الخلابة للنجاة بجلودهم إن تعرضوا الى الضغط الحكومي، أو كانوا يعرفون ان حالتهم في خطر، وهذا الواقع لم يكن ماثلا فقط في منطقة السليمانية وكركوك وكويه وهولير، بل في كافة مناطق كوردستان، وقد يصدف احيانا ان الثيَشمةرطة يستولون على مدينة في منطقة بادينان، وكانت احدى المدنية، مدينة زاخو حيث ان البارتي حكم هناك عدة أيام واعتقلوا القائمقام والتابعين للحكومة اسرى، وأستخدموا السراي والدوائر الحكومية وكذلك في شقلاوة والعديد من مناطق بارزان وجميع اماكن كوردستان التي تحولت الى نيران يحترق فهيا اعداء الكورد، كان الجيش الحكومي ينهار لمجرد ورود اسم الپێشمەرگه وصوت رشقاته، وينسحب على اعقابه، في ذلك الحين كان وأحد اثنان من قادة البارتي ذاهبين الى اوربا عن طريق ايران، لان شاه ايران عندما رأى الكورد منتصرين وأصبحوا قوة كبيرة لا يستهان بها، فهو أيضا اخذ يتملق، ويرسل لهم الخبر بانكم تتمكنون التنقل من هنا وشراء المؤونة والمواد لكم، وقد تبين ان هذا الموقف لم يكن من اجل سواد عيون الكورد، بل كان بسبب خلافه

ونزاعه مع الحكومة العراقية، والا وان كان الشاه، صادقا مع الكورد، فكان من الافضل ان يتحسن تعامله مع الكورد في كوردستان ايران، حيث كان الجميع تحت وطأة الظلم والغدر والطغيان والعذاب والقتل والابادة، ولم يكن يدع حتى ان يكون التعليم بلغة الام، فعلى الاقل كان كورد العراق وابناؤهم يدرسون بلغتهم في المدارس.

ومع ذلك حيث كان هذا رأي قادة الكورد تجاه الشاه وحكومته، ولكن لانهم كانوا منقطعين من جميع الوجوه والنواحي عن العالم الخارجي، تجاهلوا، ذلك اضطرارا، بأن ايران تريد استخدامهم لمكاسبه، فاستقبلوا فرحين سياسته المزيفة، خاصة انهم بدأوا كفاحهم من أجل شعبهم، ولم يكن ممكنا أن يتخلوا عن نضالهم لانه قد ينتفع من كفاحهم، ولذالك سرعان ما استفادوا من فتح الطريق لهم، كأرسال اثنين من قادتهم الى اوربا لابلاغ صوت الثورة الى العالم الخارجي، والاتصال ببعض الاطراف الانسانية بامل اخذ المساعدات منهم لشعبهم كالملابس والاسلحة والخراطيش، أو النقود، أو شيء آخر.

كان ذلك الشتاء بثلوجه وزوبعته الماطرة لم يزعج أحدا بقدر ما أزعج آمه خان، لانها اصبحت كسجينة وما كانت قادرة على زيارة اختها في ماوه ت، أو انهم يزرونها، كما ان ابناءها في معظم الاوقات كانوا في المراكز والمكتب السياسي، لذلك كانت آمه خان جالسة قبالة زوجها حاجي معا، وكان يصدف احيانا انهما يتشابكان على شيئ صغير، ولو ان صبرية كانت قريبة منهما فكان تتهيأ سريعا سريعا وتأتي اليهما، واذا ما عاد الابناء او توفه كانوا يأخذون آمه خان الى بيت صبرية وتبقى هناك مدة اثنتين ثلاث ليالي، وهكذا صبرية حين لم يكن شيروان في البيت كانت تحمل ابنها وتذهب الى خالتها آمه خان وعمها كاكه حاجي.

كثيرا ما كانت آمه خان تضجر وتكتئب فيما اذا كانت هي وحاجي وحدهما في البيت، وكانت تأخذ ناظور ابنها نەورۆز وتجلس أمام نافذة غرفتهما وتنظر الى الخارج ساعات، وكان كاكه حاجي يقول لها:

– الا يخليك الم تكل يداك؟ تلوح الدنيا كلها بيضاء، ماذا ترين غير الثلج، أو لم تفقدي الصبر والقدرة؟

وكانت آمه خان ترد عليها قائلة:

– ماذا أفعل، انظر الى الطرفين لعل وعسى أن يأتي احد الينا، آه كيف اصبحنا منقطعين عن الدنيا، ليتنا كنا نحن ايضا في ماوه ت، لقد انفطر قلبنا.

وكانت تقول في بعض المرات بفرحة:

– وافرحتاه أي والله جاء رجل نحونا، يشبه غنجه ودلاله توفه تماما.

كان جاحي يقول لها:

– ان كان هو توفه او أي شخص آخر تبدو كتفاه وخصره فكيف يا ترى يبدو دلاله وغنجه بسبب الثلج؟!

بعد مدة كانت آمه خان تضع الناظور بخيبة وتقول مكتئبة:

– بالله كان توفه جيدا! أشاري كانت غشاوة على عيني فاستحال عندي الحمار والجاموس والثور رجلا!!

ذات صباح جاء شيروان الى عند آمه خان، وكاكه حاجي وقال:

– تنتظركم صبرية، اعدا انفسكما لآخذكما.

فرحت آمه خان وقالت:

– حسنا الله يطول عمرك، كاد أن ينفطر قلبي.

نهضت ولملمت نفسها، ولفت نفسها بعدد من الوشاح وعصابة الرأس والحرملة، بينما كان بيت صبرية يبعد كله عنهما خمس دقائق. فتشمرت وسارت مع حاجي وشيروان، وكان شيروان ماسكا ذراعها، وحاجي حاملا محجنا بيده.

وصلت آمه خان بعد انزلاق واحد انزلاقين وهي تدمدم في الطريق الى صبرية، وعاد شيروان بسرعة الى (المكتب السياسي).

رحبت صبرية بهما بكل شوق وحرارة، وكانا يدمدمان ازاء هذا الثلج والزوبعة وضجة هذا الشتاء الشديد القارس الذي قطعهما عن حەپسەخان والآخرين وكلام من هذا القبيل.

لقد بدت صبرية في نظرهما على قدر من الانزعاج والحزن، سألتها خالتها اثنتين ثلاث مرات لماذا تبدين منزعجة؟ قالت صبرية:

– لا شيء

بعد الاستراحة وشرب شايين وثلاثة شايات حارة وغليظة التفتت آمه خان الى صبرية قائلة:

– بالله ثمة شيء ازعجك هكذا، استحلفك بالله إن لم تقولي لي: تريدين الحقيقة نفد صبري، أخاف ان اختي حةثسة قد تمرضت أو احد الاطفال.

هز حاجي رأسه ونظر الى صبرية قائلا:

– احكي لها يا بنتي ما حدث ، لقد فات اوانه الان، والله انها تواصل كلامها الى ما بعد غد لماذا انت حزينة...؟ لماذا انت حزينة؟

حين تذكرت صبرية بأن الجو بارد ومظلم ومزعج، وكانوا في الغرفة مثل السجين، وقد جاءت خالتها وعمها اليها لتبديل الجو وينشرح صدرهما وينفتح قلبهما، بينما هي بدلا من ان تفرحهما احزنتهما، لذلك مدت بضحكة مصطنعة يدها الى عصابة شد رأسها ووشاحها ولفتت بهما رقبتها مجددا وقالت:

– والله ليس شيئا يذكر، لقد تجادلنا قليلا مع شيروان بسبب انه قال:

ارسلت الحكومة ثانية وتقول فليأت الكورد ننتاقش ونستأنف المفاوضات لنعرف ماذا يريدون.

ثم قالت بابتسامة ساخرة.

– وأنا غضبت وقلت ليست هي المرة الأولى يبدأ الحوار والتفاوض، لقد شبعنا من المرة السابقة، وشيروان الذي كان غاضبا في قلبه فحينئذ تعاكسنا وتشاجرنا.

ضرب عمها كاكه حاجي يدا بيد وقال مستغرباً:

– اشهد بالله شيء لطيف ما كان ينقصنا غير هذا. أي حوار؟ يالله مرة اخرى (نفس الطاس ونفس الحمام) تتحاور الحكومة مع الكورد، فالناس يقعون ثانية في مصيدة، ولن تتخل الحكومة عن مؤامراتها فتهيئ نفسها لكي تقضي عليهم، والله لوكانت الحكومة صادقة لكنا ممنونين لها، فأي ابن كلب لا يحب السلام والوفاق، لقد شتم حاجي وقال:

– أيوجد احد يحبذ الحرب والقتل والقتال ان لم يكن اضطرارا، مد يده الى علبة سجايره وفتحها غاضبا واخرج منها سيجارة وكانت لا تزال في يده حين قال:

– اعرف ذلك ان الحكومة تقول هذا الكلام لانها تعرف جيدا مدى عجزها وضعفها، ومدى تقدم قوة الثيَشمةرطة، فاذا استمر الوضع هكذا يحتمل ان يحتلوا حتى بغداد، او لم يستولوا على قضاء ما بين بغداد وكركوك؟

فكانت آمه خان الى انذاك كانت تنظر الى فميهما دون ان تنبس ببنت شفة، يبدو انها كانت في قراره نفسها تفرح بموضوع (المفاوضات)، لكنها لم تكن تجرؤ تجاه عصبيته واستياء صبرية وزوجها حاجي ان تعبر عن فرحتها، ولذلك حين كان حاجي مشغولا باشعال سيجارته، اغتنمت الفرصة والتفتت الى كليهما ومدت صدرها ومشلها فقالت:

– أها يكاد يحتلون بغداد! لا اوشك ان يحتلوا بصرة!

لتطلع روحي ماذا يمتلك الكورد الفقراء ليحتلوا به بغداد؟ كيف نقدر على مدافع وطائرات الحكومة؟ والله أنا اقول ان أي تفاوض هو جيد، عسى أن يكونوا صادقين هذه المرة.

استشاط حاجي غضباً واحتد أكثر فالقى نظرة على زوجته وقال: اذن كيف تمكن الكورد حتى الآن حيث كانوا يقاتلون ببنادقهم الشخصية المهلهلة، ولا سيما الآن بهذه القوة الكبيرة إذ أن الغالبية العظمى من الثيَشمةرطة يقاتلونهم ببنادق كلاشنكوف العسكرية، بالاسلحة التي استولوا عليها وانتزعوها منهم، القى حاجي بانفعال وعصبية نظرة على آمه خان وقال:

...ما هذه الاقوال؟ ان كنت لا تعرفين أي شيء لا تتكلمي، ثم هز رأسه وقال:

– أعرف لماذا تقولين ذلك، لانك فقدت الصبر، تريدين أن تعودي الى المدينة للتنزه والتجول، قالت آمه خان أيضا بعصبية:

– ماذا أقول اذن؟ أقول لعل وعسى أن شاء الله أن يصدقوا هذه المرة مع الكورد وننجو.

خافت صبرية من ان خالتها وعمها يتشاجران، لذلك اضافت قائلة:

– ان هذه الآن مجرد كلام لا تزعجا أنفسكما، عجبا أي شخص أشاعه، فلم يكن شيء من هذا القبيل تماما.

كانت هذه المرة أنبرت صبرية بحرارة كأنها تريد أن تنسيهما الكلام فقالت:

– فلينتظر لنعرف ماذا يفعل بنا الله، أولا قولا انتما أي شيء تشتهيان للغداء؟!

قالت خالتها :

أي شيء كان، ثم سرعان ما قالت:

والله ان ترخينه (طعام مصنوع من اللفت والعدس غير المجروش والحمص والحنطة المجروشة وورق السلق واللحم) انها طيبة في هذا البرد.

أجابت صبرية:

– على العين.

نهضت صبرية بسرعة وقد القت ابنها هةلطورد في حضن آمه خان، وتوجهت هي الى اشغالها.

***

ظلت آمه خان وكاكه حاجي تلك الليلة عند صبرية، خاصة لان شيروان واولاد آمه خان لم يعودوا الى البيت، وكان هم أيضا الى متأخر من الليل يتناولون موضوع مفاوضات الحكومة أهي صحيحة أم لا؟

ذلك كان يتناول مساوئها، والآخر كان يتحدث عن المفاوضات السابقة ويعدد مراوغات وتحايل ومؤامرات الحكومة، فيما فعلوا بفلان وأي تحريض وذنب دبروا، لفلتان، وكان هؤلاء الثلاثة يتشابكون وكان يتحول أحيانا الى التشاجر، وأحيانا كانوا يتراخون، وكان الجو يزداد برودة خاصة حين هبت منذ المساء عاصفة.

في اليوم الثاني ظهر وجه وسحنة توفه من بعيد، اوشكت آمه خان ان تقول (الصلوات) من فرحتها، ولم تتمالك نفسها فخرجت بهذا البرد الى أمام البيت ووقفت ملوحة بيدها ومعبرة عن فرحتها بمجيء كاكه توفه، وكان توفه يشير اليها من بعيد بأن تعودي الى البيت لكي لا تبردي ولماذا انت واقفة هناك؟

وصل توفه الى المكان وقد نفض نفسه قليلا أمام الايوان وعلق محجنه بالوتد، وفك أحدى واثنتين من الجامدانة واللفاف من رأسه وعنقه، ونزع حذائيه واقحم الغرفة.

أستقبله الجميع بالترحاب، وهو تنفس وشتم اثنين ثلاثة، هذا البرد والثلج والعاصفة والضجة.

وقد أحمر أنفه، وتخدرت يداه وأصابعه، تشنجت ساقاه من البرد، بعد الاستراحة والتحمية، بدأ يتحدث عن (حەپسەخان) والذين هم في ماوەت، قدرما يفكرون بهم ويحنون اليهم!

إمتلأ بلعوم آمه خان بكاء، ومسحت عينيها وقالت:

– والله نحن أيضا نفكر فيهم كثيرا، فمن سوء حظنا تردى المناخ تماما، يقولون لم يحدث مثل هذا البرد منذ سنوات، بسط توفه يديه أمام حرارة المدفاة ومص أنفه فقال:

– لا والله يقولون منذ سنوات لم يحدث مثل هذا البرد، ان كيخا مولود الذي في عمر ثمانين وتسعين سنة يقول ، لم ير لحد الآن مثل هذا، منذ سنة الثلج الاكبر جدا.

استهل توفه بتعداد أشخاص آخرين من عمره حيث قالوا ذلك، ثم سعل قليلا، وأثناء سعاله قال:

حكى لي جد بيستون انه رأى برداً آخر في طفولته كان يقول بأن النهر الذي امامنا لقد تجمد حدّ أن الخيول والرجال يتنقلون عليه.

بعد هذه الاقوال تأوه توفه آهة عميقة وقال:

– ماذا تقولون أنتم، لستم مطلعين على الوضع، ليته البرد وحده.

لطمت آمه خان صدرها بلهفة وقالت:

– ويلاه حبيبي لا سمح الله، لماذا أي شيء حدث؟ لا أقول لا شكران فاننا انقطعنا في هذه القرية عن الدنيا.

مص توفه مصة كبيرة من سيجارته، واخرج منديله، مسد به بشكل مكبب فمه وأنفه وشواربه وسعل سعالا خفيفا وقال:

– كيف غير مطلعين على أي شي، ألم يذكر لكم شيروان والاولاد؟

علقت صبرية وقالت:....

– أليست مفاوضات الحكومة؟

هز توفه رأسه لها قائلا...

– أجل أقصد ذلك.

قال حاجي:

– أي شيء لماذا أهذا صحيح؟:

توفه الذي كان يتظاهر بالعارف والخبير في كل شيء لوح بيده وقال:

– لقم حسم الآن كل شي، يقولون ان المفاوضات ستستأنف.

قالت صبرية:

– طيب ألم تزر في طريقك قاعدة المكتب السياسي الا تعرف ماذ كان يقول شيروان والاولاد؟ ولماذا اذن لم يعد أحدهم منذ أمس؟

مسك توفه قدح الشاي وأخذها من صبرية وقال:

– يا ترى اين كنت أنا الليلة وأين كنت نائما؟ أو تعلمين أي منذ يومين في طريقي اليكم من ماوه ت والذي كله يتسغرق ثلاث ساعات، ما جدوى ذلك فانكم لا تعلمون كيف كان حال الخارج، كنت اللية عندهم، ضرب توفه يدا بيد وقال:

– الله يرحم والله خفت كثيراً.

كان لأول مرة يذكر مسألة بصدق ورغبة، لذلك قال هذه المرة بكثير من الحزن والانزعاج....

– لقد دب والله بين الپێشمەرگه جميعا الاضطراب، يقول البعض نحن نرغب في هذا الحوار، لا ضير فيه، فليحسم، والاخرون يقولون والله لن نتخلى عن أسلحتنا حتى لو تقول لنا السماء، نحن في حالة انتصار ونمتلك قوة كبيرة وقدمنا شهداء، على ما نظن من أجل أي شيء نترك الساحة و نتبع أكاذيب الحكومة وكما نعلم من هي الحكومة وما نواياها؟!

أشعل توفه سيجارة آخرى وقال:

يا جماعة انقسم الپێشمەرگه تلك الليلة أمام عيني على قسمين، فمدوا أيديهم الى البنادق والمسدسات وتقاذفوا بالآف الشتائم القذرة، يقولون حدث مثل ذلك في إثنين ثلاثة مراكز.

ترشحت ملامح المستمعين بالانزعاج والكأبة حين سمعوا تلك الاقوال، لذلك قال كاكه حاجي بحزن وملال:

– واويلاه، بالله ان ذلك علامه سيئة.

بسط كلتا يديه، ونظر من خلال النافذة الى السماء وقال:

ياربي أرحم هذا الشعب الفقير، ولا تلق بينهم الخلاف والتردد، فوالله نحن نتحمل كل شيء غير ذلك من أن يحدث هذا الخلاف، يصبح ذلك اليوم بداية النكبة وفناء الكورد، يارب العالمين لا تصب أبدا الكورد بهذه المصيبة!!

نظرت صبرية الى توفه باستغراب قائلة:

– آه أو ليس في تلك الاماكن أي مسؤول وقائد أن يتحدثوا الى الپێشمەرگه ويفهمونهم والا يسمحوا لهم أن يفعلوا ذلك. لطمت صدرها بحزن وقالت باكتئاب:

– بسبب ذلك كان شيروان مرتبكا ولم يكن على سجيته، وكلما كنت أوجه له أي سؤال ينفجر بوجهي ويصبح العابا نارية يعلو نحو المساء.

هز توفه رأسه وقال: منذ اسبوع قد شاع هذا الخبر، خفض صوته قليلاً كأنه يتحدث مع نفسه، ولا يرغب أن يزعجهم بقدر آخر بذلك الكلام، قال بهدوء:

– أي مسؤول وقائد؟ وهم أيضا انقسموا على قسمين،

غطت آمه خان بقلب خافق بطرف وشاحها فمها والقت نظرة على توفه وقالت في نفسها:

– اوه، الله لا يرضيك لما أتيت بالاخبار، لقد اظلمت الدنيا في عيوننا.

تنفس كاكه حاجي وقال:

– أولم يكن من الممكن أن يعود أحد الابناء؟ فماذا كان شيروان يفعل؟ توفه والسيجارة في فمه قال:

– ماذا يقول شيروان المسكين، كان يكتفي فقط ان يتحدث اليهم ويقول لهم لا تفعلوا ذلك، تمالكوا انفسكم، فلوذوا بالصبر الجميل، حتى يتضح الوضع، ويعود الرفاق من السفر، آمه خان حيث كانت جالسة أمام النافذة قفزت بحرارة وقالت:

– وا فرحتاه فها ان نەورۆز الحبيب قد عاد.

انتفض الجميع وقالوا:

الأحسن فليأت لعله يفهمنا لنعرف ما هذا؟

انزعج توفه من هذا الكلام والتفت الى الجماعة وقال:

– فهو أيضا يقول لكم نفس هذه الاقوال، فان كلامه على علاته، والله كأنني لن أحكي لكم قط أي شيء بعد.

اقحم نەورۆز الغرفة، وقد لف هو أيضا نفسه على قدر لم يكن يعرفه أحد غير امه آمه خان، القى عليهم التحية وسأل عن أخبارهم، وقد تكلم بمزاح مع توفه وهو واقف، ونادى صبرية بأنه جائع جداً، وطبع على خد هەلگورد قبلتين ثم جلس.

التفت اليه والده بلهفة وقال:

على الرحب والسعة يا بني، قبل كل شيء أحك لنا أولاً الوضع، فمنذ الامس نعيش في قلق كثير وقد نفد صبرنا.

نظر نەورۆز بوجه مشرق الى أبيه قائلاً:

– أي وضع، لله الشكر فالوضع طيب باستثناء هذا البرد والثلج اللذين كدرا الدينا، فالناس يريدون من الله الا يخرجوا من البيت وأن يجلسوا أمام المدفاة، فمنذ يوم أمس كنت أقول دائماً الآن أذهب، بعد قليل أذهب بينما كلما كنت أحاول ما كنت مقتدراً، خاصة عندما كنت افكر في علو ومرتفع هنا.

نظر اليه والده بابتسامة باهتة ملولة قائلا:

يبدو ان اخبار (الحوار) و(المفاوضات) أثرت فيك وجعلتك كسولا، والا ماشاء الله فانت منذ أن حل الشتاء كانك غزال تتسلق هذه الجبال والمرتفعات، كنت في (گردەرەش) شهرا واحدا، وكنت تقول كنا نغلي الثلج لنشرب الماء، فلماذا أصبحت هكذا قائلاً.

– فحدث لنا اولاً هذه الاخبار، إنها صحيحة أم لا؟

نەورۆز الذي يواصل أحماء يديه وفركهما، وقد بدتا بأنهما متحذرتان جدا، والتفت الى والده وقال:

– الشكر لله فالوضع جيد، وما يزال الحوار مجرد كلام، وليس معلوما الآن.

نظرت آمه خان الى توفه ثم التفتت الى نەورۆز وقالت باستغراب.

– ان توفه يقول قد حسم الآن، سوف يستأنفون، وأنقسم الپێشمەرگه فيما بينهم، على قسمين، وشهر بعضهم السلاح على البعض، ثم ضربت صدرها وقالت:

– نحن نكاد نزعق هما وكمداً، فما هذا يا ترى؟

مسد نەورۆز راسه وعنقه قائلاً:

– لا يا جماعة، أي قسمين وأي حال، ان كان كاكه توفه وقع في سهو، وليس كما هو قد سمعه.

مص توفه مصة في سيجارته التي لم تكن تنفصل عن اصابعه معظم الاحيان، وقد اقعس صدره وقال:

– كأنك لم تكن في المركز أو كنت نائماً؟ يا هذا كيف لم يحدث شي، فماذا كان مسك الياقات والمشاجرات، وكاد أن يتقاتل العريف رسول وقاله آمه سور على ذلك، ولولاي حيث لويت يده وانتزعت منه المسدس، فالله كان يعلم ماذا يحدث، قالت آمه خان في خفية:

– أدخل نفسه ثانية، حبذا يذكر موضوع حدث دون أن يدخل نفسه فيه هذا النفاخ، يا جماعة إن قائد الفرقة هو وان الطبيب هو، وإن الحكيم وارسطو وصاحب عقل الدنيا هو فقط وليس شخصا آخر.

كاد نەورۆز ان ينفجر ضحكا فقال:

– أخي العزيز كيف لم أكن أنا هناك، أوليس نفس الوقت الذي أخذت سيجارة من كاكه شيروان وأنا اشعلتها لك، أخي ان الپێشمەرگه هم أيضا بشر، وقد تكون لهم مئات من الانزعاجات والسآمة والمعوقات الخاصة والعامة، وهم

أيضا يتميزون غيظا فيواجه أحدهم الآخر ويهجم بعضهم على بعض، فكل الناس هكذا شأنهم، انظر ماذا يحدث يوميا ضمن عائلة واحدة حيث العديد من المجادلة والمشاجرة، سيما بين هؤلاء الذين على استعداد دائم وارواحهم على اكف ايديهم رغم هذا البرد القارس.

أخي ان ذينك الشخصين كانا على خلاف على شيء آخر، لقد تذرعا بموضوع هذا الحوار والتفاوض.

هز توفه رأسه قائلاً:

– تتفضل جيداً، ليكن هكذا، اخيراً تعلم يصح قول أي منا. وصلت صبرية الغرفة بصينية من الطعام فوضعتها أمام نةورؤز وقالت ضاحكة:

– يرحبكما الله بالخير، لم نعرف لحد الآن ما هي المسألة؟ وماذا كانت نهاية المطاف؟

قال عمها أثناء تسبيحاته:

– ليرحم الله، انا أقول فقط، الا يلقي الله عدم الوفاق والشقاق بين هؤلاء الرفاق، ولا يصيب الكورد في أي وقت بتلك النكبة، ولم يقل الاسلاف كذباً (ان كان الأخ خلف أخيه فيما اذا كانت المصيبة عندالله)، فلا يقوى علينا العدو ولا يقدر القضاء على الكورد، الا عبر القاء التردد والتشاجر بينهم، ولكن حين يقف احدهم خلف الآخر ويساند بعضهم بعضا وتتوحد كلمتهم فينتصرون دائما، ويحظون باحترام الناس ويتفكك ويتفرق عدوهم.

قال نەورۆز وهو يحتسي حساء العدس:

– في الحقيقة يا والدي العزيز ان ما تقوله صحيح جداً، ولكن لا تنس ان الذين يستفيدون من تشويه وتخريب وشق صف التأخي، لا يتخلون ابداً عن تأمرهم وينفثون سمومهم و يواصلوان دائما مشاغباتهم بين آخوين.

الله ينتقم من هؤلاء، يستحق ان تسحق رؤوسهم، والا منذ ان ولد البارتي وبدأت الثورة فان كل الاطراف كانت يدا واحدة وروحا واحدة يحلف كل واحد منهم برأس أخيه الآخر.

التفت نەورۆز بابتسامة جذلة الى توفه، حيث كان قبل قدومه منتهيا من أكل الطعام وكان مشغولا بارتشاف الشاي وكان مجرد اسمه الشاي والا كان يشبه الحبر لفرط تركيزه وغليانه، لان توفه كان يرغب فيه هكذا.

– بالله عليك عزيزي كاكه توفه أليست اقوالي صحيحة؟

ارتشف توفه جرعة جيدة من الشاي وأبقى شيئا منها في فمه، وأبتلعها بلذة، والتفت الى نەورۆز وقال ساخراً:

– اجل يا مولاي كلامك كنقش على الحجر!!

وقد انهى كلامه بحماس قائلاً:

– انت لا تعلم ان تتكلم، فللتكلم صاحبه.

انفجرت صبرية بالضحك وقالت:

– اشهد بالله نەورۆز، يصدق كاكه توفه الحبيب، من اين لك ان تعرف التكلم، فللتكلم صاحبه.

وأخيرا ضحك الجميع دفعة واحدة ماعدا توفه.

***

كانت (حەپسەخان) جالسة أمام الموقد، وكانت منشغلة بالطبخ، وكانت تدمدم مع نفسها، وقد استشاطت غضبا بسبب الحطب الطري ودخانه، فكانت تسخدم يداً واحدة لأذكاء النار، والاخرى كانت على عينيها وانفها.

كانت تسب هذا البرد، وقلبها في هم شديد، لانها كانت تسمع يوماً بعد آخر التقولات وموضوع الخلافات على قدر أكثر، وكل شخص كان يروي شيئا، وكان قلبها عند ابنائها، وصهرها وبنات اختها، وكان قلبها عند أبناء الناس الآخرين، حيث ان جميعهم بمثابة ابنائها، وكانت تحبهم مثلهم، و تخاف ان يكون هذا

الخلاف والشقاق صحيحا، حيث كاد علي وحسين ان يمسك احدهما ياقة الآخر لاول مرة أمام والدهما الامر الذي افقد شعوره تماما وافهماه حقيقة أي هم مدمر هذا، وقبل هذه الاقوال كانت على قدر من الطمأنينة والسكينة والانشراح بحيث انها كانت تظن ان الدنيا كلها ملك لها، وحين كان احد الابناء يعود ويتحدث لها عن قتال الثيَشمةرطة، وما فعلوا في موقع ما، وقد حققوا الانتصار على قدر ما في المكان الفلاني، وقطعوا الطريق عن قافلة عسكرية ما، كانت قامتها تعلو ذراعا فذراعاً من بهجتها، وكانت تبدأ بكلام روحي فداهم، وحين كانوا يذكرون ان ا حد افراد الثيَشمةرطة استشهد، كانت تجهش بالبكاء ويعتصر قلبها، وكانت تظن ان شخصا عزيزاَ جدا وقريبا لها استشهد، دون رؤية ذلك الشهيد تماماً.

وكانت المعيشة عندها في الريف بما فيها الطين والاوحال وعدم وجود الحمام والطافحة بالف نقص، نزهة، لانها كانت تعيش بامل.

وكانت في كثير من المرات تعيد المسألة التي تقول (ان اردت ان تصطاد السمك لابد ان تتبلل كاحلك)، أي لا سمح الله ان تغير الوضع الآن وانقسم هؤلاء الإخوة على قسمين وتشابكا وتواجها، فاي فرح يكمن في الحياة بالنسبة لها، الآلاف مثلها وأي ثمن يكون لها، وماذا يكون مصير كل هذه الجهود والنضال والكفاح المستميت للشعب الكوردي خلال عشرات السنين؟

كانت (حەپسەخان) تبتهل من الله بقلب معتصر وعينين طافحتين بالدموع وملالة قائلة: "ربي لا تر الكورد حدثا مثل هذا قط، وطفئ هذه النار، ولا تفرق بين هؤلاء الأخوة"!

كانت في خضم هذه الافكار والاقوال حين عادت الى رشدها اثر سماعها صوت كنتها نةوبةهار، حين تناهى الى اذنها من الايوان وقالت:

– أي والله انه كاكه توفه وقد عاد، رحبك الله بالخير لماذا تأخرت هكذا.

القت (حەپسەخان) كمية من الحطب في النار التي كانت تحت طعامها ونهضت واقفة والتفتت الى نةوبةهار التي كانت واقفة في الايوان وتتكلم مع توفه.

وكان توفه ينفض ملابسه وينزع حذاءه الطويل وكان يتأفف ويتأوه من شدة البرد، رحبت به (حەپسەخان) وسألت عن احوال واخبار اختها وبنتها صبرية والاخريات ثم قالت لماذا تأخرت هكذا؟ منذ اسبوع سافرت؟

التفت اليها توفه وقال شذراً:

– منذ اسبوع سافرت؟ تتكلمين كلاماً براحة البال، لماذا أو تعرفين مدة طريقي اليكم وكيف قطعت هذا الطريق؟ فبقيت ليلة في قاعدة المكتب السياسي في ذهابي وليلة اخرى في ايابي، وكدت ان اختنق في بعض المرتفعات حيث كانت العاصفة تصفع وجهي بثلجها وتقطع انفاسي، قالت (حەپسەخان) بملالة:

– لقد فرحت، كنت أظن أنك تحمل لي رسالة اختي لذلك تأخرت الى هذا الحد.

توفه الذي كان منشغلا بنفسه فقط دون أن ينظر الى (حەپسەخان) حين قال:

بأي شيء آتي بها، بالطائرة أم بالمظلة؟

قالت (حەپسەخان):

– طيب، طيب، ما أردناها سلمتك الى الله، ما أشد حضور كلامك وجوابك، كأنك دائما مسدس جاهز للاطلاق.

بمناسبة عودة توفه الى ماوه ت تجمعت ليلاً كل من روناك وبيستون ونةسرين وحسين في بيت (حەپسەخان) وحاجي مجيد، وكان جميعهم قلقين منهوكي القوى من تأثير الاقوال والموضوعات التي كانوا يسمعونها، ولم يكن احد منهم يستقر استقرارا في أي مكان، وكانوا يتشمرون حتى وان بلغ، الثلج والعاصفة جدا يعادل قدر الف ما هو ماثل للعيان فكانوا يتزاورون فيما بينهم، تذرعوا تلك الليلة بمجئ توفه، لقد جاؤوا وتجمعوا فيما حولهم، وكانت بداية

الكلام ونهايته تلك الاخبار، لقد كان توفه مقعسا صدره، وكان يكيل اخماسا باسداس، ويحكي لهم موضوع بيت آمه خان وكاكه حاجي وصبرية والآخرين، بشأن ماذا قالوا وكيف انهم قلقون ومهمومون أيضا، ولكن كأنه لم يتذكر أو أنه ما كان يريد أن يتحدث عن مشاجرة الپێشمەرگه كيف هجم احدهم على الآخر، وكيف شهرا المسدس وكذلك تحدث لهم عن بطولته الشخصية، ان لم يكن هو كما يقول لاوياً يد أحدهما ومنتزعا منه المسدس فكانا يتقاتلان.

نظرت (حەپسەخان) الى نةسرين وقالت بلهفة:

– بالله عليك يا نةسرين اضافة الى همومنا فكيف حال جارتكم العائلة العربية، ومنذ أن حدثت عنهم فأني قلقة بشأنهم غطت نەسرين فمها بطرف وشاحها وضحكت قائلة....

والله ماذا أقول، فالناس يشفقون عليهم ويضحكون منهم خاصة بثوب وصاية زوجته.

انهت نەسرين كلامها وقالت:

– ان تلك المرأة مسكينة جدا تبكي دائما وتتشاجر مع ابنيها، وزوجها في معظم الاوقات في المركز، بعض الاحيان يأتي به حسين الى البيت وانا أيضا ادعو زوجته.

علق توفه قائلاً:

– وأنت قولي له اشكري الله بأنك وزوجك واطفالك وصلوا الى هنا تأويكم الثورة والاّ كنتم في عداد الاموات.

مص سيجارته مصة واحدة وقال:

– نعم أنهم لم يتكيفوا هذا الجو، فاعتادوا العيش في القصر والدار الرحبة المريحة، فليأخذوا الدرس والعبرة ويعرفوا ان ثمة اناساً يعيشون هكذا، سبهم في السر والخفاء وشتم كبيرهم.

كان الرجل العربي مسؤولاً كبيرا في الجيش في بغداد، وقد تمكن ان يلوذ بالفرار في احد تلك الانقلابات مع زوجته وأطفاله والوصول الى الجبال.

لذلك علق حسين قائلاً:

– والله فان الرجل شهم ونبيل جدا، وكذلك زوجته وأطفاله، فيقول دائما لا ادري كيف اعبر عن امتناني لهذه الثورة والپێشمەرگه حيث أنقذوني وعائلتي، انه يمدح الكورد كثيرا، ويقول ما كنت اعرف أبدا انهم على هذا القدر من المروءة، فقال بيستون:

– يبدو ان الرجل محترم فهو يضع نفسه في صف پێشمەرگه صغير بكل ما كان يمتلك من الرتبة العسكرية البارزة، فانه رجل متواضع الى حد كبير.

علق توفه ثانية وقال...

انه منكوب لذلك فهو هكذا، والله لو كان يمتلك السلطة والنفوذ لكان أسوأ منهم، أو أنتم كيف تعرفون هؤلاء؟!

وكان حاجي مجيد الذي كان جالساً في نهاية الغرفة وفي حضنه حفيده كوردو، وكان يداعبه ويقبله ويقلده سبحته، رد على توفه، قائلاً.

– لا تقل كاكه توفه هكذا، فالحسنة حسنة دائما قدم الحسنة والقها في الماء.

ان هذا الرجل مادام انه لجأ الى الثورة يجب ان تنظر اليه بنظرة العطف والشفقة، وان يصان بكل الامكانات ويحترم

***

انتهى هذا الشتاء القارس، والذي لم يكن ينتهي عند (حەپسەخان) واختها واناس آخرين كثيرين، وكانوا يتصورون انهم لا يحمون ولايتدفؤون مرة اخرى ابدا، وان هذه الحمولة من الملابس التي يرتدونها لا تخفف ثانية ولا تتخلى عنهم، بينما ليس الثلج والبرد قد هجرا فحسب، بل حل الربيع بوروده وأزهاره، برائحة أعشابه الجذابة واريجها الفواح، فهو أتى وشاب، وها قد بدأ الصيف،

فنشرت اشجار تلك المناطق اغصانها بأوراقها الخضراء الفاتنة والفواكه المتنوعة التي اضفت روعة وجمالا على الطبيعة.

على مقربة من الينابيع ومساقط المياه والوهاد والنجاد والمنحدرات والسفوح في كوردستان الجميلة الخلابة تحولت كلها الى المصائف والمنتجعات واماكن لاستراحة عابري السبيل والرعاة، وعند المساء كانت صدور الناس تنشرح وقلوبهم تتفتح حين كانوا يشاهدون الدخان المتصادعد وبريق نيران عمل الخبز والطهي للقرى الواقعة على سفوح الجبال، حيث ان معظم السكان كانوان تاركين بيوتهم، وذاهبين الى مزراعهم وبساتينهم وحقول الغلال والتبغ للسهر على محصولاتها، بلغت اخبار الشقاق وحرب الاخوة الاعداء والاشتباكات والمصادمات حينذاك الى اقصى حد، فأنتاب الناس القلق والحزن والكآبة، وجراء ذلك بدأ الرجال المسنون والمعروفون والوجهاء والقوميون الكورد التوسط بين الطرفين والتصالح، لكن دون جدوى، لان ا لفوضويين والمنتفعين من ذلك النزاع والشقاق، كانوا في حركة دائبة لتوسيع شقة الخلاف، ففي اماكن عديدة يطلق الاخ على اخيه النيران، وكانت الحكومة في فرح واحتفال، ولم لا؟ أكان ثمة شيء أحسن وأفضل ان يقتل الكوردي كوردياً، ويتم القضاء على الكورد ويبقوا ضعفاء منهوكي القوى تحت سيطرتها، وهي تنتقم منهم لدفعهم الى الوراء واخيرا وصلت الحالة الى حد ان كثيرا من عوائل اصحاب الاطفال والناس العجزة والمرضى نجوا بجلودهم فأخذوا سمتهم نحو ا يران وعبروا النهر الذي كان في طريقهم، وكانت تلك العوائل مرة اخرى عائلتي (حەپسەخان) واختها، حيث كان لهما اطفال صغار واطفال رضع، وكذلك حاجي مجيد الذي كان مصابا بمرض القلب،وكلما كان القتال يشتد فهو يزداد تأثيرا وتألما وجزعا، ويغمى عليه يوميا مراراً.

***

عاد بەختيار ذات صباح الى البيت مسرعا وقال لوالدته وصبرية والآخرين بهدوء:

– قوموا فاجمعوا الاشياء الضرورية جدا، لنذهب وننقذكم، فالقتال وصل الى مقربة من ماوه ت، وان عائلة عمي أيضا في الطريق.

جحظت عينا آمه خان ويبست شفتاها، فكورت نفسها وقعدت وقالت:

– ويلاه، يا لهولي ومصيبتي بعيدا عنكم وما قيل أصبح صحيحاً؟

لطمت راسها بكلتا راحتي يديها وقالت:

– فأين الابناء الآخرون؟

ثم لكأنها تذكرت شيئا ما، عادت الى طبعها قليلا وقالت على رسلها:

– لماذا نذهب؟ لقد مر مساء أمس من هنا عەبه كاك فتاح وپێشمرگته، جاؤوا الينا وشربوا شاياً، قال لي كاكه عقبة ولصبرية وحاجي...

– لا تقلقوا تلك هي قوتي على التل القريب منكم انتبه اليكم لا تخافوا ولا تضطربوا.

ضرب بەختيار يدا بيد وقال مبتسماً..

– ان عەبه كاكه فتاحك هو ذا قد وصل الى ايران هو وعياله قبلكم، فاستعجلهم بەختيار قائلا:

– يالله اسرعوا ليس الوقت وقد هذه الاقوال، اجلبوا معكم أشياء خفيفة وضرورية، وكونوا مستعدين لنأخذكم، وحين رأى بەختيار بأن خيبة الامل والارتباك تكاد تؤدي الى انهيار امه والآخريات، وقد شلت قواهن ولا يعرفن ماذا يفعلن، لذلك نظر اليهن بابتسامة مصطنعة قائلاً.

– فلن نذهب نهائيا، ستبقون أياما هناك، فان شاء الله تخمد هذه النار بسرعة وستعودون، لقد توسط ناس كثير فيما بينهما، وهم يعملون على قدم وساق!!

هز والده رأسه بملال:

– بعون الله، الله يصب ماء الرحمة على قلب كلا الطرفين، لم يمض وقت طويل، عاد شيروان أيضا، قاد صبرية الى الغرفة وأقترب منها، وبهدوء كثير كأن شيئا لم يحدث، حمل على صبرية وقبلها قبلتين ثلاث، نزعت صبرية نفسها من بين يديه وقالت بعصبية.

اواه، أهو الآن وقت ذلك، الا لماذا انت أناني ومهمل الى هذا الحد؟

قال شيروان:

– منذ شهور حرمت على نفسي الماء والطعام فغص وضاق بهما بلعومي، ان ما كنت اخاف منه قد حدث ومن الآن فصاعدا لاابالي بأي شيء، ان شاء الله اقتل الآن.

عاد مرة آخرى الى صبرية، فقبلها قبلتين ثلاث اخرى، احتضن ابنه وأخذ يقبله ويداعبه الى ان اعدت صبرية لوازم ابنها وبعض الأكل والمواد الاخرى للسفر.

***

كان مساء والشمس اوشكت على الغروب، وظل شعاعها الاصفر الضعيف على قمم وبعض سطوح الجبال، لكنها تريد أن تختفي خجلاً، وهي أيضا كانت منقبضة ومنزعجة جداً، وعاجزة امام الاعمال القبيحة التي حدثت، وهي ترى من عليائها باستحياء كيف يهجم أخ على اخيه، وكيف يتراشقون بقلوب مفعمة بالحقد والكراهية، والعداء بنيران اسلحتهم، وقد غدوا كالحيوانات الوحشية والضارية، وفقدوا شعورهم نهائيا ولا يقولون علاما هذا ولماذا؟ وعلى أي شيء يفعل بعضهم ببعض الآخر، نقضي على انفسنا، وان كل هؤلاء الشباب والابطال والمناضلين الاباة الذين خاضوا معارك الشرف والفداء منذ سنوات تتقاتل فيما بيننا، حيث كنا حتى الامس القريب اخوة في خندق واحد وكنا نتعانق معا في السراء والضراء والبكاء والضحك وننندمج ونصبح روحا واحدة، لماذا يسفكون الدماء الزكية فيما بينهم، ويتركوننا وحيدين في هذه الدنيا المترامية الأطراف

بين اعدائنا وخصومنا الكثيرين الذين يريدون من الله ان يقضوا علينا ويظهرونا عاجزين بلا عنوان، بينما نحن حققنا امنية عدو شعبنا الفقير، وها نحن نقضي احدنا على الآخر بدلا منهم.

في ذلك المساء توجه معظم الهاربين من اقتتال الاخوة الاعداء نحو النهر لكي يعبروا الى جهة ايران، وكانت هذه الجهة من النهر كوردستان العراق وتلك الجهة كوردستان ايران، وقد جلست عوائل باطفالها وكبارها بانتظار العبور.

وكان بعض من افراد الثيَشمةرطة الذين كانوا من سكنة قرى الجهتين منشغلتين بقطع الاغصان والاشجار ومد الحبال لصنع عبارة الماء لانقاذ العوائل والناس المتجمعين هناك، لآن النهر كان شديدا وسريع الجريان، يجرف من أمامه الانسان والخيل، لقد وصلت عائلة (حەپسەخان) والاخرون الى هناك، وكانوا جالسين بملال وارتباك وبعيون دامعة، ولم يكن توفه وبەختيار وحدهما معهما، وقد بقي علي مع قوته، وكان حسين متوجها الى جهة اخرى، فأرسل شيروان وصبرية وآمه خان وحاجي، ولم يكن يعرف الى اية جهة يمم وجهه.

وكان أهالي تلك المنطقة يأتون باضطراد حاملين اخباراً سيئة مؤلمة، ويأتون بالاكل وزاد السفر لانفسهم والناس الذين كانوا على شاطيء النهر.

ويأتون ببعض جدور الطعام لمعارفهم وأقاربهم الذين كانوا على وشك الرحيل.

وقد عبر أشخاص نحو تلك الجهة لآخذ موافقة الدولة الايرانية لكي يتجه الناس الى جهتهم، وكان من بينهم أشخاص يذهبون مع معارفهم وأقاربهم الى زاوية يتهامسون فيما بينهم بأن لا يأخذ معه هذا السلاح الجيد الى جهة ايران، لعلهم يجدون حلا للحفاظ عليه هنا.

لقد كان مشهدا في غاية الازعاج، كان خراب البيت والمفعم بالخجل والفضيحة لكل الطرفين المهاجمين والاخوة الاعداء.

لم يكن هذا وحده في المنطقة، بل كان الوضع هكذا على امتداد البلاد، وكان الذين تابعين لكلا الطرفين يتشابكون في المدن في الشوارع والازقة والاسواق ينهال احدهم على الآخر بالركلات والعصوات ويتراشقون بالاحجار، وكان الصغار والكبار والشباب من كلا الطرفين يعودون الى بيوتهم برؤوس مجروحة وافواه وانوف دامية.

يبدو ان خطايا وذنوب هذا القتل والتدمير وسفك الدماء، وهذه الواقعة المؤلمة كانت في ذمة قادة كلا الطرفين لانه كان من المفروض ان يتخلوا عن بعض عنادهم وانانيتهم، ويتوصلوا الى نتيجة تحول دون وصول واقع هذا الشعب المعدم الفقير الذي لا ناصر له الى هذا اليوم الاسود، وكان حريا بهم ان يكونوا أكثر بعد نظر واكثر تفانيا وايثاراً من ذالك.

ثمة بعض القادة حين كان النزاع في بدايته، يصرخ ويصيح ويحمر وجهه غضبا، وكان يقول في الاجتماعات يجب ان يكون هكذا ولا يجوز ان يكون هكذا, أي شخص يؤيد الطرف الآخر ويعترف بالاتفاق المبرم مع الحكومة فانه كذا وكذا وخائن، فانا افعل كذا وكذا، سأحمل صندوقا من الطلقات وأذهب واجلس على هذا التل سأقاتلهم وفي الاخير إن لم أكن قادرا عليهم سأطلق رصاصة على قمة راسي، بينما حين بدأت حرب اقتتال الاخوة، فانه وصل الى المدينة قبل كل شخص، وكان أهله وعياله منهمكين في بغداد بالحصول على جواز السفر له، لكي يتوجه الى الخارج بأسرع ما يمكن.

لقد حل الليل وكانت عائلتا حاجي مجيد وأخيه عبرتا نحو جهة أيران، وقد جلسوا بالقرب من النهر في مكان منبسط على صخور ضخمة فكانت كل واحدة منها بقدر ربع جبل، فنشروا موادهم وامتعتهم وأشياءهم في تلك البقعة، حيث ابتلت ملابسهم أثناء عبورهم.

وكانت صاحبات الاطفال في الظلام المخيم عليهن في خبط عشواء مشغولات بتبديل ملابس اطفالهن وتنويمهم. شدت آمه خان رأسها بقوة، وشدت ظهرها

وتحزمت بحزام تسوس البطن، وكانت تتأفف وتتأوه وتدمدم بسبب ملابسها كيف تجففها، فها ان قفا رقبتها ومنكبها يؤلمانها وانتابها تسوس البطن.

لقد هدأت اختها (حەپسەخان) قليلا بعد أن أبصرت ابنها وصهرها وأولاد اختها، حيث انهم عبروا نحو جهة ايران سالمين. لقد فرشوا لحاجي مجيد فراشا صغيرا، وهو كان متمدداً واخوه الى جانبه جالس، فكانا يتكلمان بصوت واطئ وهما في حالة من البؤس والانقباض.

انتشر معظم الناس، وأخذ البعض مباشرة يتسلقون الجبال للتوجه نحو قرى ايران.

بات بيت (حەپسەخان) والآخرون تلك الليلة في ذلك المكان حتى الصباح، وحين طلع النهار فأنهم أيضا سلكوا الطريق نحو تلك الجبال الشاهقة، وقد حصلوا على بعض الخيول لحاجي مجيد الذي كان مريضا، وكذلك لصاحبات الاطفال لركوبها بالتناوب، عند المساء وصلوا الى مكان عميق واسع، وكانت عين، رقراقة، تتدفق من سفح الوادي حيث كانت لكهف صغير وحوله ثمة احجار وحصى ورمال نظيفة طاهرة.

لقد وصلت الجماعة في حالة من التعب والاعياء والخور وتحت رحمة الحر القائظ والمرض وبقلوب طافحة بالحقد والكراهية الى الوادي، فأسرع الجميع واحدا بعد الآخر الى النبع، وصاحبات الاطفال حيث كن أكثر تعبا من الناس الاخرين جلسن مع اطفالهن وأخذن تبتردن والتشهد بالله، وكان الجميع في هم من مرض حاجي، لقد تعكر مزاج توفه ولم يكن راغبا في الكلام والتفاخر، وكان يبدو غاضبا ومنزعجا.

في الطريق حيث لم يكونوا واصلين الى الوادي، فاذا بآمه خان قد اطلقت صرخة وكانت تسب جميع الناس من تأثرها، واجهها توفه قائلا....

– لماذا لا ترتاحين منه؟ هو ذا المكان الذي كنت تجلسين ساعات وتنظرين بالناظور اليه، وكنت تقولين (وي أماه ما أروع جبال وقرى جهة ايران، وما

أضيق اماكننا، اذن بدلا من استخدام الناظور، انظري اليها بنفسك، فها قد تحققت امنيتك، إنها مكانك الطيب).

لقد كانت آمه خان ايضا ماسحة دموعها، قارئة منه الدعاء قائلة:

– أفلا تنظرون الى هذا الثرثار، لا يدعنا أن نفرز آهة مافي قلبنا، وي ابتاه من أين كنت أعرف ان هنا هكذا، وكانت هذه الجبال والارياف على قدر من الجمال والبهاء كأنها جنة، بينما هذه الطرقات ظهرت شديدة وعرة المسالك حارة محفوفة بالاشواك والاحجار والعقارب.

كان اسم الوادي (وادي العشيان) وحين حل الليل قالت (حەپسەخان):

– رحم الله والد الذي اطلق هذا الاسم على هذا الوادي، اشهد بالله يستحق ذلك، اعوذ بالله ، فكيف ننام نحن هنا الليلة، فتأكلنا الافاعي والعقارب والوحوش، خاصة حين لا ترى عين عينا.

كان زوجها حاجي الذي قد هدأ قليلا وعاد الى رشده أضطرارا قال بملال...

– يالله، رضاؤنا بارضاء الله، لا مناص منه، مهما يكن، هذا ايضا يمر وينتهي.

لا تقلقن انفسكن، ليس ثمة امر لا يصلحه الله.

علقت صبرية قائلة:

– لا تزعج نفسك يا والدي العزيز، سنتعود الآن على هذا، ما هو جيد هنا بأن صخوره ملساء نظيفة كأنها مصاطب ننام عليها نحن.

سرعان ما كانت روناك ذاهبة الى جنب والدتها وقد أسندت راسها الى صدرها مكورة نفسها خوفا. وكان بةختيار المسكين اضافة الى انقباض صدره وهمومه كان دائما مشغولا بادخال السلوى والسكنية في قلوب والديه وخالته وعمه وبنات خالته وأبناء عمه، خاصة لم يبق قدر ما من زاد سفرهم وأكلهم.

قالت (حەپسەخان) بغتة:

– اوه لا ادري ماذا يفعل الله لي، قولي يا أمرأة، سلمتك لله لماذا نسيت كيس الفطائر المحشوة تمرا، حيث كان الاطفال يأكلونها.

ثم مدت احدى يديها الى رأسها ووشاحها وقالت مع نفسها:

– أي فطائر ومعجنات، لماذا أي شيء كان في خاطرنا!

علقت صبرية بلهفة قائلة:

– فما تقولين لي؟ بكسران رقبتي وضعت كيس الرغيف المتدهن على الصندوق لاعطيه لبةختيار، ولكثرة ماصاحوني ورحت لاعرف ما الخبر، نسيت فظل في مكانه؟

لقد تذكرته ليلاً عند النهر، يا لقدر همي وحزني. ضربت آمه خان أيضاً بيد واحدة رأسها وقالت:

– وتلك الدجاجات السمان البياضة التي كانت عندنا لم نقل ان نأتي باثنتين منها مذبوحتين، أو نأتي بأثنتين غير مذبوحتين، فكنا الان نغليهما لانفسنا.

وكان توفه الذي كان مادا كلتا ساقيه. وكان مشغولا بترتيب سيمائه وجمدانته رد عليها قائلا:

كنت تطبخين الدجاج في الجبل فانى لك الاواني والمواعين؟!

هز رأسه قائلا....

– انهم يقولون انه يتكلم كثيرا واجوبته جاهزة وثرثار جداً!

كان بةختيار جالسا بالقرب منه نخسه بهدوء، وقال له هامسا.

– عزيزي لا ضير أنهن متألمات، فيتكلمن كلامين، لاتحاكمهن الى هذا الحد.

تكلم كاكه حاجي من ذلك الطرف قائلاً:

– يبدو انكن تتضورن جوعاً، لذلك تذكرن الاكل بهذا القدر.

ثم استطرد قائلاً:

– في الحرب العالمية الثانية وقع جنود في نكبة، فتخلفوا عن احد رفاقهم، يضلوا الطريق، فظلوامدة من الزمن على هذه الحالة. يتضورون جوعا، يقول احدهم للاخر:

– استحلفك بالله ان لم تكرر لنا موضوع مأدبة والد خطيبتك فماذا طبخوا لك؟

ان حاجي الذي كان جالسا في الظلام بجانب اخيه قال بابتسامة ملولة:

– انكن اصبحتن مثل هؤلاء الجنود، هي تتحدث عن موضوع الرغيف المتدهن والاخريان تتحدثان عن الفطائر والمعجنات والدجاجة المطبوخة.

في ذلك الوقت سمع صوت وقع الاقدام والصراخ من المرتفع الذي كان يطل على الوادي، انتفض توفه وبةختيار وصاحا من أنت يا رجل؟

خفقت قلوب الناس من هم هؤلاء يا ترى؟

صاح بيستون من ذلك العلو قائلاً:

– نحن نحن انفسنا!!

وحين وصلوا اليهم كان حسين وبيستون، سألا عن احوال الجماعة وقد ادخلا السلوى في قلوبهم قليلا وقالا:

– واخيرا لم تبق مسافة طويلة بان تصلوا الى تلك القرية، وهناك رتبنا لكم المكان، انه بيت رجل من حاج، يمتلك داراً واسعة، له بنت واحدة وزوجة عجوز، قالوا على الرحب والسعة وعلى العين، انهى بيستون كلامه وقال:

ان صاحب البيت من معارف خالي، وكان يأتي كثيراً الى جهتنا الى بيت خالي، رأيته هناك مرة مرتين.

اسرع بيستون الى روناك وجلس عندها.

قال حسين:– لا تحملوا الهم لم تبق امامكم مسافة طويلة، تركنون الان ان شاء الله الى الاستراحة الكاملة.

سأله والده.

– ماذا حل بالاولاد الاخرين؟

اجابه حسين قائلاً:

ذهب كاكه علي مع اثنين ثلاثة رفاق الى ستەردەشت للتباحث مع الايـرانيين، لانهم لا يسمحون أن يأتي احد حاملا السلاح، ومن يحمل السلاح يقولون له يجب ان تلقي السلاح ومتى اردته حين تعود، نعيده لك.

ضرب عمه يدا بيد:

انتفض توفه قال بتضايق وارتباك:

– إذن نجرد من السلاح؟

اراد حسين من أجل خاطر والده ان يقول بعض الاقوال التي تطئمن القلوب، لذلك قال:

– أهي ولاية البطيخ، مدينة بلا حاكم، كيف يمكن ان تدخل كل هذه القوة ارض دولة اخرى بالسلاح.

هيأ بيستون نفسه وتنشط قائلا:

خاصة الشاه، حيث لا يسمحون كما يقولون حتى ان يحمل رجاله السلاح، فكيف اذن بالقوة التابعة للثيَشمةرطة؟!

استطرد بيستون قائلا:

– يقولون ان الشاه لا يثق بأحد، ان بنادق جيشه في مكان، وطلقاتها في مكان آخر، ومدافعه في مدينة وقذائفها في مدينة اخرى.

كان حسين اراد ان ينسيهم هذه الاقوال فقال:

– أو تعرفـون ان كـثيراً مـن العوائـل اتـت وقـد وصـلت فنظمـوا أمـاكنهم وأستقروا.

قالت (حەپسەخان) بملال:

– من ومن جاءنا:

قال حسين :

عائلة كاكه عەبه فتاح الذي تباهى بأنه ينتبه منكم ويرعاكم، هو ذا مع عائلته وأطفاله هنا وقد حصلوا على الدار، في طريقي اليكم زرته، كأنه هناك منذ شهر، لقد طبخوا، وكان اطفالهم يلعبون في تلك البقعة، كأن شيئا لم يكن.

هزت نەسرين راسها قائلة:

– أعوذ بالله فان بعض الناس على قدر كبير من التطفل يبحثون دائما عن سعادتهم فقط، ان هذا البيت لا يسد بوجههم الابواب ابداً، فتمشي امورهم على قدم وساق اينما كانوا ويكونون، حتى ولو مروا عند حائط يقتطعون منه جانبا أن امكنوا.

قالت له صبرية بفخر:

– انتظروا، والله لا يمر يوم يجعلون جميع أهل القرية معارف لهم، فبتملقهم ورياءهم يخدعونهم بحيث يأخذون لهم كل ما يمتلكون من الحليب واللبن.

نادت (حەپسەخان) حسين الذي كان متقرفصا عند والده فقالت له:

– الا يا بني الم تأتوا بشيء من الاكل، فيكاد الاطفال يموتون من الجوع، رد عليها حسين قائلاً:

– وكيف ذلك؟

انتفض بيستون أيضا وكان ماسكا بيد روناك، وكان يريد من الله ان تكون الدنيا اشد ظلاما من ذلك، لكي يضم روناك الى صدره أكثر قدر ما يستطيع ويشبع منها القبلات دون ان يعلم بهما أحد. قال بيستون بحرارة...

– أجل، أجل لقد اتينا لكم بالاكل من عندنا، بينما نسيناه تماما.

سرعان ما قام حسين وبيستون ومدا يديهما الى حملهما ووضعاه بين يدي (حەپسەخان) والآخرين.

لقد تحلق الجميع حولها، وجلسوا على ضوء المصباح اليدوي وشعاع نار اعداد الشاي من قبل توفه حول حزمة من الخبز واللبن.

وبعد اليوم الثاني من بعد الظهر وصلت الجماعة الى القرية، جاء صاحب البيت لاستقبالهم عانقت العجوز مع ابنتها النساء، ثم ارشدتاهن الطريق المفضي الى البيت.

قالت ربة البيت مرتين ثلاث وهي كانت تمسح عينيها من الدموع.

– رحبن الله بالخير، بالله منذ ذلك اليوم الذي سمعنا تلك الاقوال والاخبار السيئة، فقدنا الوعي، حقا ان ما حدث لكم خيب أملنا، لقد كنا فرحين بكم جيداً!!

كما ان زوجها اخذ الرجال الى جهة اخرى، وكان ايضا يتكلم نفس تلك الاقوال.

وقد تجمع ما حولهم وجيرانهم، وكانوا ينظرون اليهم من بعيد وكان كل واحد يقول كلاما.

وكان اطفال المنطقة يتنادون، ويقول احدهم للآخر:

– تعالوا يا أطفال، جاء البعض الآخر.

(فاطمة خان) التي كانت بنت صاحب البيت كان عمرها ما يقارب اربعين عاما، ولم تكن متزوجة بعد، فكان كل اثاث البيت ووالدها هي نفسها فقط.

التفتت الفتاة العانس الى الاطفال واستشاطت غضبا وطردتهم، وتبدو بأن الاطفال يخافون منها، لانها حين صرخت عليهم لم يبق احد في المنطقة.

كانت فاطمة مديدة القامة، لم تكن سمينة ولا نحيلة، وقد بدت سمراء خفيفة الدم نشطة.

حملت فورا على اشيائهم ودلتهم على الغرفة والمكان، فوضعت امامهم الابريق والصحن.

وكانت الدار التي سكنوها تقع في نهاية القرية، على سفح جبل شاهق حيث كان سطحها وايوانها ونوافذ غرفها تطل مباشرة على قرى جهة العراق، ولا سيما قرية آمه خان وصبرية.

كان فيها معلفان ومتبن واحد كبير جدا وطويل ومن هناك كان الناس يرتقون بدرجين ثلاثة صغار، ثم كان هناك ايوان طويل واسع، وكانت غرفها فوقها متراصة بشكل متسلسل، وكلها كانت كبيرة ومريحة.

وكان أسفل الايوان مكانا للموقد والطبخ، وبنى أمامه شبه جدار لصد الهواء والعاصفة.

كانت حول الدار كلها أشجار متنوعة بدءاً بالرمان حتى التوت والصفصاف الباكي والعفص والكرز الاحمر.

وكانت شجرة توت ضخمة للغاية بلغت اغصانها الى فوق السطح وقد ظللت كسقيفة جانباً كاملا من السطح، لذلك سرعان ما كان صاحب الدار يذهب مساء للجلوس تحت ذلك الفيء المنعش فيجتمع حوله اقاربه ومعارفه، وبعد ذلك اخذت ابنته فاطمة الطنافس والسجاد والمخدات والحصران الى هناك مع السماور وأبريق الشاي واقداحه وطاسة من المخيض البارد الطيب.

وكانت حول وأطراف البيت ومجمل القرية كلها خضروات والتبغ، مع عباد الشمس والذرة وكذلك الطماطة والخيار والقثاء وأشياء اخرى.

***

سرعان ما بدأ توفه بالتحرك واصدار الفرمانات (الاوامر) للنساء كما يريد ان يظهر نفسه امام عيون البيت خاصة (فاطمة خان) بانه شيء ذو شأن وسلطان بينهم.

مضت ساعتان على وصولهم المكان حين انتصب توفه على رجليه وانتعش قليلا واخذ يفرغ جعبته من القول المأثور، ولم يتسغرق وقت طويل فاذا به أخذ فاطمة خان الى ذلك الطرف وبدأ بالهمسات معها.

رأت روناك وامها ذلك المشهد، فغطت روناك فمها وانفجرت بالضحك فأخفت رأسها من وراء ظهر امها.

ضربت امها نفسها بهدوء، وقالت في خفاء:

– ياستار، والله قد هلكنا تماما، سننفتضح الآن عند أهل البيت، من المحتمل ان يطردوننا.

نهضت (حەپسەخان) فتوجهت الى كل من آمه خان و نةوبةهار والاخريات، قالت بهمسة قلقة:

– أواه اولم تنظرن الى توفه النحس، كيف وقف منتصبا، ونادت الفتاة الى ذلك الطرف، لا ادري ماذا يقول لها، بالله أخاف سيفضحنا ويبدأ بمغازلتها.

تنكبت نةسرين بنتها وقالت:

لا يستبعد أي شيء من توفه الثرثار!!

قالت صبرية بهدوء:

– انتظرن أناديه الآن واتكلم معه.

قالت هي هكذا، عاد اليهن توفه بالابتسامة التي ندت على شفتيه وبوجه مشرق.

القت عليه صبرية نظرة، فقالت له بهمسة هادئة:

ها ماذا قلت للفتاة، ما يزال الوقت كله، ساعتين بسم الله منذ ان وصلنا.

علقت نەسرين قائلة:

– بتلك الحالة التي كنا فيها.

وضعت آمه خان يدها على خدها بأسى قائلة:

– أي الاّ يجوز ان يجعل أهل البيت في وقت مبكر مطلعين على علمه ومعرفته؟!

كان توفه يواصل النظر الى افواهن، فخياله ليس عندهن، فان قلبه ووعيه في مكان آخر.

وبعد كل هذا الهجوم الكاسح عليه اضطر ان يتكلم وقال بعصبية.

اوه ماذا دهاكن، ماذا دهاكن (ناديت فاطمة وقلت لها ان تتمكني ان تخفي لي المسدس، والله حتى اذا قامت الدنيا لا اسلم مسدسي الى الدولة.

قالت صبرية بسخرية:

– وافرحتاه، فالشكر لله، اضحى اسم الفتاة (فاطمة) طيب، ماذا قالت (فاطمة)؟

قال توفه بابتسامة حلوة:

– قالت لي على عيني سأذهب حالاً فأخفيه لك بحيث أن جد الدولة لا يعثر عليه.

قالت (حەپسەخان):

– طيب لماذا لم تقل لوالدها؟

قالت آمه خان ثانية بملالة:

– وكيف مادامت بنته موجودة، فلا داعي، ان يقول لوالدها.

ضرب توفه يداً بيد قائلاً....

– كن على هذه الحالة، هكذا قفن مكتوفة الايدي، واضربن انفسكن، وانشغلن بالآه والأف، الله لايكدر بيتكن، جعلتن الدنيا مكروهة في نظرنا.

واكتفى بما قال، فذهب الى مجلس الرجال.

***

مضى شهر واحد على نجاة عائلتي (حەپسەخان) واختها والناس والآخرين نحو جهة إيران، حين استقروا في قرية والد فاطمة في انتظار الاحداث ومستقبلهم، واخيرا الى اين يذهبون بهم وماذا يحدث لهم؟!

خلال هذه المدة وصل أقارب حاجي مجيد و(حەشسەخان) الى عندهم واختلطوا بعائلتهما، وكان من ضمنهم حفيدا كل من الجانبين.

كان احدهما حدثا الى حدما في حوالي عشرين سنة والآخر صاحب عائلة.

ان الذين جاؤوا الى جهة ايران وافقت الدولة الايرانية على لجوئهم وكانوا منهمكين بتدبير المواد الغذائية والسكن لكي لا يبقوهم تدريجيا على الحدود.

كما ان الدولة شرعت بارسال المواد الغذائية والارزاق الى قوة الثيَشمةرطة وعوائلهم، وعلى مدى التفاتك الى الوراء كنت ترى قوافل البغال والبراذين بصليل جرس المقدمة كانت تصل اليهم، باكياس من الرز الصدري الفاخر والطحين والسكر وصفائح دهن الشاه بسند وكارتونات وصناديق التايد.

لكثرة المؤونة التي وصلتهم اصبحت ايدي جميع اهل القرية خاصة بيت فاطمة بالدهن.

ان الذي فرح أكثر من كل شخص بهذا السيل من المؤونة والدهن والرز كان الحفيد المراهق لكلا الحاجيين (سمايل) لانه كان شرها للغاية راغبا في الاكل.

وأثناء الطبخ كان يحشر نفسه كل مرة في المطبخ وبين الجدر والاواني والمواعين بذريعة اشعال النار ومساعدة (حەپسەخان) وكسر الحطب، وكان دائما فوق ركبة سروال (سمه) وفي طرفيه السمن، وذلك بسبب كثرة قربه من قدر التمن المطبوخ المصفى، اثناء اخراج الحكاكة، وكان توفه يطعن فيه كثيرا وسماه (القط) لكنه ما كان يسمعه ولم يكن يلتفت الى طعنات توفه وكان توفه يقول له مراراً وتكراراً.

– ان قتال الاخوة الاعداء هذا والتشرد من جهة وبطنك من جهة اخرى.

فكلما كان صليل جرس مقدمة القافلة يتناهى الى السمع من بعيد يقول احد:

– أي بالله فهما جلبوا لنا الاشياء.

كان سمه ينتفض ويخرج، وكان ينظر اليها من بعيد ويذهب لاستقبالهم ويلتفت الى بيت وعوائل اخواله ويرفع اصبعه قائلا:

– والله يا أخي يليق به وحده، وكان حتى سبعة ظهور والده كانوا من سلالة الشاهنشاه، هكذا يكون النبيل والمحنك، يا ترى من يقول ان الجزيرتين الواقعتين جنوب البصرة ليستا ملكا لهم؟ والله يا أخي اشهد بالله الى أعالي جامع حاجي خان هي ملكهم ثم ماذا؟

وكانت الجماعة على هذا القدر من الهم والغم، كانوا يقهقهون بالضحك ويقعون على ظهورهم وتطفر من عيونهم الدموع.

اكتسب توفه اضافة الى فاطمة خان ثلاث اربع بنات اخريات، كان يخرج الى القرية بعد شرب الشاي صباحا، وهناك كان يتفقد المزروعات وحقول التبغ، وهناك يلتقي بالبنات والنساء اللاتي كن يشتغلن ومنهمكات بالتشذيب والتعشيب، كن يقضين الوقت بتوفه ويضحكن منه، سرعان ما اطلعن على تبجحات ونفخات توفه، وكانت بينهن ارملة ارملتان كانتا تتملقان له حقيقة، وكانت كل واحدة منهما راغبة في ان يزوجها توفه، وفي المساء اثناء عودة الاغنام الى القرية وجلب الحيوانات، كان له حضور هناك أيضا، وجعل اثنتين ثلاث بنات ونساء من صديقاته حيث كن يضحكن من كلامه، وكن لطيفات المعشر معه، وحين كان يعود الى البيت مساء يبدأ بالتملق لفاطمة والتقرب منها.

كانت آمه خان واختها والبنات يتحدثن عنه فيما بينهن، وكن غير مرتاحات من تلك الحركات التي تبدر من توفه، وفي مرات كثيرة كن يواجهنه وكانت كل واحدة تحكي عليه.

انهن الآن منكوبات لاجئات لابد ان يحترمن انفسهن وكذلك مضيفهن.

وكان توفه يسلط لسانه عليهن ويهاجمهن قائلاً:

– ماذا أفعل أنا، فأين ايمم وجهي يلتفن حولي ويحبني، كانت آمه خان تقول:

أي والله صحيح ما يقول، أصبح دون جوان العصر وكانت تقول في خفاء:

– أجل يحبنك؟ يحبن أي مكان فيك؟، يا ترى أي تباه وفخر وكذب تستله من جعبتك وهن يضحكن عليك!!

وكانت (حەپسەخان) تلتفت الى اختها وتقول هامسة:

– أختي العزيزة، ربما قال لاهل القرية أي قائد جيش هو وأي قائد فرقة؟

***

ان الشقاق وحرب اقتتال الاخوة، بعث في صفوف قوات پێشمەرگه الطرفين والذين توجهوا الى جهة أيران فوضى وتسيبا في غاية التردي، وقد ظل الجميع عاطلين عن العمل ومهمومين ومتذمرين، فأصبح القسم منهم مرتبكين منهاري الارادة مثبطي العزائم، خاصة حين نقلوا الى المدن، وان البعض منهم لا أباليين ومتسيبين تماما، فانصرفوا الى لعب الميسر والغش والاحتيال وشرب الخمر والذهاب الى المواخير والسقوط في مهاوي الفساد الاخلاقي والانحراف الخلقي.

وكان المرء يختار من الشخص الذي تغير هكذا ويقولون عنه كذا وكذا، انه ذلك الشخص الذي كان قبل شهور بطلا يتصدى بصدره الرصاص ويلقي نفسه في النار، وكان يذهب في وضح النهارالى المدينة فيخرج معاون ومدير الامن الحكومي في فراشهما ويأخذهما اسيرين، أو كيف هو ذالك الشخص الذي يواجه ببطن جائعة و بندقية متهرئة قديمة احتفظ بها منذ سنوات الجيش الحكومي الذي كان يشن عليهم الهجوم بأحدث وأخطر المدرعات والدبابات والمدافع والطائرات.

أو كانوا يرون فجأة ان البعض من افراد الپێشمەرگه اختفوا عن الانظار، ثم كان يتبين لهم بأنهم عبروا نحو جهة العراق وسلموا أنفسهم الى السلطات الحكومية أو جهة أخرى.

وكان واحد وأثنان من المنهارين حين وجدا أنفسهما يائسين ومرتبكين، أنتحرا، ولكن ظل القسم الاعظم على ارداتهم ومبادئهم، دون أن يؤثر فيهم أي تحول أو حدث قيد أنملة.

***

اما جبهة جهة العراق فان البعض منهم فتر حماسهم بعد فترة وعادوا الى رشدهم، وقد غضبوا وتضايقوا من أحداث الاخوة الاعداء.

وكان من بينهم من يخفض رأسه خجلا وتغرق عيناه بالدموع وينحى باللائمة على نفسه ويتألم كيف تجرأ دون وازع ضمير أن يهجم على رفيق سنوات عمره ويرشقه بنيران بندقيته.

وكانا يتذكران تماما الايام الماضية من كفاحهما السري معا، ماذا فعلا معا في السنة الفلانية، وكيف كاد في اليوم الفلاني ان يعتقلا في نقطة التفتيش حين كانا حاملين المواد والاشياء السرية للبارتي وكانا يريدان انقاذها، وحين اعتقلا تلك المرة في كركوك، حتى في تلك الحالة كانا ينكتان ويضحكان ويمزحان، وحين كانت تأتي والدة احدهما لزيارتهما ما كانت تميز بينهما كأنها آتية لزيارة ابنيها المعتقلين، وكيف كانت تذرف الدموع لهما، وعلى الرغم من وضعها المادي المتردي كانت تجلب له مثل ما كانت تجلب لابنها.

لذلك فان ذلك الشخص كان ينهض فجأة لكي يتمكن ان يحلل نفسه ببعض الذارئع والمعاذير ويذهب الى أهل ذلك الرفيق أو أقاربه ليعبر عن ندمه، وكان يضرب يدا بيد، بأنه للاسف لم يكن هناك حينذاك، وكان في مكان بعيد والا ما كان يدع ابدا شيئا من هذا القبيل، بالله عليكم ماذا تحتاجون، فانه مستعد ان يضحي من اجلهم.

وكان قسم آخر من هؤلاء يبحث عن المبررات، وكان يستشيط غضبا من أي شخص يقول له انت مخطئ ولست على حق، وكان يحمل سلاحه، ويعبر خلسة الى جهة إيران وينضم الى الذين كانوا هناك، حاملا معه مئات الحكايات والتقولات والاخبار الصحيحة والكاذبة، وكان القسم الآخر في غنى عن هموم ومعاناة الناس فخلا الجو لهم لذلك انصرفوا الى التطفل عن طريق السحت والمال الحرام والغش والاحتيال والنهب والاثراء الفاحش واقتناء السيارات الفارهة وشراء الاراضي والعقارات، أما الذين تولوا مناصب رفيعة لدى حكومة بغداد فان معظمهم سكنوا في بنايات وقصور حكومية فخمة متبجحين متباهين.

وأخذوا يتساقطون على السفر الى اوربا وامريكا والى هذه الجهة وتلك وتناسوا ما كانوا فيه ايام زمان، فانتعشوا وانتحلوا شخصيات اخرى.

***

كان مساء حيث ان (حەپسەخان) واختها في طريقهما الى بيت فاطمة خان، فتقدمهما توفه وصبرية ونەوبەهار.

كانت (حەپسەخان) تمشي بتلهث وقلق، وقالت لاختها:

– والله لو كانت هذه الاوضاع والوقائع تبدو امام عيني حتى في حلم الليل سرعان ما يتقطع قلبي وما كنت أصل الى هذا اليوم. اواه كيف اصبحنا مشردين هائمين على وجوهنا محرومين من مالنا وحالنا.

يا ترى لم يكن ما آل الينا حالنا بسبب الاعداء، وانما فعل بنا الاخوة وابناء العم والمواطنون من جنس وعنصر واحد ورفاق درب النضال.

صحيح كانت ماوەت ايضا قرية، ولكن كنا هناك احراراً مفعمين بالآمل شامخي الرؤوس، وما كنت أستبدلها بالف مدينة في الدنيا.

ها هنا الآن، ولو انها قريبة على قدر وأرى بعيني القرية وبيوتنا، والناس هنا كلهم من الكورد فلتعمر الله بيوتهم فانهم أناس طيبون، بينما نحن غرباء مهمومون مكئتبون دائما. وكانت آمه خان التي تتثاقل دائما وعلى وشك البكاء.

أثرت فيها اقوال اختها فمدت يدها الى عينيها وقالت بأسى:

أكثر من الكل سوءا وكدراً، هو قطع كل هذه الطريق ودخول الوادي وخلف الصخور والعبور خلال تلك الاشجار والغابة لقضاء حاجة.

رفعت (حەپسەخان) طرف صايتها والتفتت الى اختها قائلة:

ان تلك هي فوق باقي كل العلل.

تنهدت (حەپسەخان) بحرقة وحرارة من اعماق قلبها وقالت:

– كذلك الذي لا نعرف ماذا يحدث لنا والى اين يرسلوننا، يقولون على ما أظن يبدأون في الاسبوع القادم بنقلنا والعوائل الاخرى.

اجابتها اختها:

– لا ادري لماذا يزور الاولاد أيانا هكذا قليلا قليلاً؟

كان (حەپسەخان) ارادت ان تقول شيئا سرياً لاختها، خففت صوتها وقالت:

– يا اختي ان تنقل الجماعة أيضا بحساب وكتاب، فهي ليست كبلادنا بحيث يتنقلون كأحرار وحسب ارداتهم، يجب ان تكون كل تحركاتهم هنا بالموافقة.

هنا التفت توفه

الى كلتا الاختين وصرخ بهما قائلاً:

أو لماذا لاتحثا الخطى؟ لولاكما لكنا الآن منذ مدة في البيت، اسرعا فالوقت متأخر.

***

كان ليلا عليلا منعشا، وقد بزغ القمر من وراء قمة الجبل الكائن خلف سطح بيت فاطمة هانم، ناشراً القأ ذهبيا جذابا في هذه المنطقة والمحيط، فاضفى على ذلك التل والوادي والمخبأ وطنف السطح هدوءاً وسكينة وفرحاً.

لقد خيم الصمت والسكون والهدوء في أهل القرية، وكنهار وليلهم الدائبين. كانوا تعبانين ومنهوكي القوى، وكل واحد منهم كان راقدا على شبه السطح والخارج والايوان كشبه فاقد الوعي وقد فرشت عوائل (حەپسەخان) واختها، والاخريات على الارض الفراش بشكل متتابع في السطح الواسع العريض لبيت مضيفهم، فأتوا الى هناك منذ وقت مبكر، وكانوا بشكل جماعي يتباحثون فيما بينهم اثنان اثنان معاً، وقسم منهن استلمن للنوم مع اطفالهن ورونـاك حيث كانت تنظر عودة بيستون طوال الليل برغبة عارمة، وكان من المفترض ان يأتي ذلك اليوم ويزورهن، بينما لم يتمكن المجيء، فهي أيضا كانت نائمة أثر ذلك

الهم والحسرة. وكان توفه كشيء ما يشفق على آمه خان، فكان جالسا عندها وعند كاكه حاجي يتحدث اليهما، وكان يريد كثيرا ان يسلو قلب آمه خان ويفرج عن كربتها، لانه حدثت بينهما عند الظهر مشادة كلامية بسبب ان آمه خان حسب سذاجتها وبراءتها كانت قائلة له:

– عزيزي توفه لقد هدأت الدنيا الآن قليلا، أو لاتتمكن أن تذهب مع شخص ما لزيارة بيتنا وصبرية، وتأخذ معك حقيبة صايتي، حيث يداهمني البرد منذ ليلتين ثلاث واعرف ماذا حل بدجاجاتي الجيدة.

كان توفه هائجا كلعبة نارية، فثارت ثائرته قائلاً:

اجلب لك الصايات والاثواب الجيدة، تقولين كلاما حلوا، ابقي في ايدينا قدر قطعة عجين من الارض لكي اتمكن ان اذهب وآتي لك بالاشياء؟!

ان شاء الله لماذا لا تجعليننا شهيد الصاية والحرملة؟!

ولذلك جاء توفه الى عندها لكي يسلوها وكان يتحدث لها عن العوائل التي عبرت الحدود ومدى قلقهم وعدم ارتياحهم، كما يذكر من تمرض منهم واغمي عليه وطفل من وقع من على شجرة التوت وانجرح رأسه، واي كنة وحماة تشاجرتا، وقد زعلت الحماة فعبرت نحو جهة العراق.

حيث كان توفه يتحدث اليهما من تلك الاحاديث اثناء ما كان يمص مصات لسيجارته، وعلى قدر من طرفي كاكه حاجي وآمه خان كانت (حەپسەخان) متمددة الى جانب بنتها روناك، غارقة في خيالاتها وكان زوجها حاجي مجيد خائر القوى كئيباً واضعا كلتا يديه تحت رأسه متمددا بقلب متضايق معتصر محدقا نظره الى وميض مصابيح وأسرجة لوكس أرياف ذلك الطرف من الحدود التي كان جهة العراق.

لوكان قادرا لطار بجناحين للوصول الى هناك، وقد حدق فيها كانه طفل انتزع بقوة من بين الحضن الدافيء المفعم بالحب والحنان والعاطفة لامه، وقد

ابعد منذ سنوات من هذا الحضن فيرغب باسرع ما يمكن وبأقرب وقت أن يذهب اليها لكي يعانقها ويشبع من معانقتها.

وجهت زوجته فجأة الكلام اليه وغيرت مجرى خياله وسألته:

– الا أهو صحيح ما يقولون بأنه سيرسلوننا غدا الى طهران عاد حاجي الى هدوئه وقال:

– غدا سيأتي الاولاد الى عندنا ويقولون لنا كل شيء. يقولون وزعت العوائل على المدن وأكثرهم ذهبوا الى المدينة التي وضعوا فيها الپێشمەرگە.

نشطت (حەپسەخان) وجلست قائلة بهمة:

– ولماذا نحن نذهب الى مدينة اخرى؟

اجابتها حاجي قائلاً:

والله أنا لا اعرف ذلك، مهما يكن أذا ما جاء غدا علي والاخرون سيتوضح لنا كل شيء!!

قالت زوجته بملالة:

– يقولون يجب ان نسير على الاقدام وبالخيول، والله نفذت قوتنا، ولم نعد نتحمل، اوه يا ربي روحي فداء لقسمتك، اشفق عليها حاجي، واستعاد القوة قليلاً وقال..

– لا تكوني ناكرة للشكر، فعند الله أسوأ من ذلك، الم يكف والشكر لله خرج ابناؤك بسلامة، اعرفي ما أكثر الاشخاص، الذين قتلوا من الجانبين عبثا وضاعوا من آبائهم وامهاتهم واطفالهم وكيف ضاعوا عن هذا الكورد المنكوب الذي لانصير له ولا ظهير، اعرفي انت خلال كم سنة يترعرع ابناء من مثلهم ويكبرون ويخوضون معترك الكفاح ويصبحون مثل هؤلاء، والآن يصبحون في عداد المفقودين سدى بأيدي الاخوة بعضهم بعضاً ليته كان في القتال وبأيدي العدو والحكومة، حينئذ كنا نقول انها قتال وثورة،وهكذا يكون التوجه الى الجبهة والكفاح، يَقتلون ويُقتلون، وقد استشهدوا في طريق تحرر وحرية شعبهم

ووطنهم، ولكن اعرفي ان في الطين بلة حيث خراب البيت والفاجعة والمحنة حين يرشق الاخ اخاه بنيران سلاحه والعدو يتفرج عليهم ويفرح وتحقق امنيته.

نهض حاجي وقعد وطلب من (حەپسەخان) قليلا من الماء، وهي مدت يدها الى الكوز القريب منها وصبت شيئا من الماء ولم تنبس ببنت شفة، على الاكثر وذلك لانها تذكرت أن ان زوجها مريض ولا يجوز ان تلح وتلج عليه وتظهر على قدر من الانزعاج امام عينه.

شرب الماء واعاد لها الطاسة قائلا:

– وهذا أيضا ينقضي، ولن تبقى الدنيا هكذا، فيندم كلا الطرفين اذا ما توضح لهما وعرفا ما أشد عدم وجود المناصرين والمساندين لهما، والذين احيانا يمدون اليد الى احد الطرفين، يتبين لهم بشكل جيد ان ذلك ليس لأجل سواد عيونهم، انما لأجل مصلحتهم ومكاسبهم، لذلك يقولون لهم يا خالنا حتى تصطاد لهم العصافير، ويوم لم يبق من ذلك المكسب والربح، ترون كيف يتخلون منهم، ومن الله يريدون القضاء عليهم.

***

في اليوم التالي وعند الظهر اقحم علي وابناء حەپسەخان البيت، بعد السلام والسؤال عن الصحة والاحوال والاخبار، استوى ونضج الاكل وفرش خوان طويل، وصب تمن رز الصدري الطيب الرائحة ومرق التفاح.

لقد اشغل (سمه القط) نفسه من الطرف الآخر للايوان بين القدر والاواني والمواعين منصرفا الى حك الحكاكه، على ما يظن ان بعض الاولاد أيضا اشتهوها، وكانوا في انتظار (سمه) ان يأخذ لنفسه ولهم أيضا لكي يأكلوها معا.

أي كمية كان سمه يحككها يأكلها هو أولاً، حيث أنه كان ينهال عليها بنهم وشره، صرخ الابناء بوجهه تعال كل طعامك فأين الحكاكه؟

رد عليم سمة بصفحتي فمه المملوئتين:

– كلوا انتم اكلكم هنيئا مرئيا، فها أنا جئت، فالحكاكه قد تصلبت جدا بالقدر يصعب علي ان احككها.

كان النساء محاطات بخوانهم في غرفة اخرى، وصاحبات الاطفال كن منهمكات بأنفسهم واطفالهن.

ما كانت روناك تعرف ماذا تأكل من فرحة مجيء بيستون. قامت نەوبەهار مرة مرتين من على الخوان بذريعة ابنها كوردو الذي ما كان يريد أن يأكل وانتزع نفسه من بين احضانه راكضا نحو الايوان، وهي كانت تلاحقه وترفع صوتها.

لا تفعل ابني هكذا تعال أكل فمنذ الصباح لم تأكل شيئاً. كانت نەوبەهار تتكلم مثل هذا الكلام، وانصبت عيناها على الغرفة التي فيها زوجها علي حيث كان يأكل الطعام مع الرجال لعله يسمع صوتها واقوالها ويستجيب لهما.

وكانت صبرية اثناء الاكل تعدد في قلبها مجيء شيروان ورؤيته ومتى جلسا معا منذ ان عبر الى هنا، يصبح مع هذه المرة اربع مرات حيث زارهم مرتجلاً.

على الرغم من ان صبرية كانت قوية الارادة والعزم ورابطة الجأش، ولكن بدت تجاه حب شيروان وابتعاده عنها، بلا ارادة جدا، وعاجزة.

كانت نەسرين مشتتة الخيال اكثر من الجميع، وضاقت الدنيا في عينيها لئلا يرسل حسين الى مكان ما، وهي الى مدينة ومكان آخر. كانت تقول في نفسها.

– اذا كان هكذا فماذا افعل انا، فاخجل أمام والدي ان اقول اينما يكن هو فأذهب الى هناك. ان لهفة وهم ابتعادها عن حسين وزيارته ومجيئه بالاجازة اليها شوشت دماغها دون ان تعبر عنها أو تقول لأحد.

– كذلك (حەپسەخان) كانت جالسة تعبة منهوكة القوى على خوان الاكل الى جانب اختها.

التفتت اختها نحوها قائلة:

– يا ترى هل ارسلت حصة بيت فاطمة هانم؟

مدت (حەپسەخان) يدها الى الخبز الرقاق واقطعت عنها قطعة وبها دون استخدام الملعقة صبت بعض التمن في ماعونها ونظرت الى هذا الطرف وذلك والتفتت الى اختها قائلة:

– بعد الشر عنك بالله الى ان استوى الطبخ جاءني توفه اربع مرات قائلا...

– لقد فات الوقت صبي حصة بيت فاطمة هانم لأخذها لهم، مساكين قد اغمي عليهم الأن من شدة الجوع، اعوذ بالله كاد ان يشتت فكري. واخيرا اظن ان التمن لم يطبخ بعد حملني على صبه فأخذه لهم، هنيئا مريئا لهم يا ربي، فانا بنفسي راغبة في ذلك، وقد ارسلته لهم يوميا، ولكن توفه اسلمه لله يثير غضبي لكثرة ما يأتيني ويقول يا الله اسرعي صبي لهم، جاءني يوم امس وقال:

– جاء الى بيت فاطمة هانم ضيفان، صبي لهم قليلاً من الزيادة، افلا تنظرين كيف يقدمون لكم كل صباح لضيوفكم جميع لبنهم اضافة الى كل هذه البيضات والطماطة والقثاء يبدو انه كان في قلب آمه خان قهر هذا اللبن، لذلك علقت فوراً قائلة:

– اوه من هذا اللبن الطيب، لكأنه ماء آسن، حامض حامض مثل أسيد الحامض المخمر.

التفتت صبرية الى امها وخالتها اثناء ما كانت تأكل قائلة..

– ماذا يقولون لا يمتلكون غير ذلك، ايقابل بالجميل هكذا، انهم يقطعونه يوميا من افواهم ويرسلونه لكم، بينما اسمع كلامكم عنهم، فبدلا من تقديم الشكر لهم، فأين لهم اللبن الحلو والقشطة على شكل قالب ليأتوها لكم، انهم مساكين يمتلكون ذلك فقط.

قالت (حەپسەخان):

– اواه لا نقول ذلك لاي سبب، فليعمر الله بيتهم والله لن ننسى أبداً جميلهم ونحن ممتنون لهم كثيراً لكن تصدق اختي آمه خان لبنهم حامض وغير مستساغ.

آنئذ وصل اليهم توفه وقال:

– أي لبن أو تتحدثون عن أي شيء؟

ردت عليه صبرية فورا وقالت:

– لاشيء، يقولون ان اللبن والمخيض مز وطيب جداً. فهمت الجماعة ان صبرية قالت هكذا خوفا من لسان توفه وكان الجميع يتناظرون مبتسمين في خفاء.

بعد رفع الخوان ذهب الابناء الى عند (حەپسەخان) والاخريات.

احتضن علي ابنه كوردو وذهب فقعد بين امه ونةوبةهار، ذهبت روناك وبيستون بذريعة شغل الى غرفة ذلك الطرف، ولم يطل كثيرا عادا الى الجماعة ثانية وذهبا الى الايوان، يبدو انهما يبحثان عن مخبأ خال ليتحدثا بحرية قليلا وبتبادلا قبلة او قبلتين خلسة من هؤلاء الناس.

كان نةسرين قاعدة بملالة مسترقة السمع!

تبدو صبرية امام النظر غاضبة قلقة!!

كان آمه خان على مقربة من ابنها نەورۆز مسدت مرارا على التوالي كتف وظهر ابنها وقالت:

– ماتت امك لماذا تبدو شاحب الوجه الى هذا الحد، أو لست مريضاً؟

نظر نةورؤز الى امه بحب ورغبه وقال:

– لا والله لست مريضا، ولكن يبدو اني منهمك، لذلك أبدو هكذا في نظرك، ان موقعنا بعيد عنكن قليلاً.

وضع يده على كتف امه والصق رأسه بصدرها وقال...

– فكيف أو لست متضايقة، لا ضير سيذهبون بكم الآن الى مكان مريح.

لم تجبه آمه خان، لأن حنجرته امتلات بالنفور والبكاء: التفتت (حەپسەخان) الى ابنها علي وابنائها الآخرين وقالت:

– ماذا يفعلون بنا الآن؟ أصحيح لابد ان نذهب بعد غد؟

قال علي:

عليه، جئنا لكي نفهمكن... بعد غد تتوجهون الى (بانه) ومنها يذهبون بكم الى طهران قالت (حەپسەخان) بملالة....

– او تأتون انتم ايضا معنا أو ماذا تفعلون؟

قال علي:

– نحن نأتي اليكن بالتناوب.

لانه يجب أن نكون نحن مع الپێشمەرگه، ويذهب كل واحد من فصيله ورفاقه الى ان نستقر ونعرف كيف يكون؟

قالت نةسرين باكتئاب:

– ثم، خيراً، الى متى نكون هكذا؟

وضع حسين يده على كتفها بابتسامة حادة وقال:

– اولا لا تحزني انت فأنا آتي اليكن قبل جميعهم، قرب رِاسه منها وهمس في اذنها، شرع الاثنان بالضحك معاً.

قالت (حةثسةخان):

– الطريق بعيد جدا، الى (بانه)؟

– عجبا ماذا يحدث لنا ثانية في هذا الطريق الصعب القاسي والجبال، صحيح انهم يرسلون معنا مرة اخرى توفه و بەختيار والمسكين؟

اغرورقت عينا (حەپسەخان) بالدموع وقالت بحلق محبوس...

– والله آنا في هم هذا العجوز الفقير والآ فنحن بالجهنم. علق شيروان بلهفة قائلاً..

– حماتي العزيزة، لا تقلقي نفسك، فلاتذهبن بشكل اعتباطي انما يأتي معكن اناس من الدولة، اذ اننا ضيوف عليهم، ولا يحدث ان شاء الله لعمي أي شيء، فالطريق كله حاميات عسكرية، لها اطباء ومستلزمات طبية، فلا

يحتاجكم الله بهم ومجرد ان تصلوا الى (بانه) فمن هناك سيذهبون بكم الى (طهران) بالسيارات.

قالت صبرية بعصبية:

– ماذا كان هذا الحادث في الذهاب الى طهران، او يأخذوننا معكم الى المكان الذي ستذهبون اليه؟

– تعال افعل خيراً؟ منذ ايام بذلنا المستحيل معهم حتى وافقوا عليه، بينما هن غير راضيات.

بالله عليكن، أهناك احد يقول ذلك؟ من يحصل على السكن في طهران؟ فالناس يمنون ان يذهبوا اليها ويرونها لأيام، كأنها اوربا قدر بهائها وجوها الطيب.

قالت صبرية بعصبية ثانية:

لا نريد تلك الاوربا والجنة، نريد ان نكون معكم، الى أين تسيبوننا غريبات بين اعجميات.

القى علي نظرة على الجماعة وقال:

– أشهد بالله ان هذا كله كان من ذنب حسين، حيث انه كان مصراً على هذا الذهاب الى طهران وسعى له.

التفتت الجميع الى حسين لماذا فعل ذلك.

همهم حسين همهمة وقال :

– والله لاجل والدي حاولت، رغبت ان يذهبوا الى هناك، فيها مستشفيات جيدة، يقولون ان اطباءهم ماهرون جداً.

رد اخوه علي قائلاً:

– يبدو ان فيها مستشفيات جيدة، ولكن المدن الاخرى فيها أيضا، مسحت آمه خان عينيها بظاهر يدها وقالت:

– والله يصدق حسين، انها هي الافضل مرضاة لكاكه حاجي، والابناء يأتون ويذهبون ويزورونا.

يبدو ان آمه خان كانت تقول ذلك من قلبها، فمن آين لها أن تكون مطلعة على قلبي صيرية ونةسرين وما أشد مضايقتهما وكم نبضة يخفق بها قلباهما من هم وقهر ما قالته هي، وهي في واد ورواناك في واد آخر حيث انها تريد أن تكون فقط قريبة من بيستون فيتحول الحجر الصلد عندها الى اطيب مكان في الدنيا.

وكذلك متى كانت مطلعة على دموع نةوبةهار، حيث كانت قبل هنيهة مع علي متعانقين في غرفة ذلك الطرف، وكيف همست متلهثة في أذنه قائلة:

– أو متى تنتهي هذه الحالة؟ وكيف أن علي عصرها وضمها الى صدره واضعاً فمه على خدها وجيدها وقال لها اثناء تقبيلها:

– لا تعرفين مدى تفكيري فيك، ولمجرد أن تتم اقامتنا آتي اليكن مباشرة، وسابقى عندكن اسبوعاً اسبوعين.

***

كانت فصيلة (حەپسەخان) وحاجي مجيد وأخيه منذ ثلاثة أيام في طريقهم نحو (بانه)، حيث كانوا منهوكي القوى يقتفي احدهم أثر الآخر، كان قسم منهم تخلف بعض المرات، فلم يكن بمقدورهم عبور تلك الجبال والمرتفعات الصعبة القاسية، والقسم الآخر الذين كانوا متقدمين، حين كانوا يرون ان الآخرين قد تخلفوا كانوا يجلسون في انتظارهم، وإذا لم يبدوا من بعيد تقلق قلوبهم عليهم، وكل واحد كان يقول شيئا مدمدماً.

كان الاطفال الصغار يبكون وقد احمرت وجوههم من شدة وأثر تلك الشمس الحارة الساطعة، على الرغم من أن الامهات قد غطين اطفالهن، وكن يحاولن كثيراً حمايتهن من ضربة الشمس بحيث كن غافلات عن خدر الكتف والذراع وتعبهن من أجلهم. وكانت كل واحدة غطت رأسها بشرشف مندر واضعة طفلها من تحته كنصب خيمة، ومع ذلك لا جدوى منه.

كانت آمه خان واختها جالستين تحت شجرة بلوط، تركنان للاستراحة وفي يديهما طاسة من الماء، كانت تلك ترد عليها وتقول:

– اشربي منه جرعة اخرى، وصبي قليلا منه على وجهك، فبقيت في الترمس كمية اخرى.

ان كلتاهما كانت غاضبة قلقة، أكثرها بسبب الاطفال الصغار وحاجي مجيد المريض، وصبرية ونةسرين كانتا هناك منهمكتين بالطعن والتشهير في الرجل الدليل لهم على ما يظن ان الدولة ارسلته ليدليهم الطرقات ويحرص عليهم.

كانت صبرية تقول له:

– الا يا أخي فأنت منذ مساء امس تقول ها هي هي تلك لقد وصلنا، لم تبق امامنا مسافة طويلة، مجرد ان نقطع هذين التلين ونتحول الى الجهة الآخرى نصل تماماً، فمنذ أمس قطعنا سبعة تلال وثلاثة جبال ولم نصل بعد.

كان بةختيار وتوفه يتهامسان، أو ترى كيف تتحدى صبرية هذا الرجل، عيب وحياء نتصور انه مثلنا، كان بةختيار يقول:

– الآن اذهب اليها واسكتها.

وصل كلا الحاجيين مع حفيدهما سمه وصاحب الدواب الى أرض منبسطة مريحة مملوءة بالاشجار الضخمة الكثيفة التي تشابكت وتداخلت اغصانها، فتكون منها ظل في غاية البهجة والفرح، سيما كان ماء ضحل رقرقراق صاف يمر من تحتها، والتي أضفت عليها بهجة أكثر كانت الرائحة العطرة الندية الفواحة والمنتشرة في تلك المنطقة والتي اختلطت مع رائحة اوارق اشجار الجوز وأزهار الدفلى وأوراق الكروم والنعناع والاعشاب الكائنة في حافة الماء.

ان كلا الحاجيين ينتظر بلهفة متى يصل الاطفال والنساء الى هذا المكان الطيب المنعش عسى أن يتمتعوا بقسط من الراحة والاستراحة، تقدم سمه من خاليه مرارا وقال:

– الا يا خالينا العزيزين، ربما تشعران الآن بجوع شديد، ما رأيكما فيما لو أبدأ بفرش الخوان.

قال كاكه حاجي:

لفرط همي من أجل الاطفال، لا اتذكر أبداً أي شيء آخر.

قال حاجي مجيد أيضاً:

– أولاً لا تشغل بالك بالاكل، ليصل هم أيضاً، ثم بعد ذلك، أخفى حاجي ابتسامته لانه عرف ان سمه يقصد نفسه، يجعلها ذريعة لذلك، وكان سمه يقول في نفسه مرة:

– ماذا تقول أن اذهب لأعرف ماذا حل بهم، ومرة اخرى كان يقول:

بالف مشقة وصلت الى هنا، من أين لي القدرة ان اعود وأعرف لماذا لم يصلوا، طبعا انهم يظهرون الآن.

وصلت صبرية و نةوبةهار وطفلاهما، ونزلتا من على ظهر الحصانين واسرعتا نحو الماء وبدأتا بغسل الوجهين والايدي وغسل وجهي طفليهما، والاخرون وصلوا أيضا حيث كانوا يتوجهون نحوهم.

لم يمض وقت طويل وتوفه أيضا وصل فنزع جامانته وطاقيته وشمرعن ساقيه ودخل الماء واخذ بكلتا قبضتي يديه بغسل رأسه ووجهه، والتفت الى سمه وأصحاب الخيول واشار الى الذين في طريقهم اليهم وقال:

– هيا يا اخوان الحقوا هؤلاء وساعدوهم.

بعد أن ذهب سمه والرجال الى حيث (حەپسەخان) والاخرين، قال حاجي مجيد لتفوفه مستغربا:

تلك هن فها قد جئن، كان هؤلاء المنكوبون منهوكي القوى تعبانين الى أين أرسلتهم؟

تقدم منهم سمه نظر الى طرفي جانبيه وخفض صوته قائلاً:

– قلت ذلك تقصدا، لي قول أريد ان أقول لكم ولا يسمعه أحد للاشجار والحيطان آذان، ثم خرج من الماء التفت الى صبرية قائلاً:

لم أحب ان تحديت حسن آغا، ماذا يفعل ذلك الفقير، أنه يقول ذلك لتفريح قلوبكم.

رفع توفه أصبعه وقال..

– انه كوردي يحب الكورد كثيراً وهو قومي جداً.

فكانت صبرية متمتعة بقسط من الاستراحة والابتراد، ولكن مازالت بقايا الماء عالقة على وجهها وجدائلها حين ردت على توفه قائلة:

– انه كوردي، يحب الكورد كثيراً؟ والله انه رجل نصاب وحيال لا نظير له، يبيع الكورد كلهم لمكاسبه الشخصية وقد جاء معنا للتجسس علينا، وهو غشاش بلا منافس، فمنذ الامس اراه وألحظ انه يحدق في ذلك الصندوق من الشاي، يذهب كل مرة اليه ويتحسسه، ويقول لأعرف اهو مشدود بشكل محكم، ان الشاي العراقي طيب جداً.

أثاري انه طامع فيه، وأخيراً لم يتركنا وشأننا، وحملنا على انزال الصندوق، وبدأ بهذا المساء بالفعقعة وقلع المسامير، وبلسانه المعسول ألان قلب والدتي ولولاي لكانت تعطيه كله له، فأنا لم أدعها وقلت فنحن جميعا تعودنا على ذلك الشاي، ثم ماذا نفعل هناك؟!

رفعت صبرية يدها وقالت:

– لماذا، أذلك فقط؟ انتزع من والدتي كل تلك المواعين والاواني المعدنية المطلية بصبغ كذلك الصواني، اضافة الى تلك المخدة واللحافين الجيدين الجميلين.

قال توفه مستغرباً:

– المواعين التي اشتريناها من قرية فاطمة هانم؟

قالت نةوبةهار:

– لا يصيب المكروه زوجة عمي ما اشد براءة وسذاجة واسرافا، قولي بالله عليك كيف يهدي الناس الغطاء، في الحالة التي نحن فيها!؟

قالت صبرية بعصبية:

ولو انني تشاجرت مع والدتي مشاجرة جدية، ولكن دون جدوى بعد فوات الاوان حيث وعدته بذلك، وليس من المعقول ان نذهب للاسترداد منه، وقد انتزعها منها بذريعة على ما أظن تذهبون الى طهران ويعطونكم دورا مريحة رحبة مؤثثة تأثيثا كاملاً من قبل الدولة، عندئذ ماذا تفيدكم هذه الاشياء الزائدة؟

التفتت صبرية الى توفه كفاهمة وعارفة قائلة:

– احذروا السنتكم لئلا يستدرجكم ويسترق منكم الكلام انه عميل (ساواك).

استغرب توفه وقال:

– ما الساواك؟

قالت صبرية بهمسة:

– أي عميل (الأمن) مثل ولد الحرام من رجال الأمن عندنا. خفض توفه راسه ولم يتكلم وسكت، لأنه فرغ في الطريق وأثناء السير كل ما في هميانه للرجل، وكلما سأله الأغا الحسني، وهو بدوره اجابه بشكل مستخلص مرتب ومتحدث عنه له.

القت نەوبەهار بلهفة وخوف نظرة على توفه وقالت:

فداكم، كونوا على حذر جداً، في سبيل الله لاتذكروا له موضوع أي شيء.

رفع توفه بايمان مصطنع يده وقال:

– أنا؟ لماذا انا لا اعرف مثل هذه النماذج، تباً لهم، فالتمر الذي يأكلونه ها هي نواته في عبي.

قالت صبرية في نفسها:

– بدأ ثانية واخذ يتبجح ويطرح نفسه أكثر من حجمه الحقيقي. ثم التفتت الى توفه وقالت:

– طيب طيب، الله يسلمك، من يتجاسر أن يخدعك؟!

قال توفه في سره:

– ويلاه، فأنا رويت لهذا الرجل ابن الحرام كل شيء، كله بالتباهي والتفاخر، لدرجة ذكرت له موضوع الاذاعة، ولكن من حسن حظي وفرحتي شكرا لله لم الحق ان اقول له من أين احتفظ بها وكيف اخفيت!!

كان لاول مرة يفرح توفه بصراخ وصياح صبرية، لانه حين كان هو يتحدث للرجل كانت صبرية منهوكة القوى غاضبة، نادت توفه أن يذهب الى عندها لأن ابنها كان متعندا، طلبت من توفه ان يجلب لها قليلا من الماء. وقع توفه في الدوآمه والخوف، كان يفكر في أقواله، ماذا قالها وماذا لم يقل، لماذا كان على هذا القدر من الغباء والسذاجة، وكيف ان هذا الرجل الجاسوس جعل نفسه اخا لوالده وصديقا للكورد وكوردستان، وهو فتح له صدره وقلبه دون ترو وتعقل. ارتبك توفه حين تذكر انه كان يرى هذا الرجل اثناء الاستراحة والاكل يذهب الى ما وارء الصخور والاماكن المنفردة يكتب الأشياء، الى ان سأله ذات مرة:

– ماذا تكتب يا آغا الحسني؟

وهو ضحك وقال:

– والله عندي بعض الحسابات لئلا انساها.

أثير دماغ توفه فاننتابه القلق والهم، وتذكر جميع اعمال وممارسات الآغا الحسني، كيف انهم وصلوا مساء امس الى مقربة تلك القرية، اردا هو وبةختيار ان يدخلا القرية عسى ان يشتريا قليلاً من اللبن وبعض الأشياء للأطفال الا انه لم يدعمها وقال:

– لا، لا يجوز ان تذهبا، ماذا تريدان فأنا اذهب اشترى لكما!

من الواضح انه لم يرد ان نذهب ونتكلم مع أهل القرية.

وقد تذكر ايضا ذلك حين مروا عبر القرية رآهم أهل القرية واحداً فواحداً، كانوا متألمين لحالهم، اسرع أثنان وثلاث في الذهاب فجلبوا لهم الماء والمخيض، وقد بكت لهم عدة نساء، انزعج هذا الرجل الى حد كبير وغضب من واحدة اثنتين منهن، و قالت:

اخلوا لنا الطريق فاعرضوا وابتعدوا عنا.

وكذلك تذكر اثناء السير وتوديع بيت فاطمة هانم وجيرانهم، كان الناس ينظرون الى هذا الرجل بجفول ونفور وقد سمع من واحد اثنين منهم يقول احدهما للآخر هامسين:

– ان هذا ابن كلب متى كان رجلاً؟

عليه، ان توفه خامره الشك تماماً من الرجل، وكان يدور في خاطره أي كلام قيل وما قيل يجمعه حول الآغا الحسني. أوصل توفه نفسه بسرعة الى بةختيار وسمه والولدين من اقاربهم وتحدث اليهم عن الأغا الحسني بشكل مفصل.

وصلت الجماعة كلهم الى تحت الاشجار والظلال البهية عند حاجي والآخرين فحطوا الرحال، وانصرفوا الى غسل الوجوه والرؤوس.

لقد راق لهم المكان كثيراً، فبدأ الكثير منهم بالتعبير عن الفرح وحياتي حياتي، وقال البعض الآخر لننام الليلة هنا ونتمتع بالاستراحة.

علق من هناك الآغا الحسني قائلاً:

لا، هنا ليس صالحاً، ان تحت هذه الاشجار مملوءة بالافاعي والوحوش، وليس جيدا بسبب الماء، فهنا دائما يوجد قطاع الطرق يسلبون الناس.

لم يتمالك توفه نفسه، لان قلبه كان يغلي غيظا وحقدا، اخذ يتكلم ويرفع صوته قليلا والتفتت الى الرجل قائلاً:

– ماذا دهاك يا آغا الحسني كلما مررنا بمكان قلت اسرعوا ليست هذه المنطقة صالحة فيها قطاع الطرق، يسلبون الناس، ومنذ ان كنا في الطريق صادفنا مراكز عسكرية كانوا منهمكين بالركض والتدريب والتجربة يرددون

دائما: البقاء والدوام للشاه، البقاء والدوام للشاه، اذن أي سلاّب وقاطع طريق يا ترى؟ فمتى هذا الزمان زمن سلب الناس ونهبهم؟

ضحك آغا الحسني بشيطنة وقال:

– الاشرار يتواجدون في كل زمان ومكان:

أنا اقول ذلك لاجلكم فاذا اصبتم بشيء سوف تحملني الدولة بعد ذلك المسؤولية وتقول:

لماذ لم تأت بهم في الطريق السالك الصالح والآمن. استطرد قائلاً:

ان تسرعوا قليلاً وتحثوا الخطى تناموا هذه الليلة ان شاء الله في بانه، وهناك ستركنون للراحة تماماً.

خفض توفه راسه وذهب الى هناك، وقال في خفاء بعض الاقوال غاضبا وقال في نفسه:

– والله يا ابن الكلب ليس هنا سلاب وقاطع طريق سواك.

بعد الاكل والاستراحة قامت (حەپسەخان) والاخريات فتقدمن الجميع، للذهاب الى مخبأ لقضاء الحاجة، شمرت روناك ردنها لامها وقالت:

– انظري يا امي يمكن ان شيئا لدغني الليلة، اها ما حدث لذراعي؟

ضربت امها وخالتها انفسهما وانتابهما القلق، لآن الذراع الناعمة المكتنزة لحما لروناك قد احمرت كليا وكادت أن تتورم، يبدو ان شيئا قد عضها.

قالت امها بارتباك:

– اوه ماتت امك؟ لماذا او تعلمين اين كنا نائمين هذه الليلة؟

والله حين استقيظت صباحاً وانتفضت رأيت شاهدة قبري فوق رأسي، تجمدت مباشرة، كنا هذه الليلة نائمات في المقبرة.

ضربت (حەپسەخان) صدرها وقالت:

– معاذ الله كانت في القبر كوة كبيرة، وكان طرف منه منهارا، تخرج منه نملات سوداء ضخمة، وتدخله ثانية وكانت كل واحدة منها بحجم خنفساء، لا

ادري كيف كانت تنهال علينا ليلاً. اوه فلتخلع روحي لهؤلاء الاطفال الصغار النواعم الرقيقين.

انتفضت آمه خان خائفة وقالت:

– اه الله لا يصبني مكروه، بالله اذن كانت تلك النملات التي عضتني، لانني افقت من النوم في منتصف الليل بالوضعية التي كنت فيها من الركود والهلاك على قضيب النار الذي اكتوت به قصبة ساقي وكنت ناعسة وتعبة الى درجة مددت لها احدى يدي فنمت مجدداً فوراً.

قالت آمه خان:

– أوه لأنظر اليها.

رفعت ساق سروال لباسها التحتاني، وحين نظرت الهيا كان أثر العض باديا عليها، لكنها لم تكن متورمة مثل ذراع روناك، ولم تحمر كثيراً.

كانت ليلة ظلماء والساعة تقارب العاشرة وقد جلست المجموعة على رابية من حافة شارع ترابي، حيث كانوا متمتعين بشيء من الاستراحة خاصة حين كان الليل عليلا بهيجاً، وحطوا رحالهم عند طرفهم بشكل متجمع. كان آغا الحسني مكوما حصة اشيائه ومواده، في مكان منزو، كان يذهب اليها سريعا ويراكمها، وكان اصحاب الدواب آخذين نقودهم.

كان آغا الحسني كآمر وصاحب سلطة يتفقد شؤونهم ويتنقل بينهم.

كان الجميع جالسين محزوني الفؤاد ملولين، ينتظرون الأمر والكلام وبعد ان اصبحت الساعة ما يقارب الحادية عشرة لاح من بعيد ضوء سيارتين.

قال آغا الحسني بشوق:

– فها ان السيارتين قد جاءتا لاخذكم عليه تهيأوا.

التفت الى الجماعة حيث كانوا جالسين كالجيش المهزوم بسيماء مشوشة وبسيقان وظهور محدودبة متخدرة، وبملابس متربة، وبوجوه تغيرت الوانها الى السواد والجلود المحروقة من ضربة الشمس، والتفت اليهم قائلاً:

– اذا ما ركبتم السيارتين يجب ان تحسروا رؤسكم لكي لا يراكم احد داخل المدينة هكذا، مد توفه يده مرتبكا الى طاقيته وجامانته مسدهما وشدهما اقوى ووقف على قدميه وقال:

– لماذا؟؟ فهل ان الطاقية والجامانة والرأس المشدود والمعصب من العجائب والغرائب في هذه المدينة، فيما اذا هم ليسوا أيضا كوردا؟! قال الآغا الحسني:

– أخي ذلك مهمتنا، نحن نستحسنها هكذا، كاد آن ينفعل توفه ويواجهه ويعاكسه، حين تدخل حاجي مجيد ومسك طاقيته وجامانته وانزلهما كأن يهدىء توفه وقال:

– لا ضير في ذلك، لا يحتاج ذلك الى كلام، فنحن ضيوف، ما شاءه رب البيت على الضيف ان يلبي طلبه، وضع توفه يده على رأسه وجامانته، وابتعد قليلاً منهم، فأطلق في الخفاء شتائم على ألآغا الحسني وسيده، وقرا ادعية ضد الذين سببوا ان يترك هؤلاء الناس بيوتهم واحوالهم وبلادهم ويصبحوا تحت طائلة رحمة شخص مثل هذا الغشاش والسارق والسافل.

دمدمت آمه خان دمدمة في الخفاء وقالت:

– رضاؤنا برضاء الله، لنصبح في آخر عمرنا (الموضة) كانت البنات تضحك عليها، وكانت (حەپسەخان) تفور ضحكا بصمت من أقوال الرجل وجواب توفه ورأس زوجها الحاسر وكلام اختها.

***

وصلت السيارتان فكانتا لاندوفرين اثنتين طويلتين، نزل السائقان منهما، اخذ الآغا الحسني يتكلم معهما بكلام غير مسموع باللغة الفارسية، حملوا الاشياء والامتعة في السيارتين، ونهضت الجماعة فركبوهما برؤوس حاسرة، ان البعض شعروا بالمتعة بأن التي يركبونها هي سيارة، وانهم ذاهبون الى المدينة، وأخيراً تخلصوا من الدواب والطرق الوعرة والحشرات والافاعي والعقارب

والسماء وغبار الريف، وان البعض الآخرين كانوا ينظرون الى السيارتين والرجلين السائقين المرتدين ملابس الافندية بشكل كأنهم لم يروا قط لا المدينة ولا ركبوا السيارة ولا سيارات التورن الفارهة الجميلة ولا شاهدوا المصابيح الكهربائية.

***

اقتفت السيارة الثانية اثر السيارة الاولى، وقطعتا الشارع الترابي نحو الشارع المبلط، كان الليل متأخراً فلم يبق أحد في الشوارع، انتعشت الجماعة حين شاهدوا المدينة والفلكة والمصابيع الكهربائية ودور السكن.

لم يدم طويلاً خففت السيارتان السرعة، ووقفتا أمام بيت، نزلت النساء والرجال منهما، وادخلوهم البيت مع حمولاتهم، فدلوهم على غرفتين واسعتين مفرحتين وهناك وزعوا فالنساء في غرفة والرجال في غرفة.

لقد اختفى الآغا الحسني وذهب مع السيارتين، وهم ادركوا بأن مهمته قد انتهت فسلمهم الى الرجلين الآخرين.

كذلك لحظوا بان هذه الدار ولوا انها تشبه بيت عائلة والنساء وصاحب اطفال ولكن لم تظهر أي امراة، قال البعض في قلوبهم ان الليل متأخر يحتمل انهم نائمون، وان هذين الرجلين الذين جاءا لاستقبالنا وارشدانا الغرفتين كانا يشبهان الاب والابن، كان احدهما في العشرين من عمره والآخر كان بالغاً الستين.

بعد توجه افراد العائلة الى المرافق الصحية والحمام وغسل الايدي والوجوه والسواعد والارجل، ان كلهم من فرحة المرافق الصحية النظيفة والمفرحة والمسدودة بالباب ومن فرحة الحمام والحمام الصيفي، كان بينهم من يذهب في تلك الليلة المتأخرة مرتين ثلاث كأنه عثر على العسل في الشجرة، لم يدم طويلاً فاذا بابن صاحب البيت جاء بصينية من اقداح الشاي فدخل الغرفة مع بةختيار الى عند النساء فوضعها بين ايديهن، سرعان ما نخست آمه خان اختها وقالت هامسة:

اوه ما اشد صفرة الشايات كأنها ماء الوكف.

خرج بەختيار والولد من الغرفة، التفت الولد في الايوان الى بةختيار، وتكلم معه بالفارسية بعض الكلام، ولو ان بةختيار شكره مبتسما، لكنه لم يفهم منه شيئا، سوى اسم (الشام) عاد به بەختيار الى عند والده وعمه والآخرين وجلس، لكنه كان يفكر في قلبه في كلام الولد، وكان يقول في سره:

– يا الهي ماذا قال لي هذا الفتى وكان يتكلم بتلك السرعة والعجلة، ربما صورني بأنني بلبل في الفارسية، ربي الكريم أي شام، من ذكر اسم الشام، يا ترى هل يتصور بأننا من اهل الشام أو جئنا من هناك؟

مهما يكن غدا اسم الشام هماً عند بەختيار دون ان يتكلم، لم يدم طويلاً عاد الفتى ونادى بەختيار حاملاً المواعين والخوان وقال:

– قل للسيدات لاضع لهن الشام.

كاد بەختيار ان ينفجر ضحكا، وقد فهم ان الفتى ذكر العشاء الذي يأتي به لهم الآن.

ضحك بەختيار من نفسه وقال في قلبه:

– هو ذلك حيث ان والدتي وخالتي تقرآن في كثير من المرات الدعاء وتقولان (يا شام الغرباء)، كان من المفروض ان اعرف، وأنا منذ لك الوقت جالس افكر في (الشام) وكنت اتصور الفتى يقول:

– انتم من اهل الشام، او يرسلونكم الى هناك، وكيف اضحى عندي هماً على قلبي.

هز بەختيار رأسه قائلاً:

عليه، جاء بوجه منفتح وثغر باسم الى عند امه والآخرين مع الفتى وقال:

– افسحوا المجال قليلا، ان الاغا المعيني يضع لكم الأكل، وهم تهيأوا وزحفوا نحو الجهة العليا. كان البعض منهم ناعسين مشغولين بالنوم، نادتهم (حەپسەخان)، وهم ايضا قاموا:

قالت نەوبەهار بهمسة:

والله كنت جائعة جداً، أوشك ان اقول الم يبق لنا شي نأكله.

كمت روناك فمها وضحكت وقالت:

– الله ينعم عليهم يقدمون لنا السحور!!

قالت صبرية:

– لاتكثروا من الكلام ثانية، كلوا بصمت طعامكم، لا تستمروا عليه الى هذا القدر.

كان توفه جالساً في جهة الرجال حزيناً مهموماً، لانه ما كان راغباً في الوضعية والحالة، لذلك لم يكن متشوقا.

نهض سمه مرتين ثلاث وقال..

يا ترى الا يحتاج ذلك الفتى المساعدة؟ الم اذهب لمساعدته؟ قال بةختيار بسرعة:

– لا يحتاجون الى مساعدة احد، انهم يتكلمون بالفارسية من اين لك ان تعرف ماذا يقولون.

نظر سمه الى بەختيار مبتسما وقال:

– انه سهل لو يركز عليها المرء يفهم، تشبه بعض اقوالهم اللغة الكوردية.

كان توفه غاضبا، متألماً من شيء، علق بحرارة أثناء مصه السيجارة في فمه المغلق قائلاً:

– خل يول أي لغة واي كلام، فالكردية والعربية المختلفة تصبحان لغتهم.

قهقه بەختيار ضاحكا وقال:

– طيب حين جاء الفتى وقال لي، قل للنساء ان يفتحن الطريق سنضع الخوان، هل فهمت ماذا قال؟

هز توفه رأسه وقال:

– كيف لم أفهم؟

قال بهختيار في قلبه:

حرام ان كنت عارفا ماذا يقول، فحين تكلم تحيرت، كأن الفتى يتكلم الفرنسية.

***

مضى يومان على وجود (حهپسهخان) واختها وعائلتهما في هذا البيت في بلدة (بانه) وبدوا نظيفين مرتبين، فكانوا مبدلين الملابس غاسلين الايدي والسيقان والاذرعة والرؤوس عدة مرات، وقد أبيض الوشاح وعصابة الرأس. ارتاح الاطفال الصغار، وكانوا يحبون على الفرش الكرماني، وكان كوردو ابن نةوبةهار الذي كان اكبر منهم يركض نحو هذه الجهة وتلك الجهة ويعود الى عند جده والآخرين ثم كان يعود الى عند النساء.

ما كان الآغا المعيني والرجل الآخر يشاهدان أبداً الا وقت الاكل، وكان للمطبخ باب صغير ومنه كانوا يذهبون الى السوق ويدخلون، وقد اغلق باب الباحة بالمفتاح، وكان المفتاح في جيبهم.

كان توفه في ذلك اليوم نافد الصبر قلقا مهموماًن ذهب الى الباحة اثنتين ثلاث مرات وعاد الى الغرفة، التفت الى بهختيار قائلاً:

– او لماذا لاتسأل هذا الفتى، اريد ان اذهب الى السوق لشراء السجائر.

اجابه بهختيار مبتسما وقال:

– حبيبي كاكه توفه انا أيضاً اعرف الفارسية على قدرك، لماذا لا تقول له أنت؟

هز توفه رأسه وقال:

– ماذا اقول منذ ان اتينا يناديك ويتكلم معك.

ضحك بةختيار قائلاً:

– انه يحب اسمي، ان اسمي سهل، لذلك دائما يناديني.

قال كاكه حاجي: والله لو تسمعون كلامي لا تقولوا لهم، قد لا يوافقون ان تذهبوا الى السوق.

قال توفه بشي من الملالة والسآمة:

– اذن قولوا نحن هنا محبوسين.

خفض كاكه حاجي رأسه بأسى وقال:

– أي والله اننا محبوسون وماذا نحن اذن؟ نحن هنا لا نستطيع الا نطيعهم.

قال توفه بعصبية وبقوة:

– ياربي ليقضي الله على هذه الحالة، ليتنا وعسانا بما كنا تحت احراش واشواك وادغال عند طرفنا.

اخذ بةختيار يتكلم وقال:

– ثم حبيبي كاكه توفه أي ابن كلب حاشا ابي وعمي لايقول ذلك، أي والله ليست الا شواك والادغال فانا اقول ليتني كنت مقتولا في ماوه ت فقط دون الوصول الى هذه الحالة، ولكن ماذا تقول، هجم علينا اخواننا باللوريات الحكومية، فلم يبق لنا حول ولا قوة.

تنشط توفه وقال في سره:

– اذهب الآن واقول لهم أريد الذهاب الى الخارج لأشتري السجائر، ساتحداهم ان حسبوا لي الايراد والمصرف.

بعد هنهية قام بتلصص وتوجه نحو باب غرفة الرجلين ودق الباب بخفة فتح له احدهما، سلم عليهما توفه وأراهما علبة السجاير الفارغة وقال:

(آغا ماكو سيجارة، واكمل كلامه بالكوردية وقال:

– (ئەمەوێت بچم بۆ بازاڕ بیکرم) اريد ان اذهب الى السوق لشرائها).

اشار اليه احدهما وقال بالفارسية:

– طيب تعال معي سأذهب بك الى هذا الدكان.

القى عليه توفه تحية اخرى بشوق وفرح وقال:

– طيب آغا انتظر لاذهب وآتي بالنقود، ركض نحو حاجي والآخرين، وكان كل جسمه يضحك وقال بحرارة.

– ذهبت وقلت لهم، فقالوا على العين لماذا لم تتكلم منذ وقت مبكر، تعال لنذهب (قەيدى نيس.....قەيدى نيس)

أي– لا مانع.... لا مانع.

قال بەختيار ضاحكاً

– حسنا كيف قلت له؟ وكيف فهمت منه؟

قال توفه منتصراً:

أريته العلبة وقلت ماكو جگەره أي ليست عندي سيجارة، استلقى الجميع على الظهر من شدة الضحك، قال حاجي مجيد:

– ابني ان (ماكو) كلمة عربية، وقال اخوه حاجي ضاحكا:

– الا يقول هو ان لغتهم خليطة من الكوردية والعربية، ماذ تريدون بعد، فانه تمكن ان يفهمهم، ان تشاؤوا فليكن قائلا بالتركية:

ضحك توفه ايضا معهم واخذ النقود بسرعة وذهب مع الفتى. كانت النساء في رقاد عميق، وقد تمتعن بالراحة والاسترخاء حتى الشبع، لانهن كن دون شغل وعمل، فانصب خيالهن وتفكيرهن على النظر الى الاشجار والحيطان وامتعة البيت.

وقد علقت في غرفتهن صور كبيرة للشاهنشاه والملكة، وكن ينظرن سريعا سريعا لتلك الصورة، كل واحدة كانت تقول شيئا:

كانت هذه تقول:

– يا بنت، ما اجمل زوجة الشاه وما اشد حاجبيها وعينيها نشوة.

والاخرى كانت تقول:

– يقولون كانت بنت ضابط صغير، فحباها الله بهذا الحظ السعيد من بين جميع بنات النبلاء والجميلات، حيث ان الشاه اعجب بها وحدها.

كانت آمه خان تهز رأسها وتقول:

– معاذ الله من حظ هذا الشاه، كانت زوجاته الثلاث واحدة منهن اجمل من الاخرى.

علقت (حەپسەخان) وقالت:

– اوه لم تكن أي واحدة منها ترقى الى زوجته الاولى. اخت ملك مصر فاروق، فوزية كانت جميلة جدا. كانت صبرية تقول كعارفة ومتعلمة:

ان هذه الامرأة متهيجة، حادة الطبع، فليست جميلة مثل الزوجتين الاخريين، كأن انفها انف يابانية.

كانت آمه خان مرة اخرى تهز رأسها لها وتقول:

هذه سعيدة الحظ، جميلة الناصية، لا تحتاج الى جمال.

في ذلك الوقت طرق الباب الفتى الخادم صاحب البيت وحياهم، فرش مرة اخرى الخوان المشمع الابيض امامهم ليأكلوا، وخرج ليأتي بالاكل.

قهقهت (حەپسەخان) بالضحك وقالت:

– اواه، اصبحنا كالربيطة، فها منذ اربعة أيام نأكل وننام فقط، لايأتي احد الينا يقول لنا ماذا تفعلون واين نذهب ومتى نسافر.

قالت آمه خان باكتئاب:

– لم يصبنا القليل، لنكن هنا يومين آخرين هكذا.

***

تبلغوا ظهر يوم غد، بأن يتهيئوا حيث يتوجهون صباح غد نحو طهران.

عادت في الصباح المبكر سيارتا لاندروظر، وقد ركبوا الجماعة بحمولاتهم وشحناتهم، متوجهين الى طهران، لقد باتوا ليلا في احدى المدن الكائنة على الطريق وناموا، فوصلوا لليوم التالي عند مساء متأخر الى ضواحي طهران.

كانت طهران من بعيد في علوها جميلة على قدر كبير، كأنها بحر النجوم والثريا وكثيرة الاضواء والمصابيح، وكانت الطريق والشوارع المفضية اليها

كلها واسعة عريضة وزينت جانباها بالاشجار وظهرت تدريجيا اللوحات وصور الدعايات والاعلانات، كما بدأ الازدحام ومسار السيارات المتنوعة، وقد توغلت سيارتا الجماعة بينها ووصلتا الى المدينة، مدينة بهية عامرة راقية، وكان في كلتا جهتي الشوارع والطرق كلها بنايات شاهقة بعدة طوابق والفنادق والاسواق الكبيرة، وأكثر شيء اثار واسترعى نظر صبرية من كل شيء، هو دكاكين بائعي الورود فقالت في نفسها:

حقا يبدو انهم شعب ذواق، ان ما لا يذكر عندنا هو دكان بائع الزهور، في جميع بغداد الواسعة أتصور ان هناك دكانا ودكانين لبيع الزهور، وذلك اذا ما اراد أحد أن يأخذ باقة من الزهور الى المستشفى لزيارة احد معارفه عليه ان يقطع الطريق ساعتين ثلاث ساعات الى ان يصل الى (ساحة السعدون) ليشتري باقة ورد.

ابدت استياء وقالت في سرها:

– فأين هي، الا فيما اذا كانوا من المدنيين الكبار وأصحاب الاموال، والا عندنا من يأخذ الورد لمن، انظر انت الى كل هذه الدكاكين لبيع الزهور هنا، لقد لحظت عيون البعض من الجماعة داخل السيارتين، فكانوا ينظرون بشكل متواصل الى كلا الجانبين.

لقد وهنت قوى صاحبات الاطفال، لان شوارع وطرق السيارات كانت مزدحمة، وفي كثير من الاماكن كانت السيارات تتسمر في مكانها وتتوقف مدة والاطفال كانوا يبكون بلا انقطاع.

ساروا مدة لابأس بها، داخل المدينة، فقطعوا الشوارع والفلكات الكبيرة والصغيرة، ثم انحرفت السيارتان وتتبعت احداهما الاخرى ودخلتا شارعا آخر في طرفيه بنايان و دور سكنية عالية ذات اربعة طوابق، فوقف السيارتان أمام باب حديدي كبير وقال السائقان للجماعة، لقد حان وقت النزول فنزل الجميع وحطوا الرحال.

قالت (حەپسەخان) في قلبها:

– عليك يا رب لنعرف أي شيء آخر كتب على جباهنا.

قالت آمه خان متمتمة في خفاء:

– لم نحط رحالنا وحملنا وصرتنا هذه المرة فقط، لايصيبنا مكروه، والله غدونا مثل الغجر، حمل على الظهر دائما، فكل يوم نكون في مكان ما.

دخلت الجماعة البيت بعد أن جاء رأسا فتى مرتديا ملابس الموظفين كان يشبه فتيان الدار الكائنة في (بانه) ففتح لهم ابواب الغرف واشعل لهم المصابيح الكهربائية، واخذ السائقان بالتكلم معه والهمسات، فسلما الجماعة الى الفتى، وهما ركبا السيارتين بسرعة مجددا وانطلقا.

كان الدار واسعة مريحة، ذات ثلاث طوابق، فيها باحة مربعة يتوسطها حوض ازرق جميل على شيء من السعة، وكذلك كان في الباحة درج يفضي الى الطابق الاول، وعلى امتداد حافة الدرج وضعت سنادين الورود.

صعدت (حەپسەخان) والاخريات عليه وأثناء النظر وتبادل النظرات كان احداهما تقول للاخر:

– ما ابهى هذه الدار يا ترى انبقى هنا دائما، أو نبات هذه الليلة هنا وغدا ياخذوننا الى مكان آخر، ولو كانت الدار قديمة بعض الشي، ولكن كانت ملائمة جدا لتلك العائلة، كان فيها اثنان ثلاثة حمامات، وكانت الغرف كبيرة واسعة كأنها مدرسة، وكانت فيها المواد مثل الاغطية والكراسي والارائك، فرشت الغرف بالزرابي والطنافس، ولو كانت قديمة نوعا ما لكنها كانت جميلة ومرتبة.

كان فيها مطبخ كبير وجيد مع الاواني والمواعين والقدور الكثيرة.

بدأت الجماعة بالدمدمة والدندنة والهمسات ، كان هذا يقول :

– يا لروعة طهران! وكان الاخر يقول:

– يا ترى.... انظل في هذه الدار، وكان هذا الآخر يقول.. ما اوسع واروح هذه الدار، كانها بنيت لعائلتنا الكبيرة، هذه.

وكان شخص آخر يقرب رأسه من الآخر ويقول:

– ما هذا فان هذا الفتى يعيش في هذه الدار وهو يشبه صاحب البيت؟

مضى اسبوع على وصول الجماعة الى طهران، وقيل لهم بانكم سوف تعيشون في هذه الدار، والى بقائكم هنا يكون هذا الفتى أيضا معكم، يدبر لكم شؤون السوق والأكل وجميع اشغالكم، وقد انكشف، لابد بأن تكون الجماعة تحت مراقبة ذلك الفتى الذي يبقى عندهم بأسم حارس البيت والطباخ، لكي يطلع على جميع تحركاتهم وسكناتهم، ويكون على علم كل من يزورهم ويتصل بهم، خاصة، حين كانت طهران مكتظة بالكورد الايرانيين حيث كان معظمهم تحت مراقبة (الساواك) وتحسب جميع تحركهاتهم وكانوا يعرفون اذا ما جاؤوا هم الى هنا، ربما سرعان ما يأتون الى عندهم ويتصلون بهم، حيث ان ايران لم تستسغ ذلك.

كان لـ (ساواك) او جهاز الامن في ايران حينذاك مطلق السلطة على جميع السلطات الاخرى في الدولة، وكان الجهاز الرقيب الحسيب الوحيد، الذي يعادي الجيش، وكان الطرفان في نزاع مستميت حسب اقوال الخبراء والمطلعين على الاحوال.

على الرغم من ان عوائل (حەپسەخان) والاخرين، يكرهون هؤلاء كثيرا في البداية وجود ذلك الفتى في تلك الدار، خاصة النساء.

كانت آمه خان تقول:

– اواه اهذا غير محرم كيف يعيش معنا خاصة فيما يتعلق بالحمام والرأس الحاسر، يفعل الانسان في بيته الف شيء، ثم يأتي هذا فجاة لشغل ما ويرانا برؤوس حاسرة أو بشكل آخر، كيف يكون ذلك؟

وكان كاكه حاجي يقول لها:

– انت لا ترضين ابداً، ماذا تقولين يا أمرأة، أي بيت وأي انت، فنحن الآن في وضعية اشبه ما نكون بالمحجوزين! انهم كيفما يشاؤون يفعلون، فنحن لا نستطيع ان نقول أي شيء.

وكذلك كانت البنات يكرهن ذلك وكن يد مدمن، ولكن تعودن عليه رويداً رويداً، خاصة ان الفتى كان نشطاً ونظيفاً شجاعاً وذكيا، وكان يحضر لهم ثلاث وجبات الطعام النظيف الصافي، وكان ينادي عليهم أثناء الأكل.

– الخوان حاضر يا هانم.

(الآغا الرضائي) الذي كان اسم الفتى، ولو انه كان يطبخ لهم ويتسوق ويشتري لهم اللحم والمؤونة، ولكن لابد أن يغسل احد المواعين له وينظف له المطبخ، وكذلك على العائلة نفسها ان تنظف البيت وتؤدي اعمالها الاخرى.

كان توفه وسمه والولدان القريبان الاخران (كاوه وكامەران) في غرفة الطابق السفلي من البيت قبالة غرفة (الآغا الرضائي)، وكان المطبخ ايضا في جانبهم مع الحمام والمرافق الصحية والاماكن الضرورية، وكل تلك كانت كائنة في قاعة كبيرة والتي كانت تفضي بدرج الى الفوق نحو الطوابق الثلاثة والاخرى. وكذلك بنيت غرفة واسعة مزججة كانت تطل على باحة البيت لوقاية الورود والازدهار من برد الشتاء.

قال توفه بعد اسبوع :

– تعلمت الفارسية تماماً.

كان يذهب الى دكاكين ما حول البيت، حيث لم يكن (الآغا الرضائي) يخلو لتوفه في كثير من المرات، أو كان يرسل احد الفتيان الآخرين ليذهبوا ويشتروا له شيئا، كالاشياء الصغيرة مثل الشخاط أو باقة من الكرفس، أو الرغيف او الخبز ، لأن الاشياء الكبيرة هو كان يشتريها في وقت مبكر.

كان الرضائي ينادي توفه اكثر كشيء هو انه ايضا فهم منه يريد ان يشاغب عليه وينصب عليه لقضاء الوقت، وكان توفه يتعامل معه بحقد وكراهية كثيرة،

ويشتمه في الخفاء دائماً وتحداه وواجهه في احدى المرات صارخا بوجهه، وانتفض بوجهه بكوردية فصيحة قائلاً:

– لماذا نحن نغسل لك المواعين وننظف لك المطبخ، مادام المطبخ ملكك، فأغسل بنفسك الاواني.

نادت (حەپسەخان) والاخريات خلسة توفه وتصدين له وقلن له:

في سبيل الله اغلق فمك لا تفضحنا، نحن هنا كل هؤلاء الاشخاص في هذا البيت لنغسل مواعيننا بأنفسنا!

انفعل توفه وقال:

– لا مانع لو كان لنا حق على المطبخ والحق والحساب، حينذاك كنا نفعل كله بفرح، ولكن انظري انه يتعامل معنا كأننا خدم والده، فيأمر علينا دائماً.

علق حاجي مجيد قائلاً:

– اخي العزيز، ألا يكفي انه يحضر لكم الأكل ويضعه أمامكم وبين أيديكم، وإذا لم يكن فاعلاً ذلك ومتفقداً شؤونكم كالأقطاعي الكامل، وكنتم مضطرين ان يضعوا امامه خوان الاكل عندئذ ماذا كنت تقول؟

اخذت (حەپسەخان) تتكلم وقالت:

– ابن ابي تمالك نفسك، لنعرف ماذا يفعل بنا الله، ليتكلم الانسان قولا للسارق، ولله اقول ان الفتى ليس سيئاً فهو نشط جداً وخدوم كثيراً.

نظر توفه الى (حەپسەخان) بطرفة عين نظرة شذرة قائلاً:

– الا والله نشط، لماذا لا يكون نشطا خفيف الحركة، ان فيه منفعته.

خفت توفه صوته ثانية وتقدم منهم وقال هامساً:

فاتنم لا علم لكم روي لي (كاك عبدالله) ماذا يفعلون هؤلاء.

قال بةختيار مستغرباً:

– من هو كاك عبدالله؟

قال توفه ثانية هامساً:

– رجل ذلك البيت "المهابادي، ولكن بالله عليكم لا تذكروا اسمه عند أحد، ذلك بيتهم في الجهة العليا من بيتنا، يقول لي كل مرة عندما يلقاني عند المخبز:

– والله يكاد سيد محمد وبيتهم تنخلع قلوبهم من اجلكم لكنهم يهابون ان يزوروكم خوفا من الدولة وهذا العميل لـ(ساواك) عندكم.

– الآن ان هذا الرجل الذي عندكم يكتب ثلاثة اضعاف ما يشتري لكم ويأخذها من الدولة، نصفه له والنصف الاخر للذي هو اكبر منه.

ان هؤلاء كلهم كبارهم وصغارهم شركاء ولصوص، فهذا عملهم وممارساتهم.

هز رأسه قائلاً:

– وكيف اذن فهو ليس من اجل سواد عيوننا، انه لمنفعته الخاصة.

أخذ كاكه حاجي هذه المرة يتكلم قائلاً:

– ابني فنحن المتشردون الهاربون لاشأن لنا في ذلك، فذلك من اموالهم ومن مهامهم، لماذا نحن نفضح انفسنا، ونسيء الى انفسنا، فهل يتغيرون بتأثيرنا، لابد ان نلوذ بالصمت وعدم التدخل في القضايا التي لا شأن لنا فيها، الى أن نعرف ماذا يفعل الله!!

ومهما يكن أخذ الجميع يسكتون توفه ويهدئون اعصابه، وكان يكتئب فترة ما وينظر الى فم (الآغا الرضائي) الى بعد أيام اخر، كان يحدث شيء او يستجد، حيث لم يكن بمقدوره ان يكظم غيظه لذلك كان يثير ضجة اخرى ويخلق صراخا آخر.

في احد الايام حيث كان توفه خلق ضجة، وقالت (حەپسەخان) متضايقة:

بالله يا جماعة، اذا جاء علي والاولاد لزيارتنا اقول لهم خذوا معكم هذا الثرثار الى عندكم، ليعود الى صفوف الپێشمەرگه انه سيعرضنا الى مصيبة.

ردت عليها اختها قائلة:

– اي والله يدي على قلبي لانه كلما يقوم ويقعد يقول:

ولوجا في قبر الاب الكبير للآغا الرضائي، أصبح هذا القول دعاء على لسانه، قلت له ذلك اليوم:

– الا يا ابني او تعرف من هو كبيره؟ فأنت تذكر من؟ ان يسمعه فالله يعلم ماذا يفعلون بنا.

بينما نظر اليها جاحظ العينين وقال:

– كيف لا اعرف من أذكر، فأنا ارسله الى هناك، علقت صبرية من هناك في حالة من الغضب قائلة. :هذا الملعون مرتبك، يتصور حضرته بأنه جاء هاربا الى هنا، لابد ان يضعوه فوق رؤوسهم، أي شيء يليق بك يا منكاب؟

اولا تعلم قد ينظرون الينا على أي قدر نظرة استخفاف لاننا اصبحنا طرفين وقضى بعضنا على البعض الآخر، ولم نهرب خوفا من الحكومة أو العدو بل تشابكنا وتقاتلنا مع اخواننا وأبناء عمومتنا ومواطنينا كالحيوانات الضارية والمتوحشة، جعلنا من انفسنا مثار سخرية وتهكم العالم، والآن يعتبرنا كل الناس سفلة غير محترمين، وكذلك الآخرين في الوطن اذ ينظرون اليهم كرجال ومرتزقة الحكومة، سفلة دون قدر فالآن بحاجة اليهم لذلك يتملقون لهم الآن، كمثل ما يتملقون هؤلاء لنا، وقد يحتاجون الينا، ويحتمل ان يستدرجوننا بحيث نكون عملاء لهم، الله لا يزيد فضلهم ، فليقتلنا الله على الا يصيبنا بذلك.

تنهد والدها حاجي مجيد آهة بحرقة جدا، وقال:

– والله يا بنتي تصدقين ما تقولين، فان لم يكن دأب الكورد هكذا، لم يكونوا قوما اعداء انفسهم وجماعتم ومفرقي الشمل وخونة الوطن؟ فلماذا كانوا يبقون هكذا، هوذا، فانظري الى الذين يضمون ريش الدجاج والوز وأوراق الاشجار الى صدورهم بدلا من الملابس، ويرسمون على افواههم وصدورهم وظهورهم صور التنين والحية والعقرب، اصبحوا مالكي الدولة بينما ظل الكورد على حاله هكذا.

كله بسبب انه هكذا دب بينهم دائما الشقاق والنزاع، وكانوا منهمكين بشكل مستمر بقتل احدهما الآخر والممارسات التخريبية.

وكان في بداية الثورة الى حدوث هذا الشقاق البائد المشؤوم بيننا، كان الجحوش يواجهون الثورة اكثر من الحكومة، او تعلمين ما عدد المتواجدين، اليس هؤلاء كرداً؟

لوكان الجميع كتلة واحدة لما كانت ثمة قوة قادرة على الكورد، ضرب حاجي يداً بيد بأسى وقال:

ولكن ما تقولين فنحن قوم اعداء انفسنا، لايرغب احد منا ان يمتلك الآخر الاظافر ليحك بها جلده، ولكن فليمتلك الاجانب كافة القوى وافراح الدنيا، لا مانع ان نفرح بهم ونضعهم على رؤوسنا!!

القى نظرة على الجالسين وقال:

– اقص لكم هكذا شيئا صغيرا قبل سنوات، تخرج طالب من اهالي السليمانية من كلية الشرطة، عينوه مباشرة معاونا للشرطة في السليمانية.

القى نظرة على (حەپسەخان) وقال:

– وانت تعرفينهم، ابن كاكه غفور.

قالت (حەپسەخان) بملالة:

– اوه كيف لا اعرفهم، كانوا في زمن ما جيران بيت اختي آمه خان.

هزت آمه خان رأسها وقالت:

– كانوا بيتاً طيباً جداً، كأننا كنا بيتاً واحداً، ليتني بذلك الزمن. بدأ حاجي يتكلم وقال:

– ثم جاءني حسن المضمد ذات يوم وقال:

– خالي حاجي أرسلني مصطفى بك الى حضرتك، ان تقول للمعاون علي بأن ينجز شغل مصطفى بك بسرعة، لانه متوقف عليه.

قال حاجي بابتسامة ساخرة:

وانا نظرت اليه بحيرة وقلت له:

او ماذا تذكر انت، من هو مصطفى بك، ومن هو معاون علي؟ واي شغل؟

بينما يقول لي:

– والله خالي العزيز، ان مصطفى بك معي في دار واحدة انه نائب عريف من أهالي الحلة، ثم ان كتاب ترفيعه تحت يد معاون علي ابن غفور الذي هو في غرفة الشرفة.

عندئذ استشطت غضبا فاصبحت على وشك ان اقوم وانهال عليه بالرفسات والركلات فقلت له:

– هيّ، يا سافل، هذا معاون علي لانه من اهالي السليمانية، والعائد الى منطقتنا نعرفه وأصبح ذلك المعاون علي وقد سميت والده بأسم قبيح، ولكن الشخص الآخر هو (مصطفى بك) لانه من أهالي الحلة وغريب، والله اعلم من أي عشيرة!!

والله طردته شر طردة وقلت له:

– والله حتى وان تمت انت ومصطفى بكك هماً وكمداً فلن اقول له، اغرب عن وجهي يا سافل.

– تضايقت (حەپسەخان) على أثر زوجها لانه ثار وارتبك كثيرا حين كان يتكلم ذلك الكلام، لذلك التفتت اليه باعتناء وقالت:

– خاطر الله لا تزعج نفسك هكذا، الله لا يرضى من توفه يا ربي!

اضطربت صبرية أيضا وقالت:

– والدي العزيز لا تقلق نفسك، والله نحن السبب اذا نتناول تلك الموضوعات المزعجة المؤلمة امامك، وننسى ان نضايقك الى هذا الحد.

***

كانت نةوبةهار قاعدة في غرفتها، حيث كانت تطوي بعض ملابس وامتعة ابنها كوردو، بعد أن انامتها، فكانت تمديدها الى قطعة ملابس هكذا، يطير خيالها، الى عند زوجها علي:

– لقد قال حالما تتم اقامتنا عندئذ آتى اليكم، بينما على وشك ثلاثة أشهر ولم يتبين ابداً.

ليته يقحم الآن البيت، يا له من فرحة، حين كان يظهر عندنا مساء رأسه وكان احد على عتبه الباب يقول:

– فها عاد كاكه علي، يا لفرحة قلبي حيث يفز وينتعش ، ولو انه كان قريبا مني، فكان يزورنا يوميا مرة مرتين، بينما كنت أظن أنه يأتي من مدينة بعيدة حين كانوا يقولون فها ان كاكه علي عاد، كنت افرح به فرحا غامراً. كانت نةسرين أيضا فاقدة الصبر من أجل حسين، وكانت تتعاقبه في قلبها وتقول:

– ما شاء الله لقد جاءنا على خير مايرام، والله انه الآن تسمر في مكانه، ويوغل في احداثهم ولا يتذكرنا أبداً، انه كان دائبا على ذلك، فحين كان يأتي لزيارتنا في طرفنا، كان لابد من العودة الى المركز، وحين كان يذهب الى هناك، ما كان يتذكر ان يعود الى البيت، انه رجل مهمل، لكن صبرية على قدر من الاكتئاب والصمت بحيث انها حقا كانت تنفعل على أبسط شيء، وتثور بوجوه الجميع، ومع ذلك كانت تحاول كثيرا من أجل خاطر والدها وعمها أن تتكلم الكلام الحلو وتسليهما، وفي احيان كثيرة كانت تلوم نفسها، لماذا هي على هذا القدر من القسوة والجمود والعصبية، بينما هي متعلمة متقدمة ومناضلة، يجب عليها ان تسهل عندهم هذه الوقائع والكوارث، وان ترفع من معنوياتهم وتعزز ارادتهم وتنصح هؤلاء الشباب المساكين ابناء العمات والاقارب، كأنهم مسجونون واسرى قابعون مكتوفوا الايدي بجيوب خالية، ان احدا مثل ابن خالتها سمايل حيث كان عند والديه في بيته الى ان ينهض من النوم كان لابد من اعداد سفودين من اللحم المشوى مع الطماطة والخضراوات والبصل والخبز الرقاق الناشف

بوضعها على صينية في انتظاره، وهنا الآن معدم مفلس وذليل جالس في حضورهم، يريد من الله ان يتكلم معه الآغا الرضائي كلاماً ويكلفه بشغل، وحين يناديه (طاطا) (سمايل) يتصور أنه يكافئه.

أما بةختيار المسكين فهو لاشيء، انتقل من ثيَشمةرطة شجاع جريء مدجج بالكلاشنكوف ومناضل عنيد الى جالس مكتوف اليدين دون شغل وعمل والذي يتثاءب دائما وينعس.

حين كانت تخطر هذه الافكار ببال صبرية، كانت تعود الى رشدها وتصحو، وتتعهد مع نفسها بأن تغير سلوكها، ولا تصب جام غضبها من وضعها المتردي جراء بعد شيروان على هؤلاء الفقراء.

كانت روناك في معظم الاحيان تستلقي على ظهرها واضعة الراديو الصغير على قلبها، فكانت تستمع الى الاغاني الفارسية العذبة، وتنسجم مع كل كلمة وشعر تلك الاغنية دون ان تفهمها، لان المغنيين كانوا على مستوى رفيع من الصوت الرخيم واللحن العذب والاداء الجيد الحنون.

وهي أيضاً كانت تغمض عينيها وتطير باجنحة الخيال وتدور حول حبيبها بيستون، وفي احيان كثيرة كانت تبكي خلسة من أمها والاخرين.

فكانت تلك الاغاني والموسيقى الجذابة تفريجا لهمومها. لذلك كانت دائما تحمل معها الراديو.

***

برد المناخ تماما، كانت طليعة الشتاء تهجم فجاة بغضب شديد على الاشجار والانسان في الطرقات، ومعظم الامسيات وفي هذا البرد الشديد كانت (حةپسةخان) وآمه خان تذهبان معا الى ايوان آخر طبقات البيت، فكانتا تتبادلان الحديث وتنظران الى تلك المنطقة، مرة كانتا تبكيان لحالهما، ومرة اخرى تضحكان من انفسهما.

كان قلباهما ينقبصان أيام الجمعة اكثر من الايام الاخرى، حين كانتا تريان أن أقارب وأهل جيرانهم جاؤوا اليهم، فكانوا على عتبة دار الباحة يعانق احدهم الآخر الام والوالد والخال والابن والاخت، والعم وابن الاخ، والاخت والآخ، العجوز والشاب، وكانوا يظلون طوال ذلك اليوم في بيوت بعضهم لبعض، وفي المساء وعلى نفس الوتيرة كانوا يتفرقون فيما بينهم وسط الصراخ والضجيج والضحك والقبلات والفرح!!

كانت (حەپسەخان) تمسح عينيها من الدموع وتقول:

ليتني بهم، اعرف نحن هنا غريبات وحيدات بائسات ليس عندنا أحد يشق لنا الباب، اوه فلينفطر قلبي لهفة لوطننا ومدينتنا وأهلنا.

لأن (حەپسەخان) واختها كانتا تذهبان كل مساء الى سياحة ونزهة الايوان الفوقي، كاد ان تمتلكا الخبرة حول جيرانهم، بأن افراد البيت الكائن في جهة يدهما اليمنى كم شخص، وزوجة ربة البيت الآخر ما أكثر ضجيجا وعجيجا، دائما تصرخ وتصيح على زوجها وعلى العجوز المنكوبة التي عندهم، وكيف هي تعمل في البيت على قدم وساق وتأخذ طفلي ربة البيت الى المدرسة وتذهب مساء لاعادتهما.

وهي ترى أيضا الطفل الرضيع، وان امهم المستصرخة، دائما مشغولة بنفسها فهي اما ان تقف امام المرآة أو تصبغ شعرها بالحناء او في شعرها لفات التجعيد، وهي على العموم مرتدية ثوبا قصيرا دون اردان، او انها تنتقل في البيت ببرنس الحمام، ولن تتخلى عن المنتاف والمرآة الصغيرة، فهي دائما تزجر وتعنف هذه الامرأة الفقيرة البائسة، وحين يعود الاطفال وابوهم الى البيت عندئذ تبدأ نوبتهم، فتستريح العجوز لبعض الوقت من صياح وصرخة الهانم.

كانت (حەپسەخان) واختها تأففان وتتنهدان وتضربان انفسهما من حيث كيفية وجود امراءة وأم هكذا في الدنيا.

ان كلتا الاختين اطلقت اسماء قبيحة على تلك الامرأة، فهذه كانت تقول:

– مرة اخرى يبدأ صياح المراة البليدة.

وكانت تلك تقول:

– فها انظري الى راقصة الملهى كيف عرت نفسها في هذا البرد وأرتدت هذا الثوب الشفاف.

أو ترين هي ذي فان كلتا نهديها مكشوفة واضحة للعيان. هذه كانت تقول:

– اوه لتكن عبرة !!

والاخرى كانت تقول:

– لو ملكت القدرة لكنت احلق شعرها واركبها حماراً، كيف تكون هكذا لا تحفل بأطفالها وتزجرهم دائما.

والاخرى كانت تقول:

– والله يا اختي كأنها ليست امهم، وهي لا تشبه حتى الضرة.

– وتجيبها الاخرى قائلة:

– هم اطفالها يا أختي، رأيتها ذلك اليوم كانت ترضع طفلها الرضيع.

حين كانتا تنتهيان من موضوع تلك الامرأة، كانتا تتناولان موضوع بيت الجهة والاخرى، كيف ان زوجة صاحبة البيت ما ان يحل الصباح حتى وان تشرع بنفض الفرش وغسل النوافذ، الايوان, والحيطان. قلا تسترح دقيقة واحدة، فيا لها من أمراءة نشطة، وحلوة ومحتشمة في ارتداء الملابس، وما ان يعود اطفالها من المدرسة حتى وان تنشغل بهم تطعمهم وتغسلهم وملابسهم وتنشرها، فهي دائما تتصرف معهم بكلمة الفداء والهيام.

واخيراً، كانت تلك الاخت تبدأ بمدحها والاخرى يلهج لسانها بالاطراء والثناء عليها.

كانت (حەپسەخان) تقول:

– يا اختي لقد صدق السلف حين قالوا: "توجد امراءة وتوجد ايضا مخاض "ان تلك الامرأة المستعرضة، هي مخاض تماماً"

وكانت آمه خان تعلق و وتقول:

– ادركي فان هذه الامرأة الطيبة النشطة عندها أي نفع لنا، فلا نعرفها ولا تعرفنا، غير اليوم الذي جاءت لنشر الملابس في ايوانهم ورأتنا وقالت:

– خانم سلام أحوال شما أي (سيداتي السلام عليكن كيف احوالكن).

قهقهت (حەپسەخان) بالضحك وقالت:

– والله استحسنت فارسيتك كثيراً، وهي ضحكت وقالت:

– والله ماشاء الله تعلمتها جيدا، أو ليست عندما قالت (شما) تصورت انها تذكر (شەمشەمەكوێرە) (الخفاش) وبعد ذلك حين قلت لـ(بةختيار)

ان المرأة الجارة لنا سلمت علينا وذكرت (شەمشەمەكوێرە) ضحك بةختيار وقال:

– هي قائلة أحوال (شما) أي كيف حالكن؟

***

في احدى الامسيات حيث كانت (حەپسەخان) واقفة مع اختها في الطابق الاخير من بيتهن، وكانتا منشغلتين بالنقاش والهمسات فيما بينهما، انتفضت (حەپسەخان) وقالت بشوق وفرح:

– وافرحتاه يا ربي، والله كأن السيارة الواقفة امام بابنا، هي نفس السيارة التي أتينا بها الى هنا، والى ان نزلت الاختان بسرعة وعجلة وتلهث من الطوابق الثلاثة ووصلتا الى الباحة، وكان علي وبيستون ونةورؤز وسط المعانقة والقبلات مع أهل البيت، واخيرا هما أيضا لحقتابهم بلهفة وسرعة فائقة.

جلس الجميع في الغرفة الواسعة المريحة، وتحلقن حول الابناء، فهذه كانت تتناول لهم موضوع طهران والدار التي يسكنونها فيها، وتلك كانت تحكي لهم موضوع الآغا الرضائي والعلاقة معه.

لم يكن توفه يسمح المجال لاحد، وكان يريد ان يتكلم وحده، كان بادئا بتعداد معارفه لهم من الذين كون معهم العلاقة في تلك المنطقة ، وكيف تعلم

الفارسية مثل البلبل، وكذلك تحدث لهم عن امراءة لبنانية يلتقي بها يوميا عند المخبز، وهي تشكو له كل مرة انها فقدت الصبر وهي مضطرة ان تبقى هنا، لان زوجها موظف صغير في السفارة اللبنانية حيث انها منذ ان رأته وتكلم لها بالعربية، انشرح قلبها، وجلبت له ذلك اليوم طبقا من البقلاوة اللبنانية.

اخذت (حەپسەخان) وآمه خان تنخس احداهما الاخرى وتعوذتا بالله من أين جاء بكل تلك الاقوال، ومن أين تعرف على كل هؤلاء الناس؟!

اخفت آمه خان فمها بيدها وقالت لاختها هامسة:

– اختي اينما يمم وجهه يصبح (وردة المجلس وكبير الحي) كانت نەوبەهار منتعشة من فرحة مجيء زوجها علي وكانت تقول في سرها:

– الله فداه روحي، لبى رغبتي اذ قلت ذلك اليوم، ليتني كان يقول احد فجأة: (جاء كاكه علي)، ياله من فرحة حين سمعت هذا الكلام!! ان لم يكن عيباً كنت اعطي البخشيش (الراشن) لـ(بةختيار) حين نادى قائلاً:

– اركضوا يا أطفال جاء كاكه علي والآخرون. وكانت روناك أيضا من فرحة حبيبها بيستون، تسخر من الطعام الكائن في ماعونها فلم تكن تشتهي أي شيء، كما ان بيستون على الرغم من انه كان خجلاً من افراد البيت خاصة كلا الحاجيين، احتفظ بشيء من الاتزان والوقار، الاّ انه كان يحدق باستمرار في ساعته، وكان يريد من الله ان تنتهي الجلسة ليذهب كل واحد الى غرفته، ويذهب هو وروناك الى غرفتهما، فيسرع الى معانقتها ويقبلها حتى الشبع، ذلك الفم والشفتين الجنبدتين المنفتحتين الجميلتين، ويحتضن ذلك الجسم البض الرقيق، وقد كانت صبرية تبدو بأنها مبتهجة بمجيء اخيها علي والآخرين لذلك كانت تتحدث بكثير من العقلانية ولغة الكتب عن الاوضاع والاحداث والسياسة، وكانت في قلبها تقدم المبررات لشيروان حيث انه أحسن بارسال بيستون، لان روناك عروسة السنة، فيفترض ان يلتقيا قبل غيرهما، ولو انها اسرعت لاستقبالهم عند المساء ولم تر شيروان فأنتابتها فزعه قلب، وارتبكت قليلا.

وكانت نةسرين غاضبة من حسين في قرارة نفسها وعاتبته قائلة:

– هو ذلك الفتى الذي كانت يأتي قبل كلهم، لكنها كانت تخفي غضبتها في قلبها، وكانت تظهر نفسها بأنها سعيدة ومبتهجة جداً، بعد أن تحدث لهم حاجي مجيد موضوع حاله وصحته ومراجعته الطبيب، والتفت الى الاولاد قائلاً:

– كيف انتم وما حالكم واحوالكم؟ هل تمت اقامه الپێشمەرگه؟ وبماذا منشغلون؟

قال علي مكتئباً:

– لابأس، هكذا يكون نكاد نتعود.

سأل كاكه حاجي:

– من أين جرت اقامتهم، كلكم معا او متفرقون؟

– لا كلنا معاً وفي مكان واسع جدا، كحامية عسكرية والنساء والبيوت من حولنا أيضا، استأجرت لهم الدور فكل اثنتين ثلاث عوائل معا.

لكن الپێشمەرگه لا يطيقون صبراً وبعد شرب الشاي مباشرة يركضون ويأتون الينا.

هنا ضحك بيستون وقال:

– بعد أي شرب الشاي، والله ان البعض منهم يأتون الينا يغسلون وجوههم ويأكلون.

نظرت (حەپسەخان) بنظرة مفعمة بالحب الامومي الى ابنها علي وقالت:

– فداك روحي لمذا تأخرتم الى هذا الحد، منذ مدة نحن في انتظاركم، لمس بيستون رأسه وجيده وسابق علي قائلاً:

والله حماتي العزيزة، ولو كانت الامور في ايدينا، كنا نأتي في اليوم الثاني، ولكن ماذا اقول، الى ان تمت اقامتنا والى آن اذنوا لنا، هكذا صار، فهو ليس برغبتنا متى شئنا نأتي ونروح.

قالت آمه خان بأسىً:

لتطلع روحي لاجلكم، ربما تكونون كالمسجونين!

نةورؤز الذي كان جالسا بالقرب من آمه خان وضع يده على كتفها وقال باسماً:

– لا لا امي العزيزة لسنا مسجونين، ولكن يجب أن يكونوا على علم من تحركاتنا، وهذا لأجلنا لكي لا نتعرض لاي شيء! يبدو ان نةورؤز قال ذلك من أجل خاطر امه، والا كانوا جميعاً اشبه بالمحجوزين.

علي كانه يريد ان يبعدهم قليلا من هذا الموضوع التفت اليهم قائلاً:

– الا وانتم ماذا تفعلون، ماذا لا تفعلون، كم مرة ذهبتم الى داخل المدينة والسوق؟

التفت باسما الى امه وخالته قائلاً.

– اتعلمتما الفارسية؟

غطت خالته فمها بطرف من وشاحها وضحكت قائلة:

– اسأل هذا كاكه توفه، انه اشجع وأذكى منا جميعا، اصبح عندليب الفارسية.

مسد توفه صدره وتلابيبه وسعل قائلا:

– لم لا؟ لم لا اصبح؟ ان الفارسية سهلة جدا، تشبه الكوردية كثيراً.

قالت آمه خان اثناء ضحكتها الخافتة:

– أولا اقول انت اذكى منا جميعا؟

قالت هذا وقهقهت ضاحكة دون ان تتمالك نفسها فقالت:

– والله يا جماعة أنا أعيا من باقل كأنهم يحسبون لي الجوز، لم اتعلم سوى سلام وهانم.

مص توفه مصة في سيجارته مبتسماً وقال:

– يا الله لم تتعلمي ذلك!!

بدأ الجميع تماماً بالضحك مع آمه خان نفسها.

قال بيستون:

– فها جئنا سنبقى عندكم اياما، سنذهب بكم الى السوق، وننجز كل احتياجاتكم ونعود، ثم يأتي كاك شيروان وحسين اليكم.

التفت علي فجأة الى الجماعة كأنه تذكر شيئاً وقال:

– او تعرفون بيت من في طهران؟

ان آمه خان التي كانت تشتاق الى التجول والذهاب الى الخارج لانها كانت منقبضة وخائرة القوى قالت بفرحة غامرة:

– لا والله لا نعرف أي بيت تقصده؟ هل انهم من معارفنا، وي يا رسول الله عسى ولعل ان نعثر هنا على احد المعارف، لا اقول لا شكران فيه، لا نجد احدا يطرق بابنا.

التفتت (حەپسەخان) ايضا الى ابنها قائلة بحرارة:

– بيت من فهل انهم من أهل منطقتنا؟

هز علي رأسه لها وقال:

أي والله انه من اهل منطقتنا!

علق نەورۆز وقال بابتسامة ساخرة:

– واذا اخبركم من أي عائلة هم، او يمكنكم التعرف عليهم بعد رؤيتهم؟

– أي تمييز وتشخيص، خاصة النساء، والله إن لم يقل الرجل نفسه ان هذه ام ضرا وتلك ام هؤشنط، لم اكن اعرف قطعا من أي منطقة هم، فليس مجرد عدم التعرف عليهم! سئمت صبرية من هذا اللف والدوران، فكانت ترغب ان تعرف بسرعة عما يتحدثون، لذلك قالت بملالة:

– خاطر الله قولوا لنا عما تتحدثون؟ ماهذا بعد الشر عنكم، ان اقوالكم كلها بحاجة الى قارئ الفأل.

قال علي:

– نتحدث عن شوكت آغا بابير آغا

سأل والده حاجي مجيد:

– كيف لماذا هم هنا؟ فأين وجدتموهم؟

التفت علي الى والده وعمه قائلاً:

– أي والله انهم هنا، وبيتهم في طهران، في ذلك اليوم جاء احد اثري في معسكرنا وقال:

– شخص اسمه شوكت يطلبك ويقول اريد ان أراه، وأنا تحيرت وقلت من هو شوكت آغا يدعوني، ولم يخطر ببالي ابداً من هو؟!

قال توفه بلهفة:

– أي والله، والله هذا غريب؟!

قال نةورؤز مبتسماً:

– لوذوا بالصبر الآن لكي يروي لكم كاكه علي.

انتفض توفه فجاة وقال:

– الا يمكن أن يكون ذلك شوكت آغا الذي قتل مع اخيه في السليمانية رجلا، كانا مدينين له، وقد استدرجاه بذريعة دعوته للتنزه في (ازمر)، وهناك قتلاه والقيا جثته في حفرة، ثم تم العثور عليها، وهما قبل أن تداهمهما الشرطة هربا بعائلتهما واطفالهما؟!

قال علي:

أي والله هو نفسه.

وكان علي كمن يتوسل القى نظرة على الجميع خاصة توفه وقال:

– ولكن لئلا يسمع احد منكم هذا الكلام، لا شأن لنا، ثم أخذ يحكي لهم الموضوع، وقال:

– حين جاء وناداني، ذهبت مرتبكاً وقلت يا الله يكون خيراً، يا ترى الم يحدث شيء؟!

استطرد علي قائلاً:

– حقاً اضطربت فخطر ببالي الف خيال سيء، لا سمح الله الا يحدث لوالدي او احدهم شيء ما، لقد انغلق دماغي تماماً ولم افكر لاسمح الله ان حدث مثل هذا القبيل فكانوا يبلغوني عن طريق تلفون الدولة بذلك، واخيراً وصلت الى عتبه باب المعسكر، فحين نظرت وجدت سيارة سيارتين جديدتين كالخشلات الفضية اللامعة واقفتين، وقد وقف رجال ارتدوا الملابس الرسمية في المكان،وحين وصلت الى القريب وجدت انه شوكت آغا، ليقول المرء لوجه الله، انه فتح ذراعيه لي وعانقني، وسأل عن حالي واحوالي بحرارة وسأل عنكم واحداً فواحدا، واكثر من ذلك لم يدعني ان استغرب وتحدث لي قائلاً:

– فها جئت الى كرماشان، كان هناك اجتماع واحتفال كبير، وجاء ممثل صاحب الجلالة، وكنا نحن مدعووين وها نعود الى طهران فبيتنا هناك، ولانني مررت بـ(همدان) قلت لا يجوز الا ازوركم، ثم اخذني الى عند سيارته فكانت فيها امرأتان عصريتان جالستان مع اثنين ثلاثة اطفال وقال:

– انهما زوجتاي ام چرۆ وام هۆشنگ قال علي مستغرباً:

– بالله في البداية صورتهما ممثلتين سينمائيتين، لفرط ارتدائهما الملابس الجميلة الزاهية، وحتى اذا مرتا امامي الف مرة ما كنت اعرف قط انهما ئاسكول وقدريه، وقد تغيرتا هكذا. كانت الجماعة يستمعون الى علي بآذان صاغية، حيث ان (حەپسەخان) لم تتمالك نفسها فقالت:

– اوه معاذ الله كيف اصبحتا هكذا وبأي شي؟

ما كان بأمكانه ان يمر ببعض الازقة والطرق خوفا من الدائنين، فكان جميع حاجيات تلك العائلة بالدين.

اختلطت الجماعة في الكلام، وكل واحد كان يروي شيئا ماضيا عنه.

كان ذلك يقول:

– انهما مئة في المئة اخرجا نقود الرجل المفجوع يتطفلان عليها هنا، لانهم قالوا علاوة على الدين الذي كان بذمتهما اخذا من الرجل الذي قتلاه مبلغا كبيراً منه بأسم الشركة ومقاولات الحديد ومواد البناء.

والآخر كان يقول:

– لا اعتقد ان يكون ذلك، يمكن أن يكون له علاقة بـ(ساواك) والدولة، حيث انه دعي الى الاحتفال وحفلة العرس العائدة للدولة، وكذلك تجرأ ان يزورك في المعسكر دون خوف.

بدأت آمه خان تتحدث عن ماضيهم، حيث كانوا حينذاك جيران بيت خالتها فاطمة، حيث كانت آسكول وقدرية وعلى قدر من البؤس والشقاء.

وكانت مشاجراتهم ومشاحناتهم تصل كل يوم الى نهاية المحلة، لقد قضت الجماعة تلك الليلة بالحديث عن شوكت آغا، بتعداد خطاياه واحتيالاته ومراوغاته، ورغبوا كثيراً، ان يروهم بمشهدهم المتغير المتحدد.

***

لقد اتفق علي والأبناء في اليوم التالي بعد أن بلغوا الآغا الرضائي بأنهم يريدون الذهاب بوالديهم وعوائلهم الى الخارج والى السوق خلال تواجدهم في تلك الايام.

اخذ الآغا الرضائي بابلاغ دائرته تلفونيا والتكلم بهمسات معهم وبعد ساعات ارسلولهم سيارة لاندروفر مع سائقها، بأن تبقى السيارة عندهم مدة بقاء الاولاد هناك واخذهم الى حيث ما يريدون.

وقد تبين لهم، بأن (ساواك) تريد ان تعرف الى اين يذهبون، لكي يطلعوا على جميع تحركاتهم.

انقسمت الجماعة على قسمين، كان قسم منهما يذهبون اليوم للتجول والذهاب الى هذا الطرف والى ذلك الطرف، وغدا القسم الآخر، لان السيارة ما كانت تسعهم.

لكن توفه لم يكن يراعي هذه الناحية، كان يذهب يوميا معهم جالسا منتصبا في المقعد الامامي، دون ان يكون لأحد الحق او بالاحرى يتجاسر ان يقول له، يا أخي فها انت منذ ثلاثة أيام على التوالي تذهب فلتكن نوبة شخص آخر.

لم يكن احد يتجرأ، ولانهم كانوا يعرفون قد يجعل ذلك الشخص فيلما سينمائيا للمحلة.

اقعس توفه صدره وكان ينتصب نفسه في المقعد الامامي للسيارة وكان فمه ينفتح طوال الطريق كالراديو ويشتغل، وكلما كانت السيارة تمر بأي شارع كان كالدليل يشير بيده ويذكرلهم موضوع ذلك الشارع او كان يقول فجأة:

– كان ذلك اليوم وهنا وفي هذا الدكان اشتريت علبه سجاير، بينما لا اعرف كيف وقعت مني في الطريق؟ هو ذا امام هذا الدكان لبيع الزهور، كان ذلك يتشاجر شخصان، كاد ان يقتل احدهما الآخر، فوصلت اليهما في الوقت المناسب وفرقت بينهما وبعد هنيهة كان توفه يعود الى التحدث ويقول:

– لا تتحدثوا عن هذا الشارع الواسع المريح، كان توفه ينظر من خلال نافذة السيارة الى هذه الجهة وتلك ويلتفت الى الذين كانوا جالسين وسط وخلف السيارة ويقول:

– هنا في هذا الشارع ، وعند المساء حين تشعل المصابيح تتزين النساء الفاسدات انفسهن،ويقفن على جهتي الشارع، حاشا ان تكون مثل ساحة بيع اللبن، عندنا، حيث يأتي كل شخص يختار قدراً أو طاسة،وهنا يأتي الرجال الفاسدون والاغنياء بسيارات طويلة فارهة الى هنا، يختار كل واحد منهم أمرأة بعد التعامل والاتفاق معها، فيركبها السيارة ويذهب بها الى حيث ما يريد، في احدى المرات اذ كان توفه يتحدث عن تلك النساء بائعات الهوى، وكانت آمه خان معهم ايضا، لذلك حين سمعت ذلك الموضوع ضربت نفسها بذهول وقالت: أستغفر الله.

– اواه !! أي كلام هذا؟ استغفر الله، ياربي، كيف يوجد شيء مثل هكذا؟ اواه توبة يا ربي، بالله عليك عزيزي توفه لا تقل مثل هكذا، ونةورؤز الذي كان راكبا بين السائق وتوفه، نخس توفه بأن يسد فمه، لا يقول تلك الاقوال خوفا من السائق لانه كان عميلاً لـ(ساواك)، ولو انه تظاهر لا يعرف كلمة واحدة من الكوردية، لكنه كان يفهم بعض اقوال توفه خاصة حين كان يتحدث عن موضوع النساء الفاسدات اللاتي يطلق عليهن نفس التسمية.

***

كلما كانوا يرجعون الى البيت كان الابناء ينصحون توفه ان يسد فمه ولا يتكلم مثل تلك الاقوال، ولكن بعد هينهة من الصمت كان توفه ينسى النصائح، ويبدأ بذكر الفساد والاحتيال والخداع في السوق، حيث كان يتناول موضع الرقي الذي تلون والدجاج المنتفخة ماء بالابرة لكي تظهر اثقل، وكان يعدد زيفهم وخداعهم واحتيالهم ونصبهم كأنه عائش بينهم منذ سنين، حيث كان على قدر من المعرفة والخبرة والتجربة ويميط للثام عن وجوههم، بينما في الحقيقة كانت لكثير من تلك الموضوعات قد حكى له الرجل المهابادي كاك عبدالله، في حين انه كان يرويها باستفاضة ويجعلها حوادث ووقائع اطلع عليها بنفسه.

عندما كان علي والابناء في طهران في تلك المدة بعثوا دفئا وفرحا في البيت. كما انهم اخذوا العوائل معهم للتجول والتنزه والذهاب الى اماكن جذابة مثل (آب علي ـ ماء علي) الذي كان مكانا جبليا جذابا ومشهورا جدا، وما ان يتهيأ لأي شخص المجيء الى طهران. فلم يكن يغادرها ان امكن دون الذهاب الى (آب علي)، على الرغم من ان الجو كان باردا، لكن عدد الزوار اليه في الشتاء وفي الثلج والمطر اكثر، لأن جباله وتلوله حين كانت تغطى بالثلوج تجذب المتنزهين والمتفسحين نحوها لقضاء الوقت والمتعة ولعبة التزلج على الجليد، وكذلك على امتداد طريق طهران وآب علي كانت هناك اماكن للاستراحة والفنادق المبهجة،

حيث ان بعض الفنادق التي كانت فيها من الفنادق الراقية الغالية والتي ما كان يجوز ان تدخلها الملفعة بالعباءة او المعتمرة نقابا درابا.

***

لم يبق من الوقت كثيرا لعودة علي والآخرين الى موقعهم بين الثيَشمرطة، اذ دق جرس التلفون صباحا بان بيت شوكت آغا ينوون زيارتهم مساء.

دب الصياح والصراخ بين النساء، لقد فرحت آمه خان قبل جميعهن، حيث خاب املها من ان العائلة ستزورهن، لأنه منذ اليوم الذي ذكر لهم علي لم يسمعوا اي خبر في شأنهم، لذلك كانوا في انتظارهم بشوق عارم، خاصة حين تحدثوا اليهم عن غناهم وانتحال انفسهم، كانوا راغبين ان يروهم باسرع وقت ما يمكن ليعرفوا ماذا يفعل الله ما يشاء.

بعد الظهر بدأت حەپسەخان واختها والبنات بتزيين وتجميل انفسهن بما ملكن من الثياب والقطع الصغيرة من الحلي وشرابات للزركشة التي تمكن من انقاذها وجلبها معهن. كانت البعض منهن يذهبن مرارا الى امام المرآة وينظرن الى انفسهن وتمدن صدورهن وتلابيبهن.

قهقهت حةثسةخان ضاحكة وقالت:

– اواه معاذ الله، كأننا لم نلبس ملابس جميلة ابدا، ولن نتجمل قط، انظري كأننا حديثي النعمة، فها انا ذهبت بنفسي الى امام المرآة مرارا.

اخفت اختها آمه خان ضحكتها وقالت:

– ماذا نقول؟ لاأقول لاشكران فيه، ان هذا التشرد والتغرب في المدن والازقة انسانا حتى اسماءنا، فكيف اذن بالملابس والتجميل؟!

وهناك علقت صبرية دون اكتراث قائلة:

– يا لكن في تضخيمكن للاشياء، لقد اشغلتن انفسكن منذ الصباح، تلك تقول ان شدة رأسي لاتليق بالمجلس وهي تقول ان كم صايتي قد بهت لونه قليلا، واخراكن تقول لاينسجم ثوبي هذا مع صدريتي.

لقد اربكتن انفسكن كأن عائلة صدر الاعظم تزوركن، فلاداعي للاهتمام بها، فالناس لايعرفون بملابسهم، فاننا منذ سنوات نخوض معترك الكفاح والثورة وقد ضحينا من اجلهما بارواحنا واموالنا ولسنا نادمين. ولو كنا نحن ايضا غير مبالين وخاضعين خانعين. لكان وضعنا الآن هيهات هيهات، فكنا نركل الدنانير يمنة ويسرة.

ثم قالت نةسرين بحرارة:

– اي والله كنا الآن مشترين دارا دارين اخريين، وكان الصائغ يصنع لكل منا قطعا ثقيلة من الذهب، وكنا مثلهم اذلة خاضعات نركب السيارات الفارهة، وكنا ايضا في حركات وسفرات دائبة بين السليمانية والمدن الاخرى، وتتراكم الفرش والسجادات والاشياء الغالية في بيوتنا.

عادت صبرية الى الكلام قائلة:

– بالله، بالله، ان ثوبي القديم غير النافع هذا لا ابدله بجميع ثروات واموال وقصور هؤلاء.

ان كل من يمتلك الضمير وذرة من المروءة والشهآمه كيف يتغاضى عن حب الشعب والوطن، ويعيش بخشوع وخنوع ويقضي ايامه ويموت اخيرا في مذلة ودناءة، كل ذلك من اجل مكاسبه الشخصية!!

***

حوالي الساعة الخامسة مساء، دق جرس الباب، لقد عرفوا بان ضيوفهم قد جاؤوا، وهم ايضا تهيأوا وقد انطلق كل واحد منهم من غرفة وفتحه، ذهب من الطابق السفلي توفه والآغا الرضائي ففتحا الباب، وان احدى واثنتين من النساء وصلتا الى الطارمة والايوان اللذين كانا يطلان على الباحة، وقبل وصول الضيوف اقحم احدهم الباحة بسلة كبيرة من الورود الجميلة للغاية، حيث ان الرجل قد حملها بشق النفس وتابعه شخص آخر حاملا علبتين ثلاث من الحلويات والنقول، لقد حط الرجال حمولاتهم ثم خرجوا، يبدو انهم اما سواقهم

او خدمهم، وبعد ذلك دخل الضيوف البيت وقد بلغت حةثسةخان وعلي وبيستون الى عتبة باب الحوش.

دخل شوكت آغا البيت وكان ماسكا يد احد ابنائه الذي كان في السابعة من عمره، وكان مرتديا زيا اسود في غاية الغلاء، وكانت حذاءاه تلمعان مثل المرآة، وكانت ربطة عنقه قد اشتريت بثمن بدلة رجالية، وقد حلق صدغيه بشكل قصير قصير، ولم يبق فيهما الشعر الابيض ما استطاع اليه سبيلا.

وبعده دخلت زوجتاه مع طفل آخر البيت، في البداية تقدمت زوجته الكبرى التي كان اسمها آسكول خان فالقت التحية وسألت بحرارة عن الحال والاحوال، ولو ان الجو في ذلك اليوم لم يكن على قدر من البرد بحيث ترتدي ذلك المعطف الضخم من الوبر الذي كان من اغلى المعاطف، وقد وصل الى ما تحت ركبتيها. وقد صبغت شعرها بالصبغ الاصفر، وكانت تشبه بانها قبل قليل كانت راجعة من صالون حلاقة النساء لتصفيف شعرها، لقد اسدلت شعرها على كتفيها، وقلمت وعدلت خداها وشفتاها وذقنها وجيدها وعيناها واهدابها جميعا وصبغت.

تقدمت آسكول خان بضحكة متثاقلة وعلى رسلها من حةثسةخان، وهجمت بيد مملوءة بخواتم من الماس اللامعة البراقة على يد حةثسةخان وصافحتها بشكل عصراني والصقت خدها برقة بخدها.

كانها تقبلها على ما اظن، وكذلك صافحت الابناء. وبعدها تقدمت ضرتها قدرية خان، لانها كانت اصغر واكثر شبابا من ضرتها، وكما ترغب هكذا تظهر نفسها هي شابة لاتشعر مثلها بالبرد.

لذلك كانت مرتدية ثوبا ضيقا من الحرير الذي لصق كله بجسمها، وقد زركش صدرها كله بالحراشف الحمراء والوردية والبيضاء، وكانت على درجة من العري، بحيث كان نصف نهديها ظاهرين للعيان.

لقد قلدت قلادة جميلة جدا من اللآليء واليواقيت، كما شنفت اذنها بقرط ولبست السوار من نفس الطراز، وكان على كتفيها قطعة صغيرة غالية من الوبر، ولم تكن حقيبتها وحذاؤها وكذلك العائدة لضرتها آسكول خان في الحسبان حيث كانت على قدر من الجمال وعلى احدث طراز عصراني، صعد جميع الضيوف ببريقهم ولمعانهم الاخاذ وعطورهم الفواحة وبالخدم والحشم والاطفال المزدانين نحو الطابق العلوي واتجهوا نحو غرفة الضيوف وبدأوا بالسؤال عن حال واحوال كلا الحاجبين واهل البيت.

لم يبق في الباحة احد باستثناء توفه، لانه هو الوحيد الذي لم يصعد الى الاعلى معهم، لقد احتار توفه واضطرب ولفته دوامة، فلمس علبة سيجارته بذهول واخرج منها سيجارة فوضعها بين شفتيه وهز رأسه ومد يده الى جيوبه بحثا عن شخاط. وكان يبحث عن هذا الجيب وذلك كانه انذهل واصاب بالدوار.

قال مع نفسه بفم مغلق بالسيجارة:

– يالها من آسة وقدة، يالها من آسة وقدة كرر ذلك مرارا في خفاء، وقد دندن عدة مرات ثم اشعل سيجارته واقترب من الدرج، والقى نفسه عليه في ذلك البرد وقعد، لكنه سرعان ما نهض، واخذ يتمشى والسيجارة في فمه، لكنه رمى سيجارته فجأة على الارض وداسها بقدمه ومد رأسه وجامانته، وسعل بخفة سعالا سعالين وصعد بنشاط الدرج متوجها الى غرفة الضيوف، لقد رأته صبرية في الغرفة، لذلك نهضت بسرعة وانطلقت الى الخارج فامسكت تلابيبه وقالت له:

– تعال عزيزي توفه عندي شغل معك.

لقد خافت صبرية من ان يدخل توفه الغرفة، يوجه الطعن والتشهير الى الضيوف، لذلك قدمته بسرعة وذهبت به الى غرفة اخرى بحجة الشغل.

ثم القت عليه نظرة بابتسامة حلوة وقالت:

– عزيزي كاكه توفه، امانك لاتتكلم شيئا، عيب انهم ضيوف، خاطر الله احذر من لسانك، والا سننفضح بعد ذلك! هز توفه من جديد يده وقال:

– يالآسة ويا لقدة!!

نظرت الى صبرية وقال مستغربا:

– صحيح ما قاله الرجل اذا ما رايتموهم لن يتعرفوا عليهم، فقلنا عجبا لماذا يقول هكذا؟

خفتت صبرية صوتها ثانية وقالت:

– اواه في سبيل الله عزيزي توفه، لاتتكلم ابدا الى ان يذهبوا، والله لو تتفوه بكلمة فان والدي يتألم جدا، وانت تعرف بانه مريض لئلا يقلق ويضجر. وبعد ان يذهبوا كما ترغب سنسخر منهم كيفما نشاء.

اعلم انك متحير منهم، والله انا اكثر منك، ولكن ايا يكونوا فهم ضيوف، يجب على الناس احتراما لانفسهم ان يحترموا الضيوف.

بعد ان اطمأنت صبرية من ان توفه يسكت، عندئذ تركته وعادت الى حيث الضيوف، كما ان توفه نزل الى الاسفل عند بةختيار وسمه وكاوه وكامران. وهناك اخذ يتكلم معبرا عن استغرابه، وشرع يوجه الطعن والتشهير الى الضيوف ذاكرا للابناء ماضيهم، وكان الاولاد يضربون يدا بيد مستلقين على ظهورهم من اقواله. وكان بةختيار يكتفي فقط ان يقول:

– حبيبي كاكه توفه على رسلك، فها ان سائقهم وخدمهم في غرفة الآغا الرضائي يسمعون اصواتنا، انه عيب.!!

***

جلس الضيوف الى وقت متأخر، لكنهم اكتفوا فقط بشرب الشاي واكل الحلويات والفواكه. كما ان كلا الحاجيين قاما بحجة اداء الصلاة وذهبا الى غرفة اخرى. استغفر حاجي مجيد مرتين ثلاث وقال هامسا لاخيه:

– الا يا اخي لماذا فعلت تلك الامرأة هكذا من نفسها، فحين انحنت لابنها كان كل جسمها مكشوفا، اجابه اخوه هامسا:

– بالله العظيم حين اقحموا الغرفة، لم اشخص شوكت بأي شكل من الاشكال، فكيف بزوجتيه اللتين لم ارهما على قدر ما، اخذ كلا الاخوين يتكلم كلاما غير مسموع ويتناقشان وقد استغربا من ان هذا الرجل المعدم الفقير الحيال المخادع كيف اصبح هنا هكذا؟

***

واخيرا نهض الضيوف للعودة الى البيت، بعد ان دققت قدرية خان مرارا النظر في ساعتها اليدوية من الذهب ذات الآلاف من التومان وقالت:

– عليه ان نقوم، لقد عاد الآن الاطفال من السينما، على الرغم من وجود جدتهم والناس الكثيرين في البيت، ولكن ان لم نكن هناك يجعلونه يومهم الخاص.!

قالت حەپسەخان واختها والاخريات مرارا:

– لايزال الوقت ليس متأخرا، اجلسن بعض وقت آخر، لكن دون جدوى فانهن قمن ليذهبن. ولأن آسكول خان كانت سيدة العائلة والناطقة باسم زوجها وضرتها، التفتت الى حةشسةخان والاخريات قائلة:

– لأن كاكه علي والاولاد يجب ان يعودوا بعد غد، اذن ينبغي ان نكون غدا في خدمتكم، وعليكم ن تتشرفوا الى بيتنا. سنرسل نحن مساء السيارة اليكم، لابد ان تأتوا جميعا بكامل افراد العائلة.

رد عليها كاكه علي قائلا:

– والله نرغب كثيرا، ولكن بقي لنا من الوقت فقط غدا، يجب ان نهيئ انفسنا، ليكن لموعد آخر لاداعي لتلك المشقة!

انتفضت هذه المرة قدرية خان وضربت صدرها العاري بيدها، وفتنت عينيها وقالت بخنج ودلال:

– كيف؟ بالله ان هذا لايكون ولن يكون، بذلك القدر من القسم وبذلك القدر من القرآن، لابد ان تأتوا ولو لساعة واحدة.

وهم اضطروا ان يقولوا حسنا، سنأتي ونشكركم جزيل الشكر.

ان البعض من اهل البيت ودعنهن الى امام باب الباحة، وبعض الاخريات مثل روناك ونةوبةهار ونةسرين مازالت الاضياف كن في الباحة حين بدأن بتقليدهن وقهقهن ضاحكات عليهن، لقد قضت تلك الليلة الى وقت متأخر جماعة حةثسةخان واختها بنات وبنين بتناول موضوع عائلة شوكت آغا.

كانت آمه خان تقول:

صدق عمل الله، كل هذا لاضير فيه، ولكن قولوا انتم كيف اصبحت يدا واصابع آسكول هكذا بيضاء رقيقة جميلة، وحين كانت في السليمانية، كأن يديها واصابعها ليفه!!

كانت آمه خان تقهقه ضاحكة وتقول:

– كانت اظافرها طويلة بقدر قرن شيطان، وي ما اشد تجشؤ قلبي من امثال تلك الاظافر الطويلة، كانت حەپسەخان تتكلم بمهارة وترد على اختها وتقول:

– يبدو انها في البيت لا تمد يدها الى اي شغل وعمل، والله اعلم كم خادمة عندها، لأن اي شيء لايشوه يدي واصابع المرأة المسكينة بقدر غسل الملابس وغسل المواعين والقدور، خاصة اللواتي يخلطن الرماد بالماء والصابون، غطت حةثسةخان فمها بطرف وشاحها وقهقهت ضاحكة وقالت:

– والله لاضير على الايدي والاصابع، يقولون لاتفيد لأي شيء ولا تشتغل، ولكن قلن لي انتن، بأي شيء اصبح شعره كثيفا طويلا جميلا هكذا؟ وقد كان يشع اشعاعا. سخرت صبرية بكثير من المهارة وقالت:

– ان الله يعلم كم مبلغ دفعت. الى مصففة الشعر، وكم من الوقت جلست تحت يديها حتى جعلتها هكذا!!

كل ذلك حيلة، يرتبون لهن في تلك الاماكن ويملؤون لهن وينثرون عليه الادوية لكي يبدو هكذا، والا فانظري اليها حين تخرج من الحمام، عندئذ تعرفين هيئة رأسها وشعرها وحالها واحوالها، كما انهن يستخدمن اشياء كثيرة في

عيونهن وحواجبهن، طبقة فوق طبقة وما اكثر انشغالهن والا فانهن في الحقيقة لسن هكذا، فكلها رسوم بالقلم ومصطنعة.

– في تصوري، فان هذا البيت، وهذا الرجل يكونان في شغل شاغل والا فان عملهما لايشبه التكسب والتجارة، ان هذا اي تكسب وشغل يجعل من المرء خلال ثلاث سنوات هكذا؟

ان هذا العجين يتطلب ماء كثيرا.

واخيرا بدأوا مجددا، فكل واحد كان يقول شيئا ويروي عنهم شيئا آخر.

كان توفه يتحدث لهم بشوق وحرارة عن (خوله القصاب)، كيف تشاجر مع شوكت آغا في يوم من الايام، ورمى طاقيته في الوحل بسبب نقود دين اللحم التي تراكمت عليه، كان لابد من تسديد ذلك الدين الذي كان يماطل فيه ويؤخره من ذلك اليوم الى الغد وذلك الاسبوع الى اسبوع آخر.

نظر نةورؤز بابتسامة الى علي وقال:

– يبدو ان الجماعة لن ينقطعوا حتى شهرين آخرين عن هذه الاقوال والموضوعات يكررونها دائما، ويفكرون دوما بأي شيء اصبحت هذه العائلة هكذا، هلم قل لهما الحقيقة لئلا يتمادوا فيه الى هذا القدر.

التفت توفه الى علي قائلا:

– أها وحق قبر ذلك كاكه احمد الشيخ ان لم تقل لنا؟! ضحك علي وقال:

– عليه عزيزي توفه، يجب الا تعاتبني اذا قلت لك، ان لا يلوم لسانك تذكرهم من هذا الطرف وذلك الطرف بانهم كانوا ايام زمان هكذا، هو هكذا فان المرء ليس ثورا يبقى دائما في جلد واحد، فما علينا نحن، فلكل شخص طريقه الذي يسير عليه.

لم تلذ حەپسەخان هذه المرة بالصبر، فنظرت الى ابنها وقالت:

– ورأس ابيك وعمك هذين، ان لم تقل لنا. والله ليس لتوفه ايضا شأن فيهم، نريد فقط ان نعرف ما هذا السيل والسلطنة التي تنهمر على هذا البيت؟ رفع علي يده قائلا:

– تريدون الصدق ان هذا الرجل اصبح عميلا للشاه وساواك تماما، اذن كفوا عني.

قال عمه:

– لماذا هل للشاه رجال قليلون هنا؟ كيف هو عثر عليه؟

قال علي مبتسما:

– يبدو انكم لاتتخلون عن احد الى ان يحكي لكم من الالف والباء، لذلك بدأ علي برواية موضوعهم كما سمعه من كثير معارفهم الذين كانوا محل ثقته في حينه ومن بعد سقوط النظام الملكي في العراق. حيث اوجس شاه ايران خوفا كثيرا من ان يفعل الناس عندهم هذه المماثلة، لذلك ان اي شخص كان يهرب من جهة العراق الى هذه الجهة معبرا عن احتجاجه واستيائه من النظام الجديد وثورة تموز، كان جهاز (الساواك) سرعان ما يحتضنه، وحينذاك هو عندما حدثت له قضية مع ذلك الرجل لاذ هو واخوه بعائلتهما جميعا بالفرار الى جهة ايران، وكان قائلا بانه هارب من بين يدي النظام، لانه مستاء من هذا النظام الجديد، ولانه كان لهم شهرة في حينها حيث كانوا من الاغوات، فعليه تصوروا بانهم عثروا على النحل في الشجرة.

هزت صبرية راسها وقالت:

– كنت اقول انه ليس عمل التكسب ومن هذا القبيل، ان هذا له لف ودوران كبير.

ضحك بيستون وقال:

– اي تكسب؟ فهناك كاسب يتصبب عرقا طوال السنة ومع ذلك يتمكن بشق النفس ان يعيش هو وزوجته واطفاله حياة البؤس والشقاء، وثمة آخر يجعل

كل ما يمتلكه راس مال ويستدين ما استطاع اليه سبيلا وينكب على الكسب، في حين تراه فجأة يخسر ويتضرر الى درجة يفقد ماله وحاله.

***

في اليوم التالي اخذ علي والابناء استعدادهم، كانوا يلمون من جهة الحقائب والامتعة. لانه كان لابد من العودة في الصباح الباكر، ومن جهة اخرى كانوا في جدال ونقاش مع افراد البيت لان اكثرهم كانوا يقولون بانهم لا يريدون ان يذهبوا مساء الى دعوة (شوكت آغا).

سرعان ما قال كلا الحاجيين:

– يا جماعة لا تدخلونا نحن، فهناك ليس مكاننا، التمس منكم ونتوسل.

قال حاجي مجيد بابتسامة هادئة ورزنة:

– لقد فات الاوان اذ انكم وعدتم بذلك، فلابد ان يذهب البعض منكم.

قال بيستون:

– بالله انا لا اذهب ابدا، لا اتحمل تباهيهم وتمثيلهم. وكان يقول في نفسه:

– غدا اعود الى موقعنا، بقيت امامي كلها ساعات، لماذا لا اقعد مع روناك الحبيبة، واعانقها حتى اشبع، واضيع تلك الساعات بالسماع الى اقوال هذا الرجل العميل وزوجته العروسة الراقصة.

يبدو ان بيستون وروناك قد اتخذا قرارهما مسبقا بان لا يذهبا الى تلك الوليمة، كل واحد منهما بحجة، ولا يضيعا الساعات التي بقيت امامهما، وكانا يطلبان من الله الا تنتهي الايام، وتكون الليالي كل واحدة طويلة بقدر سنة واحدة لكي يكونا دائما متعانقين ويكونا معا. حيث لم يكن لحبهما حد.

كانت صبرية قائلة قبل الجميع بانها لاتذهب، واخيرا رست الموافقة على حەپسەخان واختها آمه خان ونەوبەهار ونەسرين وعلي ونەورۆز وكذلك ابن خالتهم سمه الذي كان على اتم استعداد وتلبية دائما لدعوة الاكل.

لقد تراجع توفه قبل الذهاب معهم وقال مرتبكا:

– اي والله اما كان كافيا حين تذكرت بانه يجب ان اذهب مع كاك عبدالله لنسجل اسمينا في المدرسة!

قهقهه الجميع مرة واحدة بالضحك وقالوا باستغراب:

– مدرسة؟! اي مدرسة؟

سعل توفه بخفاء وقال:

– نعم مدرسة، الا يجوز ان يذهب المرء الى المدرسة؟ ضجت النساء والرجال بالصراخ والمزاح والفرح، علقت صبرية من بينهم وقالت بابتسامة جذلة:

– لماذا أوهناك شيء احسن من المدرسة؟ ولكن كيف واين واي مدرسة؟

انتصب توفه قائلا:

– قالوا في المدرسة لابنة سيد محمد (روخسار) يجب على كل تلميذة ان تأتي برجل امي من اقاربها ومعارفها الى المدرسة. لكي يتعلم القراءة والكتابة. حتى اذا اتت به من الزقاق، والا فان هذه التلميذة تعاقب، لذلك فهي تأخذني وكاك عبدالله لكتابة اسمينا. تحدث كل واحد من الجماعة من جانبه كلاما، ذلك قال:

– بالله هذا شيء حسن جدا.

والآخر قال:

– اشهد بالله ان هذا قرار جيد، مرحى مرحى للشخص الذي قال ذلك.

وقال الثالث:

– كيف يمكنك ان تفعل ذلك، فانت لا تعرف الفارسية لكي تتعلم القراءة والكتابة! قالت آمه خان في خفاء:

– آه ويل لوالدنا، كونك اميا ناطق ودليل وكبير المحلة، فماذا تكون حين تصبح متعلما؟!، والله لا ينقصنا شيء غير ذلك!!

كانت حەپسەخان تفور في خفاء من شدة ضحكها،لكنها ما كانت تتجرأ ان تقول شيئا خوفا من توفه، تهيأت الجماعة للذهاب الى ذلك البيت، وكان توفه منهمكا بترتيب سيمائه وجامانته، وهو ايضا اخذ سمته نحو صديقه عبدالله.

***

وصل علي وامه والآخرون الى امام بيت شوكت آغا، بعد ان مكثوا مدة في داخل السيارة، لان بيت هؤلاء كان في هذه الجهة من مدينة طهران، وبيت اولئك من تلك الجهة. وكانا متباعدين احدهما عن الآخر لدرجة ان آمه خان اضطربت وتجشأت وكانت تفتش جيوبها بصمت عن خرقة وقطعة قماش، ومن حسن الحظ تمالكت نفسها فوصلوا الى المكان المعين قبل ان تتزوع، ولكن لم ينزلوا بعد حين اصبحوا في هم العودة، فتح البواب الباب على مصراعيه لكلتا السيارتين، وقد تتابعت الجماعة واحدا تلو الآخر، فوقفوا امام شرفة الدار وايوان كبير واسع وفرح الذي كان يطل على حديقة كبيرة فسيحة مملوءة بالاشجار الفخمة.

يبدو ان صاحب الدار قد رآهم من النافذة، لانهم انطلقوا بسرعة الى الخارج وبدؤوا بالترحيب والتفضل.

بعد تقديم التحية والسؤال عن الحال والاحوال وتوزيع وتبادل الابتسامات، دخل الضيوف البيت.

اي بيت؟! ذهلت الجماعة ومع ذلك حين ارادوا ان يتظاهروا اذا ما رأوا مئة بيت من هذا الطراز (فلن يلتفتوا اليه ابدا) بينما مع ذلك اثناء الدخول والرد على الترحيب كانوا يديرون بذهول عيونهم في خفاء وينظرون الى اثاث البيت.

بدءا من الباب الخارجي الى الدهليز والقاعة وغرفة الضيوف كلها كانت مفروشة بالسجاد الكاشاني الفاخر، وقد تدلت فوق رؤسهم مصابيح الثريا تميل اعناق الناس، فالقنفات والارائك والموبيلات وستائر الغرفة لم تكن في الحسبان، كانت الخادمات والخدم في ذهاب وايباب، كانت هذه تأتي بعصير

الفواكه والآخر يسحب مائدة الويسكي والثلج، لم يمض وقت طويل وبعد الاستراحة التفت شوكت آغا بضحكة مصطنعة استعراضية الى علي ونەورۆز والنساء وقال:

– ماذا تتفضلون؟ كل شيء موجود من فضل الله ورؤوسكم، والتفت الى علي قائلا:

– عندنا العرق المستكي اذا كنت تحن الى الوطن.

تحركت آمه خان بعض الشيء وقالت في نفسها:

– اوه، ان شاء الله يبدؤون امام انظارنا بشرب العرق دققت حەپسەخان نظرها في علي لتعرف ماذا يقول. كان رب البيت يواصل تعداد انواع الويسكي والمشروبات الاخرى لعلي ونەورۆز والابناء الآخرين حيث انهم لم يسمعوا بالكثير من تلك الاسماء قط.

اخذ علي بابتسامة حلوة يجيبه رافعا يده قائلا:

– شكرا جزيلا، والله لا ننوي شرب اي نوع من المشروبات، لانه يجب ان ننهض صباح غد في وقت مبكر لكي نسير.

تنشط شوكت آغا ثانية وقال:

– ماذا يعني، كيف اقبل انا هذا، هل لابد ان تسافروا صباح غد مبكرا؟ فليكن ظهرا.

اجابه علي قائلا:

– كيف ذلك؟ فليس عندنا صلاحية، اجازتنا محدودة، تأتي سيارة الجيب صباح غد لاخذنا.

اطلق شوكت آغا قهقهة عالية والتي افزعت آمه خان، فقال:

– ذلك يكون على عاتقي، فحالا اخابر (العميد جعفري) الذي هو مسؤول عنكم واكثر من اخي، اترغبون ان يؤجل سفركم الى ما بعد غد، لم ينتظر الرجل رد علي والآخرين، التفت الى باب الغرفة ونادى بصوت عال قائلا:

– آغا (مشهدي) ـ آغا (مشهدي).

بفارسية مكسرة كأنه يتكلم بالكوردية.

– اجل سيدي تفضلوا آمروا.

والآغا الذي لم تنقطع الابتسامة على شفتيه قال كمن يصدر امرا:

الا هات هذا التلفون!!

انتفض علي قائلا:

– لا.. لا.. لا والله لا ارغب لنا اشغال كثيرة، يجب ان نعود بعجلة، غدا في الوقت المحدد لنا.

تجادلا فترة من الوقت، وهو كان يقول اذهب هات التلفون، وهذا كان مرتبكا ويقول لا ارجوك لا تخابر احدا، واخيرا لم يدعه علي بعد ان عرف رب البيت بانه يكاد يقلق كثيرا، عليه هو ايضا تخلى عن التلفون والمخابرة خاصة بعد ان تعهد علي ونەورۆز والآخرون بانهم مستعدون ان يشربوا كل شيء مجرد ان يتخلى هو عن ذلك.

***

وضعت قدرية خان رجلا على رجل، فكانت تمد يدها سريعا سريعا الى شعرها المصبوغ باللون الاصفر. وكانت توزع الابتسامات، وحين علي وزوجها انهيا الجدال اندفعت ونهضت على قدميها وقالت:

– اذن باسم الله لأصب لكم.

قال لها زوجها احسنت والله ان لم تكن تكليفا صبي لنا بيديك الجميلتين هاتين، اثمة احلى من ذلك؟

مدت حەپسەخان يدها الى راسها ووشاحها، ونظرت الى اختها وقالت: (واصرختاه فها يوشكون ان يبدؤوا والساقية هي قدريەخان) صبت قدريةخان للرجال والتفتت الى النساء وقالت:

– ماذا تتفضلن انتن؟

اجابتها حەپسەخان قائلة

– شكرا جزيلا فنحن الآن شربنا العصير.

تحركت قدريەخان وهزت رأسها وضحكت ضحكة رقيقة وقالت:

– كيف لاتشربن شيئا، التفتت الى نةوبةهار ونەسرين قائلة:

– تستثنى حەپسەخان وآمه خان، انهما كحماتي تصليان ومتصوفتان، وانتما؟

احتدت آمه خان كثيرا وجحظت عيناها، ونظرت بذهول الى نەوبەهار ونةسرين لتعرف ماذا تقولان، قالت نەوبەهار:

– اوه يااختي فاننا ايضا نصلي ومتصوفات، لماذا، فانت تذكرين اي شيء نشربه؟!

التفتت هذه المرة آسكول خان بابتسامة الى نةسرين ونەوبەهار، وقالت:

– يا بنت من اين ظل الآن زمن ذلك، فالعالم تقدم وانتما جاهلتان، اشربا جرعة شيئا.

اضطربت حەپسەخان وكادت ان تتكلم، لكن نەوبەهار ونەسرين لم تفسحا لها المجال، اجابتا معا قدريةخان وناسكول خان، تقدمت نەسرين وقالت..

– والله ان يكن العالم متقدما الف مرة من هذا القدر، فنحن من هذه الناحية قرويات ومن انسان العصر الحجري! وقالت نەوبەهار ايضا:

– نحن كورد، لنا عادات وتقاليد واخلاق خاصة، ومدت يدها الى المائدة وقالت بضحكة خافتة:

– اوه انشرب هذه؟

اطلقت قدريەخان قهقهة عالية رقيقة وهزت احدى كتفيها وقالت:

– ونحن ايضا كورد، لماذا، يجب ان يكون الكورد الى آخر الزمان متخلفا هكذا؟!

قالت نەسرين والتي يتقطر منها الحياء والاحترام بابتسامة حلوة:

– اذا كان شرب الخمر والويسكي علامة التقدم والتأخر اذن اعتبرونا متخلفات.

قالت حەپسەخان في قلبها:

اوه يابنتي فداء روحي ياربي لحلقك، وكادت تمتليء وتغرورق عينا آمه خان بالدموع من فرحة اقوال نەسرين ونەوبەهار.

بدت قدريەخان متضايقة من ذلك الكلام والموضوع والمحاكمة، لذلك اخذت كاسا والتفتت اليهن وقالت:

– والله يا اخوات كما ترغبن، ولكن نحن لا مرد لنا فنشرب شيئا صغيرا.

علقت آمه خان بسرعة قائلة:

– هنيئا مريئا لك ياربي، واكملت كلامها بوجه بشوش وقالت:

– والله ياعزيزتي لا تقولي ذلك لبناتنا.

قالت آسكول خان ضاحكة:

– والله نحن ايضا علمنا الاضطرار، لان هنا يعد عيبا ان تذهب الى الجلوس ودعوة الرجال الكبار والاعيان ولاتشرب، كانت قدريەخان منهمكة باعداد قدح للشرب لنفسها وضرتها، التفتت اليهن وقالت:

خاصة دعوات (بلاط صاحب الجلالة).

كادت آمه خان ان يغمى عليها حين رأت ان آسكه خان اخذت كأسها من قدريةخان، وشكرتها مرارا.

انزعجت حەپسەخان واختها من تلك الجلسة وكانتا تتبادلان النظرات باستمرار وكانتا تفركان الايدي في خفاء، فكرت آمه خان فجأة كأن باب الجنة قد انفتح لها، بان قدرية قد تحدثت عن حماتها تلك المرة في بيتهن وكذلك قالت الآن:

– يجب ان تكن مثل حماتي متصوفات.

اذن يجب ان تكون خەجيج خان هنا.

قرأت آمه خان في قلبها دعاء والتفتت الى كلتا صاحبتي البيت وقالت:

– الا صحيح كيف حال خەجيج خان؟ فاين هي ولماذا لاتبدو؟!

اخذت قدريه جرعة من الكأس فلطخت شفتها المصبوغة بالحمرة الاخرى وقالت:

– اتتفضلين حماتي؟ فلله الشكر في صحة جيدة، فهي تلك في غرفتها، وحين قلنا بانكم تتشرفون الى هنا، فرحت جدا واجهشت بالبكاء، لكنها لاتخرج على قدر ما، ترغب دائما ان تقبع في غرفتها.

انتفضت حەپسەخان كانها ارادت من الله ذلك وقالت:

– وي حبيبتي، أو خەجه خان هنا، شكرا لله، وافرحتاه اين هي لنذهب نحن اليها، دون ان يتكلم احد، نهضت واختها حالا معا وقالت:

– بالله عليك اين هي لنذهب اليها؟!

قامت آسكول خان وقالت

– ان لكما الرغبة الذهاب اليها، تفضلا.

سارت الاختان خلفها، قطعن قاعة ودهليزا، فذهبن الى حيث باب غرفة، دفعته آسكه خان وقالت:

– تفضلا فهي هذه.

دون ان تتكلم اية كلمة مع حماتها، تركتهن وعادت ادراجها الى الضيوف الآخرين، كانت خەجيج خان مرتدية ملابس كوردية، كانها جاءت توا من محلة صابونكةران في السليمانية، كانت جالسة في اعالي الغرفة ملوولة محزونة، وفي يدها سبحة، كانت منهمكة بذكر لا اله الا الله. كانت الغرفة صغيرة وجميلة ونظيفة، وفيها فرش وطنافس مفروشة.

وما ان رأت خەجيج خان ضيفتيها قامت بنشاط وفتحت لهما حضنها وهجمت عليهما بعينين دامعتين، وعانقتهما، مسكت هذه وتركت تلك، واجهشت بالبكاء الحار وانتابتها حالة غريبة.

لقد خافت حەپسەخان واختها من ان يحدث لها شيء، او يغمى عليها، لذا مسكت كلتاهما بذراعيها واجلستاها ثانية، وقعدتا الى جانبها. بدأت ثلاثتهن بالبكاء والنشيج بحرقة ولوعة، وكن يضربن افخاذهن وصدورهن وبدلا من الكلام كن يتحدثن عن غربتهن واحوالهن احداهن للآخر بالنحيب والعويل، لوسمع احد منهن كانت روحه تزهق، ويتصور بانهن جالسات في مقبرة تل سيوان!!

بعد فترة من البكاء والنحيب والرثاء التفتت اليهما كالمتوسلة قالت:

– فداكما روحي، رحبكما الله بالخير على كلتا عيني، لقد انيرت الدنيا لي، اظن انني لقيت كل اهلي واقاربي. كانت خةجةخان كما تذكرت انها استقبلت في الطريق هاتين المسكينتين بالرثاء والنحيب والمناحة ولم تدع ان تتنفسا وتتكلما، لفرط تأثرها ومعاناتها الحادة من ادارة ومعيشة السنين التي رافقت فيها ابنها هذا، حيث لم يطاوعها قلبها ان تبقى في المدينة والبيت وعند بناتها واهلها، بسبب ابنها هذا الذي كانت تحبه وتؤنسه اكثر من الجميع. لانه عندما مات زوجها، كان هذا الابن مازال صغيرا فربته يتيما، ولم يكن يعرف ابنها بان امه قد تركت كل اهلها واقاربها من اجل خاطره ومرضاة له، واخيرا يتعرض الى تلك الفضيحة ويبيع نفسه ويصبح عميلا ل(ساواك).

وكانت خەجەخان كأن باب الجنة قد انفتح لها حين رأت من اهل مدينتها ومعارفها القديمة تألمت وتهيجت جميع جروحها مرة واحدة، الامر الذي دفعها ان تحمل عليهما كأنها كانت غارقة في بحر بلا حدود، وهي الآن رأت شجرة ضخمة جدا ملتفة الاغصان والفروع، حيث هكذا رمت نفسها اليهما وتسلقت بهما، وفي نظرة خاطفة تلك تكاد تفرز لهما كل همومها وآهاتها خلال تلك السنوات، لذلك عادت خةجةخان الى رشدها وعانقتهما مجددا وقبلت مرات طرفي جانبيهما، وكانت تقول مع كل قبلة:

– وافرحتاه، فداكما روحي، اكاد اجن، واهيم على وجهي في الجبال لفرط ما احن الى (المدينة) كانت تقصد السليمانية. مدت خەجەخان قبضتها الى وجهها وصفعت نفسها صفعات، وتنفست تنفسا عميقا وقالت:

– اوه ليتني لم اكن باقية، اوه ليتني كنت مكسورة الرقبة دون ان ادرك هذا اليوم، حبذا باليوم الذي كنت اشتري الثوب والصاية بالدين وكنت ادفع شهريا نصف دينار للبزاز، وي ما اسعد حينذاك، وانا الآن قابعة في هذا البيت الواسع الرحب المملوء بالفرش والطنافس، بينما اصور نفسي اسيرة وسجينة، فاحسب كل يوم موتا، لايأتيني قريب ولا اي شخص او معارف.

واخيرا انفتحت خەجەخان الى درجة رغبت باسرع ما يمكن ان تصب لهما همومها وقلقها وانزعاجها.

ولو ان حەپسەخان واختها في حالة من الانقباض، وهما ايضا كانتا راغبتين ان تتحدثا عن بعض تغربهما وتشردهما ونكبتهما وتلك الطرقات الوعرة الشاقة وحياة الريف والكهوف وثغور الخوف من الطائرات، لكن دون جدوى، لان خەجيج خان لم تكن تترك لهما مجالا كأن البلوط قد انتفخت في فمها كما يقول المثل الكوردي وهي كرشقة الرصاص ودون ان تتنفس اخذت تتحدث عن نفسها قدر ما في قلبها من هم وحقد وكراهية.

دون اي تفكير وتحليل كانت تتحدث اليهما ما ينطق بها لسانها، وتعبر عن استيائها واحتجاجها وانزعاجها عن بعض خفايا واسرار البيت والاسرة بحيث مهما كانت درجة التذمر والغضب والانزعاج فان الناس يحافظون على تلك الاسرار في قلوبهم.

لان الشخص الذي يروي الموضوعات السرية الخاصة لأسرتها بهذا الشكل تنتقص ايضا هي من شخصيتها، مثل المثل الذي يقول: (اذا اطلقت التفل فانه سيعود الى وجهك!).

لكن خەجەخان ما كانت تكترث بأي فضيحة والانتقاص من الشخصية، فبدأت بتفريغ الهميانة. وحين كان تعرض ذكر كنتيها، كانت تطلق عليهما (الروسيتين).

استغربت حەپسەخان واختها، كانهما وكانتا في غفلة عمها، وكانتا تشفقان على هذه العجوز المسكينة حيث كانتا تتصوران بأن هي ايضا الآن تتمتع بالسعادة والهناء والرفاهية من فرحة هذا القصر والحياة المعيشية الصارخة الضاجة، وهي لايقر لها قرار من فرط النعم التي اسبغت عليها، وكانتا تفكران بانها قد نسيت المدينة واهل المدينة وجد المدينة، بينما صادفتا اي شيء وماذا شاهدتا وسمعتا!

شتت دقة الباب خيالهما واعادتهما الى رشدهما وصوابهما خاصة حين ظهر رأس قدرية خان من زاوية الباب.

كانت واقفة ماسكة خاصرتها بيد، وماسكة الباب بالاخرى. وقالت:

– وافرحتاه، شكرا لله لقد اشبعتن من الكلام القديم، فتفضلا لاكل العشاء.

علقت حەپسەخان فقالت:

– زاد تفضلك، ولكن والله لا انا ولا اختي لا نأكل العشاء، ان معدتينا حاشاك ليستا على مايرام، فاذا نأكل ليلا الاكل سنتقلب ونتلوى على جنبينا حتى الصباح.

قالت قدريه خان بابتسامة ندت على شفتيها:

– قولا اذن نخجل ان ناكل امام انظار الرجال. بدأت حماتها خەجەخان بالتسبيحات وقالت بصوت فيه شيء من العلو:

– لا اله الا الله ياربي توبة، استغفر الله، استغفر الله. انتفضت آمه خان ايضا كأنها تملكت الغيرة وقالت في نفسها:

– ما كل هذا التحجج والخجل من هذه المرأة المنتحلة شخصيتها وهذه حشرة القراد، لماذا لا تقولا اي والله لا نرغب ونكره ان نجلس مع شاربيكن الخمر وننطر اليكن.

ولو ان اولادنا ايضا يشربون احيانا، ولكن هم ايضا لهم اوقات واماكن معينة، يعرفون باننا نكره ذلك لذلك لايشربون امامنا قط ولا يزعجوننا، لذلك تنشطت آمه خان وقالت:

– والله فنحن منذ سنوات عشنا بين الپێشمەرگه، وكنا معهم دائما، ولكن الحقيقة لا نرغب في مثل تلك القعدات التي فيها المشروبات وما شاكلها.

لكي ترقع حەپسەخان اقوال اختها، ضحكت وقالت:

– اختي اننا من المصليات والقديمات، لا تهتمن بنا افعلن كيفما ترغبن، هزت قدرية خان رأسها وقالت ضاحكة:

– طيب لا ازعجكما بعد، اقول لهم ان ياتوا بالصينية اليكن هنا لكي تاكلا مع خجيج خان هنا، قالت ذلك وخرجت. قالت حماتها في قلبها:

– الله لا يزيد من يديك، كوني خجلة عند الله!!

في صباح تلك الليلة ايقظ حاجي مجيد حەپسەخان بان تنهض وتوقظ علي والابناء لانه يجب ان يسافروا، انتفضت حەپسەخان ولملمت نفسها بسرعة وتفقدت الغرف ونادت كل واحد منهم من خلال الباب.

استيقظ الجميع ودبت الصرخات والصياح وصرير باب الحمام ومكان غسل الايدي والاوجه. كما ان وقع الاقدام ايقظ اهل البيت والذين كانوا في الاسفل، وخلال تلك المدة وصلت ايضا سيارة الجيب الى امام الدار.

اكل علي، نەورۆز، بيستون بعجلة الخبز والشاي، وبدؤوا بالمعانقة وتوديع الوالدين واهلهم واقاربهم. مسحت حەپسەخان عينيها بيد، وبيدها الآخرى صبت الماء من ورائهم.

كما ان آمه خان في حالة قراءة (آية الكرسي) والنفخ عليهم، وحتى ان اختفت وتوارت سيارتهم عن الانظار، فهي كانت تواصل تحرك فمها بالدعاء وتدور حول نفسها منهمكة بالنفخ. ركضت روناك قبل الجميع وذهبت حالا الى غرفتها والقت نفسها على الفراش الذي كانت تنام عليه مع بيستون تلك الليالي، ركزت فمها على المخدة الكائنة تحت رأس بيستون وبدأت بالبكاء بحرقة.

واحتضنت نةوبةهار ايضا ابنها كوردو لاخذه الى الفوق فاشغلت نفسها معه قليلا على المدرجات الى ان خمدت حرقة بكائها، عندئذ تبدد خجلها من ان تعود ثانية الى اهل البيت.

***

عادت حەپسەخان والاخريات عند الظهر الى رشدهن قليلا، ولو انهن كن ينظرن الى ما حولهن بكثير من الحزن والالم، وكن يتصورن ان المدينة هجرت كليا للفراغ الذي تركه الابناء الى حد كبير، ومع ذلك فجئن بذكر وليمة الليل وسردها للذين لم يشاركوا فيها.

روت حەپسەخان بحرارة اقوال قدرية خان وآسكول خان واجوبة نةسرين ونةوبةهار لكلا الحاجيين، وتحدثن ايضا عن تكلم ومخابرة شوكت آغا بالتلفون.

وحكت آمه خان موضوع مناحة وبكاء واقوال خەجيج خان وكذلك موضوع اثاث البيت وطراز الدار المفروشة بالزرابي والسجادات، وضعت آمه خان يدها على فمها وانفجرت بالضحك قائلة:

– اغرب شيء من الجميع هو انني لم اتجرأ ان انظر الى آسكه خان بشكل جدي، لان ذلك الشعر الاصفر الذي جمعته على رأسها كان يبدو لي في نظري كقالب الكعك، وكان في اليوم الذي جاؤوا الى بيتنا احسن حيث كان متدليا على كتفها.

كان شعرها في هذه الليلة اشبه بقالب الكعك. لوحت نةسرين بيدها ونظرت الى امها آمه خان وقالت:

– حي حي لماذا اوتعرفين ما صرفت عليه من النقود جراء مارتبوا لشعرها!

ضحكت نەسرين وقالت:

– يطلقون على هذا (شنيون) وهي تسمية قالب الكعك!!

قالت آمه خان بابتسامة:

– يا جماعة باي شيء قص شعرها هكذا؟ والله في السليمانية خاصة حين كانت تأتي الى حمام (المفتي) حيث كنا نتلاقى كثيرا من المرات، فكان شعرها كله على جانبي رأسها شعثا، وكان جلد رأسها باديا كله.

ضحكت آمه خان من اعماق قلبها وقالت:

– يتبين ان النقود تجعل من شعر الانسان غزيرا.

اخذت صبرية تتكلم وقالت:

انكن لن تدققن النظر فيه جيدا، والآن ايضا كان شعرا على جانبي راسها، ولكن حين يذهبن الى صالون حلاقة النساء ومصففات الشعر يرتبن لهن ويملأنه ويستخدمن انواع الادوية والاصباغ وما شاكلها لكي يظهر هكذا.

***

كان توفه في ذلك ضجرا ومتضايقا جدا من اجل الاولاد حيث انهم سافروا، وقد اراد ان يخرج من البيت بعد سفرهم الى السوق، واخيرا اخذ سمته نحو الازقة والشوارع ولم يعد الى اليوم حتى ما بعد الظهر.

وحين عاد ذهب رأسا الى الطابق العلوي عند العائلة حيث ـــ في غرفة الجلوس.

اقحم توفه الغرفة ملولا محزونا صامتا، وقد جلس على كرسي منشغلا بسيجارته.

حين كانت صبرية تعرف كيفية وطبيعة وضعه النفسي، لو تضربه ضربة اصبع ينفلق، لذلك ارادت ان تتكلم معه بعض الكلام الحلو المعسول وتحاكيه لعل وعسى ينشرح صدره، ولهذا التفتت اليه قائلة:

– حبيبي توفه، ذهبت يوم امس ماذا فعلت مع المدرسة، فانت لم تتحدث لنا؟ واخيرا ذهبت ام لم تذهب، سجلت ام لا؟

بعد وقفة قال توفه ملوما محزون الفؤاد:

– اجل ذهبت.

اشفقت عليه حەپسەخان، وامتلأ قلبها هما والما حين عرفت مقدار انزعاجه وسآمته، لذلك هي ايضا اختلطت في الكلام تلقائيا وقالت:

– والله يا عزيزي توفه كنا منشغولات حدّ انني لم اتذكر ان اسألك، صدق كيف كان؟ وماذا فعلتم؟ مص توفه مصة في سيجارته باستحياء دون ان ينظر الى احد معهن وقال:

– ذهبت فسجلوا اسمي، يجب ان اكون هناك من يوم السبت القادم مساء كل يوم في الساعة السادسة حتى الساعة التاسعة. قالت صبرية:

– وافرحتاه والله ان مدتها طويلة، تتعلمون شيئا، واين موقعها؟ اقريب من هنا؟ وتوفه بدأ كأنه يرد على الاسئلة متذمرا.

– انها بعيدة مشيا على الاقدام، لكنها بسيارة الباص تستغرق فقط دقيقة واحدة.

قالت صبرية بفرحة:

– دقيقة واحدة لاشيء ابدا، اذن انها قريبة.

تنهد توفه آهة وقال:

– ياترى اي مدرسة؟ انا ايضا اريد ان اذهب لمجرد الانشغال والمزاح، احيانا لا اتذكر اسمي من هم وقهر هذه الدنيا، لا افعل الآن شيئا، أفي اواخر عمري اتذكر الدراسة والتدريب وتعلم الكتابة بالفارسية؟!

قال حاجي مجيد اثناء تسبيحاته بحزن وأسى:

– ليس ثمة عمل لا يسهله الله، لوذوا بالصبر الجميل قليلا، ان شاءالله تنسون كل هذه الاتراح والمكابدات، لا تزعجوا انفسكم الى هذا الحد ﴿قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا﴾.

قالت آمه خان بصوت خافت بملالة:

– فداء روحي لله، لقد اخذت افواهنا تفل وتكل من كثرة الاستنجاد به والدعوة اليه، كأنه استفغر الله تجاهلناوخذلنا ولا يسمع اصواتنا.

قالت اخته حةشةخان بنوع من الخوف:

– فداك روحي لا تقولي ذلك، لئلا يصيبنا الله بأسوأ ليكن اولادنا في الطريق سالمين. خاطرالله اجتنبوا اللاشكر فالاولاد في الطريق.

***

حين اكتنفت وتلبدت السماء ذات ليلة بالغيوم الداكنة السوداء. وكانت تمطر الرذاذ اثناء نسمة ريح باردة، عاد توفه الى البيت برأسه وسيمائه الملفوفين وقمصلة مبللة، وكان واضعا دفاتره واقلامه في كيس من النايلون وقد دسها في جيبه اتقاء من المطر، وما ان اقحم البيت حتى وان ذهب رأسا الى غرفته وسمايل والاولاد الآخرين، قام الاولاد استقبالا وترحيبا به. انتفض سمه الذي اصبح معلمه بابتسامة جذلة وقال:

– رحبكم الله بالخير، اود ان اعرف كم اخذت هذا اليوم؟ وهل اعطوك ثانية (احسنت)؟

القى توفه كيس دفاتره واقلامه على فراش نومه، وقال اثناء ما كان ينزع قمصلته:

– والله تشاجرت اليوم مشاجرة جيدة.

اثير الاولاد وقالوا بلهفة مرة واحدة:

– مشاجرة؟! مع من واين صادفت؟!

سعل توفه ثلاث مرات وكف عنه السعال! انزل جامانته وجلس على فراشه والتفت الى سمايل قائلا:

– اجل، صدقة على رأسك صب لي شايا.

وقد كان الاولاد على عجلة من امرهم ليعرفوا تشاجر اي مشاجرة، سابقهم بةختيار وقال:

– كاكه توفه من اين تعرضت للمشاجرة؟

اخذ توفه قدح الشاي بهدوء من سمايل وقال بحرارة:

– لقد تعرضت لها من المدرسة، مع المعلم الكلب ابن الكلب.

ثار الاولاد ثانية، اخفى البعض خوفا من توفه ضحكه، والآخرون قال كل واحد شيئا ووجه له سؤالا.

قال توفه اثناء شرب الشاي:

– والله يا اخوان كان يسأل اشياء، وانا كنت دائما رافعا يدي، اقام الجميع ولم ينظر الي ابدا، منذ شهر اذهب الى تلك المدرسة، لقد انهضني الى الآن مرة واحدة.

لم يتمالك بةختيار نفسه فاطلق قهقهة ضحك وقال:

– اخي لانك لا تعرف الفارسية جيدا، وهو يريد ان تتعلم بشكل مضبوط، حينئذ ينهضك.

نظر توفه الى بةختيار بطرفي عينيه شذرا وقال:

– لا والله ليس بسبب ذلك، معنا رجل تركماني لا يعرف كلمة فارسية مطلقا، فانا بالنسبة اليه عبقري في الفارسية، بينما ينهضه دائما.

قال بةختيار :

– طيب كما تعرف لماذا لا ينهضك؟!

شرب توفه جرعة من قدح الشاي، ومرة اخرى كعادته ابقى شرب الشاي في فمه مدة غمضة عين.

ثم ابتلعه بلذة وقال:

– اعـرف جيـدا لمـاذا لا يحفـل بـي ولمـاذا يكـترث بـالآخرين. لان الآخـرين يعطونه الرشوة. وان الذي ينهضه اكثر من غيره ويهتم به فهو غشاش سافل، لكنه عنده مطعم المأكولات والكباب، وكان كاك عبدالله يقول: انه يأخذ كل مساء المعلم معه الى مطعمه فيؤكله الطعام والكباب مجانا، كاد سمايل ان يغمى عليه لفرط ما ضحك ولم يكن يمتلك الجرأة للتعبير عنه، لقد ضغط على نفسه كثيرا بان يتمكن التكلم، فالتفت الى توفه وقال:

– طيب حبيبي كاكه توفه، وماذا عندهم الآخرون الذين كما تقول ينهضهم دائما؟

نظر توفه بطرفي عينيه اليه نظرة نارية وتوقف هنيهة كانه يبحث عن جواب ثم قال:

– وكل واحد من الآخرين ايضا عنده شيء، احدهم بائع الفواكه والآخر يعمل في المخبز، هز توفه يده بضجر:

– عليه، وما ادراني ماذا يقدم له ابناء الكلاب الآخرون؟ قهقهه الابناء مرة واحدة بالضحك ولم يتمالكوا انفسهم وهزوا له الرؤوس وقالوا:

– كلامك صحيح، كلامك صحيح يا كاكه توفه العزيز!!

***

اصبح الجو باردا تماما، خيم الشتاء برعده وبرقه ووجهه العبوس القمطرير في كل مكان.

وكان بيت حەپسەخان في اماسي السحب والمطر يشعلون المصابيح في وقت مبكر ويلتفون حول المدافيء والمواقد. وكانوا في معظم الاوقات متضايقين ملولين منهاري القوى، فكل واحد منهم كان يريد ان يشغل نفسه بشيء ما لعله ان ينسى هذه الوحشة والتشرد والابتعاد عن الوطن.

اشغلت حەپسەخان نفسها فترة من الزمن بالخياطة، وكانت تجلس وتقول:

هلمن يا بنات لأخيط لكن الملابس الكردية، أها ما اجمل وما ادق ثوبي الذي خيطته.

لقد اصبحت روناك امرأة يافعة فزاد جمالها وفتنتها اضعافا، فركزت جل اهتماماتها وخيالاتها على راسها وشعرها فلم تكن تمتلك وقتا كافيا الا ما ندر لتخضب راسها وشعرها بالحناء. وكان ذلك الراس والشعر الحناويين يليقان بها جدا.

كذلك آمه خان ايضا شبت على عادة، كما يقولون لو امطرت السهام فانها كانت تتحين فرصة، حيث كانت تلف نفسها بنشاط وكانت تذهب الى شرفة الطابق الاعلى في ذلك البرد وتقف في زاوية التي كانت تطل على سهل منبسط قليلا وواسع وعريض ومسور بنيت فيه الابنية ودور السكن حيث كانت تشبه طاحونة الكهرباء ومثل تلك الاماكن، وقد وقفت في باحتها عربات القلاب وسيارات الشغل او كانت في حالة التحرك.

كما ان دربا رفيعا يمر امام هذا السهل المسور الذي يمر به دائما سواد الناس وافراد عوائل العمال ومن امثال هؤلاء الاشخاص الذين كانوا ذاهبين الى الدكاكين والسوق وكانوا في النهاية يعودون الى بيوتهم بالاكياس والجعب.

كانت قلب آمه خان ينفتح بمشاهدة منظر ذلك السهل وهؤلاء الناس المتنقلين، ومهما حاولوا لمنعها فهي دائما كانت تتملص من بعد الظهر، وتذهب وترفع راسها للمشاهدة والتفرس والاستماع الى مشاجرة كاكه حاجي وزوجها ودمدمة اختها حةثسةخان والاخريات اللاتي كن يقلن لها ويتشاجرن:

ستبردين، وتتمرضين.

واخيرا وجدوا انه لامناص منها بان يتركوها وشأنها حين عرفوا بانها راغبة في ذلك الى هذا القدر. ولذلك حين كانت تعود الى الغرفة عند اهل البيت، كان كل واحد يسألها سؤالا بمزاحة، وهي كانت تبدأ بسرد ما شاهدت ولم تشاهد، من تزحلق ومن كبا على وجهه، وكيس اي امرأة تقطع ووقع من يدها وانتشرت

اشياؤها في تلك المنطقة، وكيف مرت دراجة بخارية هناك وركب الرجل امرأة متنقبة خلف ظهره، وما شاكل من مثل تلك الاقوال.

عادت آمه خان ذات مساء من رحلتها السياحية وتنزهها، وقد احمر وجهها، تشبه بانها قد بكت.

سألتها اختها بلهفة وقالت:

– اتنظرين الى نفسك ماذا حدث لك، واخيرا تمرضين نفسك.

قالت آمه خان بملالة:

– لا والله لم ابرد ابدا بل بكيت قليلا، لانني منذ ايام ارى امرأة تمر هناك كانها باجي پيرۆز الخبازة، وهي تشمر عن نفسها مثلها عندما تذهب الى السوق وتعود، كما ان بين كتفيها ومنكبيها محدودبا مثلها كانها هي فيسر قلبي حين اراها.

اشفقت حەپسەخان على اختها وقد انزعجت لها في قرارة نفسها كثيرا، وعرفت الى اي مدى تفكر اختها المسكينة بسذاجة في الوطن ومواطنات المدينة واهلها واقاربها، وحتى انها تنشرح حين ترى امرأة من بعيد وهي تشبه الخبازة باجي ثيرۆز.

اغرورق حلق حەپسەخان بالبكاء، وحين عادت الى حالتها الطبيعية انتابتها ضحكة مصطنعة وقالت:

– انه غريب وعجيب جدا، واخيرا لذلك يقولون فداء روحي لله انه خلق كل اربعين شخصا على شكل، والله ثمة اشخاص وكل واحد منهم من سكان بلاد ما وشعب ما، بينما سبحان الله ما اكثر التشابه بينهم.

استطردت حەپسەخان قائلة:

– الا هل دققت النظر جيدا في الفتى الذي يجلب لنا النفط؟

كان ذلك واقفا في الباحة ويتحاسب مع الآغا الرضائي ليدفع له الحساب، وما رأيته حتى وان ارتعدت فرائصي باسم الله كانه طبق الاصل لحسن الحدال، فاوشكت ان اقول: او انت يا حسن جئت ايضا؟!

اخذت كلتا الاختين بالضحك، ثم تحدثتا عن حسن الحدال ماذا حدث له الآن؟ وماذا يفعل؟ من المعلوم انه الآن كالغراب على اطناف السطوح منهمك بشكل متواصل بنثر التبن وحدل السطوح وفي الخفاء يشتم الحكومة.

تنفست واستنشقت آمه خان وقالت:

– اوه ليتني بحينذاك حيث كنت في الشتاء اجلس قبالة السماور منشغلة باعداد الفطور للحاجي والاولاد واذا بقعقعة حدل السطح ومحدلة حسن الحدال تتناهى الى سمعي، وكنت انشغل ايضا بتحضير الفطور له لاني كنت اعرف انه انهى عمله وينزل من السطح.

***

كانت نەسرين جالسة في حضور ابنتها (نازآ) بعينين محمرتين مغرورقتين بالدموع في الغرفة العليا، وكانت تضع على جبينها الخرقة المبللة.

لانها انتابتها حمى شديدة وقد احمر وجهها الرقيق الناعم المكتنز لحما، وقد استحالت خداها كالتفاح الاحمر، وبدت واهنة جدا، ولم تمر فترة ما على عودتها من عيادة الطبيب كان الجزع والكآبة والتعاسة يترشح من وجوه جميع افراد العائلة خاصة جراء مرض الطفلة التي كانوا يحبونها كثيرا حيث كانت حلوة الكلام طيبة المعشر، وكانت سلوى قلوبهم ومبددة همومهم، حيث كان الاطفال الثلاثة مفرجي كروبهم. لذلك حين كان يتمرض احدهم تثار عندهم مرة واحدة مكامن الحزن والالم والشعور بالغربة والاغتراب، ويدب فيهم الارتباك، فيصدف احيانا انهن كن يتشاحن ويتلاسن من قهرهن وهمهن على شيء صغير وكلام ساذج، كانت احداهن تقول:

_ ضعي الخرقة المبللة على جبين الطفل لكي يبرد جسمه قليلا. والاخرى كانت تصرخ من هناك:

_ اوه يادكتور سلمتك الى الله، ياناس اتركوه ليتعرق انه احسن من هذه الخرقة المبللة، يصاب بالزكام بتلك الخرقة، وكانت الأخرى تصيح من هناك:

_ خاطر الله اتركنه، نفذن ارشادات الطبيب هو يعرف كل شيء، لقد درس الاطباء كل تلك السنين ولم يصبحوا اطباء عبثا، وفجأة كانت حەپسەخان واختها تذكران علاجا قديما، ولم يكن يحظى بقبول البنات، فعندئذ كان يثار النقاش والجدال بينهن، وكانت نەسرين تمسح دموعها وتقول في نفسها:

_ تعالي فهمي وادركي، فان حسين منذ شهور لم يزرنا ابدا، فها انا اكاد اجن من اجل ابنتي وقد حرم مني طيلة ثلاثة ايام وثلاث ليال الاكل والماء والنوم، وهو نائم في اذن البقر لايعلم ما نحن فيه، وهو ينام ويأكل حتى يشبع، وكانت نەسرين تستشيط غضبا وتقول في نفسها:

– حقيقة ان اجر الام كثير وكل هم وحزن ومشقة ينصب علىالأم المسكينة وحدها، والاب يقعس صدره على الشيء الجاهز.

***

تماثلت الطفلة المريضة للشفاء، انشرحت قلوب افراد العائلة، واخذوا يسردون الاقوال التي اطلقوها حينذاك، من قال ذلك ومن اصبحت عصبية، وكن يطلقن قهقهات الضحك سريعا سريعا من كلام نەسرين التي قصت لهن، على ما يظن في ذلك اليوم الذي اخذت فيه وهي بةختيار وتوفه بنتها الى عيادة الطبيب وعادوا بسيارة الاجرة الى البيت، فعلى مقربة من زقاقهم قد اقعس توفه صدره واراد ان يتكلم بالفارسية قائلا لسائق التاكسي (آغا ئين كولان) اي سيدي هذا الزقاق ـ عبارة مركبة من الفارسية والكوردية.

***

ولو ان الايام مضت بسرعة، ولكن بسبب خيبة الامل والبطالة، كانت ايام عائلة حةثسةخان والآخرين تمضي وتمر بكثير من الخمول والتذمر، ولم تكن لياليهم تنتهي ابدا، وفي النهار كانوا يسترقون السمع لخبر وحادث مفرح ولرسالة واجوبة ابنائهم لعل وعسى تلقي في قلوبهم الامل خاصة ان الابناء بدأوا بارسال الرسائل لهم وهم بدورهم كانوا يردون عليها.

في اليوم الذي كانت تأتيهم رسالة احدهم لاي من افراد العائلة تنشرح قلوبهم، خاصة صبرية ونەوبەهار ونەسرين ورونـاك، اضافة الى الكلام الخاص لهن الذي لم يكن (يبحن) به، والآخر كن يقرأنه بصوت فيه شيء من العلو للعائلة حيث كان الجميع يجلسون دون ان ينبسوا ببنت شفة ليعرفوا جيدا ماذا كتب في تلك الرسالة. وبعض الاحيان اذا ما كتب احد الاولاد كلاما ولم يكن بمقدورهم قراءته او لم يكن الكلام واضحا عندهم يدور حول اي شيء، كان الجميع يقعون تماما في دوامة ويفكرون فيه مدة اثنين ثلاثة ايام، فهذا كان يخفض صوته ويقول:

– والله انهم يقصدون شيئا، ولكن لان رسائلهم تقرأ من قبل الدولة، ولم يتجرؤوا ان يكتبوه علانية، والله قد يحتمل والشكر لله ان يكون موضوعا سارا!!

والآخر كان يقول شيئا آخر، وهكذا كانوا ينشغلون الى ايام او الى ان تأتيهم رسالة اخرى بذلك الكلام، واخيرا كان يتبين بانه لاشيء ولم يحدث اي شيء، والكلمة التي لم يتمكنوا من قراءتها وشيدوا عليها بالخيال القصور والعمارات، قد (طفرت) منها نقطة او حرف اثناء الكتابة.

ذات صباح وردت اليهم رسالة شيروان الى صبرية حيث كان كاتبا لها ذكر نفسه وحسين بانهما يزورانهم اسبوعا آخر، ولهذا تأخرا لحد الآن، لان عائلة والد سيروان عبروا الى هذه الجهة، وهم في طريقهم وقد وصلوا الى (بانه)، لذا ذهب حسين وبيستون منذ اسبوع لاستقبالهم، لقد هيجت العائلة دفعة واحدة واصبحوا في هم وحزن.

فاخذوا يعللون كيف يكون هذا، بان هذه العائلة الكبيرة لبيت والد بيستون وكل هؤلاء الاطفال والكبار جاؤوا ولماذا جاؤوا بهذا البرد والزمهرير، فماذا حدث لهم ياترى، وماذا وقع، انهم فيما يتعلق بهم يريدون من الله ان يسمعوا كلمة سارة وتاتيهم بشرى التصالح، بينما يقولون الآن لقد هربت جماعة بيت بيستون وعبروا، كما ان والد بيستون ولو ان ابنه من الثيَشمةرطة وانه مكب على السياسة ولكن هو رجل هاديء غير منتم حزبيا، كما انه رجل معروف ومحترم في المنطقة، وحتى انه وقت القتال والنزاع والضجة كان يذهب هو مع الناس الآخرين الى كلا الطرفين للتوسط واخماد النار، ومع ان الطرف الآخر كانوا يعرفونه ويعلمون بان ابنه يعاديهم في هذه الحرب.

ولكن كان يحظى دائما بالاحترام من قبلهم، وحين عبرت الجماعة ظل هو في مكانه لانه كان واثقا من نفسه قوي الظهر، لانه كان يعرف لايتدخل احد في شؤونه، وان الطرفين يحترمانه ويتصلان به.

انتاب كلا الحاجيين والاولاد وخاصة روناك بالنسبة الى بيت حماتها الهم والقلق والحزن وقد اربكت خيبة املهم استقرارهم ولم يطيقوا صبرا لما آل اليه مصير تلك العائلة، فكانت تلك تقول:

– ياترى ماذا فعلوا بكل تلك الاغنام والمواشي؟

وكانت الاخرى تقول:

– الا الى من سلموا تلك الاحوال والاموال والخيرات والبركات؟

كانت هذه تقولها وتلك ترددها.

***

بعد عشرة ايام من وصول رسالة شيروان، وصل كل من حسين وشيروان ذات مساء الى طهران، وبعثا في البيت الدفء والسكينة وبددا القلق وعدم الاستقرار، تحدث شيروان وحسين بدقة عن موضوع والد بيستون والعائلة، حتى انهم وصولوا الى (هەمەدان) عند الپێشمەرگە، وهم منشغلون بانجاز الاقامة، وكذلك

وضحا لهم لماذا هربوا، وكذلك سرعان ما افهم حسين والده وعمه بان والد بيستون (هەمزه آغا) مريض جدا ومتردي الصحة، وحدث عنده النزيف مدة ايام، يبدو ان حسين اخفى هذا الكلام من النساء، لانه كان يعرف بانهن يبدأن الآن بالبكاء والنحيب والصياح والصراخ، ولكن روى لهم الموضوع الآخر حين كان الپێشمەرگه يحتلون آنذاك وفي الثورة النواحي ومخافر الحكومة، كانت الشرطة يسلمون انفسهم، لكي يثق الموالون للحكومة بانهم لايفعلون بهم شيئا، لكي تسلم مثل تلك المواقع الى الپێشمەرگه دون قتال، لذلك قرر قادة الثورة بتقديم الذين يسلمون انفسهم وخلطهم بالپێشمەرگه والاستفادة من تجاربهم وخبراتهم لكي لايخاف الموظفون الآخرون ويتصلوا بالثورة.

واخيرا تبين بان القسم الاعظم من امثال هؤلاء الناس هم من الرجال الذين اصبحوا مخلصين للثورة، ماعدا واحدا اثنين منهم حيث كانا من السفلة والانذال والمنحطين، ان احد المنحطين الذي كان معاونا للشرطة، تحين الفرصة ذات يوم، وكان مداهما زوجة پێشمەرگه شهيد بحجة مساعدتها واوشك ان يعتدي على شرفها، وكانت الامرأة ذاهبة بعجلة وبالبكاء الى المركز رافعة شكواها من ذلك المعاون، عليه فان بيستون وپێشمەرگه آخرين اصبحوا كالمجانين وانهالوا عليه بالضرب المبرح جراء ذلك.

ثم حين بدأت حرب الاخوة الاعداء، ونقل هذا المعاون الى المناطق القريبة من (ماوەت) وكان اول مهمة له هي ان يصل الى بيت هذا الرجل الطيب المحترم ليصب عليه جام حقده وغضبه السابق ويتحجج بحجج واهية، وعلى اثر ذلك وخوفا من ابنائهم واطفالهم لاذوا بالفرار بذلك البرد والزمهرير سالكين طريق الجبال، ومتوجهين فيما بعد نحو ايران.

لقد تلوت وتقلبت عائلة حەپسەخان والآخرون اياما أخرى من هم وقهر حادثة بيت بيستون، ولكن اخيرا اضطروا التعود والتكيف لذلك الخبر والانباء،

ككل الاخبار والحوادث المزعجة والمؤلمة التي حدثت لهم فيما سبق فاضطروا ان يكونوا صاغرين لها.

لم يكف حسين من مزاحه ومداعباته وكلامه المضحك، وما ان وصل الى البيت وبعد الركون الى الاستراحة قليلا ورواية اخبارهم وبيت بيستون اخذ يتحرك ويتكلم، فاستهل كلامه بدءا من توفه فيما يتعلق بدروسه ودخول المدرسة وانتهاء بسترة وبنطلون ابن خالته سمايل الذي اشتراهما من دكان البالة وكان يرتديهما حين يخرج من البيت، وحين كانوا يرسلونه الى الدكان القريب منهم يشتري لهم شيئا صغيرا كان يقول تريثوا قليلا حتى البس ملابسي.

***

قدم توفه شيروان وحسين امامه وكان يطوف بهما في البيت ويريهما السطح والايوان ويذهب بهما نحو الطابق السفلى والعليا، وكان يظهر نفسه كعارف وخبير ومدني وصاحب البيت وهما كالقرويين اللذين جاءا الى المدينة توا، ورأيا المدنية لاول مرة، وهما كانا يتجاهلان لكي يسر توفه بهما، وينفخ نفسه عليهما على قدر آخر.

في الوقت الذي كانوا واقفين في طرمة الطابق الاول كان توفه يهز يده بحرارة ويتحدث لهما عن المحلة والمنطقة. خرج(الآغا الرضائي) من غرفته مرتديا سترة وبنطلوناً مرتباً ومشمع المطر والقبعة والقفاز، حاملا بيده حقيبة سوداء صغيرة.

حين سمع (الآغا الرضائي) من توفه الذي كان يتحدث لكل من حسين وشيروان، وقف في الباحة ورفع راسه ونظر اليهم والقى تحية على الاولاد وقال لتوفه بالفارسية:.

– دربالك على باب الباحة والبيت الى ان اعود، ثم خرج.

التفت شيروان وحسين الى توفه باستغراب وقالا:

– من كان هذا؟

قال توفه مبتسما:

– كان هذا الفتى الطباخ الذي قبل هنيهة صعد الى الطابق العلوي وسلم عليكما واعطاني ماعونا من الفواكه.

قال حسين مستغربا:

– اكان هذا هو، اقسم بكوردستان ظننت ان موظفا حكوميا كبيرا جاء الى هنا عجبا بأي شغل؟!

ضحك شيروان وقال:

– طيب الى اين ذهب؟

قال توفه بحرارة وسخرية:

– ذهب الى الحمام الخارجي.

ضحك حسين ثانية وقال:

– والله كأنه أي مسؤول يذهب الى المطار يركب الطائرة، سعل توفه قليلا، واثناء سعاله قال:

– وكيف، اذهبوا وانظروا الى غرفته، انظر الى اكله وطعامه كيف يزين مائدة الطعام لنفسه، يصب في البداية كل ما يوجد من لهنة المطبوخ لنفسه ويصفف الملعقة والشوكة والسكينة ويغسل وجهه وفمه وينزع ملابس المطبخ ويعلق حول عنقه منديلا، ثم ـ خيرا فيه ـ يبدأ بالاكل ،اطلق حسين قهقهة وقال:

– اللهم اذا انا آكل هذا، والله يصدف احيانا لكثرة ما ارد على هذا وذلك وانهض من على الاكل مرارا لا اعرف البتة ماذا اكلت واين دخل في جسمي في هذه الاثناء اطلقت صبرية نحوهم براسها وقالت:

– ماذا تفعلون ادخلوا الغرفة كيف تتحملون هذا البرد الذي يلسع الجسم لسعا، اولاتشعرون بالبرد؟!

***

زال خجل صبرية من فرحة عودة شيروان وحسين، ولكن عندما كان الجميع يجلسون ويتجاذبون اطراف الحديث عن احوالهم واوضاعهم كانت تواجه حسين وشيروان بقولها:

– لاتلقيا كل الخطايا على الطرف الآخر، ان ذنبكم ايضا كثير، وكل واحد منكم كان يسبح عكس اتجاه الريح، ولم تكونوا تتنازلون عن عنادكم واصراركم، فكان الاولى بكم ان تكونوا مع المصلحة العامة فماذا كان يحدث!! والله ان كلاكما اربك حال هذا الشعب، ان الشعب البائس لايدري على انغام اي منكما يرقص.!!

في احدى المرات وخلال المجادلات والمناقشات الدائرة بين صبرية وشيروان وحسين، انحت صبرية باللائمة عليهم وقالت هما وكمدا من وضعهم المتردي السيء:

– لماذا لم تتوصلوا الى نتيجة، ولم تفكروا في هؤلاء الناس حيث انه لحد الآن يتقاتل في المدن الاخوة وابناء العم والجيران منذ سنين، ويرشق احدهم الآخر بالرصاص ويسفكون الدماء فيما بينهم بجميع الوسائل التي يمتلكونها دون اي تفكير والحساب للمستقبل.

قال شيروان بشيء من العصبية:

– ماذا تعرفين انت، فانت لست على علم من كل شيء، اولا وقبل كل شيء نحن لم نرد ان نخوض ضد الحكومة حرب الكفاح المسلح، لانها لم يحن وقتها بعد. وحين ارادوا هم، قالوا ان الحكومة لاتعطي حق الكورد بالتوسل وكتابة المقالات، يجب ان ننتزع حقوقنا بقوة السلاح ونحن خوفا من حدوث الشقاق والتكتل ولا يتهمنا الناس مسببا لاخفاق وفشل الثورة، دخلناها اضطرارا وقد توجهنا الى تلك الجبال ببنادق قديمة شخصية، وقد فعلنا قلبا وقالبا ما استصعنا اليه سبيلا.

بينما بعد كل ذلك القصف والمصيبة العظيمة واعتقال الناس والقتل ووأد العشرات من الشباب المناضلين الكورد الوطنيين قالوا فجأة لنتفق مع الحكومة دون ان نحقق اي حق من الحقوق التي طالبنا بها وبعد ان تعززت مواقعنا وتحولنا الى قوة متماسكة ومنظمة ومسلحة والتي كلها كانت اسلحة وبنادق الكلاشينكوف الحكومية التي كان الپێشمەرگە يحصل عليها تدريجيا اثناء الهجمات والحاق الهزائم بالقوات الحكومية. لقد اصبحنا قوة منظمة توجس الخوف والهلع في قلوب قوة وجيش الحكومة، حيث كانت لابد ان تنقل الارزاق والمعدات الى المراكز العسكرية بدعم من قوافل السيارات المساندة بالدبابات والمدافع والمدرعات والطائرات اذ ان الحكومة لم تكن تمتلك الجرأة الكافية في هذا الشأن، والدليل على ذلك ان الپێشمەرگە تمكنوا الاستيلاء على القطار المتنقل بين بغداد وكركوك عدة مرات، كلها بالدماء الزكية لپێشمەرگە كوردستان وتضحياتهم، بينما يقولون في هذا الوقت تعالوا لنتفق مع الحكومة، ويعود كل شخص الى عمله والى ماله وحاله.

احمر وجه شيروان فهز رأسا غاضبا والقى نظرة على صبرية وقال:

– اذن لماذا اشعلنا الثورة، الناس خاصة اولئك الذين قتل ابناؤهم واقاربهم والذين فوجعوا ونكبوا، حيث كانوا حينذاك مستعدين للتضحية والفداء، ماذا كانوا يقولون لنا، فعلى الاقل حتى وان كان كذبا ان يعطونا شيئا من الحقوق لتبرير اتفاقنا، ثم اذا لم ينجز اي منها، على اي شيء نتفق، وماذا كنا نقول للناس، وكان الاتفاق فقط مجرد ان يقعس بعض الاشخاص صدورهم متولين منصب المدير العام والوزير؟

القت آمه خان نظرة على بنت اختها صبرية وقالت بملالة ووهن:

– يا الله، لا تستأنفوها ولا تعيدوها مجددا، ولا تقلقوا انفسكم، فالله اكبر، ان شاء الله تكون الخاتمة خيرا.

علقت حەپسەخان قائلة:

– لا ويل لنا، اصبحت هذه الاقوال والموضوعات مسألة تلوكها الالسنة، فصلوا على النبي، وانتظروا لنعرف ماذا يفعل الله؟!

ارادت حەپسەخان ان تضفي شيئا من المرح على الجلسة، وعلى الاقل تنسي نفسها وتنسي الآخرين لساعات تلك الاقوال والموضوعات، لذلك التفتت الى شيروان وحسين وقالت:

– ياجماعة انتظروا الآن، لتعرفوا هل ان علي والاولاد ذكر لكم موضوع شوكت آغا وبيته واطفاله وعائلته ودعوتهم؟ اطلق حسين قهقهة وقال:

– والله ذكروا لنا بشكل سطحي ومستعجل، بالله عليكم اذكروا لنا انتم ايضا، في الحقيقة اود ان اعرف ماذا حدث وكيف كان؟!

دب الدفء في جلسة الجماعة، وقد نسي البعض منهم انفسهم، وكان صوت الضحك يعلو بين حين وآخر، يبدو انهم نصبوا على كل واحد من افراد عائلة شوكت آغا ودارهم وقصرهم وملابسهم.

ضحكت نەوبەهار وقالت:

– اين هم، لقد قالوا سنواصل زياراتنا ويجب ان نتبادل الزيارات دائما، بينما منذ ان عاد علي والاولاد وقد مر اكثر من شهر على ذلك، ولم يخابرونا اي مخابرة تلفونيا.

اخذت صبرية بالتكلم بهدو وقالت:

– طيب يخابروننا تلفونيا، وانتم مااكثر براءتكم وسذاجتكم وسرعة تصديقكم. ان هؤلاء النماذج يعملون كل شيء بحساب وكتاب، لذلك عندما عاد علي والآخرون جاؤوا وتزلفوا لهم لكي يتودد شوكت آغا الى (ساواك) ويستنطق الجماعة ليبوحوا بالاقوال والموضوعات.

واعلموا انهم سيعودون الآن وذلك لان شيروان وحسين عادا، فانا لاشيء ان لم يكن كلامي صحيحا.

ضحك حسين قائلا:

– ياترى ماذا نملك نحن لكي يستدرجنا ويستنطقنا، وهل ان مهمته متوقفة علينا؟

قالت صبرية:

– انكم تتصورون لاتملكون شيئا، ولكن بالنسبة لامثال هؤلاء العملاء فان اي جلسة اعتيادية معكم تعد لهم شيئا ذا اهمية فسرعان ما يجعلون هذه الجلسة تقريرا ويسلمونه الى اسيادهم، لكي يعززوا موقعهم ويزيدوا مكاسبهم اكثر!!

ادارت صبرية عينيها من توفه وقال:

– اين توفه؟ فليأت لكي يسرد لكم، كان توفه يقول بان صديقه عبدالله المهابادي كان قائلا له ان شوكت آغا في مرتبة متقدمة لدى ساواك بحيث ان الشاه منحه واخاه قرية كاملة، كان توفه يقول بان عبدالله كان قائلا انهم يحصلون من هذه القرية خيرات وبركات الدنيا، اضافة الى الشهرية والهدايا والصدقات الاخرى التي يأخذونها من الساواك.

قال حسين في قلبه:

– في الحقيقة ان اختي صبرية هذه فاهمة جيدة وكثيرة المعرفة، ولايبدو سيماؤها هكذا، وكل من يراها يتصور بانها مكبة دائما على شؤون الاسرة والطبخ ولا أي شيء آخر.

مضت ايام على عودة حسين وشيروان حين جاء الآغا الرضائي عند منتصف النهار الى الطابق العلوي عندهم وقال:

– (طاطا) حسين اكمل كلامه بالفارسية قائلا:

– اتصلوا بنا تلفونيا من الدائرة بانهم جاؤوا بشخص مريض من الپێشمەرگه الى طهران ومعه والدته يجب ان تأتي امه الى هنا، ان لم يكن تكليفا يأتي اخوكم معي لكي نذهب اليهما وقد ذكر لهم اسم الپێشمەرگه.

قال شيروان وحسين:

– طيب اننا حاضرون.

حين عاذ الآغا الرضائي الى الاسفل، خفض شيروان صوته وقرب رأسه من حسين وقال:

– اوتنظر الى ذلك المحتال اوصل نفسه الى طهران، اجابه حسين بهدوء وقال:

اعر فت بانهم اخذوه رأسا الى المستشفى!

هز شيروان رأسه وقال:

– يمتلك لسانا يخرج الحية من الثغرة.

***

تبادل كلا الحاجيين النظرات دون ان يطيقا الصبر، ماهذا؟ وعم يتحدثون؟

التفت حسين الى والده وعمه عندما عرف انهما راغبان بلهفة ان يعرفوا ما هي المسألة، يتحدثون عن اي محتال نصاب، لذلك قال بهدوء:

– لاشيء لاتقلقا، هو ان بعض من اصدقائنا راودتهم فكرة المجيء الى المدن وهم يرغبون ان يأتوا الى طهران، وتمنعهم الدولة وتقول لابد ان يمتلكوا عذرا مقبولا جدا، عندئذ يسمحون لهم المجال ان يأتوا، هو ذلك احد منهم جاء باسم الثيَشمةرطة، وهو محسوب على ثيَشمةرطتنا، فهو لا ثيَشمةرطة ولا هم يحزنون.

فرك شيروان يديه وبدا انه غير مرتاح قليلا وقال:

– ذلك، وبسبب اشخاص من امثاله تتردى سمعة الثيَشمةرطة ايضا. لان شخصا مثل هذا الرجل الذي جاء معنا بعائلته وعبر الى هذه الجهة وترك مكانه يجب ان نسايره ونسترضيه وان نلبي كل ما يطلبه، واي عمل سيء يرتكبه محسوب علينا وموجه الينا. بينما هو مافتيء يعاتبنا ولايرضى، على اي اساس واعتبار ياترى، هواننا حين بدأت الثورة ونحن جئنا الى منطقتهم وهو ابدى لنا المساعدة ودلنا على المكان، عليه ان هذا غدا غلا طوق اعناقنا.

طيب نحن ايضا نأخذ هذا بنظر الاعتبار، على اعيننا كل مايقولون لانقصر فيه حسب امكاناتنا.

ولكن والكلام بيننا ان البعض من هؤلاء الاشخاص لايشبعون باي شيء، فهم دائما يزدادون طلبا وعتابا.

قال حسين ضاحكا:

– اصبحنا مثل مسألة ذلك الرجل حيث يقال ان النار تشتعل ذات مرة في مكان من احدى القرى، يقع فيها رجل، يمر فجأة شخص من هناك فيلقي نفسه في النار حالا وينتشل ذلك الرجل منها، ولان ذلك الرجل يحترق مكانا قليلا من يده وساقه، فالرجل المنقذ يحمله على ظهره ويكاد ان يذهب به الى بيت احد اقاربه في قرية اخرى، يسأله اثناء السير في الطريق:

– كيف كنت لك؟

ان المصاب بالحروق يمدحه ويثني عليه كثيرا ويقول:

– انت؟ ارسلك الله لي من السماء، فانت بطل تماما. بعد خطوات اخرى، سأله مرة اخرى:

– لولاي لحدث لك الآن اي شيء؟

وهو يقول بكثير من قراءة الادعية:

– تسأل ماذا كان يحدث لي؟ كنت الآن فحما ومحترقا.

بعد فترة اخرى يسأل الرجل المصاب:

– طيب، افترضنا جدلا بانني ماكنت مارا هناك، فاي شيء كان يحدث لك آنذاك؟

يلهج لسان ذلك المصاب المنكوب باحترامه ومدحه قائلا:

– اخي لاداعي ان تتحدث عن نفسك، فان جميع اعمال الابطال المتواجدين تتضاءل امام عملك البطولي كريشة في مهب الريح، لولاك لكنت الآن مشويا مغليا.

يمشيان مدة اخرى يلتفت الرجل المنقذ ثانية الى الرجل المحمول على ظهره ويقول:

– بالله عليك كيف كنت لك؟!

فالرجل المصاب يلقي بنفسك من على ظهره ويقول:

– واويلاه في سبيل الله، اعدني والقني في النار، لقد جن جنوني، تقطع قلبي قدر ما مدحتك، كفى كفى فداك روحي اعدني الى داخل النار.

قهقهه الجميع ضاحكين بما سرد لهم حسين.

قال حاجي مجيد اثناء التسبيحات:

– انتم تقولون هو ايضا بسببكم عبر الى هذه الجهة وأتى معكم، يجب ان لاتنسوا ذلك.

التفت شيروان الى حاجي وقال:

– والله تصدق ما تقول، والله نقطع احيانا من افواه پێشمەرگتنا وافواهنا لامثال من هؤلاء الاشخاص، لكن هذا الشقاق خرب اخلاق الناس، يقولون في تلك الجهة توزيع للنقود وتطفل لاحد له، لذلك فان البعض من الحمقى وضعيفي العقيدة والبله يتحججون، فهم دائما منهمكون بالحصول على المكاسب والارباح والمنافع. علق هذه المرة كاكه حاجي وقال:

– تتفضلون ما نفعه واستفادته؟ اولا هو تمارض وجاء الى هنا حيث لابد ان نذهب اليه الآن!!

كان هو في عداء مع بعض الاشخاص في منطقتهم على الزواج المتبادل (گصه بگصه)، لذلك يعدنا نصيرا له وظهيرا له، وقد مارس في السر والخفاء بعض التحايل والمراوغة مع الناس دون معرفتنا بذلك، كما انه ايضا زير النساء جدا.

لقد تزوج لحد الآن اربع نساء ولم يبلغ عمره بعد خمسين سنة، وفي الوقت الحاضر له زوجتان تعيشان معه في (هەمەدان) مع والدته ودوزن من البنين والبنات، صحيح انه مريض قليلا، ولكن هناك ايضا اطباء جيدين، ولكنه

راودته فكرة المجيء الى طهران، وذلك لكثرة ما حكوا له من موضوعات اماكن اللهو والمتعة في طهران.

قال حاجي مستغربا:

– انتم تقولون انه ريفي، من اين يعرف مسرة ومتعة طهران؟!

قال شيروان

– كلا انه متعلم عاش في قلعه دزه ورانيه، وتردد كثيرا الى بغداد والموصل. وكان وضعه المادي جيدا دائما بسبب فحص التبغ.

سأل حاجي:

– فوالدته ماذا بها؟!

قال شيروان:

– ان والدته لاتتحمل زوجتيه، فهما في شجار وعراك وصراخ ليلا ونهارا، لقد زعلت لحد الآن مرات، وذهبت الى بيوت الثيَشمةرطة، وكلما ترى واحداً منهم تجهش بالبكاء وتقول لهم الله يخليكم اعيدوني الى الوطن. فانا لااتحمل هنا.

استطرد شيروان قائلا:

– لقد قال لها كاكه علي اذا ما رجعت هذه المرة الى طهران سآخذك معي الى عند امي وخالتي والاخريات لكي تذهبي معهن لزيارة اضرحة الائمة والاولياء.

هذا هو قد يحتمل انها لم تفك ياقته، لذلك ارسلوها مع ابنها.

دخلت آمه خان الغرفة في ذلك الوقت، وقد سمعت موضوع المرأة الضيفة، عادت حالا الى الخارج وركضت بسرعة الى عند اختها والبنات، وبفرحة اخبرتهن بان امرأة والشكر لله تحل عليهن ضيفة وتنام عندهن.

– وافرحتاه، رحبها الله بالخير، يا ترى من اين تكون، الا يمكن ان تكون من منطقتنا، لعل وعسى ان نتكلم معا كلامين، نكاد نجن من اجل ضيفة تحل علينا. علقت صبرية وقالت:

– قبل كل شيء اين ننومها؟

انتفضت روناك وقالت بحرارة:

– لااحد يذكر غرفتي، لا طاقة لي من شخير احد، فانا الى وقت متأخر من الليل استمع الى الراديو واقرأ الاشياء ومصباحي يشتعل.

اطلقت حەپسەخان قهقهة ضحك وقالت اثناء ضحكتها:

– اوه يامكلثمة ثم من ذكر غرفتك؟!

ضحكت روناك وقالت

– وما ادراني؟!

تبادلت حەپسەخان واختها النظرات، كان احداهما تقول للآخر:

– الا صحيح من اين تنام؟ فكل غرفة لها اصحابها وفيها شخصان ثلاثة.

اخذت نةسرين تتكلم:

– انتظرن الآن لنعرف من هي؟ عجوز ام شابة؟ كم يوما تبقى هنا؟ وفق ذلك تدبرن لها ترتيب المكان والمبيت من لايقول تبقى فقط ليلة واحدة، او انها عابرة سبيل تمر من هنا؟!

قالت آمه خان بفرحة:

– اية عابرة سبيل؟ انا سمعت بنفسي من حسين الحبيب، الله في حفظه وامانه حين قال:

– انها ام لاحد الثيَشمةرطة جاءت لتبقى اياما في بيتنا. قالت اختها باشتياق:

– ما رأيكن ان نقول لآغا الرضائي، ان يقوم بتخلية الغرفة الصغيرة الكائنة بجانب غرفة المغسلة، اراه يفتحها في كثير من المرات، فيها فقط كتب متهرئة واثنين ثلاثة كارتونات وبعض الافرشة واللحف الخفيفة، صحن توفه واخبرنه بذلك، صعد توفه الى الفوق مرتين ثلاث مرات ونزل، لم يلبث كثيرا جاء الآغا الرضائي وسمايل وكاوه وقريبهم كامران فبدؤوا بانزال الاشياء الى الاسفل وتخلية الغرفة بعض الشيء.

***

وصل حسين وتوفه والآغا الرضائي الى المستشفى، كان مستشفى صغيرا جميلا نظيفا وجديدا، كان له باب محكم ومحصن جدا، دخل ثلاثتهم فيه، كانت جدران وارضية المستشفى تلمع وتشع. كان كلا طرفيه محاطا بأصص الورود والاوراق الخضراء الجميلة، وكانت القاعة كانها حديقة صغيرة.

سأل الآغا الرضائي من استعلامات المستشفى، وذكر له اسم المريض، وهو قال لهم انه في الطابق الثالث غرفة (٢٩). وهم بدورهم اقتفى احدهم اثر آخر، وصعدوا الى الطابق المعين وكانت الممرضات والمسؤولون وخدم المستشفى في ذهاب واياب، وكانوا ياخذون وينقلون عربات الاكل والادوية.

ذهل حسين من هذا المستشفى المنظم وقال في قلبه:

ـ ياترى الم يتعرض هذا الرجل من بعد مجيئنا الى شيء؟ ماهو البشر كما يقولون ارق من الورد، احيانا يصيب رجل قوي كالبطل بوجع صغير حاد يطرحه ارضا اشبه بالموت.

وصل حسين الى امام غرفة (٢٩) واثناء تلك الخيالات كان يلوم نفسه حيث انه منذ الصباح يسب مع شيروان هذا الرجل، وهو الآن يخاف بانه يكون مريضا حقا.

دخلوا الغرفة، كانت غرفة خاصة، كان الرجل مرتديا بيجاما ومستلقيا على ظهره في الفراش وقد وقفت عند راسه ممرضة فاتنة، كانت تاخذ درجة ضغطه، وكان فتى يضع الاكل على طاولته. وكذلك شاهدوا عجوزا متشحة بالملابس الكوردية السوداء على قدر من النحافة جالسة على كرسي لين الملمس في حالة من التسبيحات وقد شدت ربطة على راسها على قدر سلة كبيرة عميقة.

حين ابصرتهم الام والابن فرحا بهم جدا وقد بدآ بحرارة بالسؤال عن الحال والاحوال.

لقد انهت الممرضة من عملها والتفتت الى الضيوف وقالت هل بينكم احد يجيد الفارسية؟

قدم توفه الآغا الرضائي وقال:

– وكيف لا؟

تقدمها الآغا الرضائي قائلا:

– ماذا تريدين قولي ونحن نفهمه!

قالت الممرضة:

– ان لم يكن تكليفا قولوا له نأتي في الساعة التاسعة صباحا للمختبر واجراء فحوصات اخرى، واذا ما احتاج الى اي شيء يدق هذا الجرس من تحت راسه، يستجيب له شخص، ودعتهم وذهبت.

ان الرجل المريض الذي كان اسمه عثمان التفت بوجه بشوش الى حسين وقال:

– لقد تمرضت من بعدكم، فحاول الاصدقاء لي كثيرا والطبيب الله يعمر بيته كتب لي رسالة جيدة بانني احتاج الى مستشفى في طهران، وذلك بسبب وجود الحجر في مرارتي، وقد تردت صحتي كثيرا، وقالوا ابتعد فترة عن مشاكل وصراخ وضوضاء البيت.

لقد هزت امه السيدة زبيدة يدها وسبحتها والتفت الى حسين والآخرين وقالت:

– سيدي ان هذه الوضعية والحالة اربكتنا جميعا، سيما ابني عثمان ماتت امه، وقد اصبح مكلفا بتدبير شؤون هذا الدوزن من افراد العائلة، ان الاطفال الصغار في بيتنا مشاكسون حركون جدا، كما ان امهم لاتقول لهم ابدا لاتفعلوا ذلك، كل واحد يفعل ضد الآخر. كما يقال كأن لهم ضرائر.

وهذه المرة تنهدت السيدة زبيدة وقالت:

– آه يابني ماذا فعلت بنفسك، كم مرة قلت لك ولكن لم تطعني.

ضحك ابنها وقال:

– امي ماهذا الكلام؟ كفي الآن، ليجلس كاكه حسين والآخرون فهم لحد الآن واقفون!

لقد انزعج حسين في نفسه وارتبك وخاف من ان يتكلما كلاما لايجوز النطق به امام الآغا الرضائي. وكيفما كان جلسوا لقد بدأ حسين بتوجيه الاسئلة بتوجس حول مرضه واخبار اصدقائه والپێشمەرگه وعوائلهم، وقد كان يبدو ان الآغا الرضائي سرعان ما سئم، لذلك قام وقال:

– انا انتظركم في القاعة السفلى.

عاد الى حسين النفس والروح حين وجد ان الفتى خرج من الغرفة، نظر الى المريض وقال هامسا:

– احذرا لسانكما، لاتقولا كلاما عند هذا الرجل الذي معنا بشكل ما لانه عميل لـ(ساواك)، وكذلك في هذا المستشفى الذي هو ملكهم، فحين دخلنا الآن قلت ما اروح وارحب وانقى واكثر تنظيما وترتيبا، قال هو لي انه يعود الى دائرة ساواك وقد شيد حديثا.

لقد جفل المريض من تلك وخفض صوته وقال:

– لاتقل اخي هذا؟!

– قال حسين:

– اي والله احسنت حين لم تتكلم عن مرضك باستضافة ولم تذكر اسم المريض، ولو انه كان يعرف من هو؟ التفت كاك عثمان المريض الى امه بلهفة وقال:

– أسمعت يا امي ماذا قال كاك حسين، يجب ان تكوني منتبهة جدا من اقوالك!

ثم اكمل كلامه وقال:

– ما هذا في هذه البلاد كل شيء هو (ساواك)، كأن الدولة هم وحدهم.

رد عليه حسين قائلا:

– وكيف لا، كما سمعت يقولون فان جميع الأجهزة الأخرى للدولة يحقدون عليهم حدّ ما يكرهون الشيطان، وكل اعمالنا هم على اطلاع عليها وينفذونها، ولا يريدون ان تعرفها الأجهزة الأخرى في الدولة، فأنت لست مطلعا على ما يمتلكون من الأماكن والفنادق والمستشفيات الخاصة، ولا يسمحون لنا النزول الا في الأماكن التي هي ملكهم.

ضرب حسين يدا بيد بابتسامة وقال:

– عليه ماذا نقول، لا مناص لنا، ذلك حتى ان نسينا الكلام توجسا من هذا الإبن الكلب، يجب ان تكون كل اقوالنا خوفا منه بوزن وميزان.

تنهد توفه آهة ومد يده الى باب الغرفة كأن الآغا الرضائي واقف هناك وقال:

– تعال ان يكون هذا مسلطا عليك ليلا ونهارا، ويفرض عليك سلطته، بالله عليكم أهذه حياة ٱلقينا فيها.

كذلك السيدة زبيدة كأنها ارادت من الله ان تصب هي ايضا جام حقدها وغضبها، لذلك اثناء ما كانت السبحة في يدها بدأت بالتحرك والتموج ولطم صدرها ثم اجهشت بالبكاء.

– يا ربي حتى الكفرة لا يبتعدون عن ديارهم وعوائلهم ولا يتشردون.

ارتبك حسين وأخذ يتوسل قائلا:

– خاطر الله هنا مستشفى، فالآن يتقاطر الجميع علينا، يتصورون ان شيئا قد حدث.

بدا توفه بأن بكاء ولطم الصدر من قبل السيدة زبيدة قد أثر فيه كثيرا، وكانت مهيجة جرحه لذلك قال ملولا محسورا:

– ثم اكثر من هذا اي شيء يحدث؟!

نهض المريض من فراشه وذهب الى عند امه واضعا يده على كتفها وقال متوسلا:

– خاطر الله انه عيب، فهنا ليس بيتنا!

انهضي وهيء نفسك لكي تذهبي مع كاكه حسين الى بيتهم مسحت السيدة زبيدة عينيها وقد عادت الى شيء من حالتها الطبيعية وقالت ملولة:

– او انت تبقى وحدك؟!

قال ابنها مبتسما:

– اي وحدة تقصدين، فها انا كما ترين في هذا المكان المريح يأتي شخص ويذهب شخص آخر، ثم ماذا؟

ان شاء الله لا تأكلني الذئب!

التفت حسين الى كاك عثمان وقال:

– اذن عليه ان نعود، نزورك غدا، واذا اردت اي شيء خابرنا، نقوله للفتى

هجمت السيدة زبيدة على ابنها وقبلته مرات، والآخرون ودعوه بحرارة وذهبوا.

***

قعدت السيدة زبيدة على مندر في غرفتها الصغيرة التي رتبوا لها، فكانت آمه خان من هذا الجانب وحه‌پسه‌خان في ذلك الجانب، وكانتا لا تستقران من فرحتهما، وقد انفتح قلباهما لدرجة لم تكونا تستمعان الى اقوال ضيفتهما، حيث انها كانت بادئة بالحديث فصاعدا عن كناتها الى احفادها، خاصة كانت تتحدث عن الإبن الأكبر ماذا يفعل بهم وكيف يتصرف معهم اذا نقص اي شيء صغير من اشيائه، وكيف ينهال على الأطفال ركلا ورفسا ويربك اوضاع البيت بالعصا والحجر.

كذلك تحدثت لهما عن موضوع (منع التجول) في تلك السنة، وكيف طبق حظر التجول ليلا ونهارا، وان هذا الولد قد تعند وقال اريد حالا البيض المقلي، وبالرغم من كثرة التوسل منه يا ابننا او لاترى واقع المدينة تفوح منها رائحة الدم، وقد اعتقلوا الليلة اناسا في عمر الخامسة عشرة حتى العجوز في التسعين

من العمر، ولم يبقوا احدا في المدينة، اعتقل الجميع ولا يعلم احد ماذا يفعلون بهم، ومعهم ابوك، ضربت السيدة زبيدة صدرها بسبحتها وقالت:

– اي يا اخواتي ماذا فعل بنا هذا الولد، وكان يصرخ ويقول انا لا اعرف تلك الأشياء، فأريد حالا البيض المقلي، وكيف ان امه اضطرت ان تختلس الخطى وتذهب من سطح الى سطح بيت الجيران فحصلت على البيض له.

قالت آمه خان:

وي الله يساعدكن على تحملكن، ويرحم هذا الولد ويهديه الصراط المستقيم ويهدأه.

ولماذا أكان عندكم في الريف (منع التجول) ساريا؟!

قالت السيدة زبيدة:

– اختي لم نكن آنذاك في الريف، كنا في قلعه دزه، لأننا كنا نتوجه الى هناك في معظم فصول الشتاء بسبب مدرسة الأطفال وكنا نعود الى قريتنا في الصيف من اجل التبغ والمحصولات.

كانت حەپسەخان واختها تلطمان صدرهما سريعا سريعا وكانتا تتأففان وتتنهدان بشكل متواصل، وهما ايضا كانتا تبدآن بالتحدث عن اوضاعهن وعن ماوه ت والعبور الى جهة ايران، وحياتهم المعيشية الحالية، وما تركوها في المدينة وكيف كانوا يعيشون هناك.

كانت صبرية والبنات الآخريات ما ان التقين حتى وان بدأن بالهمسات والضحكات من ضيفتهن وامهن وخالتهن كيف انهن سررن ونسين الدنيا بسبب ضيفتهم هذه!!

كانت نەسرين تطلق قهقهة ضحك وتقول:

– اختي ان امي نسيت حتى رحلة السطح من فرحة السيدة زبيدة. حين كانت حەپسەخان واختها تفقدان الصبر وتخرجان من الغرفة، ثم كان توفه

والأولاد يذهبون ويجلسون في حضور السيدة زبيدة، حيث كان يحل موعد نوبتهم.

كانت صبرية تدمدم مع نفسها وتقول:

– واي لا ويل لي، كيف لا تتعب هذه العجوز، لقد دوخت واضجرت شريحة، فها ذهبت الشريحة الثانية، وهي تواصل الكلام، الم يكل ويتعب فمها ولم يجف حلقها؟!

كأن توفه والسيدة زبيدة يتنافسان، كان هو ينهي من كلام فهي كانت تتنشط وتشرع بافراز خفايا قلبها وسر الحكايات.

كان توفه يحكي لها كل الحكايات القديمة، من موضوع تجنيده وارساله الى الأردن وتلك المنطقة وذكر المرأة المغنية التي احبته وكيف كانت الفت الأغاني عنه وكذلك موضوع كيف انه ظل طريقه الى تركيا واستئجاره غرفة في احد البيوت بمدينة اسطنبول وعشق واحب اختين في ذلك البيت وتشاجرهما عليه. كان يقص لها كل هذه الموضوعات.

كانت السيدة زبيدة تستمع اليه قلبا وقالبا، وكادت ان تبكي بعض الأحيان فيما اذا وصلت وقائع توفه الى الموضوع والمكان اللذين يضايقان التنفس.

كانت السيدة زبيدة الإنسانة الوحيدة التي كانت تستمع الى مفاخرات ومباهاة توفه الكاذبة بكل جوارحها، دون ان تتمكن على الأقل من منع ذلك الشخص وجها لوجه الا تقهقه ضاحكا، ولكن تقول في نفسا: يا لك من كذاب ايها المتبجح المنتفخ المتباهي! لذلك كان توفه يراعي كثيرا السيدة زبيدة، ولم يكن يكسر خاطرها ويحترمها جدا، لذلك كان دائما يحترمها ويتودد لها ويتقرب منها، وينفذ طلباتها.

كونها ام للپێشمەرگه وهي منكوبة، تعال فهم، وهي ان تضاف ايضا بانها تحب اقواله وتستمع اليه من اعماق قلبها وتصدقه.

بقي لتوفه فقط ان تحمل السيدة زبيدة على ظهره، ويطوف بها في البيت، وكان في موعد الأكل يذهب اليها ثلاث وجبات بصينة الطعام ويضعها امامها وكان يقول لها:

– لا تستعجلي كلي طعامك على مهلك وحسب رغبتك، وفي نفس الوقت كان يقول لأفراد البيت:

– هذه المسكينة تأكل الطعام على مهلها بسبب فمها واسنانها لذلك لا داعي ان يداهمها احد، لئلا تستحي.

***

بعد مجيء السيدة زبيدة الى بيت حەپسەخان والآخرين باسبوعين عاد شيروان وحسين مع ابن السيدة زبيدة الى (هەمەدان) حيث الثيَشمةرطة، بعد ان اجريت عملية جراحية لعثمان وقد اخرجوا من مرارته الاحجار بحجم ينبوع حجري، وقد خدمه كل من حسين وشيروان خلال تلك الفترة خدمات كثيرة، وما كان ينسيان بانهما كانا يلومانه في قلبهما، لأنه كان طالبا المجيء الى طهران في حين هكذا تحولت طهران بأنه لم ير اكثر من المستشفى والشارعين المستقيمين لبيتهم، ولكن ظلت امه عند حةثسةخان والأخريات وقالت:

– هنا ينشرح قلبي.

وهن ايضا فرحن بها كثيرا.

***

بعد فترة طلبت السيدة زبيدة زيارة الأضرحة والأئمة، وكان ذلك سهلا ميسورا، لأن اي واحد يسمع توفه ما تريد هي، فكان يوقع تماما لها وينفذ.

لذلك اخذ توفه يتلهف ويندفع ويتسرع، فرتب مع الآغا الرضائي بأن يدليهم ويرشدهم كيف يمكن الذهاب الى مدينة (قم) ومن هناك يزورون ضريح حضرة (المعصومة) لأن هناك اقرب مكان الى طهران.

لأن الآغا الرضائي على اطلاع جيد على عائلة حةثسةخان والأخريات ما اكثرن احتراما وبراءة وبعدا عن الكذب والخداع والمدالسة. لذلك هو ايضا غض النظر عن عما يريدون ان يذهبوا او لا يذهبوا!!

علم الآغا الرضائي توفه ان يركب اي سيارة من سيارات الباص الى ان تصل الى محطة باصات (تي بي تي) ومن هناك يركبون رأسا لى (قم).

تهيأت حةثسةخان واختها والسيدة زبيدة انفسهن، ومن هناك استعدن ايضا كأنهن في رحلة نحو قەندەهار!!

في الصباح الباكر اكلن الفطور، وقد لففن انفسهن بشكل مضبوط كلفة الملفوف وتابعن توفه، والبنات تابعتهن الى عتبة باب الحوش وكل واحدة منهن كانت تنصحهن نصيحة، بأن يتلثمن جيدا ويكنن على حذر من ان تتبردن.

ولأن معدة آمه خان كانت تضطرب في السيارة، فأعطين لها اثنين وثلاثة من الأكياس والخرق والأشياء من تلك الأمثال، وقد تواعدن، فهن ذهبن، والأخريات رجعن الى البيت. ركبن الباص، فوصلن محطة (تي بي تي) نزل توفه وهن ايضا من ورائه.

أقعس توفه صدره، وكان ينصح النساء سريعا سريعا ويقول:

– تعالين وكن متراصفات، ولا تفترقن حتى اذهب الى الصف وأقطع التذاكر، وتوفه حتى حين كان في الإصطفاف يلتفت اليهن ويشير اليهن، كأنه تاركا ثلاثة اطفال صغار، فيأتي شخص يختطفهم الى ان يقطع التذاكر.

واخيرا قطع التذاكر، تقدم توفه الناس ولم يعبأ بدندنتهم وتذمرهم، صعد بسرعة وحجز في المقدمة اربعة مقاعد وهناك وقف ومن خلال نافذة السيارة لوح بيده بعجلة الى حةثسةخان والأخريين وقال:

– هيا تعالن بسرعة.

وهن جئن مع هجوم الناس، فسرعان ما اخذن مقاعدهن الجيدة التي شخصها لهن توفه، واخذ الناس ايضا مقاعدهم، فأدخل السائق الكاسيت في

المسجلة واشغله وعلا منه الصوت الشجي الرخيم للمطربة (مەهەستی)، وتحركت السيارة، وبدأت السيدة زبيدة مع نفسها بيا شاه النقشبندي وغوث الطيلاني وحاجي كاكه احمد الشيخ، والشيخ عيسى وموسى.

كما ان آمه خان ايضا شرعت بقراءة (آية الكرسي) على اربعتهن، دخلت السيارة الشوارع المزدحمة في طهران، تارة كانت تسير وتارة أخرى كانت تتوقف بسبب اشعال الضوء الأحمر.

اوشكن الخروج من المدينة حين قربت آمه خان رأسها من اختها وقالت:

– يا الله عونك، والله اوجس خوفا كثيرا من سائق هذا الباص.

قالت حەپسەخان بذهول:

– لماذا؟

لفت آمه خان مجددا العباءة من نفسها، وغطت طرفا من وجهها وقالت هامسة:

– منذ ان ركبنا ارى ان السائق من تأثير تلك المرأة لا ينتبه الى السياقة، فهو دائما يلتفت اليها، ومكب على التغازل معها.

قرب توفه رأسه منهما بلهفة وقال:

ماذا دهاكما؟

حكت آمه خان له ايضا، وقال توفه:

– والله تصدقين، وانا ايضا منتبه لهما، ان تلك المرأة من النساء الفاسدات المنحطات، انا جئت قبلكن وسرعان ما اعطاها السائق ذلك المقعد، وكانا منشغلين على الدوام بالتهامس.

قالت آمه خان في خفاء:

– اوه ايتها المراة كوني عبرة، اوترين فهي تتحرش علانية بذلك الرجل، وهي منشغلة بالمغازلة معه في خفاء، انظروا اليها ما اجملها فيالها من رشاقة

ورقة!! قولي لتكون عبرة، فعليها اللعنة لماذا لا تتزوجين والله الف شخص يكون ممتنا لك ويزوجك، اولم يكن افضل لو كنت الآن ربة البيت وهانما لنفسك.

قالت حەپسەخان بحرارة:

– اختي وما حقنا في ذلك، لتطلع عيونهم، ان شاء الله لا نصبح حماية الناس، ان شاء الله تلقي نفسها في حضنه، ضحكت بهدوء تحت عباءتها وقالت:

– تعالي فهي بأي شيء تشغل دماغها، لقد قلنا نهرب من وجه القهر والهم والألم.

علقت آمه خان وقالت متوجسة:

والله اخاف ان يغفل عن نفسه من تأثير هذه الغبية البليدة، ويعرضنا الى مصيبة.

قال توفه:

– لا تكترثي، فالأجل بيد الله، ان سواق هذه السيارات متعودون على هذه الحالة ومختلفو الأشكال والأطوار. ان البعض لهم زوجة في كل مدينة، وعلى الأكثر فاسدون.

قالت آمه خان بأسىً:

– معاذ الله ماذا نقول بعد؟

من حسن الحظ لم تكن السيدة زبيدة من تأثير قراءة الأدعية والإستغاثة بالشيوخ والمشايخ منتبهة الى مجادلاتهن ومناقشاتهن، والا هي ايضا كانت تثير ضجة، لأنها لفرط خوفها وهلعها كأنها كانت راكبة جناحي الرخ يذهب بها الى السماوات السبع كما يقولون.

***

كانت السيارة تطوي الشوارع والصحراء طيا تحت اطاراتها وعجلاتها، وهن قد أصغين بانتباه ودقة الى علوم ومعارف توفه، بأن هذه الحديقة الكبيرة لمن؟ وتلك تعود ملكيتها الى اي شخص من اقارب الشاه؟ وكيف يأتي الشاه بكامل

افراد عائلته يوم الجمعة الى بيت قريبه هذا، ان تلك المجموعة من الألواح والأخشاب البادية من الخارج، هي سور باحة ساحة واسعة جدا لبيع الخضروات حيث يبيعون فيها كل شيء بالصناديق والكارتونات والأكياس.

قال توفه:

– آي ما اكثر الخيار الناعم الجميل فيها والقثاء الرفيع الصالح تماما للمخللات، وفيها الفلافل فكل فلفلة على قدر من الرقة والطزاجة يرغب المرء ان يأكلها دون شيء آخر معها، اضافة الى الرمان فحدث ولا حرج، وفيها البصل حيث يبيعونه بالأكياس، كل رأس منه بحجم بطيخة، حلو حلو كأنه خيار، اضافة الى البصل البنفسجي والأحمر، وانواع اشياء اخرى.

لقد اضطربت معدة آمه خان قليلا من رائحة بنزين الباص، وكذلك حيث قبل ذلك قليلا كانت ماسكة فمها وقائلة:

– وي ابتاه، ان رائحة ارجل الرجال القريبين منا دوختني واصابتني بالدوار اكثر، ولذلك حين سمعت موضوع الطرشي وجميع تلك الفواكه والخضروات الجميلة، سال له لعابها ورغبت في جرعة من ماء الطرشي المخلل بالعنب الأسود المملوء بحب البطم الأخضر الطري، لذلك التفتت الى توفه وقالت:

– الا يجوز بعد ان عدنا ان نقف ونشتري بعض تلك الأشياء لعلنا نعمل بعض الطرشي لأنفسنا.

مص توفه مصته في سيجارته وسعل مرة مرتين ايضا، واثناء السعال ومسح الدموع من تأثير دخان السيجارة وسعاله قال:

– لا والله لا نتمكن، ان تلك الباصات مثل القطار لن تقف الا في محطات ومقاهي خاصة بهن، وكذلك اذا ما رجعنا حينئذ يحل الليل ولا تبقى الدكاكين والسوق، ولكن لا تهتمي حين نعود، سنأتي في يوم ما مع كاك عبدالله، قلن لي كل ما يحتاجن اشتريها لكن.

استغربت حةثسةخان من هذا التغيير والكلام الهاديء لتوفه، لأنها كانت تعرفه ان كن ينطقن بأي كلام وكذلك يذكرن اي شيء، لم يكن يكف توفه دون المحاكمة ودون الزجر والردع، وقد اضحى ذلك جزءاً من أخلاقه وصفاته، وكان كل هذا الصراخ عليهن وزجرهن يحظى بكل رضائهن وقبولهن حيث انهن يدللنه ويدلعنه.

وكان توفه نفسه يعرف ذلك جيدا، بأن هو ايضا يحبهن على قدر لا يوصف، فكل دنياه وافراحه تتمثل فيهن وحدهن، لذلك كان هو يتعاملن معهن برغبته ودعمهن له.

اشفق توفه ذلك كشيء في نفسه على حةثسةخان واختها وضيفتها، وقد كان يحاول قدر الإمكان استرضاءهن ومسايرتهن، خاصة انه كان رجلهم ودليلهم في السفرة.

قريبا من مدينة (قم) لاحت من بعيد القبب والمآذن، وما ان رأت السيدة زبيدة المآذن والقبب الا وان قالت بصرخة واحدة:

– اللهم صل على سيدنا وحبيبنا محمد وبدأت بالذكر ولا اله الا الله كأنها في حلقة ذكر الدراويش وقد نزعت عن رأسها السلة العميقة وبدات بذكر حي الله والتحسس والتلمس وهز الرأس، قد تلهف الكثير من ركاب السيارة وكانوا يلتفتون اليها حبا بها، وهم ايضا بدأوا بالصلوات ويا علي ويا كريم ارتبك داخل الحافلة تماما.

فزعت آمه خان وارتاعت وخافت من ان يحل بالسيدة زبيدة شيء، وقد اكتفت حەپسەخان وتوفه فقط ان ينتبها اليها بالا تنزاح عباءتها من رأسها ولا يرتطم ويصطدم رأسها بالحافة الحديدية للحافلة.

وأخيرا مهما يكن وصلن وتوقفت الحافلة، ونزلت السيدة زبيدة.

تقاطر عليهن ركاب الحافلة باقداح من الماء والعصير، احداهن كانت تقبل عباءتها، والأخرى يدها، عليه حظيت السيدة زبيدة وتوفه وحەپسەخان واختها باحترام لا حد لها.

نظر الجميع ونظروا الى ما حول الضريح الذي كان كله دكاكين متنوعة مزدانة بالمصابيح الكهربائية الحمراء والخضراء، وكانت دكاكين مريحة، حيث كانت اكثرها دكاكين للكوز والجراري المنقشة مع المئات من الاصص (السندانات) والمرايا واشياء لزينة البيت وشراشف الطيقان والموائد حيث كان الزوار يشترونها للتبرك والهدايا.

وكانت معظم تلك الأشياء مصنوعات يدوية وكانت جميلة جدا اضافة الى تلك الدكاكين كانت فيها عشرات دكاكين البزازين وبيع الحلويات وقد اشتهرت مدينة قم بذلك النوع من الحلويات التي كانوا يسمونها (سوهان) وكانت تصنع بالدهن الحيواني الحقيقي.

بعد القاء النظرة على ما حول وذلك الزحام، تقدم توفه النساء ودخلوا باحة الضريح.

كانت باحة واسعة مريحة، تتوسطها بركة كبيرة جدا، وكان ينسكب منها الماء من كل جانب.

اكب الناس حول الحوض على الصلاة والإستعداد لإقامه الصلاة، وكانت حول الباحة الكثير من الشرفات والطرمات والمداخيل ليتمكن الناس في تلك الأماكن اداء الصلاة، والركون الى الإستراحة.

دارت وطافت حەپسەخان والآخرون حول الباحة وقد نظروا الى كل ذلك الزحام، اوقفهن توفه وقال:

– ماذا تقلن، ان نذهب اولا الى احد تلك المطاعم في تلك المنطقة نأكل ونركن الى الإستراحة، او ترون اولا ان تذهبن للزيارة.

اوجست حەپسەخان خوفا في ان الدخول الى الضريح يؤدي الى ان تنتاب وتعتري السيدة زبيدة هزة الذكر، ويتعرضن الى الجلبة والضوضاء، والى ان تعود الى صوابها يستغرق ذلك كثيرا، والآن هو الظهر والساعة تقارب الواحدة، اوشكن على الشعوربالجوع لذلك التفتت الى توفه وقالت:

– والله انا اقول لنذهب لنتمتع بقسط من الإستراحة ونتغدى شيئا ونشرب شايا، لكي عندما ندخل المرقد لا نتسرع ونخرج منه على رسلنا.

كان يبدو ان الأخريات ايضا فكرن نفس التفكير، لذلك قال توفه حالا:

– طيب جدا اذن تقدمن لنذهب!

***

حصل توفه وسط الإزدحام الشديد مائدة ذات اربعة مقاعد في مطعم وكباب احد الدكاكين، حيث كان الكثير من الناس واقفين بشكل مرتب للأكل، اقعد توفه النساء وهو كان واقفا امام كرسي فبدأ بالمناداة بالإشارة (آغا...آغا) الى الصناع جاء احدهم حاملا الورقة والقلم.

كان توفه مرتبكا الى حد لا يذكر كأنه مكب على شراء واختيار اي شيء، افهم الشخص باليد والإشارة وبالفارسية وبالكوردية الخليطة ان يجلب لهم فلان شيئاً وفلان شيئاً بعد ان سأل النساء ماذا يأكلن.

كتب الصانع الطلبات وذهب، ولم يستغرق كثيرا، جلب دلوا من الشنينة واقراص الخبز والخضروات والطرشي فوضعها امامهن الى ان يأتي لهم بالأكل.

اخذ توفه بعمل اللقمة لنفسه من اقراص الخبز والخضرة والبصل والطرشي ونثر فوقها السماق وجعلها لفة وصب لنفسه قدحا من الشنينة، وبدأ بالعض والقضم والأكل.

قالت آمه خان:

– هات قليلا من ذلك الطرشي لكي يعود قلبي بعض الشيء الى حالته الطبيعية، وهي ايضا بدأت بعمل اللقمة واخذت تمخضها مضخا من تحت العباءة.

رغبت السيدة زبيدة في الرشاد والكراث، وهي ايضا شرعت بعمل اللقمة، غطت حةثسةخان طرفا من وجهها بعباءتها وقالت:

– واه لو يستمر الحال على هذا المنوال فستشبعن انفسكن، اذن ما حاجتكن الى الأشياء الأخرى؟!

قال توفه بوجنتين منتفختين:

ماذا اقول والله اني جائع جدا، لقد شربت في البيت صباحا شايين لا غيرهما.

كانت آمه خان تدير عينيها من الصناع بشكل متواصل. ثم قالت:

– فماذا فعلوا، انهم يحملون المواعين ويذهبون بها الى هذا الحد وذلك ولا ياتون الينا البتة.

قال توفه:

– لأنه بالتناوب، وهم جاؤوا قبلنا لذلك...

كان توفه ايضا على عجلة، وكان يدير عينيه، متى يجلبون لهم، خاصة حين كانت رائحة الكباب قد اذهلت ما حولها، كان الكل مكبون على اسقاط اللقمة في الفم، لم يمض كثيرا جاء الصانع بصينية اليهن وقد وضع امام كل واحدة منهن ماعونا مملوءا بالتمن فوقه كبابين كبيرين مع سفود من الطماطة المشوية وماعون من الزبدة في علبة صغيرة، علقت السيدة زبيدة قبل الكل وقالت:

– كيف يمكننا ان نأكل كل هذا، كل ماعون يكفي نفرين.

شمر توفه عن ساعديه وشن الهجوم على الماعون، وقد وضع فوق التمن علبة علبتين من الزبدة وقال بعجلة:

– كلن الآن، انه ليس وقت الكلام!!

كان الجميع منشغلون بالأكل وبعد هنيهة، تفاجؤوا بأن غير قليل من التمن المجرد لم يبق في قعر ماعون كل واحد منهم شي، خاصة اللاتي كن يقلن:

– اواه من يقدر على كل هذا وذلك لكثرته.

وبعد ان شربت الجماعة الذراح وصب الشاي الحار فوقه، وقد شبعن تماما لدرجة ما كانوا يمتلكون الطاقة على النهوض.

وضع توفه سيجارة بين شفتيه ومصها مصتين ثلاث منعشة نهض وقال:

– هيا اذكرن الله، عليه انهضن لقد تأخر الوقت!

بعد ان ذهبت النساء من باحة المرقد الى مكان النساء للتوضؤ، عدن الى عند توفه الذي كان ينتظرهن في زاوية قريبة جدا من المكان، ذهب الجميع الى حيث الرجل الذي يحتفظ بأحذيتهم فسلموا له احذيتهن، وهو اعطى رقما لتوفه فدخلت الجميع الغرفة.

كانت الغرفة كأنها المصابيح، كان المرقد وسط الغرفة، احيط بسور فضي كغرفة صغيرة، ولكن النافذة كانت خانة خانة لكي يتمكن الناس من رؤية القبر، وقد كان مغطى بقطع من قماش السلك المزركش بخيوط فضية والمخمل الممتاز الغالي، لقد ملأت رائحة البخور وماء الورد هذا المكان، هذه الغرفة الواسعة العريضة التي كانت تشبه قاعة كبيرة تسع لمئات الناس فرشت ارضها بالطنافس والزوليات والزرابي الإيرانية الأغلى ثمنا.

حاولت حەپسەخان والأخريان وفق نصيحة وتوجيهات توفه ان يكن معا قدر المستطاع ولا يدعن احدا ان يكون بينهن لكي لا يتفارقن، مهما يكن لقد تمكن بالتدافع الوصول الى سور المرقد مسكت آمه خان بقوة النافذة والسور وهزتها دفعة واحدة دون انقطاع وكانت اثناء ذرف دموعها توسلت وقالت:

– يا صاحب هذا المرقد، توسل من الله تعالى لنا ان يرحمنا وان يفتح لنا باب الرحمة بعودتنا الى بلادنا وان يطفيء هذه النار ويرعى الأولاد.

كانت آمه خان متحمسة، وقد شرعت بقراءة الأدعية فصاعدا لأجل پێشمەرگه كوردستان، ولأقاربها واهلها ومعارفها وجميع اهالي السليمانية وانتهاء لكل شخص كوردي موجود!!

فاجأت آمه خان بهجوم الناس عليها، وكادت ان تداس تحت الأيدي والأرجل.

حين التفتت لم يبد لا توفه ولا اختها ولا السيدة زبيدة، غصت الأدعية في حلقها وتشنجت خوفا وقالت في قلبها:

– اي لا ويل لي، اي والله لقد ضيعت احدانا الأخرى! ثم وسط هذه القيامة والحشر والنشر كيف يمكنني العثور عليهم، وا ويلاه وا...وكيفما تكن تنشطت ونجت من بين تدافع الناس، وذهبت الى زاوية خالية قليلا التي انتشر في طرفيها كثير من الناس، كان البعض يصلون، وكان البعض منهمكين بالدعاء والتضرع، وكان آخرون جالسين في حضور مرضاهن الذين جيء بهم الى المرقد، وقد ذهبت ايضا آمه خان الى عندهم واسندت ظهرها الى عمود، وأدارت عينيها بقلب خافق من بين الناس.

كما ان الدنيا ضاقت في عيني توفه والأخريين وكن يبحثن عن آمه خان، وقد ارتبكن وخفن كثيرا، حين مدت السيدة زبيدة بغتة يدها بلهفة وقالت فرحة:

– اي والله هي ذي آمه خان وقد وقفت خلف هذا العمود، تبدو بأنها هي من خلال ثوبها ووشاحها.

ذهب الجميع بسرعة وحين نظرن وجدن انها آمه خان نفسها. لقد استحال توفه الى العاب نارية لفرط ما كان مرتبكا ومتعوقا.

قال بعصبية:

– اولم اقل لا تبتعدي عنا، فاين ذهبت انت؟

ان صلاتك ودعاءك سبع ليال وسبعة ايام لا ينقطعان قط.

مسحت آمه خان دموعها وقالت:

– ماذا اقول وما ادراني، كنت مسندة رأسي الى النافذة مكبة على قراءة الدعاء بشكل متواصل، وحين رفعت رأسي، ما كنتم انتم في مكانكم.

لقد امتقع وجه حەپسەخان، وكانت مضطربة من تأثير اختها، فقالت بلهفة:

– الشيء الجيد الذي قطعه عقلك هو انك وقفت في تلك الزاوية، فاذا ضاع احد من الآخر عليه ان يقف في مكان ما، والا اذا ذهب للبحث عن الآخرين، والآخرون يذهبون نحو طرف آخر فلن يعثر احدهم على الآخر.

– تنفس توفه تنفسا وقال:

– ولو كنا نعثر عليك بسرعة، لكنني خفت وقلت انها لا تعرف اللغة، ان يخدعها شخص، في هذا المكان المكتظ بالناس والذي يمتلأ بالنصابين والمحتالين واللصوص، يجب ان يكون المرء يقظا منتبها.لقد حل الظلام حين عادت حەپسەخان والأخريات ووصلن الى البيت.

قال حاجي مجيد:

– كدت ان اكون في هم وألم.

وقال اخوه:

حين حل الظلام ولم يظهر لكن اثر، اولج الشيطان في قلبي خيالا سيئا، خاصة لا يمر يوم وان لا تكتب الصحف من انقلاب حافلات.

جلست آمه خان على مقربة من المدفأة وقد وضعت يدها على خاصرتها وقالت:

– وي ابتاه اخذت خاصرتي تؤلمني، اظن قد بردت، ركضت احدى البنات وقالت:

– اذهب حالا لأجلب لك كيس الماء الحار.

والأخرى وضعت امامها شايا حارا فائرا. كأن آمه خان والأخريات منذ شهر ذهبن للسفر، لفرط سرور اهل البيت بعودتهم من هذا السفر القصير الذي

استغرق كله ساعة، أخذت آمه خان جرعة من شايها والقت نظرة على زوجها واخ زوجها وقالت:

– والله نحن ايضا كانت ارواحنا على اكفنا خاصة من هذه الجهة عندما ذهبنا.

ثم اخذت تفتح موضوع سائق الحافلة ومغازلته لتلك الإمرأة الساقطة، وكذلك تحدثت عن ضياعها بالذات ايضا. كانت حةثسةخان اشترت المزهرية وشيئين وثلاثة اشياء التي كانت توضع فوق المائدة، واخرجتها بمساعدة صبرية من الكارتون ورفعت رأسها الى السماء وقالت بحرقة وجدية:

– اوه يا ربي ان اضع هذه على مائدة بيتنا في السليمانية.

قالت حەپسەخان بفرحة:

– حالما لمستها لأشتريها اطلقت هذه الآهة وقطعت نذرا على نفسي لحضرة المعصومة تلك!!

كانت السيدة زبيدة ذاهبة الى غرفتها، وقد حلق حولها الأولاد، كان احدهم يأتي بالشاي لها، وآخر كان يضع امامها صينية الأكل، وهي كانت تسرد لهم موضوع سفرها.

***

مرت الأيام بهذا الشكل على عائلة بيت حەپسەخان الى ان بلغت سنة ونصف واكثر، خلال هذه السنة والشهور، جاء اولادهم مرات باجازة وبالتناوب لزيارتهم، ذهبت روناك وامها وخالتها الى هەمەدان لزيارة والد بيستون، بقيت روناك في بيت حماها، وكانت بين فترة وأخرى كانت تعيد زيارة بيت والدها، خلال تلك المدة جيء بوالد بيستون مرتين الى طهران بسبب مرضه، ثم عاد الى مكانه في هەمەدان وقد تحسنت صحته تدريجيا، وكان توفه وبەختيار وسمايل وكاوەو كامەران فهم ايضا زاروا مرة مرتين الپێشمەرگه في (هەمەدان) وكانوا يعودون الى طهران عند حەپسەخان والأخريات.

***

انقلبت السنة مرة اخرى، وكانت بداية الخريف، تحلق ذات مساء حاجي وافراد من عائلتهم واهني القوى متذمرين، وكانوا جالسين في الطرمة الكائنة امام غرفة الضيوف، مع ان الدنيا كانت عكرة وعاصفة وباردة قليلا، كانوا يريدون اشغال الأطفال الصغار، خاصة ابن نةوبةهار كوردو الذي كان اكبر منهم، وقد تكلم الكلام الضخم، وكذلك كان يغني لهم ويقلد المغنين الفرس له، وكان اسوة بالأطفال الآخرين كانوا مكبين على المشاكسة والتحرك والشراسة.

دق جرس الباب، ركض احد الأولاد في الطابق السفلي وفتحه:

اقحم شيروان ونه وروز البيت .

ان الذين كانوا جالسين في الطرمة والأيوان انتفضوا ودب فيهم صياح وبكاء من فرحة مجيء الولدين وبدأت القبلات والمعانقة.

والوالدان سألا بوجه بشوش صبوح عن احوال الجميع، ودخلوا معا الغرفة وجلسوا.

قال حاجي مجيد بشيء من الحيرة:

– رحبكما الله بالخير يا ابني، ولكن لماذا هكذا مفاجأة، خير ان شاء الله، هو كله اسبوعان عاد علي وبيستون.

قال شيروان بابتسامة جذلة:

– جئنا لنفرحكم !!!

فرح الجماعة تماما يا ترى اي شيء وقع؟!

دون ان يلوذوا بالصبر كان كل واحد يقول شيئا من طرف، يلح على شيروان ونةورؤز ان يتكلما ويفهمانهم ليعرفوا ماذا حدث؟ما هذا الخبر المفرح حيث جاءا ليقولاه لهم.

قال ونةورؤز:

– عمر الله بيتكم نحن منذ الصباح في طريقنا اليكم، اتركونا الآن، افسحوا لنا المجال لنأخذ نفسا!!

قال ابوه كاكه حاجي بلهفة:

– سلم جسماكما يا ربي، ان شاء ترتاحان تماما وتستريحان، ولكن بالله، لم نعد رابطي الجأش، قولا لنا حتى ولو بكلمة واحدة.

كانت صبرية من فرحة ان شيروان وابن عمها نه وروز عادا بهذا الوجه البشوش، لم تكن تستقر في اي مكان، كانت اكثرية كلامها تشبه الهذيان.

اضطر شيروان ونەوروّز امام هجمات الجماعة ان يخضعا لأمر الواقع ويحكيا لهم الكلام بشكل ارتجالي.

– والله ابشركم ببشرى، لقد بدأنا مع اصدقاء جهتنا بالحوار، وسيأتي في هذه الأيام عناصر منهم الى عندنا لكي نصل الى اتخاذ قرار.

شرع الجماعة بالتصفيق وقد وثب البعض منهم، وقد صعد الأبناء المتواجدون في الطابق السفلي بسرعة الى الطابق العلوي، وقد التفت كلهم حول شيروان ونەوروّز، وكل واحد اخذ يوجه سؤالا وجعلوه صخبا وصراخا.

لقد بلغت ابتسامة توفه الى اذنيه لفرط ما توسع فمه واحمر وجهه من فرحة هذا الكلام.

التفت الى حەپسەخان واخته وهز رأسه قائلا:

– الم اقل لكما لا تقلقا الى هذا الحد، نبأني قلبي بانكما تسمعان قريبا بشرى حلوة.

آمه خان التي اصبحت مثل المنتشية من فرحة هذه البشرى، ومع ذلك احتارت من كلام هاجس توفه وقال في قلبها:

– معاذ الله من فم توفه هذا فهو حاضر البديهة لكل كلام وموضوع.

فاي يوم يا ترى قال لنا هكذا الا تحزنن لأن هاجس قلبه يتنبأ بحدوث شيء مفرح.

قالت آمه خان في خفاء:

أمانا صدق من عمل الله في لسانه ونفخاته!!!

ان العائلة عادت قليلا الى رشدها بعد تلك الأثارة والصرخة، لقد ركن الولدان الى الراحة، وكانوا هم حولهما، كان البعض منهم يجلسون، وكان البعض الآخر يترددون الى الغرفة والأيوان والباحة، ولم تكن تستقر في مكانها من الفرح.

التفت حاجي مجيد الى شيروان ونه وروز بفرح وقال:

– والله كان هذا بشرى حلوة، ولكن كيف كان كذلك، من بادر منكما في المسألة؟

هيأ شيروان نفسه ثانية ونظر الى حاجي قائلا:

– منذ مدة سمعنا بأن الحكومة هيأت نفسها مجددا وتأخذ الإستعدادات بالهجوم عليهم، وقد شنت عليهم بعض الهجمات في مناطق.

ضرب شيروان يدا بيد وقال:

– عليه نحن ايضا لم تبق في يدنا حجة، لأننا في حينه كما تعرفون اختلفنا معهم بسبب ايقافهم القتال مع الحكومة، وقد صدقوا اكاذيب الحكومة وقالوا للشَيَشمةرطة والناس..

– كل شيء انتهى وتم حسمه، ليعد كل شخص الى اعماله وعائلته.

بهذه السهولة وبدون تفكير في حال ومشاعر كل هؤلاء الناس المنكوبين والذين استشهد ابناؤهم، لقد فعلوا ما فعلوا، واخيرا صدق كلامنا، لقد احتالت عليهم الحكومة الى ان تعززت مواقعها وتحصنت، واضعفت قوة الكورد وجعلتهم طرفين منشقين، ثم بدأت بشن الهجوم عليهم، ونحن كيف نقبل هذا، لذلك نعود دون تردد لمساعدتهم والأختلاط مجددا كالسابق، ولو ان حەپسەخان قد فرحت جدا بهذه الأقوال، وبقي ان ترقص، ولكن اكتأبت قليلا فجأة كأنها عادت الى صوابها وقالت:

– اواه لا يجوز ان يعودوا قريبا؟ اولم نر علي وحسين والآخرين؟او لا يعودون الينا؟ ماذا يفعلون بنا ؟ان شاء الله لا يتركوننا هنا؟ علق نەورۆز قائلا:

– ثم يا خالتي كيف نعود دونكن؟ وكيف يعود كاكه علي والآخرون دون التقائكم؟ نظر حاجي مجيد برغبة الى زوجته حەپسەخان وقال:

عمر الله بيتك، افرحي قليلا مقدما، انظروا اليها تفكر في اي شيء الآن بذات الله كأنك حقا (العم المهموم) لابد ان تجدي شيئا لكي تضجري نفسك. ضحكت حەڤسەخان وقالت:

– ماذا اقول يا ترى؟ قلت لا يعود الأبناء فجأة وتتركوننا هنا، ويقولون تعالن انتن فيما بعد!!

علقت صبرية هناك وقالت:

– اشهد بالله لا ينقصنا فقط هذا ،

.فتح توفه جامانته، وانشغل ثانية باعادة شدتها وقال:

– اقول لكن منذ الآن، لا اجلس في حضور احد قسما بمرقد الرسول (ص) اعود قبلكن جميعا وقبل الثيَشمەرطة، اذن استثنوني من حساب البقاء وعدم البقاء، قلت لكم ذلك.

التفت آمه خان الى توفه ضاحكة وقالت:

– طيب مولانا، سيد المحلة لا تبق في حضورنا.

اطلقت آمه خان ضحكة ونظرت الى الجالسين وقالت:

– اهذا كلام ان لم يتقدم قائد الفرقة؟! كيف تعرف قوة الثيشمەرطة اذا لم يكن كاكه توفه قائد الفرقة كالغزال في مقدمتهم، لله دره انه خبير بكل الطرقات، ولو انه قد ضلل الطريق في حينه الا انه كان واصلا جبال كوردستان تركيا.

كان توفه مسرورا جذلا لذلك ضحك هو ايضا من اقوال آمه خان وقال:

– ان كلامك كالنقش على الحجر يا (آمر المخفر).

اطلق الجميع قهقهة الضحك بالحوار الدائر بين آمه خان وتوفه.

***

ظل شيروان ونەورۆز فقط اربعة ايام في طهران عند امهما واهلهما، كأن يطلعانهم على اوضاعهما ويوجهان لهم بعض النصائح من هذه الناحية.

وبعد عودة الأولاد مباشرة، بدأت حةثسةخان واختها بلم وتهيأة انفسهما، كأن السيارة في انتظارهما.

بتلك الحالة جلسن في حضور حمولتهن، كان يصدف احيانا ان احداهن كانت تذهب للحمام للإغتسال، فكانت تجلس، وتفتح وتفك مرة اخرى حقيبتها لإخراج الملابس لنفسها والأخرى كانت تعلق من ذلك الطرف وتقول:

– اختي امي لماذا تضمون الملابس الضرورية، لحد الآن لم يظهر احد ليقول تعالوا واذهبوا، الله اعلم بعد شهر آخر يقولون لنا تعالوا اولا.

وكانت الأخرى تقول:

– بالله عليكن لنذهب الى السوق مرة اخرى، وي يا امي ربما نحنُّ الى طهران كثيرا، مهما يكن سواء شئنا ام ابينا صرنا هنا اكثر من سنة وستة اشهر، فأكلنا من خبزهم وملحهم، ليعمر الله بيتهم فانهم آوونا وخدمونا، بأي هدف وغرض يكون لا شأن لي في ذلك انا اقول (اذا ما شرب الإنسان الماء من عين لا يجوز ان يلقي فيها الحجر)

كان الآغا الرضائي يمسح عينيه بعض المرات ويقول:

– يعروني البكاء عندما يقولون انتم نعود، لقد تعودت عليكم حقيقة، ساذكركم واحن اليكم كثيرا اذا ما عدتم، بالله عليكم لآتي انا ايضا معكم، وحين كان الآغا الرضائي ينزل كانوا يتجمعون ويتهامسون، وكان هذا يقول:

– وي صحيح انه يحزن من اجلنا، اتراه كيف اغرورقت عيناه بالدموع.

كانت صبرية تتكلم بكثير من اللباقة وتقول:

– يا جماعة انه يكذب، اي دمع واي حال، لقد قالوا له ان يقول ذلك لعلنا ان نأخذه معنا وهناك يتجسس لدائرته.

وما ادراكم انتم ان هؤلاء يخفون في قلوبهم آلاف المراوغات والمخادعات.

والأخرى كانت تقول:

– قد يصدق ويقول من اعماقه اذا ما ذهبنا يحن الينا، ويقلق علينا، ان التعود يؤثر كثيرا على حياة الإنسان، وليس شيئا سهلا هكذا، ان شاء الله اذا عدنا حينئذ كيف نفكر فيه ونتذكره سريعا سريعا.

لقد انشغل توفه كثيرا بأخبار موضوع الإتفاق والعودة الى الوطن ولملمة الأشياء، كان مرتبكا جدا، احيانا كان يحمل على النساء ويقول لهن:

– اين انتن لم تفعلن لحد الآن اي شيء، هيا لملمن انفسكن.

مرة اخرى حمل عليهن واخذ يدمدم وقال:

– اين انتن ما زلتن لم تفعلن شيئا.

– اخي فك ياقتنا ماذا نلملم ونجمع وماذا عندنا (حانوت بكرة خياطة وقالبا صابون) كما يقول المثل، ماذا نمتلك غير اثنتين ثلاث حقائب والخرق والملابس القديمة البالية واشياء نسائية خفيفة صغيرة.

اضحى توفه كالمجنون، يصادف في بعض الأيام انه ما كان راغبا ان يأكل اكثر من وجبة واحدة وذلك في عجلة من موضوع متى يعودون؟!

كما انه كان ذهنه منشغلا بالأشياء الصغيرة ايام جاؤوا الى طهران، كمصباح انكليزي ولوكس لم يستعمل كثيرا وبعض المواعين التي اشتروها حينذاك في قرية فاتمه خان، حيث كان (الآغا الحسني) الذي كان دليلهم اخذ كل الأشياء الجيدة له، وترك لهم الرديئة مع صينية وصينيتين معوجتين ودلو الماء واقداح وطباخ نفطي صغير ذي عين واحدة وطنفسين قديمين. لقد جمع توفه هذه كلها وقال:

– يمر هنا مشتري الأشياء القديمة، ابيع له هذه الأشياء واشتري فيما بعد بها حاجة جيدة ونأخذها معنا.

لقد ضحك جميع افراد العائلة خفية منه ولم يتجرؤوا ان يقولوا له:

– اخي ابي لا تساوي هذه الأشياء شيئا، اعطها لفقير لشخص ما، لذلك تركوه وقالوا:

– كما تشاء افعل ما تريد.

* * *

في احد الأيام بعد منتصف النهار سمعوا صوت صراخ امام باب الباحة، كان الأولاد قريبين من الباحة سرعان ما ركضوا ليعرفوا ماذا في الأمر؟

كان صوت توفه يتناهى الى آذانهم وكان يصرخ ويصيح ويكرر ابن الكلب ابن الكلب، ركض بهختيار بسرعة، نادى سمايل بسرعة (الآغا الرضائي) الذي كان مكبا على الطبخ في المطبخ، ذهب الجميع دفعة واحدة، وقد وصلت الى عندهم حهپسهخان وصبرية ونةسرين منبهرات، فوجدن ان توفه استشاط غضبا لا حد له، ولا يقدر على الكلام لحدته ويهز يده ويقول:

– يا سافل يا ابن الكلب، انت رجل مسن وخرف فماذا قلت انا لك لكي تقول لي هكذا؟ كاد ان يهجم عليه والذي كان في مثل عمره.

رجل رث الثياب والهيئة فقير بائس، وضع كيسين فارغين من امامه، كما ان توفه كوّم امامه الأشياء المتهرئة، ويصرخ باستمرار ويتهاجمان، ويأخذ احدهما تلابيب الثاني، توسط بينهما بةختيار والأولاد الآخرون بسرعة وفرقوا بينهما.

غضب (الآغا الرضائي) من الرجل الرث، وعاكسه وقال له بالفارسية:

– ما هذا؟ او لا تعرف تتشاجر مع من؟ ان هؤلاء ضيوف الدولة، واذا عرفت الدولة فيما بعد (تخرج اباك من القبر)!

التفت الرجل الرث بتلهث وغضب الى (الآغا الرضائي) وقال:

اخي، مررت هنا، وناديت على من يمتلك الأشياء القديمة جاء هذا الرجل راكضا وقال:

– تعال عندي اشياء.

وانا جئت، وهو دخل البيت جلب هذا السجاد والأشياء القديمة المتكسرة. وبعد ان نظرت اليها قلت آغا ان هذه المواعين والصواني والأشياء لا تفيدني، لكني اشتري منك الطنافس والمصابيح النفطية، وهو قال طيب بكم؟ فانا قلت له كلها بثلاثة تومنات (عملة ايرانية – المترجم) ان تعطها جيد والا فانت (اختيار دارید) اي انت مخيّر، او حسب رغبتك.

واجه الآغا الرضائي وبهختيار توفه وقالا له:

– طيب ماذا فعل هذا الرجل حتى ان تنهال عليه بكل هذه الشتائم واحدثت هذه العركة الكبيرة؟!

توفه الذي اضحى كلعبة نارية سعل قليلا ونظر اليهم بطرف عينيه شذرا ناريا وقال:

– كيف ماذا فعل؟ انا اقول له اهذا تعاملك؟ انا اقول بمئة تومن فانت تقول بثلاثة، بينما هذا السافل المتسكع يقول لي والله انك رجل مسن ومخرف.

قال الآغا الرضائي بشبه فارسية وكوردية غاضبا:

– طاطا- اخي متى قال هو لك انت شيخ (عجوز) ومخرف؟ يقول الرجل (اختيار دارید) اي كما تشاء، حسب رغبتك، اختيارك لا تعطها بهذا المبلغ، لا تعط!!

مهمايكن، فانهم واسوا الرجل وشاركوا عاطفته وقالوا له لقد حدث بينكما سوء تفاهم، لا ضير لا تضجر، وقد جروا ايضا ساعد توفه وادخلوه البيت!!

لقد جاء كلا الحاجيين الى الأيوان وكل واحد منهما كان ينظر الى الثاني بحيرة، فماذا حدث يا ترى؟ وكاد الأبناء يغمى عليهم من تأثير الضحك. صبرية التي كانت تقوى اكثر من كلهم على توفه كانت تضرب يدا بيد قالت:

– اواه كيف اصبحنا سينما المحلة، جاء جميع الجيران الى ابواب بيوتهم، والآخرون كانوا ينظرون الينا من النوافذ، بسبب ماعونين ثلاثة مواعين مكسرة والبساط المتهريء، وكلها لا تصلح الا وان تلقى في صفيحة القمامة والمزبلة.

نظر اليها توفه وقال ساخرا:

– لماذا تصلح للمزبلة (يا مفتشة)

اجابته صبرية وقالت:

– اوه روحي فدى لفارسيتك، لادر درك وانت منذ سنة تذهب الى المدرسة، بينما لم تفهم من الرجل ماذا يقول وقد اثرت هذه الضجة.

قال كاكه حاجي في الأيوان:

اخي حبيبي، بقيت لنا كلها ايام هنا، ونحن على موعد الرحيل، لا داعي ان نسيء الى انفسنا ونجعل منها مترددي السمعة، ان جميع الجيران يحترموننا ويقولون انهم عائلة هادئة.

قال توفه مع نفسه:

– اذن، لا داعي لمدحنا، ولم تتوقف امورنا عليهم، وقد قال في خفاء:

– ولوجا قبر ابيهم الكبير!

نخس حاجي مجيد اخاه وقال بهدوء:

– خاطر الله لا تناقشه ولا تثره.

***

كان الوقت يربو على الشهرين حين كان شيروان ونەورۆز عائدين الى هەمەدان عند الپێشمەرگه، وهن كأنهن جالسات على النار متى يرسلون لهن الجواب ومتى يأتون في اثرهن.

اضحى اليوم عندهم سنة، ولم يكن الليل ينتهي ابدا، احيانا كانت حةثسةخان تقول:

– والله كأن نرسل بةختيار اليهم، لماذا لم يبين احد منهم، لقد ذابت قلوبنا.

كان حاجي مجيد يبدأ بالكلام:

يا جماعة اصبرن فالصبر جميل، تمالكن انفسكن، طبعا لم تغتنم لهم الفرصة لحد الآن، وهم ايضا يتهيأون، ربما تعرضت طريقهم الى الف عرقلة وعرقلة.

وكان اخوه يهز رأسه من ذلك الطرف ويقول ملولا:

– والله خفت كثيرا ان الحوار قد تردى واخفق، فأنتن لا تعرفن بان الكثير من الفوضويين والمشاغبين لا يحبذون ولا يرحبون بهذا الإتفاق بسبب مكاسبهم الخاصة، ويريدون تخريبه، لأنهم يخافون من ان هذا الإتفاق يؤدي الى زوال الشقاق وتردي اوضاعهم لذلك فانا منقهر جدا.

الله يرحم بنا، لقد اصبنا جميعا بالحزن والكآبة في غضون هذه السنة والنصف.

وكانت نەوبەهار تقول:

– قل لا يقدرون ان يكتبوا سطرين من الرسالة، فكان قبل هذا الموضوع تأتينا اسبوعيا رسالتان ثلاث.

وكانت نەسرين تجيبها وتقول:

– اوه عسى ان لا يقولوا هذا الكلام البتة، ولم يلقوا بنا في الجذبة ورقصة الدراويش.

كان توفه يأتي اليهن غاضبا ويقول:

– بالله بالله ليس اقرب من الغد، استأذن واركب الحافلة، اين انت يا همدان فها انا جئت.

كان توفه يضرب يدا بيد ويقول:

– اخي اصابني الأرق ليلا، اقول كل ليلة يا الله ان يأتي لنا خبر، في الحقيقة هم ايضا عكروا صفونا.

***

استجمع ولم توفه نفسه هذا الصباح بعصبية وقال للأبناء:

– عهدا علي ان اهيم على وجهي وان اكون من تلقاء نفسي هائما في تلك الشوارع والطرق والصحراء ولا اعود الا ليلا هما وكمدا من علي والآخرين حيث لا يسألون عنا ولا يأتون الينا.

اخفى بهختيار ابتسامته وضحكته كرها وخوفا من توفه وقال:

– اخي العزيز انا اقول تمالك نفسك اليوم ايضا، لا تذهب الى اي مكان، اخاف ان تغضب وتتعرض الى مشاجرة، شيء!!

هيأ توفه نفسه دون الإهتمام بنصائح بهختيار، وقد وضع سيجارة بين شفتيه واشعلها وقال بفم مغلق دون ان ينظر الى احد منهم:

– وداعا وذهب الى الخارج.

وقف قليلا امام باب الباحة كأن يفكر في اي اتجاه يأخذ سمته، وبعد وقفة تبين ان توفه قد كان متخذا قراره الى اين يمم وجهه، لذلك سعل مرة مرتين ونظف حنجرته وبدأ يسير نحو الأسفل الى محطة الحافلة المتجهة الى داخل المدينة والسوق الكبير.

***

عاد توفه مساء في الساعة الثامنة تعبا منهوك القوى، ودق الباب باكتئاب وفكر كيف ان هذا اليوم ذهب ايضا عبثا، ولم يحصل على شيء سوى التعب والإرهاق، وهذا المبلغ الذي كان يمتلكه واحتفظ به في جيبه قوي الظهر به وكثيرا من المرات حين كان يريد ان يشتري شيئا يقول:

– يالله لأتخلى هذه المرة ايضا، فلأحمل نقودي ولا اصرفها، لتكن لشيء اكثر ضرورية.

وكل المبلغ الذي كان يفرح به وملأ جيبه لم يكن يبلغ ثمانين دينارا، بينما اليوم ايضا لأنه كان يتجول دون عمل وشغل في السوق، صرف نصف النقود عبثا وقال:

– هذا البلوز رخيص جدا، ان هذه الجوارب سميكة وجيدة، ان هاتين القدحين الملونتين هما من الأشياء التي ترغب فيها حةثسةخان والآن تسر بهما، اجل لأشتري هذه الخرخاشة والدمى لذينك وثلاثة اطفال، بينما نفد نصف نقوده، صرفها كلها على اشياء غير ضرورية جدا، حيث كان يتمكن ان لا

يذكر ستة اشهر اخرى ذكر البلوز والجوارب ابدا. لأنه كلما كان يذهب الى السوق، كان يشتري زوجا من الجوارب، والآن يمتلك جعبة من الجوارب مع بلوزين غير ملبوسين.

كما ان خرخاشة ودمى الأطفال التي صرف عليها كل هذه النقود، ستلقى بعد يومين في سلة ملاعيبهم الأخرى، او تبعثر هنا وهناك، في حين انهم على سفر وما حاجتهم الى الأشياء الزائدة.

عاد توفه الى رشده وقال:

– ما هذا كأنكم نائمون؟ كم مرة دققت انا الجرس، وهذه المرة ضغط على الجرس باصبعه مرات، ثم اصاخ السمع من صوت.

فتح اسماعيل الباب، قال توفه بوجه مقطب جدا:

– ماذا كم مرة دققت جرس الباب لم يأت احد ان يفتحه يبدو ان مقهى (حەمەرەق) دافيء مرة اخرى، ولم تكونوا منتبهين بسبب صوت الراديو والأغاني وطقطقة لعبة الدمنة.

قال سمايل بوجه طلق:

– انت اولا اركض الى الداخل، لقد جاء كاكه علي والآخرون، الم نقل لك اصبر اليوم ايضا، ولا تذهب ولا تتميز غيظا الى هذا الحد!! تنشط توفه فالقى نفسه بسرعة في الباحة، واثناء الدخول قال:

– متى نعود؟ الم يقولوا متى؟

قال سمه فرحا:

– والله لا اعرف، منذ نصف ساعة قد وصلوا، ولم يتحدثوا عن هذا لحد الآن، صعد توفه بجعبة اشيائه، وقد نسي من فرحته الغضب وصرف النقود وكل شيء خاصة ان الشخص الذي جاء هو حبيبه علي، دخل الغرفة بشوق ولهفة، نهض له علي من بعيد وعانقه، وجاء بيستون وروناك بسرعة وعانقتاه، التفت توفه الى علي وقال:

– ماذا فعلتم وماذا فعلتم بنا، والله وبالله، ان ما حزنت وتألمت في غضون الشهرين الماضين، لم اكن متضايقا ومتذمرا منذ ان ولدت قدر ما كنت فيهما وذقت مرارتهما.

اطلق علي قهقهة فرحة وقال:

– لماذا ؟ لماذا؟ لا سامح الله حبيبي كاكه (توفيق)، ليكن عدوك متضايقا ضجرا، فها جئنا، فالشكر لله كل شيء حسم، سار نصف الرفاق وقوتهم نحو الوطن، لقد بقي البعض منا الآن، وذلك بسبب اسلحتنا لأستعادتها جميعها من الدولة.

قرب علي رأسه من والده وعمه وقال:

– ارسلت لهم الإذاعة ايضا وهي في طريقها مع الرفاق، من حسن الحظ لم يعرف لحد الآن اين حقائبنا الحديدية؟!

قال له والده هامسا:

– كدت ان اسألك ذلك الكلام الذي كان في قلبي، رفع حاجي رأسه بهدوء وقرأ دعاء ثم رفع صوته قليلا وقال:

– ربي الف مرة شكر. والله كان هذا بشرى سارة، توكلت عليك يا ربي.

مازالت الجعبة في حضن حةثسةخان تريها لأختها والبنات. وقد احمرت خداها من فرحة مجيء ابنها علي ورونـاك وبيستون واحبائها الذين كانت تحن لهم كثيرا، تخلت عن النظر الى الأشياء، ونظرت الى ابنها بنظرة مفعمة بالشوق واللهفة والحب الأمومي وقالت:

– طيب فداك روحي، وماذا تفعلون بنا.

ضحكت صبرية من هناك وقالت:

– قولي لهم حبيبي، انهن منذ شهرين ينامن على حمولتهن من اثر ذلك.

ضحك علي وقال:

– انتظري يا امي، لنعد في البداية نحن، فمكانكن هنا جيد، ربما بدأت الحرب، فاذا ما عاد هؤلاء الأطفال المساكين الى المدينة ماذا تفعلون كل يوم في لجة الحرب والخصام والإختفاء في الثغور خوفا من قصف الطائرات، فلنعد نحن على الأقل لنعرف ونطلع على الأوضاع واحوال الناس، حينئذ يعود احدنا في اثركم، والآن وقد حل الشتاء، اذا تقتنعون برأيي، لا تفكروا بهذه العجالة في العودة.

بيستون الذي كان مع روناك ينتقلان حينذاك من هذه الغرفة الى اخرى، اقحم بيستون الغرفة وعلق، كأنه يكمل كلام علي، قال مبتسما:

– ماذا حماتي العزيزة علام هذا الإستعجال؟ أنسيت حفرة الطائرة ام تحنين لها؟!

ان ما قاله كل من علي وبيستون ايقظا الجميع دفعة واحدة، قالت حةثسةخان بحرارة:

– اوه ماذا تقولان انتما، لقد انتابنا الهم والألم في غضون تلك الأسابيع، نسترق السمع متى تقولون لنا هيا تعالوا، والآن تقولون لنا هكذا؟!

التفتت الى بيستون وقالت:

– تقول حفرة الطائرة؟ الا والله احن اليها، والله ينقصنا ان نجلس هنا نأكل التمن واللحم ونركن الى الإستراحة وانتم تخوضون القتال والنيران ونكون متباعدين على ذلك القدر.

رفعت حەپسەخان يدها وقالت بلهفة:

– والله والنبي (ص) انا اصرخ خوفا واموت، تنشطت آمه خان ثانية وقالت:

– اذن قولوا فها نحن نعود وانتن متن هما وكمدا في مكانكن.

وضع توفه سيجارته في نفاضة السجاير، وضغط عليها بقوة جدا كأنه يصب جام غضبه بذلك، ثم القى عليهم نظرة وقد تلجلج لسانه من شدة الغضب قائلا:

– ماذا ماذا تفعلون؟ تتركوننا هنا؟ والله قسما بمرقد ذلك كاك احمد الشيخ، ان لم اخط معكم خطوات لا ابقى هنا، لماذا يا اخوان او تريدون ان اذهب الى مستشفى المجانين؟

قالت روناك بدلال:

– والله كانت حماتي تقول تبقون هنا الى فصل الربيع، فأين اذهب بهؤلاء الأطفال وذلك الرجل المريض بهذا الخريف المتأخر، وفي هذه الطرقات الشاقة الوعرة.

تلقف بيستون كلامها وقال:

– وقال والدي حين عدت اجر ترميمات في دارنا، لأنه كما تعلمون ان دارنا خالية الآن، وان ذلك المعاون السافل قد هدم جدارا جدارين فيها.

لذلك من الأفضل الا تذهبوا في هذا الشتاء.

قالت نةسرين:

– والله من جهة انهم على صواب، فأين نأخذ بهذا البرد والزمهرير هؤلاء الأطفال والعائلة، وبهذا الطريق الوعر ووسط نيران الرصاص، ولو تنخلع روحي فان الآلاف من الناس المدللين هم في تلك الأرياف والوديان، فنحن لسنا اكثر دلالا. ولكن لأننا هنا يحق لنا ان نفكر فيه.

انغلق فكر نەوبەهار من فرحة مجيء زوجها علي، لم تسمع من الجماعة ماذا يقولون وماذا لا يقولون، وفجأة كأنها صحت من غفلتها وتذكرت تلك الطرقات التي استغرقت قطعها الأيام، وقد تخيلت محياها وحاشيتي ثوبها وصايتها المشمرتين وهي حاملة طفلها على ظهرها ومنكبها، لذلك هي ايضا التفتت الى علي وقالت:

– طيب اذا ما عدنا ينبغي ان نمر بذلك الطريق الذي جئنا منه؟ او ليس هناك طريق آخر؟!

نظر عليها علي بابتسامة، ولولا خجله من والده وعمه والآخرين، كان قبل الرد على سؤالها يقبل ذلك الجيد وجهة من رقبتها وخديها.

اجابها علي قائلا:

– الا والله، يوجد فقط ذلك الطريق، لأننا يجب ان نسير بالطريق المحظور، والا فثمة طائرة تأخذك الى بغداد خلال اقل من نصف ساعة، وكذلك سيارة تأخذك الى الوطن في غضون ساعتين، ولكن هذه ليست لنا.

يجب علينا ان نذهب بالسيارة الى ان نصل الى بانه او سةردةشت، ومن هناك مشيا على الأقدام وركوب الحصان، وانتم حسب رغبتكم، عليه ان تفكروا فيه.

قالت حةثسةخان بملالة:

– وماذا تفعل العوائل عندكم؟

قال علي:

يقول اصحاب الأطفال لا نعود حاليا، الى ان يحل الربيع. والذي ليس لهم اطفال صغار وان ابناءهم ما شاء الله كبار وثيَشمةرطة، هؤلاء يعودون. وقد عاد معظمهم مع الثيَشمةرطة.

قالت آمه خان بلهفة:

– بالله عليكم ماذا فعلت السيدة زبيدة وكناتها؟!

انفجر بيستون ضاحكا لمجرد ان سمع اسم السيدة زبيدة، وقال:

– تتفضلن السيدة زبيدة؟! اوه تكون هي ورأسها وطاقيتها السلالية العميقة، فهي أخذت سمتها في وقت مبكر مع الپێشمەرگه وعادت.

ولم تنتظر ولم تسمع كلام احد لفرط تنفرها واكتائبها.

قال توفه بقوة بوجه عبوس ومتجهم:

– لماذا الم تكن غير محقة؟ سلمت يداها يا ربي.

***

تحلقت العائلة الى وقت متأخر في تلك الليلة، كانوا يفكرون فيه، وكل واحد منه كان يفكر في طرفه ويقول للآخرين ماذا يطيب لهم ان يفعلوا، مرة كان يحدث جدال وصراخ، وأخرى كانوا يتراخون ويهدأون.

ذلك كان يقول لابد ان نعود، والذي كان يفكر كان يقول والله صحيح ما تقولون، فأين نذهب في هذا الشتاء القارص العاصف بهؤلاء الأطفال؟!

اصبحت حةثسةخان واختها جراء خوفهما من عودة ابنائهما الى ميدان المعركة تحت اطلاقات الرصاصات المتواصلة، وكذلك يبتعدون عنهن كثيرا اشبه بالمجنونتين، وقد كانتا تنتفضان حين كانتا تسمعان مثل تلك الأقوال، وكانتا تقولان بارتباك:

– لا يقل احد مثل تلك الأقوال، فاننا نعود حتما، لأنه اذا لم نعد ستتقطع قلوبنا.

كان من المفترض ان يعود علي وبيستون في وقت مبكر، لأن رفاقهما الآخرين كانوا في انتظارهما.

طوال ذلك الأسبوع حيث كان علي وبيستون بين العائلة، وقد حرموا من النوم والإستراحة، قدر ما كانوا يفكرون في وضعهم، وقد ضاقت الدنيا في عين العائلة.

وأخيرا مهما يكن تمكن علي ان يقنع امه والأخريات، ويثبت لهن البقاء هناك اصلح، على الأقل الى ان يعودوا هم ويستوعبون الوضع، ثم يرسلون على اثرهم.

***

مرة أخرة تورمت العيون من البكاء وشدت الرؤوس بالعصابات من تأثير الصداع، وسرعان ما شدت آمه خان حزام سول بطنها مرة أخرى، ونادت أختها لتعمل على اعادة حالتها الطبيعية.

حين آن وقت الوداع والإفتراق طوقت حەپسەخان مجددا بقلب معتصر بيديها المرتعشتين المتخدرتين عنق ابنها، وقد لطخت صدرها وثوبها الخاكي اللون المبلل بالدموع.

كما فتحت ذراعيها بتنهدة لبيستون وروناك وقريبيها كامران وكاوه، حيث كان لابد ان يعودا هذا الشابان مع علي وآخرين. كانت حةثسةخان بعد هذه المعانقة وتبادل القبلات جلست في مكانها من ايوان الطابق العلوي وكورت نفسها، كأنها قدميها فقدتا القدرة على المشي وتوديعهم الى باب الباحة.

والآخرون الذين كانوا متداخلين، كانت هذه تمسك علي وتفك بيستون، والأخرى روناك، وتعانق كاوة وكامةران.

كما ان بةختيار بسبب بكاء ومناحة امه آمه خان وتوسل ابيه وعمه وخالته حيث قالوا له:

– اذا ما تركتنا انت ايضا يضطرب حال الجميع تماما، اضافة الى ذلك، كان علي قادرا ان يقنع هو ايضا ويفهمه ان الكفاح والپێشمەرگايتى ليسا فقط حمل السلاح والتوجه الى الجبهة بل ذلك ايضا جزء من الكفاح والثيشمةرطايتي ان يستطيع شخص ان يتحمل مهمة العائلة والمريض العاجز، وحمايتهم في الشدائد وادخال السلوى في قلوبهم وابداء المساعدات لهم، بأن لا تنهار معنوياتهم ولا يثبط من عزائمهم وهممهم، في حين ان ابناءهم قد انقطعوا عنهم بسبب الكفاح.

كان علي وبيستون وروناك والآخرون جالسين مهمومين داخل سيارة جيب لاندروظر، الى ان وصلوا حوالي الطراج مازالوا متأثرين من مشهد دموع امهاتهم وآقاربهم حيث كان يتراءى لهم، وكان كل واحد ينظر الى الشارع والطرقات بصمت، خاصة علي الذي اضحى كالمنذهل حيث كان يبدو على قدر كبير من التعب والأعياء، لأنه لكثرة ما قال لهم، وادخل السلوى في قلب هذا وذلك جف بلعومه.

تأفف علي تأففا طويلا ومد يده الى رأسه وجهة رقبته وقال:

– ان انشراح الصدر هذا والإقناع ومشهد دموع امي وخالتي والأخريات في نظري اصعب واشق من دخول نيران الرصاص.

هز بيستون رأسه باسما، ونظر في خفاء الى روناك التي كانت جالسة الى جانبه، ثم نظر الى علي وقال:

– حبذا بك، لقد نجوت، وما تزال دموع امي وبيتنا باقية.

قال علي بابتسامة ضعيفة:

– اي والله حضر نفسك منذ الآن.

– اغرورقت حنجرة روناك بالبكاء واحمر وجهها، لذلك طبقت كلا طرفي عباءتها واخفت وجهها، لكيلا لا ترى بأنها تكاد تبكي.

قال بيستون:

– يا ترى هل يلحق كاك شيروان والأخرون ان يأتوا ويزورهم ثم يعودوا.

قال علي:

– طبعا، ما ان نوصل سنرسلهم، يكفي ان يبقوا هناك يومين، وذلك لكي تهدأ قلوب امي والآخرين قليلا.

قرب بيستون رأسه من علي وقال على رسله:

– والله كان عمي حاجي يصدق، ليت بيتنا كان في طهران او كان بيتهم في هه مه دان، على الأقل ككونهم مشردين، لو كانوا جميعا في مدينة واحدة يشاطر احدهم الآخر في تهدئة واراحة النفس في الشدائد والملمات. وكانوا دائما يكونون معا، فان همدان وطهران متباعدتان جدا.

قال علي:

– عليه لنعرف كيف يكون؟، انا اقول من الأصوب في هذا البرد والعاصفة والشتاء ان يتريثوا ولا يتحركوا من مكانهم، خاصة ان الدولة ابدت رغبتها في البقاء هنا قدر ما يريدون. وقد مرت مدة جيدة على عودة قوة الپێشمەرگه الى

الـوطن، ولـو ان حەپسـەخان والآخـرين قـد سـروا مـن جهـة وانتعشـوا وكـانوا يعيشون بأمل كما ان معنوياتهم قد علت مجددا بأن هـذا الشقاق البائد والشكر لله زال، وتلاقت القلوب وتم التآلف والوفاق واصبح احدهم للآخر نصيرا وظهيرا ضد العدو، وكـانوا يقولـون هـذا واقـوال اطيـب منـه، ولكـن همـوم وعـدم سمـاع اخبار ابنائهم قد اقلقهم بعض القلق، وكـانوا دائمـا ينتظرون ويسـترقون السمع لتلقف خبر.

***

كان شتاؤه باردا جدا، تجمعت العائلة حول المدفأة والموقد، فكل واحد كان يتخيل، وكل واحد كان غارقا في بحيرة من الخيال، وكان البعض منهم عصبي المزاج لسبب البطالة وفقدان الصبر، وكانوا سرعان ما ينفعلون، ويعاكسون، وكـانوا في بعـض الأيـام يفرحـون انفسـهم بـأن الجـو الآن بـارد والسـماء ملبـدة بـالغيوم وتمطـر الأمطـار دائمـا، ربمـا ان الأولاد الآن مشـغولون جـدا بشـؤونهم الخاصـة، وبعـد ذلـك يرسـلون احـدا ولـيس سـهلا ميسـورا ان تمـر الأمـور هكـذا، فانهم الآن سعيدون.

كانوا في يوم غد يتضايقون ثانية (ماذا كان هذا)، مرّ كم يوم على سفرهم، يـا ترى الم يجدوا احدا ان يرسلوا بـه علـى الأقل احدا ويكلفوه بايصـال رسـالة او خبر سلامتهم.

مرة أخرى تنتاب العائلة الهموم والأحزان وقد اصبحوا في حالة حينما كانوا ينهضون صباحا من النوم، كانوا يجلسون، ويقصون بالتناوب احلامهم احدهم للآخـر، وكـذلك كـانوا يفسـرونها وفـق رغبـاتهم واهـوائهم، كـثيرا مـا كانـت حەپسەخان تجهش بالبكاء وتقلق على الأبناء، وكانت اختها آمه خان تفرج عن همومها وتهدأها وتجعلها ان تضحك، بينما بعد ايام آخر، كانت آمه خان تعيد شد حزام سول بطنها، وينتابها الصداع، وتغرورق حنجرتها بالبكاء، حينئذ كانت اختها والبنات يشرعن بازالة حزنها، بأن تلوذ بالصبر، وبعد كل كربة فرج

قريب، واقوال من هذا القبيل، لقد جمع كلا الحاجيين خيالاته وهمومه في قلبيهما، وكانا يحكيان احدهما للآخر خلسة من زوجتيهما والبنات الكلام غير المسموع وتصوراتهما السيئة، وحين كانا يريان الآخرين كانا يتظاهران بالمرح والسرور والإنشراح، وكانا يشرعان بالكلام المفرح ويتصنعان الإبتسامة.

***

عند الظهر صعد توفه بسرعة الى الطابق الفوقي، فأقحم الغرفة رأسا كالعاصفة حيث كانت العائلة اجتمعت هناك، يعبرون عن تذمرهم واستيائهم مرة اخرى، تشجع توفه والتفت اليهن مرتبكا وقال:

– ان اردتن الحقيقة؟ لا اتحمل بعد ولا اصبر، منذ ايام يخامرني شك بأن هذا السكوت للأبناء ليس عبثا، لابد انه حدث شيء!!

بسط توفه راحة يده وقد ثنّى اصابعه واحدا تلو الآخر اثناء لهاثه وغضبه ونفاد صبره وقال:

– طيب ان علي لا يتمكن او لا سمح الله لتصم اذن الشيطان انه مريض، وماذا عن حسين؟ حسين مشغول البال ولماذا شيروان يا ترى؟!

ان شيروان غارق في الأشغال والأعمال في الجبهة، وبيستون ؟ونةورؤز؟ امن المعقول من ضمن كل هؤلاء الأشخاص لا يمتلك احد منهم الإحساس والشعور، ولا يقطع عقله ان يقول لقد جنت امهاتنا وآباؤنا واهلنا واقاربنا، غريبات وغرباء بلا نصير ولا ظهير، ينتظرون بفارغ الصبر ان يرسلوا لهم خبرا.

ضرب توفه يدا بيد وهز رأسه قائلا:

– ليس هذا عبثا، لابد ان شيئا قد حدث!!

جحظت عينا آمه خان خوفا، همهمت مع نفسها فوضعت كلتا يديها في حضنها وتكورت.

حەپسەخان ايضا سرعان ما اجهشت بالبكاء.

قامت نةوبةهار من الغرفة وركضت الى الخارج.

التفتت صبرية بعصبية الى توفه وقالت:

– ما شاء الله في رجل البيت والناطق الرسمي للعائلة، بدلا من تفريج كربهن، فأنت افزعتهن، سلمتك الى الله.

نظر توفه اليها بطرفي عينيه اليها غاضبا وقال:

– ارسطو المدبر لماذا بدلا من هذه الأقوال لا تشغلي علمك ومعرفتك ولاتجدي حلا. ليتنا نعرف خبرا عن الأولاد!!

صبرية كمن ارادت ان تعبر عن معاناتها قالت بعصبية:

– اتدبر لهم اي شيء وانا بعيدة عنهم، فليسوا اطفالا، أخي ليكن بالجهنم لا شيء، فليكن اي شيء حل بهم، لقد انخلعت ارواحنا تماما، وتجردنا عن البشرية، وكابدونا الهم والألم بشدة.

كان بەختيار ممتدا في غرفة والديه الكائنة في الطابق الثالث، حيث اشغل نفسه بقراءة كتاب، نهض بسرعة حين سمع صوت صبرية وتوفه ونزل الى الأسفل وذهب اليهما حيث كانا ما يزالان في صياح وصراخ.

اراد بەختيار ان يتكلم ، ولكن مهما حاول لم يتجرأ خوفا من لسان توفه، وقف قليلا ثم رفع يده كأنه قال اسكتا فان شيئا مر بخاطري.

نظرت العائلة الى فم ويدي بەختيار كانهم قالوا لا فض فوك وسلمت يداك، احسنت حين اتيت يا ابننا، تعال اغثنا لعلك تقول كلاما يصلح ذات البين.

نظر بەختيار اليهم بابتسامة فاترة وقال:

– اتعلمون ماذا خطر ببالي، ماذا تقولون ان نخابر شوكت آغا ونفهمه الحال والوضعية، اظن انه يتمكن ان يحصل لنا خبرا، له معارف كثيرة، وان المهربين ومن امثالهم يترددون عليه دائما، خاصة يقول لنا كل مرة اذا ما كنتم محتاجين الى اي شغل قولوا لي.

مسحت خالته حەپسەخان عينيها من الدموع وقالت بلهفة:

– اي والله يصدق، انه وحده فقط يقدر انجازه.

نظرت الى بةختيار وقالت بابتسامة ملولة:

– اوه فداك روحي، بالله ان هذا كان تدبيرا جيدا.

دندنت آمه خان وتحركت وقالت مع نفسها:

– اي والله يعرف كل الأخبار.

قال حاجي مجيد بهدوء وبقلب ساكن.

– بالرغم من انني لا ارغب ان ابلي الناس في شؤوننا، ولكن بالله لا مناص لنا، يجب ان نعرف خبر الأولاد والناس حيث انهم لا اثر لهم بعد ذهابهم، لنعرف لا سمح الله ماذا حدث لهم!!

توقف حاجي هنيهة كأنه يفكر ثم اكمل كلامه وقال:

– انه يربو على شهرين ليس لهم خبر ولا صوت.

استمع كاكه حاجي بلهفة الى قول اخيه وكانت التعاسة تتقطر من عينيه والتفت الى النساء وقال:

– في نظري ان هذا كلام معقول جدا، اذن انهضوا سريعا، وليخابره احد منكم.

تبادلت النساء النظرات، كأن تقول احداهما للأخرى ان هذا التلفون من حق احد الرجال بينما يلتفتون الى النساء!

لم تتمالك حةپسةخان نفسها وعلقت وقالت:

– والله انا اقول ان يتكلم احد منكم معه احسن.

اجابها زوجها:

– لا والله لا احد افضل منك لهذا الشغل، فأنت ام وكل شخص يعرف ان الأم في اية حالة في مثل تلك!!

التفت كاكه حاجي الى حةپسةخان وقال:

– زوجة أخي، ان اخي الكبير يصدق، ان كلامك يؤثر فيه اكثر منا، ان كلانا لا طاقة له في التوسل والإلتماس والتضرع ولكن بالنسبة اليك لا ضير فيه.

نظرت نةسرين الى خالتها وقالت:

– اي والله خالتي العزيزة ان عمي وابي يصدقان، انهضي لعل وعسى عنده خبر.

نهضت حەپسەخان، تتبعتها نه سربن وآمه خان وبةختيار الى غرفة التلفون.

ضرب بةختيار رقم تلفون بيت شوكت آغا لها امسكت حەپسەخان سماعة التلفون بيد مرتعشة.

وكان قلبها يخفق بشكل منقطع، كأنها استدعيت للمثول امام المحكمة العرفية، فماذا يفعلون بها الآن، قدر ما كانت مرتبكة وخائفة من ان شوكت آغا سمع اخبارا سيئة يقول لها الآن.

جاء شوكت آغا الى التلفون، وسأل بحرارة عن احوال حەپسەخان وقال:

– استميحك عذرا لم اكن في طهران منذ مدة، كنت مسافرا الى اوربا وتلك المناطق، كنت مشغولا لذلك لم يكن لي خبر!!

وكانت حەپسەخان بعد رد السؤال عن الحال والأحوال، تهيأت هذه المرة حكت له عن عدم وجود اخبارالأبناء حيث منذ ان سافروا وردت لهم فقط رسالة واحدة حيث كانوا في الطريق وقد وصلوا الى حوالي قلعەدزه وتلك المنطقة في الوقت المناسب، وهن الآن في وضع قلق، فاذا لم يكن تكليفا تلتقط لهن خبرا عنهم.

أخذت حەپسەخان بالرد على اقوال شوكت آغا، لم تكن تلحق وتواصل الكلام الا وان تقول شكرا، شكرا جزيلا، امد الله في عمرك، سلمت عيناك.

اجتمع افراد البيت حول حەپسەخان، وايديهم على قلوبهم وقطعوا الكلام تماما، حيث كانوا ينظرون الى فمها ويدها والتلفون وقد حملقوا فيه كأن شوكت آغا باد وواقف امامهم يتحدث اليهم.

***

وصل اليهم شوكت آغا في اليوم الثاني، وكان يتكلم، اصاغ له كلا الحاجبين، وكانا ينظران الى فمه بحيرة ماذا يقول؟؟

كانت حەپسەخان واختها في الغرفة عندهم، خرجت واحدة تلو الأخرى من الغرفة بارتباك وذهبتا الى عند البنات، جحظت عينا بەختيار مع توفه وسمايل، وقد كانوا يتخطون في الباحة في ذلك البرد ويتكلمون كلاما بطيئا:

– بالله اليس هذا كلاما غريبا؟ شوهد نەورۆز وبيستون في بغداد؟ ضرب بەختيار يدا بيد وهز رأسه واثناء التمشي قال:

– لا يدخل عقلي ابدا، لابد ان يكون كذبا.

قال توفه باشفاق:

– لماذا، كل شيء جائز، لعل الحكومة مشغولة مجددا بالتفاوض مع الكورد، لذلك هم ايضا ذهبوا.

مص توفه مصه في سيجارته وقال:

– عزيزي انت لم تسمعه ماذا قال الرجل؟ قال وردتني رسالة من ابن عمي بكر من بغداد يقول فيها انه رأى نەورۆز وبيستون في احد شوارع بغداد وتكلم معهما، وكذلك قال ايضا لقد شاع خبرهما بأن كاكه علي ورفاقه جاؤوا الى بغداد للتفاوض مع الحكومة.

انتاب توفه السعال واثناء السعال والتلهث قال:

– حتى اذا كان التفاوض كذبا ومجرد كلام، امن المعقول ان يكذب (بەكره زله . بكر الضخم) مع ابن عمه او لا يشخص نەورۆز وبيستون؟

فرك سمايل بفرحة يديه وقال بشوق:

– فليكن يا ربي الكريم، ان شاء الله تصبح المسألة حقيقة ونعود بسرعة الى وطننا وبيوتنا.

قال توفه بسرور:

– لابد ان يكون شيء قد حدث حيث لاخبر للأولاد منذ ذلك الحين. وقد ضرب يدا بيد وقال بابتسامة حلوة:

– انا كنت اقول دائما ان هناك شيئا في الواقع!

قال بەختيار حائرا:

– عليه اذا كان الوضع طيب هكذا، وقد استؤنفت المفاوضات مع الحكومة، فلماذا لم يرسلوا لنا خبرا، ولم نسمع منهم الصوت خلال كل هذه المدة؟!

تنفس بەختيار نفسا عميقا وقال:

– مهما يكن

بەختيار كما تذكر، عجبا منذ ان ترك ضيفهم عند ذينك العجوزين، وذهب كل واحد منهم الى مكان.

ذهب بسرعة الى الدرج وقال مع نفسه:

– لقد نسينا الضيف.

* * *

بعد مغادرة الضيف البيت انطلق افراد العائلة كل واحد منهم في غرفة وثغرة الى الخارج وتوجه الجميع الى غرفة الجلوس وتحلقوا، واصبحوا في دوامة اقوال ضيفهم، كان هذا يفرح نفسه بأن يكون هناك اتفاق حقيقي والا كيف يصل هؤلاء الى بغداد؟ وكان الآخر يقول:

– يا ترى اهذا صحيح؟ وكان يرفع رأسه الى السماء فرحا ويقول:

– اوه يا ربي فداك روحي، اي عمل مهما كان صعبا فما اسهل عندك؟!

كان حاجي مجيد يقول لأخيه بملالة:

– والله كان الرجل يعرف اشياء كثيرة، ولكن كما اظن اخفى بعض الأقوال تحت الشفاه، لم يقلها على علاتها، لأنه قال مرة واحدة:

– يقولون ان كاكه علي ورفاقه فقط مشغولون بالمفاوضات مع الحكومة وليست فيها الجهة الأخرى.

ومرة أخرى قال:

– يقولون جميعهم.

***

ان افراد البيت اصبحوا في قلق ومضايقة ونفاد الصبر على قدر آخر.

كان بەختيار يتنشط ثانية ويقول:

– الآن اذهب الى دائرة البريد الكبيرة، اخابر السليمانية، كانت خالته حةثسةخان تقول بلهفة:ـ لا ...لا فداك روحي اخاف الا تكون هذه الأقوال صحيحة، ويتعرض الشخص الذي تخابره الى مصيبة.

علقت من هناك نەوبەهار وقالت:

– والله ليس ثمة اطيب منه، ليأت احد معي الى دائرة البريد الآن، اخابر بيت والدي.

كانت صبرية تنتفض من هناك وتقول:

– اوه والله ان بيت ابيك المسكين لا ينقصهم غير ذلك، ما ان يسمعوا صوتك حتى وان يموتوا خوفا وهلعا. فان دارهم وتلفونهم وجميع اشيائهم تحت مراقبة الحكومة ومحجوزة.

كانت صبرية تنظر الى نەوبەهار وتقول بسخرية:

– اشهد بالله ،الله لا يقبل تدبرت تدبيرا جيدا.

في منتصف النهار انتصب توفه على قدميه فشد جامانته، واغلق ازرار زنجيل قمصلته بقوة، وهجم على مظلته لكي يذهب ويشتري اقراصا من الخبز للغداء.

كانت امطار غزيرة تمطر، تلبدت السماء بغيوم وسخة اظلمت الدنياء كأنها مساء، وكانت السيارات في الشارع الكائن امام بيتهم في حركات غير طبيعية تدوس الأرض المبللة وتمر عليها فكانت تختلط خرخرة الماء وعصف الريح

ودوي السيارات جميعها معا، وتدخل دماغ وقلب عابر السبيل وتمنحه شعورا مختلطا من الفرح والإضطهاد والإنقباض لديمومة حياتهم.

وصل توفه مدمدما الى عند الباب، وقفت دراجة امام بيتهم، نزل منها رجل مرتد مشمعا ومعتمرا طاقية، ودق الجرس، فتح توفه بسرعة الباب، اخرج راكب الدراجة خوفا من المطر رسالة من تحت مشمعه وقال لتوفه بالفارسية:

– وقع يا آغا هذه الرسالة.

عجز وتعوق توفه وتلجلج لسانه وقال:

– ما هذا يا آغا حتى اوقعه لك؟!

قال الرجل:

– انه برقية ارسلت لكم من بغداد.

انذهل توفه ونظر الى الرجل واخذ منه القلم، وقد مسك من اثر ارتباكه بالعكس، وقد عدله بسرعة وقال:

– اين يا عزيزي آغا، اين اوقع؟!

اراه الرجل، وقع عليه خطين ثلاثة خطوط عوجاء التي كانت على الأكثر تشبه اذن الفأر من ان تكون توقيعا، حمل على البرقية وركض الى الداخل وقد صرخ في الباحة وقال:

– بەختيار ، سمايل اركضا جاءت برقية من بغداد، صعد بسرعة الى الطابق العلوي عند حاجي وبەختيار وسمايل والآخرين والآغا الرضائي، هجمت صبرية على يده واخذت البرقية وبدأت بقراءتها وقد ورد فيها: نحن في صحة جيدة، تهيأوا فان صديقا يأتي في (٢٥) من الشهر لأخذكم، اخبروا العوائل الأخرى. التوقيع حسين.

دب في العائلة مجددا صراخ وصخب الفرح، هجمت آمه خان على البرقية وقبلتها مرتين ثلاث ووضعتها على رأسها، واخذ منها حاجي مجيد فقرأها للمرة الثالثة، ثم طواها ودسها في جيبه الداخلي ومسدها.

لم يدم طويلا جاءت هذه المرة نەسرين ونەوبەهار وقالتا:

– آه بالله عليك يا عمنا العزيز ان لم يكن تكليفا اعطنا البرقية، لنعرف تأريخ ارسالها متى كان؟ مد حاجي يده لجيبه واستلمها، وقبل ان يسلمها اليهما اخرج نظارته ولبسها، وقد طبق مع اخيه احدهما رأسه على رأس الآخر، وقرآ تأريخ البرقية واخذ كل واحد منهما يريها للآخر، وبأن الذي كتب هو رقم (اثنين وليس ثلاثة)، ثم سلما البرقية الى البنات، ثم شرع حاجي مجيد يعدد الأيام من حيث العدد الباقي الى ان يأتي (الصديق لأخذهم)، كأن حاجي توا تعلم واحدا واثنين وثلاثة. هذا الرجل الذي كان صاحب دكاكين ثلاثة حيث كان احيانا يحسب حساب مبلغ بالة قماش وصندوق شاي وكارتون صابون مرتجلا، خفض منه وزاده دون ورقة ودون قلم، بينما الآن من فرحة هذه القطعة من الورقة التي وردتهم، ارتبك، وقد نسي كل شيء لفرط اضطرابه وتشوشه وانزعاجه لأخبار قد أثرت فيه من ذلك القدر من التشرد وتلك الظروف المتضايقة.

* * *

كيفما يكن اقترب يوم ٢٥ من الشهر، وكانت الجماعة على اتم استعداد، وكان الله وحده يعلم كيف مرت عليهم تلك الأيام وكيف تداولوها، اصبح البعض منهم نحيلين ضعفاء من الأرق وعدم الأكل، والبعض الآخر قد سئموا بسبب البطالة والإنتظار، لأنهم كانوا مشغولين فقط بالأكل، حيث كانت في متناول ايديهم دائما كل ما وجدت من الحلويات الدهنية والمملؤة بالقشدة، وكانت افواههم تطحن الأكل كالطاحونة.

ذهب توفه وبەختيار والآغا الرضائي مساء ٢٥ من الشهر الى المطار، كان توفه ينظر الى الناس باضطراب حيث كانوا يخرجون حاملين حقائبهم، ركض مرات بشوق وقال:

– اي والله فها انها جاءت، بدأ من بعيد بالإشارة ورفع اليد، بينما تبين اخيرا بأن الذين يخرجون من المطار هم من ركاب طائرة اخرى، حيث جاؤوا من ايطاليا او من ثاكستان او من مكان آخر.

تجرأ بەختيار مرة مرتين ولم يضبط نفسه والتفت الى توفه وقال:

– اخي عزيزي، لا تربك نفسك الى هذا الحد، فما ادرانا من هو (الصديق) حتى تركض لإستقباله، اصبر اولا وكن هادئا، لاشك انه الآن يحمل عنوانا شيئا ما.

اراد توفه الا يظهر نفسه خجلا، سعل اثنتين ثلاث مرات اثناء مد يده الى جيبه لإخراج منديله قال:

– وما ادراني والله ان هذا الرجل كأنه من اهالي كركوك والآخر كان من اهالي السليمانية حقيقة.

التفت بەختيار الى طرف آخر كأن يخفي ضحكته خوفا من توفه، وقال في نفسه:

– طيب اذ كان شكل ولون اولئك الأشخاص يشبه احد معارفنا؟ يا ترى ان هذا الرجل الذي يرتدي تلك الملابس العجيبة البيضاء من رأسه الى اخمص قدميه والكم الطويل الباكستاني، هو ايضا كان من السليمانية وكركوك؟!

مهما يكن الى ان وصلت طائرة بغداد وهبطت جلسا ساهرين حتى وقت متأخر من الليل. كان (الصديق) احد رفاق علي والآخرين، كانت بينهما معرفة كثيرة، كان اسمه سعدالله، حكى لهم سعدالله بأن علي ورفاقه والپێشمەرگه كانوا عائدين الى الوطن ومختلطين مع الطرف الآخر للشارتي، وبعد فترة قصيرة كان صديقا كرديا وطنيا مشهورا من اهالي تلك المنطقة التي كان فيها، ذهب خلسة واخبر علي بأن يتحلوا باليقظة والحذر، لأن بعض قادة الطرف الآخر يضمرون لكم نية سيئة، فهم مكبون للقضاء على رفاقكم المعروفين، لذلك تدبروا شؤونكم ما استطعتم اليها سبيلا بالسرعة الممكنة.

وهم اخفوا انفسهم عن الأنظار بسبب نفس الصديق الذي ابلغهم بالخبر، وقد اوصلوا انفسهم الى مكان امين.

لقد اعتبرت الحكومة هذه فرصة سانحة فأرسلت في طلبهم بأن يأتوا لإجراء المفاوضات، وتلبية ما يريدون.

لقد انذهلت العائلة جميعا من صدمة هذا الخبر العجيب الغريب، وتحيروا، فكيف بعد ان تهيأ اولادهم والقادة وقوة الپێشمەرگە بكل اعتزاز وتضحية وفداء واخلاص وتفان تهيأوا وجمعوا ولفوا امتعتهم وعادوا الى الوطن، ونسوا كل شيء، واغلقوا الصفحة السوداء لماضيهم وعرضوا صفحة بيضاء نقية، ووضعوا حماية الوطن ومصلحة الشعب فوق كل اعتبار، لكي لا تبقى في الوجود حرب الأخوة الأعداء، وتكون جميع اطرافهم بالقلب والروح يدا واحدة للدفاع عن ارضهم وشرفهم وكرامتهم ووطنهم، بينما يعودون يعاملون هكذا ويدبر ضدهم التآمر للقضاء عليهم.

ليس كذبا حين يقولون ان بعض الأشخاص حاقدون الى درجة يدوسون بأقدامهم كل شيء بسبب حقدهم الشخصي.

* * *

اصبحت آمه خان كعصفورة البحيرة، كانت في ذهاب وايابٍ بشكل متواصل، وتلطم صدرها وتقول:

– اواه لا ويل لنا، الم يكف ان هذا الرجل اسعفهم وحمل لهم هذا الخبر، اوه يا ربي ان يطول عمره ويعمر بيته، ادرك يا له من رجل شريف نجيب ووطني مخلص للكورد، في حين انه على اساس تابع للطرف الآخر، الا ان شهامته وغيرته لم تقبلا ذلك، فمجرد انه عرف ارسل لهم الخبر حالا.

كانت آمه خان تواصل كلامها دون انقطاع، كانت تقول وتردد باستمرار.

ما كان كلا الحاجيين والآخرون يفكون ياقة كاكه سعدالله، وكانوا ينهالون عليه بالأسئلة بشكل متواصل، كان هذا ينتهي، يبدأ ذلك حالا.

* * *

سرعان ما ابلغ الآغا الرضائي دائرته بان العائلة متهيئة وحاضرة، كما ان الدولة كانت تعرف سلفا بأنهم يريدون العودة.

بعد اثنين ثلاثة ايام ارسلت سيارة لاندروظر كبيرة لهم كما ارسلت ايضا شاحنة ضخمة لأشيائهم.

اثناء حمل اثاث البيت اوصل توفه نفسه الى عند حەپسەخان وقال لها هامسا:

ارسلوا لنا شاحنة ضخمة يتصورون نمتلك الفرش والسجادات واثاث وامتعة ومعدات الرحال.

علقت نةسرين من هناك وقالت:

– يشاء الله ان نعود الى وطننا، حتى الأشياء التي نمتلكها هي زائدة لا نريد منها اي شيء، لقد تنشطت حةثسةخان للذهاب وقد وضعت عباءتها على ذراعها، كانت هي نفسها تلمع ورأسها ووشاحها وملابسها، قدر ما كانت نظيفة وجميلة وملائمة. نظرت الى نةسرين وتوفه وقالت:

– عليه، ان يرحمنا الله، بالله ما زلت لا اصدق، اتصور انني في حلم.

* * *

شحنت سيارة اللوري، ركبت العائلة بسرعة سيارتي الجيب، واخذوا مقاعدهم بعد توديع حار جدا مع الآغا الرضائي، ان عيون بعض النساء اغرورقت بالدموع وبدأن بالبكاء وشكرن اثناء الجهشة والشنقهة كل تلك الخدمات والمتاعب له، كما ان واحدا واثنين من موظفي ساواك ايضا رافقوهم بسياراتهم الى اعالي (كەرەج) وهناك نزلوا وتبادلوا الوداع، واخيرا هم عادوا الى طهران وسارت العائلة نحو (كرمنشاه)و (قصر شيرين).

التفتت حەپسەخان الى زوجها حاجي وقالت بهمسة:

– اعرف انت ما اكثر معرفتهم وكيف جاؤوا وودعونا، اشهد بالله انهم خدومون ولبقون جدا.

صبرية التي كانت جالسة الى جانبهما قربت رأسها منهما وهي ايضا قالت بهمسة:

– أهؤلاء يعرفون المعرفة والإحترام، انتم لا تعرفون هؤلاء كيف يفكرون، فعلوا لنا هذا من اجل شهرتهم، فيتصورون انهم يستفيدون في يوم من الأيام من معرفتنا خاصة حين نعود الى الوطن، ولا شأن لنا بهم فيما بعد، ولكن ويل للذي يقع في قبضتهم، فمجرد ان يسامرهم الشك بأنه لا يتحرك حسب رغبتهم، سرعان ما يتوارى عن الأنظار ويقضون عليه، يقولون ان زنزاناتهم تفوح منها رائحة الدم وما فعلوا لنا ليس لسواد عيوننا.

لم ينبس ابوها حاجي مجيد ببنت شفة، ولم يستسغ اقوال صبرية، ولو انها كانت تحكي لهما بهدوء جدا، لكن كان حاجي يريد من الله ان تنهي كلامها سريعا ولا تستطرد بعد اكثر، لأن توفه قال له احذروا من لسانكم خوفا من السائقين لأن الجميع من عملاء ساواك وكذلك يمكن ان تكون فيها مسجلات، تسجل كلامكم جميعا ليعرفوا ماذا تقولون وعن اي موضوع تتحدثون.

* * *

لأن المسافة بين طهران وقصر شيرين كانت بعيدة جدا، خاصة كانت العائلة معها الأطفال الصغار، لذلك كانوا ينزلون جميعا في اماكن الإستراحة والأكل.

في احد الأماكن التي نزلوا فيه، كان مقهى جميلا صغيرا على طريق كرمنشاه الذي كان يشبه دار وغرفة الريف، وكان قريبا من قرية، كانت الدار مبنية من اللبن، امامها كان ايوان واسع رحب، يبدو اجريت فيها ذلك الخريف ترميمات لأن اعمدة الأيوان كانت اشجار القوغ الجديدة.

كانت باحتها كذلك ارض حجرية ترابية تتوسطها بركة مربعة مطلية بالصبغ الأزرق، وكان المقهى محاطا كله بالأشجار الجرداء حيث تعرت من اوراقها

بسبب البرد والشتاء وقد تلاصقت رؤوسها بأسى وتعاسة بسبب تمايل وترنح العاصفة.

يبدو انه كان مكانا لطيفا جدا في الربيع والصيف، كما كان سائقا السيارتين وصفاه، بأن هنا ولو انه يبدو مكانا بسيطا ومتواضعا بالنسبة للمطاعم واماكن الإستراحة والفنادق ذات الطوابق المزدانة بالمصابيح والمصابيح الكهربائية الخضراء والحمراء التي كانوا يصادفونها في الطريق، ولكن كانا يقولان بأن هنا عكس الأماكن الأخرى، فيه اكلات طازجة ولذيذة، ولا سيما (مرق اللحم) في الزير الصغير والدجاج المدافة بالزبدة المشوية المحمرة الطازجة الحاضرة الجاهزة بحلقة البصل، ولهذا فان الكثير من الناس يرتادون دائما هذا المكان من اجل هذه الأكلات الشهيرة جدا، لأنهم ينجذبون الى مكان الأكل الناشف والطازج والشهي.

* * *

كانت العائلة بعد العديد من النزول والإستراحة في تلك الطرقات المريحة في ايران حيث كانت جذابة رغم ذلك الشتاء والبرد. والتي كانت تفضي الى القصبات والبلدات والمدن الكبيرة، والنظر الى مناظر الجبال والمرتفعات الخلابة، ورؤية الناس على الشوارع وحافات الطرق بالملابس المتنوعة من الملابس الكوردية الجميلة فصاعدا الى الملابس الأفندية والأعجمية والعصرية ومعتمرات النقاب الدراب، الى لابسات البنطلون وميني جوب.

كيفما يكن وصلت العشيرة اخيرا الى قصر شيرين، حيث وصلتها عائلة بيستون وجميع العوائل الأخرى من هةمةدان.

انزلوا جميعا في فندق عند ضاحية المدينة، وذهبوا بهم ايضا اليهم، لقد اخلوا الفندق من الناس الآخرين لتلك العوائل والناس، كان الفندق والخدم فيه والمشرفون عليه كلهم من ساواك والتابعين له.

ذهبوا بعشيرة حةثسةخان واختها وعائلتها الى الطابق العلوي، وقد اعطوا للعوائل الأخرى غرفة واحدة لكل عائلة، وكانت الطبقة السفلى للسواق وموظفيهم والمهربين العائدين لهم، كان فيها هؤلاء الأمثال من الأشخاص الذين كانوا على الحدود في حركة دائبة ومشغولين بالسلب والنهب.

توزعت غرفتا حةثسةخان مرة اخرى، كانت الكبرى للنساء والأطفال والأخرى للرجال.

انتعشت الجماعة، لقد سروا كثيرا، تعانقوا بحرارة مع العوائل الأخرى، وكانوا معا مع بيت بيستون دائما، وما كانوا يفترقون الا وقت النوم، كل عائلة كانت تذهب الى غرفتها، كانت تصرخ من فرحة تغيير هذا الوضع ومن فرحة مجيء امها وابيها، لأنها كانت بشكل عام في بيت حماها في هةمةدان.

* * *

بعد يوم من الإستراحة، بدأت نةوبةهار ورووناك ونةسرين بالهمهمة وموضوع الملابس والغسل والحمام وكن يقلن:

– وي ما شاء الله من هؤلاء الناس، وان هذا الفندق فيه عدد من الحمامات الحارة المريحة، بينما لا تخلو لنا مطلقا وفيها الناس دائما يستحمون كأنهم عثروا النحل في الشجرة.

انتهرتهن صبرية وقالت:

– الناس ايضا مثلكن لهن اطفال يرغبن ان يستحمن، لماذا تدمدن الى هذا القدر ولا تقتنعن؟!

أمال توفه طاقيته وجامانته، وكان يبدو منتصب الشاربين كالقائد وقائد الفرقة يتفقد جميع البيوت والعوائل، ويوزع عليهم العلم والمعرفة، ولكن شيئا واحدا احزنه كثيرا وهو ان مسؤولي ساواك في الفندق ما كانوا يسمحون لأحد ان يخرج من الفندق الى السوق وهذا الطرف وذلك. وكانوا اشبه بالمحجوزين في

الفندق، ولكن كانوا يقدمون الأكل الطيب ثلاث وجبات، وتدخل صينية غرفة كل عائلة.

* * *

بعد يومين بدأت الهمهمة والدمدمة، دبت الحركة في العوائل وكاد ان يفقدن الصبر.

ارسلت حەپسەخان واختها مرة مرتين بةختيار الى عند كاك سعدالله الصديق والمرشد لهم، بأن يقول له متى يسافرون؟

يريدون ان يعرفوا كيف يعبرون الحدود؟

لقد افهم كاك سعدالله بأن يذهب ويقول لهم بأن يلوذوا بالصبر قليلا، لقد قطعوا الكثير وبقي القليل.

يصل الناس من منطقتنا الآن الى الحدود ويتسلمونكم ويذهبون بكم الى بغداد، ومن هناك سيعاد كل شخص الى مدينته وبيته.

كانت آمه خان تقول بشوق:

– اوه ليتني بتلك الساعة، اخاف ان اموت من الفرح.

كانت ام بيستون تقول:

– اوه ماذا نفعل نحن في بغداد؟ اي مكان يسع كل هذه العائلات؟!

كانت ترد عليها حەپسەخان فرحة وتقول:

– او نذهب الى البيداء المقفرة؟ وما بيت والد نەوبەهار؟ ان لم يكن هو فثمة الف قريب معارف، اي كلام هذا؟ ربما اذا وصلنا الى المكان فان اقاربنا واهلنا حاشا لأرواحهم ان يموتوا جميعا موت الشاه من الفرحة.

كان توفه في اياب وذهاب ويقول:

– الهي متى ننجو من هذا السجن؟ فمنذ ستة ايام نحن قابعون هنا ننتظر، لكثرة ما اكلنا حفظتها كلها عن ظهر قلب، صباحا يقدمون لنا الخبز والزبدة والشاي، في الساعة العاشرة اجلس في شرفة غرفة الرجال كثيرا من الأوقات وفي هذا البرد ارى صانعين يذبحان افراخ الدجاج في الباحة ويأخذانها الى المطبخ،

ففي الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين يقدمون لنا التمن والكباب الصغير وفي المساء التمن والإدام المطبوخ.

كانت حەپسەخان تنظر الى فمه وحين انتهى توفه من كلامه فهي انفجرت بالضحك وقالت:

– والله اصبحنا مرة ثانية مثل ما كنا انذاك في بانه، عدنا مرة اخرى الى ربيطة للتسمين، ونأكل دائما وننام.

كمت روناك فمها واطلقت قهقهة ضحك وقالت:

– اصبحنا الكباب الصغير وفرخ الدجاج، كدنا ان نطير لا تنقصنا سوى قوقأة الدجاج.

قالت آمه خان:

– اف ليس ثمة اتعس من الإنتظار.

مرة أخرى غضبت صبرية منهن وقالت:

– انتن لا تقتنعن بأي شيء، في حينها كنتن تقلن لقد موتتنا هذه الجبال والطرقات الشاقة الوعرة، لقد تقوست ظهورنا وشلت ارجلنا على ظهور الحمير والخيول، ومات اطفالنا جوعا، وكنتن دائما في صراخ.

والآن نزيلات في فندق مريح، وتوضع امامكن ثلاث وجبات صواني الأكل، بينما لا تنقطع دمدمتكن.

في احدى المساءات جاء رجل الى الفندق بسرعة وقال:

– جاء الناس لأخذ العوائل وقد وصلوا الى الحدود ويقولون لتأت العوائل.

كما ان احد اصدقاء كاك سعدالله كتب له رسالة، سلمها الرجل له، شرعت العوائل بالهدير والدوي المتكرر من الفرحة، وبدأ الجميع بلم وتهيأة انفسهم وامتعتهم واثاثهم، وابداء الإستعداد الكامل للسفر.

حل الظلام مساء ركبت العوائل سيارات اللاندروفر للساواك، وحملت اللوريات باثاثهم وامتعتهم.

سارت السيارات واللوريات واحدة تلو الأخرى، ومرت بالشوارع وبعد مرور مسافة جيدة، خففت الحركة بشكل متتابع وتوقفت بشكل متسلسل، واطفأوا

مصابيحها، ونادوا كاك سعدالله وقالوا نحن لا نسير اكثر من هذا، وكيف تصلون الى الذين جاؤوا لأخذكم، فهذا من شأنكم، رد عليهم كاك سعدالله قائلا:

– ولو ان المسافة قليلة لكنها طويلة بالنسبة لهم؟ ولكن كيف يمكن لكل هؤلاء الأطفال الصغار، وبكل ما عندهم من الأشياء والأمتعة وفي جنح الظلام وفي هذا السهل والبيداء السير؟

قال السواق:

– والله كما تشاؤون، نحن لا نستطيع ان نأخذكم اكثر من هذا، نحمل امر ذلك الحد.

واخيرا اضطر كاك سعدالله ان يرسل شخصا بعجلة حاملا رسالة منه الى الذين جاؤوا وكانوا ينتظرونهم بأن يقول لهم بأن المسألة هكذا ماذا تقولون انتم؟!

لأن الإيرانيين قالوا لا يجوز ان يدخل هم الأراضي الإيرانية، يجب ان يكونوا في مكانهم.

مهما يكن فان هذا الرجل ذهب وعاد مرة مرتين وحمل الرسالة واخذ الجواب. لقد استغرق هذا الرد والبدل وقتا طويلا حيث وصل الوقت الى الساعة الثانية ليلا.

كان الأطفال والعائلة جميعا في قلق وقد وهنت قواهم وتكوروا داخل السيارة من تأثير البرد، وفي هذا الليل المظلم الدامس حيث ان كلا الطرفين اطفأ اضواء المصابيح، ولم يكن يشاهد اي شيء.

للمرة الثانية ذهب هذه المرة كاك سعدالله بنفسه مع احد رجال العائلة التي كانت معهم، وقد وصل الى هناك. وقد استغرق ذهابهما وايابهما وقتا غير قليل بحيث ان نصف الأطفال والنساء قد استسلموا للنوم وهم كانوا جالسين في السيارة، فجأة وجدوا من بعيد بأن ذلك السهل الواسع اصبح مصابيح، وقد اشعلت العشرات من مصابيح السيارات وسارت نحوهم، لقد اضطرب كل الأطراف، لقد ارتبك الإيرانيون وتهيأوا، ودب الهرج والمرج فيما بينهم، وقد لجأ عدد من الأشخاص الى النساء والأطفال (خاطر الله ان لم يكن تكليفا اذا عندكم الشرشف والمنشفة وخرق القماش اعطونا).

لقد تحمس توفه وتعوق وما كان يعرف ماذا يفعل من الفرح، تقدم من السواق الإيرانيين وقال:

– ما شأنكم بالخرقة والمنشفة والشرشف؟

قال البعض منهم باستحياء:

نريد ان نغطي بها ارقام السيارات ونخفيها، اغتسلت عيون النساء بسبعة مياه كما يقول المثل الكردي وزال النوم تماما من عيونهن من فرط فرحتهن، لكن منظر كل تلك المصابيح للسيارات التي انارت كليا هذا السهل والبر المترامي الأطراف قد اربك البعض منهن تماما.

قالت آمه خان:

– وي ابي العزيز ما هذا؟ لقد اصبت بالرعشة من الخوف، ردت عليها اختها وقالت:

– اواه، بدلا ان نفرح ونرقص جذلا بأن كل تلك السيارات الكثيرة قد جاءت لأخذنا، ونعود بمثل هذا الإحترام والتقدير. بينما تقولين انتابتني رجفة.

قالت آمه خان بأسى:

– وما ادراني والله اخاف ان يتشاجر هؤلاء ويقولوا كيف تتمكنون ان تدخلوا اراضينا؟!

كان بهختيار في ذهاب واياب الى والدته وخالته سريعا سريعا وكان مسرورا، وحينا كان يذهب الى عند ابيه وعمه، وكان منشغلا بالتودد لهما ايضا.

انتاب العوائل نساء ورجالا شعور مختلط من الخوف والفرح وارتفاع المعنويات، وقد اثارت الحيرة والإضطراب أذهانهم وقلوبهم.

ان البعض منهم يتراءى لهم ذلك المشهد الغريب في منتصف الليل وفي ذلك السهل والبيداء الهادئة الباردة، وكل تلك المصابيح للسيارات التي جاءت لإستقبالهم، كحلم غريب، كأن مجموعة من الذئاب ومجموعة من التنين في احتفال وابتهاج تأتي الآن لإكتساحهم ودفعهم للإختلاط في هذا الإحتفال الرهيب.

* * *

وصلت السيارات، والركاب جميعا قفزوا منها نحو الأرض. وبسرعة فائقة الصقوا خلفية لورياتهم بخلفيات اللوريات الإيرانية، ودبت الدمدمة والجلبة

والتشابك والتداخل، والصراخ والضوء كما يقول المثل (لا يميز الكلب صاحبه).

لقد جاءت سيارات كثيرة الى حد ان كل شخصين من نصيبهما سيارة واحدة، وقد اختلطت اللغات العربية والفارسية والكوردية وتداخلت.

كان الإيرانيون ينادي احدهم الآخر، وكنت تسمع هذه الأقوال:

– ئاغا حسن كوجاي (اين انت حسن آغا).

والآخر كان يصرخ:

آغا جون تو اينو بطير واين حرف نزن.

عزيزي آغا، انت امسك هذا فلا تتكلم الى هذا الحد.

(آغا كيسه جي، زودباش كوجار فتي)

اي آغا؟ لا تذكر اسمي، اسرع فأين ذهبت

من امثال هذه الأقوال

وكان الجنود العرب يركبون الناس في السيارات بسرعة، وكانوا هم ايضا في صراخ وجلبة، وينادي احدهم الآخر:

– (وينك ابو جاسم تعال من هنا)

وكان الآخر يصرخ:

– (الزم...الزم، شد الحبل زين)

وكان الآخر يصرخ من تلك القمة:

– (عريف عبد...عريف عبد، تعال تعال انفك الباب)

والأكراد ايضا في هرج ومرج وكانوا يتداخلون ويتشابكون، وكان رجالهم يزجرون ويعنفون زوجاتهم واطفالهم. ذلك الشخص كان يقول:

– اذهبي يا بنت من هنا، اسرعي، ليس الآن وقت المحاكمة، لا ويل لك.

والآخر كان يقول:

يا بنت تصلحين جعبة اي شيء؟ هذه كل اشيائك، كفى كفى، انه ليس اوان ذلك.

وكان صوت توفه يتناهى حين كان يقول غاضبا:

– على رسلك يا آغا الله يخليك، فأنت غرزت خاصرتي قه يدى نيس . لا ضير فيه . يخرب بيتك اي قه يدى نيس؟!

الصقت روناك رأسها بصدر امها وقالت بهمسة:

– وي امي العزيزة، فان الذين جاؤوا لأخذنا كلهم من العسكر، وتلك كلها لوريات حكومية.

كاد ان يغمى آمه خان عليها خوفا من مشهد كل هؤلاء العسكر والمصابيح والضجة المثارة، نظرت الى اختها وقالت:

اواه يا ابتاه ما هذا؟ كأنها قامت القيامة، لقد مدت يدها متوجسة الى ذراع اختها وقالت:

– ماذا انكون ثلاثتنا وحدنا في هذه السيارة؟ بالله عليك فليأت توفه او احد الأولاد يركب معنا، والله يا أختي انا اخاف من هؤلاء العساكر وما شابههم.

قالت حەپسەخان بفرحة:

– يا اختي ان هذه كلها سيارات وعساكر واصدقائنا لقد جاؤوا لإستقبالنا، انهم يفعلون ذلك من اجلنا، اي خوف واي حال؟

نظرت حەپسەخان الى السماء وقالت:

– اوه يا ربي فداك روحي، فداك روحي لفلكك الدوار، باي حال جئنا، وبأي حال نعود؟!

وصل توفه اليهن وقال بشوق وفرحة:

– او ترون بأي ضجة يعيدوننا، لم تأت السيارات واللوريات فقط، انما ترافقتها سيارات نصبت عليها الرشاشات، ذلك، انظرن لقد ذعر وهلع الإيرانيون خوفا.

قالت حەپسەخان حالا:

– بالله عليك عزيزي توفه لا تقل هكذا، لقد خدمنا الإيرانيون كثيرا، بالله عليك ودعوهم بحرارة وشكر، (اذا ما شرب الإنسان من عين لا يجور ان يرمي فيها الحجر).

– قال توفه مبتسما:

– لماذا، فماذا قلت؟ هو ما قلته انهم خائفون جدا، ادركوا كيف ان جماعتنا لم يكترثوا بهم فجاؤوا، اراد توفه ان يستطرد حين قالت حةشسةخان:

– طيب، طيب فداك روحي، كلامك صحيح، كلامك صحيح لكن تعال انت او احد الأبناء اركب معنا.

قال توفه بحرارة:

– لا...لا...لا. انا اركب مع صبرية و نەوبەهار ونةسرين، ترغب صبرية ان اركب معهن، الآن ارسل بةختيار لكي يركب معكن.

بعد ان ذهب توفه، ضحكت حەپسەخان بهدوء وقالت:

– والله ان صبرية خافت من لسانه، رغبت ان يكون معهن، لكي لا تدعه ان يتكلم.

ضحكت روناك بهدوء وقالت:

– اذن اتت نوبتهم لإستدراجه واستنطاقه ليتحدث عن تركيا والأردن ولبنان!!

لقد ضحكت امها ضحكة قوية بحيث از صدرها ازيزا وطفرت الدموع من عينيها، وقالت اثناء اللهاث والضحك:

– لا ويل لنا، اضيفت اليه ايران وطوران، فمن يا ترى ينجينا من لسان توفه؟!

* * *

لقد كان كلا الحاجيين راكبا جنبا الى جنب سيارة شوفر ستيشن جديدة، كأنها حصان اصيل، فكانا ينظران باستغراب الى الزحام، قرب حاجي مجيد رأسه من اخيه وقال هامسا:

– ما تلك المسألة؟ اي شيء حدث يا ترى؟!

رد عليه اخوه بشوق ومسرة:

– ماذا اقول، لقد شاهدنا مرات اخرى مثل تلك الضجة والجلبة، واخيرا ماذا فعلوا بنا، حينذاك حيث بدأ الشقاق والنزاع وحرب الأخوة الأعداء، او رأيت ماذا كانوا يفعلون للطرف الآخر، وقد كانت اللوريات المحملة بالبرتقال والتفاح وسيجاير الروثمان كان في طريقها اليهم، وقد وزعوا النقود عليهم بحيث ان

الكثير منهم انتفى وجودهم، وحين شنت علينا الجماعة في ماوه ت كانوا على قدر من الدلال والدلع لدرجة ان الحكومة زودتهم باللوريات العسكرية ليهجموا علينا ويخرجونا.

مسد اخوه كاكه حاجي لحيته وقال:

– ماذا نفعل اذن؟ ليس لنا حول ولا قوة الا ان نقول توكلنا على الله، الله يطفيء هذه النار، يهدي هذا الكوردي الفقير السيء الحظ الى طريق الصواب والرشاد والخير، اي ابن كلب يرغب في الحرب، من يحب ان يقتل كل هؤلاء الشباب، ولكن اذا ضغط علينا الإضطرار، وعاش الناس بذلة وخنوع، يضطر ان يتصدى للرصاص بصدره، لأن الموت احلى كثيرا من العبودية والعيش بمذلة وخشوع.

وصلت السيارات الى بغداد فجرا، انتعش الجميع من الفرح، وكان الكثير منهم يستشهدون بالله في خفاء، ويستغيثون بالغوث الطيلاني من فرحة بأن ذلك (حقيقة وأنه هم انفسهم يكاد يصلون بغداد) تلك اشجار النخيل، الحدائق والبساتين، وقد ظهرت اللوحات والإعلانات، وهذه صفيحة (دهن الراعي) والأخرى (صابون الجمال) ودهن نرجس وحليب النستلة و(جبن وقشدة الألبان).

وقد تنفس الصبح، ولاحت المآذن والقبب، وها يبدو الرجال المرتدون الدزداشة والنساء الملفعات بالعباءات و(ابو النفط) ودكاكين المخابز والصمون.

توقفت السيارات عند طرف شارع بشكل متتابع.

نزل كاك سعدالله وصديقاه، وبدأوا التكلم مع جميع العوائل بأن من ينزل في اي مكان ومن له معارف واقارب، ومن ليس له احد هنا من هذا القبيل ان يأتوا معهم لإقامتهم في مقر الحزب وفي الفنادق واماكن اخرى ومن هناك يرسل كل واحد الى مدنهم وبيوتهم.

قال كل واحد منهم شيئا وطلب ان يؤخذ الى المكان الفلاني والمحلة الفلانية وبيوت الأقارب والمعارف.

توجهت عشيرة حةثسةخان واختها وعائلة والد بيستون الى بيت والد نةوبةهار ميرزا عبدالله، لقد وضعت اشياءهم مشدودة على علاتها الى ان يعودوا الى السليمانية.

تفرقت العوائل بعد وداع حار جدا، وكل عائلة ذهبت الى حيث ما ارادت.

* * *

اكتظت القاعة الكبيرة المريحة لوالد نەوبەهار بالوافدين.

اضافة الى ان الضيوف قد وصلوا المكان، كان يأتيهم رويدا رويدا الأهل والأقارب والمعارف واحدا تلو الآخر، وكان جرس الباب لم يكن يتوقف عن الدقات والرنين، وقد كانت تصل الى حةثسةخان واختها والبنات من النساء المرتديات الوشاح والحرملة التي كانت تغطي الأكتاف وشدة الرأس الجميلة. وما ان وصلن حتى وان بدأت المعانقة وتبادل القبلات والبكاء والضحك والفداء بالروح والترحيب، كل هذه كانت تختلط.

كانت بعض من القريبات والأهل والمعارف يشرعن بالتهامس فيما بينهن وكن يتبادلن الكلام قائلات:

– فداكن روحي، لا تقلن الآن احدى منكن لحەپسەخان وآمه خان بان خالتهما فاتمة خان قد توفيت.

وكانت الأخرى تقرب فمها من الأخرى وتقول هامسة:

– اولا لا نذكر نحن اي شيء، ثم بعد ان يذهبن الى السليمانية، ليقلن لهن هناك بأن عم بيستون قد توفي.

وهذه كانت تهمس في اذن الأخرى وتقول:

– يا أختي كان حەپسەخان ظلت كما كانت، ولم ينقص من عمرها يوم، اعلمي ماذا حل بهم، بينما ان آمه خان تفتحت وجنتاها واحمر وجهها. والكل مسرورات جذلات.

كانت صبرية ونةسرين ونةوبةهار ورونـاك في لهفة وشوق عارم مع البنات الصديقات لهن وكذلك مع اترابهن اللاتي جئن الى بغداد وفي انتظارهن حيث قد علمن بأنهن يصلن في هذه الأيام.

جلس علي وشيروان بوجه مشرق وقلب صاف، وكانا يشرحان لكلا الحاجيين ووالد بيستون والرجال الآخرين موضوع الوضع والإتفاقية مع الحكومة، وكانا يتحدثان عن المقر وقوة پێشمەرگه الحزب ومواقعهم، والمناطق والمدن والقصبات التي تحت ايديهم، وماذا عندهم وبماذا منشغلون، فكانا يتكلمان مثل تلك الأقوال.

وكذلك كانا يرويان ايضا عندما كانوا راجعين كيف ان الطرف الآخر يدبر لهم المؤامرات واشياء اخرى، وكيف علموا بأنهم خططوا للقضاء على قادتهم المعروفين.

عليه اضطروا ان يأتوا ويتفقوا مع الحكومة، وقد قطعوا لهم وعدا كثيرا بأنهم يلبون الكثير من مطالبنا.

كان حاجي مجيد واخوه يستمعان لهما بشكل جدي، ومع ذلك قال كاكه حاجي بملالة

– يا ربي فلتكن اتفاقيتكم هذه المرة حقيقة، ولا تكون مرة أخرى مؤامرة وغير جدية.في نظري ان كل ما تفعله الحكومة لكم وكل ما تستجيب لطلباتكم، وكلما يكون الوضع في صالح الكورد، الا انها لا يدخل في القلب الصبر والسكينة والسلوان والسعادة، وذلك لأنكم انقسمتم على انفسكم الى قسمين، وقد بقي الشقاق والخلاف وحرب الإخوة الأعداء دون تغيير، في نظري ان اي فرح ومكسب لايرقى الى مستوى ذلك الفرح والطمأنينة بأن تكونوا انتم يدا واحدة، وتكونوا كالأخ ظهيرا ونصيرا احدكم للآخر.

وانتم لو تظلون هكذا، تستخدم الحكومة طرفكم هذا ضد الطرف الآخر وتضحك على ذقونكم، كما فعلت سابقا مع الاخرين، وهجموا عليكم بالنقود

والسلاح واللوريات، وقد لاقى في حومة هذا القتال كل هؤلاء الأبطال والشباب من كلا الطرفين حتوفهم.

قال علي:

– والله تصدق يا عمي العزيز، ونحن نعرف ذلك، ولكن لا مناص لنا، لقد رأيتم كيف القينا كل شيء جانبا، وتنازلنا، وغضضنا النظر عما حدث بيننا، فذهبنا اليهم راكضين، حين علمنا بأنهم يقعون في محنة وشدة، قلنا تفضلوا فها قد رجعنا ونحن الأخ الأصغر، بينما بدلا من ان يقدروا عملنا هذا، انهمكوا بالقضاء علينا واخذوا ينظرون كالورود الى ثيشمةرطتنا، ان الثيَشمةرطة الذين وضعوا ارواحهم واموالهم من اجل الكورد وكوردستان، بينما انشغلوا بالقضاء على قادتنا واغتيالهم.

تنهد علي تنهدا عميقا وقال:

– ماذا نقول اذن؟ والان لم نأت خانعين على ان نتفق مع الحكومة، بالعكس هم يريدون ان يلبوا مطالبنا ورغباتنا، ويحترموننا كثيرا، لأن صوتنا يهدر ولسنا عملاء لأحد سوى لشعبنا.

سأل والده:

– اين حسين ونةورؤز؟

قال علي فرحا:

– انهما في منطقة السليمانية، بين الپێشمەرگه، انا وكاك شيروان وبيستون جئنا لخاطركم.

في تلك الأثناء اقحم شيروان الغرفة، حيث كان اثناء الكلام ناهضا وخارجا من الغرفة حيث كان ابنه في عناقه.

اكمل كلام علي وقال:

– جئنا لخاطركم، جئنا لإستقبالكم، والا لنا الف شغل، اركنوا للإستراحة قليلا، نعود بعد غد معا الى السليمانية.

* * *

لم يكن يوم السعد لأحد، سوى توفه، لقد اضحى توفه كدواء ممتاز، ما كان يحصل ابدا، كان هذا يمسك به والآخر يتركه، هذا كان يعانقه، وذلك كان يضع امامه السيجارة والشاي، كان هذا يمسك ذراعه، وذلك كان يقول:

– قم لنأخذك للتمشي قليلا، لم تشاهد بغداد منذ مدة.

كان شباب ومراهقو اقاربهم والپێشمەرگه الذين كانوا في المقر، كانوا يأتون لزيارتهم، وكانوا يتوسلون منه ويقولون فدى لك، وكانوا يهيمون به بأن يجلس ويحكي لهم عن طهران.

عليه، كأن توفه غدا (ملكا على العرش) كان مكبا دائما على اصدار الأوامر، ولم يكن ينتصب على الأرض.

تهيأت في اليوم الثاني حةثسةخان واختها وام بيستون، بأن يزرن مرقد غوث الطيلاني قبل الذهاب الى السليمانية، وقد اشتروا له الشكرات والشموع والراية الخضراء، بدأوا بالسير نحو (باب الشيخ)، كانت السيارة التي اقلت حەپسەخان والأخريات تطوي الشوارع المزدحمة في بغداد طيا، وهي اغرورقت عيناها بالدموع، لقد تذكرت الأيام التي ذهبن فيها لزيارة (حضرة المعصومة) في طهران، مع اختها والسيدة زبيدة وتوفه.

آي ما اشد الفرق الكثير بين حينذاك والآن، ما اكثر ملالهن وحزنهن وبؤسهن وغربتهن ومضايقتهن آنذاك، والآن ما اشد قوة ارادتهن، ما اكثر اعتمادهن على الظهر.

* * *

بعد يومين من الإستراحة وزيارة الأئمة والمشايخ، بدأت عشيرة حەپسەخان واختها بكل افراد العائلة بالتوجه نحو السليمانية، قطعوا السهول والبراري والبيداء الخالية المقفرة، وقد كانوا ينظرون الى تلك السهول والضواحي كأنهم لم يمروا بهذه الطرقات، وقد غدا الغبار والتراب عندهم نزهة، وحين اقتربوا من مدينة كركوك الحلوة ولاحت لهم من بعيد النار الملتهبة النضرة لبابا طورِطورِ، اغرورقت عيون البعض بالدموع ودبت رعشة جميلة في اوصال جسومهم، والبعض الآخر بدأوا بقراءة الصلوات، عند المساء بعد الركون الى استراحة تحركوا، وقد وصلوا الى حيث التلول والوهاد والمنخفضات القريبة من السليمانية، وحين صعدت السيارات فجأة نشزا من الأرض ولاح منظر مدينة السليمانية الخلابة، ومصابيحها الكهربائية قد نورت عيونهم من بعيد، لم تتمالك حەپسەخان نفسها، فقالت اثناء النشيج:

– اوه فدى روحي لهذا المنظر الجميل، اللهم اقر لنا ولا تبعد احدا من وطنه، ولا تحرمه من تلك الهبة والنعمة.

ومن طرف آخر مسحت آمه خان دموعها وقالت:

– اوه فداها روحي عاصفتها، عهدا علي من الآن حتى وان تكون فصولها الأربعة عواصف، واختنق من الغبار والتراب لاأدمدم ابدا.

تنهدت آمه خان وقالت:

- اف... حتى ان غبارها وترابها طيبان دوما.

الجزء الثالث

إهـــداء

إلى أول كلمة حب أيام جمالي
إلى اللحن العاطفي لكل شبابي
بالاخلاص اللانظير لعمري
بآخر سطر عشقي وهيامي
***
كان في الكهوف انيسي
في التشرد وطني
كان انقى من النقاء وأحق من الحقيقة
كان قلعة أملي وامنيتي
***
كان مفتون ولهي ورشاقتي
البحر اللامتناهي لعقيدتي ودلالي
كيف اعيش بدونه وكيف اصدق
بانه اختفى مني نهائيا هكذا بسهولة

گەلاوێژ
٢٠٠٢/٤/٨

المقدمـــة

ايها القاريء الكريم

هنا اضع مرة اخرى رواية (نحو كهف الشجعان) بين يديك، يحدوني الآمل ان تنال رضاك، فهي الجزء الثالث والأخير منها. وكما ذكرت سابقا في الجزء الثاني بأن نحو كهف الشجعان كطفلي البكر، لأنها اولى روايتي، لذلك احب نفسها وأبطالها كثيراً، إضافة إلى انها تحمل في طيات كل سطور وصفحة، خاصة الجزء الاول منها ذكريات حلوة عذبة غير منسية كثيرة مع حبيبي والد هيرو.

لانه ولأول مرة شرعت بكتابة الرواية والقصة والتي كتبت حوالي (٥٠٠) صفحة منها ، ان الكاتبة التي تهتم بنفسها عليها أن تثق ثقة كاملة بعملها وقدرتها. ثم تبدأ بالكتابة، ويجب ان تعرف ان الاسطر والصفحات التي تكتبها، تقع بين أيدي الكتاب والخبراء والمثقفين والعارفين، حيث أن ذلك يعد مسؤولية كبيرة.

أعزائي .....عزيزاتي..

كما تعلمون أو سمعتم، أن الرواية والقصة أحداث وافعال يختلط فيها الخيال بالحقيقة، ولا تنبع الرواية والقصة من الخيال الهزلي بأي شكل من الاشكال ولاشك ان الكاتب كان يمتلك الكثير من المواد

الحقيقية سواء من الاحداث والمشاهد والتي سمعها فيما حوله أو عاشها وعايشها بالقرب منها.

قارئي العزيز

حاولت كثيراً أن أكتب موضوع حرب الشقاق والاخوة الاعداء بشكل باهت غير صارخ، لكي لا يقولوا جعلت هذه الذريعة بأن تحكي على طرف ما، بالعكس كانت امنيتي الكبرى دائما هي، أن أرى ان الكورد جميعاً في وفاق و مؤتلفي القلوب، خاصة الاتحاد الوطني الكردستاني مع الحزب الديمقراطي الكردستاني، لان أي كوردي يحب كوردستان والكورد، عليه ان يحافظ على هذا السلام والوفاق ويتمسك بهما، وان يهتم بهما أكثر من جميع سعادته ومكسبه الشخصي، ومن جميع انواع المحاولات والمساعي الحزبية والجماعية الاخرى. ولكن ذلك لا يعني ان يسكت المرء من العمل غير الصحيح. ولكوني صاحبة مبدأ واخلاق لا أحب الكذب وإخفاء الخطايا، فيما اذا بدرت من أي شخص بل من أقرب وأحب شخص لي، لذلك فان قصصي ورواياتي وكتاباتي نابعة ومتدفقة من ينبوع نفسي والتي تمثل الحقيقة الممزوجة بالخيال، دون التمييز في ذكر السراء والضراء.

ان هدفي الكبير هو، ان القارئ الكوردي يقرأ هذه القصص ويتصور ان الشقاق وحرب الاخوة الاعداء إلى أي مدى وقدر تترتب عليها الفجيعة والنكبة والخذلان وخيبة آمال الشعب.

يحدوني الأمل أن أري بعيني أن يسود السلام والوفاق والتأخي والألفة ووحدة الكلمة والارادة بين الكورد وفي كوردستان الحبيبة دائما.

لكي ينتعش شعبنا الذي لا نصير له ولا ظهير، ويحقق أمانيه، كما قال القدماء: "إذا كان الأخ ظهيراً لأخيه فيما اذا كانت المصيبة عند الله". يجب على الكورد ان يدركوا ذلك وقد أثبتت لهم التجربة والامتحان، إذا كانوا أحدهم ظهيراً للآخر، لا تقوى عليهم قوة. كانت بداية ثورة أيلو ل ١٩٦١ أكبر علامة بأن البارتي حينما كان موحداً، ادخلوا الهلع والفزع في قلب قوة الحكومة بتلك البنادق القديمة المتهرئة التي كانوا يمتلكونها، كان عسكر الحكومة يحشكون أنفسهم منذ المساء في الربايا والثغور التي اقاموها حول مدن كوردستان، خاصة مدينة الكفاح والفداء، مدينة السلمانية الحبيبة.

گەلاوێژ

السليمانية: ٢٠٠٢/٥/٢٨

مضى شهر واحد على عودة عوائل حەپسەخان وأختها والعوائل الأخرى إلى السليمانية من طهران وإيران، حيث كانوا واصلين إلى الاراضي الايرانية بسبب نشوب الشقاق في صفوف (الپارتى) وحرب الاخوة الاعداء عام ١٩٦٤ كلاجئين.

كانت الاجواء تقترب من موسم الربيع، ولو كان الجو ما يزال بارداً، وكانت الأمطار والرعد والريح الدافئة الربيعية في حركة نشطة عنيفة وكانت جميعها في هرج ومرج وفي احتفال. ومع ذلك لم تكن عائلة حەپسەخان ومعارفها وأقاربها واهلها تكترث بأي شيء – ما عدا احتفالهم، فكن دائما في تبادل الزيارات والدعوات وإقامة الولائم والمآدب، في حين أنهم سلخوا شهرا واحداً منذ وصولهم إلى السليمانية، بينما كان المعارف والأقارب والأهل يتصورون بأنهم عادوا بالأمس.

لقد كانوا متعطشين لعقد الجلسات واللقاءات وتجاذب اطراف الحديث، وكانت العوائل أكثر منهن، لقد انتعشن تماما، خاصة كان الوضع جيداً، والأبناء كانوا دائما في تجوال وكان الناس يتوجهون اليهم من كل جهة، وكل شخص لغرض معين، كان البعض يرون ايجاد العمل لهم.

وكان البعض عندهم مشكلة الدراسة حيث تركوها بسبب الثورة، والآخرون أصيبوا بفاجعة، فاستشهد أبناؤهم وأقاربهم، هكذا من أمثال تلك المآسي والكوارث حتى مشكلة القضايا العائلية، كالزواج والطلاق.

***

واصل القادة مفاوضاتهم مع الحومة، وبعد مدة طويلة تعهدت الحكومة بفتح جامعة في مدينة السليمانية، وكذلك فتحت دورة للذين تركوا الدراسة دون

إستكمالها، حيث كانوا متجهين إلى الجبل، بأن يصبحوا نواب الضباط ومفوضي الشرطة من أمثال تلك الوظائف.

كما أن الحكومة كانت تقدم لهم المساعدات بالتعويضات المالية جراء الاضرار والخسائر التي لحقت بالناس بسبب الاوضاع الاستثنائية التي ادت إلى تردي وضياع الاوضاع المعيشية.

كذلك بعد مفاوضات طويلة، تعهدت الحكومة ان تجعل دهوك محافظة، هكذا ان هذا الشكل كان دائما فحوى مفاوضاتهم، ان هؤلاء القادة (جناح المكتب السياسي) كانوا يريدون قدر ما يستطيعون انجازه. ان يحملوا الحكومة بسرعة على تلبية المطالب التي كانوا يقدمونها، لكي يظهروا للشعب مدى حرصهم على مطالبهم، وان كل محاولاتهم ومساعيهم تنصب أساسا على تحقيق أمانيهم، لا لمجيئهم ان يركنوا في بغداد ومدن كوردستان للراحة والتمتع بملذاتهم.

ولكن أسوة بجميع المجتمعات والشعوب تظهر في مثل تلك الاوقات عناصر تنتفع من الاحداث والتحولات، ولهذا فان بعض المسؤولين والمقربين والتابعين لهم بدأوا بالابتزاز وشراء العقارات، وتراكم الفرش والسجادات وبيع الكلاشينكوف والمسدسات والبنادق، وشراء الذهب، ومن بينهم من كان يشتري لابنته في السنة الثالثة من عمرها حلي الصدر (حلي اليلك) وقلادة الليرة الذهبية.

ولو أن مثل تلك الاعمال، تحدث بين جميع المجتمعات والمنظمات، حتى في أكثر الحكومات الديمقراطية تحدث، ولا يتمكن أحد أن يراقب كل هؤلاء الناس بذلك القدر، ولكن من الحق والصواب أذا شخص هؤلاء الاشخاص لابد من اتخاذ الاجراءات بحقهم وإنزال العقاب بهم ومواجهتهم بالقول: (من أين لكم هذا؟؟). ومع ذلك فان أمثال هؤلاء كانوا قلة جدا وما كانوا يعدون على أصابع اليد بين المنظمة المتميزة وجناح المكتب السياسي، لان القسم الآخر أي (جناح القيادة العشائرية) كانت الغالبية العظمى منهم اثروا لدرجة ان بعض هؤلاء الاشخاص قياسا لهم كانوا يصبحون قشة.

وقد تبين، ان ذلك الاثراء والاعتناء وتلك الاعمال اللامشروعة التي كانت تحدث بين كلا الجناحين، كان جميعها على حساب ثورة الكورد وكردستان والدماء الزكية للشهداء الكورد والأبطال.

***

ودعت حەپسەخان ذات مساء الضيوف إلى عتبة باب الباحة بحرارة، وعادت مع كنتها نەوبەهار نحو الغرفة، في ذلك الوقت أقحم توّفه البيت، فأغلق الباب بقوة مصفقا أحدهما بالآخر.

والتفتت اليه حەپسەخان وقالت:

– أو أنت عزيزي توّفه، ماذا بك، أعرف انك تبدو غاضبا؟

ما ذلك؟ أو لم تقل ما ان اعود إلى الوطن وأتجول مرة اخرى في شوارع السليمانية، أتمشى حينئذ يصبح الموت عندي نزهة.

بينما، كله شهر واحد منذ أن عدت، أصبحت مجددا غاضبا وقلقا. نظرت اليه حەپسەخان بأبتسامة جذلة جدا وقالت:

– ما أسرع ان نسيت أقوالك، وكذلك سرعان ما شبعت من السليمانية؟ قال توّفه أثناء سيره نحو الآيوان:

– الآن أقول نفس الشيء ماشأن السليمانية وشوارعها بالناس الثرثارين والتافهين والافاكين النمامين.

لطمت حەپسەخان صدرها بجفول مصطنع وقالت:

– أواه، فداك روحي أي نميمة ووشاية وكذبة يا ترى، بحيث أنها جعلتك غير مرتاح وغاضبا هكذا؟

وصل توّفه مع حەپسەخان ونەوبەهار إلى الايوان، وقد تفل توّفه وقال:

– لا تنقصنا الا هذه الضجة.

كانت صبرية الواقفة في الايوان مكبة على لم نفسها، لكي تعود إلى بيتها، نظرت إلى توّفه وقالت: ماذا حدث حبيبي توّفه، بأبتسامة ساخرة إلى صبرية و حەپسەخان ونەوبەهار قال:

– اتعرفن ما أسمنا الجديد؟

قالت حەپسەخان قبل الجميع بضحكة جدية:

– تذكر من ما أسمه؟

ضحك توّفه وقال:

– أذكر اسمنا، اطلقت علينا الجهة الاخرى جحوش ستة وستين، على ما أظن جئنا اتفقنا مع الحكومة:

انتفضت صبرية وقالت بحرارة:

– وانت ماذا قلت؟ من الذي قال لك هذا؟

استطردت صبرية في كلامها وقالت مبتسمة:

– فكان حريا بك ان تقول له، إذا أصبحنا نحن جحوش ستة وستين، فاننا تعلمنا منكم، لانكم أول مرة أصبحتم جحوش اربعة وستين فاتفقتم مع الحكومة، وهجمتم علينا باللوريات العسكرية في مارەت، وأصبحتم سببا لاستشهاد وابادة العديد من الابطال والمناضلين في الطرفين، لذلك حتى وإن أصبحنا جحوشا، فتعلمنا ذلك منكم.

سعل توّفه وأثناء سعاله قال:

صادفني اللطيم الضابط السافل ابن محمود بك مع أحد أقاربه في(مقهى الاوقاف) حيث كانوا يتكلمون تلك الأقوال، وحين رأوني سكتوا، لكني لم اتركهم، فتجادلنا وقالوا لي:

– إنكم تأخذون الدنانير ملء الحقائب من الحكومة، وتأتيكم الأسلحة بالشاحنات.

ضحكت صبرية وقالت:

– كان من المفروض ان تقول لهم، أو انتم أخذتم القليل؟

إضافة إلى ملايين الدنانير والدولارات، وكانت تتواصل لوريات التفاح والبرتقال وسجاير الروثمان اليكم من قبل الحكومة، ولا تذكر الذين لم تكن لهم صلة شروى نقير طوال حياتهم بالثورة والكفاح، ولم تكن لهم أكثر من الافراح والراحة في حين أنهم عينوا في مناصب حكومية راقية وأصبحوا يقعسون صدورهم ويتطفلون وينغمسون في العيش الرغد.

عادت صبرية وقالت:

– أشهد بالله باستثناء واحد أثنين منهم، حيث كانوا منذ مدة منهمكين بالكورديتي والكفاح، والا فان الآخرين، لانهم كانوا أبناء الاغا الفلاني أو حينما كان البارتي موحدا، كانت جماعة جهتنا يعتبرونهم أخسة وسفلة، كيف أنتم قدمتهم لتلك المناصب الرفيعة حقدا علينا، وعلى حساب الشعب الكوردي المحروم، كأن الكورد أشعل الثورة لذلك، وإراقة الدماء الشهداء لأجل أن يصبح البعض وزراء ومدراء ومحافظين وسفراء.

رفعت نەوبەهار يدها بأبتسامة وقالت:

– أوه أو أنتن تستمعن إلى أي شيء، وتشغلن أنفسكن بأي شيء، ليقل أمثال هؤلاء الاشخاص هكذا، انهم يقولون ذلك حقدا وكراهية، أمن المعقول ان يمتدحوا، كل شخص يعرف كيف كان القادة الذين توصلوا إلى هذه الاتفاقية، وكيف انهم اضطروا إلى هذه الاتفاقية بسبب تآمر وأنانية الطرف الآخر، انهم عادوا من ايران بالقلب والروح حين عرفوا ان الطرف الآخر وقع في محنة وشدة، والحكومة مكبة على مواجهتهم، فإزاء ذلك تناسوا كل شيء، وعادوا إلى صفوفهم قادة وجيشا وبقلب طاهر، بينما هم كانوا في الخفاء يخططون للقضاء على قادتهم.

لقد شاء الله ان يغدق رحمته الواسعة عليهم، اذ سرعان ما اخبرهم هذا الرجل الشهم النجيب، ان يتدبروا وضعهم بأسرع وقت ممكن، وهو نفسه أسعفهم وأنقذهم، وكان بالاسم أيضا مع الطرف المعادي وعائد لهم، إلآ أن غيرته رفضت ذلك فأخبرهم في الخفاء.

علقت حەپسەخان بخوف وحرارة وقالت:

– اوه عمر بيته يا ربي، والله أقرأ له الدعاء خمسة فروض على سجادة الصلاة.

لطمت حەپسەخان صدرها وقالت:

– وي معاذ الله، وحتى الان حين يذكر الموضوع أفزع. عادت صبرية إلى الكلام، والتفتت إلى توّفه وقالت:

– كان عليك ان تقول له، إن جماعتنا لن يصبحوا أبداً جحوشا لاحد، وبالعكس فان الحكومة تتملق لهم، وكل شخص يعرف تأريخ كفاحهم، لو كانوا

يبحثون عن الجحوشية والاموال الممتلكات، لكان قصر كل واحد منهم يبلغ فلك الافلاك، وكانوا يملؤون بنوك البلاد بالنقود، إن قادتنا كرسوا حياتهم في الخامسة عشرة والسادسة عشرة من العمر من أجل الكورديتي وناضلوا بلا هوادة، ومن بينهم من قال شعرا في السادسة عشرة من عمره والذي لا يتقادم بمرور الزمن ويحتفظ بنكهته وحلاوته، وكلما مرت سنة وأتت أخرى يصبح أبهى وأغلى.

ضحكت صبرية وقالت:

– أصبح ذلك الشعر رمزا للحكم الذاتي واستقلال الكورد. لانه كلما تفاوضت الحكومة مع الكورد وأتفقت معه تقدم هذه القصيدة على شكل اغنية في إذاعة بغداد، يقول الناس أحدهم للاخر:

– أخي الشكر لله فالوضع جيد، إن القسم الكوردي في إذاعة بغداد بث اليوم مرتين أغنية (حبيبتي هوذا الربيع (شيرن بهاره).

إن حاجي مجيد الذي قد كان عائدا منذ وهلة من الجامع بعد صلاة العشاء دخل غرفة الجلوس، وكان ابنه حسين وزوجته حەپسەخان وتوّفه مشغولين بالكلام والجدال وفتح الموضوعات والضحك.

نظر اليهم حاجي باسما وقال:

– خيرا، تتحدثون عن أي شيء؟ حيث اشغلتم انفسكم هكذا، ثم وجه كلامه إلى حەپسەخان قائلا: الا تنوين ان تعطينا العشاء؟!

ضحكت حەپسەخان ونهضت ومدت يدها إلى رأسها وعصابة رأسها ومشلها وقالت:

– اواه كيف لا انوى، فكنا في انتظارك، لا أدري لماذا تأخرت نەسرين هكذا بعد ذهاب الضيوف، ذهبت لزيارة امها، يقولون لا سامح الله انتابتها وعكة.

مهما حاولت لم يكن لي المجال اليوم أزورها أنا أيضا، أشتاق إليها كثيرا.

علق حسين وقال:

– والله قبل مجيئي زرتهم، فالشكر لله كانوا في صحة جيدة، وضع حسين يده على كتف والدته وقال فرحا:

– قالت أيضا قل لاختي حەپسەخان وكاكه حاجي، ان يأتينا إلى بيتنا ظهرا، لانها اقامت وليمة لعائلة والد بيستون.

نظرت حەپسەخان إلى ابنها حسين بنظرة مفعمة بالحب وقالت:

لفرط انشغالي غفلت عن بيت بيستون تماما، الا هل استقروا حقيقة؟!

قال حسين:

انهم انتقلوا تماما إلى دارهم .

قالت آمه خان بحرارة:

– لـتكن يـا ربـي حسـب رغبـتهم، ويرتـاحون فيهـا، مسـاكين هـم أيضـا لم يتعرضوا إلى القليل!!!

استطردت حەپسەخان في كلامها وقالت بحرارة:

– منذ ثلاثة أيام لم تأت روناك الشيطانة لزيارتنا، يبدو أنها أيضا مشغولة جدا.

علق توّفه قائلا:

– أي والله، لقد تشمرت هي مع حماتها، فكانتا مشغولتين بتنظيم البيت، كأنها طوال حياتها منهمكة بترتيب البيت، مد توّفه يده إلى جيبه وأخرج علبة السيجارة واستطرد في كلامه قائلا:

– بينما كانت عندنا كسولة للغاية، ضحكت حەپسەخان من أعماقها وقالت:

– هي كذلك، هكذا تفعل الآن لبيتها وزوجها، كانت هنا قوية الظهر، كانت تدلل علينا، قال توّفه أثناء التدخين:

– والله فان ام بيستون تحبها مثلك وتدللها، لكنها دائما تريد أن تظهر نفسها نشطة وفعالة.

يبدو ان حاجي كان شديد الجوع، لذلك استعجل في الأكل مرة اخرى وقال:

– اعطونا الاكل اولا، ثم اكملوا حديثكم.

وضعت حەپسەخان بسرور يدها على صدرها وقالت:

– تـأمر عزيـزي حـاجي، فهـا ذهبـت لاصـب الأكـل، والتفتـت إلى الاخريـات وقالت:

تعالوا يا اولاد يا بنات هاتوا المواعين واحضروا المائدة. حضرت المائدة فحلقوا جميعهم حولها، وبدؤوا بأكل القبولي (التمن المطبوخ) ومرق السلق والبصل واللحم المثروم الناشف الشهي.

لقد التفتت حەپسەخان إلى ابنها حسين وهي كان تصب الشنينة في اقداح الجماعة وقالت ضاحكة:

– أحكيت لوالدك موضوع الطعن والتشهير الجديدين بنا؟

ابتلع حسين اللقمة والتي كانت في فمه وقال مبتسما:

– لا والله، لمذا اقول له واضايقه؟ لاخوف منهم ولا اهمية ليطلقوا علينا ما شاؤوا من الاسماء.

علق والده وقال:

تذكرون أي تشهير وطعن؟

روى له حسين موضوع توّفه كيف تحول إلى المجادلة مع شخصين من الجهة الاخرى للبارتي وماذا قالا له.

هز حاجي مجيد راسه وقال بملال:

– ماذا تقول، والله لا يحب احد منا هذا الشقاق وحرب الاخوة الاعداء، وأنا بقدر ما يتعلق بي، حتى إذا تمنحنا الحكومة الآن الاستقلال فهو لا شيء، ولا يفرح قلبي به، لانه لسنا على وفاق فيما بيننا ونتقاتل، وأنا أعرف أن اتفاق الحكومة أيضا ليس حتى النهاية، كله خداع وأحتيال وامرار للوقت، وفي نظري ان أي نصر وتحقيق الحق لا يرقى إلى مستوى التوحيد والوفاق وائتلاف الكورد فيما بينهم،وأصل حاجي كلامه وقال:

– لكن ما في اليد حيلة، انهم استخدموا كل الطرق والوسائل للتوحيد، ولا يجوز، ولن يكون بأن يقفوا مكتوفي الايدي امامهم، ويقولوا لهم تفضلوا اقتلونا وابيدونا، لقد تحمس حاجي وغضب، ورفع يده بقوة وقال:

– واخيرا لماذا يا ترى؟ انهم منذ ان وجدوا اعملوا قليلا وحققوا قليلا، هل أتوا في وقت متأخر كما قال الرجل.

تجمع في يوم غد جميعهم في بيت آمه خان وكاكه حاجي، عشيرة والد بيستون بكامل افرادهم، وكذلك بيت حەپسەخان وصبرية بحميها وحماتها، وكذلك عائلة

عدد من اقاربهم الآخرين، كان الجميع جالسين بالتسلسل في الغرفة العروسية المشمسة المريحة لبيت آمه خان، وقد اتكؤوا كعادة كوردية على المنادر اللينة النظيفة الجميلة، حيث كانوا مسندين مرافقهم إلى الوسائد الاسطوانية القديمة التي كانت كل واحدة منها بحجم محدلة السطوح.

كانت الطيقان العروسية لآمه خان مزادنة بالنسيج الجميل والسماور والأبريق العجمي القديم والغالي للشاي.

وفي زاوية من الغرفة كانت مدفأة علاء الدين تشتعل، وكان يئز فوقها كتلي نحاسي نظيف أزيزا حيث وضعوا المدفأة في تلك الزاوية خوفا من أيدي الأطفال.

وكذلك السماور كان في زاوية اخرى من الغرفة يئز هو أيضا ازيزا، وقد كانت كنة حەپسەخان جالسة امامه بتلك الوسامة، اذ كانت منشغلة بابريق الشاي والاقداح، وكانت تحضر الشاي للجماعة.

ولو كانت حەپسەخان تصمت بعض الاحيان، وكانت تغرق عيناها بالدموع سريعا سريعا، حين يذكر حدث محزن، ولكن حين كان الموضوع يتغير ويغلب عليه كلام، يتفتح وجهها، وأخذت تتكلم وتسرد الحكايات والسيرة الذاتية، وكانت موضوع الحياة في طهران وايران والعبور وذكر الاغا الرضائي، كل ذلك كان يصبح مادة واساسا لسرد الاقوال وقضاء الوقت.

كانت تنتابها المضايقة أحيانا، وتمسح دموع عينيها، وأحيانا اخرى كانت تقهقة ضاحكة، وقد اعتادت ان ترفع يدها الجميلة المكتنزة لحما والممتلئة بالاساور والخرزات الذهبية، وتهزها حين كانت تروي شيئا مضحكا، كما ان اختها آمەخان رغم انها لم تكن نشطة، وكانت بطيئة الحركة قليلا، ولم تكن تمتلك طاقة تدبير البيت، وكانت هكذا طوال حياتها، وتعطي دائما ملابسها إلى هذه وتلك لاداء عملها لها، وعدم انشغالها بها.

ولكن منذ ان عادت من ايران تخلصت من حالة التشرد، اخذت تبدي نشاطا ملحوظا، خاصة في ذلك اليوم حيث اعدت الطبخ ومستلزماته، وكرست كل وقتها له، لدرجة انها لم تدع ابنتها نەسرين او بنت اختها صبرية ان تطبخا لها، وكانت قائلة لهما، انتما كونا في رعاية الضيوف ووضع مائدة الطعام.

لم تكن آمه خان تبدو حريصة ومهتمة ببيتها واحوالها وان تفكر إلى قدر ما بل كانت تريد من الله ان تترك وشأنها فاذا ما تمكنت ان تحمل البيت على ظهرها لا ان تعمل، لذلك قد بذلت في ذلك جهودا واتعبت نفسها كثيرا.

على الرغم من ان آمه خان كانت تنسى نفسها في بعض الايام اذ كانت امنيتها لا ان تعود فقط إلى السليمانية وبيتها، بل كانت ان تصل إلى ماوه‌ت ولم تكن تريد من الله أي شيء آخر. وحين كان يذكر موضوع مالها وحالها، للسنوات الماضية والفرش والسجادات وأشياء السليمانية، كانت تقول: لا...لا فداك روحي لا أريد أي شيء، كله فدى أن اذهب فقط إلى ريف عندنا، ان استقر مرة ثانية مطمئنة راضية وانجو من هذه الغربة، بينما بعد ان عادت إلى السليمانية كانت تدمدم في بعض الاحيان في بيتها وتقول:

– اواه لقد تركت من ورائي طشتا نحاسيا جديدا جميلا كانه عروسة مزدانة، لقد أرسلت فأشتروه لي في الموصل قبل هروبنا إلى الجبال بشهرين، لقد كان كبيرا يسع لرجل يجلس فيه بكل راحة ويغتسل، بينما إلى ان عدنا قعروه وخسفوه من طرفين فيتسرب منهما الماء، وكان خيرا ان وضعته في بيت المرأة المخلصة لي، تنهدت آمه خان وتحسرت قائلة:

– صدقوا ما قالوا ربي ليكن افعاك عند الناس وليس بيتك. كانت اختها وابناؤها وابناء وبنات اختها، يصرخن في وجهها ويقلن لها:

– هذه هي المرأة التي كانت تقول، لا اريد أي شيء، أوصلوني إلى قرية في منطقتنا فقط وكانت هي تضحك وتقول:

– فماذا أفعل، ان طشتي (او شي آخر لها) كان جميلا جدا، لم يكن قلبي يطاوعني أن استخدمه.

***

كان ضيوف كاكه حاجي وآمه خان اشاعوا الدفء والحيوية في الجلسة، فكان كل واحد يحكي شيئا.

كان الصمت يخيم عليهم احيانا، كحياة وسيرة جميع اهالي كوردستان عامة حين يكونون في منتهى قهقهات الضحك، فيفاجئون بحياة مليئة بالكوارث

والاحداث المختلفة الملوءة بالظلم والصعوبات التي تحجب عيونهم وتضايق قلوبهم، وتجعل أكثرهم لا أباليا ومتسيبا ملولا محسورا مرتبكا.

لذلك في غمرة احر سرد للكلام واحلى قهقهة ضحكة حەپسەخان. اكتأبت، وامتقع وجهها حين ابصرت الساعة المقابلة لها، حيث ان الساعة هي الثانية والنصف، بينما لم تبد لاكنتها نەوبەهار ولا تۆفه ولا ابنتها وروناك التي كانت ذاهبة إلى بيت اخيها في ذلك الصباح حيث ارادت أن تأتي معهم في حين لم يظهر احد منهم.

كما ان اختها آمه خان صاحت عدة مرات بأن الاكل قد برد فمتى يأكلون؟ والجماعة جائعون كثيرا، وهم لم يأتوا، يا ترى ماذا حدث؟ اذ ان تۆفه حتى اذا وقع الطوفان والفيضان، ففي مثل هذا اليوم حيث اجتمع جميع الاقارب، يجب قبل أي شخص ان يجلس تۆفه في صدر المجلس، ويبدأ بالتفاخر والنفخ.

فلماذا تأخر هكذا؟!

أسوأ من الكل ان تلفونات جميع أهل المحلة التي فيها بيت ابنها علي عاطلة منذ يومين وهي في حالة تصليح والا كانت تخابر حتى الان مرتين ثلاث مرات، لماذا تأخروا هكذا؟!

نظرت حەپسەخان بقلق إلى الجالسين وقالت:

– يا جماعة أترون اصبحت في هم؟ فان نەوبەهار وتۆفه وروناك تأخروا كثيرا، لنرسل احدا حتى نعرف لماذا لم يأتوا لحد الان، علق زوجها حاجي مجيد وقال:

– يا الله ابدئي مرة اخرى، قال حاجي بشيء من الحدة:

– ما ضير في ذلك، فليتأخروا، لعل لهم شغلا، او زارهم ضيف، خجلوا ان يقولوا شيئا، هل من المعقول ان يقولوا:

– قوموا يا ضيوف أذهبوا، لاننا مدعوون ...ان شيروان وعلي وبيستون ورفاقهم في طريقهم من كركوك، لعلهم وصلوا يريدون ان يأتوا معا.

نظر حاجي إلى الجالسين وقال:

– بالله عليكم أهذا يقتضي الهم والجزع؟ نهضت حەپسەخان وقالت:

– أي والله يقتضي هما كثيرا، لان احدا من الابناء الآخرين لم يظهر.

لا بەختيار لا حسين لا نەورۆز!!

شاركت ام بيستون عاطفة حەپسەخان بلهفة وقالت:

انت اجلسي، فارسل وشيار حالا، لم تصبر حتى ماذا تقول حەپسەخان، نادت ابنها الذي كان عمره يناهز الرابعة عشرة، الثالثة عشرة، وقالت:

– ابني تعال، اذهب بسرعة إلى بيت كاكه علي، وأعرف لماذا لم تأت نەوبەهار خان ورونـاك خان وكاكه توّفه.

نهضت ام بيستون، وتبعت ابنها إلى عتبة باب الباحة، اثناء توجيه النصائح والارشادات، قالت له: انتبه عبر الشارع، لا تنظر إلى طرفي الشارع الا من مكان العبور حذار ان تعبر.

كان الابن واصلا نهاية الزقاق، كانت امه لا تزال تلوح بيدها امام الباب وكانت مكبة على التوجيه والنصيحة ولم تكف. كان بيت آمة خان في اصحابة سبي، وكان بيت علي ونەوبەهار في حي شيخان.

وأخيرا اضطروا ان يفرشوا المائدة وبدأوا بجلب الطعام والرصف، لانه تجاوز الحد، كان الضيوف جائعين جدا، قالت آمه خان:

– تفضلوا كلوا طعامكم، فها انهم على وشك الوصول، فالشكر لله الطعام كثير، واحتفظت بحصة الجميع.

بدأت الجماعة بتناول الاكل، ولم يأكلوا باشتهاء، خاصة حەپسەخان وأم بيستون، وصبرية، التي كانت عندها عسر الهضم وداهمها القلق، وكان كلام والدها عندها غير معقول، لذلك شرد خيالها، وكانت تظن أنها تأكل التبن والاوراق اليابسة بدلا من التمن المطبوخ والتمن الشهي ولحم ذلك الديك الرومي الكبير كأنه خروف.

لقد انشغلت آمه خان مدة يومين، باعداد هذا الطعام، وقد استخدمت كل ما امتلكت من خبرة وفن ونصيحة ثلاثين أو عشرين عاما فيما مضى من جدتها في طهي الطعام لذلك اليوم وكانت منذ الليلة مكبة على الموقد والفحم والجمرات والبرياني.

لقد نهض قسم من الجماعة، وكان البعض الآخر مازالوا باقين على المائدة، خاصة امهات الأطفال، حيث أقحم هوشيار راكضا إلى البيت وصعد إلى الطابق العلوي بعجلة إلى عند والديه والآخرين.

توجهت اليه حەپسەخان بارتباك قبل الجميع وقالت.

– وا فرحتاه، شكرا لله قد عاد هوشيار الحبيب، فداك روحي ماذا حدث؟!

امتقع وجه هوشيار، وجحظت عيناه، واقترب من امه متوجسا والصق رأسه بصدرها واجاب بهمهمة حەپسەخان والاخريات، حيث هجمت عليه الجميع كالعاصفة، وقد سأل كل واحد شيئا منه، كاكه حاجي الذي كان صاحب البيت والوليمة، قال بهدوء لكي لا يزعج الضيوف، ومع ذلك قال بشدة:

– اخي ابي امي، بهدوء، فانتم اطرتم صواب الطفل وجعلتم الولد في فزع وهلع، التفت كاكه حاجي إلى الولد على رسله وقال:

– ماذا حدث ابني العزيز، أو ذهبت؟! لماذا لم يأتوا؟ غمض هوشيار عينيه خائفا وفرك يديه، وقال بصوت متقطع:

– اجل ذهبت، لم يكن كاكه توّفه هناك، فكانت نەوبەهار خان وروناك خان تتكلمان بصوت عال وتبكيان، انتفضت حەپسەخان بهذا الكلام دفعة واحدة ولطمت رأسها بكلتا راحتي يديها وقالت مضطربة:

– الم اقل قد حدث شيء، التفتت إلى زوجها، وقد انهالت عليه كمتعدية وقالت:

– ماذا قلت؟ بينما انت كنت تقول لي، مرة اخرى بدأت وارتبكت، كادت حەپسەخان ان يغمى عليها، وقد عجزت اختها آمه خان واسندت ظهرها إلى الحائط.

هجمت ام بيستون على عباءتها وركضت إلى الطابق السفلي، واثناء الدعاء والتضرع إلى الله، صاح والد ابنه ومسد رأسه كأنه يريد أن يزيل خوفه، وسأله بهدوء وقال:

– ابني ألم تعرف لماذا كانت تبكي نەوبەهار وروناك خان، او لم تتكلم معهما؟ الصق هوشيار نفسه بهدوء بأبيه وقال:

– قالوا حدثت معركة في طريق كركوك بين كلا طرفي البارتي وان كاك علي والآخرين في معمعان المعركة، بدأت حماة صبرية بالبكاء، قام حماها بسرعة، وارتدى حذاءيه واخذ يسير.

بقيت المائدة هناك دون أكتراث احد بها، على أقل تقدير ان يلقي الطعام جانبا، اخذ البعض بالسير، ولم يعرفوا كيف قطعوا الزقاق وكان البعض مازالوا واقفين على الباب، والآخرون تفرقوا في الباحة والأيوان، حين اقحمت روناك البيت باكية، بفم وشفتين يابستين مبيضتين، وقد بكت بصوت عال وقالت:

– يدور القتال الآن على مقربة من مضيق بازيان وفي تلك المنطقة.

التفتت حەپسەخان وهي تلطم صدرها، إلى ابنتها وقالت:

– متى كان هذا؟ لماذا لم تقلن لنا؟

غصت روناك بالبكاء، وقالت...

– حين ذهبت صباحا قالت زوجة اخي فها اذهب بسرعة فاغتسل حتى نذهب إلى بيت آمه خان وانا قلت..

– طيب اذهبي وانا اجلس في حضور الأطفال، وقد عجلها كاكه توّفه وقال:

– هيا ان الساعة هي الثانية عشرة، هل فكرت الآن، اجهشت روناك بالبكاء.

ضحكت زوجة أخي وقالت:

– اخرج حالا، والآن يصل علي والآخرون، ومرة اخرى يأتي هذا ويذهب ذلك، لا يفسح لي المجال ان اذهب إلى الحمام، وقال كاكه توّفه:

– اسرعي فنحن جائعون، كنا نقول ونمرح من هذا القبيل حين فوجئنا بمجيء كاكه عثمان ابن العمة ئافتاو في حالة اضطراب وسأل عن خبر نەورۆز ابن الخالة آمه خان، وهمست في اذن كاكه توّفه وقال، لطم كاكه توّفه رأسه، وقد سارا كلاهما راكضين، وانا ركضت من ورائهما ماذا حدث؟ عليه هو قال: "انه قتال"، وقد ركب كاكه توّفه والآخرون السيارة، وقالت حەپسەخان اثناء بكائها:

– فماذا حل بـ(نەوبەهار)؟ مسحت روناك دموعها بظاهر يدها وقالت:

– مسكينة هي أيضا خرجت من الحمام بالصراخ والبكاء، بجسم ملبد بالرغوة، والصابون وارتدت ملابسها بسرعة، وما ان التفتت حتى وان تقاطر الجيران والاقارب على البيت.

***

لم يعرف احد ما آل اليه وضع الضيوف، كل واحد منهم ركض إلى جهة ما، وصلت صبرية وحماتها وحموها بسرعة إلى رأس الشارع، ومن هناك عدن إلى بيتهن بسيارة احد المعارف، كان بيتهم في حي العقاري، قريبا من شارع كركوك، السليمانية، وعادت والدة وام بيستون بحزن والم وعيون دامعة إلى بيتهم، وفي منتصف الطريق عادت ام بيستون إلى عند حەپسەخان والآخرين ولم تستقر على حال من القلق.

اصبحت حەپسەخان كالمجنونة، مرة كانت تذهب إلى امام الباب و كانت تريد ان تذهب إلى بيت ابنها علي، وتارة اخرى كانت تعود وتقول:

– لا...هنا افضل، لان تلفونهم هناك عاطل، لعل هنا نسمع خبرا.

اضطربت المدينة، فكانت امهات وزوجات واخوات الپێشمەرگە يركضن إلى هذا الطرف وذلك، هي كانت تسأل ماذا حدث؟ واخرى كانت تقول أي قتال، خاطر الله اين حدث هذا، واخرى كانت تذهب بعجلة وتقول أذهب إلى المقر، فهم عندهم الآن الخبر الصحيح.

معظم الرجال، دون أن يسألوا ركبوا السيارات والقلابات واللوريات وتوجهوا إلى مضيق بازيان، لقد ظل حتى المساء المتأخر هؤلاء الناس واهل واقارب الپێشمەرگە مهمومين في خوف وهلع دامعي العيون منزعجين في تلك الطرقات منتظرين وقد استرقوا السمع لتلقف خبر، وبعد ساعات كأنها شهور وسنة قدر ما كانت مدة نفاد الصبر طويلة عندهم.

وصلت اول سيارة لاندروفر وراءها اسعاف حملت الناس بخفة القلوب عليها، ماذا حدث وقفت سيارة لاندروڤر، قفز احد اثنان من الپێشمەرگە على الارض وقالا:

انتهت المعركة ولو عندنا جرحى لابد ايصالهم إلى المستشفى بسرعة، وحين شقت سيارة اسعاف صفوفهم بسرعة فائقة، قال هو:

– من هم الجرحى، وما اسماؤهم؟ وكان من بيهم من يركض إلى المستشفى حالا، والآخرون نحو المقر.

ان هؤلاء الناس المهمومين اصبحوا في عجلة من أمرهم وانتابهم الارتباك، كان فيهم من يلطم راسه، ومن كان يسب الشخص الذي يرغب في هذا القتال ويقول:

– ما هذا الوضع النحس يا ربي، واي مصيبة وفاجعة، إلى ان ننجو من الحكومة نتعرض اخيرا إلى حرب هذا الشقاق، وا ويلاه ايها الناس، اوجدتم ان يوجهه أخ نيران سلاحه إلى أخيه، وكان الآخر يستأصل من ذلك الطرف جذور الفوضى، وكان يعتبر الجهة الاخرى متخلفة وعشائرية وانانية،والجهة المعارضة لها تعتبر عنيدة ومهملة ومسؤولة وكان يقول ان تتخلوا شيئا عن العناد والتعنت والمصلحة الحزبية، ولا تسببوا قتل كل هؤلاء الناس، كان شخص آخر يقول من هناك:

– اخي ماذا تقول انت؟ هل أكثر من هذا بعد كل ما عانوا من التشرد والبؤس والشقاء، فحين علموا ان الحكومة تحاربهم وتقاتلهم تناسوا كل شيء وعادوا إلى صفوفهم وبين ايديهم وقالوا:

– فها عدنا اليكم احسبونا اخوة صغار لكم، وقد نسينا كالسابق كل شيء.

ومع ذلك ارادوا القضاء عليهم.

***

وصلت السيارات ولاندروڤر كلها إلى الموقع، فالناس صاروا في هيجان وفوران، دون ان يراها احد بعد، او احد نزل من السيارة بعد، شاعت الدعايات والتقولات، تلك امراة كانت تلطم نفسها وتقول:

– يقولون ان اكثر من عشرين پێشمەرگه استشهدوا، والاخرى كانت تقول:

سمعت بأذني ان احد الپێشمەرگه قال:

– ان علي حاجي مجيد قد اصيب.

اخيرا وبعد خفقان القلب وانزعاج كثير علم ان اثنين من الپێشمەرگه استشهدوا، وجرح اربعة. حيث كانوا من اشجع الشجعان، كما انهم من المناضلين القدامى حين كانت الثورة في بدايتها، وكان الحكومة تريد ان تذهب إلى أزمر، كانوا هم مع فصيل من الپێشمەرگه الآخرين تمكنوا بالبنادق البالية التي كانوا يمتلكونها التصدي للجيش الحكومي وارجاع القوة المهاجمة القهقرى، والحاق الهزيمة بها، وادخال الفزع والهلع في نفوس العسكريين الذين

كانوا في ضواحي المدينة لقد ارتبكت المدينة واضطربت دفعة واحدة، وقد حقد وانزعج الناس من قطع الطريق هذا واستشهاد هذين البطلين من الپێشمەرگە، وقد شيعوا الشهيدين باثارة ضجة، وازدحام للغاية وتظاهرة حماسية كفيضان غضب عارم إلى المقبرة حيث مثواهما الاخير.

لقد مرت على هذا الوضع سنة ونصف، وقد كانت هذه الجهة للبارتي التي مثلت جناح المكتب السياسي، في وفاق مع الحكومة في جميع المدن، وقد فتحوا المقرات علنا، وكان الاعضاء والتابعون لهم والپێشمەرگە وقادتهم في نشاط وحركة دائبة، وكانوا في تنقل متواصل في المدن الاخرى، ولم تكن سياراتهم تفتش في نقاط السيطرة الحكومية، وكانوا يودعون بالتحية والاحترام، وكما يقول المثل كان اليوم يومهم، وكانت الجهة الاخرى من البارتي في الجبال، ما كانوا يمتلكون الجراءة والاقدام ان يعودوا إلى المدن، لان الحكومة كانت تضربهم وهي في حرب ضدهم، واذا ما عرفت الحكومة في أي موقع ومكان هم، كانت تهجم عليهم وتضربهم بقوة، ولم تمض أكثر من سنة ونصف على مثل تلك الاحداث والوقائع، ففي كل يوم كان الشباب والابطال والناس الشرفاء والابناء المدللون عند امهاتهم وآبائهم يتساقطون صرعى برصاص احدم للآخر شهداء. والناس في حالة من التذمر والاستياء والارتباك، وبعد مرور سنة ونصف لم يمض طويل وقت حدث انقلاب في بغداد، فأسقطوا حكومة عبدالرحمن عارف، حيث كان آنذاك رئيسا للجمهورية، وهو قد ورث هذا المنصب من أخيه حين اشتعلت النيران في طائرته في الجو وسقطت واحترق هو.

ولو ان عبدالرحمن عكس اخيه كان رجلا بسيطا ومسالما لكن غلب عليه الذين كانوا حوله، وكانوا يلجؤونه إلى القيام بالاعمال التي تحظى برغبتهم.

ان جهة جناح المكتب السياسي، التي كانت في وفاق مع حكومة عبدالرحمن ارتبكوا وتوجسوا الخوف في الوقت الذي سمعوا اخبار الانقلاب، لقد اختفى معظم القادة المعروفين وتواروا عن الانظار، وقد جزعوا واحتاروا، وبدؤوا بتفتيش البيت واحراق الاوراق، خاصة الذين كانت بيوتهم في بغداد.

ولكن لم يمض طويلا حين اكتشفت هوية قادة الانقلاب، وسرعان ما ظهر لهم صديق مسؤول حيث كان في حينه له منصب رفيع في الجيش العراقي، تبين انه

من اكبر قادة هذا الانقلاب، وكان رفيقا حميما ومن معارفه القدامى، لذلك اسرع اليهم وقد تحدث لهم عن رفاقه وقال لهم:

– طيب فانتم الآن توليتم زمام الحكم وكيف يكون مستقبلنا نحن الكورد وماذا يصير؟!

اجابه الرجل المسؤول عن الانقلاب بفرح وقال:

– ذلك لا يحتاج إلى كلام، فانتم تبقون كما كنتم وقل لرفاقك نكون معهم احسن من السابقين خاصة ان رئيسنا يعرف رئيسكم، وكانت لهم دائما وفي كثير من الاوقات والظروف السابقة علاقات متبادلة.

عاد الرجل الصديق بسرعة إلى الجماعة واخبرهم بأقوال المسؤول الحكومي.

وكان الذين اختفوا ظهروا وخرجوا إلى العلن، وبدأوا بارسال البرقية وتقديم التهنئة.

ظلت الاحوال والاوضاع كما هي، بل اصبحت احسن، إلى ان وصلت إلى اقامة الولائم وتبادل الزيارات دائما دون تحديد المواعيد.

وكان بعض قادتهم يتلقون التلفونات في منتصف الليل ويتشاورون بانه يريد من ومن ان يعينوا وزراء، او يقدم لهم اسماء شخصيات كوردية كي يعينوا مدراء عامين، لقد ظل الوضع هكذا حوالي سنتين، لقد كانوا في وفاق مع هذه الحكومة ايضا وكانوا على قدر ما احسنوا للكورد ما كانت تصدق ان هذه الحكومة وحكام اول حكومة عربية ذات سلطة ونفوذ، يجازفون ان يتبادلوا حقوق الكورد والحكم الذاتي ويذكروا اسم كوردستان حيث ان الزعيم عبدالكريم قاسم، اشعل هذه الثورة الكبرى في حينها واعتبر ارقى قائد متقدم، ومع كل هذا الدعم والمساندة والفضل من قبل الكورد، بينما رضي بشق النفس ان يصبح اسم البارتي(الحزب الديمقراطي الكوردستاني) ولحد الآن لم يدع ان يذكر اسم كوردستان.

رغم ذلك لم يلق موقف عبدالكريم قاسم قبولا عند الدول العربية العنصرية ولدى جميع العرب الآخرين، فاطلقوا عليه (قاسم العراق) لانه منح ذلك الحق الضئيل للكورد، بان يكون حزبهم علنيا وتكون لهم صحيفة، فكيف يا ترى ان يطالبوا بالحكم الذاتي وحقوق الكورد؟

كـان هـؤلاء العـرب الشـوفينيون العنصـريون يتصـورون ان مـيراث آبـائهم المقبورين يتوزع حقيقة على الكورد، حيث كانوا يضطربون ويرتبكون على قدر كبير مجرد ان يذكر اسم كوردستان، ولم يكن من الممكن اقناعهم ان الكورد يطالب بحقه المسلوب، وليس هم يتصدقون عليه، وعند أحسن مسؤول حينما كانت تذكر عنده حقوق الكورد، كان يقول:

– (يا الله يا كاكه ماكو فرق، كلنا اخوة.

يبـدو ان كلامهـم هـذا لم يكـن صـادقا، فكـان اضـطرارا وكمـا يقـول المثـل الفارسي كان (رووبايستي) – حياء وخجلا.

***

بعد سنتين حيث كان الوضع جيدا حد ان القسم البارتي من جناح المكتب السياسي قادة واعضاء مؤيدين والتابعين لهم، والذين كانوا من حولهم، في فرح والتمتع بالحياة، مع عوائلهم ومسؤول هذا الجناح.

وذات صباح جاءت صبرية إلى بيت والدها بعجلة حيث لم يرفع بعد اكل الفطور والسماور، وكان والدها حاجي مجيد واخوها حسين خارجين من البيت توا نحو اعمالهما.

دخلت صبرية البيت ممتقعة الوجه قلقة، خفق قلب حەپسەخان حين رأت مشهد صبرية وهي آتية في هذا الصباح الباكر، فانتفضت وقالت:

– حبيبتي صبرية ما هذا، خيرا جئت في هذا الصباح الباكر، لماذا انت ملولة محزونة، احدث شيء لا سمح الله، فأين ابنك؟ نزعت صبرية عباءتها، فالقت نفسها على المندر وقالت بملالة.

– ليس ابي وحسين هنا؟ لقد ذهبا في وقت مبكر.، ارتبكت حەپسەخان وعجزت وقالت:

– خاطر الله حبيبتي صبرية ماذا حدث، ولماذا انت متضايقة هكذا؟

التفت صبرية إلى نەسرين وقالت بابتسامة باهتة:

– والله ليس شيئا ما يقال، ولا تخافن، ولكن يقولون ان الحكومة والجناح الآخر من الپارتى قد بدؤوا بالمفاوضات.

تحسرت حەپسەخان، وعادت إلى صوابها قليلا، وقالت بسرعة:

– وي ياربي توبة، شدما خفت، قولي هكذا يا بنتي، ثم ما علاقتنا، فليتفاوضوا، ان اشاء الله يتعانقون.

قالت صبرية بقلق:

– اواه كيف ما علاقتنا؟ ان الشرط الاول لهم مع الحكومة هو انه يجب تجريد جميع الپێشمەرگه التابعين لجناحنا من السلاح ولا يجوز ان تبقى مقراتنا في أي مكان، قالت نەسرين بقلب خافق:

– ماذا قالت الحكومة، هل رضيت بشرطهم.

قالت صبرية بملالة:

– وكيف لم يرضوا.

قال شيروان:

– قال لهم رفاقنا في بغداد، كيف نلقي السلاح، وانتم تعرفون ان بين كلا الطرفين العداء والشقاق، فكيف يكون ذلك؟.

وكان رد الحكومة...

– والله ان ذلك ليس مشكلتنا، فحلوها وعالجوها انتم فيما بينكم.

وضعت حەپسەخان يدها على خدها وقالت بقوة:

– ليسوّد وجه حكومة من على هذه الشاكلة، فاللعنة على قبر والد أحسنهم.

قالت صبرية بمهارة:

– كانت الحكومة معنا إلى الآن، كان لسانها يلهج بالمدح والثناء علينا، كان ذلك لمصلحتها ومنفعتها، ولم يكن لسواد عيوننا، او لم يكن عندما اتفقوا مع الجهة الاخرى ماذا فعلوا لهم، حين بدات حرب اقتتال الاخوة، امدوهم باللوريات العسكرية لكي يشنوا الهجوم علينا في ماوەت إلى ان القوا بنا في جهة ايران، بينما حين اتفقوا فيما بعد معنا، بأي ضجة واحتفال جاءوا لاستقبالنا إلى ان تسلمونا ثانية على الحدود، وتذكرون جيدا ذلك العدد الهائل من سيارات المارسيدس لنا وللعوائل الاخرى، بحيث ان كل شخصين ركبا سيارة واحدة، وعادت نصف تلك السيارات فارغة، اضافة إلى كل هؤلاء العساكر والحماية الذين كانوا من ورائنا، بينما حين اتفقوا معهم الآن تخلوا عنا.

قامت صبرية ولمست عباءتها لكي تعود إلى بيتها وقالت:

– ان الشقاق وحرب الاخوة الاعداء يجعل من الناس ان يصبح كل قسم منهم كالكرة في يد هذه الحكومة وتلك الحكومة والناس الغرباء.

تنهدت صبرية وقالت:

– الذنب ليس ذنب احد، غير ذنبنا، لو كنا نحن كتلة واحدة، وقوة واحدة ويدا واحدة وقلبا واحدا، لما كان احد قادرا ان يفعل بنا هكذا ويلقي بنا فيما نحن فيه الآن. وقد كانوا يحسبون لنا حسابا، فها نحن الان نتقاتل، ومنهمكون دائما على ان نكون اشد تخالفا وتخاصما فيما بيننا، ونقع تحت طائلة سيطرتهم مشتتين متفرقين ضعفاء لاحول لنا ولا قوة.

قالت حەپسەخان ببلعوم بكائي طافح بالنفور والضغينة.

– والله يا بنتي تصدقين، فالذنب ذنب الكورد نفسه، ولكن فليخرب الله بيت الحيال والمخادع والعميل، وليكن مآلهم الفناء والهلاك، والا من يرغب في هذا الشقاق واقتتال الاخوة. واصلت حەپسەخان كلامها والتفتت إلى صبرية وقالت:

– لا تذهبي، لعل احدا يظهر، ثم قالت مع نفسها:

– بالله مرة اخرى انهارت قواي، يا ويلتي يا...اشفقت صبرية على والدتها، وارادت ان تتكلم، وتلطف الجو، وتعيد لها الحيوية، لذلك قالت:

– لا تقلقوا الان على هذا القدر، ان شاء الله تكون النهاية خيرا. ان رفاقنا ليسوا غير مقتدرين وبلا تدبير، انهم الآن حتما يفعلون شيئا.

قالت نەسرين بصوت واهن:

– بالله عليكن اذا ما عرفتن شيئا ما، اعلامنا بسرعة يكاد قلبي ينخلع ثانية!

***

عند المساء عاد حاجي مجيد إلى البيت قبل حلول موعده، استقبله ابنه علي وصهره بيستون و حەپسەخان وابنته ورونـاك التي كانت آتية ذلك المساء بلهفة. كانت حەپسەخان اشبه بالمريضة، امتقع لونها يؤلمها رأسها، كانت مرتبكة وملولة، وقد شدت رأسها بقوة بربطة حريرية، وكانت رونـاك ايضا متشوشة حزينة ملولة، بدأت كلتاهما بالتهافت والتسرع للترحيب بحاجي وابنائه.

تقدم علي من امه واضعا احدى يديه على كتفها وقال برغبة وبحب:

– مابك حبيبتي حەپسەخان، او انت مريضة، اغرورق بلعوم امه حالا بالبكاء، وقد انحبست الدموع في عينيها، وقالت:

– أي والله انا مريضة، بعد الشر عنكم، لقد ارتبكت ثانية، وانقطع نفسي، كانت يد علي لاتزال على كتفها، قال لها بلهفة:

– لماذا لا سمح الله ماذا حدث، ارتجفت شفتا امه من تأثير البكاء وقالت:

– ما ادراني بسبب ذلك ا لوضع والبلاء الذي ابتلينا به، مضت كل يوم ضجة ومشكلة متعلقة بهذه الاتفاقية والمفاوضات، بين القسم الاخر من الپارتى والحكومة، الله اعلم ماذا يفعلون بكم، التفت اليها علي باخلاص وحنان وقال:

– لا يحدث لنا شيء، ونحن ايضا منذ مدة في تفاوض مع هؤلاء الاصدقاء، أو لم تكوني على اطلاع في هذا الشتاء حيث ذهبت مرة واحدة إلى گەلاله وتلك المنطقة إلى عندهم، وقالت حەپسەخان، متنهدة.

– اين، لم تفعلوا شيئا ولم تحققوا شيئا، لقد كان مجرد كلام، علق بيستون قائلا:

– حماتي العزيزة لا تزعجي نفسك هكذا، ليس الوضع كما تتصورين ونحن أيضا منهمكون في الخفاء بالحوار مع اصدقاء ذلك الطرف، ان يشاء الله هم ايضا كانوا يتفقون مع الحكومة، وكانت الحكومة تعطي الحق الكامل للكودر وتزال من الوجود هذه الحرب والخصام.

قال بيستون مبتسما كانه اراد ان يشارك عاطفة حماته:

– اولا تحبين ان يتحسن حال الكورد، ولا تبقى الحرب والفوضى؟! مسحت حەپسەخان عينيها من الدموع وقالت:

– اواه كيف لا أحب، والله احب ان يمطر خير وسعادة الدنيا على جميع الناس، ونتخلص من هذا الويل والثبور، ولكن يقولون ان الطرف الآخر قالوا بأن يجرد طرفكم من السلاح، ولا يبقى لكم الحزب والتنظيم، كما انهم ليسوا مثلكم لهم نيات صافية، فقلوبهم توغر بالحقد والضغينة.

التفت حاجي مجيد إلى زوجته متذمرا وقال:

– اهتجم بيتك، انتظري الآن، لم يحدث أي شيء بعد، فلماذا منذ الآن جعلت نفسك في حالة يرثى لها، وتهلكين نفسك.

اخذ علي يتكلم ملتفتا إلى امه وبرغبة قال:

– عزيزتي حەپسەخان لم نقل هكذا، فانت مسلمة وتؤمنين لا يحدث شيء الا اذا اراده الله، ان شاء يحسم كل شيء بشكل جيد وينتهي بانتصار الكورد وبانتظام ووفاق ومن هناك اخذ بيستون يروي اقوالا هزلية، فحكى بضعة ورطات وحادثات فيما فعله توّفه اليوم في بيتهم، حيث انه ذهب ليشتري لهم حمولات حطب، والى أن أدخل اصحاب الحمير الحطب في البيت، وكان توّفه مكلفا على ما يظن ان يكون منتبها حيث كان جالسا لمراقبة الحمير، الا انه غفل عنها وتاركا الحمير امام الباب، فاذا بالاطفال الصغار قد تحينوا تلك الفرصة، فركب كل واحد منهم حمارا وأخذوها الى حيث ما يريدون، وكاد ان يتشاجر توّفه والقرويون، وقد كان توّفه غاضبا منهم وقائلا لهم:

– يا ترى ماذا كنت فاعلا: هل اغوط على نفسي، وما ادراني بلمحة البصر تلك ذهبت لقضاء الحاجة، فيفعل هؤلاء الاولاد الحرام هكذا.

عادت حەپسەخان إلى شيء من صوابها وقالت في نفسها:

– لا والله، فكما يبدو ليست الاوضاع هكذا، كما ذكرت صبرية، او ليس واضحا بأن لا شيء يبدو على وجوه الاولاد، مال علي رقبته نحو طرف باب الغرفة، وقد نادى اخته ورويناك ونەسرين وقال:

– الا يا جماعة هل ثمة شيء خفيف ناكله، والله انا جائع...انتفضت والدته وقالت:

– وي فداك روحي، وكيف لا يوجد، وضع علي يده على كتفها وقال:

– والله لا تقومين، أنا اقصد البنات، فهن الآن يقدمن شيئا لنا، جلست حەپسەخان ثانية نزولا عن رغبة ابنها، ولكن من هناك نادت مرات مرات نەسرين وروناك أي شيء في أي مكان، واي اكل في القدر المتوسط وزلابية في الطشت الصغير. ثم لمست راسها، ومسحت عينيها وفمها وقالت:

– لم اكن اليوم على مايرام لأطبخ أي شيء، وان نەسرين المسكينة اضحت اتعس مني، ولو انها قالت مرارا لاطبخ شيئا، فالآن يعود عمي والاولاد، فبيت صاحب عائلة لا يتحمل دون طعم، ومهما اكلوا الاشياء الصغيرة لا يعرفون بها، ولكني لم ادعها وقلت:

– انت غير قادرة وابنتك مريضة، قال علي:

– احسنت، لتكن يوما ما فترة استراحتكم، فلا تهتمي ستحصل البنات الان لنا الاشياء لأكلها.

سمع صوت الباب، دخل حسين ونەوروّز البيت، ولم يصلا بعد إلى الغرفة جاءت صبرية وشيروان، جاء الجميع نحو الغرفة، بعد السلام والسؤال عن الحال والاحوال، انتفض حسين قبل ان يجلس، وقد دس كلتا يديه في حزامة وهو واقف، والتفتت إلى الجالسين قائلا:

– عاد الوفد إلى گلاله، فذهب المسؤولون الحكوميون معهم وقد خابرنا رفاقنا من بغداد، على ما يظن سيصدر بعد يوم غد البيان وقد حسم كل شيء.

نظر علي إلى اخيه حسين نظرة فيها معنى الا يتكلم باستفاضة لان امه خائفة وقلقة. لكن حسين لم يفهم مغزى نظر اخيه الكبير، فبدأ بسرد ما رتب في بغداد لذلك الوفد، وكيف رافقتهم قافلة السيارات (المسلحة) والمسلحون الحكوميون، وكيف ان الحكومة في كركوك جردوا رفاقنا من السلاح، وقد هجموا على مقر كركوك وقالوا لابد من اغلاقه وتخلية الدار، وماذا حدث في مكان آخر وماذا فعلوا، هكذا شرع حسين باحصاء المصائب، وكان هو يرفع وشيروان يكبس كما يقول المثل، ويضيف عليها ضعفين، ولم يبق امام علي وبيستون مجال. لترقيع وترميم شيء من الاوضاع مرضاة لقلب حەپسەخان، شرع حاجي مجيد يتكلم وقاطعهم وقال:

– هو هكذا، يبدو ان الامور تتوالى بالتناوب، لانه لم يفعلوا لكم ايضا القليل.

قال شيروان بحرارة:

– اشهد بالله فعلوا لنا كثيرا،والله لا يزال ان قسما كبيرا منهم يتعاطفون معنا، ويحبوننا، ولكن يقولون لامناص لنا، نحتاج إلى السلام، عسى ان يزول هذا النزاع.

علق حاجي قائلا:

– ثم ماذا اثمة ابن كلب ان يحب الحرب والفوضى والقتل والابادة، باستثناء العملاء والخونة، ليكن هكذا يا ربي، ليكونوا هذه المرة جديين.

اجاب علي والده قائلا:

– والله ان يشـاء الله ان يكـون كـل طـرف جـديا، والا يكـون كـل شـخص لمصلحته ومكسبه الخاص، فان هذا الكورد المعدم يستقر ويعيش في امان، ويحصل على حقه، والله فانا اكون اول شخص اذهب إلى الطرف الآخر في گلاله وأقول اسلم نفسي اصفحوا عنا، لقد تخليت عن كل شيء، فها جئت كفرد صغير، ولكن لا تعاملونا كالسابق، لا تنهمكوا بالتآمر والتذبذب للقضاء علينا واتركوا الحقد والكراهية والقتل والخصام جانبا .

قال اخوه حسين بابتسامة ساخرة:

– الله حق، ولا يقبل الله،والله قلت القليل.

قام علي ليذهب إلى عند البنات ليسرع فيهن لأكل الطعام، واثناء ما كان يقوم التفت إلى حسين قائلا:

– سواء قلت الكثير ام القليل، يجب الا يبقى هذا الوضع بذلك الشكل، لا يمر يوم الا يقتل الناس بين طرفين، كان بيستون اثناء ما كان يدور الكلام بينهما قد ذهب مرتين ثلاث إلى المطبخ، بحجة الجوع، لكي يتكلم في مكان منزو مع زوجته روناك بعض الاقوال الحلوة. ويقبلها قبلة وقبلتين بتلك الحجة، عاد بيستون إلى عند الجماعة حين كان علي يقول تلك الاقوال، لذلك اجاب علي دون توقف قائلا: والله كلامك صحيح، وعليه ولكن لعنة الله على هؤلاء ويسوّد وجوههم في الدنيا والآخرة حيث يلعبون على الف حبل ويثيرون الفتنة ويشاغبون وينقلون الكلام بين ا لطرفين، يؤلبون على التقاتل، لكي ينتفعوا، لقد تجسد في هؤلاء الغش والخداع والاحتيال، كأنهم تلقوا النصائع والارشادات من ا لشيطان، انهم يبعيون الكورد كلهم ويبادلونهم لمصلحتهم ومكاسبهم الخاصة، اجل قل يلعن الله ويدمر بيوتهم حيث اصبحوا جراثيم دخلوا دماء واجسام الكوردي الفقير، قال حاجي اثناء ما كان يتسبح بابتسامة ساخرة:

– جاء في اليوم جاري محمود بك في القيصرية عند دكاني، كان ميرزا عبدالله ايضا هناك، كان هو ايضا جاءني لزيارتي، واخيرا دار الحديث حول هذا الوضع وذهاب الوفد إلى بغداد، بينما كان محمود بك يقول:

– والله يقولون قامت القيامة في بغداد، حيث ان هذين الوفدين كان معهم قدرا من العسكر والحماية الحكومية لاعد لهم ولا حصر، اخذ يمدح ويطري ما فعلت الحكومة لهم، الله لا يقبل انتفض ميرزا عبدالله بوجهه قائلا:

– اذن يا محمود بك (فالمسألة صيف وشتاء على سطح واحد) هو قال حائرا:

ماذا يعني، ماذا تتفضلون؟ قال ميرزا عبدالله ضاحكا:

– والله اتفضل كان وفد هؤلاء يذهبون ويأتون هكذا، وكانت الحكومة تفعل لهم كما كنت تتحدث، كأنهم ارتكبوا ذنبا كبيرا أو كانوا بائعين الكورد، في حين تذكر لهؤلاء كانتصار تنثر فوقه التوابل لتعطيه نكهة، علقت صبرية قائلة:

– واحسرتي من هؤلاء امثال محمود بك وابنه السافل، لا تذكره مطلقا، ان هؤلاء انانيون دائما وازدواجيون لا يؤتمنون ولايحافظون على العهد للأخير، الا العمل لمصالحهم، أو ليس ابنه كذلك؟! فيحنما كان بارتيا يسبب الطرف الآخر ليل نهار، وينعتهم بالتخلف والعشائرية.

اكمل شيروان كلام صبرية وقال:

– ان ذلك السافل المنحط، فأنا اعرف ما كان يفعل، وكم مرة مسكت ياقة ملابسه على اقواله تلك، وفي احدى المرات وعند دعوة بيت كاك عثمان ضربته وقلت له:

– لماذا تتكلم انت تلك الاقوال عندنا، فانت لك غرض خاص، لا ادري ماذا فعلوا بقريب منك، لا تحك تلك الاقوال عندنا، نحن لا نقبل منك، بينما حين بدأ الشقاق وشرع بتوزيع النقود ذهب اليهم قبل كل شخص وملأ جيوبه بالدنانير، كأن شيئا لم يكن.

فرشت نەسرين وروناك وصبرية المائدة وضعن عليها الطعام، وحضروا السماور واخذ يئز ازيزا. وجلس الجماعة لتناول الأكل.

اعتادت حەپسەخان بعض التعود بذلك الوضع والاقوال وهي اخذت ايضا تأكل بعد الحاح الجماعة عليها.

لم ترفع المائدة بعد حين جاء كاكه حاجي وآمه خان بعجلة.

كانت آمه خان اسوا من اختها حەپسەخان، امتقع لونها، فسحت اختها حەپسەخان المكان عندها وقالت:

– مرحبكم الله بالخير، لماذا لم يأتوا في وقت ابكر؟!

نظرت آمه خان إلى اختها بلهفة وقالت بلسان متلجلج:

– مابك هل انت مريضة؟!

لكي تظهر حەپسەخان، نفسها قوية الارادة، لان اختها كانت خوافة وساذجة لذلك قالت ضاحكة:

– كنت في بداية الصباح متوعكة، اتصور لقد بردت، ولكن الآن الشكر لله في صحة جيدة قربت آمه خان من اختها وقالت بهمسة:

– ما ذلك، يقولون تردى الوضع ثانية، على ما آظن يغلقون مقرات الحزب، وذهب القسم الآخر إلى بغداد.

احتضنت آمه خان كلتا ركبتيها وقالت بصوت واهن:

– اكاد منذ الظهر ان افزع، وقد انتابني تسول البطن حالا، ومن حسن الحظ ان جاءتني رعناخان الله يجازيها خيرا، فعالجتني.

ارادت حەپسەخان، حبا لها ان تهدئ اختها فقالت بابتسامة مصطنعة:

– لا تهتمي، ان شاء الله يكون آخرها خيرا، فيتصالح كل طرف ويصبحون في فرح، عسى ولعل ان تكون نهاية مطاف اضطراب وتشوش الناس، وكل ما علينا ان ندعو الله خيرا لكل الاطراف، ونقول توكلنا عليك يا ربي.

التفت علي إلى خالته آمه خان قائلا:

– مابك خالتي العزيزة؟ وانت أيضا تمرضت كوالدتي لا سمح الله؟ ثم نظر إلى الجالسين وقال:

– عمر بيتكم ياربي، حين يحدث حادث وتقع واقعة، تتضايق الدنيا عليكم حالا (كان يقصد امه وخالته) التفت علي إلى امه وخالته قائلا: ما ان تسمعا أي شئ تتضايق حالا الدنيا عليكما عمر بيتكما يا ربي، كيف يمكن ذلك، يفترض منكما ان تشاركا هموم هذه البنات الشابات، وتلوذا بالصبر الجميل، وتعرفا ماذا تكون النتيجة، عليكما ان ترفعا من همة وارادة البنات، وتشجيعهن وشد عزائمهن، المعروف عنكما ان سلختما الحياة بهذه الحالة وتربيتما ومنذ زمن

خلا ما رستم الكوردايتي دائما، بالله عليكما أليس محل اسف وحسرة، حين يحدث الان شيء، فانتما تخافان إلى ذلك الحد وتقلقان؟ كوّرت آمه خان نفسها، كأن بطنها قد سولت وقالت ملولة:

– اننا نخاف لاجلكم، ليس لاجلنا، قال كاكه حاجي بشدة:

– يا ليت كنتم قد رأيتم حين جاءت رعنا خان وذكرت لها موضوع ذهاب الوفد إلى بغداد، ماذا فعلت، لقد خجلت المرأة تماما وقالت الف مرة ان تكسر رقبتي على ان اكون قائلة هذا الكلام عندك، اواه اصبحت انت نصف روح!!

رفع حاجي يده واكمل كلامه بحرارة وقال:

– ثم سرعان ما انتابتها حالة: سول البطن، والى ان عولجت فحدثت ضجة لاحد لها.

واصل حاجي كلامه متذمرا وقال:

– اخيرا لم تتخل عني إلى ان تقدمتها وقلت قومي قومي لنذهب إلى هناك، ربما جميع الاولاد هناك الآن.

علق ابنه نەورۆز قائلا:

– على هذا انا وبەختيار لا نتجاسر ابدا ان نذكر عندها شيئا، لانها تثير مثل هذه الضجة!!

وضعت حەپسەخان يدها على ناصية جبينها، وركزت يدها هنيهة، كأن رأسها سرعان ما يوجع، وقالت:

– ماذا نقول، هو حظنا، لا يجوز ان نقول يوما وافرحتاه، فمنذ ان وجدنا نكابد خفقان واضطراب القلب، بُعد الشر عنكم.

***

كانت حەپسەخان جالسة امام خزانة ملابسها، وكانت اثناء ارتدائها الملابس تدمدم وتهمهم، لتذهب منذ صباح ذلك اليوم إلى بيت ابنها علي مع كنتها نسرين، بوجود عدد كبير من الضيوف الذين جاؤوا من بغداد، كانت لابد ان تذهب للاشراف على طعام الضيوف.

وصلت نەسرين إلى غرفة خالتها واطلت رأسها وقالت:

– هل انت مستعدة خالتي العزيزة، ان حسين واقف ويقول اسرعوا، شدت حەپسەخان بسرعة عصابة رأسها ودمدمت ثابتة قائلة:

– طيب بني طيب، أجل فها جئت، هيأت نفسها وقامت ولمست عباءتها وقالت:

– مضت اليوم خمسة أيام على استحمامي، فمنذ يوم أول امس اقول الآن استحم، بينما اهم ذلك، الله لايقطعه ارى سلام عليكم جاء الضيوف، إلى ان اودعهم ياتي آخرون، قالت حەپسەخان بعصبية:

– قلت مساء امس، الان جرى تناول العشاء وذهب الضيوف، فالوقت مبكر لاذهب واستحم، والى ان ذهبت وجلبت ملابسي، وكانت مازالت في يدي، دخلت عائلة خورشيد خان وعائلة الشخص العربي البيت، قالت نەسرين باخلاص:

– والله تصدقيني، وحين ذهبوا في تلك الليلة، والناس في تعب وأعياء، فأين لهم القدرة والرغبة للذهاب إلى الحمام.

اغلقت حەپسەخان الغرفة، فذهبت مع نەسرين نحو باب الحوش، ركبتا مع حسين للذهاب إلى بيت ابنها علي، واثناء السير التفتت إلى نەسرين وقالت:

– انك تعرفين حين يفوت علي موعد الحمام، استشيط غضبا، ان النظافة تهدئ الناس كثيرا، احب ان يمنعوا عني الخبز والماء ولا يقطعوا عني الذهاب إلى الحمام.

قالت نەسرين مبتسمة:

– أي والله ليس احلى من النظافة في الدنيا، كثيرا ماترين مثلا هانما ما يصبح لمعان ملابسها وحليها غشاوة على العين، كما ان كحل عينيها ومكياجها يعوجان اعناق الناس، بينما لا تفكر بأن تغسل فمها واسنانها قليلا، ثم رائحة دهونة فمها واسنانها ورائحة عرق جسمها، ورائحة العطور التي ترشها على نفسها كلها تختلط اختلاطا غريبا. وأخيرا تعالي فانظري. إن حەپسەخان اثناء ركوبها سيارة ابنها اجابت نەسرين قائلة:

– ان النساء اللاتي انت تتحدثين عنهن مثلهن كمثل المسألة التي تقال: (من الاعلى وسامة من السفلى دمامة)، أو بعبارة اخرى (من الاعلى هلا هلا من

الاسفل اعوذ بالله). شرع حسين يتكلم بوجه صبرية ملتفتا إلى امه ونەسرين قائلا :

– يا الله خيرا، او تحكيا على اية بائسة في هذا الصباح الباكر؟ يا ربي لا تكن رجل اية واحدة معوجة عندكما !!

ضحكت نەسرين وقالت:

– لا نتحدث عن أية واحدة، ولا نقول لك ماذا كنا نتناول، لماذا يجب ان تعرف انت كل شيء؟ قال حسين بمرح:

– طيب لا تقولي لي، إذن انا عندي اقوال مفرحة على قدرما، فلا أقول لكما أنا أيضا.

علقت آمه خان وقالت بحرارة:

– اواه فداك روحي، بالله ما اقوالك المفرحة، قلها لنا، عسى ان تنشرح ان شاء الله قلوبنا. والله اصبحت منذ الصباح لعبة نارية، تحت طائلة الاعمال والتعب والاعباء.

هز حسين رأسه قائلا:

– لنصل ال بيت أخي كاكه علي، فهناك اقول لك، ولكن لا اقول لنەسرين لانها لا تقول لي الكلام وأنا احطم قلبها ولا اقول لها، انفجرت امه حەپسەخان ضحكا وقالت:

– لماذا تقول هكذا بـ نەسرين، والله لم يكن كلامنا شيئا ما، كان موضوع الحمام حيث لم يتهيأ لي منذ أيام ذلك وانت تعرفني (العمة بسم الله) لا تذهب للحمام، تصبح مثل نصف مجنونة.

قال حسين بمزاح وفرح:

– لا، لالا، كنتما تتحدثان عن الجلبة والضجة وأمثالهما، نەسرين والتي كانت راكبة المقعد الخلفي من السيارة، مدت يدها إلى كتف حسين وارادت ان تقرصه وقالت:

– يا هذا أي جلبة وضجة، بالله ما كان كلامنا شيئا ما، كان الحديث يدور عن النساء والذهاب إلى الحمام والنظافة. اذن قل لنا الكلام المفرح، و

حەپسەخان التي كانت راكبة في المقعد الأمامي من السيارة شرعت تتكلم كتوسل ما هو الكلام المفرح، بالله عليك قل لنا بسرعة؟

التفت حسين وهو يسوق السيارة إلى امه بشوق وقال:

– والله لولا خاطرك لما قلت الكلام كي لا تسمعه نەسرين ولكن ... لك اقول لأشرح قلبك قليلا. قال حسين بشفقة.

– الا تعرفان لماذا جاء هؤلاء الرفاق من بغداد؟ لقد جاؤوا ليأخذوا كاكه علي والآخرين معهم ويذهبوا إلى گلاله، لقد ارسل رئيس تلك الجهة في طلبهم بأن يذهبوا ليناقشوا شروط ومقدمات الاتفاق الداخلي.

قالت حەپسەخان بملالة:

أي شروط ومقومات يا ترى، لا أقول لا شكر، اليست تنازلكم عن كل شيء، لقد تغير اسم حزبكم وتشتت وها أن قادتكم يذهبون إلى گەلاّله ليجلسوا راكعين، لكي يرضى هم خيرا فيه، حين وصل حسين إلى مقربة من بيت أخيه، انعطفت سيارته بهدوء نحو زقاقهم، أجابت امه قائلة:

– امي العزيزة ايا كان، اذا جلسوا راكعين عشرة اضعاف اخرى، انه احسن من حرب الاخوة الاعداء، ومن ذلك الشقاق والتقاتل كل يوم، حيث يتعرض الكورد تماما إلى الفاجعة والمصيبة ويفنى، يجب علينا اذا كنا صادقين ومخلصين للكورد ونحب شعبنا ونريد ان نحمي وطننا، يجب ان ندوس على جميع مصالحنا ومنافعنا الذاتية، والذي نفعله لا يذهب سدى، ويأخذه الشعب بنظر الاعتبار، وتكتب لنا هذه التضحية والفداء.

تنهدت حەپسەخان وقالت:

– فليكن يا ربي هكذا، اوقف حسين سيارته، واثناء سد النافذة مجددا قال:

– انهم الآن مشغولون لاعداد المكان لنا، قالوا تعالوا اختارو المكان المناسب حسب رغباتكم لنبني لكم الدور ونرتب لكم السقائف.

انبعثت دمدمة عن نەسرين في الخفاء وقالت:

– لنعرف، ليكن كذلك يا ربي.

***

عند المساء كانت حەپسەخان عائدة إلى البيت، بعد أن اشرفت على جميع ضيوف ابنها علي، حيث وضعت امامهم طعاما شهيا لذيذا، وكان الضيوف قد تفرقوا من بعد الظهر وكان كل واحد متجها إلى جهة ما، ما عدا علي ورفاقه حيث كانوا يواصلون اجتماعاتهم وتدابيرهم، خاصة حين كانوا ينوون التوجه إلى گەلاّله في اليوم الثاني.

حين عادت حەپسەخان إلى البيت، ذهبت حالا إلى الحمام، خاصة اصبحت على قدر آخر من الدخناء والدهونة، في حضور تهيئة الأكل وطبخ الطعام.

بعد مدة خرجت من الحمام نظيفة جميلة، فكانت خداها تلمعان وتبرقان، لقد اختلطت رائحة صابون الرقي الفاخر مع رائحة السنبلة والقرنفل التي كانت دائما في عبها وبعض العطور الاخرى التي هي ترغب فيها، وكانت رائحة صدرها وتلابيبها تبعث النشوة في النفوس، لقد لفت رأسها وجيدها بوشاح الجورجيت الابيض النظيف، وقد جلست في حضور كنتها نەسرين التي كانت تصب لها الشاي واحدا تلو الآخر، الشاي الطازج الخدران ذا النكهة الطيبة، بعكس توّفه الذي كان جالسا في انتظار ان يمر على الشاي وقت يغلي ليكون غليظا كالحبر، ثم يرتشفه ويلتذبه ويكون مستساغا ومقبولا لديه، قدر الله لتوّفه ان يشغل لسانه الثرثار ويصب العلم والمعرفة ويرصف نصائحه وارشاداته، بمناسبة هذه المصالحة والتوجه إلى گەلاّله، ولو ان توّفه، بالاضافة إلى ذلك ما كان يتعطل من مواصلة الكلام والتبجح والنفخ والتباهي، خاصة تشرده في ايران وطهران، حيث لم يعتق ويتقادم عنده، وكان يتحدث عنه عامة، حتى ولو سجنوه في غرفة انفرادية.

لم يكن يكف عن اختلاق الحكايات والاحداث، علاوة على ما اضفى عليه الله هذا الموضوع الدسم والسمين والمثير للضجة. التفت توّفه إلى نەسرين قائلا:

– اسرعي صبي لي شاياً، أنا مستعجل لأذهب واعرف ماذا فعل علي والضيوف، وان سفرهم يكون يوم غد أو يصادف بعد غد؟ حتى أللم نفسي، اخفت نەسرين ضحكتها خوفا من توّفه وقالت:

– لماذا وانت أيضا تذهب معهم، سعل توّفه سعالا خفيفا وانتصب وقال:

– وكيف لا أذهب، أو ترين ان ارسل كالمرة السابقة علي وحده، والله ان لم اذهب معه لا ادعه ابدا ان يذهب، لا احد يعرف كيف حال الدنيا وماذا تحل بالظروف، إن الدنيا لها الف مصيبة وقدر، نجلس ثانية هنا ننتظره بشكل مستمر اكابد الحزن والهموم والآلام، والله لا اسيبه شبرا واحدا، يقولون على ما أظن يبنون لهم الدور، اذهب لاتحقق هل هذا صحيح، اذا كان ذلك هكذا لكي اختار منطقة ومكانا جيدا قريبا من الماء ومسيل الماء والينبوع.

قالت حەپسەخان في نفسها:

صدقة من عمل الله وامانا من لسان توّفه هذا، لا يعطل نفسه على أي شيء، فهو يتدخل بفضول في كل عمل، اعطت نەسرين الشاي إلى توّفه وقالت:

– والله احب ان تذهب معهم، لانهم يقولون توجد في كلالة اقمشة جميلة رخيصة جدا، عسى ان تجلب لكل واحدة منا ما تكفي لصاية واحدة، علق توّفه حالا وقال:

– لا افعل مثل هذا العمل قط، لأن اقمشة وامتعة گلاله كلها ايرانية ومهربة لا يسمحون لعبورها في مناطق التفتيش الحكومية وهي ممنوعة.

شرب توّفه جرعة اخرى من الشاي ونظر إلى نەسرين قائلا:

– يقولون ان امراة في هذه الايام كانت قد لفعت بطنها بقطع من الحواشي المنسوجة بخيوط فضية للعباءة، ثم انكشفت في نقطة التفتيش، انه عيب وعار ان يفضح الإنسان نفسه من اجل قطعة قماش.

نەسرين كمن ارادت ان تتحرش به قالت:

– لماذا ماذا حدث، وعلام الفضيحة؟ الله يخليك الا تتمكن ان تنقذ قطعتي قماش، اذهب وانظر إلى الفرش والسجادة وكارتونات البلاسكو والنايلون في صفائح دهن شاه بسند والاشياء الايرانية الاخرى التي وصلت شرارتها إلى بغداد وابعد، ثار توّفه دفعة واحدة، اخذ يتكلم وقال:

– ان معظم الذين يفعلون هكذا يحملون اوراق السماح فلا تفتش سياراتهم، وهم بتلك الحجة منهمكون بالتهريب والغش والخداع والاثراء، والتجارة بالكورايتي. ضرب توّفه يدا بيد وقال:

بسبب هذا الشقاق وحرب اقتتال الاخوة فسد الكثير من الناس فلا نفع فيهم ابدا:

والآ كان الناس في بداية الثورة فدائيين ومضحين ومخلصين وناكري الذات، وكان الفقراء والاغنياء يبذلون ارواحهم واموالهم في سبيل الكورد وكوردستان، وكانوا بالعيش الكفاف وببطون جائعة يقدمون على اعمال بطولية، فلو كانوا من شعب آخر لدخلوا الكتب والصحف، ولكن من يتحدث عن الكورد المعدم، كانت الثورة، ثورة حقيقية حين كان الپێشمەرگه وقادتهم يطبخون معا العدس في صفائح داخل مخابيء الكهوف، وكان ذلك اليوم يتحول إلى احتفال لو كانوا حاصلين على العدس، وكانوا جميعا يحضرون، الخنادق معا ويدخلونها، انه كانوا مسلحين بايمان وعقيدة والتضحية وبالنفس والنفيس حيث لم تكن أي قوة قادرة على الوقوف والصمود بوجههم، ولكن الآن وبعد الشقاق والنزاع. تعلم الناس على النفود، فتتقاطر عليهم النقود وتحفر الخنادق بالعمال، وكان قادتهم يزورون مراكزهم بسيارات المارسيدس، هكذا منذ ذلك الحين جعلوا الكورداية‌تی تجارة واللعب على الحبال، مع هذا وذلك، احمر وجه توّفه واقال:

ان هذا الشقاق قوض اساس الكورد، اندفع توّفه ونهض وفك جامانته وشدها مجددا بشكل جميل، ولمس جيبه لئلا يترك من ورائه شيئا، كانت السيجارة ماتزال في فمه حين ودعهن وقال:

– قبل السفر اعود وازوركن، واخيرا استودعكن الله. بعد ذهاب توّفه وضعت حه‌پسه‌خان يدها على رأسها ونظرت إلى نه‌سرين وقالت:

– اواه اصبت بالصداع، في سبيل الله لماذا هذا الإلحاح عليه إلى هذا الحد،وتواصلون الكلام معه، فانه دون تكلم معه كان فمه بحد ذاته ماكنة وراديو، بينما انتم تلحون عليه دائما، انفجرت نه‌سرين ضاحكة فالقت نفسها على ظهرها وقالت:

– خالتي العزيزة كيف يطاوعك قلبك، لماذا اثمة كلام احلى من كلام كاكه توّفه، والله ان لم يغضب مني في يوم ما، ولا ينفخ لي نفخات، ولايشتم شتائم، لا اتحمل ابدا، كممت حه‌پسه‌خان فمها وضحكت قائلة :

طيب حبيبي طيب، والله لا ينتزع منا هذا الفم ألادرد.

***

اغلقت صبرية حقيبة ملابسها، ووضعتها عند حقيبة الآخريين، والتي كانت موضوعة في مكان معزول في غرفة نومها، ضربت يدها في ظهرها بسآمة وتنهدت وقالت مع نفسها:

– وي ابتاه ما اوجع ظهري، طيب الشكر لله، طيب تخلصت، لقد لملمت ولفلفت حاجياتي كلها، ولكن بالله هذا لأي شيء وليست المرة الوحيدة حيث علمنا ولففنا بيتنا وحقائبنا، فانتم تصالحتم، فأذهبوا انتم واجلسوا هناك، والى اين تلفون وتلملمون هذا البيت والاطفال وتعيدونهم إلى حيث التراب والغبار والحشرات والذبان والنحل والزنابير وهذا الجو القائظ. ضربت صبرية يدا بيد مبتسمة، وقالت في خفاء:

– نحن نذهب بكامل افراد العائلة، انهم لا يثقون بهذه المصالحة، رضاؤنا برضاء الله، لنذهب ونقطع هذه الحجة، كانت صبرية تدمدم وتتكلم مع نفسها كأنها تتحدث مع شخص ما أو عند شخص ما، لان قلبها ودماغها قد تهيجا إلى حد كبير أثر هذا التغيير المتدرج والاحداث التي ترغمها، ان تمارس كل يوم باسلوب جديد ظروفا جديدة.

عاد مساء ذلك اليوم شيروان إلى البيت مع رفاقه، فأخذهم إلى غرفة الضيوف، وجاء هو إلى صبرية وامه والآخريات وبعد السلام والسؤال عن الحال والاحوال، التفت إلى امه وقال:

– امي الحبيبة، معي ضيوف، بالله منذ الصباح كنا مشغولين وعلى قدر من التعب والاعياء، لم يكن لنا المجال ان نأكل لقد خفض شيروان صوته قليلا وقال:

– اثمة شيء لنأكله، أو اخابر يجلبون لنا الكباب؟

انتفضت امه ونهضت قائلة:

– اواه أي كباب، فداك روحي، لقد طبخت اليوم قدرا كبيرا من (الكفتة) او لم اقل لك ليلا بأن والدك اصبح منذ ايام شرها، يطلب مني الكفتة! ضرب شيروان يدا بيد واطلق قهقة قائلا:

– تصدقين ولكن ورأسك، ورأس ابي، لقد نسيت بأنك تدبرت هذا التدبير ليلا، انظري إلى الصدفة، فالآن صدفة ومن تلقاء نفسي اخذت معي هؤلاء الرفاق نظر شيروان إلى صبرية وقال:

– وأنت كيف حالك، هل تحزمت كل الاشياء، اجابته صبرية قائلة:

– أي والله، لقد مت لشدة تعبي واعيائي، اقترب منها شيروان واضعا يده على كتفها وقال باسما:

– الله يعطيك الصحة والعافية والله كلنا متعبون منهوكو القوى ان شاء الله نذهب إلى تلك المصائف المريحة وهناك تركنون إلى الراحة والانسجام، والله رتبوا لنا سقائف وعرائش لهذا الصيف على قدر من ا لرحب والسعة لا تقدر، وللشتاء يبنون لنا دورا جيدة، وقد بدأو بها منذ الآن.

ضحكت صبرية وقالت:

– فنجرب ذلك، ايضا، لنعرف ماذا يفعل بنا الله، وضحكت من أعماق نفسها قائلة:

– في الحقيقة اصبحنا كالغجر، كل يوم في مكان.

قرب منها شيروان أكثر، خاصة لم يبق هناك أحد، فعانقها وقبلها قبلة قبليتن من اعماق قلبه وقال:

– لامرد لنا، فنحن اخترنا هذا الطريق بمحض ارادتنا لم يرغمنا احد عليه، هناك منكوب، آثر السلامة، وغير منتم الى أي شيء، وهو هادىء ووديع منشغل بكسب رزقه، فهو يتعرض الى الاعتقال والمضايقة وخراب البيت، اننا قياسا الى هؤلاء سعداء، الا يكفي بأننا مازلنا باقين، دفعته صبرية بدلال وقالت:

– وي يبعد القضاء والبلاء، ما ذلك، واخيرا هو أوان هذه الأقوال.

***

ومن جهة اخرى كانت في بيت حەپسەخان ضجة، حيث كانت حەپسەخان منهمكة بالتحزم وشد الاشياء، اذا كان من المفترض ان يتوجه حسين ونەسرين وعلي ونەوبەهار نحو گلاله، حسب ما كان متفقا، وكان في جدال مع حاجي مجيد، فكان الجميع يعاكسونها، وكان كاكه حاجي مجيد يقول:

– طيب لماذا تذهبين أنت؟ فها ان الاولاد يأخذون عوائلهم ويذهبون، وما الداعي لذهابك أنت؟!

قالت حەپسەخان بسرعة:

– كيف لا اذهب، احب ان أذهب وارى مكان الاولاد، واكون أنا ايضا معهم، بعد الشر عنهم، لا يبقى احد منهم هنا، انهم يذهبون حتما، تلك صبرية وشيروان واطفالهما، علي وحسين وعائلتهما، بيستون ورونـاك واختي آمه خان مع اولادها، اذن كيف اتمكن انا ان اقعد وحدي مثل الوزة الاعمى، كانت حەپسەخان تنتفض وتقول:

– والله سأموت هما وكمدا، لا داعي للكلام فانا ذاهبة، اذهب البتة، قال حاجي غاضبا:

– ماذا تريدين ان اسيب الدكان والبيت والحال، كله فترة وجيزة بدات انظم وارتب حساباتي كلها مجددا، وتتحسن حالتي الاقتصادية قليلا، وانت تعلمين بسبب التشرد ضيعت حالي ومالي كلها.

هزت حەپسەخان راسها وقالت:

– مثل تلك السنة اجلس مع اخيك كاكه حاجي، لتأت الى عندكما اختك آفتاو خان، وهي قالت لي اذهبي انت ولا تهتمي، وبعد ان كانت حەپسەخان تعود الى حالتها الطبيعة تلتفت الى حاجي مجيد وتقول، من يقول لا تضطرب الدينا مرى اخرى، والجميع يضطرون ان يأتوا الى تلك المنطقة لا نقول لا شكران فيه، تتغير ايامنا وادارة معيشتنا يوما بعد يوم، وقد اصبحنا مثل جدي هەياس الصالح، نقول : يوما ان الدنيا والاوضاع تحسنت وهي حسب رغبتنا، وليوم غد تخفق قلوبنا ونضطرب ونقول يا ليتنا بالامس وبأول امس، او ليس القسم الآخر والحكومة بعد كل هذه المظاهرات والرقصات والدبكات والمعانقات والدهن والعسل، ولم تمر كلها سنة واحدة على تلك الاتفاقية، بدأت الجهتان مرة اخرى بالتدمدم فيما بينهما ويقال كادت ان تتردى العلاقة بينهما ثانية، وكان حاجي بعدها، يفكر قليلا من اقوال زوجته ويعدها معقولة، وكان يقول في نفسه.

– تصدق حەپسەخان، اضافة الى ان جميع اصدقائنا واولادنا يذهبون بكامل افراد عوائلهم، وان لم يكن كذلك كان المرء يتمنى ان يذهب ضيفا الى حاجي

اومران وتلك المنطقة، ليس لذلك فقط بل بالتباهي كان البعض يقعسون صدورهم بأنهم يذهبون صيفا الى صلاح الدين وشقلاوة للسياحة والاستجمام ومدة أيام، والان لان المسالة اصبحت بين ايدينا بتلك السهولة، الا انهم يدمدمون دائما، والله لحەپسەخان ايضا الحق فلتذهب، ولو بدونها يبدو عليّ الفراغ كثيرا.

***

كانت العشيرة واصدقاؤهم جميعا على استعداد وحتى الذين جاؤوا من بغداد، بدأوا بالسير نحو هەولێر وگلاله، وكذلك الذين جاؤوا من المدن الاخرى، وهم أيضا مع العوائل الاخرى من السليمانية، فان الجميع مع الامتعة البيتية والفرش والغطاء والحاجيات الضرورية حملت، والناس ركبوا سيارات التورن والجيب، بدأوا بالسير نحو هەولێر، فصاحبات الاطفال كن منهوكات القوى متعبات.

نزل الجميع، عشيرة حەپسەخان بكل افرادها في احد فنادق ضواحي مدنية هەولێر، لتناول الاكل والتمتع بالاستراحة، ولم يدم طويلا ركب الجميع ثانية، وبدأوا بالسير وذلك بعد جدال طويل، حيث كان القسم يقولون لنبق الليلة هنا، وكان البعض الاخرون يقولون لا قدرة لنا ان ننزل مرة اخرى الامتعة ونبعثرها. ونبدأ من جديد بشدها وتحزمها. لا والله لننزل من مكاننا ومن الافضل عدم الركون الى الاستراحة، والعوائل الاخرى التي جاءت معا، توجهت كل واحدة في ذلك المساء الى جهة، وقد ذهبت عائلة عائلتان ولم ينزلوا مثل العوائل الاخرى للاستراحة، والبعض الآخر ظلوا ليلا في هولێر، عند اقاربهم ومعارفهم.

***

كان الليل متأخرا، كانت عوائل بيت حەپسەخان واختها والآخرين في سيارات لاندروڤر طويلة وسيارات التورن، فسارت كلها واحدة أثر الاخرى نحو گلاله. ركبت حەپسەخان واختها مع حسين ونسرين، وكلتا الاختين تهمهمة في المقعد الخلفي للسيارة، ولو كان الوقت ليلا، والطرقات كانت مظلمة، ولكن لان العلاقة بين الكورد والحكومة لم تكن مترديـة تماما، لذلك لم يكن الناس يتوجسون الخوف كثيرا، وكانت تلك الطرقات مزدحمة دائما، وكانوا يصادفون

سيارات البيكاب واللوريات المحملة بالاشياء وسيارات تورنات المسافرين والذاهبين للنزهة، حيث كانت في ذهاب واياب من والى جميع مدن الجنوب والوسط وكذلك مدن كوردستان، للتنزه والسياحة والاستجمام وقضاء عطلهم.

بعد أن تناولت آمه خان موضوع البيت والامتعة من حيث ما فعلت، وكيف انها اوصت حاجي وكيف وضعت جميع الاشياء الجيدة في غرفة وقفلتها، لكي لا تتبعثر ثانية، ثم التفتت الى اختها قائلة:

– اين يجب ان ننام الآن هذه الليلة، انفجرت اختها بالضحك وقالت:

– والله يا اختي انا ايضا اعرف مثل ما تعرفين أسالي حسين الذي كان يسوق السيارة حيث قال جذلا:

– عمم تتحدثان هاتان الاختان؟ انهما تهمهمان بشكل متواصل، وتضحكان،واحيانا اسمعهما تبكيان؟

مسحت امه حەپسەخان عينيها من الدموع والضحكات،وقالت:

– والله يا بني انها اختي آمه خان، فهي مهمومة بشأن النوم فتقول: أين ننام هذه الليلة؟ فنسير باستمرار ويقولون دائما، مازالت المسافة باقية، ما ابعد گەلاله.

ضحك حسين وقال:

– هو ذلك يا خالتي العزيزة، نحن الآن نتوجه الى حاجي اومران جهة كوردستان العراق والجهة الثانية لايران، ولكن لم تبق لنا مسافة طويلة، الآن سنصل المكان والموقع اللطيف جدا، للسقائف، حيث يكون برغبتكم كثيرا، وكانت نەسرين التي ركبت مع اطفالها بجانب زوجها قالت متذمرة:

– والله كان حقا من ان نركن الى الاستراحة الليلة في هەولێر او شقلاوه، والمبيت هناك، ماذا كان هذا ان امي تصدق فيه بعيدة جدا جدا، لم نصل بعد وقد متنا، قدر ما قطعنا المنعطفات وقد تخطت الساعة التاسعة متى نصل خيرا؟

اجابها حسين:

– او تعرفين بان هذه الطرقات ما اشد حرارة في اليوم وما أكثر صعوبة، لقد استحسنا حين اتينا، فها الان نسير والجو معتدل، ولم يبق امامنا وقت طويل،

سنصل بعد ساعة اخرى الى مكاننا، تحلين بالصبر قليلا. وصلت العائلة بتعب ونعاس وسيماء مشوش الى المكان.

لقد انعطفت السيارات من الشارع الكبير باتجاه طريق متفرع فسارت مسافة اخرى، بدا ان الطريق المتعرج كان مترباً وغير منظم وكثير الحفر للتورنات، وقد كان وعرا على قدر ما، لكن السيارات اللاندروفر كانها غزالة تقفز عليه، ولو ان الطريق كان شاقا وغير مرتب، لكن يتناهى الى آذان وافواه عابر السبيل داخل السيارات خرير النهر والماء ونسيم عليل، فكان ينعش القلب والنفس.

وقفت كل سيارة في مكان ما، نزل جميع الركاب، وقد صارت الضجة والجلبة والتداخل، كان الرجال يأتون حاملين مصباح اللوكس للترحيب بهم حيث كانوا جالسين للسهر على السقائف، وكذلك كان معهم بعض افراد الپێشمەرگە، لقد اختلط صوت الرجال والنساء وبكاء الاطفال جميعا معا.

طيب أي سقيفة سقيفة من؟ كيف يمكن ان تستقر جيمع هذه العوائل والاطفال في هذا الظلام وعلى ضوء الفوانيس واللوكس، لينناموا وكيف تنزل الامتعة؟!

والله يا أخي انا قلت لننام في احد تلك الفنادق الليلة، وصباح غد وفي وضح النهار نأتي، ولكن لم يستجب احد لما قلت. فتفضلوا لاعرف ماذا تتمكنون ان تفعلوا؟ ما كان صحيحا ان يكون هكذا، كان من الصواب ان تصل الامتعة الى المكان، حينئذ ان تأتي العوائل.

– اخي لماذا هذا الصراخ والصياح، للنزل الفراش، وتستقر النساء في داخل هذه السقيفة السقيفتين، حتى يحل الصباح، واخيرا اتخذوا قرار انزال شدة الغطاء لقد شمر توّفه عن اردانه كالبطل مع الرجال الذين كانوا ساهرين على السقائف، مع العوائل انفسهم، حدث جدال فجأة بين شخص شخصين، قال احدهما:

ذلك ذهب الى ما تحت شدة الفراش، وقال والآخر ضع رجلك على ذيلها الى ان اجلب تلك المجرفة.

حين سمعت آمه خان الكلام، حيث كانت على مقربة من المكان، وكانت جالسة مع اختها حەپسەخان على صخرة ضخمة، انتفضت فجاة، وقد لملت حاشية صايتها وثوبها وقالت لاختها:

– اواه عم يتحدثون؟ فداكم روحي ذيل أي شيء؟، أي مجرفة.

كمت حەپسەخان فمها، قالت بهدوء وبضحكة:

– اسكتي يا بنت هو لاشئ، لمذا تخافين إلى هذا الحد، فماذا يقول هؤلاء الشباب والاطفال؟ قالت آمه خان بخوف:

– والله أنا لا حق لي، أنا أخاف، كلهم حسب رغبتهم، إلى ان كانت آمه خان واختها في ذلك الجدال، ضرب حامل المجرفة اثنتين ثلاث مرات الارض وقال:

_اي يا أبي العزيز، أعرف انها لا تزال تتحرك رغم كل هذه الضربات، لم تتمالك آمه خان نفسها، وقد صاحت من هناك قائلة:

– نەورۆز، بەختيار تعالا ماذا كانت التي قتلوها؟

وصل اليهم توّفه قبلهم وقال:

– كانت حية حية، لقد اقترب من آمه خان واختها وقال، بهدوء:

– لا تظهرن انفسكن جبانات إلى هذا الحد، لئلا يستهزؤون بنا، كل پێشمەرگه الجهة الاخرى، من الله يريدون كلاما ثم يقولون ان نساءهم جبانات جدا، وقد تعلمن فقط السكن في الدور المدينية، كيفما يكون إلى ان انزل الفراش وتوزع الناس، ساد عدم الانتظام والترتيب، كاد النوم أن يأخذ سبيله إلى عيونهم، عدا آمه خان مع ان المصباح النفطي كان موضوعا بالقرب منها، لم تغمض عينيها أبدا من الخوف، وقد تحولت كافة اوراق تلك السقائف عندها إلى العقارب والافاعي ذات الرؤوس السبعة.

التقى الرجال أيضا بشكل اعتيادي حول السقائف، لم يدم وقت طويل وقد اشرقت الشمس وأخيراً أستيقظت تدريجيا كافة العوائل، أثناء الدمدمة، ما أسرع ان أطل الصباح ولم يكن نومهم سوى غفوة، لكن البعض قد فرحوا بها جدا، لانهم ارادوا النهوض نحو سقائفهم وبيوتهم، وأحوالهم.

لقد انتشرت النساء والرجال والاطفال في تلك المنطقة، كان مكانهم منطقة باردة طيبة، يقع في سفح جبل شاهق جدا، كان مكاناً واسعا رحبا مفتوحا،

فأشجار العرموط والحرموط الجبلي وأشجار الكروم المتشابكة في أطراف المكان قد انتشرت، وكان جدول وماء كبير سريع الجريان يمر حيث كان يتدفق من سفح ذلك الجبل، ومن أسفل المكان تفرعت منه من ثلاث جهات جداول صغيرة تتجه إلى مكان آخر، وكانت تلوح له من بعيد قطعة من الارض للبيدر والخضروات.

كان المكان والماء على درجة من البرودة يخدران ايدي وأصابع الناس، وكان يناسبهم بأنه فصل الصيف خاصة في هذا الصباح الباكر، ذهب العوائل كلها إلى حيث امتعتها، فتدل كل عائلة على سقيفتها، لان المواعين ومواد الشاي لم تكن جاهزة بين أيديهم، لذلك أرسل لهم الپێشمەرگە السماور وابارىق الشاي، والشاي والخبز والفطور.

كان هناك ساباطان كبيران جدا وقد فصل بينهما فاصل كغرفتين متقاربتين في جهة الماء، خصصتا لعائلة حەپسەخان واختها واولادها واطفالهما وأصهارهما وبناتهما.

والعوائل الاخرى كانت من الجهة الاخرى من الماء، قد انتشرت عرائشها بشكل متفرق، وبعد ان توجه كل واحد إلى ساباطه دمدمت حەپسەخان قائلة:

– معاذ الله، كل عملنا مختلف، لايشبه ما للناس قل لماذا نكون نحن في أقصى الماء، فكيف نعبر مرورا على كل هذه الاشياء والامتعة والاطفال والكبار، وكيف نعبر على هذه القنطرة:

علق ابنها علي قائلا:

– امي العزيزة هكذا افضل، والله أنا اخترت هذا المكان، ان الطرف المقابل فيه الكثير من عابري السبيل، فهناك لا يتمتع المرء بكثير من الحرية، نظر علي إلى أمه بوجه فرح قائلا:

– تريدين الحقيقة، لم يكن فيها مكان مثل هنا يسع كل هذه السقائف لعوئلنا، وكذلك هو اطيب لكي نتبادل الزيارات مع الرفاق، وقالت حەپسەخان بملالة:

– ليت عريش بيت شفيقة خان ايضا كان من هذه الجهة، بينما هنا تلك في الاسفل ابعد عنا من كل البيوت، والله جاؤوا حبا وفرحا بنا والا كانت تقول ليذهب سردار وابوه ولكن لا أذهب انا، ولكن حين قلت أنا أذهب أيضا قالت:

– أذن والله أنا أيضا آتي من فرحتك وآمه خان، صرخ توّفه من هناك قائلا:

– ماذا بكما انت واختك، منذ الليلة غير راضيتين وتدمدمان بشكل متواصل، أي بعد لبيت شفيقه خان، فمن هنا أذا ما ناديتهم يسمعون صوتي لولا خرير الماء، فلسنا في الشام وشيران.

قالت حەپسەخان في نفسها:

– اواه سلمتك لله، ان فمك كالرشاش دائما على الزناد.

استقرت جميع العوائل عند المساء، وكل عائلة نظفت ساباطها وزينتها ونظمتها، وقد فرشت الجميع ارضيتها بقطع من الطنافس والفرش والآخرى، ونصبوا اسرة النوم وفرشوا عليها الفراش، وكان من بين العوائل من علقت بسرعة مرآة على العريش ورشوا أمام عرائشهم التي رتبت جميعها كالمصاطب بالماء وكنسوها.

وقد وضعت الكراسي والمناضد الحديدية والبلاستيكية واعدت كل واحدة لوكسها ومصباحها، اخذت سماوراتهم تئز أزيزا، وتصاعد الدخان من جوانب العرائش. وكن منشغلات بعمل خبزهم وطبخهم.

***

بعد اسبوع اعتادت العوائل على مكانهم حيث طاب لهم بحيث اخذت السنتهم تلهج بالمدح والاطراء، خاصة عندما كانت قرية حاجي هومران وجومان وگلاله قريبة منهم وكانت فيها اسواق عامرة فيها أشياء متنوعة من القماش الجميل إلى الفرش والمواعين والبلاستيك والدهن والزر الصدري والايراني، وكذلك الخبز والكباب والمطاعم، ولم يكونوا يفتقرون إلى أي شي. أخذت العوائل بتبادل الزيارات، والتجول والسياحة والتنزه معا، كانت حەپسەخان في هم الحمام قبل كل شيء، وبعد ثلاثة أيام رتبت حماما بمساعدة من توّفه وبناتها واولادها، لقد اجرت فيه تحسينات كثيرة كانه حمام المدينة من حيث الدفء والحرارة والماء الغزير، وسريعا سريعا كان طنب الملابس

المغسولة التي شرت تجعل من وراء ساباطهم مبيضا من ملابسهم، وخرق الأطفال والعائلة، كما أن أولادهم أيضا اخذوا باستضافة وتبادل الضيافة مع القسم الآخر للپارتى، وكان الجميع في الضيافة والدعوة عن قادتهم، أو كان الناس يأتون للترحيب بهم، وكان الپێشمەرگه العائدون لهم اختلطوا مع بپێشمەرگتهم، بدأ تدريجيا يزول التردد و الانعزالية بينهما وتصفو القلوب، ولو ان القسم الاعظم من الطرفين كانوا يسعون باخلاص ابراز ثقتهم وصفاء نيتهم احدهما تجاه الآخر، ولكن رغم ذلك كان من بينهم أشخاص لا يروق لهم هذا الوضع، وما كانوا يكفون عن المشاغبة ونقل الكلام بين الطرفين واثارة الفوضى، حيث كانوا ينظرون كخصوم واعداء إلى قادة هؤلاء، ومثل الاجنبي والمكروه ينظرون إلى قادة الپێشمەرگه، خاصة القسم الآخر الذي كان في صفوفه عدد كبير من اللصوص والفاسدين، كأن الكورد اشعل الثورة وقدم كل هذا العدد الكبير من الشهداء والتضحيات وتعرض إلى المآسي والنكبات، لكي يتمتع امثال هؤلاء السفلة بالحياة المرفهة، ويصبحوا على درجة من الغنى والثورة والحصول على المكاسب، التي لا تعد ولا تحصى، وأغرب من الكل أن أمثال هؤلاء الاشخاص لم تكن لهم أي صلة لا من بعيد ولا من قريب بالكورداپتي والثورة، وأكثر من ذلك كانوا جواسيس ومأجوري ثلاثة اربعة اطراف بدءا من جهاز ساواك الايراني إلى جهاز الامن العراقي، وأطراف اخرى، في حين انهم كانوا محبوبين ومقدرين ومسؤولين ومتقدمين من قبل قادة القسم الثاني للبارتي، وكان كلامهم عندهم كالنقش على الحجر.

مر ذلك الصيف على الجميع هكذا، وخلال تلك المدة زارت حەپسەخان واختها مرتين السليمانية، وجاء حاجي مجيد واخوه مدة اليهم، وكذلك اخذ الاقارب والمعارف يتجهون اليهم، وكانوا يمكثون عندهم اسبوعا، عشرة أيام.

وكان توّفه يقعس صدره وينفخ وينفش نفسه ويصبح دليلهم ويركبهم سيارة لاندروفر ويأخذهم إلى هذه الجهة وتلك، إلى السوق والدكاكين لشراء الثوب والصاية.

ولو ان العوائل كانت لها الاوضاع ومنطقة السكن بشكل عام ولكن كانوا يتحاسدون فيما بينهم. ويدب بينهم الصراخ والصياح، لان بعض العوائل كانت

لها تقاليد كوردية قديمة وعشائرية، وكان تحت عرائشهم يمتلئ دائما بأهل القرى وأمثال هذه الاشخاص من الاميين، وقد يصدف انهم لم يكونوا على شيء من الانتظام والترتيب، أما ما كانوا يمتلكون الوقت الكافي لتنظيم وترتيب أنفسهم لكثرة الضيوف وكثرة اطفالهم، بينما حين كانت امثال تلك العوائل تتلاقي، كانوا يتهامسون ويحسدون حەپسەخان وابناءها واحفادها والعوائل الاخرى، بأنهم محظوظون، أو لاتراهم كانهم في المدينة وليس في الجبال والصحاري، وانظر إلى ملابسهم كيف تتألق– انظر إلى ساباطهم وبيتهم وفراشهم وشراشفهم، وازارهم الصوفي الخفيف ومخداتهم ولحافهم، معاذ الله حين تزورهم يضعون أمامك مع الشاي الفطائر، وكيف تمكنوا ان يجلبوا مثل المدينة هذا الطباخ إلى هنا، والاخرى كانت تقول بنت اختي، ان بين ايديهم اناسا كثيرين، وبيت حەپسەخان لهم ذلك الرجل التنين الثرثار، فيحصل لهم الاشياء حتى ولو كان في اصعب واعقد مكان، ذهب في ذلك اليوم إلى السليمانية فجلب لهم الطباخ الغازي وثلاث قنينات زائدة وضعها في سيارة البيكاب وجلبها لهم، وهم ليسوا مثلنا نقعد منذ الصباح أمام الحطب والدخان حتى نطبخ شيئا، وقد تقاطر وتراكم بيتنا كله، ولا نتمكن حتى ان نبدل ملابسنا ونغتسل بسبب كثرة الضيوف، واخرى تقول:

– فقط يا بنت ذلك؟ اذهبي وانظري إلى الحمامين الصيفي والشتوي لبيت حەپسەخان، انهم يعملون جمعيا معا، ان كلهم كبار مرتبون، وليسوا مثلنا اثنتين ثلاث نساء خمسة ستة اطفال، ويوميا عندنا عشرون ضيفا.

***

كانت بداية الخريف، كاد ان يبرد الجو فجاة، خاصة في هذا المصيف الجبلي الطاغي، لقد تم تسقيف الابنية التي شيدت لهم، وكانت بعض العوائل دخلوها، وكانت العوائل الاخرى منهمكة بلم وجمع امتعتها للتوجهة نحو الريف والمكان المعمور والأهل، حيث تدخل كل عائلة دارها اذ كانت كل واحدة منها في قرية ومنطقة.

ولو لم يكن بعضهم بعيدين عن البعض، ولكن اختارت كل عائلة مكانا لنفسها، وكان من بينهم من اعتلى تلا وحده، وآخر على الطريق المفضي إلى حاجي هومران ونحو الاسفل إلى گەلاله وهەولێر.

وآخرون اختاروا ماحول القرى أماكنهم ودورهم وأثناء ذلك شاع خبر بان العلاقة بين ذلك القسم من البارتي والحكومة قد تردت بشدة، وقد جاء ذلك العدد من الوزراء بحجة الحوار مع قادة البارتي ولن يعودوا البتة إلى بغداد، ربما يستأنف القتال في هذه الايام، لقد انتشر الكلام كالنار في الهشيم، فتهيج واضطرب الناس، وكان الذين يتوجسون خوفا كثيرا تركوا اعمالهم وحالهم بسرعة، وتوجهو نحو الجبل. فزعت وتروعت آمه خان قبل جميع افراد عائلتها وتسول بطنها، خاصة حين وجه الناس ان يحفروا الثغور الواقية من قصف الطائرات أمام بيوتهم وعرائشهم ويلطخوا سياراتهم بالطين ويبعدوا حولهم الصفائح والاشياء البراقة والملونة. اضطرب الناس وتشوشوا، كان معظم الساكنين في القرى حملوا على ظهورهم وعلى الدواب والحمير المهد والقدر والمواعين، وتوجهوا نحو السهول ومخابئ الجبل والكهف.

أما الذين ظلوا داخل سقائفهم، فبقوا في اماكنهم، وبدأوا بحفر الثغور والحفر الواقية من القصف، خاصة الذين كانت سقائفهم بعيدة عن مخابئ وملاجيء الجبل والكهف، وكان من المفترض أثناء تحليق الطائرات في الجو ان يقطعوا مسافة للوصول إلى هناك، لذلك فان كل واحد حفر حفرة أمام ساباطه للاطمئنان.

كانت حەپسەخان بقلب خافق وبارتباك شديد تنظر بفارغ الصبر مع جميع عائلتها، ان يصل اليهن زوجها وكاكه حاجي ومهما يكن تمكن كلا الحاجيين مع الناس الهاربين بكل انواع الخداع والحيلة الوصول إلى عائلتيهما.

لقد هدأت اعصابهم وران شيء من الطمأنينة والسكينة عليهم بوصول كلا الحاجيين وعائلة والد بيستون صهر حەپسەخان حيث كانت عائلة مزدحمة بأفرادها ومعهم احفاد وشباب من أقاربهم، بعد أن عرف زوج صبرية شيروان، بان، بيت والده لم يبقوا في المدينة، وذهبوا نحو القرى الاخرى عند أهلهم وأقاربهم.

خلال أيام اخرى انتشرت أشاعات اخرى، كان ذلك قال:

– يقولون ان الحكومة ارسلت وفدا إلى الاكراد وهم الآن منهمكون بالحوار.

وقال الآخر:

ها ان الوزراء الكورد مكبون على العودة إلى بغداد كان هذا يعود ويقول:

ان كل هذه الاقوال كاذبة، فان الحكومة شرعت بمكافحة أهالي مدن كردستان، وكذلك ترك اكراد بغداد اموالهم واحوالهم جميعا ويركضون نحو هنا، وكانوا هم في غمرة ذلك الكلام والجدال حيث اثارت اطلاقات نارية وهدير بندقية مسقطة الطائرة ضجة، وقد بدأ اطلاق النيران من كل الاتجاهات، وكان حەپسەخان جالسة في حضور الصاج والثغال والعجين كن يخبزن، انتفضت حەپسەخان بخوف وقالت:

– يارسول الله مدد، ان اختي آمه خان التي ما كانت في حد ذاتها على طبيعتها، فمنذ ذلك اليوم الذي (كما هي كانت تقول) شاع هذا الخبر، لقد تسول بطنها، ولم يزل سولها، قد شدت راسها أيضا باثنتين ثلاث عصابات الرآس من تأثير الصداع، لذلك فانها اضحت نصف روح بسبب ذلك الصوت والاطلاقات النارية، ولم ينتبه أبنها وابن اختها من أي شيء آخر.

مسك الابناء ذراع آمه خان وذهبوا بها بسرعة إلى حفرة الوقاية من قصف الطائرات، لم يرغب كلا الحاجيين الظهور بمظهر الجبان، وقالا فلتدخلها أولاً النساء والاطفال، لقد طرح العجين في تلك المنطقة ووضعته صبرية بعجلة تحت احدى السقائف، ووقعت لوحة المعجنات والشوابك تحت أرجل واقدام وسيقان نەوبەهار، ورونك، وقد اطفاتا النار فصبتا عليها طشتا من الماء، وعلى حين غرة وصل دوي الطائرة إلى فوق رؤوسهم وقد كان للهدير والعصف الرهيب المفجح صدى من قربهم ومن أسفلهم، وتصاعد الدخان من عدة جهات، وعانقت آمه خان أختها،وقالت بصوت مرتجف ومختنق:

– واويلاه، ماذا تفعلين لي اختي حەپسەخان، عجبا اين يكون الآن علي ونەورۆز وشيروان؟ واصرختاه اخاف ان هذه الدفعات من الدوي والهدير قد اصابتهم و تۆفه.

– كانت حەپسەخان أسوأ منها حالة، وكلما كانت تتمكن ان تفعل، ترفع صوتها قليلا حيث انها تقرأ آية الكرسي لذلك لا تقدر أن تجيبها.

كان حاجي مجيد واخوه وحسين يشاركون عواطفهن ويدخلون الطمأنينة في قلوبهن بقولهم:

– لا تخفن، انه لاشي، لن يصبنا الآ اذا شاء الله، ان حالنا كحال الناس، ومسكت روناك بشدة يد زوجها، والصقت راسها بكتفه، في مكان منزو من حفرة الطائرة حيث لم يكن يراهما احد، ولم يكن منتبها ان هذه المعانقة والتقارب بسبب مصيبتهم والضجة المثارة في حفرة الطائرة.

كما ان صبرية الصقت رأس ابنها برأسها ووضعت يديها على اذنيه لكي يسمع بشكل اخف من كل ذلك الهدير والدوي، وقد تعلق قلبها بزوجها شيروان وأخيها علي وابن عمها نەورۆز وكذلك توڤه.

ظلت عشيرة حەپسەخان واختها واهلها مدة ساعة على تلك الشاكلة في حفرة الطائرة، ومع ان قصف الطائرات قد زال، ولكن طلقات نيران الپێشمەرگه وطلقات محطمة الطائرة تواصل هديرها كانها اقتفت آثار الطائرات.

خرج الجميع تدريجيا من الحفر، خاصة النساء، لان الرجال سرعان ماكانوا خارجين، كانت آمه خان وأختها آخر شخص خرجتا، كانت آمه خان تقول اختي أي ذهاب للطائرة، والله هي تلك فلا يزال هديرها يرن في أذني.

وكانت اختها تجيبها وتقول:

– اختي هذا خرير الماء، وعصف العاصفة، أي طائرة وأخيرا أضطرت آمه خان ان تخرج بعد ان كل فم ابنها بەختيار معها، وبعد أن ذكر لها موضوعات عن الطائرة والقصف وازال خوفها قليلا وطمأنها ومسك ذراعها واخرجها لم يدم وقت طويل وقد ظهر رأس توڤه من بعيد مع كلا ابني اخت حاجي مجيد. وقد وصل بسرعة الى عند حەپسەخان والآخرين وقال بعجلة ولهفة:

– شكرا لله، كنتم جميعا سالمين؟! قسما بذات الله أوشك أن يأتوا لكم بالخبر بأن أنا وسالار وحسن ما كانت أوصالنا باقية.

جحظت عينا آمه خان، وعلقت صبرية وقالت:

– لماذا لا سمح الله، لماذا أين كنتم أنتم؟

سعل توّفه مرتين ثلاث مسد فمه ووجهه بمنديله وقال:

– كنا نحن في گلاله، ذهبنا لنشتري بعض النايلون لسطوح العرائش، وهناك ركبنا سيارة الأجرة، مع رجلين آخرين، هز توّفه يده ورأسه، قفز مع كلامه وقال:

– يا جماعة وصلنا الى اعالي چوّمان وأصبحنا في المكان الواسع العريض، بدأت الاطلاقات النارية، شاهدنا ان كل عابر سبيل منهمك بالركض حاملا حمل نقوده الى مخبأ الجبل وكذلك كانوا يشيرون الينا، وحين توقفت السيارات لنعرف ماذا في الامر، قالوا الطائرة، الطائرة، الطائرة، اركضوا، ركضنا جميعا نحو مخبأ الجبل، من حسن حضنا كان فيه كهف، دخلته كافة النساء والاطفال، وقد اختبأ الرجال كلهم في مخبأ الجبل، هز توّفه رأسه قائلا:

– ولكن أي كهف ؟ فليعمر ياربي، وقبر حاجي كاك أحمد الشيخ، كانت فيه عناكب، فكل عنكبة كانت بحجم راحة اليد، وقشور الافاعي المنسلخة، فهذه لا تذكروها بذات الله كنت أظن انها اكياس النايلون ألقتها الريح في الداخل. قالت صبرية:

– أين شيروان وأخي كاكه علي والآخرون، قال توّفه:

– كانوا هم في مكان حصين وجيد جدا، كانوا في وليمة. دون أن تكون آمه خان منتبهة من نفسها وبمجرد سماعها اسم العنكبوت وقشر الافعى المنسلخ مسكت حاشية ثوبها وصايتها واستجمعت نفسها وتكورت..

قالت حەپسەخان في نفسها:

=الله يسوّد وجهك لاكاذيبك: طيب إذا كانت النساء والاطفال فقط دخلوا الكهف، فمن أين وجدت كل تلك العناكب وقشور الافاعى، ايها النفاخ المتباهي، فانك القيت نفسك في الكهف قبلهم، بلع توّفه لعابه وقال:

– كان عابرو السبيل كلهم من أهل تلك المنقطة، في طريقهم نحو حاجي هوّمەران وايران.

اخذ حسين يتكلم:

– والله منذ ايام بدأ الناس يعبرون نحو جهة ايران، وذهب ناس كثيرون الى خانة وتلك المنطقة.

قالت حەپسەخان متوجسة الخوف.

– حسنا لماذا لا نذهب نحن أيضا، خذونا نحن أيضا:

قال زوجها حاجي بشدة:

– والله لاينقصنا غير هذا، لقد نسيتم الذهاب الى ايران ومدى نفادكن الصبر وما أكثر بكاءكن من اجل شبر من تراب جهتنا هذه.

اجابته حەپسەخان وقالت:

– والله يصدق عزيزي حاجي، لا نبدل شبرا من أرضنا بكل الدنيا، ولكن حين نكون مضطرين ماذا نفعل، يبدو ان الله كتب على جباهنا هكذا!!

***

عاد علي وشيروان ونەورۆز الى البيت في مساء متأخر، وحين دخلوا السقيفة، التفت كل واحد منهم بابتسامة وشوق من جهة الى الحضور، خاصة آمه خان التي كانت اجبن من كل شخص فقالوا:

– الا، ماذا فعلتم، وماذا لم تفعلوا، حين جاءت الطائرات؟

ضحك علي وقال:

– والله قبل كل شخص كنت في هم من خالتي وكانت أمام عيني ماذا كانت تفعل الآن، بدأ عمه كاكه حاجي من تلك الجهة يتكلم قائلا:

– لا تذكر ابدا ماذا فعلت، اخرجها بەختيار عنوة من الحفرة، ضربت آمه خان يدا بيد وقالت:

– يا جماعة فانا لم اخفها عنكم، ولم أقل لكم أني بطلة، أي والله اخاف، دون ارادة مني!!

ضحك ابنها نەورۆز وقال:

– امي العزيزة اليست تلك حفرة الطائرة امامك تماما، فمجرد ان سمعت صوت الاطلاقات، ادركي بأن الطائرة جاءت فادخليها وحتى اذا رمت قنابل فلا تصيب الداخل في الحفرة، تحدث نورز بشكل مفصل عن انفجار القنبلة، كيف ومتى تنفجر تلك القنابل.

قالت آمه خان متذمرة:

– وي في سبيل الله لا تحكوا لي هذه الاقوال، والله لا يطمئن قلبي بكل الاقوال، ياربي من هو كافر ان يدخل هذه الحفر والثغور، أي حفرة للطائرة، لتدفن، كأنك تدخل القبر، ومما زاد في الطين بلة، امطرت السماء يوم أمس، تحول كل مافيها من تراب الى طين حين دخلناها، تلطخت كل ملابسنا، والله لو تضرب قمة راسي لن أصعد الى تلك القبور مرة أخرى.

ضحك كل الجالسين تحت الساباط، وقال كل واحد منهم شيئا، لقد حزنت الجماعة اذا ما تحول المطر الى مطر حقيقي، ماذا يحل بهم عندئذ تحت تلك العرائش بكل افراد العائلة.

حل الظلام، وكانت السماء ترذ رذاذا من المطر، ولو ان تؤفه والاولاد اشتروا في النهار النايلون الكثير وغطوا به سطوح السقائف، ولكن لان النايلون كان على شكل قطع، وقد عصفت بها العاصفة عصفا شديدا يرثى لحالها.

لو مطر مطر شديد، كانت لاخذت حالة الناس الكائنين تحت العرائش لذلك تضطرب.

كان الجو يشتد تدريجيا، كانت عائلة حەپسەخان واختها والعوائل الاخرى جميعهم تجمدوا من البرد في تلك الجبال والمخابئ، وقد حملوا معهم ملابس كثيرة لا تحصى علاوة على ذلك المطر ووكف العرائش حيث يضيق بهم ذرعا، وقد تبللت كافة ارزاقهم وطحينهم، وبشق الانفس كانوا يتمكنون من نقلها الى تلك الجهة وتغطيتها.

لقد تشققت شفاه جميعهم من شدة البرد والماء البارد، وقد كانت حواشي ملابسهم وصاياتهم تتلطخ بالطين في حالة تبادل الزيارات من عريشة الى عريشة او لقضاء الحاجة او الى عريشة الطبخ. كانت احذيتهن واخفافهن ويمنياتهم امام عرائشهم تحمل كل واحدة منها قدر لبنة كبيرة من الطين.

انتابتهم الحمى والبرد في تلك المناطق الجبلية الباردة الظليلة التي كانت الجبال المحيطة بهم تحجب عنهم الشمس من بعد الظهر مباشرة ولو كان هذا اليوم مشمسا طيبا.

كذلك كان الكبار والصغار يصبحون طريحي الفراش ويتماثلون للشفاء بالتناوب نتيجة للسعال والزكام والنزلة الصدرية، أضافة الى كلها كان مجيئ

الطائرات بين فترة يومين ثلاثة مرة واحدة وهدير دوي مدمرة الطائرة وقعقعة الاطلاقات النارية يربكهم، ثم لم يكن حال الذين كانوا في داخل العرائش ومخابئ الجبل فحسب، بل الذين كانوا في البيوت والدرور أيضا، حيث انهم كانوا مضطربين ونافدي الصبر ومشوشين تحت طائلة القصف وبرد الخريف والحمى والبرد والنزلة الصدرية، ولو ان معظمهم اخلوا قراهم، وهم أيضا متوجهون الى مخابيء الجبل والكهوف وهذه الجهة وتلك، وكثير منهم سلكوا الطريق نحو ايران.

كان الوضع يتردى تدريجيا، وكانت حكومة بغداد تواصل هجماتها وارسال طائراتها، وقد تحولت الى ذئب ضار مسعور، والسبب في شن هجماتهم الوحشية الضارية تماما، كما كانت الحكومة تنشرها وتذيعها حسب زعمهم هو ان اتفاقهم هذا مع الكورد في هذه المرة كان جديا جدا وحقيقيا فذلك انهم منحوا حقوقا للكورد على قدر لم يشهدها الكورد ابدا في أي وقت.

وهو واضح وجلي انهم أطاعوا الى جهة واستجابوا لمطلبها تخريب هذه الاتفاقية وتشويشها.

كانت ابواق وصحف واذاعات الحكومة تنشر وتذيع هذه الاقوال، عليه يتوجه الناس دفعة واحدة نحو ايران، خاصة ماكان يمر يوم ان لا يلوذ الكورد بالفرار من بغداد، حفاة عراة بقميص واحد فقط، حاملين معهم مئات الاقوال وقص الحكايات حول وحشية وهمجية ولااخلاقية الحكومة التي تمارسها ضد هؤلاء الناس الابرياء المسالمين.اخيرا اتخذوا قرارا ان تتوجهة عائلة حەپسەخان واختها والعوائل الاخرى الى ايران، لقد اضطروا ان يجمعوا ويلملموا انفسهم لينجوا بجلودهم في توجههم نحو ايران، بعد ان فعل بهم البرد والمطر و الصفرية مالم تفعل الريح بالفسطاط المتهرئ البالي.

ركب حسين وشيروان وتۆفه وشخصان آخران السيارة وعبروا نحو ايران، نحو خانة للحصول على الدار، وفي اليوم الثاني عادوا وقالوا للجماعة، يا الله انهضوا لنذهب، اقعس تؤفة صدره وقال بشوق:

– والله حصلنا دارا، ما كانت تكون لو كنا نحن بنيناها، اخذ تۆفه يذكر مواصفات الدار، ولم يدع أحد من الاولاد ان ينبس ببنت شفة بتاتا.

– كنا محظوظين، لقد حصلنا على دار واسعة جدا وفاخرة، في مدينة ورمي (رضائية– اورمية) كانت عائدة لشخص حاج له ثلاث زوجات، لقد انتقلت عائلة حاجي بكل افرادها الى طهران، لاجل اطفالهم ودراستهم، ان الدار على قدر من الكبر والسعة قال الدلال انها كانت منذ سنة متروكة لا يريدها أحد لسعتها، فالمرء لا يحتاج الى دار هكذا، سعل توّفه وقال:

– ما ان ذهبت الى الرجل الدلال وقلت نحتاج الى مكان واسع هكذا، حتى وان قال حالا:

أي والله لنا دار على هذا الطراز، هاك المفاتيح لنذهب ونراها، لم يتمالك صبرية نفسها وقالت:

– حسنا انت ذهبت وحدك فاين كان شيروان وحسين والآخرون؟!

نظر توّفه بطرف عينيه شذرا الى صبرية وقال:

– أسأليهم، حين كنت انا ابحث عن دار والحصول عليها، كان شيروان وحسين والاخرون يتمتعون بأكل الكباب الصغار في مطعم الكباب.

ضحك حسين وقال:

– ثم يا كاكه توّفه كان دكان دلال العقارات بجانب مطعم الكباب، فانك قلت اذهبوا انتم احجزوا مقعدا واطلبوا الأكل، لآسأل أناهذا الرجل، لعل وعسى يعرف مكانا. قال شيروان بضحكة مخفية خوفا من توّفه:

– اشهد بالله يا جماعة، ان كاكه توّفه حصل تلك الدار، كان يتحدث مع الرجل كالعندليب بالفارسية، تبادلت آمه خان واختها النظرات، كأنه ويح لوالدنا، اضيفت اليها ثانية ايران والفارسية، اذن من ينجينا من نفخ وتباهي توّفه؟

ان عوائل حەپسەخان وحاجي مجيد، واخ زوجها كاكه حاجي وآمه خان والابناء والصهر والبنت وابن البنت وعائلة والد بيستون ورجال الجهة الاخرى حيث انهم كانوا ذاهبين للحصول على المكان من جهة ايران في خانة وورمي، ومدن وقصبات ما حولهم، اخذ الجميع يحمل الامتعة والاثاث في السيارات بسرعة خوفا من هجوم الطائرات عليهم، بعد ان فسحت ايران المجال ان يدخلوا اراضيها، وقد علموا ان الوضع يتطلب ذلك وهم أيضا فتحوا ابواب الحدود،

حيث كان تسلسل السيارات في تلك الطرقات يمر طوال النهار، ولو انها كانت مفتوحة على امتداد السنة، وكان المهربون في حالة عجلة وفوضى، والناس الآخرون كانوا يسيرون مشيا على الاقدام وبالدواب وكانوا حتى يحملون ا لثيران بالامتعة والاشياء متوجهين الى ايران، لقد كانت سيارات البيكاب ولاندروفر العائدة للعشيرة في مدينة ورميَ واقفة واحدة تلو الاخرى امام دار ذات بوابة كبيرة ببابين حديديين، والبعض عند ضاحية المدينة، وكان الوقت مساء، كان توّفه ذاهبا الى السوق مع الادولاد للحصول على الخبز والاكل لعشيرة حەپسەخان واختها وعائلة بيت والد بيستون، حيث اضطر الجميع ان يشغلوا مكانهم في تلك الدار، ولوا ان الدار كانت واسعة جدا وذات طابقين وفيها غرف كبيرة وكذلك كانت لها باحة جذابة خلابة، وقد بنيت في الجهة المقابلة للباحة غرفة وايوان ولكن مع ذلك، كانت الدار لجميع هؤلاء الابناء واهلهم واقاربهم غير كافية فعلا.

كيفما يكن وزعت الاماكن والغرف واستقرت الجماعة، وركنوا للاستراحة قليلا، وقد استشهدوا بالله، خاصة آمه خان التي كانت مكبة على الاستغاثة بالله والرسول (ص) وكانت في ذهاب وأياب، من فرحتها بنجاتها من الطائرة وحفرة الطائرة وتقول:

– يا جماعة لاتقولوا ان المكان غير كاف ولا تكفينا الغرف، لا ضير في ذلك، ليكن عدد من الاشخاص معا، الا يكفي نجاتنا من الطيارة والقصف، الا يكفي لا ندخل ثانية تلك الحفر والقبور الواقية من الطائرة.

في احدى المساءات حيث كانوا منتعشين بعض الشيء، وقد أكلوا الخبز ورغيف الخبز وكباب رضائية الطيب، وكان كل واحد مشغولا بشيء معين، ذهبت آمه خان صباحا الى الباحة، للتوضؤ، حيث صرخت فجاة وركضت قائلة: جاءت الطائرة، فحين ابصروا انها طائرة المسافرين، اطلق جيمع اهل البيت الصرخة والضحك، وتوّفه ركض الى عند آمه خان وقال:

– الا تعرفين بان هنا بلاد اخرى، ولازلت تتصورين بأنك في گلاله وچوّمان؟

صرخت آمه خان عليه وقالت:

– حسنا قائد الفرقة، حسنا فهمنا.

اخذ بعض الابناء حيث كانوا في الطابق الارضي فجاة بالصراخ والصياح، قال ذلك.

– ياالله فداكم روحي، سلمت أيديكم، والآخر قال:

– فداكم روحي ومالي، عشتم، والله ليس اقرب من الغد ساعود اليكم.

وقال احد آخر منهم:

– يا جماعة، والله لو لم تكن عائلاتنا طوقا في اعناقنا، فكيف كنت آتي الى هنا، ركضت واحدة اثنتان من البنات في الغرف الفوقية الى الاسفل ماذا حدث؟ ما هذا الرقص والهدير، في حين وجد انهم ابناء اقربائهن مع بەختيار واحد واثنين من اخوان بيستون، فتحوا اذاعة الثورة، يستمعون الى اخبار الوطن.

فما فعل الپێشمەرگه بالقوات الحكومية واوقع بهم، من أين انكسروا ورجعوا على اعقابهم.

اهدلت صبرية شفتيها وقالت بأسى:

– الله لا يعمرني لاجل العوائل والاطفال الذين هناك الآن، ادركوا ما اكثر الانسان انانية، حين وصلنا الى هنا ما أكثر فرحنا، لاننا وعوائلنا واطفالنا نجونا من الخوف، واخيرا نسينا كل احد، عجبا منذ ان كنا سائرين في الطريق الى ان وصلنا هنا، كم من الناس استشهدوا وكم شخص تعرض الى المصيبة والنكبة والاعتقال وأصبح تحت التعذيب.

اجهشت حەپسەخان بالبكاء وقالت:

– اوه والله انا منذ اول ليلة حين مددت لقمتي الى فمي، تراءى لي كشريط سينمائي الناس الذين عند منطقتنا والذين كانوا تحت العرائش والبؤساء تحت طائلة البرد والقصف وصراخ وزعيق الاطفال،وتحول الاكل عندي الى هم والم شديدين ولم افصح عنه مرضاة لكم قلت انكم تعبون منهمكو القوى كثيرا.

آمه خان التي كانت اكثرهم جبنا وعجلة لتتخلص من الحالة التي فيها، وهي أيضا قالت بجهشة وبكاء.

– ماذا نقول؟ ليصب مسببنا بمصيبة يا ربي، فلتسكت وتفشل الحكومات التي تفعل بنا هكذا، والا فوالله منذ الان احن الى جهتنا، في ذلك الوقت جاء حسين الى الطابق العلوي عند امه والاخريات اللاتي كن في هذا الجدال، وبعد أن

عرف عما يتحدث، وكيف ومنذ الآن بدأن بالاه والأف، نظر اليهن بابتسامة مصطنعة قائلا:

– ما هذا؟ فالآن بسم الله مرت ليلتان عليكن منذ مكوثكن من هنا، وعدتن ثانية الى الدمدمة والدندنة والحنين الى هذا وذلك، نحن لم نثق بأنكن تصلن الى هنا، وستخفف أنشغالاتنا ونطمئن بأنكن تكونن معا ومكانكن جيد، لكي نعرف نحن أيضا ماذا نفعل، وليس أقرب من الغد، نحن نعود جميعا الى الوطن، عليه انتن أيضا اجلسن واشكرن الله واقرأن لنا الدعاء.

قالت حەپسەخان بقلب مرتجف:

– ماذا؟ تعودون انتم؟ جاء ابنها حسين الى عندها واضعا يده على كتفها وبهدوء وتوأدة وبوجه بشوش قال:

– وكيف لا عزيزتي حەپسەخان، ولا يجوز ان تعرفي اننا نقعد في حضوركن مكتوفي الايدي ناكل كباب الرضائية. الاوالله لن يبقى احدنا هنا اكثر من توّفه وحسين واذا رضى بەختيار ايضا ان يبقى عندكم، لذلك لا يحتاج الى تردد وهذا الطرف وذلك الطرف والدندنة والتذمر.

حينما علمت حەپسەخان ان ابنها جعل قصده محكم السد بشكل لم يبق فيه مجالا للتحدث عنه، لذلك قالت بأكتئاب:

– كلكم تذهبون دفعة واحدة؟ أو والدك وعمك يعرفان؟

نهض حسين وقال:

– وكيف لا، فنحن منذ الصباح نتدبر امورنا ونتحدث عنه مع عمي وكاكه علي والجميع.

لم يبق أمام آمه خان كلام خوفا من الكلام الذي قاله حسين وقد تجمعت نفسها كدأبها الدائم واحتضنت كلتا ركبتيها، تلك القعدة التي كانت العائلة كلها على علم بها، بأن آمه خان اذا ما قعدت مثل تلك القعدة تعني أنها اصابت بالسول.

***

بعد ذهاب الاولاد ارتبكت العوائل مرة اخرى، وقد ازعجهم واقلقهم هم وقهر الذهاب إلى معارك القتال والوقع تحت رحمة قصف الطائرات ومواجهة قذائف

المدافع، بحيث اضطربت امورهم ونفد صبرهم، والا ان هذه المرة كانت أفضل لان اورمية كانت قريبة جدا من الحدود، ويكون الناس في ذهاب واياب يوميا إلى عندهم حاميلن الاخبار والرسائل من ابنائهم، اضافة إلى العوائل الكوردية القادمة من بغداد وكوردستان ومدنها إلى طهران للجوء في هذا المناخ المفضي إلى فصل الخريف في غمرة البرد والعاصفة، إلى ان بلغ الحال بالدولة الايرانية ان تنصب لهم على مقربة من المدن والبلدات الخيم او يدخلون عوائل من دار واحدة.

كانت الاخبار المفجعة والسيئة للهاربين تزداد أكثر فأكثر.

كان توّفه بعد أكل الفطور يخرج يوميا من البيت ويختفي أثره إلى قريب من المساء، ثم كان يعود إلى البيت حالا معه الاخبار والبرقيات حول عائلة من جاءت يوم أمس وعائلة أي كوردي في بغداد القت بهم الحكومة حفاة عراة بكل أفرادها في سيارة لوري وطردتهم وعائلة من ومن من معارفهم قد وصلوا؟ وها هم اربع عوائل معا في بيت من اسفل الشارع، وفي السوق رأى عائلة من عند الصائغ، وهو ذاهب في نجدتهم ولن يسمح للصائغ ان يخدعهم حيث كانوا يريدون بيع الذهب، ولمن حصل على الدار، ودل من على دكان الرز والتمن، واخيرا كان توّفه ينفخ تماما، وكان يقص هذه الاقوال والاحداث لعوائل حەپسەخان، واختها وعائلة والد بيستون والحاجيين، وقد استحال توّفه في وضع حتى حينما كان ينام ليلا كان يهذي بتلك الحوادث، وكانت تصبح فجأة ضجة وصخب وضحك الاولاد حيث كانوا ينامون معه في غرفة واحدة، وينهضون ويركضون، وكانوا يضحكون من بعيد خوفا من توّفه حين كانوا يسمعونه وهو نائم فيقول:

آقا اين خانه چند اطاقه؟ سيدي هذه الدار كم غرفة؟ اوكان يقول: تعالى يا شمسة خان لكي لا تدهسك السيارة، ثم كان يتشاجر في نومه، وكان يقلب نفسه على جنبه الآخر، كان يقول: غرفتان وايوان واحد، وكان بغتة يحول كلامه إلى الفارسية والكوردية، آغا ليكن لك شيء من الدين!

ايـن خـانوو زۆر گرانـه، ان هـذه الـدار غاليـة جـدا= سـاعدنا قلـيلا فـنحن منكوبون...كان توّفه يتكلم تلك الاقوال طوال الليل وكان دائما في جدال ونقاش، ولكن عند الصباح لم يكن يتجاسر أحد من الاولاد ان يقول ما حدث في حفلة

الليلة. لان توّفه كان له فم يأكلهم ويكذبهم أيضا، لذلك كان الاولاد يلوذون بالصمت المطبق نهارا، وكانوا ينتظرون بفارغ الصبر نوم توّفه وهذيانه وجعلوا فيمابينهم احتفالا وضحكا لاحد لهما، واضافة إلى ذلك، اطلعوا بنات ونساء البيت على ذلك. فكن بعض الاحيان يأتين بتلصص ويستممعن اليه وينفجرن بالضحك ويركضن ثانية إلى غرفهن.

دأب توّفه على ما يزعم انه يعرف الفارسية، حيث عاش في حينها في طهران فنصب نفسه دليلا لكل الذين كانوا يأتون كلاجئين، ولم يكن يهمه بأن يعرفهم اولا يعرفهم، وهو كان يدلهم الطريق ويأخذهم إلى الطبيب والمستشفى، وكان يذهب إلى عند الذين كانوا مسؤولين عن اللاجئين، وكان يلج يلج ويلح عليهم ولايفك ياقتهم، ويتملق لهم يخلط الكوردية بالفارسية والعربية لكي ينفذ امور الناس، يصدف أحيانا لم يكن يكتفي بلاجئي اورمية، فكنت تفاجئ بانه توجه إلى ساكني الخيم واطراف شنو وتلك المنطقة، وحين كان يعود مساء إلى البيت، كان تعبا منهوك القوى ومنهار المحيا، عندئذ اخذ يصدر الاوامر على حەپسەخان والاخرين، يا الله تعالوا آخذكم الى بيت حسن مام علي او اخذكم غدا إلى البيت شفيقة خان أو بيت شخص آخر، ثم كان يسلسل اسماء الناس والمعارف وكان يقول لحەپسەخان والاخريات، يا الله اذهبن غدا إلى عندهم للسؤال عن حالهم واحوالهم، واقامة الوليمة لهم، واستدعائهم اليكن، كانت حەپسەخان أو اختها وصبرية والاخريات يردن عليه، كانهن كن يقلن طيب والله نرغب كثيرا ان نذهب اليهن، ونعمل لهن ما استطعنا اليه سبيلا، ولكن هو ذلك فنحن ايضا مثلهن، ونحن نتطفل احدانا على الاخرى، لضيق وضعنا الاقتصادي، وقد تمرضت بعضنا.

كان توّفه يفتح فمه ويقول بشدة:

– كيف انتن مثلهن، انتن تنامن على المندر المريح، وقد جلبتن امتعتكن واشياءكن وحملتهن جميعا إلى هنا، لدرجة تتملكن حتى التلفزيون، ولكن ثمة منكوبا لا يمتلك طاسا ليشرب به الماء، وقد هرب دون ان يحمل شئيا، وكل ما تمكن ان يفعله انقذ عائلته، هو ذلك ذهبت مساء امس إلى بيت الخال ئاورحماننا، حشر المنكوبون جميعا في غرفة واحدة والغرف الاخرى، كانت كل

واحدة منها فيها عائلة، وحيث قالت لي خەجه خان ان الغرفة التي بجانبينا فيها عائلة الدكتور قادر، ذهبت إلى عتبة الدار لاسلم عليهم، اجابتني نازدار خان بخجل لفرط وضعها المتردي والمتهرئ مع اطفالها.

كان توّفه ينهي كلامه بانزعاج ويقول:

– اتعرفن ماذا كانت نازدارخان ترتدي، والله كانت مرتدية سترة الدكتور قادر، وقد شمرت عن ردن سترتها وقد اصبحت يداها وساعداها كمتورمتين، يبدو انها غسلت الملابس سب توّفه الحكومة شتائم مركزة مكثفة وقال:

– تعال (انظر) ان يكون ناس من أصحاب الحال والمال الجيدين مشردين اذلة بائسين، انكن تعرفن نازدار التي كانت مدللة محبوبة على أي مدى عند والديها، ثم في بيت زوجها، وكم من الناس كانوا يعملون لهم، بينما يحدث لها هكذا.

علقت صبرية قائلة:

– ثم ماذا في ذلك، لتذق مثل تلك الاشخاص قليلا مما تذوقه الاخريات ويتجرعن، كل تلك السنوات كان أمثال هؤلاء الناس مثل عائلة الدكتور قادر وغيره، منذ ان وجدوا ساكنين في بغداد يتمتعون بالسعادة والهناء، ولم يكن لهم قط احساس في يوم من الايام ان يقولوا: أجل أن الكورد الذين هم في غمار الثورة منذ سنين ويتجرعون العذاب والالام ونحن لنا علاقة معهم، ونحن ايضا من الكورد مثلهم، ان وضعنا الاقتصادي جيد طيب على الاقل ان نساعد في خفاء احد منكوبيهم

رفعت صبرية يدها وقالت بحرارة:

– ليكن هذا جزاؤهم، ليعرفوا حين تصل المسألة إلى الكورد والكوردايەتى، فالحكومة لا تميز بينهما، وبمجرد ورود ذكر الكورد فانها تريد القضاء عليه، هو ذلك انها لا تصفح حتى من امثال جواسيسها وعملائها، واخيرا تلدغهم لانهم من الكورد، حين سمعنا ماذا فعلوا بالاشخاص من الذين كانوا جواسيسهم وصنائعهم، حيث كانوا متقدمين جدا عندهم، حين انتفت الحاجة اليهم، فها سممهم، واضاعوا الاخرين دون اثر لوجودهم، وما يزال لا يعرف احد انهم محبوسون واسرى او ابيدوا.

نظر توّفه إلى صبرية بطرف عينيه شذرا ناريا وقال بدأت (ارسطو) باصدار البيانات مرة ثانية، انفجرت صبرية بالضحك وقالت:

_او اننا كابدنا وتجرعنا القليل؟ رأينا القليل من الحرب والخصام؟ وانت تبكي لاجل نازدار خان؟ ليست معها ملابس وترتدي سترة زوجها؟ وثم منكوب مرت الدبابة على ابنه المدلل في الخندق، مد توّفه يده إلى جيبه واخرج علبة سيجايره فوجه كلامها إلى صبرية اثناء اشعاله السيجارة وقال:

– طيب يا (مفتشة) تأمرين، ولكن أظن انك تتصورين فانت وحدك تعرف تلك الاقوال؟!

قالت آمه خان في نفسها:

– اواه، ثم من له جدارة وجسارة، اكثر منك، يا سيد المحلة.

مرت الاسابيع وتوالتها اسابيع، كان عدد اللاجئين الكورد يزداد تدريجيا، وقد كانت موجة البرد والزمهرير والشتاء بوجوهم العبوسة المقطبة اقضت مضاجعهم وضيقت عليهم الخناق اكثر فاكثر، علاوة على الاخبار السيئة المفجعة المؤلمة التي كانت تردهم من الوطن، اربكتبهم واطارت صوابهم على قدر آخر، وكانت وحشية وهمجية ولا اخلاقية الحكومة تتكشف وتنفضح اكثر، كالذي كان الخبر يصل فجأة بأن الحكومة قصفت جامعا في قلعةدزة كانت فيه اعداد هائلة من الطلبة الشباب المناضلين، وقد تعرض الجميع للاستشهاد والذي لم يمت لم تبق له يداه رجلاه وعيناه، وكذلك دمرت القرية الفلانية والقرية الفلانية بشكل لم تبق فيها حجرا على حجر.

وكيف انهالت على الكورد الفيليين في بغداد وقد قامت بمكافحة جميعهم ونهبت وسلبت وسرقت جيمع اموالهم واحوالهم التي كونوها خلال سنين واركبتهم سيارات اللوريات حفاة عراة وطردتهم وشردتهم من بغداد، ويشاع فجأة خبر بان الحكومة اعلنت العفو عن الذين يعودون، ارتبك الناس ثانية، كان البعض قد تذمر كثيرا من تلك الحالة ودون بيت وتحت الفسطاط (بيت الشعر) ذي عشرة اوتاد، وكانوا بمجرد سماع (العفو العام)، يتنشطون ويندفعون، بالله نلملم انفسنا الآن ونعود، لنمت من هناك افضل لنا من هذا التشرد، لقد مات اطفالنا جميعا من البرد هنا نحن كاننا غجر، هناك تركنا كل بيتنا ودارنا

وأشياءنا، لذلك وبعد صدور (قرار العفو) كان الذين يقولون ذلك، أخذوا في غضون ايام يهئيون انفسهم والذي كان غنيا، بدا يتسرع ان كان قادرا على الشراء، ان يشتري بعض الاشياء الايرانية، كالفرش والسماور والبلاسكو، وكان هناك اشخاص فيمابينهم، يفكر في البيع والربح وتلك الاشياء، وبينما كان فجأة يفتر حماسه ويقول:

– والله لأذهب وأسأل، ماذا تقول عائلة الشخص الفلاني، ثم كانوا يذهبون ويأتون ويأخذون بتوجيه السؤال والاستئناس بالرأي، وفي البيت كانت تدب بينهم المشاجرة مع افراد عوائلهم، هذا كان يقول اواه أي ذهاب واي عفو، فكيف تثقون بهؤلاء او نسيتم، حين عاد الناس في تلك المرة كانوا يفصلون النساء والرجال من اطفالهم وقد ضيعوا الكل ولحد الآن لا يعرف احد ماذا فعلوا بهم، وكذلك الذين كانوا يعودون، لقد وضعوا على الحدود جنود عرفاء معيديين بأن يفتشوا هؤلاء ويذلوهم ويهينوهم ويحكوا عليهم كلاما نابيا، ويركلوا ويرفسوا الرجال، كما ان الكوردي الذي كان عين وزيرا على حساب الثورة في بغداد وفي الايام الاخيرة حين تردت العلاقة بين الحكومة والكورد مجددا، واضطر هو ايضا ان يعود إلى كوردستان والثورة دون موافقة ورغبة، لانه كان يحب وظيفته كثيرا، وقد نفخ ونفش نفسه بها كثيرا، ثم بعد ان اصدرت الحكومة العفو، عاد هو قبل كل شخص، وعلى الحدود كان فيها الجنود والضباط الحكوميون، وحين يصل هو إلى المكان الذي يتسلمون فيه الناس، فان احد الجنود يأخذ له تحية عسكرية.

ان الرجل الكوردي الوزير المتندم يرد على تحيته ظانا منه ان هذه التحية كانت له، لان حضرته كان في حينه وزيرا، وحالما هو يرفع يده للتحية، كان ضابط عربي من ذلك الطرف يسبه سبا حارا ويدفعه ويقول له يا يا هكذا، هذه التحية كانت لي لا تتصور كانت لك.

ثم لماذا يفضح الإنسان نفسه، ويذهب ليعيش بالخسة والدناءة والمذلة والخنوع، والله ان نموت تحت اشواك واحراش مخابئ جبالنا افضل من الخنوع!! والاخر كان يقول، والله لا نبدل وطننا بجميع الدنيا، ولكن ها ان الكثيرين قد عبروا ونحن جئنا، وكان القصف والطائرات اشغلت واربكت عوائلنا

وهنا ايضا كأننا موظفون مرتزقة متطفلون، يجب ان تكون كافة تحركاتنا بأذن وسوال الدولة، وهنا اصبح رجال جهاز الساواك اسيادنا، يجب ان نتصرف حسب رغبتهم وبموافقتهم وببطاقاتهم واوراقهم، واخيرا تصل هذه الحالة إلى ان الجميع كانوا يتراجعون ويندمون، ولم يكن يتجرأ احد ان يثق بذلك (العفو) ومع ذلك كان البعض يعودون بشكل فردي أو الذين لم تكن عليهم خطورة كثيرة، كان هؤلاء يعودون بأنفهسم وكانت تمر مدة طويلة يظهرون ثانية، على ما يظن ذهبوا وحققوا شؤونهم وضموا ووطدوا اشياءهم وها قد عادوا وكان أمثال هؤلاء الاشخاص حين كانوا يعودون، كان الناس ينظرون اليهم نظرة ارتياب، ويشككون فيهم، وكانوا يتهامسون فيما بينهم وكان هذا يقول لذلك:

– الله لا يؤاخذني، والله يحتمل انه عاد للتجسس، واعطته الحكومة النقود وارسلت مجددا إلى صفوفنا. وكانت ثمة عوائل واشخاص من بين الثورة، كانوا يعيشون في مختلف التحولات والظروف في منتهى الرفاهية، وكان من نصيبهم ارقى مكان ومنصب واللقمة السائغة الدسمة، لدرجة ان عوائل القادة الاكابر في الثورة، بكلا جناحيهما لم يبلغوا حد يوم واحد وساعة واحدة من رفاهيتم واستراحتهم، بعكس عوائل القادة المشاهير للثورة الذين كانوا دائما يكابدون التعاسة والشقاء وعدم الاستقرار والامان ويعانون التعب والاعياء والتشرد، ولكن امثال هؤلاء الاشخصاص والانتهازيين المأجورين لعدد من الجهات كانوا دائما في بحبوحة العيش.

مثل الناس المنكوبين المشردين فان عوائل اقحمت في غرفة واحدة دون بيت وحال، كانوا في عمل دائب وجهد للحصول على طبيب لمعالجة مرض خطير، في حين أن امثال الاشخاص الآخرين كانوا ينزلون في ارقى فنادق طهران بحجة وجع الاسنان، او فحصه من قبل طبيب، ثم كانوا يتمتعون بتلك الحجة بالراحة حيث ان قيمة فنجان من القهوة تعادل اكل عائلة.

كانوا يتمتعون بالراحة والاستجمام في تلك الفنادق، وكان اطفالهم يتراكضون نحو هذا الطرف وذلك الطرف، وكانت يوميا تشرب عشرات الاكواب من القهوة واقداح العصير اضافة إلى اكل ايس كريم ومن امثال تلك المشروبات والمأكولات والتي كانت تبعثر وتسكب على حساب الكورد وكوردستان ودماء الشهداء، في

حين لم تكن لهم علاقة شر ونقير بأي شيء، أكثر من منافعهم ومكاسبهم الخاصة، بينما كان امثال هؤلاء الاشخاص عند القادة المشاهير للثورة في مراكز الصدارة.

بدأت الزيارات بين عوائل حەپسەخان واختها وعائلة والد بيستون مع عوائل اللاجئين الآخرين من الاقارب والمعارف والاصدقاء ولولا الظروف غير المناسبة والاحداث المفجعة وهموم ابنائن لكانت عندهن (اورمية) طيبة جدا، خاصة حين كانت مدينة مريحة جدا ونظيفة وخلابة، اضافة إلى توافر الاكل والمأكولات والخضروات والفواكه الفاخرة جدا فيها، وكلذك وجود الحمام السوقي النظيف جدا والحار قرب بيت حەپسەخان، والآخرين في كل محلة، لذلك سرعان ما كانت العوائل تذهب اليها ولو ان ناس واصحاب دكاكين السوق في هذه المدينة كانوا كثيري التغزل والبصبصة وزير النساء، وكلما كانت روناك وصبرية ونەسرين ونەوبەرهار واختا بيستون سەرگول وبەگول يذهبن إلى السوق او مكان كن يرجعن إلى البيت ولا تكف السنتهن عن الشتم والسباب لفرط ما كان الرجال في السوق يغازولنهم، ومع ذلك كان توڤه ورجل ورجلان يرافقونهم دائما، ذهبت آمه خان في احد الايام الحمام الى القريب من البيت، وحين عادت بعجلة وارتباك ودخلت البيت، استقبلها جميع الافراد في البيت وقالوا، ماذا خيرا؟

قال زوجها كاكه حاجي بلهفة:

– من أين اشرقت الشمس؟ حيث اراك فرحة وتضحكين؟

القت آمه خان نفسها على كرسي واخرجت صرة ملابسها من تحت ابطها، ونزعت عباءتها، وقالت اثناء ما كانت تضحك.

– اذن يا بنات لماذا تلمن انفسكن حين تذهبن إلى السوق وتقلن ان رجال هذه المدينة متغازلون جدا، كاد الرجال من أصحاب الدكاكين التي بجانب الحمام ان يأكلوني حين خرجت من الحمام، لفرط ما قالوا لي آه واف، وقد اوصلت نفسي إلى البيت راكضة، وماذا انتن تفعلن.

لطمت آمه خان صدرها وقالت:

– وي معاذ الله، كانهم لم يشاهدوا النساء ابدا، بينما كل تلك البنات المرتديات البانطول في الشوارع يسرحن ويمرحن. بدأ الجميع مرة واحدة بالضحك، وقال كل واحد كلاما نظر بهختيار إلى امه وقال:

– لماذا لا ينظرون اليك ولايقولون لك ذلك، خرجت من الحمام جميلة وسيمة مرتدية كل تلك الملابس الكوردية الفاتنة، بشدة الرأس والكراكيش، اذن لماذا لا يفعلون لك كذلك؟!

استلقت آمه خان على ظهرها وقالت ضاحكة:

– اواه الا تنظرون إلى هذا الكافر، ماذا يقول لي، ابني كان معظم هؤلاء من عمرك حين كانوا يقولون لي هكذا ضحك بهختيار وقال:

– هم لا يهمهم ذلك، يشاهدون امرأة مرتدية ملابس فاخرة، خرجت من الحمام بسيماء جميل فاتن.

انتفضت آمه خان فجاة وقالت...

– فداكم روحي ليذهب احد منكم، فان اختي حهپسهخان قد انهت الاستحمام الآن، والله لو تخرج هي من الحمام فيضايقونها تماما، وانتم تعرفونها، والله يحتمل ان تنزع حذاءها لهم وتحدث المشاجرة وننفضح، إلى ان قالت آمه خان هكذا، ذهبت روناك ونهسرين نحو عباءتهما، لاقتفاء أثرها.

قال كاكه حاجي باسما:

– اشهد بالله تذهب حارستان جيدتان في اقتناء أثرها علق توّفه قائلا:

– لا ضير، انا أيضا اذهب واقف امام الدكان، بحجة شراء الاشياء إلى ان يخرجن.

هز بهختيار رأسه وقال في نفسه:

– هكذا، اذن والله لذلك يذهب توّفه إلى تلك الدكاكين لشراء الاشياء ويقول لي والابناء كل مرة، اذهب إلى تلك الدكاكين اليس لكم شغل؟!

اخفى بهختيار ضحكته خوفا من توّفه، وقال في نفسه:

– لذلك يذهب سريعا سريعا، أثاري للتفرج على النساء والبنات الخارجات من الحمام، اذن لماذا ننحي باللائمة على الابناء المراهقين، اذا كان هذا الادرد يفعل ذلك.

كان بەختيار نفسه شابا بريئا مخلصا للكورد ومناضلا أمينا، لم يتخيل في يوم من الايام طيلة كل هذه المدة وكان الحمام قريبا من بيتهم، وفي هذا المستوى من المراهقة والطفولية، بان تخرج كل تلك النساء والبنات النظيفات والفاتنات ذات الوجوه الحمامية، ان يخرج من البيت، إلى ان كشفت آمه خان ذلك وهو أيضا ذهب إلى الدكاكين التي يقف عندها توّفه، وما عدا كورديتي والكفاح العنيد لـ(بەختيار) لم يكن بمقدور أي شيء آخر يحتل دماغه وقلبه.

ولو انه كشاب مراهق وحتى اذا ما جلبت بعض نظره فتاة أو جميلة في الشارع او من بين العوائل الكوردية من معارفهم واقاربهم لكنه سرعان ما يخجل من قراره نفسه، وكان يبدأ بتوجيه العتاب إلى نفسه ويقول ليس الآن اوانه، ان حبيبتي الآن ومحبوبتي القديمة هي كوردستان وحدها وكفى.

***

هكذا مر الشتاء على عشيرة حەپسەخان والناس اللاجئين هكذا، وقد حل الربيع ايضا بأزهار وورود وجباله الخضراء والخلابة الجذابة، في ذلك الحين شاع خبر بان حكومة بغداد منهمكة بالمصالحة مع شاه ايران، وينون تبادل الوفود، والمباشرة بالمفاوضات.

بدأ الهرج والمرج والتسرع والجلبة والفوضى، من هذا إلى ان ذلك وبين القوات المسلحة ومسؤولي الثورة واللاجئين الكورد من كل جهة فسرعان ما انهار البعض بذلك الكلام وثبطت عزائمهم وهممهم وارتخت ايديهم ولم تعد تمسك السلاح.

لم يبال بعض الآخرين خاصة الشباب المتحمسين والطلاب وأصحاب الارادة القوية، وقالوا ما شأننا بهم، يشاء الله يتعانقون، لم نشعل الثورة لا لاجل شاه ايران ولا للحكومة العراقية، نحن الذين لجأنا إلى تلك الجبال، وضحينا بارواحنا واموالها في سبيل هذه الثورة، نطالب بحقنا المسلوب، الآن انهم يتصالحون معا، لاشأن لنا في ذلك، وكان من بينهم أيضا يندفع ويرد على اولئك المتحمسين بعصبية ويقول:

_أخي ابي كيف لا شأن لنا باتفاقهم ومصالحتهم، انتم تقولون كلاما طيبا، اذا ماتفق هؤلاء، يكون اول كلام للعراق هو الطلب من ايران باغلاق الحدود

بوجهنا، وربما يقول لهم تسليم جميع الذين هم في جهتهم، عليه اذا ما اغلقوا لنا الحدود، عندئذ تقضي حكومة بغداد على جميعنا بسهولة.

كان المتحمسون وذوو المعنويات العالية أيضا يستشيطون غضبا ويتحدون المستحيلات، ويقولون لماذا هل الحدود باب حتى يغلقوه؟ ثمة الف ثغرة من الف جهة، ثم لا يعقل بأي شكل من الاشكال ان يتفق كلا النظامين اتفاقا جديا، ويثق احدهما بالآخر. وبعد ذلك ليكن هكذا، فلماذا فنحن منذ سنتين ناضلنا وخضنا معارك معترك الكفاح المسلح، بسواعد ابناء كوردستان انفسهم دون ظهير ونصير لشعبنا الفقير المعدم، وان الذي يطالب بحقه المسلوب بثقة وايمان لا يفكر في مساعدة وحدور احد، وحين فتحت تلك الحدود كانت لمصالحهم، والا لو ان شاه ايران صادق معنا ويحسن الينا، فليحسن قليلا مع كورده ويسمح لهم على اقل تقدير ان يتعلموا بلغتهم.

والى الآن اذا ما تكلم كوردي ايراني مع احد لاجئينا أو تكون له علاقة فان ساواك يلقي القبض عليه بزجه في السجون ويضيعه.

***

لقد ارتبك الناس وقلقوا مدة من الزمن بهذه الضجة، واخذت الاخبار تدريجيا تزداد، وكانت اذاعاتهم وتلفزيوناتهم المحلية والعالمية وتتناولها، إلى ان كاد ان ينتهي الربيع اخذ حكام العراق مع شاه ايران بالمصافحة والمعانقة وتبادل الزيارات.

لقد تهيج قادة الثورة بهذا الخبر تماما، وارتبكت قوة الپێشمەرگە، وانهارت معنوياتهم وتعاجزوا، بعد ان سمعوا بأن رئيس الثورة اتخذ قرارا بالتخلي عن حمل السلاح ويجب على كل شخص ان يجلس في بيته، ويعبر الجميع نحو جهة ايران ليصبحوا هناك لاجئين، يعيلهم شاه ايران، خاصة حين كانت الحكومة العراقية تصدر العفو والصفح تدريجيا وتباعا للكورد المغرر بهم زعما، والذين لا يرغبون ان يبقوا في ايران او يعودوا إلى العراق، فبأمكانهم ان يذهبوا إلى البلدان الاخرى واوروبا وامريكا وتلك المناطق، كان معظم الپێشمەرگە يلطمون رؤوسهم، وكانوا يجهشون بالبكاء مثل النساء ويقولون ابتاه، وكان من بينهم عناصر يحرقون بنادقهم وكانوا يقولون لا يجوز ان اسلم سلاحي إلى يد شخص

آخر، ولا يجوز ان اجرد من السلاح، وكان آخرون يهيمون على وجودهم في الجبال والبراري والصحاري، كانت النساء يبكين والرجال يبكون، كأن الجميع اصيبوا بفاجعة، وقد مات احب الاشخاص اليهم، وكان من بينهم يضرب على رأسه ويقول:

– أخي خاطر الله، يا عالم يادنيا، كيف اتخلى انا عن السلاح، واكون تحت هيمنة ورحمة ساواك اعتاش على منتهم وفضلهم لماذا؟ لاجل أي شيء؟

وكان الامر يصدر على انه يجب على الجميع التخلي عن السلاح ويتفرقوا، وأخيرا انتهى كل شيء ولم نتمكن ان نفعل أي شيء!!

وناس آخرون كانوا يضربون انفسهم ويقولون...

– أخي ابي، اذا انتم خارت قواكم، ولا تتمكنون ان تفعلوا أي شيء، دعونا وشاننا، فنحن ننهمك لعل وعسى ان نتمكن نحن.

وكان يصدر لهم الامر ثانية بان الذي يخوض الكفاح المسلح على مسؤوليته وقناعته ويبقى في الجبل، لابد من مطاردتهم وانزال العقاب بهم.

حتى ان شاه ايران نفسه لم يحبذ هذا الانهيار للكورد وقد اخبر بعض الناس المعروفين في الخفاء بان:

ما شأنكم على الاتفاق بيننا، كونوا انتم مستمرين ولا تتخلوا عن ثورتكم، ونحن نساعدكم ما نستطيع اليه سبيلا بشكل مخفي، ونحن قدر تمكننا نساعدهم في خفاء، ومنذ الآن سنرسل لكم ما تحتاجون اليه.

ان بعض الكورد المناضلين والمخلصين للكورد الذين كانوا خارج الوطن وتلك الاماكن، كانوا يرسلون الرسائل والخبر لمسؤولي الثورة، بانه خاطر الله لا تتخلوا عن الثورة، نحن هنا نستجدي الاكف ونتوسل من الدنيا، ونضحي بأرواحنا من اجل الثورة، ولكن دون جدوى، ولم يكن للكلام والتدابير أي تأثير، وقد سادت الصعوبة والارتباك بين الناس، لقد تفرق الجميع مهمومين مكتئبين عاجزين دامعي العيون، لقد ضاقت الدنيا عند عائلة حەپسەخان واختها والاخرين، كانوا دائما في جلبة واضطراب وجدال وذرف الدموع، كانت بيوتهم مع بيوت اللاجئين الآخرين تكتظ بالپێشمەرگە والناس واهلهم واقاربهم الذين كانوا يأتون من جهة العراق مرتبكين خالي الوفاض خائبين، ويذهبون، يحدوهم

الآمل لعلهم مع علي وشيروان والابناء الآخرين، يجتمعون لايجاد حل لفاجعتهم، كان يصادف احيانا انهم كانوا يعقدون الاجتماعات إلى منتصف الليل ونحو الصباح، ثم كان الجميع يتداعون ويستسلمون للنوم بشكل مشتت ومبعثر كل في مكانه يغطي جسمه بشئ.

وفي الصباح المبكر كانوا يستيقظون من النوم بسرعة ويشربون شايا، وتحدث الفوضى والضوضاء جراء فتح وسد ابواب سيارات الجيب اللاندروفر، وكانوا يقتفون آثار احدهم للاخر ويتوجهون إلى بيت آخر، أو مكان آخر. أو قرية اخرى، وذلك لنفس الغرض، وايجاد علاج والبحث عن وميض أمل، بعد ذهاب هؤلاء، كان افراد البيت ايضا يتضايقون، وكانوا يجلسون منقبضي القلوب مكتوفي الايدي وكان كل واحد يتكلم كلاما، لقد انغلقت قلوب حاجي مجيد واخيه كاكه حاجي ووالد بيستون تماما، وما كانوا يستسيغون الاكل بسبب هذا الوضع وماحدث، يصادف احيانا لم يكن تؤفه يعود إلى البيت حتى في الليل، وحين كان يعود تبدو على سيمائه الكآبة والحزن والملالة والمضايقة لذلك لم يكن احد يتجاسر ان يتكلم معه.

كانت صبرية في ذهاب واياب وتقول..

– اه ايها الكوردي البائس الضائع الجهد، ولكن كيف يكون كذلك ويمكن؟ قد يكون غريبا عجيبا ان يتخلى كل هؤلاء المناضلين الثوريين الذين بذلوا منذ سنوات ارواحهم في سبيل الكورديەتى وهذا الدرب المشرف، ويجلسوا مهمومين فالتفتت إلى والدها وعمها والاخرين، وكانت تقول بايمان وارادة عالية قوية:

– ابي العزيز عمي العزيز، كفاكما الحزن، ان هذا الشأن فجائي آني، تريان بغته الآن قد اندلعت في مكان آخر الثورة والكفاح، واستؤنفت، فلا تثقوا بهذا التشتت والتبعثر، هذه ثورة شعب، وليست لاشخاص ليقولوا انها انتهت لا نستطيع ان نفعل ويجلسوا، فالشعب يبقى دائما، ولابد ان تنبع الثورة مجددا ليست اليوم بل غدا، وليست غدا انما ستة أشهر اخرى، لذلك لا تزعجا انفسكما.

كان صبرية تعزز دائما قلبها وترفع من معنوياتها، وتشارك عواطف عائلتهم وافراد البيت والذين كانوا ياتون اليهم، وكانت تتكلم في اكثر المرات افضل واعلى من الرجال وجميع الاولاد، وتدخل الامل في نفوسهم.

***

كيفما كان اسوة بكل النكبات والمصائب المفجعة المؤلمة، اضطر الناس ان يتعودوا ويتكيفوا بهذا الحدث ايضا وهدأت اعصابهم، وأخذ كل شخص يقوم بترتيب المعيشة والادارة، فمنهم من حمل اثاث بيته من الفرش والسجاد في البيكاب والقلابة وارسلها إلى جهة العراق وهو أيضا اخذ سبيله مع عائلته واطفاله، خاصة عندما علموا بانهم لا يؤذون احدا هذه المرة.

ان جميع الذين عادوا إلى حالهم واحوالهم، بعد بعض الاسئلة وأخذ ورد ومراجعة دائرة الامن، والتعهد بأنهم من الآن فصاعدا يكونون عائدين ويصبحون (مواطنين صالحين) ولا يقومون بأية حركة ويركنون إلى الهدوء والوداعة.

لقد انتشر وتشتت القسم الكبير من اللاجئين وقادتهم في ايران، وقد هيء لهم محل الاقامة من قبل الساواك، وادخلوا في دور مريحة ذات طوابق.

قسم آخر خطرت ببالهم فكرة التوجهة إلى أمريكا واوروبا، خاصة الذين لم يستطيعوا البقاء في ايران والعودة الى العراق، والذين كانوا يرغبون في ذلك، ان يكملوا دراستهم او العوائل التي كان فيهم الشباب.

والاخر الذي اراد ان يحصل هذا الحدث حجة للبلدان لو لم يكن هذا الحدث، لكان في الحلم ان يرى امريكا والسويد ولندن وتلك البلدان، والآن اصبح هبة من الله، تدفع له اجرة الطائرة، وتلك البلدان تتعامل مع هؤلاء كلاجئين، اذن فلماذا لن يذهبوا؟!

واخيرا دبت ضجة وفوضى وتنقل واصطفاف امام دوائر ساواك لتنفيذ اشغالهم وارسالهم الى الخارج.

والكثير من الناس وزعت عليهم الخيرات والبركات، بعد ان جرت تصفية حسابات الثورة، ومنهم استطاع ان ينجو بنفسه بحقيبة عامرة مملوءة بالنقود وقال:

– هذا ايضا من نصيبي.

وكان كثير من الكورد المخلصين المناضلين والمعروفين في هذا الوقت من الذين ابتعدوا عن التطفل والكسب غير المشروع، يتجولون مهمومين مكتئبين مفلسين مع عدد غير قليل من اطفالهم في ازقة ايران، يستدينون من هذا وذالك ويبيعون حاجياتهم لاعالة اطفالهم وايجاد حل لمصيرهم.

اخذت عشيرة حەپسەخان والاخرين ايضا تفكر وتدبر، ماذا يفعلون؟ هل يبقون هنا دائما، والتوجه إلى جهة العراق، انه لايمكن العودة ابدا، لان ابناءهم اتخذوا مع رفاقهم والناس المخلصين لهم قرارهم، بعدم التخلي عن حمل السلاح واللجوء إلى تلك الجبال واستئناف القتال ثانية.

فليكن ما يكن، وبدأ بعض الاشخاص بشكل سري وهادئ بتردد خبر وكلام على الالسن والتهامس وبعد كلام وتدبير الليالي والايام والاسابيع، توصلوا إلى قرار مفاده ان تتوجه النساء مع كلا الحاجيين وبەختيار وتۆفه إلى اوربا كلاجئين، اذا كانت المسألة لجوءا، لماذا يسكن المرء في ايران وهناك يأخذ العطايا والمساعدات بشكل متقطع ويكون تحت رحمة ساواك، لمذا لا يذهب إلى الدول الاوروبية الانسانية، يعيش حرا تحت ظل القانون والديمقراطية دون خوف ووجل من هذا الطرف وذلك الطرف، وفي أي وقت اراد وكان له مجال يعود إلى وطنه بشقلبة!!.

لان والد بيستون صاحب عائلة كبيرة، ارادوا البقاء مؤقتا في اورمية، إلى مدة أخرى، ثم يفكرون في مكان آخر. خاصة بعد ان قررت عشيرة حەپسەخانالبقاء في اورمية، إلى مدة اخرى ثم يفكرون في مكان آخر، خاصة بعد ان قررت عشيرة حەپسەخان واختها التوجه إلى اوروبا، وهم قالوا، اذهبوا انتم اولا لتعرفوا طبيعة الحياة هناك، والى تلك المدن ان لم يفتح لنا الله بابا، حيئذ نضطر نحن أيضا ان نأتي.

كان كلا الحاجيين يضرب يدا بيد، هو كان يقول والاخر كان يردد، كان هذا يقول:

– اخي كيف نتمكن ان نعيش في تلك البلاد، متى نحن تعودنا على مكانهم، نحن لا نعرف اللغة ونبتعد كثيرا عن بلادنا، هنا مهما يكن فالمرء له الصبر

والسلوان، تلك حاجي ئۆمەران تبتعد عنها خطوة واحدة، وكان الآخر يجيبه ويقول:

– أخي العزيز انسيت بيت طهران، كنا كالسجين والاسير، كانت حتى زياراتنا للاطباء تحسب كلهابحساب، كنا اذلة عاجزين اصبحنا تحت رحمة ساواك، والان يقولون لانهم متفقون مع الحكومة العراقية، لا يجوز لأحد ان يتحرك هنا لانهم يقولون ان العراق يضغط علينا ويقولون ان بعض اللاجئين بدأوا بنشاطات وزيارة البلدان القريبة، كما ان الايرانيين يقولون نحن نقدم لكم جميع الخدمات والمصاريف لكن لا يجوز لكم الخروج من ايران والعودة اليها وممارسة النشاطات السياسية، فكيف يرضى ابناؤنا بهذا القرار، فهم يصابون بالجنون دفعة واحدة او بعد الشر عنهم ينتحرون لذلك يجب ان نذهب، وهم ايضا يذهبون حسب عملهم ومهامهم.

كانت حەپسەخان تقرب نفسها وتقول:

– والله انا لا اصل إلى أي مكان، انا الان هنا، كان الاولاد من تلك الجهة بعيدين عنا ساعات كدت ان اجن، لقد حرمت على نفسي الماء والاكل، كما يقولون ان ابتعد عنهم ساعات بالطائرة لا اعرف اخبارهم، اذن قل موتي دفعة واحدة وانتهى.

كانت اختها آمه خان التي تفزع من اسم وذكر الطائرة، شددت راسها بعصابة وكورت نفسها، وتقول يا اختي والله والله مجرد ان ضع قدمي في الطائرة تنخلع روحي حالا، اعوذ بالله كيف اتجاسر ان ادخل هذه الدار الحديدية، لا، لا فداكم روحي لا تدخلوا اسمي، انا ابقى بنفسي في هذه المدينة، وكانت بنتها نەسرين رغم انها منقبضة القلب وكانت دائما غاصة البلعوم بسبب البكاء وعلى أثر زوجها حسين واخويها وابناء عمتها واهلها، كانت تعرف ماذا يفعلون وان الطريق الذي يسلكونه ليس سهلا ميسورا كما يتصور، يقولون وكيف يمكنهم الابتعاد عنهم هكذا، الله اعلم هل يمكننا ان نراهم مرة اخرى ام لا؟! ومع ذلك كانت تواسي امها وعمتها وتشارك عاطفتهما وتمزح وتقول:

– اواه يا امي ما هذه الاقوال؟ أي خوف من الطائرة، ان الطائرة اكثر سلامة من السيارة، كانت تحكي لهم الموضوعات التي قرأتها في حينها في كتاب، كانت تتحدث عن الطائرات التي تحلق يوميا الآف الامتار في السماء وتهبط في المدن، تقوم بنقل المسافرين، كان توّفه كمجنون يحسد الذين اتخذوا قرار السفر وجرت موافقة قبولهم في البلدان واخذت لهم تذاكر الطائرة، الموضوع منصب تماما على امريكا ولندن لذلك كلما كان يعود إلى البيت، كان يذكر الاشخاص الذين يسافرون او بعد غد، ومن منهم يتوجه الى البلاد.

***

هيأت العشيرة ايضا نفسها، والتقطت الصور للجواز المزور والاوراق والبطاقات، للسماح بالسفر، وهم اخذوا يتحركون لاكمال معاملاتهم، وقد وقع القسم الاعظم من هذه الامور على عاتق بەختيار، وكان توّفه يقعس صدره ويذهب معه، حين كانا يعودان مساء إلى البيت، ينفتح توّفه كالراديو وكان يذكر للجماعة ما فعل اليوم، وكيف انجز عمل اسبوع خلال ساعتين وكان بەختيار يهز راسه له ويلمس رقبته بان جميع اقوال توّفه صحيحة كنقش على الحجر لقد مضت ثلاثة اربعة اشهر إلى ان انجزت معاملاتهم، وتهيأوا للسفر، حين اقترب موعد الرحيل، وانقبضت قلوب العائلة جميعا تورمت واحمرت عيونهم من كثرة البكاء، تحلقن ليلا مع رجالهن بقلوب كسيرة مملوءة بالحزن والهم، وكان الجميع يرغبون لو تطول تلك الليلة قدر سنة ودون ان تنجلي ابدا، لكي لا يتم الافتراق والانفصال بين الامهات والاباء وابنائهم المدللين والزوجة والزوج العاشق المعلقين قلبا وقالبا معا والطفل الرضيع الحبيب ودلالهم و دلعهم في الاحضان الدافئة بالسكينة والاطمئنان. ولكن واخيرا سرعان ما طلع النهار، وقد تهيأ كل هؤلاء الاحبة بان يتوجه كل واحد منهم، اضطرارا وبحكم الظروف اللامناسبة،و المعاكسة إلى جهة ما دون رغبة وتعلق القلب بها وبأيدي مرتعشة ومرتجفة ان يتوادعوا و ويتفارقوا.

لقد وصل ريبوار والمودع إلى مطار ميهراباد في طهران، فبدلت العائلة ملابسهم حسب الامكانية وقد جعلوا اطفالهم الصغار مرتبين نظيفين، ارتدت روناك، صبرية، نەسرين، نەوبەهار، ملابس الموضة ولو انهن كن يلبسن ملابس

المودة في السليمانية وبغداد، ولكن كان ذلك اليوم هو أول مرة في حياتهن يلبسن مثل تلك الازياء، وكن يشبهن ريفيات لبسن ملابس الموضة وارغمن على ارتداء تلك الازياء لذلك تبين انهن منزعجات وكن دائما يمررن ايديهن نحو سيقانهن واذرعهن ويسحبن اثوابهن استحياء، وكانت آمه خان وحەپسەخان في ملابسهما الكوردية، فكانتا مرتديتين الصاية والحرملة معتمرتين الوشاح الابيض الجميل وكانت شدة راسهما وكراكيشهما البادية تحت الوشاح تجلب انظار الناس، فكانت كلتا الاختين على قدر من البهاء واللياقة، خاصة حەپسەخان، وكلا الحاجيين رغم محاولة الابناء معهما الا انهما لم يوافقها وقالا لونذهب إلى اقصى العالم فلابد ان نذهب بزينا الشعبي كما ان تۆفه اشترى بدلة من الملابس الافندية (الرسمية) في دكان بالة (لنكة) وقد لبسها، كانت سترته منقطة على شكل مربعات كبيرة، ولو ان آمه خان انخلعت روحها خوفا من الطائرة لكن ركبها الجميع بسرعة ولم يتوقف النشيج والبكاء وكانت الدموع تنهمر من عينيها كالميزاب من أثر وتأثير أبنائها وابناء اختها وصهرها الذين كانوا يتخلفون ولم تكن تعرف بعد سفرهن إلى اين يتوجهون وماذا يحل بهم، ورغم تلك الحالة نخست اختها حەپسه خان وقالت:

– ان هذا الملعون لم يجد في السوق اكثر من هذه السترة كأنها صنعت من بطانية فتاح باشا، اواه اصبح بها عبرة، كانه الفروج المائي المعرى، فان الملابس الكردية تضفي على الانسان الهيئة والوقار واللياقة، انظري ما طرأ عليه بهذه السترة والبنطلون واللباس ذي ساقي الدغل كأنه طير الحمام الملبوس وكانت بەختيار دليلهم ومرشدهم وحامل الحقيبة والجواز واوراق السماح، وهو كذلك ارتدى بشكل جميل، بدلة منتظمة مرتبة بسيطة، وكانت تليق به جدا خاصة هو كان فتى مديد القامة خفيف الدم.

في صالة المطار نودى بالمايكروفون على مسافري طائرة بان امريكان التي كانت تتجه إلى الشام ومنها تطير بعد ساعات الى السويد، قام الجماعة فسلموا اصرهم وحقائبهم وأكياسهن، فتهافتوا على احبائهم، احدهم مع الآخر وسط الآه والانين والدموع السخينة والتنهد مع نداء الروح والتوسل حول تبادل المعلومات عن سلامة احدهم للآخر، وقد اختلطت الدندنة والكلام غير الواضح

كهذيان المريض جميعا، هكذا تفارقت عوائل حەپسەخان واختها بناتهم وأصهارهم.

لقد تتبعت العوائل واقتفت احداهن آثار الآخرى واختلطت مع الناس نحو امام الطائرة، وقد عاد الابناء مهمومين نحو سياراتهم، وأخذوا بالسير إلى مكانهم، أخذت حەپسەخان واختها بقراءة آية الكرسي والنفخ. لقد تقدم به ختيار وكان تؤفة من ورائهم، وأحيانا كان يستعجل ويدفع بالناس، وقد نخس نخستين ثلاثة خلسة بطن هذا وذلك. لقد وقفت المضيفات والمضيفون أمام باب الطائرة، يرحبون بالناس ويرحبون بالانكليزية بالمسافرين.

كانوا يأخذون منهم بطاقات السفر، ويدلون كل شخص على مقعده، كان تؤفة يقف أمامهم، ويقول لهم يجب ان نكون قريبين احدنا عن الآخر.

التفتت اليه بەختيار مرتبكا وقال...

– اخي العزيز، لا تقطع أولا طريق الناس، ان بطاقة كل شخص كتب عليها رقم مقعده، كان عدد المسافرين هائلا وكانت الطائرة من نوع جامبو، وكيفما يكن اخذ الكل مقاعدهم، كان كلا الحاجيين وتؤفه وبەختيار جنبا لى جنب الآخر فاربعتهم كانوا في الصف المتوسط العريض، واقعدوا البنات في الصف الامامي لانه معهن أطفال. كانت آمه خان واختها معا، في الصف الوسطاني خلف البنات، وقد جلست إلى جانبيهما امرأتان امريكيتان مرتدتين البنطلون ولابستين المناظر، كانت الصفوف ذات اربعة مقاعد، بينما كانت آمه خان على وشك الجلوس همست في أذن اختها وقالت:

– وي، معاذ الله، وأبتاه، فالمقاعد والاماكن على قدر من الضيق كأنها لا تدخلها أحد، يا مرقد الرسول (ص) مدد يا شاه النقشبندي، ربي مدد، كيف تطير هذه الدار الضخمة بجميع هؤلاء الناس والامتعة والحقائب الثقيلة في السماء، وكانت اختها حەپسەخان أسوأ منها لكنها لم تفصح عنه، وكانت تشارك عاطفة آمه خان وتقول:

– لا تكترثي فان حالنا كحال كل هؤلاء الناس، فالاجل بيد الله، ومن جاء اجله يموت ولو كان على فراشه، لذلك تمالكي نفسك واستقوي قلبك قليلا،

وانظري إلى كل هؤلاء الناس المتنوعين، واعرفي بأن تلك الفتيات المضيفات اللاتي يقمن الناس ويشتغلن الآن، اجملهن وارقهن واخفهن دما.

بدأ صرير شد الاحزمة، ولم يدم الوقت طويلا مع صوت جرس خفيف وفجائي اشعلت الكتابة امامهم، كتبت احداهما شد الحزام، والاخرى كتبت لا تدخن.

لذلك نبه بەختيار توّفه بعد ابيه وعمه، واطل برأسه نحو امه والبنات وقال لهن، أيضا ما يفعلن، ولو ان البنات كن متعلمات وكن يعرفن الانكليزية، لكنها كانت عملا صعبا عندهن، لانه كانت لاول مرة في حياتهن يركبن الطائرة، انبثق الهدير والدوي من الطائرة وبدأت تتحرك، واخذت اثنتان من المضيفات احداهما من هذا الطرف والاخرى من الطرف الآخر بتوجيه الركاب، اخذتا تؤشران إلى الابواب وموضوع قناع الاوكسجين الذي هو تحت رؤوسكم، وفي اثناء الضرورة مظلة الانقاذ ومن هناك اركضوا إلى الخارج، يبدو ان الكلام كان بالانكليزية ثم بالفارسية، لان معظم الركاب كانوا من الايرانيين.

فهم توّفه من الفارسية قليلا، كما ان بەختيار ربط بين قليل من الانكليزية والفارسية معا عرف ماذا تقول المضيفة.

لقد شكر بەختيار الله وقال:

– وي، الحمد لله بأن عمتي وامي لا تفهمان ماذا تقول المضيفات والا والله كانتا ترميان بأنفسهما في الطائرة خوفا. بدأت البنات ايضا فيما بينهن بالدندنة، وهن أيضا شكرن الله بأن امهن وعمتهن ما كانتا منتبهتين إلى تلك التوجيهات المخيفة المروعة.

قالت صبرية هامسة:

– واه سلمتهما إلى الله، فان توجيهاتهما تخوف الناس، الصقت صبرية رأس طفلها بصدرها وقالت بخوف ضمني:

– وي ماتت امك، وقالت ايضا في قلبها:

ان كل هؤلاء الناس وبكل هؤلاء الأطفال المحبوبين الابرياء ركبوا هذا التنين، وقد وضعوا جميعا أرواحهم على اكفهم وسلموا مصيرهم وقدرهم إلى الله.

كانت صبرية جريئة وشديدة الشكيمة، وهي أيضا كانت تخاف في سرها.

قالت حەپسەخان بهمة:

– وي على ان تكون روناك بجانبي بدلا من هاتين الامرأتين المكيجتين، ماتت امها اخاف، ان تخاف، فتخجل ان تقول شيئا.

مدت حەپسەخان يدها ولمست ذراع بنتها روناك وقالت:

– حبذا كنا معا، وعرفت صبرية بأن امها تخاف ولها حق في ذلك، لهذا وبهدوء وبأبتسامة ضحكت قليلا وقالت:

– امي العزيزة، السنا وانتن وابي وعمي والآخرين معا وقد جلسنا امامكن وقريبات جدا؟!

قالت حەپسەخان بملالة..

– والله تصدقين، لكني كنت راغبة ان تكون معي على الأقل روناك بدلا من هاتين الامرأتين.

قالت هذه وقد تحركت الطائرة وانطلقت بسرعة، وقد ارتفع رأسها فجأة ثم طارت نحو السماء.

هجمت أمه خان على كتف اختها وقالت:

– يا فخر العالم مدد، ماذا تفعلين لي اختي حەپسەخان، وكانت اختها تقرأ آية الكرسي بقلب خافق، ولكن أي قراءة لا ربط بين كلماتها وبلسان متلجلج كانت تبدأ من هذا الطرف وذلك الطرف وتذهب إلى ذلك الطرف وكانت تقدم وتؤخر كل الاية تماما وكانت تهز راسها معها لاختها كان تقول لها لا ضير فلا تخافي. فأنا أقرأ الدعاء وانت انظري إلى كل هؤلاء الناس، كيف انهم لا يخافون وفرحون، وكانت تقول في سرها وهي تقرأ الدعاء:

– كيف لا يخافون، والله هم أيضا يخافون الآن ولكن ربما هم لا يظهرون خوفهم ويخجلون.

ادارت حەپسەخان عينيها فيما حولها، وقالت مرة اخرى في قلبها:

– والله قد يخاف هؤلاء الرجال الضخام في قلوبهم، من المحتمل انهم ركبوا الطائرة مرارا وتكرارا، ولكن بالنسبة لنا فهو لاول مرة فمن حقنا ان نخاف، كانت الطائرة تتحلق أكثر فأكثر، وأخيرا غدت بنايات المدينة التي كانت تحتها، كانها علب الشخاط والسيارت خنافس فأخذت تشق السماء باتجاه مستقيم،

وقد رن الجرس الصغير مرة اخرى، فانطفأت الكتابات هذه المرة وبدأ الناس فك الاحزمة، قام البعض وتوجهوا نحو المرافق الصحية وذهبن باطفالهن وعدن.

فك بەختيار حزامه بسرعة فجأء إلى عند امه وعمته بوجه بشوش حي يشبه على الاكثر الاشفاق عليهن، وكانه مسرور وقال:

– انتهى بامكانكم الان التنقل نحو المغاسل وقضاء الحاجة، فرحت حەپسەخان بتلك الاقوال، التفتت إلى ابن اختها بەختيار قائلة:

– والله يا ابني كنا شبه ميت، حيث ان اختي دفعة واحدة.

كان بەختيار الذي واقفا عندهما ضحك بهدوء وقال:

– تعلق قلبي بكن كثيرا، ولكن لم يكن ممكنا ان ينهض احد في ذلك الوقت ويفتح الاحزمة، والا لو كان بامكاني كنت آتي اليكن، ولو اننا جالسون من ورائكن، التفتت آمه خان إلى ابنها بەختيار، وقالت بهدوء:

– يا ترى ماذا كان يقول تۆفه، لا أسمع منه حسا ولا حسيسا:!!

قرب بەختيار رأسه من عمته وقال:

– والله منذ الوقت الذي ركبنا فيه الطيارة جعل نفسه نائما، فانك تعلمين يكاد يجن من أثر كاكه عي والآخرين.

اخذت نەسرين وصبرية ونەوبەهار الأطفال إلى المرافق الصحية، وبعد ان عدن ذهبت الاخريات.

خرجت آمه خان من المرافق الصحية وهي تدمدم قائلة:

– ابتاه لقد انغلق علي الباب، وقد فتحته بشق النفس، اوشكت ان افزع.

بدأ كلا الحاجيين يدندن، وهما أيضا استغربا، وكانت كل المشاهد تتراءى لهما غريبة جدا، وحاشدة كثيرا خاصة حين كانا يريان انفسهما كيف انهما في هذه السماء العالية يمران على كل تلك الجبال والبراري والصحاري، بعد فترة قربت حەپسەخان راسها من المقاعد الامامية التي قعدت عليها بناتها وكناتها، لمست ذراع ابنتها صبرية بفرح وقالت:

– بنتي كأن الامرأتين من جانبنا ذهبتا ولن تعودا بعد، وكما اتصور ذهبتا لتجلسا في مكان آخر؟

قالت صبرية:

– انتظري الآن، ربما ذهبتا إلى المرافق الصحية، أو مكان التدخين، فتعودان الآن.

قالت حەپسەخان:

– يا بنتي لقد ذهبتا منذ مدة، وانا هكذا تصورت في البداية، لكن لا اعتقد انهما تعودان، لانهما اخذتا حقيبتهما معهما.

ضحكت حەپسەخان بهدوء والتفتت إلى اختها وقالت:

– انهما مئة في المئة هربتا من دمدمتنا ودندنتنا، حيث انك خفت وهجمت على ذراعي، لقد رأيت انهما تبادلتا النظرات، وقد دندنتا بهدوء.

قالت آمه خان:

– انه أحسن، ونحن أيضا ماكنا نتحملهما ان العجوزة ما ان جلست حتى وان بدأت حالا بصبغ شفتيها وتكحيل حاجبيها وعينيها، ولم تكن مرأتها الصغيرة تقع من يدها.

قالت حەپسەخان:

– انا وانت كنا في ذلك الوقت يغمى علينا خوفا. انهت حەپسەخان وقالت:

– كل شيء يكون بتعود،هن تعودن هكذا، لاويل لنا فما ذلك؟ يقولون ان تلك البلدان على درجة من التسيب واللاابالية فان دهان الوجه، والكحل والمكحلة وأمثال تلك الاشياء إقامة صلاة قياسا إلى أشيائها الاخرى,

لم يدم الوقت طويلا انشغلت المضيفات وبدأن بجلب العربة وصواني الاكل وتوزيع الشاي والقهوة والعصير والكوكا على المسافرين، كذلك للبعض صب قدح من الويسكي والشراب والبيرة.

وما ان وضع امام آمه خان الا وأن قالت حالا:

– اواه فداكم روحي، ما هذا الاكل، ان هذا اللحم يشبه لحم الخنزير، والله لا آكله حتى وان مت من الجوع. كادت ان تنفجر اختها ولكن تمالكت نفسها وقالت:

– اختي متى يعتبر هذا لحم الخنزير، انه لحم الدجاج!

أو لا ترين جناحها، وما ان أتوا حتى وان ذهب بەختيار وافهم المضيفات باننا مسلمون، لا نأكل اللحم الحرام, اكملت حەپسەخان كلامها وادارت عينيها فيما حولها وقالت:

– الا ان كل هؤلاء الايرانيين مثلنا، كيف يأكلون شيئا مثل ذلك، جاء بەختيار اليهن وانحنى واشار إلى المأكولات وقال:

– كلن الدجاج والخبز دون خوف، كله اكل طيب وحلال.

عاد به بەختيار إلى مكانه، هو أيضا اخذ يأكل. قالت حەپسەخان اثناء ما كانت تأكل:

– اختي، ما ادق وانظف من وضعهم الاشياء وكيف لفوها جيمعا هكذا بشكل جميل، فرك توّفه عينيه وأيقظ نفسه حين سمع صرير الصواني وموضوع الشاي والقهوة، وهو أيضا استلم صينيته وأخذ يأكل، وأي شخص من العائلة ان لم يكن قادرا على أكل شي، يلتفت إلى توّفه وبەختيار بان لا نقدر على اكل هذا، وكان بەختيار يأخذ منهم بهدوء ويضعه على صينية توّفه، إلى ان صارت الحالة ان يقول توّفه بقوة وبصوت ناعس:

– ماذا دهاؤم، ان لا يأكلوها، فليضعوها على صينيتهم ويتركوها، انه عيب وكفى فالجميع ينظرون الينا.

قالت حاجي مجيد إلى جانبه:

– اشهد بالله يصدق كاكه توّفه.

بعد ساعتين وصلت الطائرة إلى مدينة دمشق وهبطت.

– اشهد الجماعة بالله ونهضوا ونزلوا منها، وفي المطار دلوهم على صالة الترانسيت، وكان من المفترض الانتظار هناك ساعة ساعتين تحلقت العائلة فيما بينهم، وجلس الجميع ما عدا توّفه والذي قال:

– اذهب وانظر إلى هذا الدكان.

التفتت اليه صبرية وقال:

– الا يا كاكه توفيق العزيز ما هذا لم يكن لك في هذا السفر أي حس، فلماذا لا تتكلم كلاما، احن إلى غضباتك.

ولوا ان صبرية كانت تعرف ان توّفه منقبض القلب من تأثير الاولاد الذين ظلوا هناك، خاصة علي حيث كان توّفه يفديه بروحه، وقد تربى في طفولته على ظهره، والآن تركه مضطرا، ومع ذلك ارادت صبرية ان تحاكيه قليلا وتشارك عاطفته.كان توّفه ملولا محزونا جدا، اغرورق بلعومه بالبكاء، لذلك هز رأسه وابتعد دون ان يتكلم عن صبرية وآخرين.

مسحت روناك عينيها وقالت:

– يالله بس لا يكون موتهم، فنحن نسلمهم إلى أمان الله وعونه، ان شاء الله كله لفة عمامة، تأتينا البشرى الآن، فلن تبقى الدنيا هكذا إلى الابد، والله ان يرفعوا الان الاصبع ويقولوا سنعود إلى الجبل ونستأنف الكفاح، اعرف كيف يلتحق بهم مئات من الكورد المخلصين القوميين.

قالت حەپسەخان بملالة:

– اواه لا ويل لنا، كل سنة نقول يا ليتنا بالعام الماضي، لقد ذهبت حياتنا الآن سدى، كلها كانت آها وافا وخفقان ودموعا، فكنا حتى بذلك شاكرين، مهما كان كنا في وطننا او كنا بين اهلنا وأقاربنا ومواطنينا، وكنا نرى اولادنا، ولكن ماذا نفعل الآن، فها اكثر من ساعتين ونصف نطير في السماء، ولا يزال يقولون سنصل إلى تلك البلاد التي نذهب اليها بخمس ست ساعات اخرى، فماذا نفعل الآن وكيف نعيش في هذا المكان البعيد؟!

تنهدت حەپسەخان وقالت بصوت مختنق:

– نحن الآن نذهب ونرتاح هناك، ونرغب فيها وقالت وهي تمسح دموعها:

– ليكن ذلك فرحي واستراحة موتي دون وجودكم ابنائي الاعزاء.

عجز وارتبك بەختيار لان البنات ايضا أنتابهن الحزن والالم، وانهمرت الدموع على خدودهن.

كادت آمه خان ان تغص بالبكاء.

انتفض كاكه حاجي بلهفة وقال:

– امتلكن الشجاعة، وتحلين بشيء من الصبر والغيرة، فانكن مسلمات تؤمن بالله وبالشعب، وكان علي ان ابكي الآن، لو كانوا هم أيضا بجانبي كلاجئين

مهمومين ملولين جالسين في حضورنا لا حول لهم ولا قوة، ولكن والشكر لله لنا الامل، ونحن فخورن بهم، وحين تمر مدة تسمعن فجأة اخبار سارة ان شاء الله.

لقد تحمس كاكه حاجي، وانحبست الدموع في عينيه المغضنتين الملولتين وقال بايمان عظيم:

– لماذا؟ يجب ان تفرحوا، فالشكر لله تنبعث ثورتنا الآن، فالرأس الذي لا يكون بين الرؤس جدير بالذبح، لذلك لا أرضى بأي شكل ان تظهرن انفكسن هكذا جبانات ومنهارات دون ارادة ومعنوية.

التفت اليه بەختيار عاجزا كمن يتوسل قائلا:

– يصدق أبي وعمي، لا تربكن انفسكن إلى هذا الحد، اها ان الذين من قربنا يتصورون لماذا انتن تذرفن الدموع.

وقال بلهفة:

يا الله قلن ترغبن في أي شيء، لكي اذهب وأتي به لكن، التفت إلى البنات وقال:

– انهضن لتأت معي واحدة اثنتان منكن، ترغبن في أي شيء.

قالت صبرية:

والله قبل كل شيء اذا تأتي لكل واحدة منا بقدح من الشاي سنكون ممتنيات لك، اظن ان كل واحدة منا تشعر بالصداع.

قال بەختيار بسرعة:

– طيب على عيني سأذهب حالا واتي بها لكم بس لا تقلقن ولا تزعجن انفسكن:

بعد ذهاب بەختيار قال حاجي مجيد بصوت خافت متقطع:

– ارحمن هذا الولد المسكين، انتن بامكانكن البكاء وتنفيس الهموم من قلوبكن، فهو لا يتمكن بالعكس يجب ان يضحك في وجوهكن، او تعرفن انتن ان هذا الولد يعيش في أي حالة، ولو لم يكن لاجلنا فلماذا كان يأتي، وهو أيضا كان يبقى هناك، لقد جاء معنا بالحاح من علي والاولاد، عليه، لاداعي من اظهار انفسكن عاجزات ومهمومات مرضاة له، عدن قليلا إلى الهدوء والحالة الطبيعية، فلن يصيبنا الا ماقدر الله لنا.

وصل بەختيار وتوّفه بصينية من اقداح الشاي إلى الجماعة، وضع الشاي امام كل واحد مع بعض اللفات الخفيفة السفرية لأكلها مع الشاي، نظر اليهن بەختيار وخفض صوته ثانية:

– لا تنسوا، اذا ما وصلنا إلى السويد، يجب ان تكون جيمع اقوالنا متطابقة، حين سألونا لماذا اتيتم لكي لا ننسى تلك الاقوال التي تدبرناها، ولا نكذب، ولكن لا يجوز ان يتكلم كل واحد منا نوعا من الكلام، لانهم يسألون واحدا واحدا منا، على حدة بشكل منفرد، يجب ان ننتبه لذلك، قال الجميع جيد، فكرروا كلامه، قال توّفه اثناء ارتشافه الشاي:

– طيب كيف نفهم نحن لغتهم؟ اذا ماسألونا.

قال بەختيار كشخص عارف:

– اخي العزيز انهم يعرفون بانك لا تجيد لغتهم لذلك يأتون بالمترجمين لكم، فيها كورد أخرون او عرب.

هز بەختيار راسه وقال:

– مهما يكن يأتون بشخص قادر على ان يفهمنا، وكذلك نصح بەختيار توّفه وقال:

لا يجوز ان نكون في تلك الاماكن عصبيين، يجب ان نلوذ بالصبر والتحمل، ونرضى بالساعات والايام، التي فيها المشاكل، هنا اوربا، ومن العيب ان يرفع الإنسان عقيرته، وان يكون غاضبا وشريرا.

قال توّفه بشبه غضب:

– رفع الصوت عيب ولكن التجول عاريا ليس عيبا،

اخذ الجميع بالهمهمة والدمدمة وعلقت صبرية بابتسامة قائلة:

من اخبرك بهذه البرقية؟

قال توّفه:

– تذهبون الآن وترونهم، حكي لي في طهران شخص بان عائلة اخيه أيضا ذاهبون إلى هناك للجوء، ردت عليه صبرية قائلة:

– وما شأننا بهم، كل واحد له اطواره وعاداته واعرافه، انها بلادهم،فهم احرار فيما يفعلون، ولا يقولون لنا افعلوا كما نحن نفعل.

نظر توّفه بطرف عينيه شذرا إلى صبرية رغم ما كان محزون الفؤاد فقال:

اذا لم تعلق (ارسطو) لا يمكن.

ضحك جميع افراد العائلة بكلام توّفه.

وضعت العشيرة في السويد في مطار ستوكهولم مدة أيام تحت المراقبة والسؤال والاستفسار لانهم كانوا عائلة، وكان سيماؤهم في وجوههم، فبان عليهم الصدق والبراءة والنزاهة، خاصة كلا الحاجيين، لذلك لم يؤذوهم ولم يتعبوهم كثيرا، وبعد يومين ثلاثة، اخرجوهم من المطار وركبوهم السيارة وارسلوهم إلى مخيم اللاجئين، ولكونهم عائلة كثيرة الافراد، لم يدم طويلا منحوهم دارا فاخرة في مكان قريب من ستوكهولم، وكذلك اعطوهم المصاريف.

ركنت العائلة إلى الراحة قليلا، وفكوا امتعتهم وانصرفوا إلى السكن والاستقرار، وكانت احاديثهم تنصب بشكل اساس على الايام التي كانوا في المطار حيث كانوا كالاسرى والمسجونين، فكل واحد منهم كان يروي وضعه الخاص، ماذا فعل، وكم اوجس الخوف،والآخر كم قضم وقرض شفته غضبا بسبب الحالة التي حدثت لهم.

وفرد آخر كيف أوشك ان يتذمر ويصرخ ويقول:

ياجماعة خاطر الله لا نريدها، اعيدونا إلى المكان الذي جئنا منه لا يحتاج كل هذا السؤال والمشكلة، والتحقيق، لقد طلعت ارواحنا، فلسنا قتلة وقطاع الطرق ومحتالين ونصابين، ولقد وقفنا بين ايديكم، كل ما اردتم، وجهتم أي سؤال وضحنا لكم للمرة العاشرة، وقد استأصلنا لكم أصل ونسب واروما ابائنا واجدادنا، وكان من بينهم ايضا يبكي دائما وكان يقول:

– وا ويلاه لماذا فعلنا بأنفسنا هكذا، فها انهم ينظرون الينا كاسرى وقطاع الطرق واوغاد، ويقولون هذا بالاخرين على مايظن انهم راعونا وتساهلوا معنا، والا يبقون الناس اكثر من ذلك.

***

بعد شهور اخذت العائلة تتعود على مكانها وموقع سكناها، وكانوا يقولون للشباب يجب عليكم ان تذهبوا لتعلم اللغة السويدية ولو قالوا لحەپسەخان واختها ولكلا الحاجيين، ولكن لم يذهبوا قالت آمه خان:

– أي والله لا ينقصني غير هذا، ان أذهب إلى المدرسة في أواخر عمري، والله لن تدخلها قدمي، ليس لي دماغ تعلم الشيء، فلا اجعل من نفسي مثار سخرية الأطفال الصغار.

كانت اختها حەپسەخان مترددة كانت تقول لاذهب ولم لا؟ انها فرصة لاذهب مادمت هنا لاتعلم شيئا، ومرة اخرى كانت تقهقه بالضحك وتقول لنفسها:

– أي والله لم يبق لنا غير ذلك، والله يا اختي فلا اذهب ولا اتمكن، ليذهب الأطفال ويتعلموا، ويستفيدوا منها ونحن في البيت نهتم بالصغار ونشرف على البيت.

كثيرا ما كانت حەپسەخان واختها وكلا الحاجيين يجلسون وكانوا يتحدثون عن ما حدث لهم حيث كانوا يضحكون على انفسهم كان حاجي مجيد واخوه يذهبان مرات عديدة للتمشي وقد طابت لهما تلك المنطقة كثيرا في السويد، حيث كان مكانهم خاصة مكانا نظيفا وواسعا، فيه الاشجار الخضراء والزهور والورود والتلال والحصى والماء، لذلك كان قلباهما ينشرحان كثيرا ويبتهجان بالمناظر الجذابة الخلابة، حيث كانت تستعيد إلى انظارهما المناظر الجميلة لكوردستان، ولو انه دائما مع الخبز والماء وانفاس كوردستان الفاتنة، وبكل تلك العذوبة، وكل تلك المعوقات والعقبات والاحداث المفجعة التي لم تكن تفارق بدقائق عن خيالهم الهاديء، كانوا يجلسون في كثير من المرات فتلهج السنتهم بمدح واطراء السويد ودولتها، ومدى تمتع شعبهابالحرية والانطلاق دون قيد وحاجز او مانع في تنقلاتهم أو يقول لهم احد لماذا تفعلون هكذا وتقولون هكذا، بعكس حكومة وشاه ايران والساواك، كان لابد من الاستئذان حتى ولو كان للذهاب إلى السوق، وكان جهاز الساواك هناك جاثما على صدور الناس كصخرة ضخمة ثقيلة، كانت تخمد انفاسهم، وكذلك احتاروا من حرية هذه البلاد وهذه المساواة، وكانوا يشعرون بها ويرونها بأم عيونهم كيف يتراصف بهدوء وسكون ابن الملك وابن العامل، اذا ما طلبوا في دكان شيئا يجب ان يكون بالتسلسل، واذا ما جاء ابن العامل قبله، لكي يعطى له اول مرة الشيء.

كان بەختيار والبنات متعلمين وفاهمين يجلسون معا ويتناقشون هذا الموضوع وهذه الحرية، ويقارنون مع ظلم وطغيان الحكم الدكتاتوري وحكومات

بغداد وحكومة شاه ايران من حيث اذا وقف احد ابناء تلك الحكومات المتخلفة والظالمة المصاصة للدماء في الصف او ابن احد من مرتزقتهم، ولا يعطى له قبل الجميع او لا يقدم، سيزج صاحب الدكان والناس الواقفين تماما حالا في السجن ويضيعون بلا أثر.

لقد انزعج تؤفه مدة طويلة، وبعد ذلك تعود خاصة عندما حل الربيع، وكانت البراري تبهج القلوب، وكان تؤفة يدمدم ويبدي استياء من الشتاء دائما ويقول:

– تعالى يا ربي،كما شردتنا، فليكن نصيبنا بعض الفرح والفرج، ان هذه المدينة كأنها مدينة ميتة، كلها غرقى في الثلوج، لا ترى احد في الطرقات والشوارع، واذا رأيت احدا منهم يتضايق قلبك اكثر لانه، اما انه عجوز او انه سكران، يترنح ويتمايل يمنه ويسرة، أو انه شاب مقطب الوجه، كانه حجر او ماكنة يسير في الطريق الا فلتدمر بيوتكم، لا ضحكة ولا صرخة ولا صياح ولا بسمة تندى على الشفاه، فانا اجن في هذه المدينة ولا اتحمل.

ولكن حينما آل الجو إلى الصفاء والصحو، وذابت الثلوج، واقبل الربيع وزينت تلك التلال والسهول والبراري بالازهار والورود واللون الاخضر، تمكن تؤفة ان يتجول ويذهب إلى السوق والى هذا الطرف وذلك الطرف، خاصة حينما ذهب إلى المدرسة، هكذا طابت له الاجواء وعاد إلى طبعه، وسرعان ما زال اكتئابه.

في الوقت الذي كانت عائلتا حاجي مجيد، واخيه كاكه حاجي في السويد، في هم حزن وانزعاج وفي طريقهم نحو التعود على حياتهم الجديدة، كان ابناؤهم قد توجهوا إلى جبال كوردستان الشماء بشكل سرى للغاية وعبر طرقات محفوفة بالاخطار والمخاوف، مع رفاقهم، فكانوا منهمكين مجددا بتشكيل هيئة اشعال وادارة الثورة الجديدة، وكان المئات من المناضلين أبناء كوردستان المخلصين يلتحقون بهم، انطلاقا من ابناء المدن إلى الكورد المشتتين في خارج الوطن.

لكن لم يكن ذلك العمل عملا سهلا ميسورا، لان الذين احيوا الثورة وكانوا يتعرضون من جهات عديدة إلى الهجوم القاتل للقضاء عليهم، اولا من قبل حكومة بغداد التي كانت تريد بأسرع وقت ممكن وبشدة ان تشن الهجوم عليهم وابادتهم، ولكن لحسن الحظ لم تكن اماكنهم ومواقعهم معروفة، وكانوا دائما في

تنقل من هذا المكان إلى ذلك المكان، ولكن علاوة على تلك المشقات والمتاعب وقطع الطريق، ومع كل عدم وجود المكان الثابت وتردي الوضع المعيشي، والجوع والافتقار إلى المعدات لكن الابناء المناضلين ومخلصي الكورد وكوردستان كانوا اقوى واقدر.

فبعد الليالي العاصفة بالهم والحزن والالم والمخاطر والسهر والانتظار إلى الاكل تمكن الابناء والابطال المتفانون ان يصبحوا تدريجيا قوة كبيرة جدا ومنظمة ويتوزعوا في العديد من مناطق وأرياف كوردستان الحبيبة، وينهمكوا على اقامة المراكز والقواعد وتقوية فصائل الپێشمەرگە، كل هذا بدعم واسناد ابناء شعب كوردستان المخلصين، حيث كانوا يؤازرون ويساعدون تلك القوة المكونة حديثا بكل ما كانوا يتملكون بشكل سري، وابدوا الاخلاص والتعاطف معهم.

***

بعد ذرف الدموع وخيبة امل كثيرة، تلقت حەپسەخان واختها الخبر عن ابنائهما، حيث انهم والشكر لله في صحة وسلامة، اذ انهم اصبحوا مرة اخرى قوة متماسكة متراصة جدا، انهم الآن في حركة ونشاط، وحققوا نجاحا كبيرا، في مهامهم، ولم يدم الوقت طويلا، فجاءتهم رسالة، وكانت العائلة كقطعة ارض خضراء شاحبة ذابلة شبه ميتة دون حياة ودون ماء، يابسة، ثم انفتح لها منفذ ساقية ماء مملوءة بالخصب والبركة، وانتعش الجميع دفعة واحدة، فدبت فيهم الحياة، وعلت معنوياتهم وتعززت ارادتهم، فأخذوا يشعرون بالنكهة السعيدة للحياة، ان دموع الفرح والابتهاج وانتصار احبائهم انعشت هذه المرة خدودهم وبددت منها الهم والصعوبة والحزن.

واخيرا ولو كانت تأتيهم الرسالة مرة واحدة في مدة وكانت تؤخذ إلى مكان فيه صندوق البريد منه كانت ترسل لهم، وهم أيضا عن طريق الناس المخلصين المتنقلين يرسلون لهم الرسائل، وكانوا يطلعونهم على حالهم واحوالهم.

كانت العائلة تنفتح، خاصة عندما علموا بان، اوضاع ابنائهم تجرى نحو التحسن الجيد، حيث يمتكلون الآن المكان والمواقع، وفي تلك المدة تمكنت عائلة والد بيستون حيث كانوا باقين في ايران بمدينة اورمية العودة كجميع افراد

العائلة ومواشيهم إلى الوطن، بأن يسكنوا في احدى القرى القريبة من المراكز عند ابنهم بيستون ويعيشوا بسعادة ورفعة، وان يساعد حسب الامكانية الابناء.

كانت العائلة تنقسم على قسمين ثلاثة بنقل تلك الاخبار.

كان هذا يقول ليتنا كنا صابرين، ورضينا بالخضوع تحت هيمنة ساواك وتلك الشقاوة، فكنا نذهب الآن إلى وطننا وعند اولادنا، لماذا فعلنا هكذا بأنفسنا، والآخر كان يقول والآن لم يفت اوانه، ولم يسجن هنا احد، ليكن وضعنا ان شاء الله احسن، فنحن ايضا نعود، فماذا نفعل هنا كان شخص آخر يقول:

– يا جماعة انتظروا الآن، ان المساكين لازالوا اصبح احدهم طوقا في عنق الآخر، او تدرون ماذا ذاقوا إلى الآن، والله هم وحدهم تمكنوا ان يصمدوا ويتحملوا في هذه الظروف المملوء بالمخاطر والمخاوف، ولا يذعنوا ويقاوموا ويستبسلوا، بعد ان كان بەختيار يطمئن من وضع رفاقه، التفت إلى والده والآخرين مبتسما وقال:

– لم يطاوعني قلبي ان اقول لكم، كنت اقول لاسمح الله يجنون دفعةواحدة، وتهيمون على وجوهكم في الجبال، او انتم تعرفون بأي حال ومشقة وبأي موقف ومن كم جهة عليهم، وكيف كان اعداؤهم مكبين على التأمر والمخادعة ونصب الكمائن لهم، ولهذا اتناولها الآن لانهم شكرا لله لقد انتصروا على جيمع مؤامراتهم القذرة، والآن انتظروا، اشكروا الله دائما، وابتهلوا من الله لهم، ولم يحن بعد ان تفكروا في العودة، لان طريق العودة شاق جدا، لا نتمكن ان نذهب عن طريق ايران ولا من تركيا، ثمة فرصة مملوءة بالمخاطر على حدود سوريا، وهو انهم ينتظرون دائما سنوح تلك الفرصة، كان بەختيار يتكلم ويحكي في الخفاء بسبب والدته والآخرين لصبرية، اذ كيف ان سبعة شبان شجعانين جدا، ومناضلين وصلوا من جهة سوريا إلى الحدود بالف مشقة وجهد جهيد، فقد تصدى لهم البعض واستشهدوهم حالا، وكذلك تحدث بسرية بالغة عن واقعة وقعت في تلك الايام، وهي ان اثنين ثلاثة من الاصدقاء المناضلين يأتون إلى تلك المنطقة، على مايظن كان احدهم مريضا جدا لعله يتمكن ان يعبر نحو سوريا ويأتي معه هؤلاء الاصدقاء الثلاثة لتوديعه، ولكن يصادفون ثانية هؤلاء

الاشخاص ويمنعون عنهم الطريق، يحكون معهم خداعا، ثم يستشهدون هؤلاء الاصدقاء بشكل وحشي جدا، هؤلاء الابطال الذين ادخلوا الخوف والهلع مرارا في قلوب جيوش الحكومة العراقية.

ان الابناء المخلصين الذين توجهوا إلى الجبل في البداية الاولى للثورة، كانوا شجعانين ودائما في الصف الامامي ببطون خاوية دون ظهير ونصير، كانوا يتحدون بصدورهم، الرصاص والمدافع والدبابات، في حين ان الذين فعلوا بهم هكذا، كانوا يخفون انفهسم اثناء مجيء الطائرة والقتال من سبع حفر وخلف سبعة جبال، كانوا يتحصنون خوفا ووجلا.

***

فرح توّفه، فعاد إلى ما كان عليه، وبدأ بالنفخ والتباهي ونقل اخبار الجيران والعوائل الكوردية التي كانت هناك لقد تعلم خلال تلك السنة والشهور قليلا من السويدية، ولو انه كان اثناء الكلام سرعان ما كان ينسى،ويخرس تماما حيث يخلط الكوردية والعربية والفارسية معا، ثم كان يتذكر ها، فيعاتب نفسه، ويقول اها والله انا اعرف لماذا نسيت.

كان الفصل صيفا، ولم يكن توّفه يمتلك متسعا من المجال او ان يضرب راسه ويقول لماذا يتجولون في هذه المدينة عراة إلى هذا الحد، لان الجو دبت فيه الحرارة قليلا، واذا كانت بلادهم مثل بلادنا حارة، ماذا كانوا يفعلون بانفهسم في الصيف؟!

في احد الايام خرج تؤفة من البيت صباحا، وعاد عند الظهيرة إلى البيت، واصبحت كل عين له اربع عيون لفرط ما احتار وانذهل، لقد ذهبت الجميع لاستقباله، يا ترى ماذا حدث، واستلقت روناك على ظهرها من أثر الضحك وقالت:

– والله ان كاكه تؤفة يحمل شيئا، بالله لنعرف ما هو، جلس تؤفة منذهلا، ومسح وجهه بمنديله وقال:

– ماذا احكي لكم، والله ياجماعة اخجل، الح عليه الجميع وقالوا له لابد ان تتكلم!!

خفض توّفه رأسه وقال باسما:

– حين خرجت صباحا، قلت لاذهب اليوم إلى ذلك النهر، يقولون ان الناس يذهبون إلى هناك للسباحة، اطلق قهقهة وضرب رأسه الاصلع الاقرع، لان رأسه كان اصلع، وكان يرتدي ملابس الافندية ضرب توّفه رأسه مرة اخرى وقال:

– وي يا ابتاه، واواه ماذا رأيت اليوم، هز توّفه يده وقال:

– يا جماعة حين ذهبت رأيت ان هؤلاء الناس عرضوا اجسامهم للشمس كالمواشي، ضرب توّفه رأسه مرة اخرى وقال:

عرض الجميع انفسهم للشمس بشكل عار مرتدين لباسا قصيرة وبعض النساء كن عاريات تماما، وقبر كاكه احمد الشيخ كما ولدت كانوا هكذا، اخذ الجميع يضحكون، فاستلقت آمه خان على ظهرها، طفرت الدموع من عيني حەپسەخان لفرط الضحك، وقد كركرت البنات في الضحك، والتفتت كل واحدة منهن إلى جهة، واخذ كلا الحاجيين يضحك، قال احدهما كيف وقال الآخر معاذ الله، قال هذا:

– كيف تسمح الحكومة ذلك، والآخر اخذ يضحك مقهقها وقال:

– بيدو ان حريتهم شملت ذلك، عليه ضحك الجميع مدة مناسبة بذلك وقال توَفة:

– اذا لا تصدقون تعالوا لاخذكم غدا، وتفرجوا لتعرفوا ان كلامي صحيح او لا؟!

مسحت آمه خان عينيها من الدموع وقالت ضاحكة:

– اواه اين ذهب بەختيار؟ خرج منذ الصباح ولم يعد لحد الآن، وقد قال انه يعود بعد ساعتين ضحكت آمه خان وقالت:

– لا يجوز انه ذهب إلى النهر؟! بدأ الجميع ضاحكين كرة اخرى.

علقت حەپسەخان وقالت:

– روحي فداه، لا تقولي ذلك، انه ليس من هذا النوع؟!

ضحك توّفه وقال:

– لماذا ليس من هذا النوع، انه شاب مراهق، وان كل تلك البنات والنساء العاريات السائبات قد عرضن انفسهن للشمس امام اعين وانظار الناس، انها سينما مجانا لامثالنا.

وضع توّفه سيجارة بين شفتيه وانشغل باشعالها، وقال بفمه المغلق:

– ماذا تقلن انتن، بالله ان البنات والنساء هنا يتحرشن بالرجال، ربما كون بهختيار الان العلاقة مع اثنتين ثلاث.

مص توّفه مصة جيدة من سيجارته واثناء اخراجه الدخان من فمه قال:

– ان حسن آيشه خان الذي جاء إلى هنا منذ مدة، رأيته ذلك اليوم ومعه فتاة، قلت مبروك زوجت هذه المرأة، وقال أي زوجة، فهي تعيش معي هكذا، برفاقة.

مص توّفه مصة اخرى من سيجارته وقال...

– انكن مثل اخواتي وبناتي، يقولون يعيشون هنا معا مثل الزوجين ثم يقولون كنا رفيقين هكذا، انفصل احدنا عن الآخر.

قالت آمه خان في سرها:

– ويل لأبي، من أين حصل كل هذه الاخبار، لقد كانت ايران وطهران فها اضيفت اليها السويد، لا حيلة لنا الا وان نهرب ونتخلص من يدي توّفه.

قهقهت نهسرين ضاحكة وقالت:

– وانت الم تكون علاقة مع احداهن؟!

قال توّفه باسما:

– ايه لقد تحرشت بي عدة نساء ولكن لم اردها.

قالت حهپسهخان اثناء ضحكتها:

– طيب ان اللاتي تحرشن بك، كيف يمكن معرفة اعمارهن، اكن على قدر من الشيب والكبر؟

نظر اليها توّفه بطرف عينيه شذرا وقال...

– لماذا، لا والله فيهن ايضا شابات، ولكن كيف افعل انا ذلك.

غص توّفه بلعومه وقال:

– ان علي والجماعة تحت رحمة القصف، وانا اذهب اتغازل مع بنات ونساء السويديات، لم يتمكن ان يكمل كلامه، لان شفتيه اهتزتا، وتفاطرت حالا دمعة على خده.

لقد خيم السكون والحزن في الجميع، اجهشت البعض بالبكاء.

قبل الظهر حيث كانت روناك ونەسرين ونەوبەهار وصبرية يأخذن اطفالهن الصغار إلى ذالك السهل المريح الكائن أمام بيتهن للتمشي، كان الأطفال يؤخذون في النهار إلى المدرسة، وفي المساء كن يذهبن للرجوع بهم إلى البيت، لقد تعلم الأطفال تدريجيا اللغة السويدية، وتعودوا على مدرستهم، احيانا كانت حەپسەخان وآمه خان تذهبان في أثرهم وتعيدانهم إلى البيت. لم تكن المدرسة بعيدة عن بيتهم.

ذات يوم حيث كانت البنات اخذن ثانية اطفالهن الصغار للتجول، والتمشي في التلال والارض الخضراء وما حول بيتهن، وحين عدن ذات مساء بوجه مشرق وشفاه باسمة، نادت روناك من على عتبة الباب امها وعمتها والاخرين وبفم ضاحك وقالت..

– أي شعر، عما تتحدثن، بالله شيء غريب، بالله اذا لم تقرأيه لنا بسرعة.

قالت توّفه:

– لم يكن البيان يكفي واصبحت شاعرة والله اذن لابد أن نهرب جميعا، فهي تأكلنا تماما.

وصلت صبرية اليهن وبدأت تضحك وقالت:..

– يا جماعة أي شعر وأي حال، لقد كتبت شيئا اعتياديا لمجرد الضحك، لنضحك نحن أيضا شيئا من الضحك...

كان حاجي من هواة الشعر كثيرا، وكان هو أيضا له مقطوعات شعرية، ولو انه كان يكتبهابنفسه، لكن عائلته ورفاقه كانوا يعرفون بأن له باعا في هذا الصدد، حيث كانت قصائده تنبع من قلب منقبض مهموم، يحمل قارء ها على البكاء، وقد قال معظمها لكوردستان.

اضطرت صبرية نزولا عن هجوم طلب الجماعة ان تجلس، لمست جعبتها في عربة ابنها واخرجت دفترا وقالت...

– والله يا جماعة لقد كتبتها للضحك فقط في ذلك السهل، وهم أثاروا تلك الضجة.

بدأت صبرية بقراءتها وقالت:

اوربا اوربا كلها مدح وثناء
كلابهم قيمون عجائزهم منفردون
الاخلاق والخصال بفلس واحد بالمزاد
حين يحل المسا تبدد تفسد الدنيا
فالشباب والبنات في مخبأ الجدار
في الشاحنة وفي القطار
ثملاث سكارى واصرختاه
لا تذكر العبرة ابدا
ان الذي عنقه محض عرق
هو فقط عرف الديك
وردي وازرق غامق
يوجد مثل هتلر
حلاقة حتى القفا
ذراعه خطوط ونياشين
حذاوه حتى الركبة والفخذ
ما عدا الهيبي الوسخ
الذي حرام عنده غسل اليد
زعما ان الدنيا لا تسوى
ان يتفاخر بها الناس
شكرا لله بأنه اربعة فصول
يتخدر الرأس والقحف
والا بذات الله
كانوا يذهبون عراة
إلى بيت الام حواء

ضحك جيمع الجماعة مقهقهين قال هو:
- اشهد بالله قلت كلاما صحيحا

وقال آخر:

سلمت يداك كيف انفتحت قريحتك هكذا، حقا لقد كتبت شيئا جميلا، واذا كنت انت تعرفين ذلك فلماذا لا تحاولين محاولات شعرية اخرى.

ضرب والدها حاجي مجيد يدا بيد وضحك ضحكة خفيفة وقال:

– اظن ان كل هذا التشرد يحملها ان تصبح شاعرة، بديني نظمت القصيدة بشكل جميل.

ضحك توّفه من أعماق قلبه، ثم اقترب من صبرية مسد ظهرها وقال:

– قولوا ان كل الامور تليق فقط بارسطو، فلا يطلقون عليها مزاحا ارسطو.

في ذلك الوقت وصل بەختيار إلى البيت، وهو أيضا اختلط في الضحك وصراخ وضجة القصيدة لصبرية بعد ان هدأ توّفه وعاد الي سجيته التفت إلى بەختيار وقال له باسما:...

ماذا، تتأخر هذه الايام كثيرا، فبماذا تنشغل؟

ضحك بەختيار وقال:

– لا تخف، انشغل بأي شيء، لست منشغلا بالذهاب إلى حيث النهر.

ضحك الجميع ثانية.

قال بەختيار اثناء ما كان ينهض قائما:

– ان لم اكن خارجا، فمن أين أتي بكل تلك الاخبار السارة من الاصدقاء.

انتفضت عمته حەپسەخان وقالت..

– أواه فداك روحي، الله يسلمك بأن تذهب إلى الخارج وتحمل لنا تلك الاخبار السارة.

نظر بەختيار بوجه مشرق إلى والده وعمه والاخريات الذين كانوا جالسين في هذه الصالة الكبيرة الواسعة متحلقين وقال:

– شكرا لله عندي كلام مفرح حول الاصدقاء، انتفض الجميع بسرعة ولهفة وقالوا:

لماذا لا تتكلم، اواه كنا نريد من الله تلميحا واشارة لخبر، في حين ما أبطأ.

ضحك بەختيار وقال:

– لماذا او فسحتم لى المجال ان افتح فمي حيث اثناء صرخة وضحكة شعر باجي صبرية، فماذا بقي في ذهني.

استعجل جميع الجالسين ان يقول لهم الكلام، هجم عليه كل واحد من مكانه دون ان ينتظروا ويصبر وقال..

– يا الله اسرع ما كلامك؟ لمس بەختيار مبتسما جيبه واخرج رسالة وقال...

– الشكر لله اخذوا يصدرون البيانات، جحظت عيون الجميع واصبحوا كالاصنام وصمتوا.

بدأ بەختيار بقراءة الرسالة وقال:

– في أي موقع نفذ پێشمەرگه فرع گەرميان عملية وقد ورد فيها ايضا عدد الجنود الذين وقعوا في الاسر، وكذلك احراق سيارتين، وعادوا إلى مواقعهم منتصرين دون خسائر.

وكذلك في أي موقع آخر، ماذا فعلوا، ونفذوا اعمالا سرية خطيرة، وهم أيضا عادوا إلى مواقعهم. وكلما كان بەختيار يصل إلى المكان الذي ورد في الرسالة، بان الپێشمەرگه الابطال عادوا سالمين ودون خسائر إلى مواقعهم، كانت الجماعة يقفزون ويبدؤون بالتصفيق واستخدام عبارات الفداء وتقديم الروح وقراءة الدعاء ومسح الدموع والبكاء، وكان من بينهم يبدأون بالمعانقة، ان هذه الاخبار السارة التي كانت تنشر مرة واحدة في الشهر وبين حين وآخر. كانت العوائل تنتعش بذلك ويبعثون احياء ويتعززون قوة واردة، ولولا صعوبة مخاطر الطرقات حيث كان الخصوم واعداء هؤلاء الثوريين الابطال الذين كانوا يريدون تطويقهم وكل قسم بهدف ما، لكي كل ما يمتلكون من القدرة والقوة ان يعملوا للحيلولة دون توسيع قدراتهم وتقليص نشاطاتهم، ولكن كان وصول اخبارهم المفرحة المضيئة، كانت جميع الاطراف تنبعث فيهم الآمال والاماني. حين كانت حەپسەخان تسمع خبرا سارا عن الابناء والرفاق، تضرب يدا بيد كانت ترفع رأسها نحو السماء بوجه مشرق والبسمة على الشفتين وتقول:

– اواه يا ربي الكريم، روحي فداء لقستمك، الى متى تستمر هذه الحالة هكذا، لقد اصبحنا جدى هياس الصالح، اواه ياربي في سبيل عظمتك ادر فلكك

وانقذ اعزاءنا ومواطنينا الاحبة من هذا التشرد، ليحصل هذا الكورد شيئا ويرتاح قليلا.

كانت كنتها نەسرين تردد لها وتقول:

– ربي الكريم، والله ان الذين جعلتهم رجالا اصحاب الدولة وجعلت لهم شهرة وأصحاب السفارات، لا اقول لاشكر فيه، ان أي واحد من هؤلاء لا يبلغون مستوى شهامة ومروءة وشجاعة الكورد، فماذا نقول، كان قبل سنوات، بدلا من ان يشربوا مياه الانهار والشلالات وعيون في كوردستان العذبة الرقراقة، كانوا يشربون المياه المملؤة بالديدان والضفادع والجراد، ان هؤلاء أصبحوا الآن اغنى البلدان، ويقعسون صدورهم قبل جميع البلدان، وهم في المقدمة وتتملق لهم أكبر دول العالم من أجل نفطهم بينما الكورد يعاني الظلم والاستبداد والاحتلال، ولايقر له ابسط حق مشروع، فأي ضمير ووجدان هذا يا ترى؟!

علقت هناك آمه خان وقالت:

– اواه بنتي استغفرالله، لاتبدئي بالكفر ثانية يا بنتي، أن الله صابر لكنه جابر.

اجابت صبرية من الطرف الاخر عمتها وقالت...

– فداه روحي جبره، متى يستخدم هذا الجبر، كان والدها حاجي مجيد يتكلم ويقول:

– الله كريم، على المرء ان يتوكل على الله دائما، سوف ترى كيف يستخدم ان شاء الله جبره، ولكن لا يصبر الإنسان، انهى حاجي كلامه بحرارة وقال...

– بعون الله وبهمة وسواعد ابناء كوردستان الصامدين لابد ان يصل حبيب الكورد (اشارة إلى قصيدة الاستاذ الاديب المبدع السياسي القائد البارز ابرهيم احمد– شيرين بهاره، أي حبيبتي انه ربيع) .

إلى حقوقه المسلوبة المغتصبة، لان رغم كل هذه الظروف الشاقة المريرة القاتلة، انه مصر على كفاحه و لايتوانى، لذلك ليست ثمة قوة ان تقاومه وتمنعه وتحيده عن درب النضال.

علق اخوه كاكه حاجي بجانبه ببسمة حلولة وقال ان اخي يصدق ما يقول، كما يقول شعر عربي.

قاطعته آمه خان وقالت:

– ماذا يعنيني الشعر العربي، وما ادرانا فماذا يقول. كان كاكه حاجي والذي كان يرغب في الشعر، وكان يجيد الكتابة والقراءة العربيتين، لذلك صمت قليلا والتفقت إلى زوجته آمه خان وقال:

فها اترجم لكم ذلك الشعر إلى الكوردية، لكي تفهمي انك وزوجة اخي وكاكه توّفه، يقول الشاعر:

اذا الشـــعب يومـــا أراد الحيـــاة
فلابـــــد ان يســـــتجيب القـــــدر
ولابـــــد لليـــــل ان ينجلـــــي
ولابـــــد للقيـــــد ان ينكســـــر

اي اذا اراد الشعب ان يعيش يوما بسعادة ويتوسم من الابناء العاطفة، عندئذ يقول القدر، اجل ان كلامك صحيح، والليل يزول وتشرق الشمس دفعة واحدة، والقيود والاغلال تتكسر وتتقطع.

ضحك كاكه حاجي بهدوء وقال:

– بيدو ان ترجمة القصيدة ليست طبق الاصل لذلك لكن معناها يشبه ذلك.

لذلك لابد ان تتوكلوا على الله والشعب

قال حاجي بابتسامة حلوة:

– ماذا يريدون بعد فها ان اخي كاكه حاجي، اخذ يترجم الشعر.

– تنهد كاكه حاجي وهو قال مبتسما:

– يبدو ان هذا التشرد يجعل منا جميعا شعراء.

انفجرت صبرية بالضحك وقالت...

– أ لم يكن انا ايضا كتبت لكم ذلك اليوم الشعر، وضحكتم ملء قلوبكم، فماذا تريدون بعد...

الخاتمة

النتاجات المنشورة للكاتبة

١- رواية الام والابن، مترجمة من قبل الكاتبة الى العربية
٢- رواية كنة آته خان، مترجمة من قبل الكاتبة الى العربية
٣- رواية الربيع والجنبذة
٤- رواية العالم غابة، ترجمة صلاح الدين المدرس
٥- رواية عابرة سبيل هائمة، ترجمة عبدالكريم الشيخاني
٦- رواية الخادمة مترجمة من قبل جلال زتكابادي
٧- رواية على جناح الرخ
٨- رواية رحلة كردستان
٩- اوراق من السيرة الذاتية بالعربية
١٠- اسطورة ذروة بين التلال، قصص فولكلورية مترجمة من قبل جلال زنكابادي
١١- ثلاث قصص للفتيان مترجمة من قبل جلال زنكابادي
١٢- الارتباط الاداري، قصص للكاتب عزيز نسين، ترجمة من الفارسية
١٣- نحو كهف الشجعان، رواية الجزء الاول
١٤- نحو كهف الشجعان، رواية الجزء الثاني
١٥- نحو كهف الشجعان، رواية الجزء الثالث
١٦- مذكراتي التي لا انساها ابدا، الجزء الاول

النتاجات غير المطبوعة

١- انهيار الجدران بين المياه
٢- مذكراتي التي لا انساها ابدا، الجزء الثاني

المترجم في سطور

- كمال حسين احمد غمبار
- ولد عام ١٩٣٧ في مدينة كويه
- اصبح عام ١٩٦١ عضوا في اتحاد الادباء العراقيين.
- تخرج عام ١٩٦٢ من كلية التربية – جامعة بغداد- قسم اللغه العربيه وادابها.
- القى محاضرات في الادب والنقد بجامعتي بغداد وصلاح الدين/ القسم الكردي.
- اشرف على رسائل واطروحات جامعية لغويا.
- تولى رئاسة تحرير عدد من الصحف والمجلات الصادرة باللغتين العربية والكردية.
- اشرف لغويا ست سنوات على جريدة الوقائع العراقية.
- عضو نقابة صحفيي العراق وعضو الهيئة التأسيسية لاتحاد الادباء الكرد والهيئة التاسيسية لنقابة صحفيي كردستان، وعضو رابطة النقاد العراقيين، وعضو الهيئة التأسيسية لمنظمة حقوق الانسان في كوردستان .
- رئيس اتحاد الادباء الكرد فرع اربيل سابقا.
- شارك في تاليف وترجمة (١٠) كتب مدرسية باللغتين العربية والكردية.
- ترجم (١٢) كتابا من العربية الى الكردية و(٩) كتب من الكردية الى العربية.
- الف (٣) كتب باللغة الكردية (٤) باللغة العربية.
- نشر عشرات الدراسات النقدية باللغتين الكردية والعربية.
- منح جوائز تقديرية وعينية لنشاطاته الثقافية المتنوعة.
- راجع وقدم لعدد من النتاجات الادبية.
- كان عضو لجنة المصطلحات في المجمع العلمي الكردستاني والان عضو في لجنة طبع الكتب وعضو مؤازر في الاكاديمية الكردية.
- مستشار تربوي متقاعد في مجلس وزراء اقليم كردستان.
- سكرتير مجلس السلم والتضامن – فرع اربيل.
- نال شهادة الماجستير في الادب والنقدالعربيين عن(عبد الله كوران رائدا لحركة تجديد الشعر الكوردي) عام ٢٠٠٨حالياً طالب دكتوراه ينتظر مناقشة أطروحته الدكتوراه الموسومة (أحمد سالار رائداً للمسرح الكردي المعاصر)